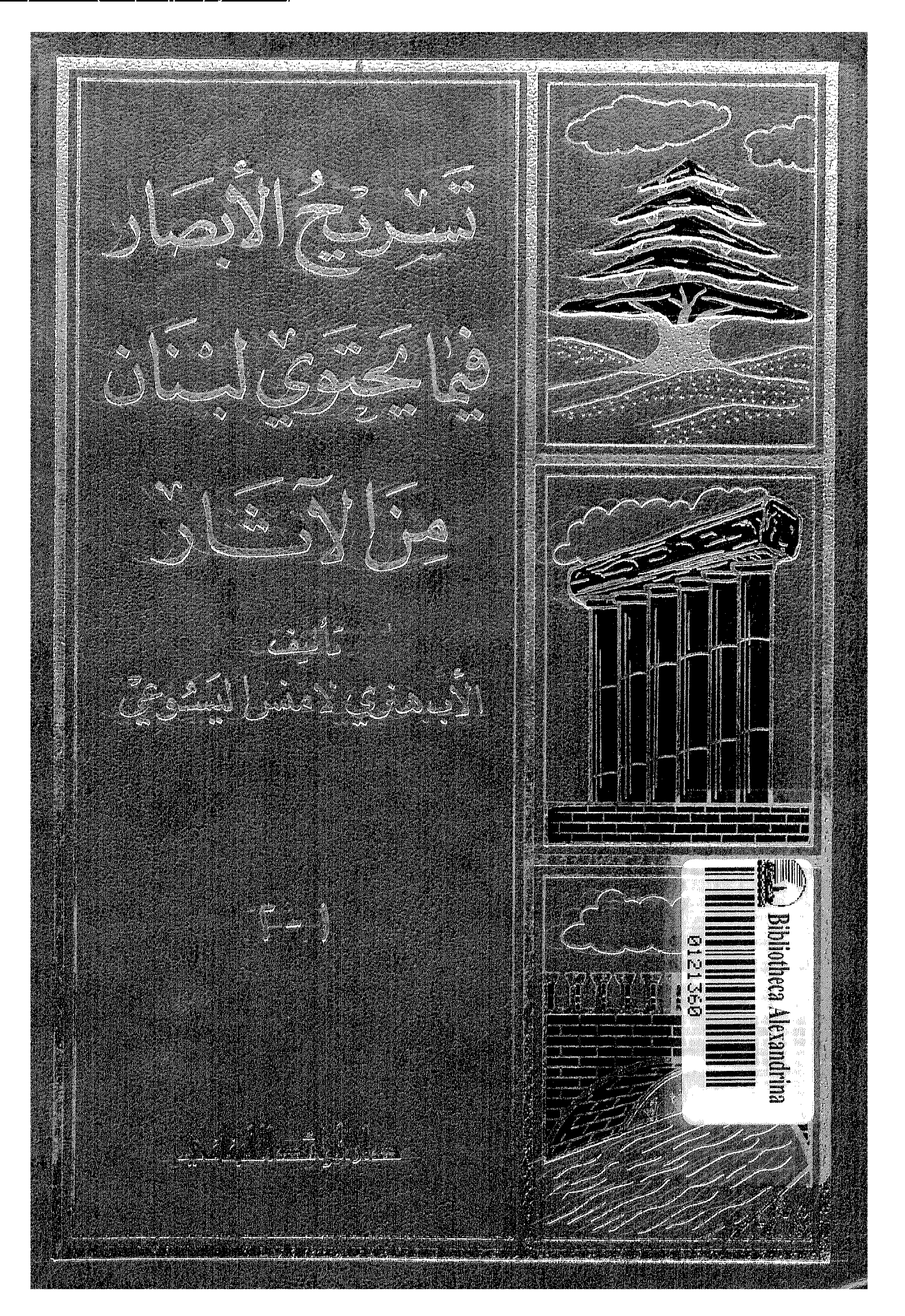

تسريح الأبصار
فيما يحتوي لبنان
من الآثار
تأليف
الأب هنري لامنس اليسوعي
(١-٢)
Bibliotheca Alexandrina
0121360









تأليف

الأب هنري لامنس اليسوعي

الجزء الأول

في قسم لبنان الشمالي

نقلاً عن مجلة المشرق

دار الرائد اللبناني
الحازمية – لبنان
ص.ب. ٩٣

تمهيد

لبنان غني بآثاره التي تشتمل عليها مدنه وقراه ، ولكن معظم هذه الآثار مجهول من الكثرة الكاثرة من أبناء شعبنا ، وهو ما حدا بالمؤلف الأب هنري لامنس اليسوعي الى وضع مجموعة مقالات وأبحاث نشرها في مجلة « المشرق » بعنوان « تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار » ضمنها من الاخبار التاريخية والاوصاف الجغرافية ما يساعد على الكشف عن آثار لبنان وإلقاء الاضواء الساطعة عليها .

وقد رأت دار الرائد اللبناني انطلاقاً من مبدأ الاهتمام بتاريخ البلاد ومآثر الاجداد أن تقدم الى الأجيال الجديدة هذه المقالات مرة ثانية منشورة في كتاب يحمل العنوان نفسه الذي نشرت المقالات في مجلة « المشرق » به ، ليطلعوا من خلالها على ما مر على مسقط رأسهم من أمم وشعوب مختلفة تركت بصماتها الحضارية في كل مكان منه ، ولتزودهم بقسط من المعرفة يندر أن يقعوا على مثله ، لا سيما وأن المؤلف الى جانب حديثه عن الرسوم والآثار فهو يهتم بالكلام على الأنهار والسواحل والوديان والاغوار والاحوال الجوية والحيوانات المفقودة والمعادن والسكان ومدى انتشارهم فيه واللغات التي كانوا يتكلمون بها .

من البديهي أن لا تشمل هذه البحوث والدراسات ، وقد وضعت مطلع هذا القرن ، ما اكتشف من آثار بعدها ، الا انها والحق يقال قامت بدور مهم وبارز هو أنها حفظت كثيرا من الرسوم والآثار التي درست بعد نشرها ، وكان لها فضل الابقاء على أخبار هذه الآثار وتعريفنا بها وانقاذها من النسيان والغياب في بطون التاريخ والازمنة ، ومن هنا ميزتها . وهذا هو الذي دفع بنا الى أن نبادر الى نشرها لتكون اسهاماً في المكتبة التاريخية اللبنانية وتعريفاً للأجيال اللاحقة بما فعلته الأجيال السابقة .

الناشر

الفصل الاوَّل

قسم لبنان الواقع في شمالي بيروت

اذا ما خرج المسافر من بيروت سائرًا نحو الشرق اوَّل ما يلقاهُ في طريقهِ نهر بيروت . وهو مجرى ماء ربما اضحى في الشتاء سيلًا جارفًا . واكثر الكتَّاب المحدثين يرتأون انهُ هو النهر الذي دعاهُ بلينيوس الطبيعيّ نهر ماغوراس وانهُ كان من انهار الفينيقيين المقدَّسة دعوه بذلك اشتقاقًا من اسم الاله ماقار وهو اسم زُحل بلغتهم (١ وقد عارض هؤلاء الكتبة غيرُهم فانكروا ان نهر بيروت هو نهر ماغوراس المذكور (٢ واحتجُّوا لذلك بحجج لا يسعنا هنا بسطها

واذا اجتزتَ النهر وجدتَ في طريقك اوعلى مقربة من الطريق قرًى ومزارع نظنُّها حديثة العهد اللهمَّ الَّا سنّ الفيل التي ورد ذكرها في تآليف الصليبيين مصفَّحةً بسِنِسْفيل (Senesfil) (٣ . ثمَّ تقطع سهلًا مستطيلًا على سيف البحر يؤدي بك الى نهر انطلياس الذي بجواره موقع القرية المدعوَّة بهِ

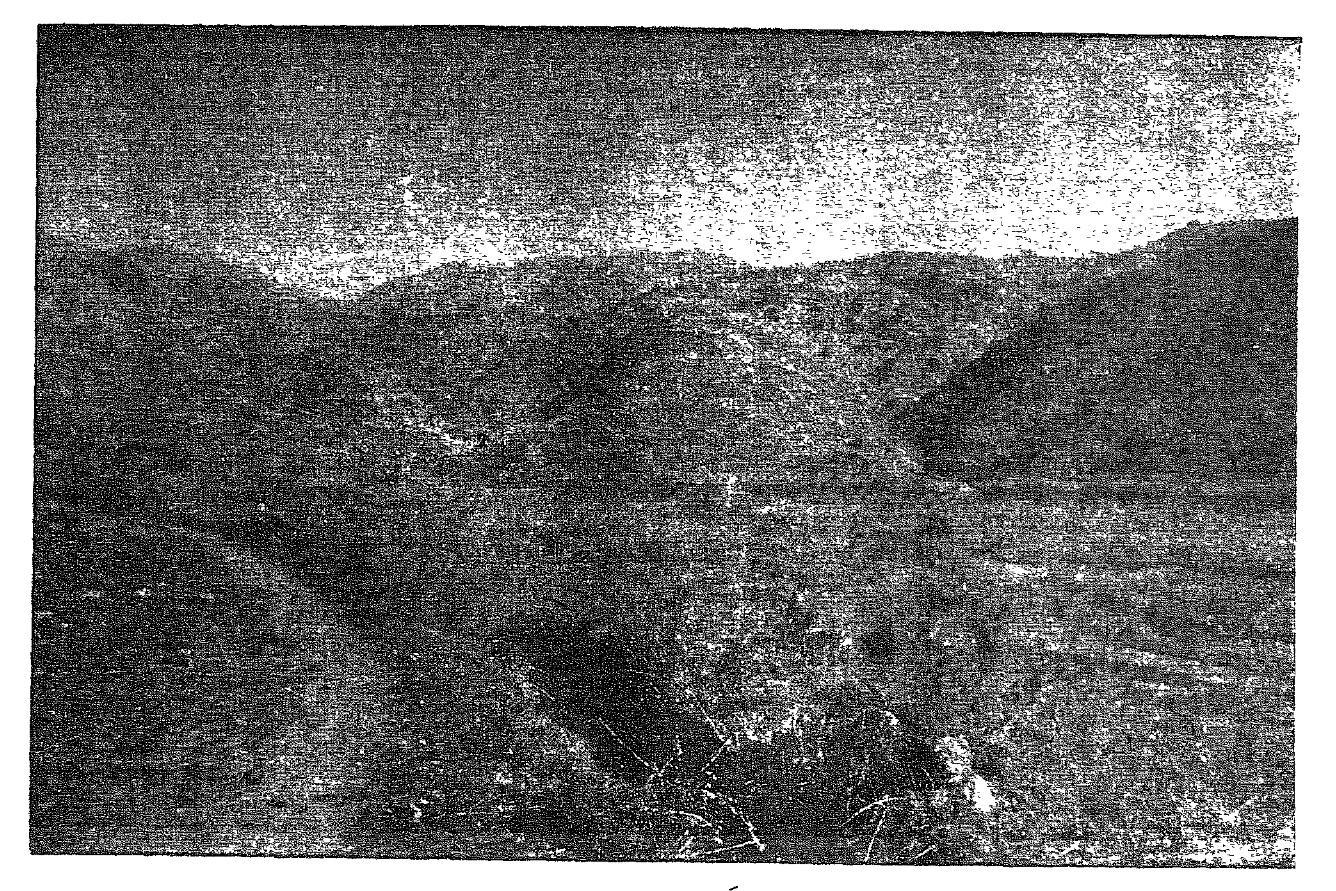
واسم انطلياس كما لا يخفى معرَّب وقد تضاربت في اصلهِ الآراء فمن العلماء من زعم انهُ نُسب الى النبيّ الياس واهل القرية يعظّمون هذا القديس ويكرّمونهُ ايَّ اكرام ويقدّمون لكنيستهِ المشيّدة في قريتهم النذور ويأنفون ان يحلفوا باسمهِ واذا حلفوا كرهوا الحنث بايمانهم فقيل ان الضيعة دُعيت لذلك باسم هذا النبيّ . الَّا ان في هذا التفسير شبهةً لانهُ لا يبيّن معنى اوَّل لفظة « انطلياس » ولم يحاول بعدُ احدٌ شرحها . وجاء في تقليد اهل لبنان ان انطلياس دعيت باسم بعض المشاهير او المعبودات ولم يمكنَّا تحقيق ذلك

ولعلَّ انطلياس مشتقَّة من الكلمة اليونانية (ἀνθήλιος) اي موازٍ للشمس لان انطلياس تقابل المغرب بينما تواجهُ بيروت جهة الشمال . وهذا الشرح لا يتجاوز حدَّ

(١ راجع تاريخ الفينيقيين Movers : *Phœnizier*, I, 262 et 666,

(٢ راجع مجلّة العاديّات Revue Archéologique, 1878, I, 13, *Note* 1,

(٣ راجع Rey : *Colonies franques* p. 524,



جوار محطّة انطلياس – المغارة والنبع



الحدس والرجحان · وعلى كل حال انّ انطلياس قرية قديمة العهد يشهد بقدمها ما وجدهُ علماء العاديَّات من الآثار الجليلة كعواميد ذوات حجر واحد من الرُّخام المحبَّب ونواويس وبقايا بنايات قديمة · فلا شكَّ ان العمد يدلُّ ان ثمَّت كان هيكل للعبادة كما ان النواويس المكتشفة تشهد بوجود مدفن قديم وبقايا الابنية تبيّن وجود القرية القديمة سواء تدعى بانطلياس او باسم آخر مفقود

وموقع انطلياس حسَنٌ جدًّا لا بدَّ انهُ استلفت منذ قديم الزمان انظار الاهلين فسكنوه وعمَّروه ولا نظنّ انّ قرَّاءنا نسوا ما كتبهُ في اعداد المشرق (١ : ١٠٤) حضرة الاب زُموفن بخصوص محطَّة انطلياس القديمة وما وُجد فيها من الآثار التي تقدَّمت عهد التاريخ · والذي حمل الاقدمين على ايثار انطلياس وتفضيلها على ما سواها انَّما هو نهرها ذو الماء العذب الزلال الذي يولي البقعة المجاورة للضيعة نضارةً وخصباً

وكانت السكَّة الرومانية الواصلة بين نهر الكلب وبيروت تجدي سكَّان انطلياس منافع جمَّة فتسهّل لهم نقل كل خيرات المدينة ولا غروَ ان الرومان اقاموا هناك نُصُباً للدلالة على المسافة بين بيروت والقرية التي نحن بصددها وهي مسافة خمسة اميال اي نحو سبعة كيلومترات ونصف

فهذا جلُّ ما نعرفهُ الآن عن انطلياس · وقد زعم البعض ان هذه الضيعة هي مدينة لاوُنتوپوليس القديمة (١ وهو رأي واهن لا يمكن اثباتهُ ببرهان صحيح · والصواب انّ لاونتوپوليس كانت في جنوبي بيروت على طريق صيداء

٢ صربا وجونية

ثم تعبر نهر الكلب الذي كان يدعوهُ الاقدمون ليكوس ومعناهُ الذئب وتسير مدّةً فتصل الى ضيعةٍ موقعها شماليّ النهر تدعى صربا وهي منتصبة فوق الصخور المشرفة على خَور جونية · وهو شَرْم في البحر يُعدّ من احسن خلجان سوريَّة ولو اراد احدٌ ان يحوّلهُ الى مرسًى لتهيَّأ لهُ ذلك دون مشقّة · وليس في كل ساحل الشام من غزَّة الى الاسكندرونة ميناء طبيعيَّة سواه · وهو في جهتهِ الشمالية

(١ Revue Archéolog., 1872, I, 172

عميق الغور فلا بأس على السفن اذا ألقت هناك مراسيها لان هذه الجهة الشمالية آمن من الجهة الجنوبية التي قعرها رملٌ ٠ وخور جونية بمعزل عن الرياح الخطرة الشديدة الهبوب كريح الشمال وريح الجنوب والصبا ٠ ومع كل هذه الخصائص بقيت جونية قرية لا يُعبأ بها مدة اجيال طويلة ولا علّة لذلك سوى صعوبة الوصول اليها وانحصار اطرافها بين جبال عالية تُطلّ عليها شرقاً ومضيقَي نهر الكلب والعاملتين شمالًا وجنوباً ٠ وعليهِ لم يمكنها ان تنبسط في السهول المجاورة وتُوسّع نطاق ارباضها كغيرها من المدن مثل بيروت وطرابلس وصور وصيداء

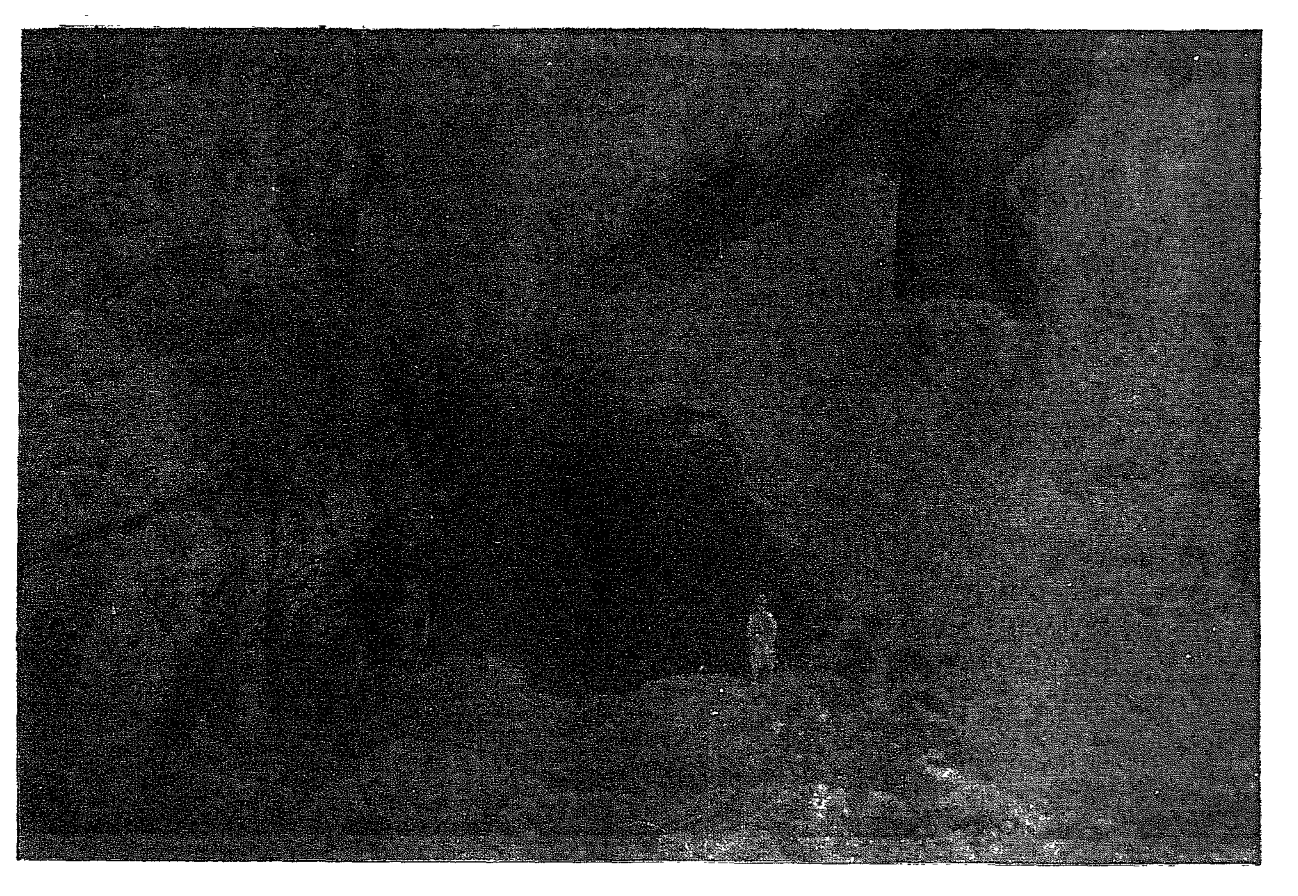
ورغماً عن هذه العوائق قد اخذت جونية منذ أمدٍ قريب تحفل بالسكّان وتزيد اتساعاً ٠ وقد نالت نصيباً كبيرًا من الحظ منذ أنشئت السكة الحديديّة على ساحل البحر الّا انّها تفتقر لترقى في معارج النجاح الى شيئين اعني الى مياه عذبة يجلبها اليها اهلها من احد الينابيع القريبة والى بعض تحسين سهل في مرفإها بأن يُجعل لهُ رصيف لنقل البضائع الى البرّ ونزول الركّاب وتعميق بعض اطراف الخليج ٠ فلو اخرج اهل جونية هذه المشروعات الى حيّز العمل اضحت بلدتهم من ابهج البلاد واشبه شيء مع صغرها بمرفإ نابولي المعدود من ابدع منازه الدنيا

هذا ما يختصّ بخور جونية امّا البلدة نفسها فقد اشتُقّ اسمها من خليجها فدُعيت بهِ جونية جوناً او خَوْرًا ٠ ولها ذكر في تواريخ القرون المتوسطة ٠ وكانت في ايام ياقوت الروميّ من اعمال طرابلس [١] ٠ وقال الادريسي [٢] وهو من كتبة القرن الثالث عشر: « انّ جونية حصن على البحر واهلهُ نصارى يعاقبة » ٠ وذكر لها في محلّ آخر كورةً [٣] وذلك مما يشير بنوع جليّ الى اهميتها ٠ وقد ورد ايضاً اسم جونية في تآليف الصليبيين وهم يدعونها جوينة (Juine) ٠ امّا قدماء الجغرافيين من اليونان والرومان فلم يرووا شيئاً عنها ولا عن صربا التي كانت تُعدّ من ارباضها متعلّقة بها ٠ ولذلك لم نرَ نحن ايضاً ان نفصلها عن بعضها

قال بلينيوس الطبيعيّ: « انّ بين نهر ليكوس (نهر الكلب) ونهر ادونيس

---

١) معجم البلدان (٢ : ١٦٠)
٢) راجع طبعة غلدمَيستر ص ١٧
٣) ص ٢١



مدخل مغارة انطلياس



(نهر ابرهيم) مكاناً يُدعى پاليبِبْلوس (Palæbyblos) » . وزاد عليهِ ايضاحاً اسطرابون الجغرافيّ قال: « اذا سرت من بِبْلوس (جبيل) جنوباً تلقى في طريقك اوَّلًا نهر ادونيس ثم جبل كليمَكس (ὄρος Κλίμαξ) ثم بعدها پاليبِبْلوس واخيراً نهر ليكوس » . فاذا اعتبرنا كلام اسطرابون لا نجد بين نهري الكلب وابرهيم سوى محلَّين احرزا لهما في الزمان القديم شهرةً بعدد سكَّانهما وهما « برجا » و « جونية صربا » . وما من موقع الاهما يحسن ان يكون مربطاً للسفن . وتعيين المرافئ كما لا يُخفى من شأنهِ ان يبين موقع المدن الفينيقية القديمة لحذق الفينيقيين بفنّ المِلَاحة وتفرُّغهم للتجارة (١

واول ما يفيدنا اسطرابون انَّ پاليبيلوس هذه في جنوبي جبل كليمَكس فاذا تحقَّقنا موقع هذا الجبل استدللنا ايضاً على مكان پاليبيلوس . ونظن ان الجبل المذكور هو الجبل المشرف على البحر في شمالي جونية بقرب العاملتين وهو عبارة عن صخور مرتفعة يمرّ في وسطها طريق الساحل . وتسمية اسطرابون لها بكليمكس موافق جدًّا لان كليمكس (Κλίμαξ) باليونانية معناه المُرتقى والدَّرج . وقد آثر بعض العلماء (٢ رأياً آخر في تعيين جبل كليمكس فقال انهُ هو الجبل المشرف على جونية الذي تعلوه قريتا حريصة وغسطا . ومـا فيهِ من المراقي الصعبة اشبهُ شيءٍ بدرج السلّم فدُعي لذلك كليمكس . وكلا الرأيين محتمَل فندع لقرّائنا ان يرجّحوا الواحد على الآخر . وبناءً على هذين الرأيين لا بدَّ من القول انَّ پاليبيلوس هي صربا لوقوعها في جنوبي جبل كليمكس

ولا غرو ان يكون موقع جونية وصربا استلفت منذ القدم انظار الفينيقيين وهم في حاجة الى نقل بضائعهم بحرًا . وعلاوةً على ذلك اننا نعلم ان اكثر المدن الفينيقيَّة كانت مبنية في سالف الزمان على نُشوز او على رؤوس تشرف على البحر كما ترى في جبيل وصيداء وبيروت وصور وهلمَّ جرًّا . فلا ريب اذن ان صربا

١) راجع مجلَّة المباحث (Études, 1861, p. 524) وفيها مقالة ذات شأن في آثار سوريَّة للاب بوركنو اليسوعيّ . الَّا اننا لا نوافق كاتبها في رأيهِ عن پاليبيلوس . وسيأتي ذكر هذا المبحث في معرض كلامنا عن برجا

٢) راجع مجلَّة العاديَّات Revue Archéolog., 1878, I, 3 et 15

وجونية اضحتا قديماً مقاماً للفينيقيين ومرفأ لسفنهم

وما وُجد في هذه السنين الاخيرة من الآثار القديمة بصربا يؤيد رأينا . الّا انّ البنايات الحديثة قد أفنت كثيرًا من تلك البقايا الجليلة التي وصفها السيّاح منذ بضع عشر سنين . ومن هذه الآثار مغارة يكرَّم فيها اليوم القديس جرجس ويظهر انها كانت سابقاً هيكلاً لعبدة الاصنام . ومنها القبر المعروف بقبر بنت الملك وهو مدفن قديم . ومنها ايضاً قبور ومعاصر قديمة الى غير ذلك من الاخربة الدارسة

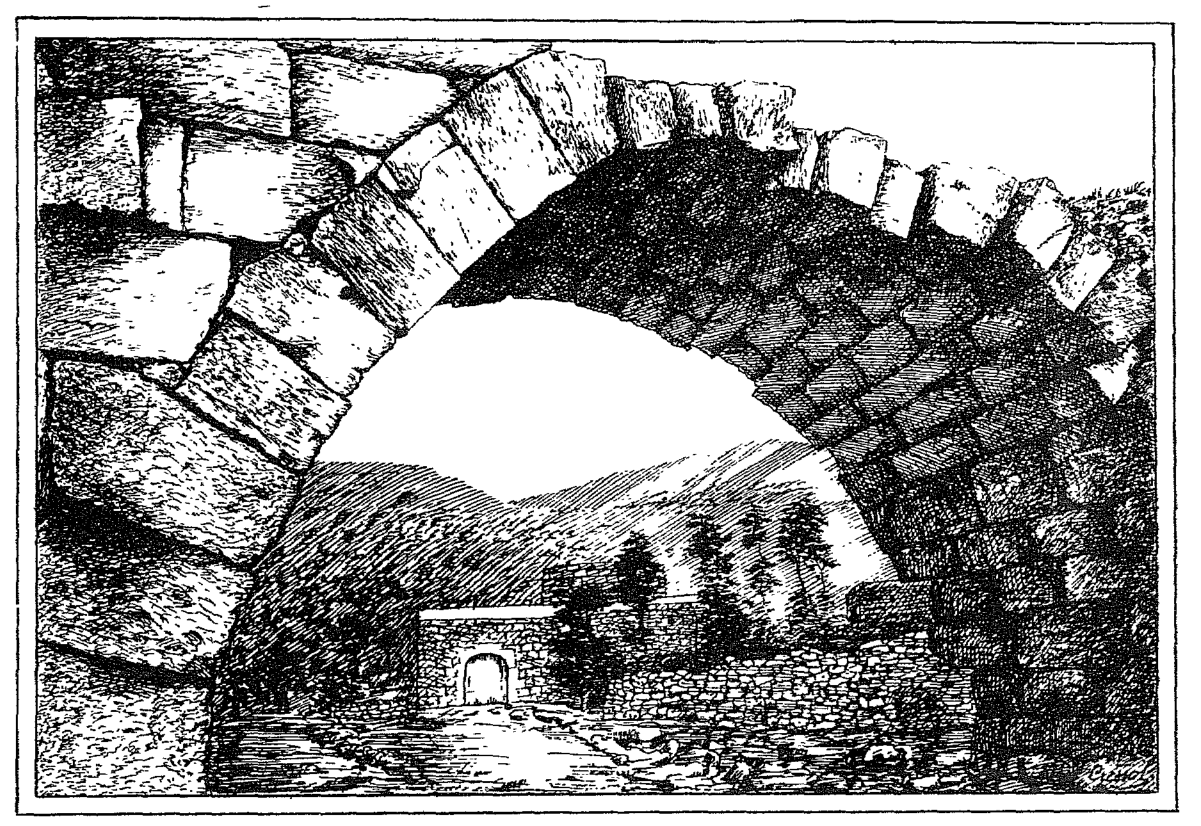
ولكن اعظم هذه الآثار قلعة صربا التي لم يبقَ منها غير قسمها الاسفل وهو عبارة عن حجارة ضخمة تشبه حجارة دير القلعة . وكان سابقاً بجوار تلك العمارة اعمدة ورؤُوس اعمدة وبقايا أُخر من هيكل قديم (١ لانّ هذه القلعة كانت معبداً للوثنيين ولعلّها كانت مخصَّصةً بعبادة سيرابيس . وقد اشتقّ الكاتب كولنّا شكّلدي (Ceccaldi) اسم صربا من اسم سيرابيس اله هذا الهيكل . وقد اكتُشِف ايضاً في صربا وجونية على مسكوكات فينيقيَّة وتماثيل وكتابات من جملتها كتابة يونانية في ركن بعض التماثيل كتب فيها (Ζεύς ἐπουράνιος) اي « المشتري السماوي »

فيظهر اذن مما تقدَّم انّ جونية وصربا شُيّدتا في موضع مدينة قديمة يرجَّح انها پاليبيلوس وكان مُعظَمها فوق الصخور في محلّ صربا وكانت جونية كمرفإٍ لها منذ ايّام الفينيقيين

٣ نهر الكلب

ان طريق جونية كما ذكرنا في مقالتنا السابقة يقطع نهرًا طالما ورد ذكرهُ في تاريخ سواحل فينيقية وهو نهر الكلب . وليست خطارة هذا النهر بعمق غَور مياههِ او طول مسافة سيلهِ لانّ اصلهُ كما لا يُخفى من مغارة في سفح جبل جعيتا تبعد عن البحر ستة اميال فقط وتختلط مياههُ عند خروجه بالمياه المنحدرة من اعالي لبنان من نبعَي اللبن والعسل فيجري من ثمَّ مرغياً مزبدًا حتى ينتهي الى البحر فيصبُّ فيهِ .

١) وقد نقل البنّاؤون كثيرًا من هذه الحجارة فاتخذوها للبنايات المستحدثة كما فعلوا في دير القلعة . وهذا امر لا شكّ يؤسف عليهِ فاذا داوم الاهلون على خُرقهم في تحطيم هذه الرسوم لم يبقوا عمَّا قليل في لبنان شيئًا من الآثار القديمة



جسر المعاملتين الروماني



وانما انهر الكلب شأن في تاريخ الفتوحات العظمى القديمة لانَّ عند مصبّهِ مضيقاً لا بدَّ من قطعهِ لمن حاول المرور في سواحل سوريّة ولذلك اضحى هذا المكان في كل الازمنة كمأزقٍ بهِ اصطلت نيران الحروب بين الملوك الفاتحين وسكان البلد المدافعين عن وطنهم

وقد قدَّمنا ان اسمهُ باليونانية « Λύκος » اي ذئب فعُرّب بنهر الكلب. ولكن أنّى لهُ هذه التسمية وما سبب هذا اللقب ؟ نجيب ان الاقاصيص الشائعة بين العامَّة تروي عن اصل هذا الاسم اموراً غريبة منها ان كلباً هائلاً كالغول كان يحرس هذا الممرّ الحرج فلا يدع احداً يجتاز ما لم يحلّ لهُ لغزاً يعرضهُ عليهِ . وهذه الرواية اشبه شيء بحكاية اليونان عن ابي الهول (Sphinx) الذي كان يفترس من لم يستطع الى فكّ احاجيهِ سبيلاً . ومنهم من زعم انَّ النهر دُعي كلباً لانَّ الوثنيين قديماً نصبوا هناك صنماً على هيئة كلبٍ يعبدونهُ ويدَّعون انَّهُ اذا وافاهم العدوّ ينبح الكلب فيحذّرهم من هجاتهِ . ويقولون انَّ بعض الصخور المجاورة للنهر تمثّل جسم هذا الصنم بيد انَّ رأسهُ قُطع فأُلقي في البحر. ولا نظنّ انَّ في هذه الاحاديث شيئاً من الصحّة لانَّ العلماء لم يقفوا بعد البحث على اثر للتمثال المذكور فضلاً عن ان الكتبة الاقدمين لم يذكروا شيئاً من امرهِ . والرأي الصواب عندنا انَّ النهر يُسمّى ذئباً او كلباً لصخابة صوتهِ عند انصبابهِ في البحر حيث تصطدم مياههُ بالامواج المتلاطمة فيُسمع لهُ دويٌّ عظيم (١ ويشبه هذه التسمية اسم الليطاني الذي دعاه القدماء نهر الاسد (Λέοντος πόταμος) فعُرّب بالليطاني وهو الذي يصبُّ في البحر بين صور وصيداء ويسمّى عند مصبّهِ نهر القاسميَّة

وبالقرب من النهر آثار الطريق الرومانية التي نُحتت في وسط الصخور المطلّة على النهر جنوباً وقيل ان مرقس اوريليوس انطونينوس الملك (٢ بين سنتَي ١٧٧ و ١٨٠

---

١) راجع Ritter : *Erdkunde, XVII*, 92 ولهذا المؤلف تفسير آخر لا حاجة لذكرهِ هنا

٢) قد وهم الشيخ طنّوس الشدياق في اخبار الاعيان في جبل لبنان (ص ١٦) اذ نسب هذا المشروع الى انطونيانس قيصر في سنة ١٤٧ والصواب كما ذكرنا. والشاهد على ذلك كتابتان عند مضيق نهر الكلب يُذكر في الاولى تمهيدهُ للطريق

وثّر هذه الطريق ووسّعها فدعاها باسمهِ « Via Antoniniana »

امّا الجسر فكان سبقهُ الى بنائهِ انطيوخوس الاوّل المعروف بسوتير ملك سوريَّة في سنة ٢٥٠ قبل المسيح ثمّ هُدم وأُصلح مرارًا (١ . والمعبر الذي يُعرف اليوم بالجسر القديم هو الذي اقامهُ السلطان سليم خان الاوّل فاتح الشام كما يُستدلّ على ذلك بكتابة عربيَّة رُقمت في عهده ثمّ جدَّد بناءه امير لبنان الشهير بشير الشهابيّ الكبير . وقيل ان الجسر الباقي هو جسر ثانٍ نصبهُ الامير بشير بقرب الجسر الاوّل بعد هبوطهِ (٢

ومن الاخربة القديمة ما تراهُ على الضفَّة الشمالية من الآثار وهي بقايا قناةٍ عظيمة كان الرومان بنوها لنقل المياه الى السهول الواقعة بين نهر الكلب وجونية وقد اتخذها اصحاب الارزاق في ايامنا لجلب الماء الى طواحينهم

هذا على انَّ في جوار نهر الكلب آثارًا غير المذكورة آنفًا لها في تاريخ فينيقية اعظمُ شأن . ومن غريب الامور ان كثيرين من الكتبة الى اواسط هذا العصر انكروا وجود هذه العاديات (٣ مع انها مكشوفة للعيان يراها كل ابناء السبيل . وانما يعود الشرف لاثبات وجودها وبيان اهمّيتها للمرسل الشهير الاب مكسيميليان ريلُّو اليسوعي (٤ . فنقل رسومها بكلّ دقَّة وبعثها لعلماء اوربة ليجدُّوا في شرحها

وهذه الكتابات او الآثار القديمة عبارةٌ عن خمسة عشر اثرًا اربعة منها خطوط اشوريَّة بالقلم المسماريّ وُجدت سنة ١٨٨٢ تحت القناة الرومانية فوق الحضيض باثني عشر مترًا على مقربة الجسر الجديد بميلةٍ قليلة الى الشرق . لكنّ هذه الكتابات مطموسة لم يُستخلص بعدُ منها فائدةٌ تُذكر

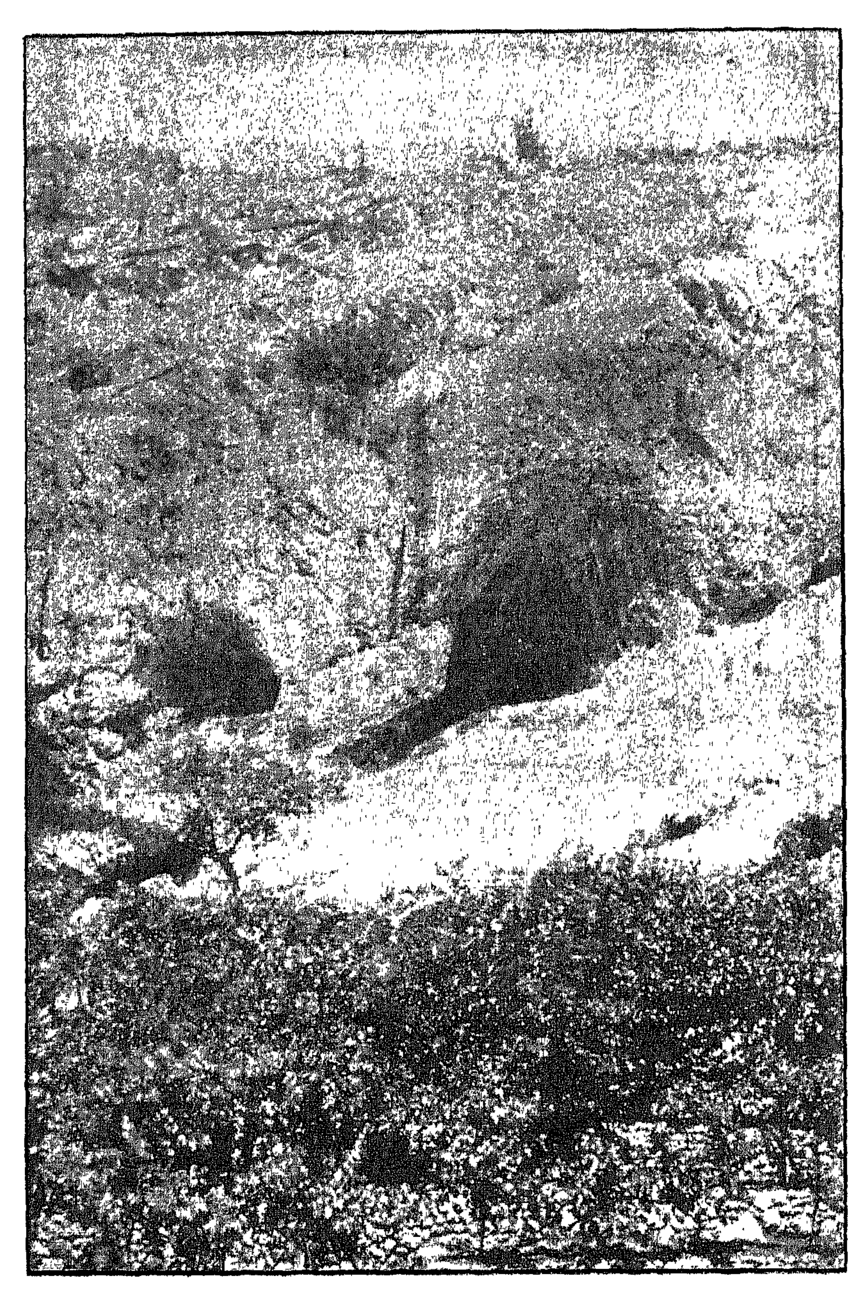
---

١) ومن جملة من اصلحوا هذا الجسر سيف الدين ابن الحاج ارقطاي المنصوري سنة ١٢٩٢

٢) راجع اخبار الاعيان ص ١٧

٣) لو جمعنا كلّ ما كُتب في هذا الخصوص للمدافعة عن وجود كتابات نهر الكلب او انكار ذلك لحصل من هذا المجموع كتاب ضخم الحجم (راجع مجلّة العاديات سنة ١٨٦١ ص ٦٩) وما يزيدنا عجبًا ان العلّامة دي سوسي الكاتب الشهير لم يقتنع بوجودها مدَّة سنين كثيرة مع انهُ اجتاز بقربها في غضون سفره الى الشرق

٤) Ritter, XVII, 534



مدخل مغارة جعيتا ومنبع نهر الكلب



امّا بقيّة الآثار فوقعها على ضفّة النهر الجنوبية وهي احدى عشرة كتابة ما خلا الكتابتين اللاتينيتين المذكورتين سابقاً

١ فاوّل هذه الكتابات وردت على صفيحة قديمة كبيرة بالقلم المصري الهيروغليفيّ تتضمّن تقدمةً للاله « فتاح » المصريّ • وهي الصفيحة التي نُقش عليها ذكر البعثة الفرنسية التي وردت الشام في سنة ١٨٦٠ وهذا الخطّ الفرنسيّ مع حداثة عهده كاد ان يُطمَس رسمُهُ مع بقاء كتابة مرقس اوريليوس بعد ستة عشر قرناً

٢ والكتابة الثانية بالقلم المسماري موقعها بجانب الطريق كالاولى وهي تمثّل صورة ملك اشوري رافعاً يده

٣ وبقرب هذه صورةٌ اخرى اشوريّة توارى معظم رسمها فلا يُميَّز منها سوى الرأس

٤ واذا صعدت نحو عشرين متراً فوق الطريق القديمة المشرفة على السكّة الرومانية تجد صورة اخرى اشوريّة طامسة الاثر

٥ و ٦ ثم هناك ايضاً كتابتان يونانيّتان ذهب الدهر بحروفها فلا يُرى منهما الّا اليسير • وقد زعم دليل بيديكر (١ ان احداهما لاتينيّة والصواب كما قلنا

٧ وتليهما صورة اخرى اشوريّة

٨ ثمّ نُصُبٌ مصريّ يمثّل احد الفراعنة منتصباً يقرب قربانهُ لاله الشمس « راع »

٩ وفي تلك الجهات ايضاً كتابة اشوريّة مع صورة ملك وكلاهما قد صبر على غابر الدهر

١٠ ثمّ رقيمٌ مصريّ فيهِ صورة بعض الفراعنة والاله عمّون

١١ واخيراً صفيحة متقنة الرسم تمثّل ملكاً اشوريّاً ذا لحية طويلة مجعّدة لابساً رداءً سابغ الذيل وعلى رأسهِ تاجُ ملوك اشور وفي يدهِ اليمنى مِقصرة يسندها الى صدرهِ

١) راجع دليل بيديكر (الطبعة الرابعة الالمانية (Baedeker, p. 331)

فاقدم هـذه الكتابات هي الخطوط المصريّة التي امر برقمها رعمسيس الثاني فرعون موسى المعروف عند اليونان بسيسوستريس وذلك في آخر القرن الرابع عشر قبل المسيح يصف فيها غاراتهِ وفتوحاتهِ العديدة (راجع المشرق ١ : ٨٨٨ و٨٨٩)

امّا الكتابات والصوَر الاشوريّة فقد اختلف العلماء في تفسيرها قيل ان احداها تمثّل سنحاريب ملك بابل الذي ذكرت التوراة غزوتهُ وسوء منقلبهِ نحو سنة ٧٠١ قبل المسيح . والمظنون ان بقيّة الصفائح تتضمَّن صوَر الملوك الاشوريين تغلات فلاسر الاوّل وسلمناصر الثاني واشور بنيبال . وفي كتاباتهم المكتشفة حديثاً في بابل قد بالغوا في وصف غزواتهم لا سيا فتوحهم للشام وقهرهم لسواحل فينيقية . فتكون اذًا هذه الصفائح دليلًا على مرورهم في هذا المضيق وتذكارًا لغلباتهم

وبقي هذا المضيق في يد ممالك شتّى كثيرة الى ان اجتازهُ انطيوخوس الكبير والجأ جيوش البطالسة ان يفرّوا امامهُ هاربين . وفي تاريخ الصليبيين تكرَّر ايضاً ذكر مضيق نهر الكلب ولم يكن للفرنج مناصٌ من عبورهِ في سيرهم على ساحل البحر . وممَّا يُخبَر ان بلدوين الاوّل لمَّا سار من انطاكية الى اورشليم ليخلف اخاه غدفريد في الُملك كاد يذوق في هذا الممرّ كأس المنيّة لولا حذقهُ وشجاعة فرسانهِ

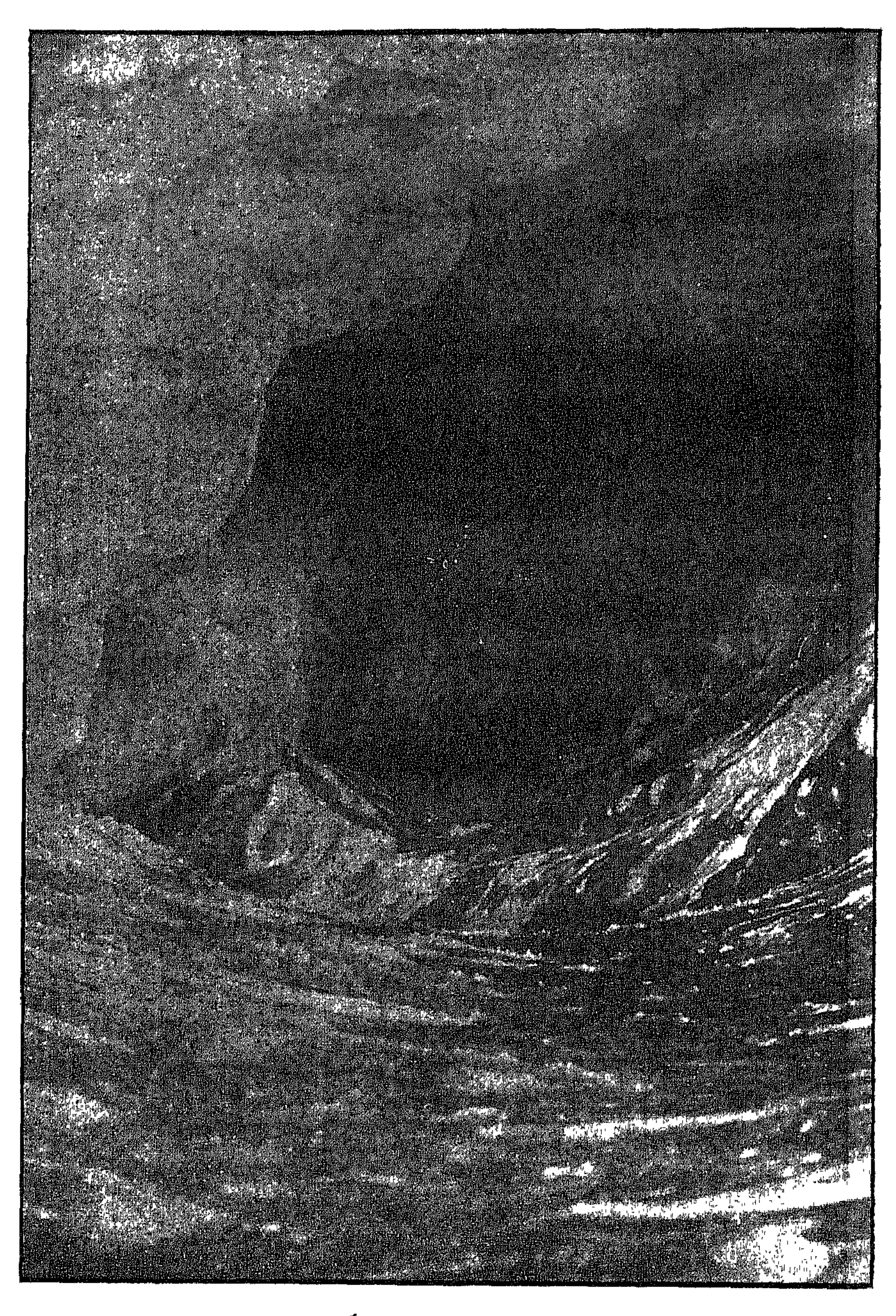
وجاء في معجم البلدان لياقوت (٤ : ١٧) انهُ كانت قلعة فوق رأس نهر الكلب (١ ولا غروَ ان ملوك الشام حصّنوا هذا الموكز المنيع لدفع هجمات المعتدين

ومن غريب ما ذكرهُ الجغرافيّ اسطرابون ان اهل ارواد كانوا يقطعون نهر الكلب بسفنهم فيصعدون الى داخل البلد . ولعلّهُ شُبّه الامر على اسطرابون لانّ هذا النهر كثير الصخور لا يخلو من العَقَبات سوى عند مصبّهِ . وليت شعري ما الفائدة من الصعود في نهر قصير المسافة لا ترى على جانبيهِ ضيعة مأهولة (٢ . ومن المحتمل ان هذا النهر كان واسع الاطراف عند مصبّهِ فكانت السفن ترسو عنده كما في ميناء

---

١) ويقول ياقوت ايضاً ان هذا الحصن يبعد ستّة اميال عن المرداسيّة على مسافة ثمانية اميال من بيروت . وكذا ورد في نزهة المشتاق للادريسيّ (ص ١٧ ed. Gildemeister) فيتضح من قولها انّ المرداسيّة بين بيروت ونهر الكلب بيد اننا نجهل موقع المرداسيّة هذه . ويروى : المزداسيّة

٢) Mission de Phénicie



باطن مغارة جعيتا ومنبع نهر الكلب


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فتصونها من الرياح الصخورُ المنتصبة في جهتها الجنوبية · ولا يبعد ايضاً القول ان سفن البحّارة الاقدمين كانت تنقل من ثمَّ خشب الارز بعد قطعهِ في قمم الجبال ودفعهِ على وجه المياه الى هذا المكان (١

ويشرف على نهر الكلب من جانبيهِ قرية بلُّونة ودير طاميش والظاهر انَّ في مركزيها كان هيكل للاصنام فتكون بلُّونة تصحيف اسم الاله ابلُّون (Ἀπόλλων) وطاميش منقولة عن اسم الالهة ارطاميس (Ἄρτεμις) وهي المعروفة ايضاً باسم ديّانة · وقد وُجدت ايضاً مدافن قديمة قريباً من عين طورة

٤ دير القلعة

انَّ آثار الاقدمين في مشارف لبنان ليست باقلّ شأناً منها في سيف البحر فهيّا بنا أيُّها القارئ اللبيب قبل تقصّي البحث عن عاديّات الساحل نرقى الاعالي لاستقراء بعض هذه المآثر

وليس في جوار بيروت من هذا القبيل مكان اخطر شأناً واحسن مقاماً من الابنية المعروفة اليوم بدير القلعة · وهذه الرسوم القديمة موقعها بقرب قرية مشهورة اسمها بيت مري تعلو فوق سطح البحر نحو ٧٣٠ متراً في شرقي بيروت على مسافة ١٨ كيلومترًا منها واليها يتقاطر اهل المدينة في وقت اشتداد القيظ عند الساحل

ولبيت مري اليوم طريق يوصلها ببيروت تجري عليهِ العَرَبات غير أنَّ من يركبها يكابد عناءً عظيماً ويلتحف بثوبٍ من الغبرة تثيرها قوائم الخيل ودواليب العَرَبات · وما ذاك الّا لقلّة الاعتناء بتوثير الطريق ورصّها بالحجارة · ففرارًا من آفتها آثرنا مرارًا الصعود الى بيت مري مشياً مع علمنا ان في المشي نفعاً للصحّة ونزهةً للابصار فانَّ العين تقرُّ لهذه المناظر الجميلة والاذن ترتاح لصدح الطيور ويتنسَّم المنشقُ الريحَ الطيّبة في وسط غابات الصنوبر والشربين

وكان آخر مرَّة توقّلنا الجبل للبحث عن آثار دير القلعة في ٢٤ تشرين الاوَّل سنة ١٨٩٩ صباح يوم هبَّ نسيمهُ وصفا اديمهُ فما بلغ بنا المسير الى غايتنا حتى اخذنا نسرّح الطرف في بقايا هذه العاديّات الخطيرة

(١ Russegger, *Reise*, III, 153

والحقُّ يقال انَّ من يسير بين تلك الرسوم الدائرة والطلول الدارسة لا يلبث ان يدرك ما كانت عليهِ ابنيتها القديمة من العظمة والبهاء قبل خرابها

ولكن تُرى ماذا كانت هذه العمارة القديمة التي تُنبئ بها هذه الآثار الطامسة المنبثَّة على مسافة كبيرة . ذلك سؤَال لا تُخبِرهُ كتب القدماء وتآليفُ المحدثين وانما تجيبنا عليهِ الحجارة نفسها فانَّ لها لساناً ناطقاً فصيح المقال . وإنْ نطقُها الّا بالكتابات العديدة التي حُفرت فيها . فاذا أعملنا فيهـا نظر الفكر وقابلنا بين الافادات المستخلصة من مضمونها وهندسة هذه الآثار القديمة ثمَّ عرضنا ذلك على ما نعرفهُ من تعبُّدات الفينيقيين فلا جرم اننا نحصل على معرفة اصل هذه الابنيـة وغايتها ومُجمل احوالها

ليس من اثر يفيدنا اسم دير القلعة القديم ولعلّنا لا نتَّصل الى معرفتهِ في المستقبل امَّا اسمهُ الحالي فقد اطلقهُ العرب على آثار أُخرى في انحاء سوريَّة فانَّهم يدعون بالقلعة كل بناء متسع الارجاء واثق الاركان محكم البنيان . وقـد اخبرنا احد فضلاء الرهبان الذين يسكنون الدير المجاور لهذه الاخربة ان اسم هذا المقـام « بيروت العتيقة » وجدهُ في صكّ لبيع ملكهِ كُتب في القرن الثامن عشر . فان ثبت على دير القلعة هذا الاسم صحَّ عن بيروت ما اخبره بطلميوس الجغرافيّ عن جبيل اذ قال انهُ كان لها مقامٌ يُدعى جُبيل العتيقة (Palæbyblos) وانَّ موقعهُ بعيدٌ عن الساحل (μεσόγειος) . وهذا قولٌ اوردناهُ هنا على علّاتهِ ولا نجهل ان آراء العلماء متضاربة في تعيين مكان بيروت العتيقة بل في وجوده لكنَّ تقليد العامَّة ربَّمـا كان دليلًا يهتدي بهِ العلماء لمعرفة الآثار القديمة

وعلى كلّ حال لا يسوغ ان ننسب هذه الابنية لعهد سبقَ زمن ظهور النصرانية فانَّ اقدم كتابة وُجدت في هذه الاخربة نشرها الرحّالة سِتزين (١ ذُكر فيها الملك « اغريبا » ترتقي الى نحو القرن الاول بعد المسيح

وقد وفَّقنا الله الى اكتشاف كتابة نُقشت في حجارة هذه المباني ورد فيهـا اسم القيصر ادريان في بدء القرن الثاني للمسيح . وليس مرادنا بذلك ان هذا المقام

١) Seetzen, *Reisen*, I, 257

كان قبل ذلك خالياً من الاثار · كلّا · فاننا على يقين ان الفينيقيين شيَّدوا فوق هذه المشارف معبداً كانوا يحجُّون اليهِ او على الاقلّ مذبحاً او نصباً في غابـة كانوا يقضون عنده مناسكهم على مثال المشارف والانصاب التي ذكرها الكتاب الكريم(١ فمن ثمَّ نظنّ ان دير القلعة كان يقوم لبيروت مقام هيكل افقا لجبيل ومقام هيكل بيتوكيكي (٢ (Bætocece) (حصن سليمان) لجزيرة ارواد · وكما انَّ هذين المعبدين سبقا النصرانية فكذلك تقدَّمهـا معبد دير القلعة · وما يؤيد رأينا اسم الاله الذي عبدهُ الرومان في هذا الهيكل فكانوا يدعونهُ بعل مرقد (Baal Marcod) وهو بلا شكّ اسمٌ فينيقيٌّ

اما بقايا الهيكل الماثلة الى يومنا هذا فليس فيها ما يدلّ على مثل هذا القدم كما ان الكتابات لا تنبئ بذلك · واذا قابلنا هيئة هذه البنايات والمواد المتخذة لهـا وطريقة بنائها وجدنا انها تدخل في حيّز الابنية المعروفة بالجبَّاريَّة (cyclopéens) لضخمها وكبرها · ولا يخلو هذا الهيكل من آثار عجيبة كاعمدة وحجارة عظيمة تضاهي بعض حجارة بعلبكّ وسواريها · لكن اصحاب العاديَّات يتفقون اليوم على أنَّ قدم الابنية لا يناسب دائماً عظمها وكبرَها بل ربَّ بناء قديم صبر على ممرّ الزمان بخلاف عمارة اخرى احدث منها ضخمة الحجارة اخنى عليهـا الدهر فطمس محاسنها

واذا اعتبرت هندسة ابنية دير القلعة لا ترى فيهـا شيئاً اختصَّ بهِ الفينيقيون دون غيرهم · والاحرى نسبتها الى الرومان لان منها تلوح طريقتهم في البناء ويمكن تعدادها بين الآثار الجليلة التي خلَّفوها لنا في القرن الثاني والثالث للمسيح ونرجّح كونها سبقت عهد هيكل بعلبكّ الكبير

واذا تفقّدنا المباني المشيَّدة في قمّة هذه الربوة وقفنـا على غايتها الدينية فانَّ

١) راجع مثلًا سفر الملوك الرابع (١٧ : ١٠) حيث ورد عن بني اسرائيل قولهُ: « واقاموا لهم انصاباً وغابات على كل اكمة عالية وتحت كل شجرة خضراء »

٢) قد تفقدنا آثار هذا الهيكل الذي وصفهُ العلّامتان راي ودوسّو :
Rey : *Archives des Miss. scient.* III, 336 ; Dussaud: *Voyage en Syrie*, p. 15, Extrait de la Revue Arch. 1897.

هناكَ خطوطاً صريحة في هذا المعنى يُستفاد منها انهُ بُني ثَمَّت هيكل على اسم بعل مرقد (١ اله تلك الناحية · وربما دُعي هذا الاله باسم يوناني (Μηγριν) لم يستدلّ احد بعد الى معناهُ · والعلّامة الخطير كارمون غانّو يظن انّ هذه الكلمة تدل على اسم الاله الشخصيّ وان « بعل مرقد » لقبٌ عُرف بهِ في هذا المكان · وألقابهُ كلُّها تنبئ بعظم شأنهِ عند الفينيقيين وسموّهِ بين مصافّ الالهة الفينيقيَّة · ويؤخذ من احدى الكتابات المكتشفة هنالك انّ الهاً مجهولًا يدعى أرِمْثينوس (Ἀρέμθηνος) يحثّ المتعبّدين لهُ أن ينصبوا المذابح لبعل مرقد

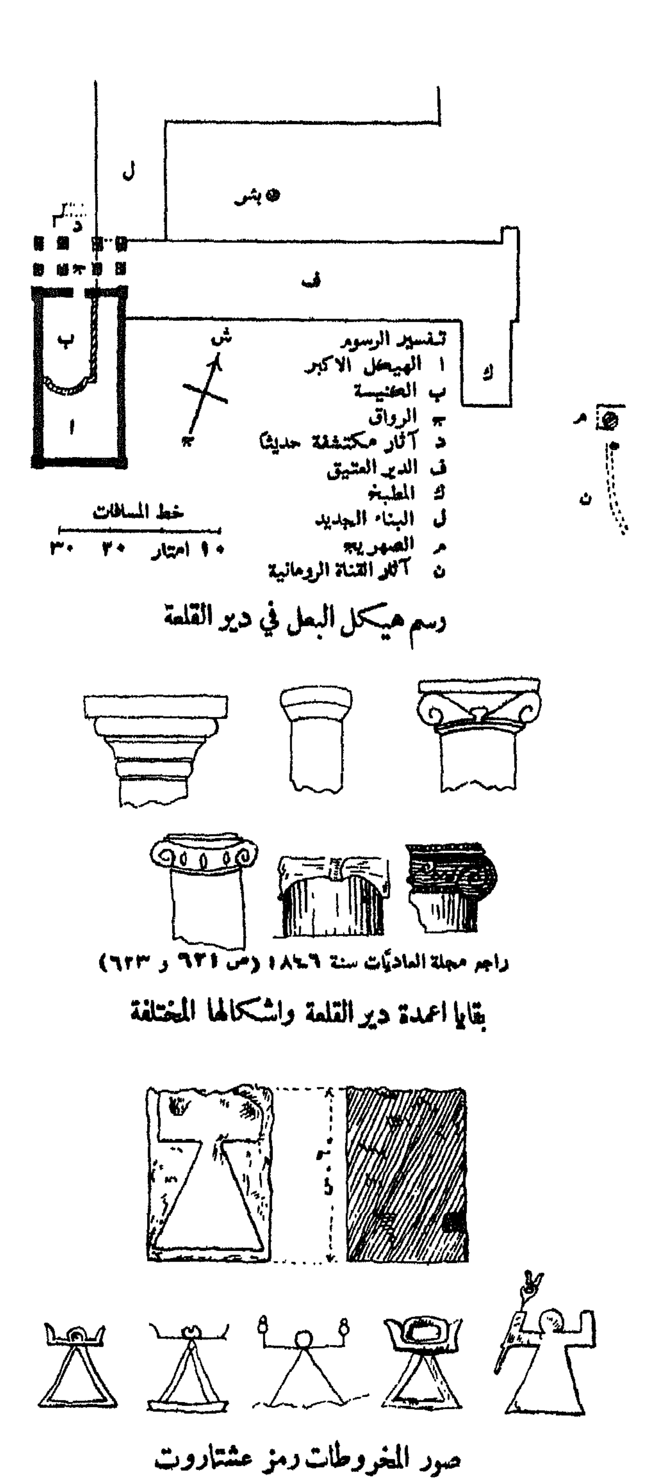
ومعنى اسم هذا الاله وسبب تسميتهِ بمرقد يُستخلص من اصل اسمهِ باللغة العبرانية وهي فرع من الفينيقيَّة فان « مرقد » مصدر يشتق من فعل רקד اي رقص وعليهِ يكون بعل مرقد اله الرقص والبَسْط · ولا يبعد انّ هذا الاله هو نفس اله الرقص المعروف عند المصريين باسم « بيس » (Bès) وان المصريين اتخذوهُ من الفينيقيين · ومن القابهِ التي دُعي بها في الكتابات انهُ ملك المآدب والولائم (٢ (Κοίρανε Κώμων) ولعلّ هذا الوصف دليل على ان قدماء الفينيقيين كانوا يجتمعون بقرب هذا الهيكل للقَصْف وتوفير اسباب الهناء كما يصنع اليوم في تلك النواحي بعض اصحاب الملاهي يحذون بذلك دون ان يشعروا حذو اجدادهم

بيَّنَّا في ما سبق ان الاله المعبود في دير القلعة كان اسمهُ بعل مرقد · فلمَّا استولى الرومان على الشام أدرجوا هذا الاله الفينيقيّ في مصفّ الهتهم بل اعتبروهُ كأنهُ هو معبودهم الكبير « المشتري » لا يفرقهُ عنهُ الّا اسمهُ فشيَّدوا لهُ ذلك الهيكل العظيم الذي حجَّهُ السوريُّون والرومان معاً · والكتابات اللاتينيَّة التي فيها ذكر « المشتري بعل مرقد » كثيرة · وكان اهل بيروت المدعوّة في ذلك العصر

---

١) والكتابات منها يونانيَّة على صورة تقدمة (Κυρίῳ γενναίῳ Βαλμαρκῶδι) او (Θεῷ Βαλμαρκῶδι) ومنها لاتينيَّة يُدعى فيها هذا الاله « المشتري بعل مرقد » (Jovi Balmarcodi) او بالاختصار (J(ovi) O(ptimo) M(aximo) Balmarcodi). راجع : Waddington : *Inscrip. gr. et lat. de la Syrie*, nos 1856-1857 و C. I. L., 155 وكتاب كلرمون غانّو في العاديَّات الشرقيَّة الجزء الاول ص ٩٥

٢) راجع Waddington, n° 1855



رسم هيكل البعل في دير القلعة

بقايا اعمدة دير القلعة واشكالها المختلفة

صور المخروطات رمز عشتاروت



« المستعمرة يوليا اوغستا السعيدة » يقيمون فيهِ انصاباً لملوك رومية من جملة ذلك نصب للقيصر ادريانس استُخرج محطَّماً من تحت الردم سنة ١٨٩٧ اسعدنا الحظ على قراءة مضمونها كما يأتي (١ :

[Imp.] CAESARI DIVI	[للامبراطور] القيصر الالهيّ
[Tr]AIANI PARTHICI FIL(io)	وابن [طر] ايانس القَرْطي الالهي
DIVI NERV(æ nepoti)	وحفيد نِرڤا الالهيّ
TRAIANO HADRIANO AV(gusto)	لطرايانس ادريانس اوغستس
PONTIFI(ci) MAX(imo) TRIB(unitia)	الحبر الاعظم بسلطة ممثلي الشعب
POT(estate) COS III P(atri) P(atriæ)	قنصل للمرَّة الثالثة اب الوطن
COL(onia) IVL(ia) AVG(usta) FEL(ix)	المستعمرة يوليا اوغستا السعيدة
B(erytus)	بيروت

ولمَّا عدنا الى بيروت فرحين لاكتشافنا هذا وجدنا في مجموع كتابات وادنغتون (عدد ١٨٤١) في جملة آثار بيروت كتابةً تشبه كتابتنا المذكورة كلَّ الشَّبه كأنها هي الَّا في تتمَّة الالفاظ المقتصرة . فاخذنا من ذلك العجب كيف اتصل وادنغتون وبعده دوناتي واورلّي الى هذه الكتابة مع انها حديثة الاكتشاف كما قلنا . ولعلّ اهل بيروت رسموا منها نسختين في وقت واحد

وكانت المرتبة الاولى في هيكل دير القلعة بعد المشتري بعل مرقد للالهة « جونون الملكة » (٢ وكانت تُعدّ زوجةً للاله وشريكتهُ في جلال عزّتهِ . ونرجّح كون جونون هذه هي الإلهة الساميَّة بعلة عَشتروت وحَّدها الرومان بالهتهم جونون . وكان عَبَدتُها يأتون هيكل دير القلعة ليستشفعوا بحمايتها ويستفتوا كهنتها كما يُستدلّ على ذلك من بعض الكتابات التي نشرها كارمون غانو (في كتابهِ العاديَّات الشرقية

---

١) وقد وضعنا بين معكَّفين ما يُقتضى زيادتهُ

٢) هذه ترجمة اللفظة اللاتينيَّة (regina) ويجوز ترجمتها بالبَعْلة وقد ورد ذكر هذه الإلهة في اسفار الانبياء باسم « ملكة السماء » (ارمياء ٧ : ١٨ الخ) . وكان للرومان في جبل تَرْپيُوس هيكل باسم هذه « إلهة السماء العذراء » شاعت عبادتها بعد حرب رومية مع قرطجنَّة وكان اهل قرطجنة يعتبرونها كإلهتهم العظمى . والرومان جعلوا عشتروت هذه وجونون الهةً واحدة فعبدوا الاولى بصورة الثانية (راجع مجلَّة Acad. des Inscrip., Comptes - rendus, 1898, p. 475)

ص ١٠٧) . وفي دير القلعة كتابات عديدة لاتينية تتضمَّن تقادم ونذورًا من قِبَل الاهلين لهذه الآلهة . من ذلك ثلاث كتابات نقشها جنديّ رومانيّ يُدعى « غايوس يوليوس مكسيموس » نشر منها العلّامة كلرمون غانو اثنتين (ص ١٠٧ و ١١٠) ووجدنا الثالثة في جنينة المرحوم الفنس نقاش في بيت مري . وهي مكتوبة على حجر كُسرت قطعتين فحواها : « انَّ الجندي المذكور يُبرز نَذرهُ للالهة جونون بطيب قلب »

ومن عادة القدماء انهم كانوا يكرّمون في الهيكل الواحد عدّة آلهة . مثال ذلك انَّ دير القلعة كان إلهها وسيّدها الاعظم (١ بعل مَرْقد ثمَّ الإلهة جونون كما مرّ . وترى معها ذكر آلهةٍ آخرين وممَّا وجدنا في جنينة المرحوم الفنس نقَّاش قطعتين من كتابة طبع كلرمون غانُو قسمها الاخير (٢ امَّا القسم الاوّل فاستُخرج حديثًا من الاطلال لم يُنشر بعدُ بالطبع وهذه الكتابة عبارة عن تقدمة قدَّمها شخص يدعى مرقس سَنتيس للمشتري اله بعلبكّ (I. O. M. Heliopolitanus)

وممَّا نحبّ إلفات النظر اليهِ ان اخربة دير القلعة كثيرة الكتابات اللاتينيَّة . وهي كما لا يخفى على من لهُ ادنى إلمام بالعتائق نادرة جدًّا في ما سواها من الامكنة الشاميّة . والسبب لذلك على ما نظنّ ان من استعمر بيروت من الجنود الرومانيين (وكان منهم في بيروت فئتان الخامسة والثامنة) اتخذوا هذا المكان كمصيف يقضون فيهِ فصل القيظ كالمُثرين من اهل زماننا فتركوا ثمَّت آثارًا جمَّة تنبئ بسكناهم وتعبُّدهم لبعل مرقد . ولو حاولنا سرد هذه الآثار لطالت بنا المقالة طولًا مفرطًا واكثرها عبارة عن أعلام ليس في ذكرها كبير امر لقرائنا . وترى بين هذه الاسماء أعلام قوم من اهل الحِرَف والصناعات فضلًا عن الجند ولا يخلو منها اسماء بعض الاشراف من اعيان الرومان في ذلك العصر

وغاية ما يمكننا قولهُ انهُ كان في جوار هيكل البعل عدَّة منازل لسدَنة هذا المعبد وكهنتهِ ثمَّ للجند الرومان واهل الثروة ولبعض العَمَلة . ولا نزانا نتجاوز الحقيقة لو

---

١) ونظنّ ان اسم القرية اشتُقّ من عبادة هذا الاله فدُعيت لذلك « بيت مري » من السريانيَّة ܒܝܬ ܡܪܝܐ اي بيت السيّد (البعل)

٢) في كتاب عاديَّاتهِ الشرقيّة السابق ذكرهُ

قلنا انهُ كان حول دير القلعة قرية . يستدلُّ على ذلك بوجود معاصر قديمة ونواويس ضخمة منحوتة في الصخر . وكل ذلك يشهد بان الناس جعلوا سكناهم في تلك الهضاب . امَّا بيت مري فلم نسمع انَّ احدًا وجد فيها شيئًا من الآثار القديمة مع ان البناء فيها متواصل والحفر في الارض كثير

فممَّا تقدَّم يسوغ لنا ان نستعيد بالفكر ونحيي بنظر الفهم حالة دير القلعة في القرن الثاني والثالث للمسيح فنقول انَّ تلك الرُّبى كانت تكلّل هامَها غاباتٌ وارفة الظلّ وكانت على منعطف ذلك الجبل اشجار باسقة الاغصان تحجب اشعَّة الشمس المتَّقدة وترطب بفيئها ذلك المقام النزّه وكان الصنوبر يغلب عليها وقد بقي منهُ بعض البقايا

وكان لا بُدَّ لهذه الغابات مياه غزيرة تروي تُربتها وتُنمي جذورها كما انَّ المياه كانت ضروريَّة لخدَمة الهيكل واهل القرية وللمئين من الحجَّاج والزوَّار ولغسل الذبائح . فسدًّا لهذه الحاجة الماسَّة استجلب القدماء المياه من العيون المجاورة لا سيما من عين عَرْعر وراء بعبدات وكانوا اصطنعوا لذلك قناةً محكمةً لا تزال بقاياها ظاهرةً الى يومنا هذا . وكان في ساحة الهيكل احواض واسعة تجري فيها المياه وتفور الفوَّارات على هيئات بديعة تروق النظر . ويشهد على ذلك كتابة يونانيَّة ورد فيها وصف انبوب قُدّم للهيكل مُصطنع في جزيرة رودس ليُجعل فوَّارة للماء (١

ففي وسط هذه البقعة الجميلة المنظر كان هيكلان عظيمان احدهما للبعل والآخر ليونون او عشتروت . وكان للاوَّل رواق رحب الفناء يسنده ثمانية اعمدة ضخمة من الرخام البلدي (٢ وكان يُصعد الى هذا الرواق بدرج يوازيهِ حُسنًا وسعةً كما اعتاد ذلك الرومانُ في ابنيتهم . امَّا هيكل يونون فقد عبثت بهِ يد الحدثان

---

١) راجع مجلَّة العاديَّات سنة ١٨٦٦ ص ٨٠ . وكان اهل رودس يرسلون الى بيروت طُرفًا من صناعتهم لتباع فيها (راجع Comptes-rendus de l'Acad. Inscrip, 1898, 522)

٢) وقد زعم رينان (Mission de Phénicie, p. 353) ان هذا الرخام هو الرخام المصريّ المحبَّب والصواب ما قلنا . وللمسيو رينان في وصف دير القلعة اغلاط شتى لا يسعنا تفنيدها

حتّى يصعب على علماء العاديّات بيان رسمهِ وصورتهِ بل وموقعهِ ايضاً

وكان هيكل البعل في داخلهِ مزّيناً بتمثال الإله نُصب في كوّةٍ على جانبيها العَمد من الرُّخام تشبه المظلّة . وقد ورد في كتابات دير القلعة ذكر تماثيل أخرودُمي لا نعلم أكانت في داخل البناء او في الرواق (١

امّا طريقة هندسة الهيكل فان بيان صورتها ليس بسهل فانك ترى بين البقايا والاخربة ما يُشعر بالهندسة الكورنثيّة والايونية معاً كما ترى في الاشكال المختلفة المثلة لبعض أعمدة قد رسمَ نقوش اكلّتها حضرة الاب رنزڤال وكان رافقني في هذه الرحلة ودقّق البحث عن آثار دير القلعة الّا انهُ بقي مرتاباً في بيان صورة هندام الهيكل القديم . وانما قدّر بعد فحص الاخربة الباقية الى يومنا هذا انَّ علوّ البناء كان يبلغ ٢٥ متراً . وذلك بلا مراء دليل على عظم هذا المعبد وجليل قدرهِ

وكانت الاشجار تميس بافنانها حول هذه البنايات بينما كانت الوف من الطيور تصدح فوق رؤوسها وتغرّد طربةً ومن جملتها الحمام البيض رمز الإلهة عشتاروت كانت تحلّق في الهواء ثم تحطّ في اوكارها ساجعةً . وفي وسط الاشجار كانت تماثيل عديدة منتصبةً على دكك مرتفعة وهي تمثّل اصناماً وأبطالًا وبينها مذابح للضحايا والمحرقات ثم اهرام صغار ومنها حجارة مخروطة الشكل يعلوها شبه رأس ويتّصل بها شبهُ ذراعين قد اختلف العلماء في شرح معناها

والمرجّح انّها صورة « تانيت » معبودة اهل قرطجنّة وهي عَشتروت نفسها وقد يراد بها صورة بعل حمّون او اله الشمس وكلّها من آلهة القرطجنيين . وقد بقي من هذه المخروطات آثار في دير القلعة الى يومنا هذا والواحد منها منصوب امام كنيسة مار ساسين بين دير القلعة وبيت مري والذي صوّرناهُ على وجهَيهِ في اعلى الشكل السابق

تلك كانت هيئة هذا المقام الخطير في القرن الثاني والثالث بعد المسيح فاذا زدت على ذلك حركة الزوّار المتقاطرين الى هذه المعابد ترى ما كان لدير القلعة من

١) راجع وادنغتون عدد (١٨٦٠ و ١٨٦٣)

الخطارة وعظم الشأن

ولا بدَّ لنا قبل الختام ان نذكر شيئاً عن المدافن التي كانت بقرب دير القلعة لما وُجد هناك من القبور العديدة ففي شرقيّ الدير الحالي على بعد ٥٠٠ متر منهُ ترى خمسة نواويس غليظة العمل واذا انحدرتَ قليلاً وجدت عشرين ناووساً بقي منها اغطيتها على شكل جَمَلون فوقهُ قواعد تُدعى (acrotères) · واذا نزلت الى الجهة الجنوبية بميلةٍ الى الشرق بلغت الى مغارة يدعوها الفلّاحون « مغارة الحبس » وهو غور طبيعيّ في الصخر عند حضيضهِ ليس بمتّسع الّا انهُ كافٍ لدفن ثمانية اشخاص

امّا العبادة الجارية في هذا الهيكل فلا نعلم من امرها شيئاً ولا نخالها كانت تختلف عن عبادة الفينيقيين المكروهة يغلب عليها الخلاعة والدعارة · وليس بمستبعد انَّهُ قُدّمت هناك الضحايا البشرية من الاطفال للبعل كما جرى ذلك في غيره من المعابد الشرقيَّة وشهدت عن صحّته التواريخ الراهنة · ولعلَّ هذه العوائد المنبئة بسوء دين اهل ذلك العصر هي التي حملت ملوك الروم المتنصّرين على هدم هذا الهيكل كما فعل قسطنطين بهيكل أفقة لما تقرّر عن كهنتهِ الوثنيين من الاعمال الفاحشة فلم يجد سبيلاً الى قطع دابر هذه المنكرات الّا بهدم المعبد المذكور

٥ آثار الرومانيين في لبنان

اثنى صاحب سفر المكابيين الاوّل (٨ : ١–١٦) الثناء الحسن على الرومانيين واعمالهم فقال فيهم : « انهم ذوو اقتدار عظيم ويُعِزُّون كلَّ من ضوى اليهم وكلُّ من جاءهم آثروهُ بمودّتهم ولهم شوكة شديدة ·· وكلُّ من سمع باسمهم خافهم ·· ومع ذلك كلّهِ لم يلبس احدٌ منهم التاج ولا تردّى الارجوان مباهاةً بهِ ·· وهم يفوّضون سلطانهم وسياسة ارضهم بجملتها كل سنة الى رجل واحد وجميعهم يطيعونهُ وليس فيهم حسد ولا منافسة »

لعمري انَّ هذا مديحٌ نعمّا فاهَ بهِ الله على لسان الكاتب الشريف وصدق في وصف امّة تنطق آثارها الباقية الى يومنا عن جاهها وعلوّ كعبها · ولم يُحرَم لبنان من شواهد عزّ الرومان وشوكتهم · ولو لم يُخلفوا لنا سوى آثار دير القلعة

الذي مرَّ وصفهُ في الفصل السابق لكفى به شاهداً على صدق مقالنا اذ بيَّنَّا انهُ معبد رومانيّ شيَّدتهُ مستعمرة بيروت الرومانية . بيد ان للرومان مآثر جمة في جميع انحاء لبنان غير هذا المعبد فرأينا في ذكرها افادةً للجمهور ليطَّلعوا على اعمال هذا الشعب الذي اضحى اسمهُ مرادفاً للفخر والعظمة

ولا بدَّ هنا من مقدَّمة موجزة يقف بها القارئ على احوال سوريَّة في وقت تغلُّب الرومان عليها في سنة ٦٥ قبل المسيح . لمَّا قُتل انطيوخوس الثاني عشر ملك سوريَّة (سنة ٨٥ ق م) صارت البلاد في حالٍ من الضعف اطمع فيها دغرانَ ملك الارمن فزحف اليها بخيلهِ ورَجلهِ واستولى عليها غنيمةً باردة لم يقوَ احد على ان ينتشلها من مخالبهِ . فبقيت تحت حوزتهِ الى ان دارت عليهِ الدوائر في سنة ٦٩ لمَّا غلبهُ القائد الروماني لوكلُّوس في واقعة دغرَانوكِرت . فانتهز انطيوخوس الثالث عشر هذه الفرصة ليستوي على عرش آبائهِ الَّا ان ملكهُ لم يدُم سوى اربع سنوات . وكانت سوريّة في تلك الاثناء قد تضعضعت قواها وتقهقرت امورها وانتقض حبلُها . وكان يُحدق بها شعوب قاموا لها بالمرصاد يتطاوَلون اليها طامعين في ملكها . تحدُّها جنوباً مملكة اليهود من بني حشمناي وهم لا يزالون في قلق متداوم . وكان النبطيُّون يملكون على حدودها الشرقيَّة ويحكمون على دمشق وضواحيها وعلى جبل الشيخ . امَّا قبائل البادية فكانت على ثغورها جماء تزاحمها وتشنّ عليها الغارات . ولما صار الامر الى دغران صرف همَّتهُ الى عقد العهود مع زعماء هذه القبائل فجعلهم روَّاد تجارتهِ مع البلاد المتاخمة واشتهر من جملة هؤلاء سراة القبائل شيخان ملك احدهما على حمص اسمهُ سمبغرام او سمپسيكرامس (١ . امَّا الثاني فيُدعَى عزيزًا وكانت دولتهُ على بادية شمالي سوريَّة

ومن الدول العربيَّة التي اشتهرت في ذلك الوقت دولة الايتوريين ملكت على لبنان وعلى ساحل فينيقية . وكان هذا الشعب محنَّكاً في آداب الحرب يُحسن الرمي بالنبال . وكان اصلهُ من الجبال الصخرية التي موقعها في شرقيّ دمشق المعروفة اليوم بجبل حوران او جبل الدروز واللجا . فلم يزل امرهُ يعلو ويقوى حتى تعدَّى

١) راجع مجلّة المشرق (١ : ٧٧١) وكتابات وادنغتون (العدد ٢٥٦٧)

حدود وطنهِ فاستولى على جبل الشيخ وبقاع العزيز فضرب ثمَّت خيامهُ واقام لهُ دولةً صغرى جعل عين جرّ (Chalcis) كعاصمتها . وما عتَّم ان تسوَّر قمم لبنان وحصَّنها بالقلاع ثم هبط الى سواحل الشام فاتَّخذ لهُ دولةً ايتوريَّة ثانية اضحت طرابلس مركزها . وكان هولاء الغزاة يهبطون كسيل جحاف من مشارف لبنان فيغزون وينهبون دون ان يقوم في وجههم حاجز . واكثر من كانوا يأذُونهم بكروههم اهل جُبيل وبيروت فلا يقوون على الذود عن حمى ديارهم ومزروعاتهم وسفنهم . ولا غروَ ان الاسماء العربيَّة المحضة الواردة في كتابات يونانية وُجدت في نواحي جبيل وبترون ترتقي الى عهد دولة الايتوريين هؤلاء (١

فتلك كانت حالة سوريَّة لمَّا ارسل بمبيُّوس قوَّادهُ ليحتلُّوها وما لبث ان سار اليها هو بنفسهِ سنة ٦٤ فنظمها في سلك املاك الدولة الرومانية وجعلها اقليماً قائماً بذاتهِ . ثم قلَّم اظفار الفِتَن وفتح معاقل العُصاة وردَّ قبائل البادية الى مساكنها الاولى واعاد السلم والنظام الى مجاريها . ولما سعى اليهِ اهل طرابلس متظلِّمين من ملكهم الايتوري ديونيس امر بهِ فقُتل بعد ان تثبَّت ظلمهُ

ثم واصل بمبيُّوس سيرهُ في سواحل سوريَّة ظافرًا وتوغَّل لبنان واخذ عنوةً قلعة جيجرتا (Γίγαρτα) الآتي ذكرها فأخربها كما انهُ هدم قلعة وجه الحجر (θεουπρόσωπον) وقوَّض ابنية بترون لحلول اصحاب الجنايات في ضواحيها . ولما قدم جُبيل مثَّل بملكها كينيراس كما فعل بصاحب طرابلس ونفَّس كُربة اهلها وجعل مدينتهم مستقلَّة تحت حمى الرومان

ثمَّ تخوَّف بمبيُّوس وَشْك الشتاء فيمَّم سهول البقاع ورياض دمشق ليُحلّ جندهُ في بسائطها الرائعة لينالوا هناك نصيباً من الراحة بعد الاتعاب التي تجشَّموها . فقطع جبل لبنان (٢ وافتتح في طريقهِ قلعتَي برُومة (Borroma) وسنَّان (Sinnan) الوارد ذكرهما . فما دخلت السنة ٦٣ ق . م حتى اتمّ الرومان فتح البلاد السوريَّة واستقرَّ لهم الامر في انحاء لبنان

---

١) راجع Mission de Phénicie, 199, 200

٢) لعلَّ بمبيُّوس تسلَّق بجنودهِ لبنان من جهة جُبَيل مارًّا بالعاقورة فاليمُّونة الى بعلبك

ومن شروط المعاهدة التي عقدها الرومانيون مع اهل الشام ان يَلزم سكان البلاد شرائعهم وسننهم ويجروا على نظامهم القديم ولا يُغصَبون في لسانهم ودينهم وعاداتهم . اما المدن الساحليَّة فجعل الرومان امرها شَورى يدبّر شؤونها نُخبة من اشراف البلد وابطلوا بذلك ما كان لملوكها من السلطة المطلقة . ثم ضربوا الجزية على الاهلين يؤديها لهم الذكور منذ سنتهم الرابعة عشرة والاناث منذ الثانية عشرة الى السنة ٦٥ من عمرهم جميعاً (١ وفرضوا عليهم خراجاً جبوهُ من الاملاك يبلغ في المئة واحداً . ورسموا ايضاً ضرائب ومكوساً على الواردات والصادرات من السلع الّا ان هذه الرسوم مع ثقلها كانت اخفّ على عاتق السوريين من المغارم والسُّخَر التي حمّلهم اياها ملوكهم سابقاً وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي اي آن شاؤوا

فما مرَّ على سوريَّة الزمن اليسير حتى التأم صَدعُها وانجبر كسرها وانتظم شمل السكّان فرتعوا في بحبوحة الأمن . وكان الرومان قد احيوا معالم العدل واماتوا سُنن الجور يأخذون للضعيف من المقتدر وينشّطون الجميع على الاعمال الشريفة والمشروعات المفيدة التي تعود عليهم بالمنافع العظيمة لاسيَّما التجارة والبحارة والصنائع والفنون

امَّا لبنان فأصاب من هذه الاصلاحات نصيبهُ الحسن . وكان هذا الجبل الشهير لمَّا فتحهُ الرومان قليل السكَّان فزاد اهلهُ بعد مدّة وخصبت تُربتهُ (٢ وعاش اللبنانيون في الرَغد والهناء في حرمة رومة يشكرون لسياسة ولاتهم وينمون في ظلهم الوارف وهم مع ذلك يجرون على سُننهم ويتصرَّفون في تدبير امورهم كيف شاؤوا

ومذ ذاك الحين اخذت العوائد الرومانية تتغلَّب على البلاد الشامية وانتشرت اللغة اليونانية في المراكز الكبرى حتى نَسِي كثيرون اللغة الفينيقيَّة واللغة الآرامية لاسيا بين الاشراف واصحاب الثروة . اما اللغة اللاتينية فبقيت محصورة في الدوائر

---

١) راجع Ulpiani Digesta, *Lib.* I, *leg.* 2, *n.* 3

٢) وكذلك جرى في حوران . راجع المجلّة الفلسطينيَّة ZDPV, XXI, 21

الحكميّة لم يشع منها بين الجمهور غير مفردات تتعلّق بالموزونات والمقاييس والنقود والادارات السياسية وامور الحرب كهذه : البريد والسجلّ والرطل والدينار والاوقيّة والبرج والاطربون والبوق والقومس والفسطاط والشُرطي وما شاكلها . ولعلّ كثيرًا منها وصل الى العرب مجتازًا على ألسنة المتكلّمين باليونانية . وفي بعضها مسحة من اللغة الآراميّة (١ . وممّا بلغنا من آثار اللغة اللّاتينية كتابات قلائل سُطّرت على بعض القبور بيدَ ان المستعمرات الرومانيّة في سوريّة داومت على التكلّم باللّاتينية ومن جملتها مستعمرة بيروت . امّا العامّة فلم يزالوا محافظين على لغتهم الفينيقية او السريانيّة يؤخذ ذلك من الاسماء الآرامية الواردة في الكتابات القديمة

ولما كانت السنة ٤٧ ق م قدم الشام يوليوس قيصر فنزل في ساحل عكّة مع جنودهِ ثمّ سار الى فينيقية ولبنان فتقاطر اليهِ الشعب واستقبلهُ استقبالًا شائقًا عمل في قلبهِ وحملهُ على افاضة نعمهِ على الاهلين فخفّف من عبء الضرائب ومنح المُدن التي طاف فيها مواهب وألطافًا عديدة وألّف القلوب النافرة واعطى مدينة بترون الاستقلال

وسار نسيبهُ وخَلفهُ اوغسطس قيصر على منهاجهِ واختصّ لبنان بنعم سابغة ووهب جُبيل أفضالًا عميمة . فقام اهل بترون وجبيل بفروض الشكر لوليّ نعمتهما وأرّخوا نقودهما بتأريخ اكسيوم (٢ ذكرًا لانتصار اوغسطس على خصمهِ انطونيوس (٣١ ق . م)

ومن اجلّ آثار الرومانيين في فينيقية اتخاذهم بيروت كمستعمرةٍ رومانية . فلما كانت السنة ١٦ ق م قدم الشام اغريبا صهر اوغسطس قيصر وهو مقلّد بالسلطان

---

١) راجع ما قلنا عن اصل هذه الالفاظ في كتابنا الفروق . اطلب ايضًا المقالة التي حرّرناها في المشرق (١ : ٤٤٠ – ٤٤٨) . ونزيد هنا عن اصل كلمة « الشرطيّ » اننا وجدناها في كتابة يونانيّة مكتوبة بصورة (Χώρτη) منقولة اليها من اللّاتينيّة (cohors) . وهي قريبة من لفظة « الشرطيّ »

٢) ورد هذا التاريخ في كتابة جُبيليّة تُعرف بكتابة البلاط (Mission de Phénicie, 224) . وقد وجد الدكتور جول روڤيه نقودًا أُخرى تثبت هذا الامر لجبيل والبترون معًا

المطاق على كل انحاء سوريّة . فكان اوّل ما صرف اليهِ نظره ان يقيم مستعمرة يُحلّ فيها الجنود المتقاعدين ممّن امتازوا في خدمة الوطن . فلم يجد موقعاً اصلح شأناً وانسب مقاماً من بيروت فجعلها سكنى لفئتين (١ من الجند وهما الخامسة والثامنة المعروفتين بالفئة المقدونيّة والفئة الاوغسطيّة . وكانت كلتاهما أبلت بلاء حسناً في واقعة اكسيوم فأثابهما القيصر باقطاعهما مدينة بيروت

ولعلّ الكتابة التي وجدها سيتزين (راجع ص ١٤) بين اطلال دير القلعة والوارد فيها اسم اغريبا تُشير الى هذا القائد منشئ مستعمرة بيروت . ويُحتمل ايضاً نسبتها الى الملك هيرودس اغريبا الاول الذي زيّن بيروت بعد ذلك بعدّة بالابنية الفاخرة فتكون هذه الكتابة اثرًا يشهد لاهل المدينة بعرفة الجميل والشكر

وما لا يُختلَف في صحّتهِ ان صهر اوغسطس اعاد لبيروت زهاءها القديم بعد ان عبثت بها ايدي الزمان واخربها الطاغية تريفون . فاوعز الى جندهِ بان يشيّدوا فيها المباني الحسنة ويوفّروا فيها اسباب الهناء . فباشروا بذلك في السنة ١٥ ق م وواصلوا شغلهم بهمّة ألفها الرومانيّون في كل اعمالهم . وما عتّمت بيروت ان صارت مركزًا خطيرًا لادارة شؤون رومة في البحر المتوسط الذي كان غلب عليهِ سابقاً النفوذ اليونانيّ واصبحت مرقباً يرصدون منهُ كل من يعادي فتوحاتهم الجديدة فيقطعون للحال دابر اصحاب الفتن (٢

وكان الفضل في رفع قدر بيروت لاغريبا المذكور ولعلّهُ هو الذي تولّى بنفسهِ هذا العمل الاثير وانجزه بوقت قريب(٣ ودُعيت بيروت مذ ذاك الوقت « المستعمرة يوليا اوغسطا السعيدة » خصّها الملك اوغسطس بهذه الاسماء المشعرة باسم يوليوس قيصر وابنتهِ يولية واسمهِ الشخصي واضاف الى ذلك لقب « السعيدة » مؤذناً بحسن موقع بيروت وصفاء جوّها وكثرة خيراتها . وضُربت في بيروت نقود المستعمرات تمثّل جندياً يفلح الارض

---

١) وأرسلت فرقة منها الى بعلبك لتستعمرها فاحتلّت هذه المدينة الشهيرة

٢) راجع تاريخ الرومانيين للعلّامة ممسين Mommsen: *Rom. Geschichte*, V, 459

٣) راجع ما كتبهُ في ولاية اغريبا في الشام المؤرّخ جرلاخ H. Gerlach: *Die röm. Statthalter in Syrien u. Judæa* p. 16

فلم يمض ِ على بيروت الَّا زمن قليل حتى امتزج سكَّانها الاقدمون بالمستعمرين الرومان امتزاج الماء بالراح فكان من يحتلّ البلدة يحسبها مدينةً رومانيَّـة لتغلّب عوائد الرومان ولسانهم واسماؤهم عليها . والشاهد على ذلك الكتابات اللاتينيَّة العديدة المكتشفة في بيروت . ولا ترى من المخطوطات اليونانيَّة الَّا اليسير وهي احدث عهدًا من الكتابات اللاتينيَّة (١ . بل ظهر ايضاً في بيروت نفوذ آلهـة رومة فاخذ الفينيقيُّون شيئاً من شعائرهم الدينيَّة كما اثبتنا ذلك في اثناء كلامنا عن دير القلعة

ولم تكن الاقطاعات الموقوفة على المستعمرة البيروتيَّة منحصرة في ضواحي البلدة والبسائط المجاورة بل كانت تشمل الجبال المشرفة على المدينة وتمتدُّ من ثمَّ الى ان تبلغ قسماً من البقاع الى جهات منبع نهر العاصي

ونالت بيروت بارتقائها الى رتبة مستعمرة رومانيَّة امتيازات عديدة منها انَّ اهلها لم يدفعوا الجزية ومنها استقلالها عن حكم والي الولاية . فاضحت كانَّها دولة صغيرة في ضمن الاملاك الرومانيَّة في الشرق تتصرَّف باحكامها كالعاصمة نفسها . وكان لها على مثال رومة حاكمان (duumviri) يُرجع اليهما في التدبير يحـلَّان ويعقدان ويأمران وينهيان كقناصلة روميـة السنويين ولها دار ندوة يجلس فيهِ للبحث عن صوالح المدينة مئة من رؤساء الاعشار (décurions) . ومما ازدانت بهِ المدينة من البنايات على شبه رومية ساحةٌ كبرى (forum) يجتمع فيهـا الجمهور وملعبٌ للملاهي العمومية ولعلّها ايضاً خُصَّت بهيكل كهيكل المشتري في رومة (Capitole) . وكان الاهلون يختارون بنفسهم ولاتهم وحكَّامهم دون ان تتداخل العاصمة في شؤونهم ما لم يضطرّها الى ذلك الشغب وافتراق الكلمة بين السكَّان

فكل هذه الامتيازات التي ظفرت بها بيروت اثارت في اهـل المدن المجاورة لها الرغبة في نوال رتبة الاستعمار

---

١) وقـد عثرنا بعد ذلك على كتابتين جديدتين على مقربة من البـلد نشرناهما بالطبع

وقد زعم بعض الكتبة انّ مدرسة الفقه الروماني التي اشتهرت بها بيروت بعدئذٍ (١ كان انشاؤها في هذا الزمان . الا انّنا نرجّح قول الذين ذهبوا الى ان هذه المدرسة اقرب عهدًا فأُنشئت في اواسط القرن الثالث للمسيح . وانما كانت بيروت منذ حلول المستعمرين فيها محطًّا للطلبة الدارسين وصار مذ ذاك الحين لمدارسها شهرة عظمى . ومن جملة الفنون التي كان يعكف الاحداث على اتقانها العلوم الادبيَّة بفروعها . وقد اصاب احد اساتذة بيروت اسمهُ مرقس ڤاليريوس پروبس قصبة السبق بين علماء زمانهِ في المعارف وفنون الادب (٢ حتى ان بيروت عُدّت بسببهِ كحاضرة العلوم في المشرق (٣

وكان الرومان يتقاطرون الى بيروت لترويح النفس يؤثرونها على ما سواها من المدن الساحليَّة . وفيها كان ولاة الشام يقيمون الحفلات والمحاكم القضائيَّة كما فعلوا في قضيَّة سيلّاي (Scillai) وهيرودس الكبير فقضوا على سيلاي وهو وزير ملك النبط عبوداس ان يدفع لهيرودس خمسين وزنة فضَّة (٤ وان يكبح جماح قبائل البدو من العرب . وفي بيروت ايضاً قضى هيرودس المذكور ظلماً على اسكندر وارسطابولس ابنيه من مريمنة المكابيّة

ومن المدن التي نالت من سجال فضل الرومانيين مدينة جُبيل وان كانت حصّتها دون حصَّة بيروت بكثير وآثار الرومانيين في المدينة العاديَّة بيّنة من جملتها خطوط لاتينيَّة وجدت بين اطلالها الدارسة (٥

وكذلك ترى في قرية جونية مع ما يحيط بجوارها من الضياع دلائل تنبئ بمرور الرومانيين بها فمن ذلك الانصاب التي كانت تقام في جوانب الطرق للدلالة على المسافات ومنها جسر المعاملتين الذي سيأتي ذكرهُ . وفي اسامي القرى دلائل اخرى على الآثار الرومانية واليونانيَّة في لبنان مثل غسطا (Augusta) ودفنة (Δάφνη)

---

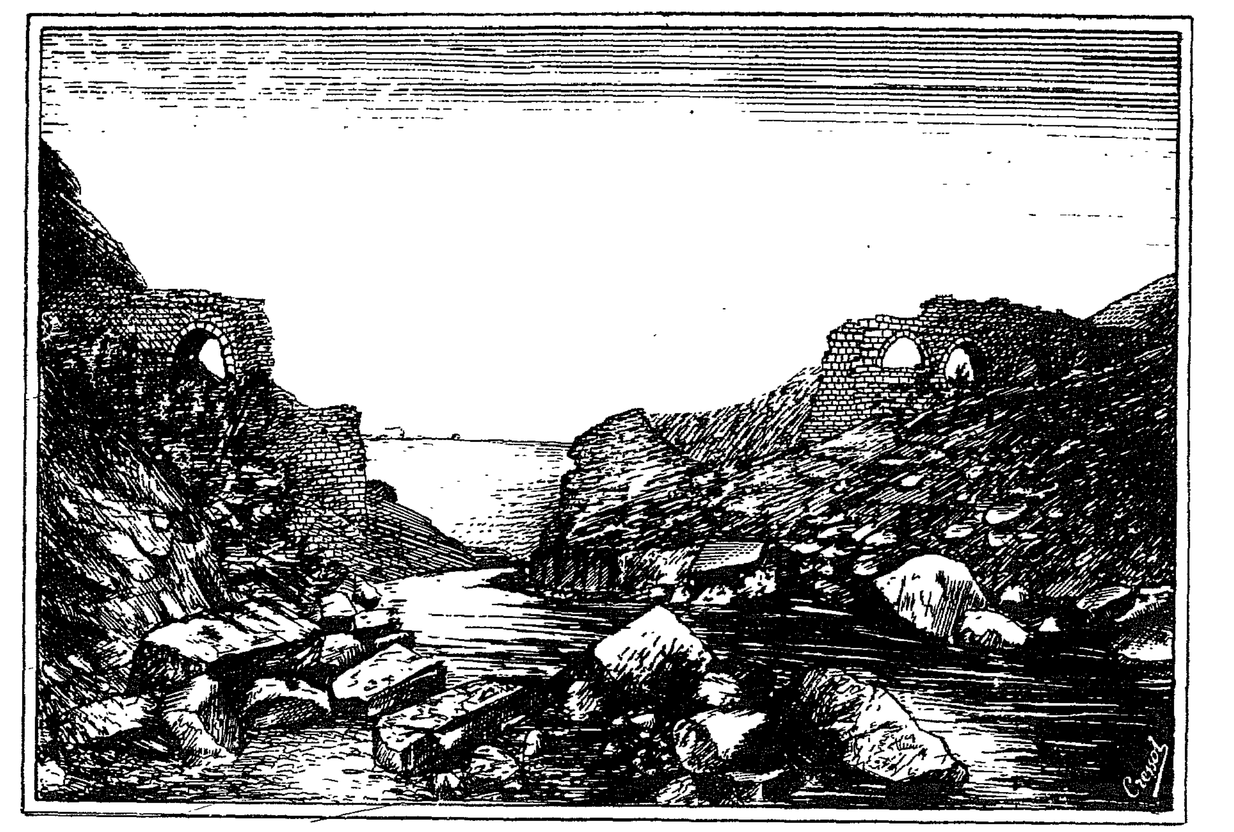
١) راجع Nonnus : *Dionysiaques*, 391 - 398

٢) راجع تاريخ سويتون Suetonius : *De illustr. Grammaticis*, XXIV

٣) راجع المؤرخ ممسين Mommsen, *l. c.* 459

٤) كانت وزنة الفضَّة تساوي في ذلك العهد ٦٧٢٠ فرنكاً

٥) راجع Mission de Phénicie, *pp.* 164, 192,280



قناة نهر بيروت (قناطر زبيدة)



وبلّونة . ومن ذلك ايضاً نواويس عليها كتابات لاتينيّة تُرى في لبنان . وفي دير بيت خشبو واحد منها (١

الّا ان الرومانيين لم يكتفوا بتدوين الكتابات الدالّة على ملكهم . فلما كان الله جبلهم على السياسة والعمل لم يحتلّوا بلداً دون ان يباشروا فيه اشغالاً خطيرة واعمالاً اثيرة تؤول كلها لمنفعة رعاياهم كالقني تُجلَب بها المياه الى اهل المدن من منابعها البعيدة . وقد سبق لنا ذكر قناة دير القلعة (ص ١٠)

وفي لبنان قني غير هذه المذكورة بل هي اعظم منها شأناً وامتن بنياناً . فمن ذلك القناة الضخمة التي كانت تجري بها مياه نهر بيروت وتُعرف اليوم بقناطر زبيدة وهي بلا شكّ من آثار الرومانيين

وقد بُنيت هذه القناة بنحيت الحجارة الكبرى وكانت تمرّ بوادي النهر فوق جسر عظيم ذي ثلاثة صفوف قناطر راكبة بعضها فوق بعض لا يزال منهُ الى يومنا بقايا حسنة تبعد نحو سبعة كيلومترات عن بيروت في شماليها بيد ان الصف الثالث من القناطر قد تهدّم وهبط ايضاً وسط الجسر فلا سبيل الى ان تجري فيهِ المياه . وكان علوّ هذا الجسر يبلغ عند تمامهِ خمسين متراً وطولهُ ٢٤٠

امـا زمان بنائه فليس من دليل عليه فانهُ لم يُكتَشَف حتى يومنا شيء من الكتابات المترجمة عن احواله . الّا ان متانة شغلهِ وهيأة بنائهِ المحكم تنطق بلسان حالها عن اصلهِ الرومانيّ وممّا يبيّن ان هذه القناة بقيت قروناً طويلة تجرّ المياه الى بيروت ان في مستودعها وجدرانها الداخليّة راسباً سميكاً من الموادّ الكلسيّة التي ابقتها المياه في ممرّها . ولعلّها خربت في الزلزلة التي حدثت في ايام يستنيان الملك لما صارت بيروت ردماً تنعق عليها الغربان

وكانت المياه بعد ان اجتازت الجسر المذكور تَلج في نفق (سرب) ينفذ في الجبل مسافة طويلة وينتهي الى السهل حيث صبرت منهُ بقايا على الزمان وكانت تجري المياه في منعطف الاشرافيّة فوق مسير السكّة الحديدية الحاليّة . وكانت القناة تفضي

---

١) Ibid., p. 328 . راجع ايضاً في تاريخ شمسين (ص ٤٤٧) الفصل الذي بهِ بيّن ما كان لاقليم سوريّة عند الرومانيين من الاعتبار والخطارة

الى المدينة مارّةً تحت مدرسة الحكمة للموارنة . وقد حسب حضرة الاب جوليان اليسوعيّ ان هذه القناة كانت تغني البلدة في كلّ ثانية بمتر مكعَّب من الماء اعني خمس عشرة مرَّة أزيد من ادوات الشركة الانكليزية حالًا (١

وكان الرومان قد ابتنوا في سورية قناةً رابعة كانت غايتها اجتلاب المياه من نهر ابرهيم الى جبيل الّا ان آثارها ليست كآثار قناة بيروت

وما يحسن بنا قولهُ ان الرومان لم يكونوا ليرضوا بالمياه المجلوبة في قنيّهم الّا ان تكون صافيةً نقيَّة من كل الاقذار ولذلك كانوا يباشرون بعملها عند رؤوس الينابيع وينقرونها بالصخر الاصمّ او يبنونها بحيث لا يدنّسها شيء من الاوساخ فيغطّونها بصفيح الحجارة . وفي عملهم هذا عبرة للشركات الحاليَّة لتصون المدن من جراثيم الامراض التي تسبّبها الاقذار الداخلة في القناة لاسيما بعد امطار الخريف حين تجرف السيول الى القناة اجساماً غريبة تنبثُّ بانحلالها في المياه كلّ انواع الجراثيم الفاسدة

فيظهر ممَّا تقدَّم ظهور الشمس في رابعة النهار انَّ الرومان بجلبهم المياه من الينابيع النازحة اخصبوا البلاد التي مدّوا فوق رواقها حمايتهم . ولعلّهم لم يكتفوا بذلك بل اقتسموا المياه في المدن فجعلوا لكل دار قسطاً كما تفعل في زماننا شركات المياه . ولنا شاهد على صحّة ذلك بكتابة وُجدت في مستعمرة رومانيَّة من اعمال افريقية كانت اصغر شأناً من بيروت وقد ذُكر فيها صريحاً هذا تقسيم المياه على بيوت الاهلين (٢ . فلا نظن انَّ بيروت حُرمت ما لم تحرَمْهُ غيرها من المستعمرات وهي اعظم منهنَّ قدرًا

ومن افضال الرومانيين التي لا تُنكر السكك والطرقات . فانهم ما نشبوا ان احتلُّوا ربوع الشام حتى سعوا باصطناع السكك فيها . وكانت غايتهم الاولى بذلك ان يمهّدوا الطرق لجيوشهم ثمَّ ينشّطوا بين رعاياهم التجارة والمعاملات . ولم يثنِ عزمهم ما لقوهُ في لبنان من المسالك الوعرة والصخور المرتفعة فانَّ همّتهم

١) راجع مجلّة الرسالات الكاثوليكية Missions Cath., 1894, p. 420-430 وفيها لهُ مقالة حسنة عن قناة بيروت الرومانية

٢) راجع مجموع الكتابات اللاتينيَّة (C. I. L., VIII, 51)

لم تعرف الكَلَل فوثَّروا الطرق ومهّدوا السُبل في جميع انحاء البلاد التي فتحوها . وكانت السكّة المارّة على سواحل فينيقية من عهد قدماء المصريين في القرن الخامس عشر قبل المسيح كما تشهد عليهِ المُكاتبات المكتشفة حديثاً في تلّ العمارنة (١ وقد جاء فيها ذكر العَجلات الحربية التي لا يمكن ان تسير دون سكك منظّمة . بيد ان هذه السكة القديمة لم يبقَ لها أثر بخلاف سكّة الرومان فانّ بقاياها لا تزال الى يومنا ظاهرةً على الساحل . وكذا قُل عن جميع السكك التي تولّوا صُنعها في لبنان

امّا الذين كانوا يقومون بهذه المشروعات الجليلة فهم جُند الرومانيين . ومصداق ذلك في كتابة لاتينيّة نُقشت عند معبر نهر الكلب . على ان التاريخ ينبئنا بأن هؤلاء الجنود في كل البلاد التي فتحتها رومة اعمالًا تُعَدّ من اعمال الجبابرة . فكم من قصور وقلاع شيّدوا وجسور عظيمة عمّروا وخنادق حفروها واسوار ضخمةٍ ابتنوها . وكان يسير في عداد الجنود قومٌ من المهندسين والصُنّاع يقومون بهذه الاعمال

ومما امتازت بهِ السكك الرومانية الوثاقة والمتانة مع توفير اسباب الراحة لبني السابلة . فكانوا يجعلون وسط السكّة مرتفعاً عن الحضيض يفرشونهُ بصفائح كبرى من الحجارة البركانيّة او ما شاكلها صلابةً . ولئلّا تنخسف بها الارض كانوا يضعون لسندها ثلاث طبقاتٍ متوالية اسفلُها من الحصباء والرمل ووُسطاها من دقيق الحجارة المعجونة بالكلس . اما الطبقة العليا فكان سَمكها ١٥ سنتيمترًا تتركّب من كِسَرات الخزَف والآجرّ بينها الملاط الشديد . وكان على جانبَي الطريق مسلك للسابلة (Trottoirs) برفعة قليلة عنها وعلى طرفيهِ حجارة ضخمة

وكان الرومان يضمنون الامان لسككهم بان يقيموا من مسافة الى اخرى مراكز لجندهم وخاناتٍ للسفر ومرابط للخَيل ومحطّات للبريد

---

١) راجع كتاب الاب ديلاتر (Delattre) اليسوعي المُعنون : Le Pays de Chanaan, province de l'empire égyptien, p. 39.

وكانوا ينصبون من ميل الى آخر انصاباً من الحجارة فيها ارقام تدلّ على مسافات الطريق وبُعد المكان عن حواضر المُدن . وربّما كانوا ينقشون في هذه الانصاب اسم القيصر الذي امر بنهج الطريق او اصلاحها . وهذه الانصاب مكّنت اهل البحث والتنقيب من تتبُّع آثار سكك الرومانيين . وتراها ملقاةً على ساحل البحر غائصةً في الرمل او مطمورة بين الردم وهي تدلُّ على السكّة الساحليّة التي مرّ ذكرها . والحقُّ يقال ان هذه السكة كانت طُرفة من عجائب البنايات وتراها الى اليوم منقورة في الصخر بقرب نهر الكلب وجونية . وعند ممرّ السيول والانهار ترى آثار الجسور العظمى التي كانوا اصطنعوها . نخصّ منها بالذكر جسر المعاملتين الذي لم يزل صابرًا على آفات الدهر

ومن سككهم الناطقة بفضلهم الطريق التي اصطنعوها من جبيل الى بعلبك وهي تمرّ في اعالي لبنان فوق العاقورة وهناك يشعب بين جبلَين تخرقهُ الطريق فتفضي الى بركة اليمّونة ثمّ تتّسع وتمتدّ فتُصبح من احسن السكك الجبليّة واتقنها لكنّ آثارها في منعطف لبنان الشرقيّ دارسةٌ . ولعلّ هذه الطريق سبقت عهد الرومان وما لا مُشاحّة فيهِ انّ الرومان تولّوا اصلاحها وتوسيعها كما يؤخذ ذلك من كتابة لدوميطيانس قيصر في آخر القرن الاول للمسيح وُجدت عند المكان المسمّى بدرّاجة مار سمعان

هذا ومهما توغّلت في لبنان وجدتَ للرومانيين مآثر وكتابات ونقوشاً . مثال ذلك الكتابات التي تراها في الوهاد الواقعة بين الصنّين وغابة الارز لاسيما في مقاطعات العاقورة وتنّورين وقرطبة حيث تجد كتابات عديدة خُطّ فيها مرارًا اسم ادريانُس الملك وحروف هذه الكتابات تبلغ نصف ذراع طولًا وقد اعتبرها بعض اهل تلك النواحي كأرصاد تحتها كنوز دفينة بحثوا عنها بعد نقر الحجارة وتحطيم الكتابات . امّا سبب تكرار اسم هذا القيصر الرومانيّ فلكونه قضى في بلاد الشام سنين طويلة وكان يصحبهُ في اسفارهِ عددٌ غفير من النقّاشين وارباب الصناعة والحرف . ومن المرجّح انّهُ مرّ بمدينة جبيل وزار معابد الزُّهرة في لبنان .

ومما يعود فضلهُ الى الرومان فيستوجبون لهُ الشكر العميم عنايتهم بنصب

الاشجار في لبنان . وقد مرّ لنا في المشرق (١ : ٧٢٨) كلام في ذلك وبيّنّا هناك انّ لبنان كان في القرون الخالية مجمّلًا بالغابات تعلو قمّتهُ ضروبٌ من الاشجار . واثبتنا ايضاً ان الحكومة الرومانيّة كانت احتكرت لها اربعة اصناف منها وهي العرعر والارز والسرو والصنوبر (١ وكلّها من اشجار الجبال المتينة الخشب الوارفة الظل اختصّها الرومان بانفسهم لئلّا يتصرّف بها الاهلون فيقطعوها بلا حكمةٍ . وكان الرومان يتّخذون منها الخشب لتجهيز سفنهم وابتناء مساكنهم في سوريّة

وممّا يُخبر عن بمبيُّوس القائد الروماني فاتح الشام انهُ اصطنع لهُ اسطولًا من خشب لبنان فقطع دابر القرصان الذين كانوا يتجوَّلون في بحر الروم متلصّصين . ولمّا انتشبت الحرب بين بمبيُّوس المذكور ويوليوس قيصر تولّى كاسيوس من اصحاب بمبيُّوس قيادة اسطول الشام وأبحر بها الى صِقِلّية لمحاربة سفن قيصر واحرقها (٢ وكل ذلك دليل على اهتمام الرومانيين بزراعة لبنان وتوفير غاباتها

ومن كل ما سبق يفهم القارئ مـا للرومان من المشروعات الطيبة والاعمال الجليلة التي لم نذكر منها سوى برضٍ من عدّ . وفي تتمّة مقالاتنـا عن آثار لبنان سيأتي ذكرهم غير مرّة . وفي ما سبق كفاية لتقدير اعمالهم

وخلاصة قولنا عن الرومـان انّهم في ولايتهم كانوا يهتمّون بصوالح رعاياهم ويوفّرون لهم اسباب النجاح ويوسعونهم أمانًا وراحةً ونال اهل سوريّة بهمّتهم

---

١) وقد ارتأى العلّامة الاب مرتينوس اليسوعيّ في تاريخ لبنان ان الكتابة التي تدلّ على احتكار الرومان لهذه الاشجار والتي شرحناها في المشرق (١ : ٧٣٧) انما كان لهـا معنًى آخر . فظنّ الاب المذكور ان الرومان كانوا خصّصوا هذه الاشجار للإلٰهة عشتروت او الزهرة . قال : « ومما يؤيد رأيي ان احتكار هـذه الاشجار لم نجد لهُ اثرًا سوى في بلاد جبيل حيث كانت عبادة الزهرة متغلّبـة شائعة . ثم كثيرًا ما ترى على الحجارة التي وردت فيها الكتابة المذكورة حروفًا ثلاثة غيرها باللاتينية وهي D F S معناهـا على ظنّهِ D(eæ) F(ecit) S(acrum) « خصصها بالإلٰهة » . اي ان ادريان الملك خصّص بعبـادة الزُّهرة الاربعـة الاصناف من الشجر المذكور . (قلنا) وهذا شرح غير ثابت كما بيّنهُ حضرة الاب جلابرت (Mélanges de la Fac. Orientale. IV. 209 seqq) ومعنى هذه الحروف Definitio sylvarum اي تحديد الغابات (المحتكرة)

٢) راجع تاريخ يوليوس قيصر (Cæsar, *Bell. Civil.* III)

قسماً وافياً من ذلك السلام الذي نُسب الى رومة (pax romana) متّعنا الله بمثله في ظلّ دولتنا العليّة آمين

٦ الصنّين

قد سبق ان القائد الروماني پمپيُوس اخرب في اثناء محاربة لبنان قلعةً تُدعى بورومة . ولكن لم نتعرّض للبحث عن موقع هـذا الموضع . فانَّ من اصحاب العاديّات من ظنّ انها سمار جبيل وقيل قلعة الحصن في نواحي دوما وقيل غير ذلك . وقد فات هؤلاء الكتبة انَّ الجغرافيّ اسطرابون في كلامه عن بورومة جمع بينهـا وبين قلعة اخرى دعاهـا « سنَّان » وسنَّان على الرأي الارجح قلعة قريبة من جبل صنّين فينتج عن ذلك ان قلعة بورومة ليست بعيدة منهُ ايضاً . واذا طلبنا في جوار الصنّين موضعاً في اسمه شبهٌ بقلعة بورومة لا نجـد غير برمّانا . ومن المحتمل ان الاقدمين لحسن موقع هذا المكان كانوا شيَّدوا هناك حصناً حريزًا يشرف على الوديان المجاورة وعلى سواحل بيروت . على اننا لم نجد في برمّانا اثرًا لهذه القلعـة ولعلَّ پمپيُوس قوَّض اساسها او اتت على بقاياها مصائب الدهر فابادتها

امَّا قلعة « سنَّان » فمع كونهـا على مقربة من جبل صنّين لم تـكن في مشارفه العليا لانَّ البرد هناك قارسٌ والسُّكنى في الشتاء شاقّة وانما كانت على منعطف رُباهُ . والارجح انَّ هذه القلعة كانت مبنيَّـةً فوق احدى السكك في الوديان الفاصلة الصنّين عن جبل الكنيسة او الحـاجزة بين جبل الباروك وجبل الكنيسة اعني بقرب سكّة الشام الحاليّة . وهذه المواقع خطيرة لانّها كمضيق يُفضي الى بطاح سوريّة المجوَّفة

واما اسم قلعة سنَّان (Σιννᾶν) المذكورة في كتاب اسطرابون فانَّهُ اسم الصنّين بعينه لكنَّهُ على صورة لفظه القديمة

وقد ارتأى بعض الكتبة المحدثين نقلًا عن تقليد شائع في لبنـان انَّ جبل صنّين هو الجبل المدعو « سنير » المذكور في الكتاب الكريم . وقد وهموا بمشابهة الاسماء مع انَّ سفر تثنية الاشتراع (٣ : ٩) ينفي صريحاً هذا الرأي ويدعو حرمون سنير عند قوله : « وحرمون يسمّيه الصيدونيُّون سِريون والاموريُّون سنير » .

وانما شُبّه الامر على البعض لوجودهم في سفر نشيد الاناشيد اسم سنير مقروناً باسم لبنان حيث يقول العروس لعروسته السريّة (نش ٤ : ٨) « هلمّي معي من لبنان من رأس امانة من رأس سنير » (١ . وزعم هؤلاء ان امانة اسم الجبل المشرف على حمّانا . وكلُّ هذه الاقاويل مزاعم لا سند لها وان لم تكن محالًا . واسم لبنان في التوراة لا يُطلَق فقط على الجبل المعروف اليوم بهذا الاسم بل يدلُّ ايضاً على جبل الشيخ الذي بازائهِ الّا اذا زاد الكتاب صفةً ما تبيّن نية الكاتب الكريم كقولهِ مثلًا (يوشع ١٣ : ٥) : « لبنان جهة مشرق الشمس »

واما اسم « سنير » فتجدهُ في كثير من كتبة العرب كالمسعودي فانهُ يقول (في كتاب التنبيه ص ١٥٣) في اثناء كلامهِ عن الموارنة : « انّ امرهم مشهور بالشام وغيرها اكثرهم في جبل لبنان وسنير وحمص واعمالها » . وفي كتاب المسالك والممالك لابن حوقل (ص ١١٤) مدلول سنير على جبل الشيخ او على الجبال الواقعة في شمالي غربيّ دمشق . وجاء في الصبح الاعشى للقلقشندي (ص ١١٣١ من نسخة مكتبتنا الشرقية) : ثم يمتدُّ (لبنان) الى الشمال ويجاور دمشق واذا صار في شماليها سمّي جبل سنير . وكذا في مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني وغيرهم . لكنَّهُ يؤخذ من قول ياقوت في معجم البلدان (٣ : ١٧٥) انّ سنير تدلُّ ايضاً على قسمٍ من لبنان او على الجبال الواقعة « بين حمص وبعلبك » . اما لفظة « صنّين » فيظهر انّها حديثة العهد لم نجد لها ذكرًا في تآليف العرب القديمة

ومن يتسلّق قمم صنّين العليا يجد ثمّت آثارًا من بناء مربّع مشيّد بنحيت الحجارة . وعلى مشارف جبل الكنيسة بناء آخر مثلهُ . ولا يمكننا ان نحكم على اصل هذه الابنية حكماً قطعيًّا ولعلّها من مآثر الفينيقيين بنوها لمباشرة مناسكهم الدينية . والله اعلم

---

١) راجع ايضاً نبوّة حزقيال (٢٧ : ٥)

٧ ساحل علما

فلنواصل الآن سيرنا الى جهات الشمال بعد ان استطردنا الى ذكر اعالي لبنان واعمال الرومانيين في انحائهِ . وفي كسروان آثار قديمة وصفنا منها قسماً في الفصول السابقة وهاك ما بقي علينا وصفهُ

ومما يستلفت الانظار في اسفل كسروان متحجّرات على شبه السمك تجد منها شيئاً كثيراً في ساحل علما . وهذه الآثار قد ورد ذكرها في اسفار قدماء الرحّالين وقد ذكرها المسافر الشهير منكونيس (Monconys) في رحلتهِ المكتوبة في القرن السابع عشر (ج ٢ ص ٧١) وكرّر بعدهُ اصحاب الاسفار وصفها . وجاء في ترجمة القديس لويس التاسع ملك فرنسة للسير دي جوانفيل عن اسماك متحجّرة جمعها قوم من لبنان ما تعريبهُ (١ : «ولما كان الملك في صيداء اتى اليهِ قومٌ بحجر غريب ذي قِشَر وفُلوس . وكان اذا نزع عنها قشرة وجد بين كل حجرين شبه سمكة بحريّة متحجّرة لا ينقصها شيء من هيئة الاسماك وتركيبها وزعانفها وحسكاتها والوانها كأنّها اسماك حيّة . وقد اعطاني الملك منها حجراً فوجدت فيهِ سمكةً من نوع الشبوط تامّة البنية ذات لون اسمر» . وفي متحف عاديّات مدرستنا الكليّة عدد كبير من هذه المتحجّرات التي يرتقي عهدها الى الازمنة السابقة التاريخ

هذا وفي ما مرّ (راجع الصفحة ٥) قد اتينا بذكر قرى كسروان المجاورة لخور جونية . فلنذكر الان القرى العليا من هذه المقاطعة . واوّلها غزير يوجد في اسفلها مدافن ومعاصر قديمة . اما قصبة كسروان فلم نرَ لها اثراً ينبئ بوجودها قبل القرون المتوسطة . الّا انّ اسمها سرياني (ܟܣܪܘܢ) كاسماء اغلب قرى لبنان ومعناهُ «القطيع» او «المقطوع» (٢

وقد وجد بعض الرحّالة في «فتقا» على بعد ساعة من غزير شمالاً كتابات عديدة

---

١) راجع Joinville, *ch.* 118, *ed. Wailly*, *p.* 330

٢) لا «قطيع الغنم» كما زعم ف . ابي حلقة في جغرافيّتهِ (راجع المشرق ٣ : ٤٧٥)

يونانيَّة احداها من سنة ١١١ للمسيح يُستفاد منها انهُ كان هناك هيكل . وهذا دليل على ان فتقا كانت موضعاً معتبرًا

٨ مِعراب

معراب مزرعةٌ على عِطف الجبل بين دلبتا وعين ورقة تبعد نحو كيلومتر ونصف من عين ورقة في شرقيّها بجهة ريفون . فيها آثار ماثلة يعرفها اهل تلك الضواحي بقلعة معراب او يدعونها بطلق اسم القلعة . والارجح ان هذه الاخربة احد المعابد العديدة التي اقامها ارباب الدين القديم على مشارف لبنان تعزيزًا لديانتهم . وهو نعم الموقع يمتدُّ منهُ البصر جنوباً الى بيروت وبحرها اللازوردي وشمالًا الى جبيل وبطائحها الخضراء . والآثار الباقية عبارة عن جدران ضخمة الحجارة طولها ٢٥ مترًا في ١٠ امتار عرضاً و ٦ امتار علوًّا . وقد قيست بعض الحجارة فاذا طولها



آثار قلعة معراب

يبلغ خمسة امتار بنيّفٍ في عرض متريْن . وفي البناية حجارة متّسعة محفورة في الصخر ذات حافّة ينفذ فيها سقايةٌ لعلّها جُعلت قديمًا لتجري فيها دماء الذبائح وأسكاب التقادم . وهذه غاية ما نعلمهُ عن هذه البناية التي أعلن اولًا امرها اليسوعيّون في غزير فأرشدوا اليها رينان ايام سياحتهِ في لبنان فذكرها في كتابهِ « بعثة فينيقية » (١ ولم يصفها (راجع تاريخ الموارنة للدويهي ١٦ و ١٢٦)

٩ غِينة

فاذا انحدرنا الآن من مزرعة مِعراب وعبرنا وادي غزير ثم اتّجهنا الى ناحية كفور (٢ حيث تنتصب قمّة مستديرة الشكل تُعرف برأس الكنيسة وجدنا على مسافة نحو كيلومترين منها بجوار قرية غينة صخرةً منفردة يبلغ علوّها بضعة امتار وللصخرة المذكورة وجهان الشماليّ والشرقيّ قد نحتها القدماء فنقشوا في كلّ منهما ثلاث تصاوير ناتئة طمس الدهر قسمًا منها وحُطِّم منها قسمٌ عمدًا . واوّل من وقف من العلماء على هذه النقوش الغريبة الابوان اليسوعيّان بوركنو (Bourquenoud) وروز (Roze) في سنة ١٨٥٧ ورسما صوَرها في مجلّة الابحاث (٣

فالجهة الشرقيّة وهي الكبرى تمثّل بطلًا عَبل الذراعين شديد الجسم في يدهِ رمحٌ مُشرع كأنّهُ متحفّز للقتال وقد صوّب بسنانهِ الى صدر حيوان ضارٍ هجم عليهِ وسند احدى قوائمهِ الى كتفهِ كأنّهُ يحاول افتراسهُ . والشخص المنوّه بهِ لابس ثوبًا خفيفًا وهو شعار يكاد يبلغ ركبتهُ تضمّهُ حُبكة عند وسطهِ . اما هيئة الحيوان فهي اقرب الى الدبّ منها الى الاسد . وقياس القسم المنحوت من الصخر يبلغ مترًا و ٩٦ سنتيمترًا علوًّا ومترين و ٨٨ س . عرضًا

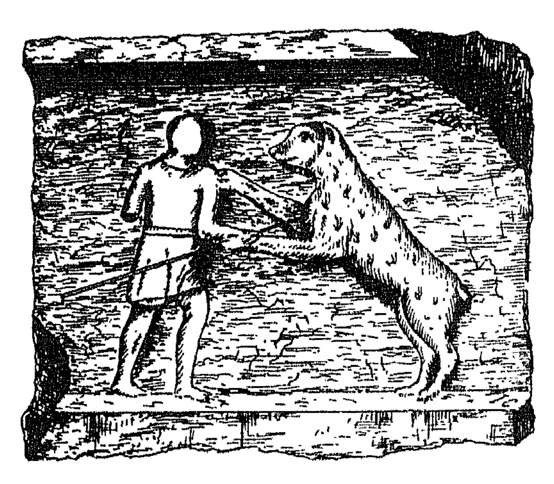
وبقرب الصورة الموصوفة آنفًا نقشٌ آخر اصغر منهُ يمثّل امرأةً رشيقة القدّ جالسة

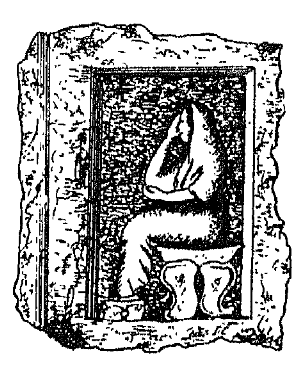
---

١) راجع Mission de Phénicie, p. 328

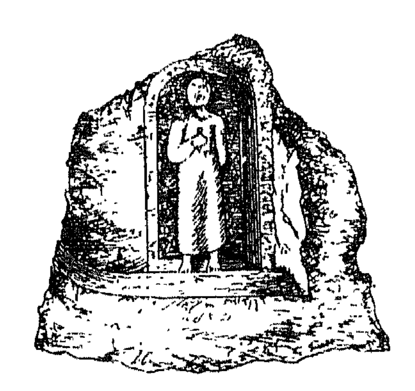
٢) راجع ما ورد عن كفور في الكتاب السابق ذكره (ص ٣٣٧)

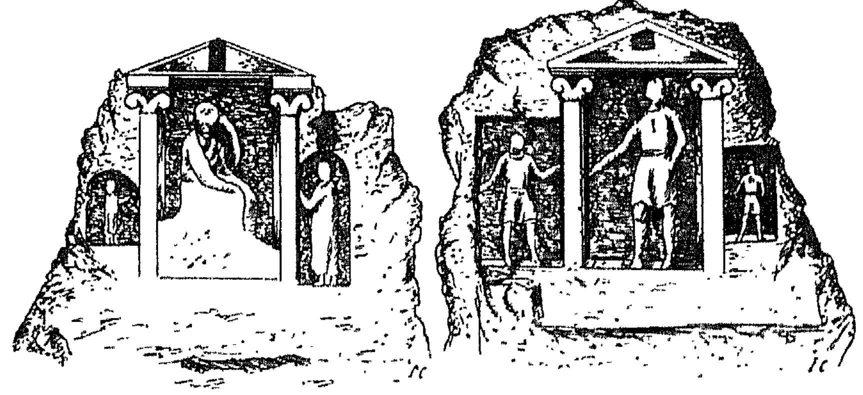
٣) راجع Etudes Religieuses, 1861





آثار غينة





آثار المشنقة



على مقعد تراها كسيفة البال كئيبة رافعة يمينها الى وجهها وبصرها مائل الى صورة البطل القاتل . وعلى رأسها منديل يبلغ طرفاهُ الى وسطها . اما رجلاها فتسندهما الى مسند نقوشهُ على مثال المقعد التي هي جالسة عليهِ

وفي الجهة الثانية من الصخر على شمال هذه التصاوير رسوم اخرى بيد انّها داثرة مطموسة . وممَّا يظهر منها جليًّا صورة شخص منتصب يتّكئ الى شبه سهم او صولجان تلوح على وجههِ امارات السكينة والوقار . امَّا بقيَّة التصاوير فلا سبيل الى وصفها او اثبات رسومها لاندثارها وما لا شكَّ فيهِ انَّ ثمَّ صورة حيوان ولعلها وحشان . وللاب العلّامة بوركتو (١ مزاعم في شرح تصاوير هذا النصب الثاني لا يوافقهُ عليها العلماء

وما من شأنهِ ان يكشف عن سرّ معنى هذه النقوش انَّ تحت رسوم الجهة الشرقيَّة مغارةً نُحتت في الصخر

ولا ريب انَّ هذه البقايا تنبئ بآثار تعبُّد اهل فينيقية لادونيس او تموز (٢ . ولعلَّ الاحاديث الشائعة بين القوم كانت تشير الى قرية غِينة وتروي عن موت هذا الاله انهُ قُتل في هذا المكان فناحت عليهِ امهُ الزهرة او عشتاروت . امـا المدفن فالمرجَّح انَّهُ نُحت تخليدًا لهذه القصَّة لا لتمثيل قبر حقيقيّ

وما يحسن ذكرهُ هنا ما ورد عن مأتم تموز في سفر حزقيال اذ رأى هذا النبي رجساً في الهيكل فوصفهُ بقولهِ (حز ٨ : ١٤) : « واتى بي الى مدخل بيت الرب . . . فاذا هناك نساءٌ جالسات يبكينَ على تموز »

على انَّ هذه الرسوم الدينيَّة لا يتَّضح معناها تماماً الَّا بمقابلتها بآثار اخرى صبرت على الايام عند قرية المشنقة

١٠ المشنقة

موقع مآثرها الجليلة في وادي نهر ابرهيم على ربوة ذات قطع عموديّ مشرفة

١) راجع مجلَّة الابحاث Etudes, 1861, p. 945

٢) ومدلول كلا الاسمين واحدٌ

على النهر ولتلك الضواحي منظر يجمع بين الحسن والغرابة . اما الآثار التي تستلفت الخاطر في المشنقة فاربعة :

(الاولى) عبارة عن سور او حمىً مربّع مستطيل تكسيرهُ ٩٥ مترًا طولًا في ٥٠ عرضاً . وباب البناء من جهة الشرق . والظاهر ان هذا التربيع كان يحدّ سابقاً المعبد والابنية اللاحقة بهِ كما ترى في قلعة فقرا وفي حصن سليمان في بلاد النصيرية وغيرهما . وحائط السور قليل السمك بسيط البناء يستند في جهتهِ الشماليَّة الى صخر . وفي داخل السور في الجهة المقابلة للباب بقايا اساس مربّع بُنيت فوقهُ عواميد لم يبقَ منها غير حجارتها السفليَّة . وقد اتُّخذ جانب من أخربة هذا البناء لعمارة حديثة

واذا احفينا في البحث عن اصل هذه الاطلال وجدنا انها كانت هيكلًا يتوسَّط السور الذي ذكرناهُ . وكان لهذا الهيكل اعمدة من الطراز الهندسي القورنثيّ يعلوه شبه هرم مخروط الشكل بقي منهُ حجران منقوشان نقشاً بديعاً

والآثار (الثانية) على شمال السور الموصوف تبعد عنهُ ١٢٠ مترًا . فهناك مجاز قد نُحت في الصخر ونُقش على جانبيهِ رسوم قديمة . وفوق هذا الصخر نواويس ضخمة منقورة في الحجر على شكل أجران مستطيلة لها اغطية مخروطة الجوانب . امَّا النقوش فهي بائرة وهي سبعةٌ عدًّا ففي مدخل المجاز المذكور صورتان عظيمتان متقابلتان من كل جانب وهما منقوشتان في ضمن إطار او كوًى من صنف الهندسة الايونيَّة ويلاصق هاتين الصورتين من جانبيهما صورتان اخريان اصغر منهما ولكل منهما اطار متقوّس كما ترى في الصور التي رسمناها . والصورة السابعة وهي متوسطة في الكبر نُقشت في الصخر منفردةً عن بقيَّة التصاوير من جهة الشرق

واحدى الصورتين الكبيرتين التي عن يمين العابر في الصخر تمثّل بطلًا لبسهُ كالشخص الذي وصفناهُ في نصب غينة . ولعلّ الصورة الموازية والدارسة لقدمها تمثّل امرأة تنوح . واما اشخاص الصوَر الصغرى التي على طرَفي الصورتين الكُبريين فمن تَبعة الشخصين المتوسّطين تراهم يحدجونهما بالنظر ويتأثرون بحركاتهما

ومعنى هذه التصاوير اذا قوبلت بتصاوير غينة يتَّضح جليًّا وانَّما تمثّل نبذة



تمثال الزُّهرة المعبودة في لبنان



من ترجمة تموُّز اعني موتهُ ومناحة الزهرة عليهِ . قال مَكروب المؤرّخ اللاتيني (١ : « والزهرة مصوَّرة في لبنان مقنَّعة الرأس كئيبة الوجه تسند رأسها الى شمالها المحتجبة بردائها » (٢

والاثر (الثالث) من آثار المشنقة على مسافة عشر دقائق شرقاً من باب السور فهناك ساحة بُني فيها في القرون الغابرة معبد صغير اخرَبهُ بعض طلّاب الكنوز منذ سنين قليلة . وبين الرَّدم نُصُب أُقيم ذكرًا للبعل وفي رأس النصب اكليـل وعلى طرفيهِ نقوش تمثّل الصاعقة (٣

امَّا الاثر (الرابع) فهو في شمالي غربيّ السور الاعظم فهناك ابنية من ضيعـة سكنها قديماً النصارى والدليل على ذلك انَّ من جمـلة الاخربة كنيسة على هيئة الكنائس البوزنطيَّة . ولعلّ النصارى احتلُّوها الى ايام الفتح الاسلاميّ

هذا وقد بحثنا عن اسم المشنقة القديم فلم نجدهُ وكذا قُل عن اسمَي غينـة ودير القلعة فان التواريخ القديمة لم تُفدنا من امرها شيئاً . وما لا شبهة فيهِ انَّ هذه المعابد التي وصفناها أُقيمت لاكرام تموُّز إله الجُبَيليـين وكان ذكرهُ شائعاً في تلك الانحاء وكثرت الهياكل على اسمهِ . يُستدلّ على ذلك من اسم نهر ابراهيم عند القدماء وكانوا يدعونهُ ادونيس (Adonis) وهو تموُّز . امَّا عهد هـذه الابنية فمجهول ايضاً لكنَّهُ على الاصحّ لا يسبق زمن تملُّك الرومان على سوريَّة ولبنان

١١ الديانة الفينيقية في لبنان

قد اشرنا في الفصول السابقة الى دين اهل لبنان ومناسكهم وهياكل آلهتهم المشيدة في مشارف الجبل كدير القلعة وغينة والمشنقة . وعدَّدنا اسماء آلهتهم كالبعل وعشتاروت وتموُّز . الَّا اننا احببنا ان نفرد هنا فصلًا خصوصيًّا لهذا البحث الهامّ ونلخص كل ما ثبت لدى العلماء من هذا القبيل فان هذا النظر العام من شأنهِ ان

١) راجع كتابهُ Saturnales I, 21
٢) وقد رسمنا صورتها الموصوفة هنا
٣) راجع بعثة فينيقية Mission de Phénicie, Pl. XXXII

يوضح كثيراً من احوال لبنان ويكشف ما استغلق فهمهُ من امور اهلهِ الاقدمين

وقد شاء الله ان يكون الفينيقيُّون قوماً وَسطاً بين الشعوب الشرقيَّة القديمة والامم الغربيَّة التي خلفتها . ولا تخرج ديانتهم عن هذا الحكم بل تراها بعد الفحص المدقّق انَّها تُشبه في كثير من امورها ديانة مصر وآشور وان آلهة الفينيقيين هي الهة ممالك النيل والفرات استعارها منهم بعدئذٍ اليونان فكساها شعراؤهم بضروب من المحسّنات الخياليَّة وزوّقوها بمسحة من الرونق والجلال

ومن خواصّ ديانة الفينيقيّين انَّهم كانوا يتعبَّدون لاوثانهم دون ان يُجهدوا فكرهم في تنظيم آلهتهم وبيان العلاقات التي تربط الهاً بآخر كما ترى في ديانة الاشوريين واصنام اليونان فانَّ بين الهة هؤلاء الشعوب بعض النظام بحيث يتسلسل صغيرهم من كبيرهم وينتمي بعضهم الى بعض بخلاف آلهة الفينيقيين فانَّ في معبوداتهم تشويشاً ما ولعلَّ هذا الاختلاط ينجم عن حالة اهل فينيقية السياسيَّة واستقلال مدنهم . وربما وجدتَ المعبود الواحد متَّصفاً في مدينة بصفات لم يُعرف بها في مدينة اخرى قريبة منها

وما لا مشاحَّة فيهِ انَّ عبادة البعل كانت تعمّ كلَّ انحاء فينيقية . ومعنى اسمهِ في اللغات الساميَّة الربّ والسيّد وإنْ ذلك الَّا صفة عامَّة لجميع آلهة الفينيقيَّة كانوا ينعتون بها معبوداتهم الخاصَّة في كل مدينة فيقولون « بَعل صيدون وبعل بريث وبعل طرسوس وبعل لبنان وبعل حرمون » وهلمَّ جرًّا . واسم الجمع بعليم وردت غير مرَّة في اسفار العهد القديم . غير انَّ مدلول هذه المسمّيات في الغالب الهٌ واحد كانوا يختصُّونهُ في كل مدينة بعبادة محليَّة تبين بعض صفاتهِ . ثمَّ خُدع القوم بهذه الصفات الخاصَّة فجعلوها آلهةً ثانويَّة قائمة بذاتها دعوها البعليم وكلُّها منبثق من الاله الاعظم الاصليّ تشترك بقسمٍ من كمالاتهِ وقواهُ . وامسى الاله الواحد منقسماً الى آلهةٍ متعدّدة

الَّا انَّ تقسيم الذات الالهيَّة كثيراً ما كان يتبع تخطيط البلدان فيبني مثلًا اهل مدينةٍ هيكلًا للاله العظيم فلا يلبثون ان يعتبروا ذلك المقام كمسكن لبعض قوى الاله ثمَّ يتَّخذونهُ كمعبودٍ مستقلّ . وعلى هذه الصورة تعدَّدت البعليم في صور وصيداء ولبنان وحرمون وصارت لاحقةً بالمبدإ الاوَّل والبعل الاعظم

امّا اذا استقصينا البحث عن هذا البعل الاوّل المذكور فيظهر جليًا انّ المعنيّ به انّما هي الطبيعة الهيوليّة بكلّ قواها تُبدع وتُفني · وتخلق وتلاشي · وتحيي وتُميت · وكانوا يعرّفون هذا الاله باسماء مخصوصة في كلّ حالةٍ من حالاتهِ فأدّت بهم اسماؤهُ الى ان اعتبروهُ كآلهة شتّى

وكانوا اذا حسبوهُ كعلّة الموجودات ومُولد الكائنات يدعونهُ بعل تمّوز او أدون ومنهُ اشتقّ اليونان اسم ادونيس (١ (Adonis) · ومن المحتمل ان يكون ادون هذا هو المعروف ايضاً باسم بعل لبنان · اما تكنيتهُ ببعل سمائيم او بعل السماوات فكان يراد بهِ اله النور وجرم الشمس · وكان لكل البعليم علاقة مع بعض النجوم السيّارة الّا ان الاله « تمّوز ادونيس » معبود مدينة جبيل كانت علاقتهُ مع الاجرام الفلكيّة اعظم من غيره · وكان الفينيقيّون في زمن الدولة اليونانيّة يزعمون ان ادونيس المشار اليهِ انّما كان شابًّا يتصيّد في الشام وانهُ كان ابناً لعشتروت ففي بعض الايام خرج سائحًا الى جبال لبنان ليتصيّد في غاباتها المشرفة على جُبيل اذ وثب عليهِ خنزير برّي فقتلهُ

الّا ان هذه الخرافة على زعمهم كانت رمزًا عن الشمس وتقلّباتها من حالة النور الى الظلام في بعض فصول السنة · فكانوا اذا قدم الخريف يحتفلون باعياد يدعونها جنازة ادونيس (Adonies) ففي تلك الايام كنت ترى نساءَهم يلبسنَ الحداد ويذهبنَ الى نهر ابرهيم المخصّص لذكر ادونيس فيجلسنَ على ضفّتيهِ باكيات معولات يرثينَ موت الاله ومحاسن الطبيعة التي يعبّر عنها (٢ · وكان البعض منهنّ يُسبغنَ ذيولهنّ ويسدلنَ شعورهنّ ويسرنَ في شوارع جُبيل مغبّراتٍ شُعثًا يلطمنَ وجوههنّ ويولولنَ على تمّوز ويغنّينَ الاغاني الشجيّة المبكية

اما اذا انتهى فصل الشتاء وزهت الدنيا بقدوم الربيع وانقشاع الغيوم عن الشمس فكانوا يقيمون لذلك مواسم تنبئ بفرط سرورهم وعظم افراحهم

---

١) ولعلّ هذه الصيغة هي صيغة المنادى بدلًا من « ادوني » اي سيّدي · وكانوا اذا ابتهلوا شفاعة البعل يدعونهُ بهذا الاسم

٢) راجع آية حزقيال النبي وما ذكرناهُ في الفصلين السابقين عن نقوش غينة والمشنقة (ص ٣٨ — ٤١)

ومن تعبّدهم للاجرام الفلكيّة المنيرة نتجت عبادتهم للنار وكان الفينيقيّون يعظّمونها كاحدى اركان الطبيعة ويقدّمون لها الذبائح فيحرقونها وربّما اتخذوا لمحرقاتهم اطفالًا صغارًا لا يرثون لحالهم

وممّا يشعر بتعبّدهم للافلاك عبادتهم للبعل حامون اي المحرق وكان اسمهُ شائعاً عند القرطجنيين وللبعل رَصَف (Reseph) وهو اله الصاعقة ونار السماء . وكذا كان اهل صور يعبدون بعل ملكرت الههم الاعظم على صورة حجر منيرة . ومن ذلك ايضاً تعبُّدهم للرجوم او الحجارة الواقعة من السماء

وزد على ما سبق ان عبادة الحجارة كانت من خواص دين الفينيقيين فكانوا يقيمون انصاباً ينحتونها ويدعونها بيت ايل (١ اي بيت الله يزعمون انَّ الذات الالهيَّة تحلُّ فيها وتسكنها . واكثر ما كانوا يختارون لعبادتهم حجارة الرجوم لاسيما تلك التي رأوها ساقطة من الهواء على شكل شهب ناريَّة فيعدُّونها لذلك هبةً سماويَّة . واذ كانت هذه الرجوم مركَّبة من مواد بركانيَّة ذات لون اسود وتوفَّر عددها في لبنان فلذلك شاعت عبادتها في انحائهِ . وممَّا كان يزيد في اعتبارها عند القوم ان يروها على شكل مخروط لما يجدون في هذا الشكل من الرموز الدينيَّة كما اثبتنا ذلك في بعض فصولنا السابقة (٢

وكان البعل او الطبيعة الاله معتبرا عند الفينيقيين كذي مبدأين ممتازين احدهما مبدأ الخليقة الفاعل والاخر مبدأُها المفعول . ومن المبدإ المفعول نتجت الإلهات الإناث وليست الأُنثى عندهم سوى إعلان لقوَّة الاله الذكر تظهر خواصّهُ وتقابلهُ . وكما انَّ البعل كان الاله العظيم كذلك كانت عشتاروت الإلهة الكبرى وهي تنقسم اقساماً عديدة على مثال البعل فترى لكلّ بعل خاصّ يُعبد في بعض المدن بعلةً من جنسهِ . وحيثما كان البعل ممثِّلًا الشمس كانت البعلة تمثِّل القمر . ولبعل السمائيم إلهةٌ توازيهِ يدعونها ملكة هالسمائيم . ومن الازواج المذكورة في الكتابات الفينيقية بعل

---

١) ومنها اشتقّ اليونان لفظتهم Βαιτύλιον . راجع قاموس التوراة لفيغورو
٢) راجع المشرق (٢ : ١٢٧) ومقالتنا السابقة في دير القلعة

صيدون وعشتاروت في صيداء وتمّوز وبَعلة جَبَل (١ في جُبَيل . وكثيرًا ما يُطلق على بَعلة جبل اسم البعلة بلا اضافة وكان هيكلها من اشهر الهياكل تحجّ اليهِ الزوّار من كل صوب

وكانت عشتاروت والبعل ومَلكرت كصنف من التثليث الالهيّ في صور . وكان لهذا الثالوث مرتبة عليا بين الآلهة يذعن لهُ بقيّة المعبودات الثانويّة . واتخذت صيدون لها ثالوثًا آخر يتركب من عشتاروت والبعل واشمون . امّا الجبيليّون فكان ثالوثهم إيل وتموّز وبعلة . وبعلة هذه هي التي يدعوها المؤرخون في زمن الدولتين اليونانيّة والرومانيّة زُهَرة لبنان اشتهرت عبادتها في أفقة كما سيأتي

وكان للفينيقيين ما خلا هذه الاصنام آلهةٌ أُخرى من الطبقة الثانية وردت اسماؤهم في الخطوط القديمة

وخلاصة الكلام ان دين الفينيقيين كان مرجعهُ الى تأليه قوى الطبيعة وتعزيزها . امّا مناسكهم الدينيّة الظاهرة فتغلّبت عليها الفظائع والارجاس حتى انّهم كانوا يعدّون اعمال العهارة والفجور كافعال تقويّة يتقرّبون بها الى آلهتهم النجسة ولم يأنف كهنتهم من المجاهرة بالفُحش فانهم كانوا يتّخذون لكلّ هيكل نساء من المومسات يدعونهنّ عالمات (عوالم) او قدسات يعرضون بهنّ لكل ضروب الفحشاء

ومن قبائحهم ان كهنة البعل وعشتاروت في بعض المواقف كانوا يتخنّثون فيلبسون لباس النساء ويطلون وجوههم بالغُمرة ويعرّون اعضادهم ويسيرون في المدينة جموعاً فنهم من يشهر السيف والفأس ومنهم من يضرب الصنج والطبول ويزمّر بالزمّارة وكلهم يولولون ويرقصون كرقص الدراويش في ايامنا فتارةً يخلفون بين ارجلهم وتارة يحنون صدورهم وحينًا يقفزون قفزًا وطورًا يزحفون على الحضيض وهم يسحبون على الارض شعورهم المتشعّثة . ثم كانوا يعمدون الى المدى والسكاكين والحراب والسيوف فيخدّشون وجوههم ويشرّحون ابدانهم ويقطعون

١) ولبعلة جبل هذه ذكرٌ في مراسلات تلّ العمارنة المكتشفة حديثًا التي يرتقي عهدها الى القرن الخامس عشر قبل المسيح

قطعاً من لحومهم ويطعنون بطونهم فاذا سالت دماؤهم واصطبغت اجسامهم قدَّموا ذلك ضحيَّة لطواغيتهم . وقد ورد في سفر الملوك الثالث (الفصل ١٨ الآيات ١٦ — ٣٠) ذكر كثيرٍ من هذه الامور وفيه وصف ضحيَّة كهنة البس على جبل الكرمل في عهد الياس النبي الحيّ

ومن فظائعهم التي ألمعنا الى ذكرها في معرض كلامنا عن دير القلعة التقادم البشريَّة التي كانوا يضحُّونها لاصنامهم وكانت هذه الضحايا احسن موقعاً عند الهتهم يأنسون اليها ويتنسَّمون منها رائحة الرضى . وكانوا يؤثرون لهذه المذابح الفظيعة الاولاد الابكار لاسيا الاطفال الصغار بعد ولادتهم يزعمون انَّ هذه البواكير تستجلب بركات الآلهة على اصحابها

تلك كانت اعمال الدين الباطل التي لم تزل سائدة معزَّزةً رغماً عن اقوال الانبياء وغيرة اولياء الله في العهد القديم حتى ظهر ابن الله وضاءت انوار النصرانيَّة في العالم فاقشعت هذه الظلمات المدلهمَّة وخذلت عبادة الاصنام واخربت هياكل الشرك على يد ملوكها المعظمين كقسطنطين وثاودوسيوس

١٢ اليمُّونة

اليمُّونة قريةٌ على عطف جبل منيطرة من جهتهِ المشرفة على سهل البقاع بينها وبين افقة بعض الشبه . واسم اليمُّونة مشتقٌ من السريانيَّة (ܝܡܘܢܐ) معناها البحيرة دُعيت بذلك لانَّ بقربها حوضاً تجتمع فيهِ مياه تلك النواحي يدعوها الاهلون بركة اليمُّونة . امَّا قول المسيو رينان في كتاب بعثة فينيقية (ص ٣٠٧) انَّ البحيرة اشتقَّت اسمها من اسم القرية فهو خلاف الواقع كما ترى

والبحيرة المذكورة في غور عميق تكتنفهُ الجبال العالية من كل صوب ما خلا الجهة الشماليَّة الشرقيَّة . فانَّ في هذه الجهة ربوةً صغيرة تقوم في وجه المياه وتصدّها عن السيلان . اما وطأ الارض الذي تمتدّ فيهِ البحيرة فتربتهُ مرصوصة من الحوّارى الشديدة البياض فاذا دخل فصل الصيف نضبت مياه البركة ويبس غورها البالغ طولهُ نيفاً وكيلومترين في عرض نحو الف متر . فيسير السائر في تلك البطحاء على

هونهِ لا تزلُّ بهِ الرجل ولا تغوص في وحل وكل ذلك دليل على انَّ المياه وقت اجتماعها لا تتصفَّى في ذلك الوطإ وانما تغور في الارض كما سنذكر

وفي شمال البحيرة عند سفح الجبل المنتصب عليها ترى نبوعاً عديدة تتفجّر في الارض ماؤُها زلال عذب اصفى من الدمعة · يتجمَّع في مسيل عرضهُ بين مترين وثلاثة امتار فيجري عند طرف البركة الشرقي ثم يجتاز البحيرة في عرضها الى ان يبلغ حوضاً قليل السعة كأنَّهُ بركةٌ في بركةٍ كبرى · وهذا الحوض الصغير غير منتظم الجوانب لا يتجاوز ٤٠ متراً في اوسع امكنتهِ · اما عمقهُ فيبلغ في شهر ايلول خمسة امتار ثمَّ يأخذ بالنقصان الَّا ان هبوطهُ لا تكاد العين تلحظهُ لكثرة ما يجري اليهِ من المياه

وما لا ريب فيهِ انَّ المياه المتجمّعة في الحوض الصغير تسيل من منفذٍ خفيّ يدعوهُ الاهلون بالوعاً وهو محجوب عن العيان تخفيهِ الحجارة وركام من الحصى والرمل · فتسيل المياه من هذه الشقوق الى سرب تحت الارض

واوَّل من عرَّف الاوربيين بهذه البحيرة السائح الفرنسيّ بولس لوقاس (Paul Lucas) زارها في اثناء القرن السابع عشر وهو يزعم في رحلتهِ انَّ هذه البحيرة حديثة العهد · وهو زعم مردود يشهد على بطلانهِ اسم اليمُّونة السرياني وهو اقدم من ذلك العصر بكثير

ثمَّ تردَّد كثيرون من السيَّاح الى لبنان وزاروا البحيرة المذكورة وبعضهم صفَّحوا اسمها ببحيرة ليمون (Laimoun) (١

وممَّا يجدر بالذكر ان سطح مياه بركة اليمُّونة مع صعوده وهبوطهِ سنويّاً لم يبلغ الى نضوب البحيرة تماماً حتى سنة ١٨٧٠ · فلمَّا دخلت السنة المذكورة ساخت الارض بطبقة الوحل والرمل التي كانت في قعر البالوع فاتَّسعت فوهة المنفذ الداخليّ واخطَّت مياه البحيرة على حين غفلة وجرت من هذه النافذة · وكانت سابقاً تنضُّ في الارض نضيضاً

هذا ثم تعود مياه البحيرة عند الاعتدال الربيعي فيرتفع سطحها وتتدفَّق جوانبها

---

١) راجع كتاب ريتّر (Ritter : *Erdkunde*, XVII, 301)

الى ان تبلغ معظمَ ارتفاعها بعد شهر من الزمن وذلك ان المياه تتبجّس من مغارة قريبة في منعطف الجبل فتسيل الى البحيرة وتغمرهـا . وهي لا تزال تجري من تلك المغارة بقوّة شديدة الى انقلاب الشمس الصيفي وهو منتهى ذوبان الثلوج على روُوس الجبال فتنقطع المياه اذ ذاك بغتةً وتأخذ البحيرة بالنضوب شيئاً فشيئاً للسبب السابق ذكرهُ حتى لا يظهر من البحيرة الّا قعرها . على انَّ هذه اليبوسة الناجمـة اليوم عن نفوذ المياه في قعر البالوع كانت سنة ١٨٧٠ جزئيَّةً لان الارض المنخسفة في ذلك العام مع كونها نخرة كانت من ذي قبل تمسك قسماً من المياه حتى في اوان حمارَّة القيظ

ولعلَّ القارئ يسأل وماذا يحدث بالميـاه المتوارية من بحيرة اليمُّونة والى اين مجراها ؟ اجبنا ان هذه المياه تنفذ في قلب الجبل فتجري الى جهة الغرب وتخرج من مغارة أفقة وعند قرية العاقورة منحدرةً نحو ١٥٠ مترًا عن سطح بحيرة اليمُّونة ومن هذه المياه يتكوَّن نهر ادونيس المعروف اليوم بنهر ابراهيم . وهذا الامر قد ثبت الآن عند العلماء لا يرتابون في صحَّته لانَّ مياه اليمُّونة لا اثر لها في منعطف الجبل الشرقيّ من جهة البقـاع وزد على ذلك انَّ الجبل الفاصل بين وادي نهر ابراهيم وبطحاء اليمُّونة قليل الاتساع في باطنهِ مغاور عديدة يسهل نفوذ المياه اليها

وان سرتَ بضعة اميال الى جنوبيّ بحيرة اليمونة على منعطف الجبل الشرقيّ وجدتَ وادياً كثير الاشجار في وسطهِ بحيرة صغرى جميلة المنظر تدعى بركة الزينيَّة طولها نحو كيلومتر في عرض ٥٠٠ متر مياهها صافية كالزلال وليس في هـذه البركة من السمك شيء وانما تسبح في مياهها الضفادع والحيَّات المائيَّة بخلاف بركة اليمُّونة التي يتوفَّر فيها السمك

وبحيرة الزينيَّة تحفُّ بها التلال المرتفعة وتسيل اليها المياه المتجمّعـة من الثلوج الذائبة وتنصبُّ فيها جداول عديدة تجري في تلك الاصقاع . وقعر المياه من المواد الكلسيَّة النخرة الكثيرة التفتُّت الشائعة في اعالي لبنان فتنفذ منهُ المياه وتغور كما تنضب مياه بركة اليمُّونة فتقحل الارض وتيبس بالتمام وعلو هـذه البحيرة الصغيرة عن سطح البحر نحو ١٨٠٠ متر كأنها في حسنها احدى بحيرات جبل الالب (راجع المشرق ١ : ٤٢٦)

ومن الآثار القديمة التي تُرى في اليمّونة دكّة مربّعة من الحجارة المنحوتة بُنِيَت على طرف البحيرة في وسط النبوع المتفجّرة التي تُحدق بها . وهناك بقايا من أسوار وأعمدة وأفاريز وصفائح ضخمة من الحجارة تدلّ على انّ ثمّ كان هيكل رومانيّ أباده الدهر . ولا اثر هناك لكتابات قديمة

وقد حاول بعض المحدثين ان يثبتوا انّ هيكل أفقا الذي ذكرهُ القدماء كان في جوار بحيرة اليمّونة . الّا انّ هذا الزعم لا سند لهُ كما بيّن الامر رينان في بعثة فينيقية (١ والصواب ان القدماء اتّخذوا لهم هيكلين احدهما على مقربة من بحيرة اليمونة والآخر عند نبع مغارة افقة وكان بين الهيكلين تناسب يعدّهما القوم كمعبدَي إلٰه واحد لما بينهما من الشبه في خروجها من حوض واحد . ولعلّ هذا الوفاق بين الهيكلين حمل المؤرّخ اليوناني زوزيس (٢ على ذكر بحيرة بقرب هيكل الزهرة عند افقة . وانّما قال ذلك توسّعاً لا يريد بلفظة « πλησίον » اليونانيّة « المجاور القريب » بل مطلق الاقتراب فقط . ومن الممكن ايضاً انّ هذا المؤرّخ لم يتثبّت الامر بنفسه بل اوردهُ عن سمع (٣

هذا ثمّ ان الطريق المؤدية الى بركة اليمّونة الى بعلبك كثيرة الاثار فيها كتابات عديدة الّا ان اكثر هذه الخطوط دارسة مطموسة لا حاجة الى ذكرها في هذه الخلاصة

١٣ أَفْقا

كرّرنا مراراً اسم افقة (ويقال افقا) في فصولنا السابقة على اننا لم نخصّها بعد بالذكر . فرأينا ان نفرد لها باباً خاصّاً لنفيد قرّاءنا ما بلغنا من امرها

قلنا ان وادي نهر ابراهيم كان يُعَدّ في القرون الخالية كارض مقدّسة تعبّد فيها الفينيقيّون لتموز (ادونيس) فاقاموا لهُ المزارات والابنية الدينيّة يحجّون اليها ويتبرّكون بها . وقد امتاز بين هذه المعابد هيكل افقا الشهير جعلوه عند رأس نهر ابرهيم في موقع يفوق بحسنهِ جميع مناظر لبنان ويأخذ بالابصار لحسنهِ الفتّان هكذا

١) Renan : *Mission de Phénicie*, 308

٢) Zozime : *Hist.* 309 *seqq.*

٣) راجع في هذا الصدد مقالة حسنة نشرها مسيو شرل غايردو بك في مجلّة مصر ومؤلفها العلّامة المسيو بلنش هذا عنوانها (Les eaux d'Adonis au mont Liban, p. 12, *seqq.*)

وصفهُ رينان في كتابه الموسوم ببعثة فينيقية وبيَّنّاه في مقالتنا عن جبال الالب ولبنان (المشرق ١ : ٧٢٢)

يشتقُّ العلماء اسم أفقا من السريانيَّة **أفقا** اصلها **أبعقا** او **أفقا** معناها « المخرج » يريدون بذلك « مخرج المياه » او الينبوع · فمنهُ دُعي المعبد الذي نحن في صدده وكان مبنيًّا لاكرام « زُهَرة أفقا » يتقاطر اليهِ الحجَّاج من كلّ نواحي الشام · وكان اهل تدمر يقصدونهُ في كل سنة لمناسكهم · لكنهُ لم يبقَ من هذا الهيكل القديم غير بقايا ضخمة تنبئ بعظم شأنهِ · وهذه الاخربة منتشرة فوق سطحٍ بُني على ركائز متدرّجة بازاء العين بميلةٍ الى الجنوب ومن يتأمل هذا البناء يجد بينهُ وبين هيكل فقرا تشابهاً في بعض اقسامهِ · ومن جملة الآثار الباقية الى يومنا عمود من الصوَّان وكثير من الحجارة الكبرى المنحوتة

وقد خرب هذا الهيكل مرَّتين · هُدِم مرَّةً اولى بايعاز قسطنطين الكبير بعد تنصُّرهِ لاسباب ذكرها اوسابيوس القيصري في تاريخ هذا الملك حيث قال (١) :

« لما استوى قسطنطين على منصَّة الملك رقب من سموّ عرشهِ ما نصبهُ ابليس من الاشراك في فينيقية لصيد النفوس · فوجد من ذلك على هضاب لبنان في موضع قفر لا تطرقهُ السابلة معبداً تحدق بهِ غيضةٌ · وكان المعبد المذكور أُقيم لبعض الاصنام الدنسة يدعى الزهرة · يتوارد اليهِ البغايا واهل الفجور فاضحى بذلك اشبه بماخور منهُ بمعبد ديني · ومع ما كان يجري في ذلك المكان من الآثام الفظيعة والارجاس الشنيعة كان الامر باقياً محجوباً عن عيان ارباب السلطة لانهُ لم يتجاسر احد من اهل الفضل ان يدخل المعبد ليتحقَّق صحَّة ما تناقلتهُ الالسن · بيد انَّ قسطنطين وقف على حقيقة الامر فرأى من أخصّ واجباتهِ ان يقوّض اركان ذلك الزون النجس · فتقدَّم الى عمَّالهِ بان يهدموا ذلك المقام ويكسروا اصنامهُ ويتلفوا ما حُمل اليهِ من الهدايا النفيسة · فأُرسلت الى أفقا فئة من الجند وتمَّموا اوامر الملك فلم يُبقوا ولم يذروا » · وكان ذلك سنة ٣٢٥ للمسيح امَّا سكان افقا فأُمروا بان يبارحوا سكناهم فتوطَّنوا بعلبك

١) راجع الجزء الثالث من ترجمة قسطنطين لاوسابيوس الفصل ٥٥ وتاريخ سوزومان في مجموع الآباء اليونان (مين ٦٧ ص ٩٤٨)

ولكن بعد وفاة قسطنطين عاد سدنة هيكل الزهرة وحاولوا بناء الهيكل ثانيةً . ولعلّهم حقّقوا امانيهم على عهد يليانوس المعروف بالجاحد فبقيت عبادة الزهرة مدّةً من الزمان الى عهد ثاودوسيوس الكبير . ونظنّ انّ هذا الملك شدّد الاوامر فردّ الفينيقيين عن هذه العبادة النجسة كما أبطل عبادة الاوثان في انحاء كثيرة من مملكته . والارجح ان الاخربة الباقية الى يومنا هي بقايا الهيكل الثاني المنوّه بذكره وخرابهُ بسبب احدى الزلازل التي دهمت سواحل الشام كما وصفنا ذلك في المشرق (١ :٣٠٣,٣٤٧ و ٢ :٩٧٠) . وما يؤيد ظنّنا ان بعض الجدران سقطت دفعة واحدةً مع بقائها على نظامها الاول . وقد وجدت الزلازل مساعداً لفعل الخراب بما كان يجري من المياه تحت الهيكل . فأنهارَ البناء لذلك عند حدوث الزلزال والله اعلم

١٤ مجاري المياه في لبنان

لا يتمُّ وصفنا السابق لينابيع أفقة ولبحيرة اليمّونة إِلَّم يُحِطْ قرّاؤُنا علماً بحالة لبنان من حيث مسايل المياه في جهاتهِ المختلفة وذلك فنٌّ يلحق بفنّ الجغرافية يدعوه الفرنج الهدروغرافية اي رسم المياه وفي تعريف مجاري المياه في لبنان فوائد مرتبطة بتاريخهِ ارتباطاً لا تنفصم اواريُّهُ . وقد ادرك الاقدمون ما في هذا الامر من الشأن الخطير حتى انهم اعتبروا بعض عيون لبنان ومياهه المتفجّرة كآلهةٍ حيّة اكرموها إِكرامَهم لمعبوداتهم المختلفة . وقد أتينا بشواهد على ذلك في ذكر عين أفقة ونهر ابراهيم المخصّصين لإكرام الزُّهرة وتمّوز

ومن المعلوم ان لا خصب للتربة في الشرق اذا ما انقطعت عنها المياه او قلّت كمّيّتها بحيث لا تفي بحاجة الزراعة . وما بلغ لبنان من العمران ما بلغ الّا لغزارة مياههِ وكثرة مسايلهِ

ومن لطف الخالق انّ طبقات لبنان العليا تتركّب من عناصر كلسيّة كثيرة التفتّت نَخِرة ينساب الماء فيها دون عائق ويتسلسل في منافذ ضيّقة ثمّ يتجمّع في مغاور تحت الجبال كانّها خزانات للماء يفيض منها الى اسافل البلاد . ومن السواعد التي تمدّ الى تلك الاحواض الطبيعيّة المياه المتكوّنة من الثلوج الذائبة في قمم

لبنان ومادّتها لا تكاد تنقطع عنها ابدًا فانّ جبل صنّين مثلًا ووادي الارز والنُقَر المحيطة بها عبارة عن احواض من الثلوج يبلغ عمقها من ٣٠ الى ٧٠ مترًا وطولها من ٧٠ الى ٣٠٠ متر عرضاً فلا يزال مَدَدها متواصلًا يجري الى المغاور والاوشال التي منها تحصل الجداول والانهار والبُحَيرات الموجودة في باطن الجبل

وقد اخبر المهندسون الانكليزيون الذين عُهد اليهم سنة ١٨٧٣ فحص مياه نهر الكلب انهم ركبوا قارباً وتتبَّعوا مجاري هذا النهر في اعماق الارض . فلمَّا قطعوا ١٢٠٠ متر وصلوا الى بحيرة واسعة غزيرة المياه يبلغ عمقها بضع مئات من الامتار وكان ماؤُها زلالًا شديد الصفاء والبرودة . وكان يتدلَّى من سقف المغارة عُمُد لطيفة من الماء المتحجّر (stalactites) وكانت عُمد أُخرى (stalagmites) تعلو عن حضيض الارض وجوانب البحيرة فتنتصب مرتفعةً كشُمُع . فحاولوا ان يقطعوا تلك البحيرة ويتقدَّموا في اسراب الجبل فلم يقووا على ذلك فانفتلوا راجعين

واجتهد غير هؤلاء الانكليز من ارباب الهندسة ان يزوروا مغاور أفقة فتقدَّموا في منافذها المتعدّدة ووجدوا جداول واحواضاً من الماء لكنَّهم لم يبلغوا الى نهايتها وهذا ممَّا يؤيد رأي من قال ان بين افقة وبركة اليمونة وصلةً تجمع بينهما

وهذه المياه الوافرة المخزونة في اعالي الجبال واوشالها الباطنة تنصبُّ شيئاً فشيئاً الى الأهوية والبطاح على حسب اعطاف الجبل واسرابهِ المختلفة . وربما وصلت المياه الى سفح الجبال بشدَّة غريبة فتنفجر وتفور صاعدةً في الجوّ ثم تجري من نبعها كانها النهر في كثرة مياههِ . ترى ذلك في نبع نهر بيروت وانطلياس وجعيتا وخصوصاً في نبع نهر العاصي عند خروجهِ من مغارة مار مارون بقرب الهرمل . وليس في الشام كهذا النبع يتفجَّر بقوَّة عجيبة من بين الصخور كأنَّهُ مدفوع بمضخَّة (طلمبا) قويَّة ثم يمتدّ في مسيل عرضهُ ١٥ مترًا الى ١٧ م

ومن خواصّ عيون لبنان انقطاعها في بعض فصول السنة . وقد ذكرنا هذا في غضون كلامنا عن بحيرة اليمّونة . وقد لحظ الاهالون مثل ذلك في نبع نهر بيروت المعروف بالديشونيَّة كما ورد في المشرق (١ : ٢٣٧) حيث علَّل اسباب هذا الانقطاع حضرة الاب صالحاني . ولعلَّهُ يوجد سبب آخر لوقوف مياه هذا النهر وذلك اذا

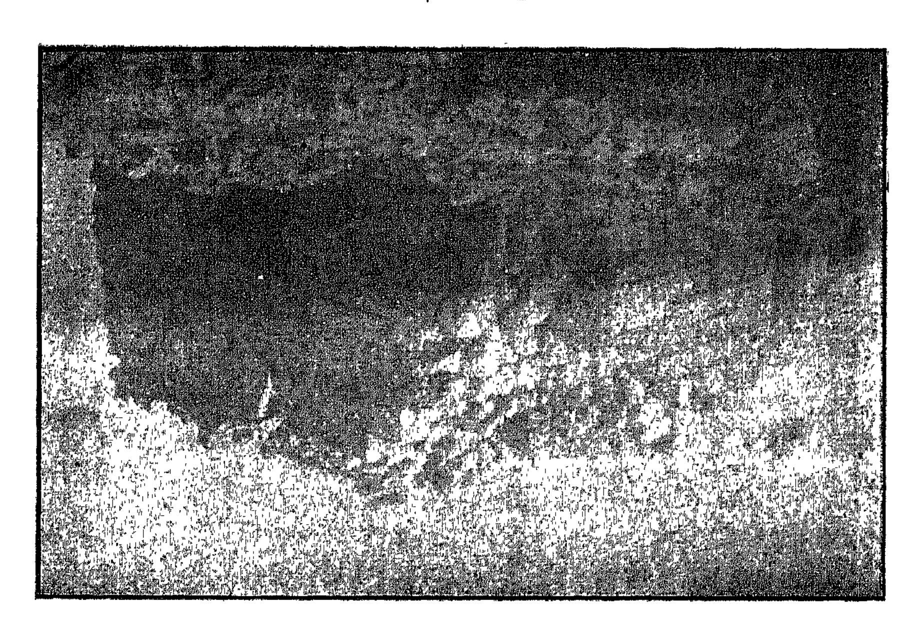
انهار شيء من الردم والصخور فحال مدّةً دون مجرى المياه · ففي غرّة سنة ١٨٣٧ لمَّا اصاب مدينة صفد زلزالٌ هائل نقضَ ابنيتها وهدم بيوتها انقطعت بغتةً مياه نهر بيروت ولم تعد الى مسيرها الّا بعــد مدّة وكان لونها ضارباً الى الحمرة ففهم الناس ان قسماً من الجبل تهوَّر في المياه الداخليَّة وحجز دونها · وقد ذكرنا في البشير (في تاريخ ٢٣ ت ١ سنة ١٨٩٩) ان بعض التراب والصخور انهارت من سقف المغارة التي يخرج منها نهر الكلب فتناقصت المياه من جراء ذلك مدة ساعتين الى ان دفعت المياهُ الحاجز من طريقها وعادت كمألوف عادتها · هذا وفي تقسُّم المياه على جوانب لبنان فائدة كبرى تجدي نفعاً كل بلاد الشام فضلًا عن الجبل وحده · فكما انَّ النيل يحيي البلاد المصريَّة كلها كذلك لولا لبنــان لأَصبحت بلاد الشام كصحراء غامرة لا خير فيهــا كصحارى جزيرة العرب · فانَّ لبنان يمتصُّ فوق رباهُ نداوة البحر ويجذب الابخرة المتصاعدة الى الجوّ فتتكاثف وتنزل على قممهِ امطارًا وثلوجاً تتوزَّع من ثمَّ على جميع انحاء الشام على هيئة ينابيع وجداول وبُحيرات · فلو توارى لبنان من الكون لنضب نهر العاصي والليطاني بل ليبست كلّ مسايل سواحل فينيقية · ومــا كنتَ لتجد شيئاً من حدائق طرابلس ورياض بيروت وبساتين صيداء وبطاح البقاع المخصبة بل كنت ترى مفازات مقفرة تمتدُّ مدى البصر وهي جرداء صلعاء ليس في أرمالها ديار ولا نافخ نار · فحيّا الله لبنان وبيّاهُ ونفعنا بفضله وجدواهُ

١٥ قلعة فقرا

ان سرت صاعدًا من مزرعة كفردبيان مُيمّماً شمالها الشرقي على مسافة ساعة ونصف منها وجدت في منتصف الطريق المؤدية الى ميروبا على جنوبها ربوةً قريبة من جسر الحجر ورأس نبع اللبن يبلغ علوّهــا فوق سطح البحر ١٦٠٠ متر · وعلى هذه الربوة اخربة تفوق بسعتها كل آثار لبنان لا يماثلها بامتدادهــا الّا أخربة عين عقريم المعروفة بالناووس في مقاطعة الكورة على انَّ عين عقريم مع سعتها دون قلعة فقرا · هذا واننا لا نرى حاجةً الى تعــداد ردوم هذه القلعة كلها وانما نكتفي بأَهمّها وهي اربعة :

١ً الهيكل · هو من المآثر الجليلة · ومن خواصه انَّ بُناتهُ نحتوا باديَ بدء

في نفس الصخر مساحةً كبرى جعلوها كاساس الهيكل واتخذوا الحجارة المنحوتة في الصخر كموادّ لبنائهم فاقتصدوا بذلك في نفقة نقل الحجارة ولعلّهم قصدوا غير ذلك . وما لا ريب فيه ان الفينيقيين اتخذوا هذه الطريقة ديدناً وجروا عليها في ابنيتهم المختلفة . وقد بلغ الفينيقيّون في نحت الحجارة مبلغاً بعيد الشأو حتى يخال للمعتبر ان صلاب الصخور صارت طوع ايديهم يقطعونها كما ارادوا



قلعة فقرا

هذا ولم يتخذوا كجدار الهيكل ما مثّل من الصخور لان الجدران لا تلاصق الصخر لأنّ بينها وبينهُ دهليزًا يفصلها . والهيكل طولهُ ٣٤ مترًا في عرض ١٤ مترًا . وحجارة البناء متوسطة الكبر غير انّ افريز الهيكل والمراقي التي بها كان يصعد الزوّار والسواري الماثلة في مدخل المعبد كانت فاخمةً عظيمة الشان يعمل منظرها في عين الجمهور . وبقايا هذه الاخربة تنبئ بضخامتها فانّ هناك اركاناً وقطعاً من العمد منحوتة في قلب الصخر لكنّها متراكمة فوق بعضها بغير نظام وعلى اسوإ حال

وأمام الهيكل ساحة رحبة الجوانب طولها ٣٨ مترًا في عرض ٣٠ يُحدق بقسم منها الصخر المنتصب فوقها عموديًّا · وكان سابقاً في مقدَّمة هذه الساحة رواق يستند الى عمد والشاهد على ذلك ما ترى هناك من الاعمدة المحطَّمة · وكانت عادة الفينيقيين ان يبنوا هياكلهم في وسط باحة رحبة كما يظهر الامر في هيكل بعلبك وهيكل حصن سليمان في بلاد النصيريَّة · غير ان موقع فقرا لم يسمح بذلك لما يحيط بالمكان من الصخور العالية فجعلوا باحتهم بازاء الهيكل

وما يقضي بالعجب عند مرأى هذا الهيكل العظيم انهُ بُني على قمَّة الجبال حيث لا ترى اثرًا للقرى فان اقرب الضياع المسكونة اليوم هي اسفل من هذا المكان بنيف وثلثمائة متر

٢ً البرج · وفي شمالي الهيكل برجٌ عظيم مربَّع الشكل والمرجَّح انهُ كان ينتهي سابقاً ببناء مخروط على هيئة الاهرام · ومن جال في داخلهِ وجد عدَّة دهاليز واسراب ودرجاً يُصعد منهُ الى اعلى البرج المذكور(١ · وعلى جوانبهِ كتابتان يونانيَّتان يأتي ذكرهما · امَّا الغاية من تشييد هذا البناء فمبهمة ولا نعلم أهو مرقب لرصد الاعداء في وقت الحرب وبمجرَّد فحص البناء لا يُستدلُّ على شيءٍ من ذلك · ولعلَّهُ قبرٌ لبعض الملوك لانَّ الخاصَّة لم يتأنَّقوا عادةً هذا التأنّق في بناء قبورهم · على انَّ الكتابتين اللتين ألمعنا اليهما تنفيان هذا الافتراض لان الواحدة تذكر القيصر الروماني كلاوديوس وتعلمنا الثانية ان مشيّد هذا الاثر هو احد سدنة الهيكل ابتناهُ « على نفقة خزانة الاله العظيم » وعلى ظنّنا انهُ مشهدٌ اقيم كقبر لتموز اله الفينيقيين ولا يعتاص علينا في تقرير هذا الامر غير الدهاليز المجاورة لهُ · ولكن من المحتمل ان هذه الاسراب احتُفرت لغاية دينيَّة او بالاحرى ليتستَّر فيها ارباب تلك الديانة في بعض حفلاتهم الدنسة كما مرَّ بك في ذكر هيكل أفقة · وكانت هذه الفواحش تجري غالباً بجوار المعابد الدينيَّة المخصَّصة لذكر تموز

---

١) وقد وصف هذا البرج وصفاً مطوَّلًا هنري غويس (Guys) في كتابهِ الفرنساوي المعنون (Relation d'un séjour à Beyrouth et dans le Liban, II, 8) والسائح سيتزن (Seetzen) في كتاب اسفاره المكتوب في بدء عصرنا هذا (Reisen I, 248)

٣ً البناية المربَّعة . وبازاء الهيكل الموصوف بقايا حسنة من بناية مربَّعة يظهر من شكلها انَّها كانت مشهدًا او قبرًا وهذه البناية محكمة العمل وحجارتها ضخمة

٤ً البناء المستطيل . وعلى مسافة نحو مائة قدم من الهيكل من جهة الجنوب اثرٌ آخر لا نعلم من غاية بنائه شيئاً وهو على شكل مستطيل ذي جوانب متوازية وتراهُ منقسماً الى قسمين كبيرين او ردهتين لهما باب يصل بينهما من داخلهما ايكون هذا البناء هيكلًا او كنيسةً كما زعم رينان في كتاب بعثة فينيقية (ص ٣٣٧) ذلك امرٌ لا يمكن الجزم بهِ فانَّ هندسة هذا الاثر تخالف هيئة الهياكل القديمة والكنائس المسيحية . وزد على ذلك انّ باب الكنائس كان يوجَّه في القرون الماضية الى الغرب بخلاف باب هذا البناء . وقد استولى الخراب على آثاره فطمس محاسنهُ وذهب برونقهِ فتراهُ في حال اسوأ من بقيَّة الاخربة المجاورة لهُ

هذا وقد سبق القول انَّ على مشارف فقرا غير هذه الآثار . فمن ذلك اطلال بيوتٍ دارسة ومعاصر وقبور منحوتة في الصخر وهلمَّ جرًّا . وكل هذه المباني تشهد على انَّ هذا الموضع كان عامرًا في الاعصار الخالية وانَّ قوماً من السكَّان كانوا يقطنون بجوار الهيكل محدقين بهِ

ولسائل ان يسأل الى ايّ عهدٍ يرتقي تاريخ هذا الهيكل . جوابنا : انَّ الامر مبهمٌ اذ لم يجد احد من العلماء كتابةً تنبئ بقدم هذا البناء . الَّا انَّ البرج الذي مرَّ وصفهُ مزدان بكتابتين الاولى على لجاف الباب والثانية على احدى زوايا البرج . والكتابة الاولى مطموسة لا يكاد يُقرأ منها سوى سطرها الاول يستفاد منها انَّ البرج شُيّد اجلالًا للقيصر كلاوديوس الذي جلس على منصَّة الملك من سنة ٤١ الى ٤٥ بعد المسيح . امَّا الثانية فيؤخذ منها ان تاريخ البناء وقع سنة ٣٥٥ لليونان (١ اعني ٤٣ سنة بعد المسيح وانهُ بُني « على نفقة الاله العظيم »

---

١) ان هذا التاريخ مكتوب بالحروف الابجدية E N T وقد رُسم فوقها خُطَيط دلالةً على انها اسفار عددية لا حروف عاديَّة . وكان السائح سيتزن لاحظ ذلك في غضون زيارتهِ لهذا الاثر وقد تحققنا نحن ايضاً الامر بنفسنا في خريف سنة ١٨٩٨ لمَّا تفقَّدنا هذه الآثار . بيد اننا وجدنا للنون اللاتينيّة (N) هيئةً غريبة تقرّبها الى الميم M

(ἐκ τῶν τοῦ μεγίστου Θεοῦ) فتُرى من هو الاله المذكور ؟ على رأينا انهُ تموز بنفسهِ وقد ورد اسمهُ في كتابات جُبيل مصحوباً بلقب العظيم (μέγιστος) ولقب الاكبر (ὕψιστος) ومن ثمَّ يجوز القول انَّ هيكل فقرا كان احد المعابد المشيَّدة لاكرامهِ · ويستنتج من لقبهِ بالكبير او الاكبر ان الفينيقيين كانوا يعظِّمون في جملة آلهتهم إلهاً سما عزًّا وفاق فضلًا على سواهُ ولعلَّهُ كان في اول الامر معبودهم الوحيد ففسدت ديانتهم بعدئذٍ وتعدَّدت آلهتهم

فمما تقدَّم يظهر انَّ بناء البرج حدث في السنة ٤٣ للمسيح · امَّا تاريخ الهيكل فاننا لا نعلم شيئاً من امرهِ · نعم ان رينان جزم بانَّ هندستهُ تشبه هندسة البرج فاستنتج من ذلك انَّهما بُنيا في زمن واحد · لكنَّنا نحن لا نرى في قول رينان برهاناً كافياً لتقرير هذا الامر كما انَّنا لم نجد في هندستهما شبهاً ظاهرًا · امَّا الآثار الباقية الموجودة في فقرا فعلى رأينا انها من اجيال متباينة والله اعلم

١٦ الساحل بين جونية وجبيل

(برجا وعين ماحوز ونهر ابراهيم)

قد حان لنا بعد ذكر الآثار القديمة الموجودة في مشارف كسروان ان نعود الى الساحل فنواصل سيرنا من جسر المعاملتين شمالي خور جونية الى جبيل · ومن سلك هذه الطريق وجد عدَّة ابراج ينسبها العامَّة الى القديسة هيلانة الملكة · وهي في الحقيقة اقرب منا عهدًا قد ابتناها اصحابها بعد عهد الفرنج المعروفين بالصليبيين لمراقبة الساحل

وممَّا يستلفت انظار ابناء السبيل مرسًى صغير يُدعى برجا او بالاحرى طبرجا مشتقٌّ من لفظة يونانيَّة (τοπαρχία) يُراد بها قصبة المُعاملة او المديرية · وكان لبرجا في سابق الزمان اسمٌ آخر فينيقيٌّ نُمات كانت تنسب اليهِ القصبة فيقال « طبرجا المحل الفلاني » (τοπαρχία X) كما نقول مديريَّة كذا · فلم يبقَ اليوم سوى الاسم الدالّ على رتبة البلدة ومقامها · وهذا الامر يصحّ ايضاً عن قرية أُخرى تُدعى باسم برجا (او طبرجا) موقعها جنوبي بيروت عند خان النبي يونس

ويُستدلّ من اسم برجا المذكور على انها كانت على عهد ملوك القسطنطينية . بل لنا دلائل على انها وجدت قبلهم بزمان . ألا وهي المغاور والاسراب والمدافن العديدة التي يشاهدها القوم على مقربة من مرساها الصغير فوق الرُّبى المحدقة بالقرية على جانبيها . وهذه المدافن القديمة تشغل مكاناً متَّسعاً قلّما تجد مثلهُ سعةً في غيرها . ولا شطط ان وكّدنا في القول انهُ كان ثمّت للفينيقيين مدينةٌ صغرى

ومرسى برجا حرج قليل الاتساع وهو شبه جونٍ تراه في الغالب بمأمن من سورة الرياح . ولا بدع في ان السفن الفينيقيّة كانت تأوي اليهِ في الانواء

وممّا ينبئ بشأن برجا في السنين الغابرة بقايا قناتها التي بها كانت تجري المياه منحدرةً اليها من الاودية المشرفة على غزير

وان سرت من برجا بعيداً عنها وجدت بئراً او عيناً يدعوها اهل تلك النواحي عين ماحوز . وقد ذُكرت في التواريخ الصليبيّة مصحَّفةً بمَوْس (Maus (١) . ولعلّ اصلها يرتقي الى ايّام الفينيقيين . وهذه العين من الاعمال القديمة الخطيرة يُنزل اليها بدرج محكم الاتقان نُقر في الصخر . وكان بقرب هذه البئر في القرون المتوسطة حصن كما يشهد على ذلك الشريف الادريسي (٢

وفي شمالي عين ماحوز بقرب قريتَيْ بوار وصَفرة مدافن متسعة منقورة في الصخر . لها مداخل عديدة في جوانب تلك الوديان . وهذه القبور تدلُّ على وجود قرية قديمة هناك ما لم يُقلْ انَّ بلدة برجا كانت تمتدّ الى تلك النواحي وتتَّصل بها

وان تابعت المسير بلغت نهر ابراهيم . وهنا مُشكل في تعريف اصل هذا الاسم الذي ورد ذكرهُ اولًا في جغرافيَّتي الادريسي والدمشقي (٣ . والتقاليد المحليَّة تزعم انّ ابراهيم الذي نُسب اليهِ النهر كان اميرًا على المرَدة . وما لا شبهة فيهِ ان الاسم القديم كان ادونيس (تموز) . وقد مرّ لنا في الصفحة ٤٣ انهُ اسم

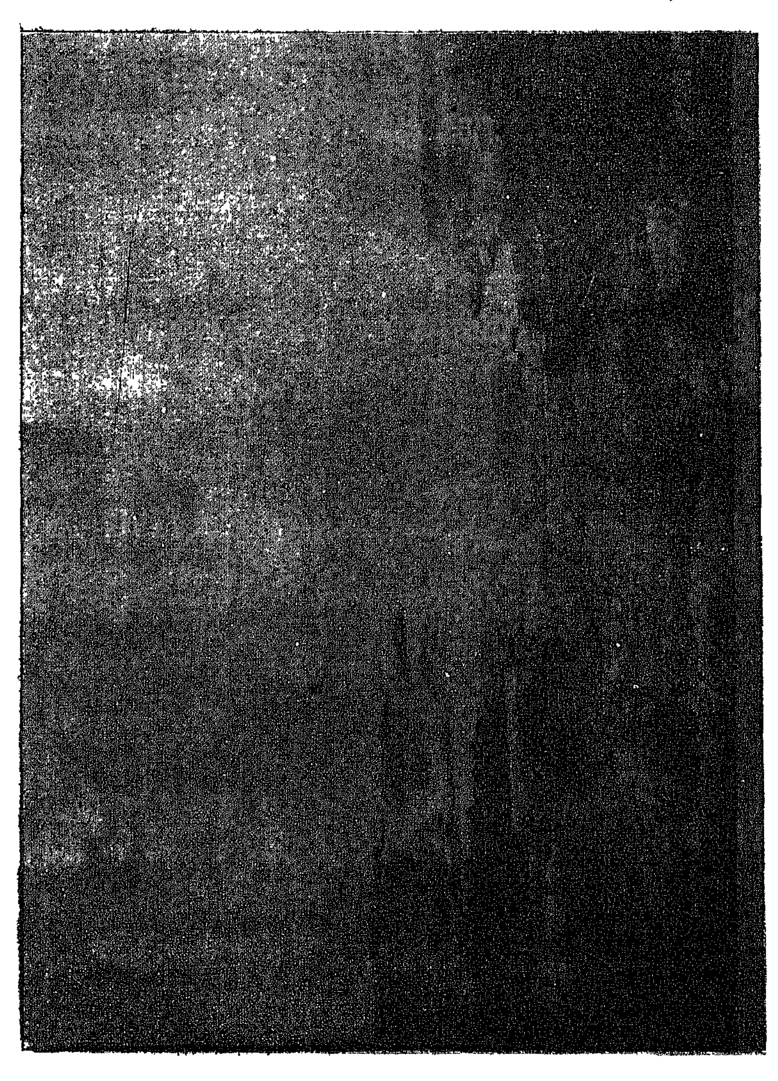
---

١) راجع غليلموس الصوري ك٧ ف ٢٢

٢) وصف الشام (ص ١٧ ed. Gildmeister) . واعلم انّ الادريسي يذكر بين جونية وماحوز مكاناً يدعوه « عطفة سلام » يقول عنهُ انهُ « جون كبير يبعد عن جونية عشرة اميال »

٣) طبعة بطرسبرج (ص ١٠٧)

احد آلهة الفينيقيين يقيم لذكرهِ اهل جبيل عيداً سنوياً يدعونهُ ادوني (Adonies)
ومصبّ هذا النهر جميل المنظر يُدرك من رآهُ كَلَف الفينيقيين باختلاق الخرافات
المتعلّقة بهِ . وفي فصل الشتاء بعد الامطار كانت المياهُ تطمو فيضحي لونها
كمداً ضارباً الى الحمرة فكان الاهلون يزعمون انّ ذاك هو دمُ تموز المسفوك
فينوحون عليهِ



صورة برجا

١٧ جُبَيل

ليس من شأننا ان نسرد هنا اخبار هذه المدينة الشهيرة او نلخّص تاريخ احوالها فان ذلك يقتضي كلاماً مطوّلًا يخرج بنا عن الحدود التي افترضناها على نفسنا في مقالتنا (١ وانّما نكتفي بان نذكر فقط آثارها الجليلة التي صبرت على ممرّ الزمان

كانت جبيل مدينة الفينيقيين المقدّسة يحجّون اليها كما يُحجّ الى المزارات الشهيرة . اما موقع المدينة القديمة فان جمهور العلماء لا يرونهُ مختلفاً عن مكان البلدة الحديثة . وقد ورد ذكر جُبيل منذ القرن السادس عشر قبل المسيح في الرسالات التي اكتُشفت حديثاً في تلّ العمارنة . ومما جاء هناك من الافادات التاريخيّة انّها كانت على سِيف البحر ولها عمارة بحريّة وانّ اهلها كانوا من حذّاق الملّاحين . وفي نبوءة حزقيال (ف ٢٧) وتواريخ الاقدمين ما يؤيد تقرير هذه الكتابات الجليلة الشأن كما اوضحهُ الدكتور جول روفيه (٢ . وكلّ هذه الشواهد تنطبق على موقع المدينة الحديثة

بيد انّ جبيل القديمة كانت رحبة الجوانب واسعة الارجاء تمتدّ اكثر من المدينة الحاليّة امتداداً بالغاً . ولنا على ذلك البيّنات الواضحة منها قِطَع عديدة من العواميد وبقايا ابنية فخيمة تراها في خارج سور جبيل الحديثة . ثم انّ السور الحالي ليس بقديم ولا يتجاوز عهد الصليبيين بل هو من اعمالهم . فوجود الآثار القديمة في خارجهِ لا يدلّ على انها في الاعصار السالفة لم تكن متّصلة بالبلدة . ولمّا استولى الفرنج على المدن الساحليّة في القرون المتوسطة وجدوا جبيل في حالة من الخراب يُرثى لها . فاخذوا في ترميمها واستعانوا لتشديد المدينة وتحصينها بموادّ أخربة

---

١) ومن اراد الوقوف على تاريخ جبيل فعليهِ بالخلاصة التي صنّفها الدكتور جول روفيه فقرأها على مسامع نخبة من اهالي بيروت في حفلة عُقدت في مرسح كليّتنا ثم نشرها بالطبع في المجلّة الكتابيّة (Revue biblique, VIII, 553) بهذا العنوان :

Gébal-Byblos, son histoire dans l'antiquité et sa nécropole phénicienne.

٢) راجع المقالة المذكورة (ص ٢)

البنايات القديمة التي وجدوها قريبة دانية · ولعلّ ندرة وجود الآثار القديمة في جبيل مسبَّبة من اتخاذها للابنية المستحدثة · وفي عصرنا هذا تلف كثير منها في ابنية قرية عمشيت فكان اهلها ينقلون من جبيل كل ما يصلح لبناء مساكنهم · وهذا لعمري مما يوجب الاسف لان بقايا ترقّي الاقدمين وتمدُّنهم يلاشيها التمدّن الحديث فيصبح لها بمثابة نوائب الحدثان ومصائب الزمان بل اوخم عاقبةً منها كما بيَّن ذلك الدكتور جول روفيه

واذا زدنا على هذه عوامل الخراب الزلازل التي تلاعبت بكثير من آثار جبيل (١ فهمنا كيف انّ هذه المدينة امّ المستعمرات الفينيقيَّة لم تُبقِ للخلَف من مآثرها السابقة الّا النزر القليل

واول ما يستلفت النظر من آثار جبيل بُرجها فانّ بقاياه الضخمة لم تعمل فيها صروف الزمان · وهو لا يزال منتصباً ينبئ بعظم شأن بُناته

وموقع البرج المذكور في جنوبي شرقيّ المدينة له منظر خطير يأخذ بمجامع لبّ ناظره · وهو مبني بحجارة كبيرة ولعلّ ذلك الذي حمل أغلب الكتبة على ان ينسبوهُ الى الفينيقيين زعمهم الباطل انّ قدم الابنية يُعرَف بعظم حجارتها وضخَم موادّها · وكانوا يزيدون على هذا تأييدًا لرأيهم انّ على البرج المذكور مسحةً من العتاقة تشهد بقِدَمه

بيد انّ ذوي الخبرة من المهندسين واصحاب العاديَّات أبطلوا هذا الزعم بعد الفحص المدقّق وبيَّنوا ببراهين مقنعة ان هذا البرج من عمل الصليبيين في القرون المتوسطة · وسنَدُهم في ذلك الى ما يحدق بالبرج الكبير من الابنية الثانويَّة وهي عبارة عن بروج صغرى لا سبيل الى نسبتها الى الفينيقيين لما يدخل في تركيبها من الموادّ المأخوذة عن ابنية اقدم عهدًا شادها اليونان والرومان كاعمدة من الصوّان أُدرجت في جدران هذه البروج · وهذا الامر شائع في ابنية الصليبيين بخلاف الامم السابقة لعهدهم · اعني انَّهم كانوا اذا دخلوا بلداً انتفعوا بخرائب آثاره القديمة كالهياكل والقصور فيتَّخذون موادّها لابنيتهم الجديدة ويستغنون بذلك عن

١) راجع المشرق ٣ : ٩٧٠

نقلها من المقاطع · فاذا ثبت انّ هـذه البروج الصغرى هي للصليبيين يصح القول ان البرج الكبير هو ايضاً من آثارهم لما بينهُ وبينها من الشبه في هيئة الحجارة وطريقة النَّحت فان لحجارة كليهما نتوًّا متشابهاً ولهيئتها عتاقة واحدة (١ مع ما ترى بين حجارتها من الاختلاف في الكبر · وهناك ايضاً عدة تفاصيل هندسيَّة عُرف بها الصليبيُّون دون غيرهم منها شعار البنَّائين وعلاماتهم وقِطَع كتابيَّة يونانيَّة ورومانيَّة أُقحمت في البناء بلا نظام

هذا واننا لا ننكر ان الحجارة الكبيرة التي تُرى في البرج الكبير هي من نحت الاقدمين وقد بيَّنَّا غير مرَّة لاسيما في خلال كلامنا عن دير القلعة انهم كانوا يحبُّون اتخاذ مواد ضخمة لبناياتهم · لكن الصليبيين نقلوا هذه الحجارة التي وجدوها فاتخذوها لشوُّونهم الخاصَّة

امَّا آثار قدماء الجبيليّين فقليلة جدًّا · منها عدد كبير من العواميد تراها في كلّ انحاء البلدة حتى يسوغ ان ندعو مدينة جبيل مدينة العواميد · وقعر ميناها الصغير مفروش كلُّهُ بهذه العواميد · وهي من الصوان الصلب قد نُقلَت من بلاد مصر بحرًا · ولا نشكُّ في انها كانت داخلةً في الهياكل والمعابد العديدة التي كان يتباهى بها اهل جبيل لانّ مدينتهم كما سبق لنا القول كانت مركز الديانة الفينيقيَّة يحج اليها اهل البلاد ليتيمَّنوا بزارها · وكان للبلد ايضاً اروقة واسعة قائمة على مثل هذه العمد في صدر الشوارع الكبرى كما كان شأن المدن الرومانيَّة في ذلك العهد

وممَّا يستحق الذكر ايضاً بعض قوائم ومساند كانوا يضعون فوقها التماثيل · ومنها ايضاً مذابح صغيرة وحجارة عليها كتابات لا يسعنا هنا تعدادها ووصفها واكثرها قد نُشر بالطبع في اوربَّة · وقد اسعدنا الحظ على وجود بعض منها كتبت باليونانيَّة لم تسنح لنا الفرصة حتى الآن بنشرها

---

١) وهذه العتاقة ليست بدليل قاطع على قدم هذه الابنية وانما هي لاحقة بصنف الحجارة الرمليَّة التي تستعمل في الساحل · فان ابخرة البحر والرطوبة تعملان فيها عملًا سيئًا فيظنّ من يراها انها عريقة في القدم مع انها حديثة · وترى مثل ذلك في بعض بنايات بيروت التي لا يتجاوز عهدها ٢٠٠ سنة

فهذه غاية ما نرى الى ذكره سبيلًا عن عاديّات جُبَيل الباقية في ضمن سورها . وهي لعمري نزرة بالنسبة الى شأن هذه المدينة وخطرها . ولا غرو ان تحت ردمها آثارًا جليلة وكنوزًا علميَّة سوف يطلعنا عليها المستقبل اذا ما تيسَّر للعلماء ان يحفروا حيث شاؤوا . وما يزيدنا ثقةً بهذه الاكتشافات انَّ اهل جبيل كثيرًا ما يجدون في املاكهم امتعةً شتَّى غالية الثمن يبيعونها خفيةً للاجانب كالتماثيل والنقود والقطع المعدنيَّة الى غير ذلك ممَّا لا يمكن ضبطهُ وتدوينهُ في كتب آثار بلادنا

ومن ابنية الفرنج في جبيل كنيسة مار يوحنَّا المارونيَّة . وهي كانت سابقاً ارحب منها اليوم ولعلَّها كانت مزيَّنة برواق في صدرها . وهندستها كهندسة كنائس الصليبيين ذات ثلثة اقسام مقبَّبة تنتهي بحنايا . ونقوش اكلَّة عَمَدِها في قسمها الكبير تجمع بين الطرزَين الهندسيين الغوتي والكورنتيّ

وبقرب الكنيسة جرن للعماد غاية في اللطف والدقَّة وهو عبارة عن قبَّة كنصف كرة تستند الى اربع أقواس على شكل بيضيّ وترى فوق ثلاث اقواس منها اشغالًا هندسيَّة وزيناً حسنة . اما القوس الرابعة فلا تُرى لانها مستندة الى جدار الكنيسة (١

واذا ما خرجنا من سور البلدة لقينا كما في داخلها كميَّة وافرة من عواميد صوَّان متكسّرة . وممَّا اكتُشِف حديثاً في ارض تخصّ عبد الواحد افندي اساس بناء فخيم اشبه بهيكل . والاساس المذكور بالغ العمق يُدخل منهُ الى أسراب غريبة الشكل لا تُعرف غايتها . وفي المكان عينهِ وُجدت قِطع تماثيل ونقوش من الرخام الابيض

مدافن جبيل

ومن آثار جبيل الغريبة قبورها القديمة ومدافنها وكان موقعها خارج البلدة ليس بعيدًا عن اسوارها . الَّا ان هذه المدافن المعروفة اليوم ليست مدافن الفينيقيين وانَّما هي احدث عهدًا كما ارتأى ذلك الدكتور روفيه في بحثهِ السابق الذكر ولعلَّنا نسمع

١) راجع De Vogüé : *Les Églises de la Terre S^te^*, p. 375

عمّا قليل ببشرى اكتشاف نواويس جبيل الفينيقيَّة فينتفع بها العلماء كما انتفعوا باكتشاف نواويس صيداء

واليوم يصعب علينا ان نُقدّر سعة مدافن جبيل وشكلها بعد ما حلّ البلدة من التقلّبات المتواترة وامتداد الرمل على قسم كبير منها . والارجح ان مكانها المخصوص بها كان في شرقي البلدة وجنوبها

وفي هذه المدافن لم يُكتشف الى يوم تاريخنا شيء من الآبار التي كان الفينيقيّون يؤثرونها لقبر موتاهم كما ترى في صيداء وغيرها من المدن الساحليَّة . على انَّ عدم اكتشافها ليس بسبب كافٍ للجزم بعدم وجودها كما زعم المسيو رينان (بعثة فينيقية ص ٢٠٦) . واننا نرّجح مع المسيو روفيه وجود مثل هذه الآبار ولو لم يتوصَّل احدٌ بعد الى اكتشافها . لكنَّ جبيل لا تخلو من المغاور المخصوصة بدفن الموتى الاقدمين . وقد وجدوا ايضاً حُفرًا منقورة في الصخر ونواويس لهذه الغاية نفسها

اما المغاور فعلى ضربَين منها طبيعيَّة وجدها الانسان فاستخدمها لدفن امواتهِ . ومنها صناعيَّة حفرها بيدهِ لهذه الغاية . وبين المغاور الطبيعيَّة ما كان عهدهُ قديماً جدًّا يشبه الكهوف السابقة لزمن التاريخ التي وصفها حضرة الاب زُموفن في المشرق (١ : ٩٧ و ٣٥٣) احسنها المغارة التي تُشرف على مسيل ماء في لحف ضيعة قصوبة على مسافة نصف ساعة من شرقي جبيل . وهي قريبة الشبه بمغارة انطلياس (المشرق ١ : ١٠٢) المرتقية الى طور الظرَّان . وقد نُقر في جوانبها الداخليَّة مخادع كانت تجعل فيها الموتى . وفوق احداها نقش يمثّل محارًا من الصدف الملتوي لعلَّهُ من عهد الرومان

ومداخل هذه المدافن تنفتح عموديًّا او ببعض انحراف في وجه الصخور . ومنها كثير في الوديان المجاورة لجبيل وفي الصخور التي تطلّ على البحر . وفي بعض الآونة ترى لهذه المدافن نقشاً قليلًا ويُدخل اليها على سواء الرجل وربَّما وجدتَ لها حجرةً او اكثر كانت تشتمل سابقاً على نواويس انتهك حرمتها قومٌ من طالبي الخبايا وبائعي العاديَّات لم يبقوا منها الا قطعاً محطَّمة . وفي الغالب لا تجد في هذه المدافن الا حُفرًا كالافران منقورة في الصخر

وتاريخ هذه المدافن لا يمكن تعيينهُ بالضبط لاسيما بعد ان نُزعت منها اجهزة الدفن وسُلبت امتعتهُ كما سبق ولو بقيت لاستطاع العلماء ان يستدلُّوا بها على عهدها . اما الكتابات فلا يرى منها الَّا النزر القليل وهي كلها يونانيَّة ورومانيَّة . وعليهِ فلا يتَّفق علماء الآثار العاديَّة على تعريف عهد هذه المدافن . ومنهم من زعم انها سبقت فتح الرومان للشام . وقد ارتأى رينان ان بعضها يرتقي الى ايَّام الكنعانيين

امَّا الدكتور روڤيه فانَّ رأيهُ ان هذه الكهوف كلها من عهد الرومان . وقد دعم قولهُ بحجج حسنة ترجّح رأيهُ دون ان تزيل كل الشبهات . ومن براهينهِ انَّ ما وُجد من العاديَّات في هذه المدافن منذ ٥٠ سنة لا تصح نسبتها الى غير الرومان فيستنتج من ذلك انَّ المكتشفات السابقة لهذا التاريخ كانت ايضاً رومانيَّة . (نقول) ان هذا الدليل لا يخلو من القوَّة لكنَّهُ ليس بجازم لان كثيرًا من هذه العاديَّات لا تزال مخفيَّة لدى فاتحي هذه المقابر . وكذا نقول عن البرهان الثاني حيث بيَّن الدكتور ان النواويس والنقود التي وجدت في هذه الكهوف كلّها من عهد ملوك الرومان . فانَّنا نسلّم لجنابهِ بقوَّة هذه البيِّنة لكنَّنا لا نجسر ان نحكم في ذلك حكماً فصلًا ريثما يتمّ البحث المدقّق في مستودعات هذه الكهوف . كما انهُ لا يجوز ان نبني على هذه الاكتشافات الجزئيَّة احكاماً عموميَّة عن عادات الجبيليين في دفن موتاهم

هذا واننا نوافق المسيو روڤيه الموافقة التامَّة في نسبتهِ بعض المدافن الى الطور اليوناني الروماني وهي: ١ً المدافن ذات الطبقتين الواقعة في الرملة التي تُرى جنوبي الطريق المؤدية من جبيل الى بيروت . ولكلّ قبور هذه المدافن منافذ على شكل أقواس . ٢ً المغارة الواقعة على مقربة من المدافن السابق ذكرها اتّخذها ايضاً القدماء كمقبرةٍ وحضيضها مبلّط بالفسيفساء . ٣ً بعض كهوف اخرى طُليت بالملاط ومنها ما هو مزّين بالتصاوير . فهذه بلا شكّ ليست من اعمال الفينيقيين ولكن من المحتمل ان تكون سبقت تاريخ الميلاد بقرنٍ واحد او ازيد على مثال صفائح القبور التي وجدت في صيداء قبل سنين قليلة وقد نشرنا كتاباتها في مجلّة

العاديَّات (١ ٠ ٤ ً بعض مدافن مقبَّبة ٠ ومن المعلوم ان الفينيقيين الاقدمين لم يستعملوا القبب

نواويس جبيل

نواويس جبيل كنواويس غيرها من المدافن الفينيقيَّة ٠ لكنَّهم لم يجدوا حتى الان فيها الَّا ناووساً واحدًا يمثِّل هيئة الجسم البشري (Sarcophage anthropoïde) وهو اليوم في متحف اللوڤر ٠ والنواويس الخشبيَّة لا اثر لها في جبيل مع كثرتها في غيرها من المدن الساحليَّة ٠ امَّا النواويس من الرصاص والآجرّ والحجارة والرخام البلدي مع اطباقها المحدَّبة فهي اشبهُ شيء بنواويس بلاد فينيقيَّة من حيث هيئتها ونقوشها

وقبل ختام هذا الباب لا بدَّ ان نثبت هنا قولًا لرينان بخصوص اثقاب وشقوق مختلفة الشكل وفي الغالب مستديرتهُ تُرى في قعر النوافذ الداخلة في قلب الارض ٠ فظنَّ المسيو رينان انَّ العملة الذين كانوا يحفرون هذه المقابر كانوا يسبرون متانة الصخر بادواتهم قبل حفره ليعلموا ما سيلقون في شغلهم من المشقَّة

وقد ردَّ الدكتور روڤيه على زعم رينان بما لا يُنقض من الحجج فبيَّن انَّ هذه الاثقاب ليست بصناعيَّة وانما هي صدوع طبيعيَّة كثيرًا ما تحدث في الحجارة الرمليَّة كما يُستدلّ على ذلك حيثما شاعت هذه الحجارة وقد رأينا كمثل هذه الشقوق في جبيل نفسها خارجاً عن المدافن

فهذا نظرٌ عموميٌّ لخَّصنا فيه ما يُعرف عن جبيل وآثارها ٠ فعاديَّاتها كما ترى قليلة ولكن لا يجوز للعلماء ان ييأسوا من وجود آثار غيرها ٠ ولقد اساء رينان لمَّا قال عن جبيل انَّهُ لا يؤمل اكتشاف شيء جديد فيها ٠ وكان دأب هذا الرجل ان يبحث دون تروٍّ كافٍ عن العاديَّات ولمَّا لم يعثر في جبيل على ما كان ينتظرهُ جزم بان هذه المدينة خلوة من المآثر القديمة

اما نحن فنؤثر رأي الدكتور روڤيه حيث قال في خاتمة مقالتهِ عن جبيل :

(١ راجع Promenade épigraphique à Saïda, *Revue archéolog.*, 1898, II.

« اننا نعتبر جبيل ومدافنها الفينيقيّة كأنّها مجهولة تماماً . ونظنّ انّ آبارها المتخذة لدفن الموتى قد سُدّت افواهها مع صفائح قبورها بالرمل والتراب المنقول الى هذه المدافن من التلال المجاورة فاتُّخذت تلك التلال كجنائن وبساتين وصارت المدافن مطمورة في قعر الارض . ولكن لنا الامل الوثيق ان سيتوصّل عمّا قليل اصحاب الهمّة الى هذه القبور المكنونة في اعماق الارض . ولنا ضمين لتحقيق آمالنا في ما شاهدناهُ في مدافن صيداء التي فيها وُجد قبر الملك تبنيت وعــدّة من نفائس الآثار تخلب عقول الزوّار في متحف الاستانة العليّــة . والفضل في اكتشافها عائد الى سر مهندس ولاية بيروت السابق بشارة افندي

« ولعلّ سعة حدود هذه المدافن البالغة في العمق كسعة المدافن التي اتُّخذت بعدئذٍ بدلًا منها . امّا مركزها فالارجح انهُ على مسافة ١٠٠٠ او ١٥٠٠ متر من المدينة على منعطف الرُّبى المجاورة . هذا ما يظهر لنا بالحدس والتخمين وهو سبيل نَنهجهُ لمن يأتي بعدنا باحثاً في عاديّات جبيل (١ »

١٨ بلاد جبيل

لبلاد جبيل شأن خطير في التاريخ وعلم العاديّات . وذلك لانّ قاعدة تلك الانحاء كانت اضحت في عهد الرومان مركزًا لعبادة تموز فصارت الضواحي التابعة لها كحرَم لا يجوز انتهاكهُ . وكانت الجماهير تحجّ الى هذا القطر لتكرّم الاماكن التي تخيّلتها كموقع لآثر تموز واعماله المُختلَقة . ولذلك لم تكد ربوة من الرُّبى التي تجاور مدينة جبيل تخلو من معبد تنبئ آثارهُ الباقية بعظم شأنهِ

وممّا كان يزيد هذه النواحي حسناً وبهجــةً انّ لبنان كان في ذلك العهد مجلّلًا بابهى حلل الطبيعة تزينــهُ الغابات الكثيفة وتظلّلهُ الاشجار الباسقة فكان اشبه بجبال الالب التي هي اليوم فخر سويسرة ومصدر ثروتها (راجع مقالتنا في جبال الالب ولبنان . المشرق ١ : ٧٢١) . فكنت ترى لكل معبد غيضة تحدق بهِ وتمدّهُ

١) وفي الواقع قد وُجدت في جبيل بعد كتابتنا لهذه الفصول آثار أُخرى قد وُصفت في المشرق ١٩٠٣ (٦ : ٩٢٣) و ١٩٠٤ (٧ : ٢٢٨)

فوقهُ افنانها الوارفة كما ترى اليوم في بلاد النصيريَّة المزارات والمقامات على آكام تكتنفها ضروب الاشجار كأنَّها قلائد الزمرُّد

اما الآثار الباقية فمنها ما هو مطمور في الارض ومنها ما تتخذهُ الخلق لبنايات مستحدثة كالكنائس والبيع يدلُّ عليها كتابات قديمة طُمس بعضها او نقوش متقنة الصنع تراها في الجدران او صفائح محطَّمة أُلقي حطامها في زوايا الكنيسة او انصاب مخروطة وعتبات مستطيلة الى غير ذلك بل وجدنا مذابح بعض الكنائس مبنيةً بحجارة المذبح القديم نفسه . واذا طُفت حول هذه الكنائس رأيتَ آبارًا او صهاريج او احواضًا او قبورًا منقورة في الصخر كلها شاهد على الازمنة الخالية

بَـلَاط

موقع هذه القرية على مقربة من قَصوبة في جنوبيها . كنيستها على اسم النبيّ العظيم مار الياس وهي مبنية بحجارة هيكل قديم كان هنالك . وفي جدرانها بعض قطع من تماثيل رومانيَّة متحطّمة وفي داخلها اربع كتابات يونانيَّة يستفاد منها ان الهيكل القديم الذي قامت الكنيسة مقامهُ كان على اسم الاله العظيم (Διὶ μεγίστῳ) وهو البعل كبير آلهة الفينيقيين او تموز قرينهُ ونائبهُ في بعض الامكنة (راجع المشرق ٢ : ٦٢) ولهذه الكتابات تاريخ يقضي باعتبارها كاقدم الكتابات اليونانيَّة في لبنان فانها ترتقي الى السنة ١٩ قبل المسيح

ولبلاط مدافن قديمة وقبور منقورة في الصخر أحكمُها صنعًا ما يُرى غربي المدينة . وهي عبارة عن ستَّة اجران متلاصقة متجانسة الشكل غاية في الاحكام نُقرت في الصخر بعد قطعهِ وتسويتهِ واهل بلَاط يجدون عددًا وافرًا من العاديَّات في قريتهم وضواحيها . ولو باشر العلماء ثمَّ حفريَّات منظَّمةً لوجدوا فيها ما يسرُّهم (١

اده

هي في شمالي حَبوب وشرقيّ شمالي جبيل . من آثارها القديمة موادّ كنيستها

١) راجع كتاب بعثة فينيقية لرينان ص٢٢٣ ورحلة دوسّو الى سوريَّة سنة ١٨٩٥ص٥

المقامة على ذكر القديس جاورجيوس . فانّ هذه المواد قد استخرجت كلها من ابنية عاديّة . ومن اعتبر جدرانها وجد في خلالها قطعاً شتى من العمَد والحجارة المُطنّقة . وقد انتزع المسيو رينان عتبة الكنيسة وارسلها الى متحف اللوفر في باريس . وعليها يُرى نقش من الرموز الشائعة في الدين الفينيقي وهو يمثّل كرةً ملتفَّة حولها حيّات تجتمع اذنابها من فوق . والكرة المذكورة بين جناحين منتشرين على جانبيها . وكان لبيت العماد الذي قرب كنيسة جبيل حجر فيهِ مثل هذه النقوش الّا انـهُ احدث عهداً من العتبة السابق ذكرها (راجع ص ٦٣) . وهذا الحجر نقلهُ ايضاً رينان الى باريس

وفي نواحي اده معابد كثيرة كانت في سابق الدهر هياكل للاصنام ومنها ما هو مزدوج . وسنعود ان شاءَ الله الى ذكرها عند كلامنا عن كنائس لبنان المارونية القديمة

عمشيت

عمشيت قرية جديدة بالنسبة الى غيرها من القرى المجاورة . وليس فيهـا من اثر ثابت يؤدي بالقول الى وجودهـا في الطور اليوناني الرومانيّ وهي اليوم بلدة معتبرة اخذت في النموّ منذ اوائل القرن الحالي . امّا الكتابات العديدة التي يجدها الناس في عمشيت فكلّها منقولة اليها من جبيل او ضواحيها (١

عبادات

فاذا رقينا الان الى مشارف لبنان وجدنا في طريقنا كنيسة شامات المزدوجة التي فيهـا آثار هيكل من الطرز الايوني (ionique) ترى عمَدها من داخل الكنيسة . وفوق شامات على مسافة نصف ساعة منها عَبادات او عبيداتُ ترى في جدران كنيستها عند بابها الخارجي كتابةً يونانيَّة كتبت في ايام انطونينوس (٢

١) راجع بعثة فينيقية ص ٢٢١ ورحلة دوسُّو ص ٦

٢) هذا الاسم مشترك بين انطونينوس المعروف بالبـارّ ومرقس اورليوس انطونينوس

قيصر وهي ذات شأن لتاريخ الديانات في لبنان . والكتابة على اسم « المشتري السماوي الاعظم السارناي (Σααρναῖος) المشفع » وقد اختُلف في شرح الصفة « سارناي » والارجح انهُ نسبة لاسم هذه الضيعة القديم فدُعي بهِ البعل المعبود فيها وفي تراكم هذه النعوت والصفات اشارة الى معبود اعظم متفرّد بالجلال هو الرب سبحانهُ وتعالى الذي لا إله غيره كان القدماء اشركوا بهِ معبودات ثانويّة فتاهوا في بيداء الشرك

بجديدات

في بجديدات ايضاً آثار قديمة متعدّدة . سيأتي الكلام عن كنيستها ونقوش جدرانها . امّا مذبحها الحالي فهو المذبح القديم نفسهُ الذي كان الوثنيّون يقدّمون عليهِ تقادمهم . ومثل هذا المذبح في كنيسة مار اما بجوار اده . ولا تخلو بجديدات من الكتابات القديمة اليونانيّة لكنّ اكثرها مطموس لا يسعنا هنا ان نذكر ما ورد في شرحها من الآراء المتباينة بلا فائدة للقراء

جربتا

في جربتا وهي قرية قريبة من بجديدات اجمل نقش حفره القدماء في لبنان على وجه الصخر . وهذا النقش عبارة عن نُقرة مستديرة ترى في اعلاها شلو بعض الآلهة وتحت التمثال المذكور مذبح وعلى الجانبين شخصان رجل وامرأة واقفين في هيئة السجود وترى شخصين آخرين يسوقان الضحيّة ويحملان كل لوازم الذبيحة . وهذه الصورة قد صبرت على ممرّ الدهر الّا انّ رأس الاله قد حُطم فيها عمداً . ورسمها حسنٌ يشهد لمصوّرها بالحذق ودقّة الصناعة فانّهُ اجاد كلّ الاجادة بتمثيل حركات الاشخاص ولبسهم وهيئاتهم المختلفة . ومن فوائد هذا الاثر انّهُ يدلّنا على لبس قدماء الفينيقيّين فضلًا عن تعريفهِ لديانتهم . وعلى مسافة قريبة من هذه الصورة كهوف ومدافن منها اشتقّت جربتا على الاصحّ اسمها اليونانيّ (Κρύπτη) اي مغارة

فيجوز ان تنسب الكتابة لكلّ منها فيكون تاريخها امّا سنة ١٥٤ — ١٥٥ او ١٧٧ — ١٧٨ بعد المسيح

معـــاد

لا ريب انَّ معـــاد كانت في سالف الاعصار ضيعةً مهمةً ومركزًا خطيرًا . وفي القرون المتوسطة بُني لها قلعةٌ . وكنيستها نعدُّهـا طرفةً من طُرف الايام نذكرها في جملة الكنائس القديمـة المعتبرة . ومما اكتُشف فيها كتابة يونانيَّة للاله سَتْراپ تاريخها السنة الثامنة قبل المسيح ارسلها رينان الى باريس . ومن خواصّها كثرة اغلاطها . ممـا يدلّ على ان حافر الكتابة كان يرسم الرسم دون ان يفهم مضمونهُ . وهذا كثير في الخطوط اليونانيَّة القديمة المكتشفة في لبنان كما ترى مثلًا في كتابة دوما . وهو من البراهين التي تنبئ بان الفينيقيـين لم يتقنوا التكلُّم باللغة اليونانيَّة

وان سأَل سائل تُرى مَن هو هذا الاله سَتْراپ . اجبنـا ان الستراپ عند اليونان كالمرزبان عند العرب وكلاهمـا يدلُّ على رئيس الفرس وسيدهم المتولّي امورهم بالنيابة عن الملك . فيكون الاله المذكور في كتابة معاد دُعي بذلك ايَّام دولة الفرس في فينيقية . فسمّوه سَترابًا اي سيدًا كما سمّوا غيرهُ من الآلهة « بعلًا وملوخًا » وكلاهمـا بمعناهُ يراد بهما السيّد والملك . وان اعترض المعترض بقولهِ ان المرزبان دون الملك مقامًا فكيف دعي بهِ الاله العظيم . قلنـا انَّ المرزبان كان في اعين الشعب كالوالي والحاكم الاكبر الذي يعودون اليهِ في كلّ امورهم لبُعد الملك الاعظم عنهم . فاعتادوا اكرام الوالي المذكور حتى صار لديهم بمنزلة الملك عينه . ثم نسبوا اليهِ قسمًا من الصفات الالهيَّة كما كانوا ينسبونها للملوك . وكذلك ترى كثيرًا من الصفات الالهيَّة كانت في بادئ الامر تدلّ على رتبة مقصودة ثم نقلها العامَّة شيئًا فشيئًا للدلالة على السلطان المطلق والاله الاعظم كما ترى في غير ذلك من اسماء اللاهوت كالبعل وأدون وملوخ وكلهـا انتقلت عند الفينيقيين بالمجاز من معناها الاصليّ الى معنى الاله الكبير المتعالي

مهما كان من امر هذا اللقب فانهُ من المقرَّر ان اسم الاله ستراپ لم يُرَ ذكرهُ في غير هذه الكتابة الحجريَّة . على انَّ پوزانياس المؤرّخ كان ذكره في كتابهِ

السادس (ف ٢٥ و ٢٦) لجاء اكتشاف هذه الكتابة موّيدًا لقوله (١ وترى من ثمّ ما في درس الآثار القديمة من الفوائد لمعرفة التاريخ · ولا يقولنّ قائلٌ ان هذه الاشياء زهيدة ليس تحتها كبير امر · أجبنا انّ العلم في الغالب متوقّف على مثال هذه الدقائق فاذا جُمع شتاتها نجم عنها فوائد لم تكن في الحسبان فكأنّها اشعّة النور تبيد اذا ضمّ بعضها الى بعض سلطانَ الظلام وتقرّر اسمى الحقائق وأجلّها

١٩ احوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح

وفقًا لما ورد في مراسلات تلّ العمارنة

كثيرًا ما اشرنا في سياق كلامنا عن آثار لبنان الى مراسلات تلّ العمارنة · فأحببنا ان نستطرد الى وصفها لما ينجم عن معرفتها من الفوائد الجمّة المعربة عن احوال بلادنا قبل تاريخ الميلاد باربعة عشر قرنًا · فان هذا لعمري عهد قديم ما كنّا لنرجو قبل عشرين سنةً ان نقف على شيء من اخباره · فأتى هذا الاكتشاف في حين لم تهجس فيه الضمائر ولم يخطر على بال · امّا الفوائد التي تُستخلص من المكاتبات فقد ألحقناها بآثار بلاد جُبيل لكثرة ورود اسم هذه الناحية فيها فنقول :

ان تلّ العمارنة مزرعة صغيرة مجاورة لوادٍ موقعهُ جنوبي مدينة المنيا في الصعيد على مسافة ٨٠ كيلومترًا منها عند ضفّة النيل الشرقيّة · والوادي المذكور تحيط بهِ الصخور وهو يُدعى باسم المزرعة المنوّه عنها · وفي هذا الوادي بُقعة واسعة تمتدّ مباشرةً من قرية « شيخ قنديل » وكان على وجهها أطلال وأخربة قديمة · اما الصخور المجاورة فكانت قد نُقرت فيها مدافن تزينها النقوش والكتابات الهيروغليفيّة استنتج منها العلماء انّ ثمّت ازهرت مدينة « خوت اتن » او « خوت

(١ راجع مبحثًا مهمًّا ورد في المجلّة الاسيويّة الفرنسيّة عن الاله ستراب المذكور (J. A., 1877[2] p. 157)

ناتن (١) كرسي ملك فرعون مصر المدعو امينوفيس الرابع وكان هذا الملك بنى تلك المدينة نحو سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد وبقيت مدةً الى ان خربت بعد وفاته

ولما كانت بعض شهور سنة ١٨٨٨ بينا كان قومٌ من الفلاحين يحفرون بجوار هذه الاخربة اذ عثروا على صناديق خشب مملوءة من قطع الآجر كلها مكتوبة على وجهيها باسطر متلاصقة ناعمة . فسُرّ الفلّاحون بهذا الاكتشاف واملوا من بيعه ربحاً طائلاً . وحملهم طمعهم الى ان كسروا اكبر هذه الالواح فجعلوها قطعاً ليزيد بذلك عددها وربحهم معاً . ولعلّ جهلهم كان أودى بهذه الكنوز الدفينة لولا ان الخبر بلغ مسامع أُولي الامر فبادروا حالًا الى تلافي الضرر وضبطوا ما وجدوهُ من الآجرّ ومنعوا كسرهُ وتشتيت قطعهِ . وقد نال المتحف البريطاني النصيب الاوفر من هذه الكتابات فانَّ منها هنالك ٨٠ آجرَّة كبرى حسنة . اما المتحف المصري فاصاب منها نيّفاً وستين قطعة . وفي دار عاديَّات برلين منها ١٨٠ قطعة دون القطع السابقة كبرًا وكذلك تمكّن بعض الخواصّ فحصلوا على قطع صغرى ابتاعوها لنفوسهم

وما عتّم العلماء ان عرفوا ان الكتابات المرقومة على الآجرّ هي الكتابات المسماريَّة البابليَّة وانها تشتمل على سجلّات الدولة في ايام امينوفيس الرابع وابيه امينوفيس الثالث فكان لهذا الاكتشاف احسن وقع لدى المستشرقين

وان سأل سائل كيف دخلت اللغة البابليَّة في سجلّات ملوك مصر ؟ أجبنا ان الامر لا يخلو من بعض الشبهة . وقد ذهب قومٌ من العلماء الى انّ اللغة البابليَّة كانت في ذلك العهد اللغة الرسميَّة بين الدول الشرقية كما ترى اللغة الفرنسية في ايامنا . وذهب غيرهم كالاب ديلاتر اليسوعي الشهير (٢ الى ان اهل الولايات الشامية في زمن مكاتبات تلّ العمارنة كانوا يتكلّمون باللغة البابلية وهو عندنا الرأي الارجح . على اننا بقولنا هذا لا ننفي وجود لسان غير اللسان الاشوريّ اخذ مذ ذاك الحين

١) لم يتّفق العلماء على كتابة الاعلام الواردة في رسائل تلّ العمارنة فاتّبعنا ما رأيناه اقرب الى الصواب

٢) راجع كتابهُ في بلاد كنعان على عهد الدولة المصريَّة :
Le pays de Chanaan, province de l'ancien empire égyptien, (p.26 - 30)

يمتزج بلغة بابل نريد بذلك اللغة الكنعانية التي يظهر منها بعض الآثار في رسائل تل العمارنة . وهذه اللغة الكنعانية هي التي تغلّبت بعدئذٍ في انحاء الشام وطمست (بفرعيها العبرانيّة والفينيقية) آثار لغة اشور . وهذا يطابق ما نعرفهُ من احوال بلادنا فان اهلهُ كانوا قبل عهد المسيح بثلاثة آلاف سنة قبائل ساميّة من البابليين ثم لم يزل يهاجر الى سوريّة جيلٌ من الناس نُسبوا الى الكنعانيين حتى غلب هـذا العنصرُ الكنعاني العنصر البابليّ وقام مقامهُ (١

وعليهِ ان اول فائدة تُستفاد من مكاتبات تلّ العمارنة انما هي شيوع اللغة البابليّة في لبنان مع ابتداء انتشار الفينيقيـة . وترى التراكيب الفينيقية في رسائل اهل الساحل لا سيما جبيل وبيروت اكثر منها في غيرهـا . فيؤخذ من ذلك ان سوريّة كانت وقتئذٍ كمضمار يتجارى فيهِ شعبـان كبيران : البابلي وهو المتولي على الارض المالك عليها تحت سيطرة فراعنـة مصر . والكنعاني الذي ينمو ويزداد يوماً فيوماً الى ان ثبتت دعائمهُ وامتدَّت اطنابهُ واستولى على السيادة بدلًا من خصمهِ المدحور وغلّب لغتهُ على لغتهِ

*

ومن بعد هذه المقدَّمة يترتَّب علينـا ان نبحث عن مضمون مكاتبات تلّ العمارنة فنقول انّ هذه المراسلات تُقسم الى قسمين : الاوَّل يشتمل على الرسائل التي بعث بها الى فراعنة مصر أقيالُ آسيّة وملوكها غير الخاضعين لدولة المصريين كالحِثّيين ومـلوك العراق وبابل واشور . امَّا القسم الثاني فانهُ يتضمَّن رسالاتٍ انفذها الى ملوك مصر او وزرائهـا ولاةٌ وامراء عديدون من سورية وفلسطين . وكانت بلادنا في ذلك العهد تحت حكم مصر فيستشفُّ من مطاويْ كلام الكتبة التذلُّل والتواضع كما يكتب العمَّال الى سادتهم بل العبيد الى اولياء امرهم

وفي مقدَّمة هذه الرسائل اسم الكاتب على هذه الطريقة : « عبدك فلان » او « فلان عبدك من مدينة كذا » او ايضاً « فلان كَلْب الملك » . ولا ترى احدًا من هؤلاء الكتبة يلقّب نفسهُ بملك او امـير بل يكتفي باسم « خزانو » وهو

١) راجع كتاب المعلم فِنكلر H. Winckler: *Die Völker Vorderasiens*

الحاكم او الوالي . وقد ورد في رسالة حاكم جبيل « ريب ادّى » او « ريب ادّي » قولهُ للفرعون : « لاي سبب جعلَني الملك خزانو » فاستدلّ المستشرقون من هــذا الكلام ومن غيره انّ رتبة « الخزانو » كان ملك مصر يقلدها بنفسهِ الولاة فيخلفهم فيها اولادهم من بعدهم . ويستدلّ من هذه المكاتبات ان النساء كنَّ يَنَلْنَ رتبة الخزانو كالرجال وهو امرٌ غريب لم نجد لهُ شبيهاً في تاريخ الشام سوى ما ورد عن زينب في تاريخ تدمر (١

وتحتوي الفاتحة ما عدا اسم الكاتب ذكر الفرعون والقابهُ على هــذا المنوال : « الى الملك سيدي والهي ونوري وشمس السماء فــلان . . . عبدك وتراب قدميك وسائس خيلك . اني اخرّ على اقدام سيدي سبع دفعات وأَنطرح سبعاً على صدري وظهري » وفي بعض الرسائل يبالغ الكاتب في التذلُّل والخنوع الى ان يجعــل نفسهُ « كلباً اهلاً بان يطأهُ سيّده تحت اقدامهِ » ثمَّ يــلي هذه المقدمة فحوى الكتاب

امَّا رسائل الملوك فمقدَّماتها تُشعر برتبة اصحابها مثال ذلك ما كتبهُ « دوسرتا ملك ميتاّني» اي بلاد ما بين النهرين وكانت اختهُ زوجةً لِأَمينوفيس الثالث وابنتهُ لابنهِ امينوفيس الرابع :

« الى الملك العظيم ملك بلاد مصر اخي وصهري (وفي الاشوريَّة ختني) الــذي يحبني وانا احبهُ كتبت هــذا لافيدك . انا دوسرتا الملك العظيم صهرك الذي يحبُّك ملك ميتاّني اخوك اني على احسن حال . واقرأُ عليك السلام وعلى آل بيتــك وعلى اختك وحريمك وعلى اولادك وعلى عجَلاتك وخيلك ووزرائك وبــلادك وكل مالك . سلامٌ للجميع يكون اطيب سلام

وفي مكاتبات تلّ العمارنة اعلام مُدن كثيرة نكتفي بذكر ما لهُ بعض العلاقة مع اخبار لبنان وهي : عكًّا (كما تُكتب اليوم) وصوريّ (صور) وصيدونا (صيداء) وبيروتا او بيرونا (بيروت) وجبــلة (جبيل) وسموراً او سموريّ (وهي بلدة تُرى اخربتها على مسافة كيلومترين من مصبّ نهر الكبير شمالاً)

---

١) وقد اخبر المسيو دوسُّو في رحلة حديثة الى جبال النصيريَّة انهُ وجد امرأةً كانت متولّية رتبة المختار في ضيعتها

واروادا (جزيرة ارواد) . ومن المدن الداخليّة المذكورة في هذه الرسائل . دِمَسقا او دِمَسقي (١ (دمشق) وقطنا في جوار دمشق (ولعلّها قرية قطنة)

ولا ترى في مكاتبات تلّ العمارنة ذكرًا لجبل لبنان لاسيا جهاته الداخليّة الّا نادرًا . وقد زعم الكولونل الانكليزي كُندر (Conder) انّهُ وجد فيها اسماء البترون وجونية وشكّة وشتورة ومكسة في البقاع (٢ بيد ان العلماء الاثبات لم يوافقوهُ على رأيهِ حتى الآن

ومن الاعلام المذكورة اسم مدينة أمّيا ذهب الاب ديلاتر اليسوعي الى ان موقعها وراء لبنان او في جهتهِ الشماليّة . وقد زعم كُندر ان امّيا هذه هي اميون الحاليّة في معاملة الكورة . فان صحّ قولهُ تكون اميون أقدم بلدة نعرفها في داخل لبنان. والرسالة التي ورد فيها هذا الاسم كاتبها احد العمّال المصريين يطلب من صاحب امّيا ان يسلم اليهِ عددًا من العبيد مع ابنة الشيخ ويرسل لهُ فضّةً وعجلات وخيلًا ثمّ يختم قولهُ بما نصّهُ : « اعلم ان الملك على احسن حال كالشمس في السماء وان جيشهُ وعجلاتهِ على ما يرام من الصلاح »

وقد جاء ايضاً مرارًا في هذه الرسائل اسم بلدة تدعى « نخاسه » يظنّ العلّامة نيبور (٣ انها كانت في شمالي شرقي لبنان. امّا الاب ديلاتر (٤ فيجعلها قريبة من حمص . ففي اقوال العلماء كما ترى تباينٌ ظاهر

ولكن ان كانت افادات رسائل تلّ العمارنة قليلةً عن احوال لبنان الداخليّة فانها كثيرة التفاصيل عن المدن الساحليّة خصوصاً جُبيل . ولواليها « ريب اذّى » وحده نحو خمسين رسالة في مجموع رسائل تلّ العمارنة

واوّل ما يستلفت انظار مطالع هذه الرسالات ان مدن ساحل الشام كانت فائزة بنصيب من العمارة والتقدّم فكانت التجارة البحريّة فيها على قدَم . وكثيرًا ما ورد ذكر سفن جبيل وبيروت وصيداء التي كانت تمخر عباب البحر المتوسط

---

١) راجع مقالتنا في اسماء دمشق (المشرق ٣ : ٦٥٨)

٢) راجع كتابهُ The Tell Amarna Tablets, 2e *ed. London,* 1894

٣) راجع C. Niebuhr: *Die Amarna-Zeit,* p. 26

٤) راجع كتابهُ السابق ذكره ص ٤٧

وتنقل محصولات البلاد الى اماكن شتّى . وما هو اعجب من هذا ان المدن المذكورة كانت قد اتخذت لها بوارج حربيّة . والدليل على ذلك ما ورد في رسائل « ريب ادى » الى فرعون قال : « ان اهل ارواد عندك الان فاضبط سفنهم التي هي في مصر » . وقال في رسالة اخرى عن سفن بيروت وصيداء : « أليست هاتان المدينتان تحت ولايتك فولِّ عليهما رجلاً يمكنهُ ان يجهّز سفناً لبلاد اموري (١ » . وزاد في رسالة ثالثة ان سفن صيداء وبيروت بلغت ساحل بلاد اموري وقبضت على احدى مراكبها ثم اردف هذا الخبر بقولهِ : « وهذه السفن قادمة الآن لتستولي على بعض سُفني »

*

ولا عجب من هذا الخصام الواقع بين مدن مجاورة فان رسائل تل العمارنة تنبئنا بان امر بلادنا كان وقتئذٍ فَوْضى لا تجمع اهلَها كلمةٌ . وفي ما يأتي ادلّة على ذلك

اما تجارة الفينيقيين البرّيّة فكانت تبلغ الى تخوم مملكة اشُور وكانت قوافلهم تعرف حق المعرفة كل الشعوب التي تملك على الاقطار المتوسطة بين بلادهم وبلاد بابل . وقد ورد ذكر هذه الممالك في رسائل تلّ العمارنة . وكان البابليُّون والميتانيُّون يزاولون صناعة المعادن وخصوصاً صيغة الجواهر الكريمة ثمَّ يبيعونها للفينيقيين والفينيقيُّون ينقلونها الى الامصار البعيدة . وكان تجار فينيقية يعاملون ايضاً الحثيين في آسيّة الصغرى ويرحلون الى عيلام اي بلاد فارس . ولا غروَ فانهُ يستدلّ من الكتابات الاشوريّة التي سبقت عهد رسائل تلّ العمارنة ان العيلاميين غزوا بلاد فينيقية فتكون الصلات بين الأُمّتين نشأت مذ ذاك الحين

اما الجهات الجنوبيّة فكان الفينيقيُّون اعلم بها من غيرها فكانوا يُبحرون بلا انقطاع الى القطر المصري تارةً ليدفعوا الجزية للفرعون وأُخرى لمصالحهم الخاصّة فيبيعون سلعهم ويستبدلونها بذهب مصر الشهير الذي ورد عنهُ في رسائل تلّ العمارنة « انهُ كتراب الارض كثرةً » . والمظنون ان المصريين كانوا جلبوا هذا

١) ذكر هذه البلاد وارد في ما يأتي والآراء متضاربة في تعيينها

الذهب من بلاد النوبة التي غزوها واستولوا على معادنها

ثم ان تاريخ الازمنة التابعة يشهد على ان سليمان الحكيم وفراعنة مصر في عهده كانوا يستخدمون الفينيقيين لمتاجراتهم وعندنا ان الامر كان كذلك في القرن الخامس عشر والرابع عشر قبل المسيح · وان الفينيقيين لم يجهلوا جنوبيّ جزيرة الهند

واماَّ اسفار الفينيقيين الى شمالي غربي البحر المتوسط فلا ذكر لها في مكاتبات تلّ العمارنة · وانما ورد فيها اسم بلاد « ألاسّيا » والمرجح انها توافق بلاد قرمانية الحاليَّة او احد الاقطار الواقعة في شمالي سوريَّة · ومن اوصافها انها كانت من البلاد الساحليَّة · وما لا مراء فيهِ ان الفينيقيين كانوا يعرفون من ذلك العهد جزائر الارخبيل وسواحل آسيَّة الصغرى وكانت قفولهم البريَّة تتردد الى هذا القطر للمتاجرة

☆

فمما تقدَّم يلوح للقرّاء ان فينيقية كانت بلغت في القرن الرابع عشر قبل المسيح مقاماً عالياً من حيث تجارتها الواسعة وثروتها الوافرة · وكانت المعادن الثمينة كالذهب والفضَّة تُصاغ في جبيل فتجديها ارباحاً كثيرة يدلّ على ذلك كتاب حرَّره واليها ريب ادّى السابق ذكرهُ · وكذلك كانت الزراعة والفلاحة في حالٍ زاهٍ رائع · وكان الزيت والخمر من جملة ما يقدّمهُ الفينيقيُّون لملوك مصر لاداء الجزية · ولعل الخمر اللبناني اشتهر من ذاك الحين قبل ما يذكرهُ هوشع النبيّ في سفر نبوَّتهِ ١٤ : ٨ · وقد ذكرت ايضاً رسائلنا « الاشجار الكبيرة » التي وهبها ازيرو احد امراء الشام ولمَّا كان هذا يملك على قسم من شمالي لبنان فعلى ظننا ان الاشجار الكبيرة المذكورة انما المراد بها شجر الارز · وهذا يصحُّ ايضاً عن جبال بيروت وجبيل التي منها قُطعت اخشاب هيكل اورشليم في زمن حيرام وسليمان.

وممَّا يدل على عمران بلادنا في ذلك العهد ذكر العجلات الحربيَّة · لانَّ وجود العجلات ينبئ بوجود طرق موثورة وفي توثير الطرق ما لا يخفى من الرقي لان ذلك لا يخلو من الصعوبة في جبال كجبال لبنان (١

١) راجع ما كتبناهُ في هذا الصدد في اثناء كلامنا عن السكك الرومانية في لبنان

وقد جاء في رسالة لاحد ولاة بيروت اسمهُ امونيرا ما تعريبهُ : « لمَّا ورد امر سيدي وشمسي عليَّ انا عبدهُ وتراب قدميهِ . قائلًا لي اذهب الى مساعدة انصار سيدك الملك للحال اطعتُ امرهُ وهـاءنذا لاحق باصحاب سيدي الملك مع خيلي وعجلاتي وكل مالي » . ولهذا الكاتب رسالة اخرى يذكر فيها عجلاتهِ الحربيَّة وما بينهُ وبين ريب ادَّى من الصلات الوديّة (١

هذا ولا تكاد رسائل ريب ادَّى العديدة تخلو من ذكر الحرب التي اصلاهـا عليهِ « عبد الشرى وابنهُ ازيرو صاحبا اموري الشديدان » ويؤخذ من سياق كلامهِ انَّ سلطتهُ كانت تمتدّ على ساحل جبيل الى طرابلس او مصبّ نهر الكبير شمالًا والى نهر الكلب جنوباً مع ما يجاور هذا الساحل من لبنـان . امَّا والي بيروت امونيرا فكان نهر الكلب يحدُّ ولايتهُ شمالًا

ومن تصفَّح رسائل ريب ادَّى ادرك انهُ كان قليل البخت لم تسعدهُ الايام . ومن المبكيات المضحكات مـا كتبهُ اليهِ احد عمَّال مصر بسبب قطيع من الحمير كان الفرعون عهد اليهِ بحراستهِ بقرب مصب نهر الكبير في بلدة سميرة :

« . . . عمَّ الطاعون بلدة سمرّي فامات الرجال واهلك الحمير . . ويلًا لك من كان يناظر الحمير ان انت لم تهتمَّ بهـا . . تقول ان الحمير وحرَّاسها قد أُصيبوا بالطاعون وان مواشي سيدي الملك قد هلكت فاذن يُقتضى عليك ان تطلب غيرها للملك . . »

فهذه الرسالة تفيدنا بان فراعنة مصر كانوا اتخـذوا لهم وسطاء من جلدتهم يناظرون ولاة المدن وامراء البـلاد ويوقفون الملك على احوالهم وكان هؤلاء الناظرون يبلّغون مرؤوسيهم اوامر الفرعون . وربما لاموهم عن اعمالهم كما رأيت او دافعوا عنهم في وقت الحاجة او اصلحوا ما حدث من الخصام بين اصحاب مدينة وجارتها

ودونك كتاباً آخر من ريب ادَّى لبعض الناظرين المصريين اسمهُ امانپَّا يعرض لهُ فيهِ تشكياتهِ من اخصامهِ :

الى امانپَّا ابي الصغير من ولدهِ ريب ادى . اني انطرح على اقـدام ابي الصغير . ثمّ أسألهُ

١) الَّا ان هذه العلائق الوديَّة لم تدُم زمناً طويلًا كما سترى وقد مرَّ ان سفن بيروت استولت على سفن جبيل

ثانيةً : ألا تستطيع ان تنقذني من ايدي عبد الشرى . . . لا يبالي بامري احـد من ولاة المدن ولعلّهم جميعاً متّفقون معهُ ولذلك قد استفحل امرهُ . امّا انت فاجبتني : أرسل في صحبتي ساعياً الى بلاط الملك فان رضي الملك اعدتُّهُ اليك مع الجنود ليـدافعوا عن حياتك . فكان جوابي : اني لا اتأخر عن ارسال الساعي ولكن ليبقَ ذلك سرًّا لا يعلم بهِ عبد الشرى لان يَنهامون (وهو ناظرٌ آخر كان لملك مصر) قد ارتشى . فأجبتَ : أرسل سفينة الى يارِمُنْتـا فيأتيك منهُ فضّة وحُلل . . . ويلاهُ من يخلّصني فـاذا لم تسرع الجنود الى نجاتي سأترك المدينة وانجو بنفسي »

وفي رسائل اخرى يطلب حيناً اربعـة رجال وعشرين عجلة وحيناً اربعين جنديًّا (١ . . . وتارةً مئتين من المشاة وفئة من الخيّالة . الّا ان الناظر المصريّ لم يجب الى طلبة ريب ادّى ولم يُبالِ بامرهِ وعليهِ فلم يزل عدوّهُ يغزو ايالتهُ وتتقوّى شوكتهُ حتّى ضبط كل النواحي المجاورة لبلاد جبيل ولم يترك لصاحبها غير مدينته . والعدوّ المذكور هو ازيرو وكان مالكاً على البلاد الواقعة شماليّ دمشق وعلى قسم من وادي العاصي اي البلاد المتوسطة بين بعلبـك وبحيرة حمص فطمع في املاك جاره صاحب جبيل واخذ منهُ ما اخذ في بقعة طرابلس وجبل عكّار ولبنان

ثمَّ تفاقم الامر حتّى بلغ مسامع ملك مصر . وفي رسائل تلّ العمارنة ما يُشعر بغضب الملك على ازيرو لتعدّيـهِ حدود ولايتهِ . الّا ان ازيرو المذكور كتب الى الفرعون ليزكّي نفسهُ ويلقي تبعة الامر على صاحب جبيل . وكتابةٌ غريبٌ في بابهِ احببنا ان نثبتهُ هنا :

« الى الملك العظيم سيدي وإلهي وشمسي من ازيرو عبـدهِ اني اقبّل الارض امامك سبع مرّات . . . اعلم سيدي اني انا عبدك متعفر في التراب امامك ملكي ومولاي . ثم اني اتجاسر واقول لعزّتك لا تُعر سمعك الى الاعداء الذين رموني عندك بالزور والبهتان فاني عبدك الخاضع الى الابد »

لكنَّ الفرعون لم يرضَ بقول ازيرو واستدعاه الى مجلسهِ ليدافع امام الملك عن نفسهِ . والظاهر انهُ سُجن في مصر ومات في حبسهِ

اما ريب ادّى فلا نعلم عن وفاتهِ شيئاً . وغاية ما يُستفاد عنهُ من رسائل تل العمارنة انّهُ عمّر زمناً طويلاً وانّهُ تولّى على جُبيل في ايّام امينوفيس الثالث وابنـه

١) وفي الاصل يطلب الكاتب ان يكون عشرون منهم مصريين وعشرون من بـلاد « ميلوخا » وميلوخا هذه مقاطعة واقعة عند تخوم مصر والشام

امينوفيس الرابع ·وفي رسائلهِ دلائل على انهُ كان يطلب خير رعيتهِ وانهُ كان متعبدًا لعشتروت « بعلة جبيل (١ » يذكر اسمها في مقدَّمة اكثر رسائلهِ · ويلوح ايضاً من كتاباتهِ هذه انَّ اسرتهُ كانت مالكة على جُبيل وضواحيها منذ قديم الزمن لانهُ يشكو الى فرعون مصر امرهُ ويقابل حالهُ السيئة بحسن حال اجداده فيقول : « ان الملك كان سابقاً يُرسل الى اجدادي دراهم وغير ذلك ممَّا كانوا يحتاجون اليه وكان يسيّر لهم جنودًا امَّا انا فارسلت الى سيدي الملك ساعياً ليساعدني ببعثة من الجند فلم يرسل اليَّ احدًا »

فما سبق يتضح لقرّائنا ما تتضمَّنهُ مكاتبات تلّ العمارنة من اخبار لبنان وسواحل الشام · لكنَّ اهميَّتها الكبرى مبنيَّة على قدمها لانها كُتبت قبل موسى الكليم وقبل سفر التوراة وفيها عدَّة تفاصيل تثبت صحَّة اقوال الكتاب · ومنها ايضاً يتبيَّن ما في درس اللغتين المصريَّة والبابليَّة من الجدوى للعلوم التاريخيَّة · وفي ما اكتشفهُ المستشرقون منها حتى الآن ضمين عن فوائد اكتشافات المستقبل ان شاء الله (٢

٢٠ كنائس لبنان القديمة

نخال قرَّاءنا قد اشتاقوا الى مطالعة وصف الكنائس القديمة في لبنان بعد ما كرَّرنا ذكرها في فصولنا السابقة · وليس مرادنا ان نستوفي الكلام في هذا البحث لأننا لسوء الحظّ لم نتمكَّن من زيارة كل كنائس لبنان القديمة · ثم انَّ كثيرًا من هذه البيَع قد خربت في مدّة هذه السنين الاخيرة او ذهب عنها رونقها القديم وذلك لغيرةٍ محمودة في اهل لبنان حملتهم على تجديد بناء كنائسهم او ترميمها لولا انهم حرمونا من بعض الآثار الجليلة الناطقة عن احوال سلفائهم الافاضل وعليهِ فقد

١) راجع فصلنا السابق عن الديانة الفينيقية في لبنان

٢) ان اردت كلاماً مطوَّلًا عن مراسلات تل العمارنة فراجع مقالات مسهبة كتبها الاب ديلاتر · ومن جملتها نبذة افرنسيَّة دعاها : « اكتشاف تلّ العمارنة » · ثم اردفها بمقالة اخرى وسمها « بكتابات تلّ العمارنة » · وللمستشرق الشهير هالفي (J. Halévy » مقالات في الموضوع نفسهِ في المجلَّة الاسيويَّة الفرنسويَّة (J. A. 8e série, XVI–XX)

اسرعنا الى كتابة هـذه المقالة قبل ان تمتدّ يدُ الخراب الى الكنائس الاخرى العهيدة . وغايتنا من هذه النبذة ان نبيّن للقرّاء اجمالًا ما اتّصفت بهِ هذه البنايات المقدَّسة وما هي خواصّها التي تفرّدت بها في لبنان

لا مشاحَّة في انَّ لبنان يتفاخر على غـيره من الاصقاع بوفرة كنائسهِ . فانك لا تكاد تدخل قريةً منهُ بل مزرعة من مزارعهِ دون ان تلقى لها كنيستها ولعلّك تجد في القرية الواحدة اللهمَّ اذا كانت متوسطة في الكبر كنيستين واكثر

واغلب هذه الكنائس لا يرتقي عهدها الى ما فوق المئتي سنة تراها في هندستها اشبه ببيوت القرى لا تختلف عنها الّا بسعتهـا . فانها على هيئة مكعَّب مستطيل مبنيَّة بالحجارة والملاط لهـا على جوانبها ابواب ونوافذ . وفوقها سطحٌ ترى على احدى حافاتهِ قبَّةً للجرس لا تظهر بينهُ وبين الكنيسة علاقة هندسيَّة . وقـد استُبدل السطح منـذ عهدٍ قريب بسقفٍ مغطّىً بالآجرّ الاحمر فزادت بذلك الكنائس بُعدًا عن هيئة المعابد الدينيَّة . وان سألتَ هل لهذه الابنية طرزٌ هندسيّ اجبنا أنَّنا نجهل ذلك ولعلَّ بُناتَها انفسهم لم يدروا ايَّ طريقةٍ هندسيَّة جروا عليها في هذه العمارات

لكنَّ الامر لم يكن كذلك في سالف الاعصار . ولو بحثنا لوجدنا لاهل لبنان في القرون الغابرة طريقةً هندسيَّة في بناء كنائسهم كنَّا نودّ لو يحييهـا المهندسون المحدثون في المعابد التي يشرعون بتشييدها او يستجدُّون بناءَها

فتُرى اين نجد امثلةً لهذه الابنية العتيقة ؟ أفي جنوبيّ لبنان او مقاطعة المتن ؟ كلّا لانَّ الموارنة لم يدخلوا هذه الاصقاع منـذ زمن مديد . ونزيد على ذلك انَّ دخولهم في نفس كسروان ليس بقديم كما بيَّنَّا الامر سابقًا في المشرق في نبذتنا عن فرا غريفون (المشرق ١ : ٥٦) ثمَّ في ردّنا على مقـالة « لاحد العلماء » أُدرجت في الروضة . وعندنا انَّ الموارنة لم يتوطَّنوا كسروان قبل القرن السادس عشر وهو قول يمكن تأييدهُ بأدلَّة عديدة لعلَّنا نذكرها في مطاوي مباحثنا هذه عن آثار لبنان . وحسبنا اليوم ان نقول انَّهُ لا يوجد بين اديرة كسروان العديدة ديرٌ واحد يسبق عهدهُ القرن السابع عشر (١ وكذلك لم نطَّلع في تواريخ الموارنة على ذكر رجل من

١) راجع كتاب الخوري منصور طنوس الحوري في المقاطعـة الكسروانية ص ٢٨ .

مشاهيرهم اصلهُ من كسروان قبل القرن السادس عشر . واذا جاء ذكر الموارنة في تآليف الصليبيين فلا نراهم يذكرونهم الّا في البلاد الواقعة بين طرابلس وجبيل اما جنوبي نهر ابراهيم فلا نرى لهم فيهِ اثرًا . وكذا قل عن اديرتهم القديمة وكنائسهم فانها كلها في شمالي نهر ابراهيم كما انَّ اصل قدماء بطاركتهم واساقفتهم من البلاد نفسها

فيتضح من هذه الحقيقة امران : الاوَّل انَّ لآثار كسروان اليونانيَّة الرومانيَّة شأنًا اعظم من آثارهِ المارونيَّة . والثاني ان من يطلب امثلةً تطلعهُ على هندسة الموارنة القديمة لكنائسهم الاجدر بهِ ان يطلبها خارجًا عن كسروان

وفي واقع الحال اذا اجتزنا نهر ابراهيم وتوغَّلنا في بلاد جبيل وجدنا عددًا وافرًا من هذه الكنائس وهذا العدد يزيد على قدر مسيرنا الى الشمال . ولا غروَ لان هذه الاصقاع هي مهد الاُمَّة المارونيَّة وموطنها الاول درجت منهُ فامتدَّت في انحاء لبنان لجهات سوريَّة فأقطار المشرق حتى بلغ ابناؤُها في عهدنا بلاد الغرب ودخلوا العالم الجديد . فان وُجد شيءٌ من آثار ابنيتها الدينيَّة القديمة فهي عند مركزها الاوَّل وفي محلّ عزّها

*

قد اجمع علماء العاديَّات ان لهندسة الكنائس المسيحيَّة منذ بدء النصرانيَّة خواصّ مشتركة تشمل كل البلاد إن غربيَّة وإن شرقيَّة مع ما يُرى فيها من الاختلافات الطارئة عليها بسبب تقلُّب الاحوال ودواعي الظروف . ومن هذه الخواص تقسيم الكنائس المسيحيَّة سالفًا الى ثلاثة اقسام الحنيَّة او المحراب (abside) ثم السوق (nef) ثم الرواق او الدهليز (portique) . وبيَع الموارنة القديمة لا تشذُّ في ذلك عن غيرها من معابد المسيحيين العهيدة

فاذا اعتبرنا اوَّلًا هيئة الحنيَّة وجدناها شبيهةً بالحنايا اليونانيَّة اي انها مجوَّفة في الداخل ناتئة في الخارج على شكلٍ مستدير كما ترى في كنائس اهدن وكفرحيّ ومار نهرا وسيّدة سمر جبيل ومار ضومط في تولا ومار الياس (كنيسة واقعة بين

وتاريخ الموارنة للدويهي ص ٣٠٢

تولا وعبدلّه) ومسرح وبجديدات وادّه (في بلاد البترون) وادّه (في بلاد جبيل) وفي جوار ادّه هذه عدّة معابد وبيع بُنيت على هذا المثال

هذا ولم ننظم داعل في سلك القرى المذكورة مع ان كنيستها المتهدّمة ذات حنيّة ظاهرة الى عهدنا . لاننا نظنّ ان هذه الكنيسة كانت في الاصل هيكلاً للاصنام ثم حوّلها الاهلون الى معبدٍ مسيحي على اسم القديس تادروس الشهيد . وبين رَدْمِها جدران ماثلة حسنة البناء فيها آثار خطوط كوفية مطموسة . وترى مثل هذه الخطوط في حلتا في كنيسة السيدة القديمة . وكنيسة داعل المذكورة يزورها المتاولة ويكرمونها ولهم عند اطلالها سنديانة كبرى لا يمسّها احد

ولو أردنا ان نسرد اسماء كل الكنائس القديمة المارونية التي جُعل لها حنيّة مستديرة لطال بنا الكلام . ولعلّ المشكاة التي يجعلها الموارنة وراء المذبح الكبير مثال صغير لهذه الحنايا القديمة اتخذوها كذكر لها . ولا ريب ان الموارنة اهملوا بناء الحنايا في كنائسهم يوم اخذوا يتقرّبون في مناسكهم وطقوسهم من الكنيسة اللاتينية (١ ويقتدون بها في شؤون كثيرة . كما لحظ ذلك مراراً مؤرّخو الموارنة انفسهم (٢

هذا وقد اسفنا على ان البُناة الذين سعوا في ترميم بعض الكنائس القديمة هدموا الحنايا السابقة او غيّروا صورتها ما امكن . فترى مثلاً الحنايا الثلاث التي كانت في كنيسة مار دانيال في حدث الجبّة قد باد اثرها تماماً

ومن خواصّ البيع المارونية القديمة قببُها . ومما استحسنّاهُ من هذا القبيل قبّة كنيسة مار الياس بين عبدلّه وتولا وهي تشبه قبة كنيسة جُبَيل . بيدَ ان هذه الكنيسة مهملة يتنازع ملكها اهل القريتين

والكثير من الكنائس دهليز او رواق مقبّب الشكل كما ترى في كنيسة كفرحي وفي كنيستي بجديدات اعني مار نيقولا ومار تادروس وفي كنائس مار يوحنا المعمدان في ادّه (جبيل) ورشكيدا ومسرح

---

١) ومذ ذاك العهد ايضاً ترك الموارنة بعض العادات الجارية عند اليونان وباقي الطوائف الشرقيّة . ولعلّهم تخيّلوا انّ بناء الحنايا من الابنية المخصوصة بالروم

٢) راجع مقدّمة كتاب الدويهي المعنون بمنارة الاقداس (ص ٧)

هذه السمات الثلاث اي الحنيَّة والقبَّة والرواق هي التي تعمُّ كنائس الموارنة قديماً اللهمَّ الَّا الدهليز فاننا لم نجدهُ في قسم منها

*

هلمَّ نعتبر الان ما اختصَّت بهِ بعض هذه الكنائس دون غيرها . فمن ذلك ان بعضها كان ذا ثلاثة اسواق كبيعة جبيل وان اعترض علينا احد بان هذه الكنيسة من بناء الصليبيين فلا علاقة لها مع كنائس الموارنة أَحلناهُ الى مثل كنائس أُخرى بُنيت في وسط المقاطعات المارونيَّة كبيعة معاد ورشكيدا ومار جرجس في اهدن

فكنيسة معاد من اجمل كنائس لبنان بناءً وهندسةً لولا انَّ مُرمّميها لم يعرفوا قدر الآثار القديمة فانهم لم يحسنوا إصلاحها وطمسوا كثيرًا من محاسنها وازالوا حنيَّتها ومحقوا نقوشها البديعة وكان لهذه الكنيسة ثلاثة اسواق غير انها اقصر من كنيسة جبيل ودونها في العلوّ . ولعَمَدها رؤوس اكلَّةٍ من الطرزين الهندسيَّين الاقدَمين اي الطرز الايوني (ionien) والدوري (dorique) . اصلها من بقايا هيكلٍ قديم مع آثار أُخرى راجع ما كتبناه عن معاد (ص ٧١) . وفي الكنيسة المذكورة قبور ترتقي الى متوسّط القرون . وبازاء معاد قرية تدعى صغار لها كنيسة ذات سوقين في اعلاهما حنيّتان

اما كنيسة رشكيدا فتستحقُّ ذكرًا خصوصيًّا لقلّة شهرتها . والحقُّ يقال ان الدهش اخذ منّا مأخذهُ لما صادفنا هذا المعبد الجميل في مزرعةٍ حقيرة مجهولة يسكنها المتاولة على مسافة عشر دقائق من عبرين

فلكنيسة رشكيدا رواقٌ واسع كانت سعتهُ في سالف العهد اعظم منها اليوم . والمكان باسم القديس جاورجيوس الشهيد لهُ ثلاثة اسواق مثل كنيسة معاد والسوق الاوسط ينتهي بحنيَّة وراءها قبَّة كبيرة او بالاحرى ثلاث حنايا يندهش لمرآها الناظر . فطلبنا لهذه الصورة الهندسيَّة الغريبة شرحاً يكشف لنا سرَّها المكنون فغلب ظنّنا ان الكنيسة كانت سابقاً اكبر منها اليوم فرممها البُناة واقتصروا منها على هذا القسم الباقي . ولاثبات هذا الظنّ ادلَّةٌ تتبادر الى ذهن

زائرها ولولا خوف الاطالة لعرضناها هنا . ونكتفي اليوم بأنَّا عرَّفنا القراء بوجود هذه التحفة الهندسيَّة وسنلمح اليها في مطاوي الكلام غير مرةٍ (١

ومن الكنائس القديمة الجديرة بالاعتبار كنيسة حدتون كان بقي منها بعض الاخربة قبل سنين قليلة . فلما بُنيت البيعة الجديدة تضعضعت تلك البقايا دون ان يمكنَّا آنئذٍ زيارتها . ولرينان في وصفها فقرةٌ موجزةٌ اثبتها في بعثتهِ الفينيقيَّة (ص ٢٥٥) فزاد بمطالعتها أسفُنا على فقد هذا الاثر البهيج . وكان في هذه الكنيسة عمودان تزينهما الكتابات القديمة التي رسمها رينان رسماً لا يكاد يُستخلص منهُ معنًى . وكلُّ هذه الآثار من عَمد وجدران قد طُمست وقت البناية الجديدة

وقد تفضَّل حضرة الخوري نعمةالله نصَّار فارسل الينا كتاباً ضمَّنهُ عدَّة افادات عن هذه الكنيسة الجميلة فقال في وصفها « انها كانت ذات أسواق وفيها سبعة ابواب ثلاثة لجهة الغرب ضمن دهليز مُتقن وبابٌ لجهة الجنوب ولهُ ايضاً دهليز خاصّ وباب للشمال ضمن دهليز طبيعي منقور في الصخر وبابان على جانبي الحنيَّة وهي كانت غاية في الحسن تقوم على ذاتها ووراءها المَوْفه (السكرستيَّا) فُتح لهُ نافذةٌ جنوبيَّة . وكان لهذه الكنيسة اربع قناطر رفيعة اثنتان للجانب الايمن واثنتان للأيسر يتعلَّق طرف الواحدة بجانب الحنيَّة وطرف الاخرى بالحائط الغربيّ »

فهذه التفاصيل تنبئنا بأنَّ كنيسة حدتون لم تُشبه غيرها من الكنائس السابق ذكرها وهي كلها مقبَّبة ذات بابٍ واحد ليس الَّا . اما العواميد التي كانت في داخلها فنرجِّح انَّ اصلها من بناية قديمة كهيكل وثني او غير ذلك

وكان حضرة الاب نعمة الله سألنا في كتاباتهِ مرارًا ان ندلَّهُ على اسم اي قديس شيِّدت هذه الكنيسة لانَّهُ تحقَّى في السؤال عن الامر لدى العامَّة وبحث عن تقليد الشيوخ فلم يفز بالمرام

١) زعم رينان في بعثة فينيقية ان في جدار هذه الكنيسة كتابة قديمة استدلّ عليها . وعندنا انَّ لا وجود لهذا الاثر لانَّ الاهلين يجهلونهُ مطلقاً

قلنا انّنا نحن ايضاً بحثنا عن هذا في ما تيسَّر لنا من التآليف فلم نحظَ بالمقصود . ولعلَّ ذلك يمكن استخلاصهُ من كتابة يونانيَّة دلّنا عليها اهل حدتون. وهذه الكتابة كانت مكتوبة على طوق من النحاس كانت تُناط بهِ ثُريّاً او ما شاكلها . ومضمون الكتابة ما تعريبهُ : « في عهد حنا كاهن مار الياس » يريد كنيسة مار الياس . فيترجَّح من هذا ان الكنيسة المذكورة كانت على اسم القديس اليّا النبيّ لان لحدتون كنيسة أُخرى قديمة مخصصة بالعذراء الطاهرة وهي باقية الى اليوم

*

هذا وان سياق كلامنا عن رشكيدا ومعاد وحدتون قد بلغ بنا الى ان نبسط المقال عن النقوش التي كانت الكنائس المارونيَّة مزيَّنةً بها . ولا مراء ان تصاوير كنيسة معاد كانت بديعة جدًّا كما ينبئ على ذلك ما بقي منها على جدرانها وقد ذهب اكثرها بترميم محراب الكنيسة . وممَّا افادني شيوخ القرية انهم لو ازالوا الردم الذي هناك لوجدوا امثالاً تصويريَّة حسنة من جملتها صورة مار يوحنًّا مارون وفي تاريخ الموارنة للدويهي ما يؤيد زعمهم قال (في حاشية الصفحة ٣٦٨) : « وفي حنايهما (يريد كنيستي معاد وبجديدات) مكتوب « ان الله صباؤُوت » ومصوَّر على حيطانهما مار مارون ومار قبريان بالتيجان على رؤُوسهما والدروع على اكتافهما» فياليت اصحاب الامر يتولَّون هذا العمل وينتزعون التصاوير من تحت الردم ولنا الامل انهم يلقون مع التصاوير كتابات قديمة بالخط الاسطرنجيليّ تفيدهم علماً عن اخبار قديسي الكنيسة المارونيّة . اما تصاوير كنيسة رشكيدا فقد باد اكثرها الَّا ما يراهُ الناظر في جهة المحراب وهي رؤُوس متقنة التصوير تدلّ على ما كان ثمَّت من النقوش الجميلة

ومن الكنائس المزخرفة بالتصاوير كنيستان على اسم مار جرجس في اهدن وعبدلّه وكنيسة مار تادروس في بجديدات قد صبرَت على عوارض الزمان ولو اراد السكَّان لأَمكنهم ان يجددوها بعد ازالة الملاط الذي يحجب قسماً منها مع صيانتها عن الرطوبة . ومما يُرى في جدران مار تادروس صور الكروبيم يحملون بين ايديهم تسبحة التقديس (Trisagion) مكتوبة بحروف اسطرنجيليَّة ولبقية

تصاوير هـذه الكنيسة كتابات سريانية تُعرّف موضوعها واسماء الاشخاص المصورين فيها · فلا يخلو البحث عنها من الفائدة

وكنت ارغب كثيرًا في زيارة كنيسة مار سركيس المجاورة لشبطين لاني كنتُ قرأتُ في بعثة فينيقية لرينـان (ص ٢٥١) ان هذه البيعة مجمَّلة بتصاوير بديعة ظنَّ انها ترتقي الى القرن السابع او الثامن تمثِّل على زعمهِ السيد المسيح ورسلهُ الابرار وأردف انَّ وراء الهيكل قد بقي منها صوَر رؤوس جميلة · فزرتُ الكنيسة الَّا اني لم اجد لهذه التصاوير اثرًا البتَّة

وفي كفر شليمان معبد صغير غريب الشكل نُقر في الصخر يدعى سيدة نايا (١ وقد تبيَّن لنا من فحصها انها كانت سابقاً مدفناً ثمَّ جُعلت معبدًا (٢ · استدللنـا على ذلك بصغر المعبد وهيئتهِ وارتفاعهِ فوق الحضيض بعدَّة اذرع · وترى في سقف هذا المعبد فوق مذبحهِ وعلى جناحَي الهيكل نقوش وتصاوير اسودٌ قسم منها بسناج السُرُج وهبوة البخور الذي يوقد امام صورة العذراء هنالك · وفي الزاوية القريبـة من الباب صليب في تربيعهِ كتابة يونانيَّة مؤداها : « قد انتصر يسوع المسيح » · وعلى شمال الصليب صورة رامٍ بالقوس · وعلى يمينـهِ وحش غريب لعلَّهم ارادوا بـهِ الشيطان الرجيم فيكون المصوّر اشار بذلك الى انتصار المسيح على قوَّات الجحيم بصليبهِ

وقد ذكر الدويهي في تاريخهِ كنائس أُخر تزينها التصاوير القديمة لم يبقَ اليوم منها شيء · وما يزيدنا اسفاً على فقدها ان نقوش بعضها كانت مؤرخة كبيعة مار نهرا في ادّه من بلاد البترون فانَّ تاريخها كان يرتقي الى سنة ١٥٧٥ لليونان اي ١٢٦٣ للمسيح (راجع الدويهي ص ١١٢)

وان سأل سائل من اي طرز كانت النقوش والتصاوير التي سبق ذكرها اجبنا أنها كانت كلهـا من الشكل البوزنطي فانَّ من يقابل بينها وبين النقوش

١) لعلَّ هذه اللفظة يونانيَّة الاصل « νέα » اي جديـدة فيكون المعنى « السيدة الجديدة »

٢) وبقرب السراية المبنيَّة حديثًا في قرية اميون كنيسة مثـل كنيسة كفر شليمان على اسم القديسة مارينا كانت ايضاً مدفناً ثم حُوّلت الى معبد

البوزنطيّة من حيث طريقة التصوير والالوان وهيئـات الاشخاص لا يرى بين الطرزين اختلافاً يُذكر فيحكم بلا شكّ ان مصوّري هذه التصاوير اخذوا الفنّ عن البوزنطيين كما تلمح الى ذلك الكتابة اليونانيّة التي في معبد كفرشليمان . امّا اصل هؤلاء المصوّرين فنظنُّ انهم كانوا من الشام كفى دليلًا على ذلك الخطوط السريانيّة المحدقة بالصور

وقد بقيت عادة الموارنة على نقش كنائسهم في لبنـان زمناً طويلًا . اخبر الدويهي (ص ١٨١) في تاريخ سنة ١٥٨٧ ان الخوري انطون من بيت الجميّل بنى كنيسة مار عبدا في قرية بكفيًا وصوَّرها على يد الشدياق اليـاس الحصروني وانفق عليها الف قبرسيّ مـا عدا اكلاف اهل بكفيًّا وغيرهم من المحسنين » . ولا بدع ان هذه التصاوير كانت محكمة الصنع لعظم المبلغ الذي صرفـهُ باني الكنيسة

كذلك زيّن الحبر الجليل اسطفان الدويهي كنيسة قنُّوبين بالتصاوير والنقوش . بقيت منها الى اليوم صورة العذراء ام الله ترى عند اقدامها بطاركة الموارنة جاثين امامها . بيد انَّ هذا التصوير ليس بمتقن لكنَّهُ يلوح من خلالهِ انَّ صاحبهُ يحاول تقليد المصوّرين الفرنج

ويلحق بهذا الباب نقوش أُخرى كان الموارنة يحبُّون ان يزيّنوا بها كنائسهم اعني الفسيفساء . فهذه العادة وان كانت شائعة في بلاد كثيرة كانت في بلاد الشام أشيع وأعمّ حسبُنا ذكر الفسيفساء المكتشفة قبل ١٥ سنة في مادبا في متصرفيَّة الكرك وقطر المؤَابيين القديم قد نُقش فيها رسم بلاد فلسطين

وكذلك كان صحن كنائس كثيرة للموارنة مجمَّلًا بالفسيفساء وقد وقفت على صحّة هذا الامر بنفسي في كنيسة القـديس جاورجيوس في مسرح فانَّ آثار هذه النقوش باقية حتى الان . وكان ايضاً لكنيسة كور التي هدمت منذ قريب ترصيع من الفسيفساء . افادنا الامر حضرة الابوين المرحوم الخوري بطرس ارسانيوس رئيس مدرسة مار يوحنا مارون والخوري بولس طعمه ومولد كليهما في هذه القرية

امّا كنيسة حدتون فقـد افادنا عن فسيفسائها حضرة الاب نعمة الله بما يلي قال : وكانت الكنيسة مبلّطة بصغار الحجارة المنقوشة وكان اجمل هذه النقوش

في السكرستيّا ملوَّنة بالوان عديدة كالاحمر والاخضر والازرق والاصفر والسمانجونيّ الخ والحجرُ فيها لا يكبر قطعاً عن السنتيمتر المكعَّب . ويستدلّ على حسن رسومها واحكام صنعها من ذات تركيب الحصى . امَّا ارض الكنيسة فكانت مبلّطة بهذه الفسيفساء الَّا انها اقلّ اتقاناً . منها ايضاً دهليز الخارج فانّ حجرهُ يكبر سنتيمترين »

هذا بعض ما تسنَّى لنا جمعهُ عن فسيفساء الكنائس في لبنان ولا شكّ ان بيعاً أُخرى قديمة كانت مزيَّنة بها

*

وممَّا قد اذهلنا في قرى عديدة من لبنان انَّا وجدنا في جانب كنائسها كنيسةً أُخرى لاصقة بها او قريبة منها بحيث تُضحي الكنيستان كبناية واحدة . مثال ذلك كنيسة مار يوحنَّا وكنيسة مار تادروس في ادّه (جبيل) . ومثلها كنيستا شامات وتولا الخ

ولكثير من كنائس لبنان في داخلها صهاريج (١ ونوافذ ضيقة مستطيلة في جدرانها بقرب مدخلها كما في تولا وادّه (البترون) . وترى في صغار في دار الخواجا انطون جرجس التي كانت كنيسةً قديمة صهريجاً في داخلها ومرامي في جدرانها ويستدلُّ بهذه الآثار الهندسيَّة على انّ الاهلين كانوا في سالف الاعصار يتحصَّنون في الكنائس فتصير لهم الكنيسة شبه قلعةٍ لكثافة جدرانها ومتانة بنيانها فيشربون من مائها ويرمون القذائف من نوافذها

وفي هذه الكنائس أثر آخر يرتقي الى القرون المتوسطة وهو انهم كانوا يجعلون في جدرانها قطعاً من العواميد ظنًّا منهم انّ البنيان يزيد بها شدَّةً . ونرى

١) وفي اماكن عديدة نرى الصهاريج خارج الكنيسة عند الدهليز مثلاً . ويحتمل انها تكون حُفرت ليُغتَسَل بمائها قبل مباشرة الاسرار. قال الدويهي في منارة الاقداس (ص٥٧) : «مذ انتشرت النصرانية اخذ ابناء الايمان يبنون الكنائس ويجرون امامها منابع الماء او يحفرون الابار ليستحمّ بها الداخلون . . . فقد رُسم على الكهنة في بدء النافور وآخره ان يغسلوا اناملهم طلباً للطهارة وتوقيرًا للاسرار »

مثل هذه العادة جارية عند العرب في ابنيتهم القديمة لنا شواهد على ذلك في بعض انحاء قلعة جبيل . وتغلّبت عليهم هذه العادة حتى انهم كانوا اذا لم يجدوا عموداً يدخلونهُ في بنائهم ينحتون دائرةً ناتئة في حجر كبير يمثلون بذلك صورة رأس عمود . كما ترى في قلعة حلب وفي الباب الشرقي في دمشق الخ (١ . وقد جرى مهندسو الكنائس المارونيّة على هذه العادة فانَّ لكنيسة مار ضومط في تولا ولمار جرجس في عبدلّلِه ولكنيسة السيدة في سمر جبيل ولكنيسة رشكيدا مثل هذه العواميد المتداخلة في بنيانها

*

ليست قبّة الجرس في الكنائس الشرقية كما تُرى في الغرب . فانَّ الغربيين جعلوا هذه القبّة كقسم معتبر من ابنيتهم الدينية فتراها مُدمجةً بالبنيان متَّصلةً بهِ اتصالاً غير منفصم بخلاف الشرقيين فانَّ قبّة الجرس عندهم من العوارض ليس بينها وبين كنائسهم رباط هندسيٌ ولو خلت هذه الكنائس منها لبقيت هندستها الاصلية بحسنها وهندامها . والبيع المارونية القديمة لا تشذُّ عن هذه القاعدة العمومية . فانَّ من يحدق بنظره اليها يرَ لوقتهِ انَّ قبّة الجرس من الملحقات التي زيدت على هذه الكنائس بعد بنائها . وادراك علّة ذلك سهلٌ وهو انَّ الاجراس المعدنيّة حديثة العهد بين الموارنة لم يألفوا قرعها الّا بعد مجيء الفرنج الى بلاد الشام (٢ . قال العلّامة الدويهي في تاريخ طائفتهِ (ص١٠٣) : «وفي سنة ١١١٢ اخذ الموارنة في الجبل يدقّون النواقيس من النحاس بدل الخشب للصلاة»

ومن خواص لبنان كثرة كهوفهِ واغوارهِ التي تُرى في اكنافهِ . وقد اتخذ اهل لبنان الاوّلون هذه المغاور كمساكن لهم احتلّوها فعاشوا فيها في قديم الزمن (٣ ثمَّ ابتنى اللبنانيّون لهم القرى وشادوا البيوت فبقيت هذه الكهوف خاليةً خاوية حتى

١) راجع بعثة فينيقية لرينان ص ١٥٩ و ٥٤٧ الّا ان هذا الكاتب قد اساء بنسبتهِ ذلك الى الصليبيين

٢) راجع المشرق (١ : ٥٨)

٣) راجع مقالة الاب زموفن في الطور الحجري في فينيقية (المشرق ١ : ٩٧)

انتشرت في هذه البلاد انوار النصرانية فلجأ اليها قوم من النسّاك انقطعوا فيها الى العبادة والتألّه وعاشوا ثمّت عيشةً اشبه بعيشة الملائكة وجعلوا بتمادي الأيّام غِيرانَهم كنائس كان يقضي فيها السكّان المجاورون لهم فرائضهم الدينيّة . فمن ذلك الكهوف الواقعة في وادي قزحيّا وفي سيّدة القطّين التي تُعرف اليوم باسم سيدة البزاز . وهي لا تبعد عن قرية صغار في وادٍ مُقفر فانَّ هناك ديرًا صغيرًا ذا طبقات متعدّدة ملتصقة كلها في الجبل وللدير سورٌ حصين فيه منافذ ضيقة كان النساك القدماء يرصدون منها حركات العدو فيطردونهُ اذا ما فاجأهم . ولعبد هذا الدير حنيّتان عاديّتان وكان العبّاد اذا جعلوا سكناهم في هذه الأغوار يتّخذون اكبرها لمناسكهم فيجعلونها بيعاً كسيدة قنّوبين وسيدة القطّين وقزحيا الخ

ومما يلحق بهذه الكنائس معبد كفر شليمان المنقور في الصخر وقد مرّ ذكرهُ . ومثلهُ معبد مار سركيس للآباء الكرمليين في بشراي . وكذا كنيسة مار بطرس في العاقورة فانّها كلّها منحوتة في الصخر (١ ولعلّها كانت مدفناً للموتى في الايام الغابرة (٢

*

وقد حان لنا الان بعد ما ذكرناه اجمالًا عن كنائس لبنان القديمة من حيث هندستها العموميّة وهيئتها الخارجة ان نبحث عن داخلها فنقف على صورتهِ واحوالهِ . ولنا في كتاب منارة الاقداس للحبر المفضال والكاتب البارع البطريرك اسطفان الدويهي دليل يرشدنا الى المقصود قال (راجع المنارة ١ : ١٠٣) : « قسم الآباء القديسون الهياكل الكبيرة الى ثلاثة اقسام اي قدس الاقداس وبيت القدس والدار وفقاً لعدد الاقانيم الثلاثة كما يتبين ذلك من كنائسنا القديمة مثل كنيسة القديس ماما في اهدن التي بُنيَت في سنة ٧٤٩ وكنيسة القديس سابا في بشرّاي سنة ١١١٢ وكنيسة القديس دوميط في تولا من بلاد البترون وكنيسة القديس شربيل في قرية معاد من بلاد جبيل وغيرها » . فلهذه الافادات شأن خطير لاسيما ان المؤلف ذكر تاريخ بعض

---

١) راجع الدويهي (ص ٢١٩)

٢) راجع بعثة فينيقية (ص ٢٠١)

هذه المعابد . ويا حبّذا لو زاد في تعداد الكنائس القديمة التي لم يكُ بعدُ استولى عليها الخراب في عهد الدويهي

ولنقدمنّ على تفاصيل كل قسم من اقسام الكنيسة . فالحنيّة كما سبق القول كانت مجمّلة بانواع النقوش والتصاوير التي افادنا الدويهي موضوعها (ص ١٠٤) قال : « وكان الآباء الاطهار يصوّرون الله الصباووت في حنايا الكنائس جالساً على عرش العظمة . ويمثّلون وجوه الحيوانات الاربعة حول العرش مع الملائكة وقوفاً يقدّمون لهُ البخور والمصابيح المتلألئة حولهُ وذلك لكي يرفع الكاهن نظرهُ اليهِ جلّ جلالهُ عندما يقدّم الطلبات في سرّ القداس الالهيّ »

وكان للموازنة في كنائسهم القديمة تنظيمات اخرى احببنا ذكرها لتتمّة الفائدة منها توجيه الحنيّة الى الشرق . وزاد الدويهي في المنارة (١ : ١٠٧) : « وأن يكون فوق الحنيّة طاقة الى جهة الشرق لان الله ابو النور » لكن بعض الكنائس التي زرناها خاوٍ منها . ثم اردف البطريرك المذكور : « وأن يكون تحت الطاقة داخل الحنيّة كرسيٌّ عالٍ في كنائس الاساقفة اشارةً الى عرش عظمتهِ ... ويُنصب الكرسيّ في مكانٍ مرتفع لاجل تعليم حقائق الايمان ... ويُجعل درج تحت كرسيّ الاسقف وتُقام حولهُ مجالس ومساطب متفاوتة لاجل جلوس الخوارنة والبرادطة (١ والقسوس ... ومثلما اوجب الآباء ان تُبنى المذابح من الحجر للدلالة على استمرار الذبيحة ودوامها اوجبوا ان تُبنى الكراسي في الحنيّة من الحجر ايضاً (٢ »

ومن الكنائس التي ترى فيها كلّ هذه الشروط مستوفاةً كنيسة مار جرجس في اهدن فانها كانت كنيسةً اسقفيّة (٣ . هذا وانّ نَصْب كرسي الاسقف في الحنيّة عادةٌ تفرّدت بها البيعة السريانية دون البيعتين اللاتينيّة (٤ واليونانية كما اشار

١) جمع البردوط وهو زائر الكنائس . راجع المشرق (٢ : ٦٤٩)

٢) راجع منارة الاقداس (١ : ١٠٩–١١٤)

٣) المنارة (١ : ٣٩٨)

٤) اما في الاجيال الاولى فكانت الكنيسة اللاتينية توافق السريانيّة في نصبها كرسي الاسقف في صدر الحنيّة (راجع مارتيني قاموس العاديّات المسيحيّة ص ١٣٧)

الى ذلك العلّامة الدويهي

وفي قدس الاقداس ما عدا كراسي الاسقف والكهنة بيتُ القربان او تابوت الاسرار كما دعاه العلّامة الدويهي وهذا نصّ كلامهِ (ص ١٠١) : « ويحوي تابوت الاسرار اربعة امور اي جسد الربّ والميرون المقدَّس وزيت العماد وماء الدنح »

وهذه افادات أُخر عن المذبح المنصوب بازاء الاسقف ننقلها عنهُ ايضاً (ص١١٣) : « أمر الآباء المتقدّمون كما يتبيَّن في كنيسة مار سابا بمدينة بشراي وفي كنيسة السيدة بمدينة حلب وغيرهما أن يُنصب فوق المذبح في الهياكل الكبيرة قبَّة جميلة المنظر على اربعة اعمدة بأربع ستائر وفوق الزوايا الاربع اربعة تماثيل تشخّص الملائكة او الحيوانات الاربعة التي مرَّ الكلام عليها ويُجعل فوق القبَّة تفَّاحة وفوق التفَّاحة صليب »

ولا بدَّ ان يكون المذبح من الحجر مربَّع الشكل « لأنَّهُ مائدة ويمتدُّ في الطول بين الجنوب والشمال اكثر من امتدادهِ في العرض بين الشرق والغرب لاجل وضع كتاب القداس وحُقَّة البخور والنوافير وغيرها »

ويُحتَّم بان يُجعل امام المذبح درجة او اكثر لكي يرتفع عن الحضيض (الدويهي ١ : ١١٤ و ١٤٤) وينبغي ألَّا يكون « لاصقاً بالحائط قائماً بمعزل عنهُ » (١ على عكس ما نراهُ اليوم في كثير من الكنائس المارونيَّة . ومن المحتوم ايضاً « ان يجعل المذبح مجوَّفاً لاجل رفع الفضلات المقدسة (ص ١٤٤) وتُفتح كوَّة من جهة الشرق لاجل وضع الذخائر ورفعها عند الاقتضاء . وقد تُنصب اخيراً مطهرة من جهة الجنوب بجانب بعض المذابح كما ترى في كنيسة ماري جرجس كرسي اهدن ليغسل بها الكهنة والرؤساء ايديهم في خدمة الاسرار » (ص ١٤٥)

وكان امام المذبح درزين وهو بمثابة الايقونستاس في كنائس الروم وكان لهُ

---

١) وجاء في كتاب التكريسات الذي عُني بنشره سابقاً الكاتب المرحوم رشيد الشرتوني (ص ١٩) : « يجب دائماً ان يكون المذبح الكبير قائماً بذاتهِ وحولهُ تصير الزياحات والرتب المرسومة من الاباء ولاجل ذلك امروا باقامة الحنيَّة حولهُ من جهة الشرق حتى لا يضايقهُ الحائط بتقدُّمهِ »

مثلهُ ثلاثة ابواب بيد انهُ كان يختلف عنهُ بامور . قال الدويهي إمام المؤرخين الموارنة : « اوجب آباؤنا الاطهار ان تكون ابواب الدربزين مفتوحة وجدرانهُ غير مسطومة بل مصنوعة بثقوب على مثال شبكة حتى يتمكّن الجميع من مشاهدة الاسرار . ولكنّهم امروا الشمامسة ان يسبلوا الاستار في اوقات معلومة اجلالاً للاسرار (ص١٣٥) »

فكان اذًا الايقونستاس عند الموارنة اشبه بمشبّك ليس بناء مصمتاً كما في كنائس الروم . ولعلّهُ كان « كالشعريّة » التي تفصل بين الرجال والنساء في كثير من كنائس لبنان الّا انهُ كان مُتقن الصُنع . وقد شهدنا في كنيسة السيدة في حدتون قطعةً من هذا الدربزين القديم . ولا علم لنا أبقي منهُ في بعض الكنائس ام لا . امّا في عهد الدويهي فكانت هذه الدرابزين شائعة كما اثبت ذلك في منارة الاقداس (ص ١٢٨)

بقي علينا ان نذكر القسم الثالث من الكنائس المارونية اعني دار الكنيسة او صحنها . فكانت هذه الدار خاليةً في دائرها من الكراسي التي ترى في الكنائس اليونانيّة . وقد بيّن الدويهي سبب ذلك قال (راجع منارة الاقداس ١ : ١٢١) : « اباؤنا اصحاب الكرسي الانطاكي اهملوا نَصب الكراسي واوجبوا على نفوسهم ان يصلّوا وهم قيام كقول الرب : اذا قمتم للصلاة قولوا ابانا الذي في السماوات .. وقد اخبرتنا التواريخ عن تلاميذ ابينا المكرَّم القديس مارون انَّهم قضوا كل حياتهم منتصبين على اقدامهم ليلًا ونهارًا (١ وانقسموا جوقين امام الباب الملوكيّ ... امّا الكهنة والشمامسة فيستندون الى العكّازات لمساعدة الجسد الضعيف ما خلا الرؤساء فانّهم يجلسون على الكرسي للدرجة التي ارتفعوا اليها » وكان المؤمنون خصوصاً الضعفاء منهم يتخذون ايضاً العكّازات كما روى ذلك الدويهي في محلّ آخر من

١) ورد في التاريخ انَّ صنفاً من النسّاك فرضوا على نفوسهم تقشفًا ان يعيشوا طول حياتهم قياماً فدُعوا لذلك الرهبان المنتصبين (Stationnaires) راجع معجم اللاهوت الكاثوليكيّ (١ : ١١٤٠) . اشهرهم تلامذة مار مارون . (راجع تاودوريطوس: تاريخ الرهبان PP. GG. T. LXXXII,1419, 1431 ومن هؤلاء النسّاك من جعل لهُ عمودًا فصعد عليهِ كالقديس سمعان العمودي وغيره

كتاب المنارة (١ : ٦٠ , ٦١)

وكانت الدار المذكورة تشتمل على « القراءات والمنابر واجران المعموديّة واجران الماء المبارك والمرائي وبيض النعام والنواقيس وما شاكل ذلك » اما ترتيب كل هذه الاشياء فكان على هذا النمط : تُقام اولًا قرّاءتان امام الدرابزين من هٰهنا وهناك لاجل تلاوة الصلاة الجامعة التي تصير ليلًا ونهارًا وعليهما تُتلى الكتب المقدّسة وميامر الاباء وسنكسارات الشهداء . (ثانياً) امّا المنابر التي تُنصب في الدار فبعضهم يقيمونها في اسفل البيعة وآخرون في وسطها والبعض في شمالي الدرابزين لتقرأ عليها الرسائل والاناجيل والوعظ وزياح الميرون والشهداء وامثالها ... (ثالثاً) يوضع في الدار جرن المعموديّة . وكان يُنصب من قديم بخارج الكنيسة او في دهليزها لكي لا يدخل البيعة الّا من كان ابن النور . الّا انّهم ادخلوه الى الخزانة لانهُ هناك يُحفظ تابوت الرازات (اي الاسرار) كما ترى ذلك في هيكل مار سابا بمدينة بشراي (١ . ويُعلّق فوق الجرن تمثال حمامة دلالة على استقرار الروح القدس . ويُتّخذ الجرن من الحجر . (رابعاً) توضع في الدار اجران لاجل الماء الذي نباركهُ في الغطاس وفي تقديس البيعة وغيرهما . (خامساً) تعلّق في الدار المرائي المدوّرة وبيض النعام ». وهنا للدويهي بعض تفاسير رمزيّة تُحيل القرّاء الى مطالعتها في كتابهِ . ثم قال : « (سادساً) توضع النواقيس في الدار تنبيهاً للمؤمنين للاجتماع للصلاة »

يظهر ممّا سلف ان الشعب لم يجلس في الكنيسة على الكراسي وانهُ كان يحضر الاسرار منتصباً . لكنّ ذلك لم يصدّ المؤمنين عن الركوع . وللبطريرك العلّامة الدويهي فصل مطوّل (ص ٦١) يبحث فيهِ عن انواع السجود والركوع . على ان الجثو على الركب كان معتبرًا كضرب من التعبد والاماتة وانما الانتصاب هو هيئة المصلّين الرسمية في الرتب الطقسيّة

وقصارى القول ان الكنائس المارونيّة كانت تتفق مع الكنائس اليونانية (او

١) وجاء في كتاب التكريسات (ص ٢٣) انهُ يُفتح حينئذٍ باب خارجيّ « حتى تدخل النساء وتخرج بالسترة »

بالاحرى مع اليونانيَّة واللاتينيــة معاً) في الخواص العموميَّة ولها مع ذلك فوارز تفصلها عمَّا سواها بحيث يحكم صاحب الخبرة اذا رأى ما سبق لنا وصفهُ من طرائق بناء البيع وانواع هندستها الخارجة وتنظيم اقسامها ونقوشها انَّ الموارنة في سالف الزمان هندسةً كنسيَّة خاصة بهم · وكنا وددنا لو لم يَحِدْ بناة الكنائس الحديثة لاسيما منذ مائتي سنة عن تقليد آبائهم القديم · وغاية مــا نتمنَّاه ان تُحفظ الآثار الباقية منها لئلَّا يستولي عليها الخراب · وهذا ما حملنا على كتابة هــذا الفصل في كنائس لبنان القديمة (١

وان سأل السائل في اي عهد شاعت في لبنان هذه الطريقة الهندسية القديمة · أجبنا انَّ الامر لا يخلو من الغموض والشبهة · وما يمكننا قولهُ ان اكثر هذه البيع شُيّدت قبــل القرن الثالث عشر · وكان بناء بعضها في ايام الصليبيين على مثال كنيسة جُبيل · وهذا رأينا في كنيسة مار شربل في معــاد وغيرها ايضاً من الكنائس كما رواه المؤرخ المدقّق الدويهي حيث قال (ص١٠٣) : « وفي سنة ١١١٢ شرع بعض اهل البرّ يبنون كنائس ··· وكان للخوري باسيل البشرّاني ثلاث بنات تقلا وصالومي ومريم نذرنَ العفَّة وانفقنَ جميع مــا يملكنَ على بناء الكنائس · اما تقلا فبنت في بقرقاشا هيكل مار جرجس ومار دومط · وفي بشنين من ارض الزاوية كنيستين احداهما على اسم القديس لابا الرسول (٢ والثانية على اسم القديس سركيس الشهيد ثمَّ رقــدت بالرب سنة ١١١٣ · اما اختها مريم فبنت هيكل القديس سابا في قرية بشرّاي · وصالومي انشأت هيكل القديس دانيال في قرية الحدث »

ويرتقي بعض الكنائس اللبنانيَّة الى عهد اسبق فمنها ما بُني في القرن التاسع او الثامن ايضاً كبيعة كفر شليمان التي نعدُّها من اقدم كنائس لبنان · ومثلها كنيسة مار ماما في اهدن (راجع قول الدويهي فيها المندرج اعلاه ص٩٢) · وليس قولنا

١) وهنا نكرّر طلبنا الى قرَّائنا بان يفيدونا علماً عن الكنائس التي لم نذكرها في هذه المقالة ولا بأس ان يستدركوا علينا في ما يرونهُ خللًا لنصلحهُ

٢) القديس لابا او لبَّاوس ويدعى تدَّاوس معدود بين تلاميذ المسيح الاثنين والسبعين

هذا الّا اجماليًّا . ولو اطّلع احد المهندسين الخبيرين على هذه الابنية لامكنهُ ان يزيد ايضاحاً في تعيين زمن بنائها

*

هذا وننتهز هنا الفرصة لتكرار ما ابتناهُ في السنة الاولى من المشرق (ص ٢٦١) في مقالة حُرّرت تحت عنوان : « هيّا بنا على درس تاريخنا » . فكان من جملة البنود التي اقترحناها على جمعيَّة طلبنا انشاءها في كل طائفة (ص٢٨٣) « ان تعتني بالصور القديمة في الكنائس . . . وتهتمّ بحفظ هذه الكنائس نفسها »

فلم نرَ حتى الان تشكيل لجنةٍ تقوم بهذا المشروع ولعلّهُ لم يفتكر احدٌ في تأليف هذه الشركات الطائفيَّة لتبرز الى حيز الوجود قسماً من هذه المقترحات . امّا العلماء الاوربيُّون فانهم تلقّوا فكرنا في تنظيم مثل هذه الجمعيّات بما لا مزيد عليهِ من الرعاية والالتفات وحدا الامر باحد كبار المستشرقين الالمانيين وهو الدكتور ج. كمپفماير الذي ذكرناهُ غير مرَّة في مجلّتنا الى ان كتب فصلاً في « نشرة الاداب الشرقية » (١ يستلفت فيه الانظار الى مقالتنا بل زاد على ذلك انهُ نقل الى الالمانيَّة هذه النبذة وألحقها بملاحظات نورد منها شيئاً ليرى اهل بلادنا ما يبني الاوربيُّون من الآمال على تأليف جمعية كهذه . قال الدكتور ما تعريبهُ :

« لا حاجة ان نبيّن لقرّائنا ما ينجم من الفوائد الجمّة من تشكيل جمعية تاريخية في سوريّة كما وصفها الاب لامنس . بل يأخذنا العجب من عدم انشائها حتى الان لا سيما انّ بلاد الشام من الاقطار التي توفرت فيها الاثار التاريخيَّة الدفينة التي يتوق الى كشفها العلماء . فنحن نوافق كاتب هذه المقالة في ما اقترحهُ من انشاء مكتبة مركزيّة في سوريّة لدرس تاريخ البلد وهذه المكتبة لا بُدَّ ان تُجعل فيها كل الكتب الادبية واللغوية والجغرافية التي تشتمل على احوال بلاد الشام وان يُلحق بها متحف للاثار الى غير ذلك من التنظيمات التي عدّدها صاحب مقالة المشرق

---

١) راجع Orientalistische Litteratur Zeitung (السنة الاولى ص ١٠٤

ولا نشكّ في ان الذين يبحثون عن شؤون البلاد الشامية يتهللون فرحاً اذا مــا تحققت اماني حضرة الكاتب

« ونحن الاوربيُّون نبني آمالاً طيبة على تنظيم جمعية تاريخية يكون اعضاؤها شرقيين . لان ابناء الوطن يمكنهم ان ينالوا بزمن قليل ما لم ينلهُ الغرباء بعد الجهد الجهيد واذا تشكَّلت هذه الجمعية الوطنية بادرت الجمعيَّات الاوربية الى مكاتبتها فتقوى بذلك على اتمام مشروعات علمية ذات شأن خطير »

هذه شهادة اثبتناها ليرى القراء ما للعلماء الاجانب من الكلَف بامور الشرق . ويا ليتنا لا نتأخر عن تلبية دعوتهم فلا نخيب آمالهم فينا

وفي ختامنا هذه المقالة التي خصَّصناها بذكر الكنائس القديمــة في لبنان كنَّا وددنا لو امكننا ان نوصي هذه الجمعيات التي نطلب انشاءها منذ سنتين بالمحافظة على هذه المعابد القديمة قبل ان يستولي عليها الخراب . وعلى كل حال اننــا نوجه دعوتنا الى ذوي الامر طالبين اليهم ان يصونوا هــذه الآثار ولا يدعوا يداً اثيمة تصيبها باذًى . واذا مسَّت الحاجة الى ترميمها فليصلحوا منها ما خرب مع مراعاة هندستها القديمة . فان هذه كانت وصيَّة المثلَّث الرحمات البطريرك بولس مسعد الذي كان حريصاً على حفظ تلك المــآثر الناطقة بمفاخر ملَّته في غابر الازمان . على اننا نقرُّ بكل سذاجة انَّ معظم خوفنا من البُناة المحدثــين الذين يتخيَّلون ان هذه الابنية لا طائل تحتها فيخربونها لاتخاذ موادها او لتجديدها كما يزعمون وهــذه الطامَّة الكبرى

فيا حبذا لو امكننا بما سطَّرناه في هذه المقالة عن كنائس لبنان ان نكف يد الدمار عن بقايا الزمن القديم فان اصبنا المرام لا نتأسف على الاتعاب التي تجشَّمناها لهذه الغاية الشريفة

٢١ دخول النصرانيَّة في لبنان

لهذا البحث علاقة طبيعيَّة مع بحثنا السابق عن كنائس لبنان القديمة فلا يسعنا الّا الخوض فيهِ هنا

روى رينان في كتاب بعثة فينيقية عن الموارنة انهم يدَّعون كون الوثنيَّة لم تشع في وطنهم مطاقاً وهذا افتراء في حقّ اهل لبنان الذين لم يذهبوا الى مثل هذا القول الباطل · وكيف يا ترى يزعم اللبنانيُّون بذلك وكل انحاء جبالهم تنطق بشيوع عبادة الاصنام في القرون الغابرة وفيهِ من آثار التوثُّن ما سبق وصفهُ في مقالاتنا

ومما لا مريَّة فيهِ ان لبنان كبلاد الشام جمعاء كان يدين بالشرك بل بقي لعزلة موقعهِ ينوء تحت عبء الوثنية مدَّةً بعد ان ارسلت النصرانيـة اشعَّتها على سوريَّة اجمالًا وعلى فينيقية خصوصاً وكانت مدنها الساحليَّة على طريق دعاة الدين المسيحي فنالوا من انواره حظاً وافياً قبل سواهم

١ لبنان واول مبشّريهِ

ارتأى بعض الكتبة ان المسيح وطئ ارض لبنان واستندوا في تأييد رأيهم على آيتَيْ متى (١٥: ٢١) ومرقس (٧: ٢٤) حيث ورد عن الرب لذكرهِ السجود انهُ ذهب الى تخوم صور وصيداء · غير ان هذا الموضع لا يصرّح بذكر الطريق التي سلكها المسيح وقد زادنا القديس مرقس في الفصل ذاتهِ ايضاحاً اذ قال (٧: ٣١): « انهُ خرج من تخوم صور ومرَّ في صيداء وجاءَ فيما بين المدن العشر الى بحر الجليل » · فان الطريق التي تؤدي توّاً من صيدا الى المدن العشر تمر في منعطف لبنان جنوبي شرقي صيداء فتبلغ النبطيَّة او جوارها عابرةً على نهر الليطاني عند الجسر المعروف اليوم بالقعقاعيَّة فتنتهي الى جنوبيّ شرقيّ بلاد بشارة · وهذه الطريق تسير عليها السابلة الى يومنا والطبيعة نفسها ترشد اليها · فلهذا الرأي كما ترى سندٌ ولا حرجَ على من يقول بهِ [1]

وللكتبة المحدثين قول آخر او تقليد محليّ يزعمون بموجبهِ ان السيد المسيح لم

[1] راجع المشرق (١١: ٨١-٩٣) مقالة الاب الفرد دوران في رحلة المسيح الى فينيقية

يدخل فقط صيداء بل بلغ ايضاً حتى ثغر بيروت . والتقليد المذكور اثبتهُ في القرن الخامس عشر احد الزوّار الالمانيين يُدعى برَيْتنباخ (راجع المشرق ١ : ١٩١) . ثمَّ اوردهُ كوارزميوس في كتاب وصف الاراضي المقدسة (١ وذكره احد ادباء الالمان في مقالة طبعها سنة ١٦٩٢ عن بيروت وآثارها . ولعلّ هذين الاخيرين نقلا ما قالهُ برَيْتنباخ . وهذا التقليد على ما نظنّ ليس بثبت ولا نرى وجهاً لتوفيقهِ مع ما رواه الانجيليُّون

لكنَّ الله منح بيروت نعمةً أُخرى يحقّ لاهلها ان يفتخروا بها نريد احتلال القديس بطرس هامة الرسل في ربعها . وهو امرٌ يقبلهُ العقل ويؤيده النقل . امَّا العقل فلأنَّ بطرس الصفا انتقل غير مرَّة من اورشليم الى انطاكية فترتَّب عليه ان يجتاز في بيروت وهي اذ ذاك من اعظم مدن فينيقية شأناً . امَّا النقل فلنا منهُ شهادة قديمة تُعزى الى تلميذ بطرس الرسول وخلفهِ في كرسيّهِ البابوي القديس اقليميس وردت في كتاب الابحاث والميامر (٢ . وهو تأليف قد اختلف العلماء في كاتبهِ الّا انهم يتفقون على كونهِ سبق اوائل القرن الثالث

وفي الكتاب المومأ اليه فوائد أُخر عديدة عن تاريخ النصرانيَّة في فينيقية والانحاء المجاورة لمدنها الساحليَّة لكنَّنا لا ننقل عنهُ غير ما نراه راهناً مقرَّراً توافقهُ الشواهد القديمة (٣ . ومن ذلك ما جاء عن جبيل (٤ ان الرسول الهامة اقام لها اسقفاً حنا مرقس احد تلامذتهِ وكان المذكور ولد في اورشليم وهو نسيب للقديس برنابا (٥ وفي بيتهِ نزل بطرس الرسول لمَّا انقذه الرب من ايدي هيرودس (٦ . فسقَّفهُ على جُبيل كما تشهد على ذلك السنكسارات الشرقية اليونانيَّة والسريانيَّة المارونيّة فضلاً عن الكلندار

---

١) راجع كتابهُ Elucidatio Terræ Sanctæ

٢) طالع مجموع آباء اليونان لمين الجزء الاول والثاني

٣) وقد عدلنا عن ايراد هذه الامور ليس فقط لانَّ مؤلف كتاب الابحاث مشتبهٌ فيهِ بل لاسباب اخرى يؤدي بنا ذكرها الى الاطالة

٤) وقد ذكر عن بيروت ان القديس بطرس سام لها اسقفاً يُدعى كوارتس

٥) راجع رسالة القديس بولس الى اهل كولوسي (٤ : ١٠)

٦) اعمال الرسل (١٢ : ١٢)

الروماني الذي ذكر عيده في ٢٧ ايلول · والمؤرخون الاقدمون يوافقون في ذلك الآثار الطقسيَّة

فمن ثمَّ تكون اسقفية مرقس المذكور الاثر الاول لدخول النصرانيّة في لبنان لان جبيل كما اشرنا الى ذلك سابقًا (ص ٦٠ و ٦٧) كانت مرتبطة بلبنان ارتباطًا غير منفصم بل كانت معدودة منهُ داخلةً فيهِ كما ترى في عهدنا · وبما انهـا كانت محاطة بعدَّة هياكل مقدَّسة تشرف عليها من الآكام والرُّبى المجاورة لا سيما هيكلي افقا والمشنقة (ص ٣٩–٤١ و ٤٩–٥١) فكان الفينيقيون يعدُّونها مثل كعبة دينهم يحجّون اليها من اقطار بعيدة فيتمّمون فيها مناسكهم الدينية التي باشروها في هياكل لبنان ويكرمون بزيارتها ادونيس والزهرة

هذا ولا نعلم ما نالهُ اول اساقفة جبيل من النجاح في تتمة رسالتهِ المقدَّسة · الا غروَ انهُ لقي في دعوتهِ عوائق شتى حالت دون رغائبهِ الخلاصيَّة · ومما لا يُنكر ونَّ في ذلك الوقت عينهِ اذ بزغت شموس النصرانيّـة في اقطارنا الشرقية صار للدين الوثني نهضة جديدة في لبنان فانَّ تاريخ بناء بعض هياكل الاصنام فيهِ يرتقي الى ذلك العهد كهيكل فقرا (ص ٥٣) وغيره · ولم تزل الوثنيَّة في عزّ وترقٍّ في مطاوي القرن الثاني للمسيح وفي اوائل القرن الثالث

واشتدَّ ازر الدين الوثني في لبنان بملك الامبراطور الروماني ادريان الذي زار لبنان في بدء القرن الثاني وسكن مدَّةً جبيل · وكان هذا القيصر من عبَدة الزهرة يظهر لها التجلّة والاكرام وقد بنى لهـا في رومة معبدًا كبيرًا وادخل عبادتها في بيت لحم لماكسة النصرانية · ومن آثاره الباقية في لبنان الكتابات العديدة التي وصفها اصحاب العاديَّات وذكرناها في مقالاتنا المرَّة بعد المرَّة · ولا نشكّ انهُ حجّ الى معابد الزهرة وادونيس خصوصاً في افقا ودير القلعة (١ كما انهُ شيَّد بعض الهياكل ورمَّم غيرها لاسيما في جبيل وكانت تُعدّ في ايامهِ كاحدى حواضر المدن وامهاتها

وجرى خلفاء ادريان على سننهِ فعزَّزوا في لبنان الشرك والتوثُّن كيف لا وبعضهم

١) ولعلَّ النصب الذي وصفناهُ في المشرق (٢ : ١٢٢) قد اقيم حفاوةً بهِ لمَّا زار هذا المعبد

كانوا وُلدوا في لبنان او المدن الملاصقة له نخصّ منهم بالذكر اسكندر ساويروس الذي كان مولده في هيكل الزهرة في عرقا . ولذلك ترى كثيرًا من الآثار الدينية الفخيمة التي تزين لبنان حتى يومنا هذا قد شُيّدت في ذلك العهد . منها هيكلا بعلبك وحصن سليمان في جبل النصيريّة اللذان تشهد على اصلهما كتب المؤرخين . وفي لبنان مباني أُخرى غيرها يُجهل تاريخها والارجح انها بُنيت في الوقت عينهِ لما فيها من الشبه مع ابنية ذلك العصر كحصن صافيري في الضنّية وناوس قرب كسبا وبزيزا في الكورة وغير ذلك ممّا سنورد ذكره في مقالاتنا

وهذه الغيرة التي نراها في عبدة الاوثان في اوائل النصرانيّة تدلّ دلالةً واضحة على انّ المشركين في لبنان أبوا الّا ان يدافعوا عن آلهتهم لئلّا تحطّهم ديانة المسيح عن مقامهم الرفيع الذي بلغوا اليهِ سابقًا

ولكن دعنا نستوفي اخبار النصرانيّة في لبنان في اواخر القرن الاول . افادتنا التآليف المنسوبة الى القديس اقليميس انّ القديس بطرس احتلّ طرابلس واقام عليها اسقفًا يدعى مارون . وهذا الامر ذو شأنٍ لا نرى في صحّتهِ التاريخية مشكلًا وان كان مدوّن هذا الخبر زاد فيهِ من الاوصاف الوهمية مـــا لا يقبلهُ العلم الصادق . ويسرّنا ان نرى في ذلك العهد اسقفًا جليلًا يتيمّن قراؤنا الموارنة باسمهِ وقد اشتهر في مدينة تطلّ عليها تلك الجبال التي صارت بعدئذٍ مهد طائفتهم العزيزة

ومن الآثار النصرانيـــة التي ترتقي الى القرن الاول استشهاد القديس تادّاوس الذي روى عنهُ الرواة الاقدمون انهُ رُجم في بيروت لاجل الايمان وفي تعريف الشهيد المذكور رأيان مختلفان فزعم البعض انهُ احد تلامذة الرب السبعين وذهب غيرهم الى انهُ هو الرسول يهوذا او تدّاوس اخو يعقوب البـــارّ . ويصعب علينا جزم الامر لقلّة الادلّة . وانمـــا جاء في تاريخ البطريرك ساويرس (راجع المشرق ٣ : ١٠٠٤) ان بيروت كانت تحتوي كنيسةً باسم القديس يهوذا اخي يعقوب البارّ في القرن السادس(١ وهذا لعمري اثرٌ حسن يشهد بقدم التقليد عن القديس يهوذا المذكور

١) طالع Revue de l'Orient chrétien, *Opuscules maronites* 1899, p. 565

٢ نزاع النصرانيَّة والوثنيَّة

يحصَّل من فصلنا السابق ان لبنان لم يُحرم من نعمة النصرانية منذ القرن الاول من تاريخها . ولا جرم ان الدين المسيحي نما في القرنين التاليين . الا انَّ الاثار القديمة لا تكاد تفيدنا عن شؤونه شيئًا فنظن ان نموَّه كان بطيئًا لما تصدَّى لهُ من العوائق من قبل المشركين الذين كانوا اتخذوا هذا الجبل كمعقل لدينهم فبنوا فيهِ الهياكل العديدة وشيَّدوا الاثار الدينية فلقوا في اخلاق الجبليين وطباعهم الفظَّة ما قوَّى روح التعصب بينهم . وعلاوة على ذلك نرى ٱلشيع الوثنية ليس في الشام فقط بل في كل انحاء المعمور قد التجأت الى مشارف الجبال بعد ان دحرتها النصرانية في المدن العامرة وسفوح البلاد ولنا على ذلك شاهد في جبل برجيلوس المعروف في يومنا بجبل النصيرية فانَّ سكانهُ اصرّوا على وثنيَّتهم الى القرن السادس مع انَّ هذا الجبل دون لبنان في علوّهِ واسهل منهُ مرتقى

وهذه الملاحظات العمومية عما لقيتهُ ٱلنصرانية في طريقها من العثرات يؤيدها التاريخ القديم الذي لم يذكر الدين المسيحي في لبنان الا نادرًا . وكذلك الاثار الكتابية فان الوثنية منها كثيرة امَّا النصرانية فهي قليلة جدًّا . فكل ذلك دليل واضح على ما نال ديانتنا المقدَّسة من المقاومات والمدافعات قبل ان ترسخ مبادئها القويمة في ارض لبنان حتى صارت في توالي الاعصار عصمةً للدين لا سيما بعد ان توطنت هذا الجبل الطائفة المارونية المعروفة بحماستها الدينية

وفي عهد الملك نومريان القيصر الروماني (٢٨٣—٢٨٤) تشرَّف لبنان بوفاة احد ابنائهِ شهيدًا وهو الطبيب طَليليوس (لعلهُ ܛܠܠܐ اي مظلَّل ومحميّ) وكان استشهاده في قيليقيا ومما ورد في ترجمة حياتهِ انهُ قال للحاكم لما طلب منهُ نسبهُ : « اني أُدعى طليليوس ومولدي في لبنان واسم ابي بريكوكيوس (لعلهُ ܒܪܝܟܐ اي مبارك) وهو نصراني وأحد ضباط الجيوش . وتدعى امي روميليانا واخي يوحنا هو شماس (١) » . فحكم الوالي على طليليوس بقطع الرأس بعد ان مثَّل بهِ واذاقهُ مرَّ النكال الَّا انَّ

١) راجع اعمال القديسين البولنديين في ٢٠ ايَّار

الله عزّ وجلّ اشهر قداسة عبدهِ بما اجترحهُ من المعجزات الباهرة على قبرهِ حتى ذاع اسمهُ في اقاصي الشرق

ومن النص السابق يصحّ لنا ان نستنتج انّ النصرانية كانت اخذت في الامتداد في لبنان منذ اوائل القرن الثالث لاننا نرى العشائر فضلًا عن الافراد يدينون بدين المسيح . وكذلك وجود شمّاس في أسرة لبنانية يدلُّنا على وجود الرتب الكنائسيَّة وكلّ ذلك لا يقوم الّا بكنائس منتظمة . ثمّ ان اسماء المذكورين الّا واحدًا منهـا آراميَّة الاصل فذلك بيّنةٌ على ان لغة اللبنانيين لم تزل بعد آراميَّة اي سريانيَّة

ولا بدَّ هنا من ملاحظةٍ على موقع لبنان الذي ذكره الشهيد طليليوس فنقول انهُ لا يدلّ ضرورةً على لبناننا الحالي لانّ اسمهُ كان في ذلك العهد يشمل الجبـال الواقعة في شمالي نهر الكبير فإنّا لم نجـد في معرض قول الكتبة الاقدمين ما يزيل الشبهة يصعب علينا ان نستدلّ على جهتهِ المنويّة

وفي سنة ٢٩١ للمسيح زان الله باكليل الاستشهاد هامة فتاةٍ من عذارى جُبيل تُدعى آكويلينا فقصفها المغتصبون كغصن رطيب وليس لها من العمر سوى ١٢ سنة . وقد اخبر البولنديّون (في اعمال القديسين اليوم ١٣ من حزيران) ان نصارى المدينة جمعوا ذخائرها المقدَّسة فدفنوها بمزيد الاكرام ثمّ تعدّدت العجائب على قبرها . الّا ان عبادتها اليوم قد اندثرت فلم يبقَ لها ذكرٌ بين مواطنيهـا وهو امرٌ غريب لولا انّ التاريخ ينبئنا بنقل جسمها الطاهر الى القسطنطينية في القرون التابعة فاصابت هناك من تعبُّد الاهالين ما فقدتهُ في وطنها

وقد ارتأى الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخهِ المخطوط عن لبنان (ص١٣١٢) ان ذكر الشهيدة آكويلينا قد امتزج في كرّ الاعصار باسم قديسة أخرى تعرف بمَرْتينا التي يكرّمها اهل جبيل اكرامًا عظيمًا وفي جوار بلدتهم معبد شيّدوه على اسمها يحجون اليهِ من كل أوب والزوّار يأخذون من ترابهِ شيئًا فيتبرّكون بهِ . واكثر ما يأتيـهِ المؤمنون في ايام قطف دود القزّ

وتشرّفت ايضًا طرابلس في ذلك العصر بشهدائهـا منهم الشهيدان مغداليتيس (راجع البولنديين في ١٢ حزيران) ولوسيان او لوسيوس (راجع السنكسار الروماني في ٢٤ كانون الاول) . ولا نعرف من امر لوسيوس المذكور الا اسمهُ كما صرح بذلك

العلماء البولنديون . وعندنا انّ لوسيوس المذكور هو القديس الذي يكرمهُ اهل لبنان منذ زمن قديم باسم القديس نوهرا او نهرا . وليس نوهرا (ܢܘܗܪܐ اي نور) سوى ترجمة اسمه اللاتيني في السريانيّة وفي السنكسار الماروني في تاريخ ٢٢ تموز ما معناه : « في هذا اليوم نحتفل بجهـاد الشهيد لوجيوس (ܠܘܩܝܘܣ) وكان اصلهُ من منهور (كذا) من بلاد العجم فطاف البلاد وبشّر بالايمان في المسيح حتى بلغ مدينة البترون في بلاد فينيقية فمات فيها شهيدًا . وهو شفيع المصابين باوجاع العيون ولذلك دعاهُ السريان بلغتهم نوهرا وهذا معنى اسمه لوجيوس »

وليس في هذه النبذة ما يناقض قول الاقدمين بان لوسيوس استشهد في طرابلس وطرابلس كما لا يخفى تُعدُّ من اعمال فينيقية ولعلّ قرب موقع البترون وطرابلس جعل البعض يذكرون وفاته في احداهمـا دون الاخرى ثم لا نرى التقليد المحلي على رأي ثابت في ذلك لان اهل سمار جبيل يدّعون بانَّ استشهاد القديس نوهرا كان في قريتهم ولهم بئر يزعمون انهُ أُلقي فيهِ فغرق . ويؤيدون زعمهم بكتابـة سريانية في جدار كنيستهم . ولكن غاية ما يستفاد من هذه الكتابة ان احد افاضل الكهنة مدفون في هذا المكان ولم يبقَ لاسم هذا الكاهن اثر . وسنعود ان شاء الله الى وصف هذه الكتابة عند ذكرنا سمار جبيل

واوّل ناسك ورد ذكره في لبنان عاش في عهد القيصر ديوقلسيان واسمهُ إرَنْسمس وكان مولدهُ في انطاكية العظمى وسُقّف على مدينـة لم يُعرَف اسمها . فلما امتحن ديوقلسيان المسيحيين بالاضطهاد ترك إرَنْسمس كرسيَّهُ الاسقفيّ وتوقّل في لبنان وتعبَّد لله في احدى مغـاوره وبقي على ذلك سبع سنين حتى أَلهمهُ الله ان يعود الى انطاكية ليثبت المؤمنين في الايمان ففعل واستشهد اخيرًا في ايطالية (١

وكانت مدارس بيروت في تلك الاثناء تنير بتعاليمها العالم الرومـاني . وكان كثير من النصارى يزدحمون في معاهدها ليأخذوا العلم عن ائمتها . اشتهر في جملتهم القديس غريغوريوس صاحب العجـائب والقديس اثينودورس في النصف الاوّل من من القرن الثالث . وممَّن اشار اليهم التـاريخ في عهد ديوقلسيان شهيدٌ في مقتبل

١) راجع اعمال القديسين البولنديين في ٢ حزيران

العمر يُدعى افيان أو أمفيان كان اصلهُ من ليقية ودرس في بيروت ثم استشهد سنة ٣٠٥ في قيسارية فلسطين ولهُ من العمر ٢٠ سنة فقط (١ . وفي ايامهِ مات في سبيل الايمان في انطاكية الكاهن زينوبيوس وكان اصلهُ من صيداء وقد روى اوسابيوس في تاريخهِ (ك ٨ ع ٣) انهُ كان طبيباً وانهُ اتقن الطبّ حتى برَّز فيهِ

واخذت النصرانية بعدئذٍ تقوى وتنتشر في مدن فينيقية الساحلية حتى ان الأُسَر الشريفة نفسها صارت تدين بدين المسيح . وقد انبأنا التاريخ بذكر شاب بيروتي كريم المحتد اسمهُ پمفيل كان درس على اشهر اساتذة وطنهِ حتى اضحى نسيج وحدهِ في العلوم الدنيويَّة لكنَّهُ آثر عليها درس الاسفار المقدسة فانتقل الى قيسارية حيث رُقي الى درجة الكهنوت وأنشأ لهُ مكتبة حافلة بالتآليف القديمة . وكان موتهُ استشهادًا سنة ٣١٠ (٢

وفي ذلك العهد ايضاً ألمع التاريخ الى بعض النصارى الذين حكم عليهم المغتصبون بتعدين معادن لبنان . والمرجَّح انهم ارادوا بهذه المعادن مناجم الحديد التي اشتهرت في بعض المعاملات لا سيما البترون وكسروان والمتن الى اواخر القرون المتوسطة . وفي ذكرها بين اعمال الشهداء ما يوقفنا على تاريخ المعادن في لبنان

على انَّ النصرانيَّة لم تلبث بعد هذه المحن ان تنتصر على اعدائها فخرجت ظافرةً ممجَّدةً على يد قسطنطين الكبير ودخلت في طور جديد ولم تزل منذ ذاك في ترقٍّ متداوم بينما كانت الوثنيَّة تتقهقر وتهبط حتى انقشع ظلامها ودرست آثارها

لكنَّ عبادة الاصنام أبت ان تنكص على الاعقاب دون المدافعة والنزاع . فان الشرك بقي زمنًا طويلًا حتى بعد تنصّر قسطنطين وربما سعى في ردّ غارات دين المسيح . وكان كثير من عبدةِ الاوثان لم يزالوا يتردَّدون الى هياكل الالهة الباطلة . وكان سدَنتها يُعرَفون علانية باسم كهنة الاصنام تدلّ على ذلك كتابةٌ وُجدت في دوما جاء فيها ذكر كاهن يُدعى كاستور يلقّب نفسهُ بكاهن اله الطبّ اسكولاب وإلهة الصحّة

١) راجع اوسابيوس في تاريخ شهداء فلسطين واعمال البولنديين في ٢ نيسان

٢) راجع التاريخ الكنسيّ لاوسابيوس (ك ٨ غ ١٤) واعمال القديسين للبولنديين في ١٦ شباط و ١ حزيران وكتاب القديس ايرونيموس في المشاهير (العدد ٧٥)

وقد اثبتنا في مقالة سابقة عن افقـا انّ قسطنطين الملك دمّر هيكل الزهرة فيها . والظاهر انّ الوثنيين انتهزوا الفرصة في عهد يليان الجاحد ليجدّدوا بناء هذا المعبد فانّا نرى عبدة الاصنام في القرن الخامس للمسيح يحجّون اليهِ لاقامة مناسكهم الدينيّة (١

وان تتبّعنا التقاليد الشائعة في بلاد الشام وجدنا من الآثار ما يعزوهُ اللبنانيّون الى القديسة هيلانة امّ قسطنطين كبعض البروج المبنيّة على ساحل البحر يزعمون انّها اقامتها لتبلّغ ابنها اخبار الاراضي المقدسة واكتشاف الصليب . الّا اننا بيّنّا ان هذه التقاليد لا صحّة لها (راجع الصفحة ٥٧) وان هذه البروج شُيّدت بعد ايام الصليبيين لمراقبة الساحل وردّ غزوات الفرنج . ولم تكنْ هيلانة لتحتاج الى مثل هذه البروج لمخابرة ابنها مع ما كان لديها من البريد برًّا على السكك الرومانية ومن السفن بحرًا وهي تستطيع ما شاءت ان تراسل ابنها في وقت وجيز . ثم ان التاريخ يفيدنا عن ام قسطنطين انها قدمت فلسطين بحرًا وآبت راجعةً كذلك دون ان تتلبّث في مدن فينيقية وتزور لبنان

ومما لا شبهة فيهِ انّ الدين النصرانيّ كان فاز السهم المعلّى في الساحل الفينيقيّ في اواسط القرن الرابع مع ما تخلّف فيهِ من بقايا الوثنيّة فضلًا عن جماعة من اليهود كان اكثر سكناهم في بيروت وصيداء . وقد روينا في مقالتنا عن الزلازل في بيروت (المشرق ٢ : ٩٧١) انّ عددًا غفيرًا من المشركين طلبوا العماد بعد زلزلة ٣٤٩ لكنّ ارتدادهم كان علّة الخوف فعادوا بعد زوال الخطر الى ضلالهم وابدعوا شيعة خلطوا فيها الدين المسيحي والوثني وابتنوا لهم معبدًا اقاموا فيهِ رتبهم المستهجنة

ولم يمضِ على ذلك زمن يسير حتى اقام الله لكنيستهِ انصارًا اجتذبوا اهل الضلال الى النصرانيّة بامثالهم اكثر منهم بكلامهم . وانْ هولاء الا النسّاك والحبساء الذين أووا الى مغاور ثم الى اديرة اضحت بهمّتهم كمنائر سطع منها ضياء الدين المسيحي فبدّدت ظلام الوثنيّة تامًّا

---

١) راجع مقالة الدكتور ج . روفيه المعنونة Le temple de Vénus à Afka, p. 15. 16

في مبادئ المعيشة الرهبانية في لبنان

قال القديس ايرونيموس في ترجمة القديس هيلاريون (ع ١٤) : « لم يعرف احد من اهل الشام ناسكًا قبل هيلاريون » فمن ثمَّ يظهر ان أرَسمس الذي سبق لنا ذكره مات ولم يقتدِ بنسكه احد الى عهد القديسين انطونيوس الكبير وهيلاريون وليس هذان الناسكان هما اللذان انشأا العيشة النسكية في لبنان كما يروي تقليد بعض اللبنانيين خلافًا للتاريخ الصادق . وزد على ذلك ان القديس انطونيوس لم يخرج قطّ من القطر المصريّ والصواب انَّ مثلهما حمل نصارى الشام على التشبّه بهما

ولا غروَ انهُ بوشر منذ ذلك العهد بانشاء المحابس في لبنان بيد ان التاريخ لم يذكر من امرها شيئًا لقلّة اعتبارها . وانما روى اخبار مناسك أُخرى تُدعى مندرة (μάνδρα) ومعناها حظيرة الغنم كان العبّاد يجتمعون فيها تحت رئاسة بعض اكابرهم يدعونهُ لذلك ارشيمندريتًا اي رئيس المندرة . وربما كانوا يدعون ايضًا هذه المناسك لورا (λαύρα) او قينوبيون (κοινόβιον) ومعناهما المُنتدى والمُجتمع . وكان اسم المندرة شائعًا في مصر وجنوبي فلسطين اما الاسمان الاخران فاشتهرا في سوريَّة . ولعل مَندَرة احدى مزارع البتّاع بجوار تعنايل اشتقَّت اسمها هذا من دير كان سابقًا بقربها (١

لو تقصَّينا آثار الكتب التاريخيَّة لوجدنا ذكر بعض هذه الاديرة القديمة الراقية الى اواخر القرن الرابع واوائل الخامس . منها عدلون بين صيداء وصور ليس بعيدًا من صَرفند . فان فيها عند البحر صخرًا عاليًا حُفر فيه نحو ٢٠٠ كهف . ولعلّ هذه المغاور كانت في بادئ الامر مدافن للموتى ولكن لدينا من الادلّة ما يحملنا على القول انَّ الرهبان اتخذوها لهم كمساكن أووا اليها . من ذلك ما ترى فيها من شارات النصرانيَّة

---

١) وكذا دُعيت بعض المدن في اوربا باسماء الاديرة المجاورة لها مثل موتيار او موستيار Moustier او Moutier في فرنسة ومُنستر Munster في المانية الخ وكلها مشتقّة من monasterium اي دير

وفيها صهاريج محكمة الصنع ومراقي متقنة يُصعد منها الى طبقات المغاور العليا وتجمع بين القلالي · ومن اعتبر هذه المساكن الغريبة لا يشك في انّ الرهبان وحدهم امكنتهم الاقامة فيها ويؤيد ذلك ما دوّنهُ المؤلفون في تراجم بعض الاباء انهم كانوا يعيشون في المقابر. وهذه المقابر كانت عبارة عن مغاور مختلفة الكبر اتخذها الاقدمون لموتاهم · والمرجّح عندنا ان عدلون من هذا القبيل · فعسى ان يجد العلماء نصًّا تاريخيًّا يزيل عنّا كل شبهة في الامر

وليس بمستبعد ايضاً ان الاغوار المنقورة في الصخر في وادٍ مطلّ على بلاد البقاع بقرب قرية فرزل شمالي زحلة كانت مأوى السياح · يستدل على ذلك بدلائل عديدة · وهذه الكهوف تشبه في ترتيبها مغاور عدلون والاهلون يدعون موضعها الحبيس ويزعمون استناداً الى تقاليد قديمة انّ سيّاح القرون الغابرة سكنوها وفي سفح هذه المغاور جدول ماءٍ صافٍ يترقرق سائحاً

ومن جملة الاماكن التي يُشار اليها بالشواهد المنقولة انّها كانت في سالف الزمان كمعاهد للرهبان مغارة عند قرية هرمل على مقربة من اكبر رؤوس نهر العاصي · ولهذا التقليد اثرٌ في كتبة القرون المتوسطة كابي الفداء والقلقشندي وغيرهما وهم يدعون هذا المكان باسم مغارة الراهب · والموارنة يدعونها « ديرمار مارون » · ولا يزال الجبل المطلّ عليها مع الاملاك المجاورة لها خاصة رهبان لبنان الانطونيانيين ويسكن البعض منهم هذا المكان في عهدنا الحاضر مع ان سكان هذه الايالة كلهم من المتاولة · وهؤلاء يعرفون هذه المغاور باسم القصور وما لا ريب فيهِ انّ الناس تحصّنوا فيها سابقًا يُستدلُّ على ذلك بما اقاموه من الابنية في مدخلها للمدافعة عنها فزادوها منعةً على حصانتها الطبيعيّة

ومغارة الراهب تفوق مغاور عدلون وفرزل بمحاسنها · وكانت في الاصل طبيعية سكنتها كما يظهر قبائل عاديّة في الاعصار السابقة التاريخ ولعلّ هذه القبائل فضّلتها على سواها لحسنْ موقعها قرب نهرٍ كبيرٍ · الّا انّ الخلَف حسّنوا عمل الطبيعة وأضافوا اليهِ منتدياتٍ نقروها في الصخر على احسن هندام مع قبّة ذات حنيّة مقوّسة ودرجٍ داخليٍّ يُصعد منهُ الى الطبقات العليا و بئر عميق الغور يبلغ الى مياه النهر · وكل ذلك منحوت في الصخر الاصمّ

ومن المنازل التي احتلّتها في العهد القديم نسّاك لبنان وادي قزحيـا والقاديشا . و بقايا العيشة الرهبانية فيهما ظاهرة حتى الان صبرت على الايام وتقلبات الدهر . وكان بعض الرهبان يعيشون فيهما عيشة عموميّة فيجتمعون للصلاة والشغل في كهوف واسعة منقورة في الصخر ترى واحداً منها اكبر من سواهُ في وسط الوادي . و بعضهم كانوا يفضّلون العزلة التامّة فيعيشون منفردين في مغـاور متفرّقة في جانبي الوادي منحوتة في صخوره تجري منها ينابيع صافية ويحدق بها النبات وكلّها غاية مايرام لعيشة العبّاد

وفي بهرة وادي قاديشا دير قنّوبين تعريب (κοινόβιον) يعزو التقليد المحلي بناءهُ الى الملك ثاودوسيوس الكبير . والامر ممكنٌ الّا انّ النصوص التاريخية لا تفيدنا في ذلك علماً . وعلى رأينا ان ثاودوسيوس منشئ هذا الدير ليس هو القيصر الشهير بهذا الاسم بل احد كبار آباء الطريقة النسكيّة . وقد عُرف بهذا الاسم في ذلك العهـد رجلان عظيمان تكرمهما الكنيسة بين اولياء الله . احدهما ثاودوسيوس الانطاكي انشأ في قيليقية ديرًا كبيرًا والاخر اصلهُ من قبادوقية اشتهر في فلسطين وابتنى ديرًا واسعًا تقاطر اليهِ الرهبان من كل فجّ وأوب كان بينهم يونان وارمن وصقالبـة . ولا جرم بانّ السوريين واللبنانيين تتلمذوا لهُ ايضًا . وكان ثاودوسيوس المذكور قسّمهم اقساماً على حسب اصلهم ليسبّحوا الله في لغاتهم المختلفة وساسهم الى ان توفي في اوائـل القرن السادس ولهُ من العمر ١٠٥ سنين . ومن اطلع على ترجمة هذا القديس لا يرى فيها صريحًا انهُ قدم لبنان ولعلّهُ زار هذا الجبل في رحلتهِ الى مقام سمعان العمودي(١ . ولكننا نعلم من تاريخهِ ان تلامذتهُ انشأوا اديرةً عديدة في انحـاء شتى . فلا نرانا نتجاوز حدود الحق ان قلنا عن احدهم انهُ احتلّ قنّوبين فأسس فيها ديرًا نسبهُ الناس بعده الى القديس ثاودوسيوس استاذه ثمّ اشتبه الاسم على الخلَف فظنّوا ان المنشئ هو ثاودوسيوس الكبير الذي اشتهر بتقواه وتذكرهُ الكنيسة اليونانية في عداد قديسيها . وما يؤيد هذا الراي انا نرى الطائفة المارونيّة تكرّم ثاودوسيوس ابا الرهبان اكراماً خصوصيًا وتعدّهُ بين مشاهير النساك (٢ . وهـذا لعمري شاهد واضح على انّ اسمهُ كان ذائعاً في لبنان

١) راجع اعمال البولنديين في تاريخ ١٦ كانون الثاني (ص ٦٨٠)

٢) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدويهي (ص٢٣)

ترقي النصرانية في القرن الرابع

حان ان نعود الى تاريخ انتشار النصرانيَّة في لبنان بعد استطرادنا الى ذكر مبادئ العيشة الرهبانية فيهِ

لمَّا تبوَّأ قسطنطين الكبير منصَّة الملك اخذت قدم النصرانيَّة ترسخ في لبنان ولعلها كانت طمست آثار الوثنيَّة لولا بدعة آريوس التي بذرت في قلوب المؤمنين وخصوصاً بين الاساقفة بذر الشقاق والنفور فجعل الآريوسيون يفرغون كنانة الجهد في مطاردة الرعاة الاورثذكسيين ومعاكستهم لا يهمُّهم شيء من امر الوثنيين وانارتهم بضياء الايمان . بل كان المشركون يزيدون تباعداً عن الكنيسة لما يرون في احبارها من تفرُّق الكلمة في اكبر عقائد النصرانيَّة اعني لاهوت المسيح ومساواتهِ لابيهِ في الجوهر

ثم تملَّك جليان الجاحد فأولى الوثنيَّة انتصاراً لم يكن في حسبان اهلها . فاستأنف المشركون فتح الهياكل المقفلة ورمَّموا ما تهدَّم من المعابد . والمرجَّح ان هيكل الزهرة في افقا جُدّد بناؤُه في ذلك العهد كما أُصلح قسمٌ من معبد المشنقة (١ وعاد الوثنيُّون فاحتفلوا باسرار ادونيس اي تموز بابهة عظيمة كمألوف عادتهم سابقاً . ونال بيروتَ نفسها اضطهادُ عبدة الاصنام فانَّ الكنت مَغنوس قدم هذه المدينة ومعهُ فريق من الجند واليهود فاخربوا كنيستها الكبرى ولا غرو ان كنائس لبنان اصابها ما اصاب كنيسة بيروت من حريق ودمار

ولكن الله اللطيف بعباده جازى وشيكاً جليان على كفره وأقام خلفاً لهُ يُقيان وكان رجلاً تقيّاً مبغضاً للشرك فامر الكنتَ مغنوس بان يشيد كنيسة بيروت على نفقتهِ ولولا حلم الملك لقطع رأسهُ واصاب الجزاء عما جنت يداهُ من الآثام العديدة

وممَّن اشتهروا في ذلك العهد ناسك لا يزال ذكره مكرَّماً في لبنان وهو القديس موسى الحبشي الذي اختارتهُ ماوية ملكة العرب اسقفاً لقومها وسامهُ

---

١) راجع بعثة فينيقية ص ٢٨٦

القديس اثناسيوس الاسكندري فتولّى رعاية العرب المقيمين في شبه جزيرة سينا وفي جنوبي فلسطين

ولما صار زمام الملك الى يد ثاودوسيوس الكبير أُصيبت الوثنيَّة في سواد قلبها فان هذا العاهل الشهير امر كبير قوّاده سنة ٣٨٤ بان يُقفل هياكل الاصنام ليس فقط في لبنان بل في الشرق باسره · وفي سنة ٣٩٢ في العشر الاول من تشرين الثاني سنَّ شريعة ثانية كان مؤدّاها ان تبطل عبادة الاوثان فلم يتجاسر الوثنيّون على مقاومة السلطة · لكنَّ بعضًا منهم ثبتوا على عاداتهم ومارسوا دينهم خفيةً في القرى المنفردة والجبال القاصية · وكان القياصرة مع ذلك لم يهدموا هياكل الاصنام بل اكتفوا بان يبطلوا فيها المناسك الدينيـة · والدليل على قولنا ان الدستور المعروف باسم ثاودوسيوس يتضمَّن عدّة شرائع سنَّها الملوك النصارى تقضي بمعاقبة الذين يسعون في خراب الهياكل الوثنيـة وكانت غايتهم بذلك ان يحافظوا على آثار الاقدمين لحسن هندستها (١ وكانوا في الغالب يخصِّصون هذه الابنية لخدمة الدين الحقيقي فيجعلونها كنائس مسيحيَّـة (٢ . الَّا ان ذوي الامر اضطرّوا في بعض المواطن الى استعمال القوة الجبريَّة وتقويض المعابد الوثنية خصوصاً في بلاد فينيقية ولبنان · فمن جملة الابنية التي اجتاحتهم الاحوال على نسفها زونُ الزهرة في افقا لان سدنتهُ كانوا اتخذوهُ كماخور يجترحون فيهِ الفحشاء وافظع الارجاس باسم دينهم الباطل

ومن بدء القرن الخامس للمسيح لمَّا استوى القديس يوحنا فم الذهب على كرسي القسطنطينية (٣٩٨ — ٤٠٧) اراد ان يستأصل من لبنان شأفـة الشرك فارسل قومًا من دُعاة الدين ليرشدوا اهل لبنان الى طريق الهـدى (٣ وقد لاقى هؤلاء

---

١) راجع P. Allard ; *L'art païen sous les empereurs chrétiens*

٢) راجع كتابات سورية وحوران لوادنغتون (ع ٢٤٩٨) · ومن الهياكل التي جعلها النصارى كنائس هيكل بعلبك المعروف باسم تريليتون (Trilithon) وكنيسة مـار يوحنا في دمشق المعروفة اليوم بالجامع الاموي

٣) راجع تاريخ ثاودوريطس (ك ٥ ع ٢٩) ورسائل القديس يوحنـا فم الذهب (ع ١٢٣, ١٢٦) الَّا ان هذه الرسائل مع ذكرها لبنان لا توضح جليًّا أيُرادُ بهِ لبنان الحالي او جبال النصيرية ولعلَّ المقصود منها هذه الاخيرة

المرسلون في تنفيذ دعوتهم مشاكل عديدة فطرد الاهلون بعضاً منهم وقتلوا آخرين . على ان هـذه المعاملة السيئة لم تكن لتثني عزائمهم فواصلوا الانذار والتبشير وبالغوا في ملاطفة السكّان حتى اجتذبوهم الى عبادة الاله الحقيقي . ومما اتخـذوا من الوسائل لإبطال الوثنية انهم جعلوا لاهـل لبنان الاعياد واقاموا المواسم احتفاء باسرار الدين النصراني الطاهرة فعدلوا بهم عن الحفلات الوثنية الى العبادات والمناسك الخلاصية

تنظيم الكنائس في لبنان

وفي مطاوي هذا القرن الخامس جُعلت كنائس لبنان على نظام قانوني فقُسمت الى قسمين كنائس فينيقية الساحلية وكنائس فينيقية لبنان وفقاً للتقسيم المدني الذي جرى عليهِ اولاً ديوقلسيان (راجع المشرق ٣ : ١١٠٣) . وقد ذكرنا هنا هذا التنظيم إزالةً للالتباس لانَّ الكراسي الاسقفية اصابها بذلك بعض التغييرات وعُدَّت من ايالةٍ غير التي كانت معدودةً منها سابقاً . وما يهمّنا نحن في مقالاتنا عن آثار لبنان انما هي فينيقية الساحلية اما فينيقية لبنان فانها كانت تشمل الجبل الشرقي ومنعطف لبنـان من جهة الشرق وعليهِ فانها لا تدخل في حيز مباحثنا

وجُعلت صور رأس ولاية فينيقية الساحلية واضحى كرسيّهـا لهذا السبب متقدّماً على بقيّة كنائس الولاية فدُعي لذلك بالكرسي الاوّل (πρωτόθρονος) في بطريركية انطاكية وجُعلت تحت حكمه كراسي اسقفيات عديدة نذكر من جملتها ما لهُ علاقة مع لبنان الحـالي وهي : ١ صيداء . ٢ پرفيريون الموافقة لمقـام النبي يونس وتدعى ايضاً برجا موقعهـا بين بيروت وصيداء (١ ٣ جبيل او بيبلوس . ٤ البترون او بُتريس . ٥ غيغرتا (٢ . ٦ ترياريس (Trierès) وهي المسمّاة اليوم أنفة (٣ . ٧ طرابلس .

---

١) وسنعود الى ذكر آثارها

٢) امّا موقع هذه المدينة فسنبيّنهُ ان شاء الله

٣) هذا الصواب وليس كما ورد في المنـار (ص ١١٤ من السنة ١٩٠٠) انها « حصن ساحلي شمالي طرابلس ربما القليعات »

٨ً عرقا (١ . ٩ً اورثوسياس (٢ . اما بيروت فمع كونها واقعةً في ولاية صور الكنسيَّة كانت مستقلةً عنها . ورقّي اسقفها الى رتبة مطران ولكن لم يكن لهُ اساقفة تحت حكمهِ (٣

هذا ولا نشكّ في انَّ بعض قرى لبنان الكبرى كاهدن و بشرّاي واميون (في الكورة) كان لها رؤساء روحيون من درجة الخورفسقفوس . وكانت هذه الرتبة شائعة في ذلك العصر . ولنا شاهد في ما ذُكر عن القديس باسيليوس اسقف قيسارّية انهُ كان تحت امره خمسون خورفسقوفاً الّا ان هذا المنصب الكنسي ابتذل لكثرة شيوعهِ فامتزج بدرجة رُعاة القرى . وما اسم « الخوري » الّا اشتقاق من اسم الخورفسقفوس

وفي هذا العهد ايضاً انتظمت الطقوس الكنسية المهمّة الى ان صارت بعد زمن على هيئتها التى نألفها اليوم . وممن ساعدوا على تنسيق هذه الطقوس بعض القديسين الاجلاء كالقديس يوحنا فم الذهب والقديس باسيليوس الكبير الا انّ هذه الطقوس لم تُنسِ ما كان سبق اليهِ القدماء من الرُتب الدينية كالطقوس الرسولية والرُتب التقليدية منها الليتورجيا الشريفة المنسوبة الى القديس يعقوب وغير ذلك

اما اللغات الكنسية فكانت محصورة في اللغتين اليونانية والسريانية ولم تشع اللاتينية كلغة طقسيَّة وانما كانت لغة الدولة الرسمية فقط . وقد استعملها اهل بيروت مدة ثمّ انحصرت في ضمن مدارسها الفقهيَّة الشهيرة . الّا انها أُهملت شيئاً فشيئاً حتى أُبطل استعمالها وكانت كنائس المدن الساحليَّة تؤثر في طقوسها اللغة اليونانيَّة اما كنائس الجبل فكانت السريانية هي الغالبة على أَلسنة كهنتها (راجع المشرق ٣ : ٢٦٧) . وزادت السريانية انتشاراً في لبنان لمّا صارت السيطرة فيهِ للطائفة المارونية

---

١) واخربتها تُعرف الى اليوم بهذا الاسم

٢) تدعى اليوم اورتوزي بجوار نهر البارد

٣) خلافاً لما جاء في مقالة المنار السابق ذكرها (ص ١١٤) . وهذه المقالة تستدعي عدَّة اصلاحات . نقول ذلك رعاية للحق مع ما نعرفهُ من فضل كاتبها الذي اختبرنا لطفهُ يوم زرنا دير البلمند

انتصار النصرانية نهائيًا على الوثنية في لبنان

بعد وفاة القديس يوحنا فم الذهب قدم لبنان من مدينة الرها احد النساك فتوطّنهُ وجعل يسعى في هداية اهله الوثنيين · ذكر ذلك البولنديون في تاريخ ١٤ شباط · ولعلّ المراد بلبنان في ترجمة الناسك المذكور انما هو جبل عكار لان النصّ الوارد فيهِ اسم هذا العابد يشير الى مدينة حمص وهي كما لا يخفى مجاورة لجبل عكار

وكذلك تكرَّر ذكر لبنان في ترجمة حيـاة القديس سمعان العمودي فان راوية اخباره يقول عنهُ انهُ انجز هداية اهل لبنان فرَّجعهم الى الدين القويم بما اصطنعهُ من المعجزات الباهرة · لكنَّنا هنا ايضًا لا يمكننا القطع بان المراد بلبنان الجبل المعروف اليوم بهذا الاسم · ونحن نعلم ان هذا القديس اشتهر في ولاية حلب في الجبل المسمَّى اليوم بجبل سمعان · على ان الذي يُمعن النظر في اقوال مؤرخيهِ لا يرى ما ينفي لبناننا الحالي لان الزوار كانوا يتقاطرون الى عامود القديس من بلاد بعيـدة فكان العرب يأتونهُ من اقاصي البادية ليستمعوا تعاليمه · ثم ان اوصـاف لبنان في تواريخ هؤلاء الكتبة توافق جبلنا منها ذكر الغابات والوحوش الضارية ومعابد الاصنام وتعلّق الاهلين بعبادتها بحيث لا يرذلون خدمتها الَّا بعـد نظر العجائب التي تجري على يد القديس سمعان · فكل هذه الاوصاف تصدق عن جبل لبنان الحالي · غير ان اسم لبنـان وحده ليس بكافٍ لنجزم بهذا الامر وقد قلنـا سابقًا ان هذه التسمية كانت تشمل في القرنين الخامس والسادس جبالًا اخرى

وان قال قائل ان المراد بلبنان انما هو لبناننا الحالي لانهُ ورد في اثناء ذكر لبنان اسم احدى قراهُ وهي قرية انداريس (Andaris) الموافقة لقرية عين دارا في معاملة العرقوب الشمالي · اجبنا ان هذه الموافقة بين الاسمين ليست مقرَّرة ثم انهُ يُحتمل ان ضيعةً تدعى عين دارا اشتهرت سابقًا في جبال غير لبنان الحالي مما كان يُعرف ايضًا باسم لبنان كجبل النصيريَّة وجبل الشيخ · فترى من ثمَّ ان هـذه الافادات ليست بكافية لتدوين هذه الاخبار في تاريخ النصرانية في لبنان

ولما ظهرت بدعة نسطور وجدت في بعض اساقفة لبنان صدًى لتعاليمها الفاسدة · فان افرادًا منهم انحازوا الى النسطوريَّة · وفي بيروت التـأم المجمع الذي حكم

على ايباس اسقف الرها احد انصار نسطور . وكان ذلك حسب منطوق اعمال المجمع « في بيروت المدينة الفائقة الجمال في دار اسقفها الحديثة بجوار الكنيسة الجديدة المقدسة »

اما بدعة اوطيخا فكان لها في لبنان عاقبة اوخم من النسطوريّة ففشا ستّها في بلاد الشام وألحقت باهلها مدّة زمن مديد اضرارًا لا يُسبر لها غور . وكان اوستات اسقف بيروت تشيّع جهارًا لاوطاخي . فجازاهُ ملك الروم بان اصدر براءة ورد فيها انهُ « يخوّل مدينة بيروت المزدانة بالفضائل اسم حاضرة (métropole) مع الامتيازات التي تُعطى لأمهات المدن » . فظنّ اوستات ان رقيم القيصر كافٍ ليمدّ سلطتهُ الروحية على اساقفة جبيل والبترون وطرابلس وغيرها من الاسقفيات الواقعة في شمالي فينيقية الساحلية . الّا ان مطامعهُ رُذلت بعد زمن قليل في عهد مرقيان الملك

وقد تعطّر لبنان بفضائل بعض القديسين في اواسط القرن الخامس للمسيح نخصّ منهم بالذكر القديسة مَطرونا وُلدت في آسيا الصغرى ثم اقامت ديرًا في حمص وانتقلت اخيرًا الى بيروت فانارت جمًّا غفيرًا من النساء الوثنيات بانوار الايمان

ومنهم القديس ربولا الشُمَيساطي قدم بيروت في ايام الملك زينون ثمّ تعبّد لله في جبال لبنان المعتزلة . وجاء في تاريخ قديم (راجع اعمال القديسين للبولنديين ١٥ شباط ص ١٢٦) « ان ربّولا المذكور شيّد بمساعدة زينون القيصر ويوحنا حاكم بيروت ديرًا كبيرًا في وسط الجبل . وكان يعيش مع رهبانهِ بين الجبليين وهم وقتئذٍ متسكّعون بظلمة الوثنية فعرض عليهم اسرار الديانة وردّ حججهم واجتذبهم الى الدين القويم الّا نفرًا قليلًا منهم» . فيؤخذ من هذا الكلام ان عبادة الاصنام لم تُطمس بعدُ آثارها في لبنان نحو مئة سنة بعد ثاودوسيوس الكبير

ولعلّ القارئ يسأل وما هو الدير الذي عمّرهُ ربّولا الراهب ؟ قال الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخ لبنان (ص ٢٣٨٩ من تاريخهِ المخطوط) : « ان الدير الموما اليهِ هو دير القمر » . لكنّنا لا نرى على اي حجّة بنى الاب مرتينوس زعمهُ هذا . وغاية ما نعرف عن دير القمر ان ذكرها ورد في تاريخ الصليبيين ولكن هذا ليس ببرهان مقنع . لاسيما انا نرى في لبنان قرًى غيرها دخل في تركيب اسمها اسم الدير

فيصحّ فيها قول الكاتب المنوّه بهِ وبعضها ليس بعيدًا عن بيروت· لان النص يشير الى دير قريب منها

وزادت بدعة اوطيخا انتشارًا في سوريّة لما ظهر ساويرس الانطاكي · وكان المذكور قضى سنين عديدة من عمره في بيروت حيث درس الفقه ثمّ تعمّد في طرابلس(١ وصار بطريركًا دخيلًا على انطاكية وتفانى في نشر الشيعة الاوطاخية · لكنّ الله اقام الدينهِ الحقّ محامين يدافعون عنهُ لاسيما في عداد الرهبان · والكنيستان الشرقية والغربية تحتفلان في ٣١ تموز بعيد ٣٥٠ راهبًا قُتلوا في سبيل الايمان سنة ٥١٧ · كان المبتدعون كمنوا لهم يومًا وهم سائرون الى كنيسة القديس سمعان العمودي التي موقعها في جبل بركات شماليّ غربي حلب · وقد ذكرناهم هنا لان اللبنانيين يقيمون لهم عيدًا حافلًا ولو كان استشهادهم قد جرى خارجًا عن لبنان وعن فينيقية · وانما اصلهم كان من ولاية سوريّة الثانية التي حاضرتها افامية (قلعة المضيق) وموقعها شمالي ايالة فينيقية لبنان· اما فينيقية لبنان هذه فقد سبق ان حاضرتها كانت مدينة حمص وانها تشمل قسمًا من لبنان الشرقي على ان معظم جبل لبنان داخل في فينيقية الساحلية

وكان هولاء الشهداء ينتمون الى دير مار مارون · وكان هذا الدير مبنيًّا في جوار افامية في وادي نهر العاصي (٢ · قال المسعودي في كتاب التنبيه والاشراق (ص ١٦٣) يعرّف موقعهُ انهُ : « شرقي حماة وشَيْزَر ذو بنيان عظيم حولهُ اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها الرهبان وكان فيهِ من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم فخرب هذا الدير وما حولهُ من الصوامع بتواتر الفتن ... وهو بقرب من نهر الارنط نهر حمص وانطاكية » · ولدينا العريضة اليونانية التي ارسلها رهبان هذا الدير للبابا هرمزداس يخبرونهُ باستشهاد اخوانهم وقّعوا عليها بما نصهُ : « نحن الحقراء الارشيمندريين ورهبان سوريا الثانية » · امّا رئيسهم فقد وقّع الرقيم كاتبًا : « انا ارشيمندريت مار مارون » · فما سبق ترى ما كان لهذا الدير من الخطورة والشأن

---

١) راجع المشرق ٣ : ١٠٠٣ وكتاب الاب نو Opuscules maronites II, 49 *seqq.*

٢) راجع كتاب الاب نو (l'abbé Nau) السابق ذكره (ج ٢ ص ٢٢)

وعدد الرهبان . اما الاسباب التي حملت الموارنة على اكرام هؤلاء الشهداء فهي ثلاثة ذكرها صاحب مروج الاخيار : « اولًا لان اكبر اديار هؤلاء الشهداء الطوباويين كان معروفًا باسم القديس مارون وارشيمندريت هذا الدير كان اسمهُ اسكندر وهو اول من امضى الرسالة التي رُفعت الى البابا هرمزداس القديس . ثانيًا لان كثيرين من هؤلاء القديسين كانوا يتشجعون على الثبات في الايمان والاستشهاد امام ذخيرة هامة القديس مارون الثمينة التي كانت بهذا الدير . وثالثًا بما ان هؤلاء الرهبان القديسين كانوا اشجع المناضلين عن الايمان الكاثوليكي الذي يغار لهُ الموارنة غيرةً لانهم كانوا خاضعين اتمّ الخضوع لكرسي هامة الرسل . والطائفة المارونية تفتخر بانها تقتفي آثارهم في ذلك »

وقبل ذلك بزمن قليل (سنة ٥١١) كان الملك انستاس طرد من القسطنطينية عددًا غفيرًا من الراهبات المستقيمات الايمان فقصدنَ لبنان واتخذنهُ لهنَّ سكنًا وعطّرنهُ بعرف فضائلهنَّ . وفي اختيارهنَّ لبنان للعزلة دليل على ان اهلهُ كانوا يرذلون الشيعة الاوطيخية

والارجح ان كنيسة دير پرفيريون (اليوم برجا او النبي يونس) بُنيت في ذلك القرن السادس . وكذلك كنيسة القديس فوقا على مشارف الجبل (١ . وقد ورد ذكر هاتين الكنيستين في تاريخ الابنية للمؤرّخ پروكوپ . وكان بانيهما الملك يوستنيان الذي اشتهر بغيرتهِ على بناء الكنائس . وليس بمستبعد انَّ اقدم كنائس لبنان المعروفة اليوم تشيّدت في عهده او على يد المهندسين الذين جروا على طريقة بنائهِ . مثال ذلك كنيستا اهدن وكفر شليمان اللتان تشبهان كل الشبه الكنائس البوزنطيّة المنسوبة الى هذا الملك . ولعلَّ كنيسة حدتون المهدومة التي ذكرناها في الفصل السابق (ص ٨٦ و ٨٩) هي ايضاً من هذا القبيل فيكون بناؤُها سبق دخول الموارنة في لبنان . لنا في تأييد قولنا بعض الحجج منها وجود كتابتين يونانيّتين الواحدة اكتشفها رينان واكثر حروفها مطموسة والاخرى وقف عليها الفقير كاتب هذه

١) راجع پروكوپ (ك ٥ ع ٩) . على ان پروكوب بقولهِ « مشارف الجبل » لم يذكر لبنان وانما يؤخذ ذلك من قرينة كلامهِ لانهُ ذكر الجبل بعد ذكر پرفيريون والساحل الفينيقي

الاسطر (١ وفي كلتيهما ما يشير الى قدم هـذه الكنيسة · ومنها الطرز الهندسي والنقوش وضروب الفسيفساء فان كل ذلك يُلمع الى عهد يوستنيان

فترى مما تقدم انَّ النصرانيـة في القرن السادس لاسيما اواخره لم تغلب فقط على المدن الساحلية بل بان شأوها على كل اخصامها في لبنان· وكانت مدينة بيروت حافلة بالكنائس (٢ واهلها معتصمين بحبال الدين · وكذلك تفيدنا ترجمة البطريرك ساويروس السريانية ان العاملة اللبنانية المجاورة لبيروت كانت مستوثقة بعروة الدين وهنالك اشتهر احد الرهبان العاموديين الذي كان يسكن في قرية لم يُذكر اسمها قريبة من البلدة· وكان هذا الراهب شديد التمسك بالدين الاورثذكسي يدافع عن الايمان الكاثوليكي مدافعة الشهام· ومما رُوي عنهُ انَّ بعض اشياع اوطيخا من الطلبة الذين اتوا من الاسكندريَّة الى بيروت ليـدرسوا الفقه زاروه يوماً فلامهم عن تشبُّثهم بتعاليم الهراطقة · وفي خبر هذه الواقعة ما يُشعر بان الشيعة اليعقوبية لم تُفرد بعد لاصحابها كنيسةً في بيروت (٣

ومن الشواهد اللامعة الدالَّة على انتشار النصرانية في لبنان العيد الحافل الذي أُقيم فيهِ لمَّا عاد هرقل ظافراً ومعهُ الصليب المقدس الذي انقذه من يد الفرس · فأُقيم في لبنان حفلات بهيجة جعلها اللبنانيون سنَّةً لهم يعيدون ذكرها في كل عام في ١٤ ايلول

الَّا ان هرقل الملك كسف شيئاً من بهاء انتصارهِ بما اعارهُ من المساعدة لهرطقة المونوتليّين اي القائلين بالمشيئة الواحدة في المسيح · فكانت هذه المضافرة الملكية سبباً لفشوّ هذه البدعة في سورية وخصوصاً في وادي العاصي · لكنَّ هذا الوباء لم يَسْرِ حتى لبنان وكفاهُ بذلك شرفاً

وممَّن تصدَّوا لهذه العـدوى القديس صوفرونيوس الدمشقيُّ الاصل بطريرك اورشليم · وقد زعم البعض انهُ وُلد في لبنان في قرية بسري · وهو قول تردُّه الادلة العديدة كالميناون والبولنديين (في تاريخ ١١ اذار) بل يَعُدهُ القديس صوفرونيوس

١) راجع مجلَّة الشرق المسيحي ١٨٩٩ ص ٥٦٥, ٥٦٩

٢) راجع في المشرق (٣ : ١٠٠٤) ما ورد في النشرات المارونيَّة للاب نو

٣) مجلَّة الشرق المسيحي ١٨٩٨ ص ٢٨٠

نفسهُ في قصيدة لهُ وردت في مجموع اعمال الآباء (مين ج ٨٧ ص ٣٤٢١) قال عن نفسهِ انهُ من مدينة دمشق التي تكللها قممُ لبنان (Λιβανοστέφανος) فقاوم هذا الاب القديس الجليل الشيعة المونوتيليتية التي جعلت الدولة البوزنطية على قاب قوسين من هلاكها في سوريَّة . لكنَّ الله كفى لبنان شرَّها وجعل مذ ذاك هـذا الجبل معتصمًا لاذ باهدابهِ انصار الحقّ الى يومنا

بلاد البترون

من تتبَّع الآثار اليونانية او الرومانية في بلاد البترون لا يجد منها مـا يجدهُ في مقاطعتَي كسروان وجبيل . وسبب ذلك ان موقع البترون في سفح جبال شاهقة ابى الاقدمون ان يتخذوها كسكنى لهم اللهمَّ الّا قليلًا منهم حتى ظهرت الامة المارونية فاستعمرت تلك الجهات وجعلتها كمركز انتشرت منهُ الى البلاد المجاورة . والدلائل التاريخية المنبئة بذلك كثيرة نشير اليها في مطاوي كلامنا ان شاء الله

ولقلّة الآثار القديمة في البترون ونواحيها علّةٌ أُخرى وهو بُعدها عن أمّهـات المدن كبيروت وصيداء . ووقوعها خارجًا عن دائرة امكنة الفينيقيين المقدّسة كجبيل . ولذلك ترى في جنوبيّ لبنان ووسطهِ من الكتابات والاخربة ما لا تجده في البترون وتوابعها

٢٢ مدينة البترون

البترون احدث عهدًا من جبيل وبيروت وكان الانكليزي كُندر (Conder) زعم انهُ وُجد اسمهـا في مراسلات تلّ العمارنة (راجع الصفحة ٧٦) الّا انَّ علماء العاديَّات فنّدوا هذا الزعم . وكذلك لو تصفَّحنا تواريخ الفينيقيين واليونان والرومان لما وجدنا عن البترون الّا النزر القليل الذي لا يُشفى منهُ غليل . وذلك دليل واضح على انها لم تكن ذات شأن خطير

على اننا لا نريد بذلك ان نبخس البترون حقها فان هذه البلدة لا تخلو من البقايا والاطلال القديمة لولا انَّ الابنية الحديثة التي تعلوها اليوم لا تسمح بتقدير هذه الاخربة وتعريف تاريخها . ولنا ايضًا شاهد آخر على مقـام البترون سابقًا وهي المسكوكات

والنقود التي ضرب بها اهلها ايام استقلالهم فترى لها تاريخاً خاصا بها كبقيَّة مدن الساحل · وقد بيَّن ذلك الدكتور جول روفيه في مقالتهِ عن تاريخ مسكوكات البترون (راجع المشرق ٢ : ٤٧٦)

والشائع عن اصل هذه المدينة ان بانيها ايتو بعل ملك صور في القرن العاشر قبل المسيح كذا روى المؤرخ اليوناني ميناندر وصادق عليهِ يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير

ومن آثار الفينيقيين في هذه البلدة سورٌ متين نحتوه في الصخر الاصمّ من جهة البحر وقد بقي منهُ بقايا الى يومنا مع اعمال أُخرى تنطبق على ما نعرف من حذاقتهم في قطع الحجارة · ومنها ايضاً بعض قبور ونواويس قديمة كما ترى في غيرها من المدن الساحليَّة

ولا غروَ ان الرومان بعد فتح سوريَّة شيدوا في البترون الابنية وجعلوها من القلاع الحريزة وازهرت في ايامهم الى ان خربت في زلزال سنة ٥٥٠ م

وقد بقي من عهد الرومان نقوش وقِطع وكتابات رأى منها رينان طرفًا كما اثبت ذلك في بعثة فينيقية (ص ٢٤٩) يقول انهُ وجدها في انقاض حصنها وقد بحثنا عنها فلم نشاهدها

اما الحصن المذكور فقد شيَّده اصحابهُ في القرون المتوسطة واتخذوا لبنائهِ مـا عثروا عليهِ من الابنية السابقة · وقد ذكر العرب هذا الحصن منهم ياقوت الحموي في معجم البلدان (١ : ٤٩٣) قال: « بَتْرون (١ بالتحريك والراء حصنٌ بين جُبيـل وأنفة على ساحل بحر الشام » وقال الادريسيُّ (طبعة غلدميستر ص ١٧) : « ومن مدينة جبيل على البحر الى حصن بترون عشرة اميال وهو حصن حسن »

وعلى مقربة من البترون في المكان المسمَّى مراح الشيخ ملعبٌ قديم من بنـاء الرومانيين لهُ مقاعـد على شكل درج مستدير منحوتة في الصخر وكلٌّ ذلك ظاهر حتى يومنا · وحول هذا الملعب قطعٌ من الرخام وحجـارة منقوشة تراها مبثوثة في الارض يتخذها الاهلون للتكليس

---

١) كذا ضبطها ياقوت والادريسي · وسُمّيت في تواريخ الصليبيين « Le Boutron » امـا اليونان فكانوا يسمونها بُتريس (Botrys) وكان يقيم فيها اسقف (راجع الشرق المسيحي لِلوكيان »

وان سرتَ من البترون ليس بعيدًا عنهـا الى شمالي نهر الجوز ترى كنيسة قديمة تُدعى كنيسة مار يعقوب بُنيَت بأنقاض هيكل قديم . وعلى بعض حجارتها كتابةٌ يونانية طُمس اكثرها فلم يبقَ منها الّا حروف قليلة (١

وعلى مسافة بضعة امتار من هذه الكنيسة من جهة الشمال الغربي كنيسة اخرى منتصبة فوق اكمة تعرف باسم « سان سابور » وهي لا تزال على حال مرضية تجد في بنائها ما يذكّر بطريقة الصليبيين في الهندسة . ولهـذه الكنيسة عيدٌ يقيمهُ اهل البترون في اليوم الـ ٦ من آب وهو يوم عيد التجلي وعلى رأينا ان اسمهـا مصحّف عن كلمتين افرنسيتين معناهمـا الطور المقدّس (Saint-Thabor) . اما سبب اطلاق هذا الاسم على الكنيسة المذكورة فهو لانها كانت لاحقة بالدير الذي شيده الصليبيون على جبل الطور . وكان لهذا الدير اوقاف عديدة واملاك واسعة منهـا في الكورة وقرب طرابلس (٢ نعم ان هذا المحلّ لم يُذكر في قائمة تلك الاملاك بيد ان اسم الكنيسة الاعجمي وشكل هندستها ووقوع عيدهـا في يوم التجلي كل ذلك يؤيد رأينا . ومهما كان من امر هذه الكنيسة لا شك انها تستحق الذكر لانها مثال حسن عن طريقة اهل لبنان في الهندسة الكنسيّة

٢٣ سَمَر جبيل

هي من اقدم قرى بلاد لبنان واعظمها شأنًا من حيث آثارهـا . موقعها شمالي جبيل وكانت في القرون المتوسطة احد مراكز الملّة المارونية استوطنوها فتحصّنوا فيها لردّ هجمات اعدائهم وفيها كنائس عتيقة ذكرناها سابقًا . الكبرى منها مشيدة على اسم القديس تهرا وهي حسنة البنيان يصلي فيها القوم حتى يومنا . وعلى جدارهـا الخارجي كتابة سريانية ذهب الدهر بقسم منها مُفادها ان كاهنًا قُبر هناك . اما اسم الدفين وتاريخ وفاته فقد طُمسا . وكان رينان نقل هـذه الكتابة سنة ١٨٦٠ (ص ٢٤٦) وقد أخذنا مؤخرًا رسمها الشمسي فلم نكد نجد منها الّا الفاظًا قليلة . ولسمر جبيل كنيسة اخرى قديمة لم يبقَ منها غير ردمها

---

١) راجع بعثة فينيقية (ص ١٤٨)
٢) راجع المجلّة الفلسطينيّة الالمانيّة (ZDPV, X, 235)

واول ما يستدعي اليه نظرَ الداخل في سمر جبيل قصرُها المبني فوق اكمةٍ . وجدران هـذا البناء الجليل الماثلة ترتقي الى الاجيال المتوسطة فقط لكنَّ اركانهُ السفلى واساس بروجهِ وخنادقهُ المنحوتة في الصخر تدل على قدم عهده وعظم اثره وترى لمدخلهِ عتبةً ذات درجتين منقورة في الصخر . ولا يبعـد ان الفينيقيين قاموا بهذه الاعمال فانهم كانوا مولعين بنحت الصخور كأَنَّ عزمهم اشدّ صلابةً منها وكانوا مع ذلك يجعلون الصخر كمقالع يتخذون منهُ حجـارة ابنيتهم كالقلاع وغيرها . وفي داخل هذا القصر وعلى مقربة منهُ آبار وصهاريج عجيبة الصنع محكمة التجهيز بعيدة الغور كلهـا في الصخر الاصم لا نظنُّ ان الرومان مع جلَدهم واعمالهم الجبريَّة تولَّوا نَقرها بانفسهم

ومما يرتقي ايضاً في هذا القصر الى عهد قديم النقوش التي يراها الزائر عند جهتهِ الشمالية في اسفل الصخر الذي أُقيم فوقهُ البناء . غير انَّ هـذه النقوش داثرة يصعب تعيين زمنها ورسم صورتها

وفي سمر جبيل آثار أُخرى من العاديات منها المدافن الواقعة في شرقيّ القصر . وقد كُتب باليونانية فوق بعض قبورها ان امرأَةً عمرها ١١٠ سنوات دُفنت مع ابنها في قبر واحد وتاريخ هـذه الكتابة في القرن الثالث للمسيح وهو حسن الرسم لا إشكال في قراءتهِ . وفيهِ دليل على سنّ طاعنة قلَّ ما يبلغها الشيوخ المعمَّرون . اما البالغون سنَّ الثمانين الى التسعين فعددهم ليس بقليل في لبنان تشهد على ذلك الكتابات منها كتابة لاتينيَّة محفوظة في كنيسة بيت خشبو يُستفاد منهـا انَّ بعض الشيوخ توفي ولهُ من العمر ٨٧ سنة (راجع ايضاً بعثة فينيقية ص ٣٨٥ و ٣٨٦)

فهذه الآثار التي وصفناها تنبئ بقدم سمر جبيل وخطورتها لكنَّنا لا نعرف شيئاً من تاريخها السابق ولعلَّها احدى القلاع التي خربهـا بُيبرس عند فتحهِ بلاد الشام (ص ٣٤) والله اعلم . ومما اثبتهُ الدويهي في تاريخ الموارنـة (ص ٢٠٢) ما حرفهُ : « وفي سنة ١٦٣٠ في الخامس والعشرين من تشرين الثاني نهار الاحـد حدثت زلزلة مريعة . وفي الساعة الثالثة من الليل حلَّت في قلعة سمر جبيل وهدمت البرج الاوسط من جوانبهِ الاربعة وخرَّبت جميع مـا كان في القبو التحتاني المركَّب على البئر »

هذا وفي بلاد البترون عدة امكنة تستحقّ الذكر لآثارها فانّ الباحث يجد فيها من النواويس والنقوش ونحيت الحجارة ما هو دليل على اصلها القديم أخصُّها كفرحتنا ومسرح وشبطين وكفر شليمان التي تكرّر ذكرها غير مرّة في اثناء مقالتنا عن كنائس لبنان والحقّ يقال انَّ العَمَلة الاقدمين قد احسنوا في هذه القرية نَقر صخورها · من ذلك ثلاث حُجر نقروها في الصخر على احسن هندام وآثار آلات النحت فيها مع قدمها بيِّنة كأنها نُقرت منذ زمن حديث

وممَّا عاينَّا في مسرح نقوشٌ محفورة في الصخر اكثرها دارس مطموس بقي منها صورة ثور و بقرة مسنَّمة وموقع هذه النقوش فوق اقبية عتيقة · وقد شاهدنا ايضاً تمثال شخص يُرجَّح كونهُ امرأة وهي لابسة ثوباً رافلاً وفي يدها اليسرى رمَّانة وعنقود عنب

٢٤ قلعة الحصن

اذا ملتَ عن الساحل سائرًا من البترون لتتوغَّل في لبنان من جهة دوما رأيتَ بعد قليل صخرة عالية مكشوفة للنظر كأنها السارية المنحوتة نحتًا عموديًا وفوقها قلعة قديمة الآثار تدعى قلعة الحصن موقعها بين دير الموارنة المعروف بدير مار يعقوب وقرية بشعلي (١ · ومن رقي فوق هذا المرقب تمتَّع بمنظر غاية في البهجة والرونق فان العين تبصر غربًا البحر وسواحله وترى شرقاً القرى الممتدَّة الى جهات ارز لبنان · اما جهتا الشمال والجنوب فلا حاجز يحول دون مرأى سهولها · وليس لهذا المقام مجاز آخر الَّا من جهة بشعلي وهي الجهة التي عُني القدماء بتحصينها لتكون القلعة حريزة منيعة لا يقوى على فتحها العدوّ من كل انحائها

اما القلعة فان بقاياها ليست من العظمة والبهاء على شيء بخلاف ما يظن المسافر اذا ابصرها عن بعد · فان موادّها واخربتها لا تختلف عن غيرها ولا تنبئ بما اعتادهُ الفينيقيون والرومان من الابنية الجبَّاريَّة · وعندنا ان هذه الاطلال صرحٌ بُني في الاجيال المتوسطة فوق جدرانٍ اقدم عهدًا بقي منها بعض آثارها

١) راجع مقالتنا المعنونة « سياحة في بلاد البترون » المشرق ٢ : ٨٧٩

ومما يرى داخل هذا القصر آثار بيوت كان يسكنها السكن سابقاً · وفي اسفل القلعة نواويس عديدة ومدافن نُحتت في الصخر الاصم وجد فيها الاهلون نقوداً ومصكوكات نادرة

ومن غريب ما شاهدناه في اعلى هذه القلعة حجر كبير وسطهُ مثقوب وهو منفصل عن الصخر الذي تحتهُ وفيهِ جدول للماء لا تظهر وجهة جريهِ · وقد اعملتُ الفكر لاعرف ما الغاية من نصب هذا الحجر فلم يثبت لي الامر

وان استطلعنا طلع التاريخ لنستدلّ على اخبار قلعة الحصن وجدناه ساكتاً لا يفيدنا عن احوالهِ فتيلًا · لكن موقع هذا البناء يناسب ايَّ مناسبة للاعمال الحربيَّة كيف لا وهو يطلّ على قسم من اخصب معاطف لبنان فلا يبعد ان القدماء اتخذوا هذا المقام للدفاع عن مواطنهم ولعلهُ كان هنا قلعةٌ قديمة ابتناها الفينيقيون فاخربها بمپيوس القائد الروماني عند فتح بلاد الشام كما ذُكر آنفاً

اما « بشعلي » التي هي بقرب قلعة الحصن فلا نزيد في وصفها شيئاً على ما كتبناهُ سابقاً في المشرق في مقالتنا المعنونة « سياحة في بلاد البترون » (٢ : ٨٧٠) · وفي بشعلي رأس عمود على اربع جهاتهِ كتابة يونانيَّة خشنة ذهب اكثرها فلم يبقَ منها سوى بعض حروف لا يظهر لها معنى شافٍ (١ وانما وجودها هناك دليل على ان القرية سبقت عهد العرب · وقد جاء ذكر بشعلي في آثار الصليبيين وهم يدعونها « Betzaal » وكانت داخلة في حكم امير جبيل (٢

ومما رأينا في « ترتج » عند زاوية كنيستها صفيحة من الحجارة طولها مترٌ ونصف وعرضها سبعون سنتيمترًا وهي داخلة في الحائط عليها صورة ناتئة تمثل حيواناً تهشَّم رأسهُ ولم يبقَ سوى ذنبهِ الذيَّال فلم نتثبَّتهُ اي حيوان هو

١) ولعلَّ هذه الكتابة من الاثار التي لم يجدها رينان بعد ان بحث عنها في بشعلي كما اخبر بذلك في كتاب بعثتهِ الى فينيقية (ص ٢٥٧)

٢) راجع المجلَّة الفلسطينيَّة (ZDPV) الجزء العاشر ص ٢٥٦

٢٥ دوما

لا نرى داعياً لتكرار ما كتبناهُ سابقاً عن حسن موقع هذه البلدة وعظم شأنها حاليًا (راجع المشرق ٢ : ٨٦٩)

اما عاديّات دوما فهي نواويس ومدافن قديمة ثم كتابتان يونانيتـان الواحدة منهما محفوره في النـاووس الذي قرب عين القرية وهو اليوم حوض ماء يُستقى منهُ ففي وسطهِ دائرة كان فيها نقشٌ اخفى عليهِ الزمان . والكتابة المعلّقـة عليهِ كثيرة الخشونة كانَّ النقاش الذي نحتها لم يدرك معناها ولم يُحسن نقلها بل ترك منها الفاظاً فصار معناها مُغلقاً . فاذا تداركنا هذا الخلل واصلحنا ما يجب اصلاحهُ وجدنا ان تاريخ الكتابة سنة ٣١٧ للمسيح يُستفاد منها انَّ هناك دُفن كاستور وكان كاهنًا وثنيًّا لإِله الطب اسكولاب وإِلهة الصحّة (Ὑγιεία) . وفي آخر الكتابـة تهديد لمن ينهكون حرمة هذا المدفن فان فعـلوا وجب عليهم اداء ٢٠٠٠٠٠ دينار لبيت المال

فهذه الكتابة اليونانية من احدث ما نعرف من اثار الوثنية في لبنان . اما ما جاء فيها من الوعيد ضدّ ناقضي حرمة القبور فمثلهُ كثير في الكتابات الضريحية القديمة (١ . وليس المبلغ المذكور في الكتابة هو من المبالغ الفاحشة لان الدينار كان وقتئذٍ قليل الثمن . وهذه الكتابة مهمة لتاريخ دوما القديم لان منها يُستفاد ان هذه البلدة كانت اقامت هيكلًا معتبرًا لإِلهي الصحّة وان سدنة الهيكل كانوا من الذوات كما يظهر ذلك من الناووس الذي دُفن فيهِ هذا الكاهن . وهو جميل حسن النقش . ولعمري قد اصاب الاقدمون لما جعلوا هذه القرية مقاماً لمعبد الصحة لان علوّها نحو ١١٠٠ متر فوق سطح البحر وهواءها الطيّب ومناظرها البهجة المطلّة على سهول كفرحلدا المخصبة توافق الصحة وتنعش القوى

اما الكتابة الثانية فهي على حجر داخل في جدار كنيسة الروم الاورثدكس (المشرق ٢ : ٨٧٠) وقد اخذتُ رسمها بعد افراغ الجهـد الجهيد الّا ان هذه الكتابة

١) راجع Reinach : *Manuel d'épigraphie grecque*, p. 429

مطموسة لا يُفهم منها سوى كونها ضريحًا لعدّة اشخاص ذهبت اسماؤهم الّا واحدًا منهم . وقد درس ايضاً تاريخُ الكتابة فلم يَعُد لها شأن كبير

ومن قرى بلاد البترون التي تشتمل على بعض الآثار قرية « بقسميّة » . فانّا نقدّر انها كانت مزدانة بهيكل وثني في سالف الاعصار والكنيسة الحالية مبنية بموادّ ذلك البناء فترى حجارتها كبيرة حسنة النحت . وابواب الكنيسة اكثرها من ذلك المعبد القديم لها العتبات المنقوشة وجوانبها قطعة واحدة . وان دخلت الكنيسة وجدتَ آثارًا غير السابقة كالنقوش المحطّمة المعترضة في وسط البناء . ولو بحث الاهلون او نزعوا هذه البقايا لوجدوا بلا شك كتابات قديمة ترشدنا الى تاريخ القرية بيد انهم حتى الآن لم يقدموا على ذلك ومما رأيناهُ عتبة معبد السيدة اللاصق للكنيسة فانها تُبرز للعيان بقايا كتابة لم يمكنّا قراءتها

وبقسميّة من القرى التي احتلّها الروم الملكيون زمنًا طويلًا كما سنبيّن ذلك في مقالتنا الآتية عن دير مار يوحنّا مارون . والروم لم يسكنوا فقط جهات الكورة حيث كان عددهم وافرًا بل احتلّوا ايضًا قسمًا من بلاد البترون التي تُعدُّ كمهد الامة المارونية . ولنا في كل ذلك تفاصيل نعرضها ان شاء الله عند سنوح الفرصة

٢٦ كفرحي ومدرسة مار يوحنّا مارون

كفرحي مزرعة صغيرة موقعها فوق رابية جنوبي نهر الجوز على مسافة ثلاث ساعات من البترون في شرقيها . وكان لكفرحي شأن اعظم في ما سلف من الاعصار كما يُستدلّ على ذلك من الآثار القديمة وشواهد الكتبة من الموارنة

وفوق المزرعة كنيسة مار سابا الذي سبق ذكرها . وفي ظنّنا انها شُيدت في مكان معبد وثنيّ قديم . وعند مدخل الكنيسة قطعة نصبٍ نُقش في واجهته اكليل الّا انهُ خلوٌ من الكتابة واذا دخلت البيعة رأيت صفيحة عليها كتابة ذهب قسم منها وهي ترتقي الى سنة ٢٧٠ للمسيح . ومضمونُ الكتابة ان رجلين يُدعى احدهما مونيموس (Μονιμος) والآخر سَيناس (Σαινας) اقاما هذا المذبح لاحد الآلهة لم يبقَ من اسمهِ الّا حروفه الاولى الثلاثة (ΔΙΙ. ΑΡΑ.)

واسم مونيموس نفسهِ اسم إله كان يتعبَّد لهُ خصوصاً اهل الرها يشركونهُ بمعبود آخر يدعى عزيزًا (Ἄζιζος) . الا ان عبادة ذاك الاله لم تكن محصورة في الرها ترى ذكره في الكتابات المكتشفة في حوران . وقد وجدنا اسمهُ مدوَّنًا في عدَّة آثار وقفنا عليها في حمص ثمَّ عُنينا بنشرها . وما اسم مونيموس على رأينا سوى تصحيف لاسم آرامي يوافقهُ في العربية « منعم » من الاسماء الحسنى عندهم كما يستدل على ذلك بتقديم العبد فيقولون « عبد المنعم » وهو اسم بعض المقدمين في بشرَّاي في القرن الخامس عشر (١ . ومما يؤيد رأينا بل يزيل عنهُ كل شبهة ان العلَّامة رينه دوسّو (R. Dussaud) وجد اسم « منعم » (מנעם) بين اعلام كتابات الصفا (٢ وكانوا يريدون بهِ الاله الكريم الوهَّاب . وبمثل هذه الصفات وصفهُ الكتبة اليونان والرومان عند ذكرهم هذا الاله ورفيقهُ عزيزًا

اما مدرسة مار يوحنا مارون فلا تبعد عن كفرحي اكثر من ربع الساعة مقامها شرقي القرية . والتقليد المحلّي مُجمع على ان هــذه المدرسة بُنيت في مكان الدير الذي بناهُ القديس المذكور في نهــاية القرن السابع . قيل ان هذا البطريرك زيَّن كنيسة ديرهِ بذخيرة ثمينة وهي هامة القديس مارون الناسك الشهير ابي الطائفــة المارونية وان الدير دُعي مدَّةً من جرّاء ذلك دير رأس مارون (ܪܫܐ ܕܡܪܘܢ) . وبقيت الذخيرة هذه في مكانها الى سنة ١١٣٠ فنقلها احد الرهبان البنديكتيين الى مدينة فوليني من اعمال ايطالية

ولا يخفى على من لهُ المام بتاريخ الطائفة المــارونية كم هي نادرة التفاصيل الراهنة عن اصل هذه الامة الجليلة واحوالها في الاعصار الاولى بعد ظهورها . وغاية ما نعرفهُ من هذا القبيل قــد بلغنا بالاحاديث الشفاهية التي لم تدوَّن الَّا منذ عهد قريب فلا بدَّ اذًا من شواهد كتابية قديمة لتؤيد هذه الاخبار المنقولة (٣ . على اننا لا

١) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدويهي (ص ١٤١) وروايتنا المعنونــة « حبيس بحيرة قدس »

٢) راجع كتابهُ Voyage archéolog. au Safa, N° 78,83,412

٣) فليراجع الكتاب الذي نشره حديثًا سيادة المطران يوسف دريان المعنون « لبـاب البراهين الجليَّة عن حقيقة امر الطائفة المارونيَّة

نيأس من اكتشاف مثل هذه الآثار الصادقة في زمن توفرت فيهِ الوسائل وانفتحت الخزانات الادبية وظهر للعيان ما لم يكن قبلًا في الحسبان · واملنا اوطد في اهل هذه البلاد فانهم اذا بحثوا لدى الخاصَّة وفي الاديرة القديمة وفي خزائن الدار البطريركية او الكراسي الاسقفية القديمــة لا نشك ان مساعيهم تتكلّل بالنجاح فيجدون في الزوايا خبايا (١

واذا عدنا الى تاريخ دير مار يوحنا مارون لا نجد لذكرهِ اثرًا قديمًا · وانما يروي الرواة ان منشئهُ عاش ودُفن فيــهِ وقد عُني مرارًا اصحاب الهمَّة بالحفر فيهِ لعلهم يقفون على قبرهِ · لكنَّ هذه الابحاث لم تأتِ حتى الان بثمرة مع مــا وُجد هناك من المدافن

وفي سلسلة بطاركة الطائفة المارونية (المشرق ١ : ٢٥١) ان خلفاء مار يوحنــا مارون سكنوا هذا الدير وفيهِ قُــبر كثيرون منهم · ولهذا المقام ذكر في تاريخ الصليبيين (٢ يدعونهُ مار مارون كفرحي (S. Maron de Caphrai)

ثم نُقل الكرسي البطريركي الى دير سيدة يانوح وبقي فيهِ الى عهــد البطريرك دانيال الشاماتي فأُعيد الى كفرحي · ثمَّ جرى بعدئذٍ على هذا الدير ما جرى من حروب ونكبات وبلايا كادت تذهب بآثاره

قال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٤ (ص ٢٠٧) : «وبسبب كثرة الحكَّام والاغراض كثر الظلم وكلفوا الرعايا بدل المال مالَين وقبضوا على الروساء في القرى · · · وكان القس يوحنا الاجبعيّ مترئسًا على دير القديس مارون في قرية كفرحي فوشى بهِ اهل بقسميَّة الى ابن سيفا حتى قبض عليهِ واهانهُ وسامهُ ما هو فوق طاقتهِ فترك الدير من ثمَّ وارتحل ومن ذلك الوقت خرب الدير وخربت بقسميَّة التي كانت لطائفــة الملكية »

وبقي ذلك الدير خرابًا صفصفًا الى ان جدَّد البطرك يوسف اسطفان بناء ما كان متهدمًا فيهِ في اواخر الجيل الثامن عشر واسكن فيهِ بعض رهبان · وكان ذلك بعــد

---

١) وممــا نُشر مؤخرًا في هذا الصدد كتاب الخوري نو الافرنسي (Opuscules maronites) وكذلك مرَّ في المشرق (٣: ٢٦٥ , ٣٦٥ , ٤٥١) بعض مقالات في هذا الصدد

٢) راجع Rey : *Colonies franques*. p. 359

رجوع البطرك المذكور من الكرمل وعند زيارتهِ الرعيَّة فلمَّا مرَّ على الدير المذكور لم يجد سوى آثار دارسة واطلال طامسة فحرَّكتهُ الغيرة الدينيَّة على ارجاعهِ الى رونقهِ القديم فوجَّه اليهِ القس يوسف الحدَّاد والقس الياس من ريفون ليعتنيا بتجديده

وفي اثَّان زيارة المطران جرمانوس ثابت لابرشيتهِ جُبيل والبترون رأى افتقار زعيتهِ الى المدارس فارتأى تحويل الدير المذكور الى مدرسة يتعلَّم فيها من كل مقاطعة في لبنان ولدانٍ . فصادق البطريرك يوحنا الحلو على هذا المشروع في سنة ١٨١١ وعضده القاصد الرسولي السيد لويس غندُلفي

وفي سنة ١٨١٨ اجمع البطريرك والاساقفة على ان يجعلوا مقام مطران جبيل والبترون في مدرسة مار يوحنا مارون . او الاحرى ان يقال ان ابرشية جبيل والبترون صارت ابرشية البطريرك الخاصة فيجعل لهُ فيها نائباً احد الاساقفة الذي مركزه في مدرسة مار يوحنا مارون . وممَّن زادوا هذه المدرسة رونقاً ووسَّعوا نطاق تعليمها الطيب الذكر المطران يوسف فريفر الذي ترأس عليها مدَّة وافرغ كل مجهوده في نجاحها فصارت في طبقة المدارس الثانوية التي يفتخر بها الوطن منذ نصف قرن . وقد عزَّز المرحوم المنسنيور بطرس ارسانيوس رئيسها السابق دروسها بعد وفاة السيد يوسف فريفر فبلغت في هذه الايام اوج عزّها فحفلت بالتلامذة وازدهت بالعلوم . ومما سرَّنا انَّ طلبتها لا يدرسون فقط اللغة العربيَّة واللغات الاجنبية بل يتقنون ايضاً اللغة السريانية فيكتبونها ويتكلَّمون بها (١ . ولولا خوفنا من ان نخرج عن الحدود التي تحرَّيناها في مقالتنا لانبسطنا في وصف هذه المدرسة ومحاسنها لا زالت راقيةً في معارج التقدّم والفلاح

٢٧ جبَّة بشرَّاي

بلغ بنا تتبُّعنا لآثار لبنان الى مشارف هذا الجبل وها نحن ذا في معاملتي اهدن

١) ونغتنم هذه الفرصة لتقديم فروض الشكر لرؤساء مدرسة مار يوحنا واساتذتها الافاضل لما لقينا عندهم من الحفاوة والاكرام كلَّما حللناه في رحلتنا الى بلاد البترون . كما اننا نشكر حضرة الخوري بولس طعمه لطفهُ لما افادنا بهِ من المعلومات عن كفرحي ومدرستها وقرى بلاد البترون . وبعض الفوائد التي دوَّنَّاها في مقالتنا قد استفدناها من فضلهِ

وبشرّاي . على انّ هذه الجهات دون السواحل الفينيقية من حيث مآثرها القديمة وانما هي معتبرة لسبب آخر « لكونها اصبحت مهدًا للطائفة المارونية » (قال ذلك رينان) فنمت هذه الامة الكريمة في ارجائها واتسعت منذ نحو ١٢٠٠ سنة

اما اذا ضربتَ صفحًا عن نشأة الموارنة في تلك الاصقاع فلا تكاد تعثر على امر ذي بال يستدعي التفات العلماء اليها . وكانت بلاد بشرّاي في سالف الزمان قليلة الاهلين تمتدُّ في معاطف جبالها غابات الارز الباسقة. ومن المحتمل ان تكون ظهرت فيها بعض القرى ومن جملتها بشرّاي . لكن الامر محمول على الحدْس فقط . ولا احد من العلماء حتى الان وجد فيها اثرًا يرتقي الى عهد اليونان او الرومان

اما اسمها بشرّاي ويكتبهُ البعض بشرَّة وبشرّي فقد اختُلف في معناه . قيل (١ ان اصلهُ بيت الشرى يراد بهِ بيت عشتروت . فان صحّ هذا الاشتقاق دلّ اسمها على قرية عريقة في القدم عبد فيها اللبنانيون إلهة السماء الفينيقية كاهل جبيل

والمرجَّح ان مؤرخي الصليبيين ارادوا هذه البلدة في تآليفهم لما ذكروا قريةً يدعونها Buissera و Bussera وهي من القرى التي كانت لاحقة باملاك صاحب طرابلس واليها تُنسب احدى الأُسر الفرنجيَّة الشريفة كما روى « راي » في كتاب مستعمرات الفرنج (٢ . اما تاريخ الامة المارونية فانهُ يجعل في بشراي وجوارها الحوادث التي جرت في اوَّل ظهور الطائفة غير انَّ هذا التاريخ لم يدوَّن قبل ابن القلاعي في اواخر القرن الخامس عشر

ومما ذكره صاحب اخبار الاعيان (ص ٢٠) انَّ مولد القديس صفرونيوس بطريرك اورشليم في القرن السابع كان في بشرَّة وقد كان سألنا احد السائلين في المشرق (٤ : ٣٠٨) هل صحيح ان هذا القديس وُلد في « بسري » كما يزعم اهل التقليد . ولا نعلم اي التقليدين هو الصواب أبشرَّة كما قال الشيخ طنوس الشدياق او بسري كما زعم السائل وعلى كل حال فقد بيَّنا هناك ان القديس صفرونيوس وُلد في دمشق لا في لبنان واستندنا في قولنا الى شواهد لا تُنقض

ولنا في تاريخ اهدن ما يزيد ثقتنا بقدم عهدها . على اننا لا نسلّم بالتقليد الذي

١) راجع كتاب فلسطين لإبرس وغوتي Ebers und Guthe: *Palæstina* II.448

٢) راجع Rey: *Colonies franques* p., 363 . وراجع ايضًا ZDPV,X, 211, 204

يجعل الفردوس الارضي في اهدن (١ · ومن روى ذلك يزعم ان اهدن هي جنّة عدن وان اسمها مشابه للعبرانية עדן · وهذا قول لا سند لهُ وكذلك قد وهم الذين ظنوا ان اهدن هي المدينة التي ذكرها بعض القدماء. ودعاها Παράδεισος او Τριπαράδεισος لانَّ موقع هـذه المدينة في جنوبي حمص على مسافة ست ساعات من حمص ونصف الساعة من ربلة وكانت قرب العاصي في مكان قرية جوسيَّة الجديدة كما اثبت الامر السائح العلامة موسيو دوسو (راجع المشرق ٣ : ٣٤ , ٣٥)

وقولنا هذا لا يبخس شيئاً من حقوق اهدن ونحن اول من يقرّ بحسن موقع القرية وطيب هوائها وجمال مناظرها الفتّانة اما الادلّة على قدمها فكتابات ثلاث وجدت فيها اثنتان منها باليونانية والثالثة بالسريانيَّة · فالكتابة اليونانية الاولى قد طمسها الدهر ولم يُبقِ منها الّا سطرين في آخرها وهناك تاريخ تسطيرها وهي السنة ٥٨٤ للاسكندر توافق السنة ٢٧٢ م · والكتابة اليونانية الثانية مرقومة على قبر مجاور لكنيسة القديس ماما · وهي مطموسة لا يسمح سوء حالها من تفسيرها وليس لها تاريخ ظاهر وفي رأسها صليب صغير يعلوها ولكن هذا لا يكفي لان ننسب الكتابة للنصارى لانهُ امكن المسيحيين ان يحفروا هذا الصليب بعد ذلك بقرون عديدة · وقد اخذنا رسم هاتين الكتابتين عن الحجر ولكن لم يمكنّا ان نصلح في شيء مما اثبتهُ رينان في كتاب بعثة فينيقية · وهو ايضاً ذكر الكتابة الثالثة المكتوبة بالسريانية بالحرف الاسطرنجلي وهذا تعريب ما بقي منها : « بسم الله الذي يُحيي الموتى في سنة ١ — للاسكندر · · · رقد ومات مرقس · · · »

وفي اهدن كنائس قديمة ذكرنا في مقالة سابقة ما لها من الخواصّ الهندسيَّة فلتُراجع

وترى على مقربة من اهدن عدَّة قرى كالحدث وحصرون وغيرهما من الضياع التي لا نجد فيها شيئاً من الآثار الناطقة عن قدمها · الا انها مذكورة في اخبار الطائفة المارونيَّة كما نقلها الينا التقليد فيكون ابناء مارون اوَّل من خوَّل هذه الاماكن ذكراً تاريخيًّا ولعلهم هم الذين انشأوها فسكنوها والله اعلم

١) ذكر هذا التقليد العلّامة الدويهي في تاريخهِ الطائفة المارونية (ص ١١٦)

٢٨ أرز لبنان

لا يسعنا في وصف آثار لبنان ان نضرب صفحاً عن شجر اختصَّ به هذا الجبل دون غيره نريد شجر الارز الذي نُسب الى لبنان نسبةً غير منفصمة · لكننا لا نبسط الكلام فيهِ الَّا لنورد ما يفيدنا عنهُ علماً تاريخيًّا وأثريًّا وندع لارباب الطبيعة ما هو أحقُّ بوصفهم

غنيٌّ عن البيان انَّ الارز المذكور في الاسفار المقدَّسة هو هو ارزُ لبنان كما تشهد تسميتهُ العبرانية والعربية التي لم تختلف منذ القدم حتى الان · وكذلك يوافق ارزنا الذي نعرفهُ ما جاء فيه من الاوصاف في الكُتُب المنزلة مثل بُسوقهِ (اشعيا ٢ : ١٣ حزقيال ٣١ : ٣ و ٨ عاموس ٢ : ٩) وامتداد اغصانهِ الفَنْواء الوارفة الظلّ (حز ١٧ : ٢٣) ورائحتهِ الراتينجيَّة التي تعطّر الارجاء (نشيد ٤ : ١١ هوشع ١٤ : ٧) وحسنهِ الذي يجعلهُ فخرًا للبنان (اشعيا ٣٥ : ٢ و ٦٠ : ١٣) ووفرته في هذا الجبل (مز ٩٢ : ١٣ و ١٠٤ : ١٦ اشعيا ١٤ : ٨) قال حزقيال (٣١ : ٣ — ١) ملخصاً كل هذه خواصّ الارز وهو يشبّه بهِ ملك اشور : « هوذا اشور ارزة بلبنان بهيجة الافنان غبياء الظلّ شامخة القوام وقد كانت ناصيتُها بارزةً بين اغصان ملتفَّة · المياه عظَّمتْها والغمر رفعها · انهارها جرت من حول مغرسها ومجاريها ارسلتها الى جميع اشجار الصحراء فلذلك عند نشأتها ارتفع قوامها فوق جميع اشجار الصحراء وامتدَّت فروعها من كثرة المياه · في اغصانها عشَّشت جميع طيور السماء وتحت فروعها ولدت جميع وحوش الصحراء · وفي ظلها سكنت جميع الامم الكثيرة وصارت بهيجةً في عظمتها وفي طول عَذباتها لانَّ اصلها على كان مياهٍ غزيرة · · · فكلُّ شجرٍ في جنَّة الله يماثلها في بهجتهِ فاني صنعتُها بهيجةً بكثرة عذَباتها فغارت منها جميع اشجار عدن في جنَّة الله » فللهِ من وصفٍ يطابق الواقع لاسيما في عهد النبيّ اذ كانت كل قمم لبنان مكلَّلة بغابات الارز · وفي قول حزقيال احسن تفنيد لاراء احد المحدثين من الفرنج واسمهُ اوجين دي لاسال (١ الذي زعم انَّ الارز غُرس في لبنان على عهد السلطان صلاح الدين يوسف الايوبي

---

١) راجع كتابهُ Pérégrinations ou Voyages. *Paris*, 1840. I, 132

هذا والأرز خشب صلب صقيل اصفر فاقع ذو خطوط حمراء عَطِر الرائحة لا يفعل فيهِ الزمان ولا تقربهُ الأَرَضة والسوس ولذلك اعتبرهُ قدماء البنّائين (راجع سفر الملوك الثاني ٧:٧ و ١ اخبار ١٧ : ٦ واش ٩:١٠ وارميا ٢٢ : ١٤) واستعمالهُ منذ عهد عهيد في الابنية كان اعظم الاسباب التي أدّت الى ملاشاته

وقد ذكر الطبيعي بلينيوس (١ ارز سوريّة كخشب لا يصيبه الفساد وروى انّ سقف هيكل ديانة في افسس الذي التهمتهُ النيران بعد تشييده بنحو ٤٠٠ سنة كان من هذا الخشب . وكذلك كان قدماء الشعراء يشبهون الاعمال المخلّدة بالارز (٢ . ومما يشهد لهذا الشجر بالبقاء انّ لاَيردْ (Layard) وجد بين عاديات اشور تريهبال في نمرود اخشاباً من الارز صبرت على آفات الدهر نيفاً و٢٧٠٠ سنة فاخذها واعاد صقلها فكانت كأنها قُطعت حديثاً . وفي المتحف البريطاني قطع من هذه الاخشاب القديمة حسنة المنظر صفراء اللون بارزة العروق . وقد أُلقي شيء منها في النار ففاح عرفها الذي اطرأهُ القدماء (٣

اما استعمال الارز في البناء فكان متنوعاً يتخذهُ المهندسون لعتبات الابواب وعوارضها وسقوف البيوت (راجع سفر النشيد ١ : ١٤ و ٨ : ٩ وارميا ٢٢ : ١٤ وصفنيا ٢ : ١٤) بل ربما التجأوا الى الارز لتصفيح جدران القصور والهياكل بالواحه . وكذا فعل سليمان في هيكل اورشليم قال في سفر الملوك الثالث (٦ : ١٥ — ١٧) انهُ « بنى على جدران البيت من داخلٍ الواحَ أرز . . من ارض البيت الى جوائز السقف » وقد احبّ القدماء ان يصفّحوا الجدران بهذه الالواح لانّ حجارة فلسطين وسورية هي في الغالب كلسيّة نخرة لا تروق العين كالرخام والصوّان والحجر المانع فلتلافي هذا الخلل كانوا يصفّحون الجدران بصفائح من ذهب او فضة او خشب ثمين وكانوا يفضّلون الارز لبقائه . وكان داود قبل ابنه سليمان طلب من حيرام ملك صور ان يُرسل لهُ كميّة من اخشاب الارز ليبتني بها بلاطةً في اورشليم . فلمّا صار الامر الى

١) راجع تاريخهُ الطبيعي (ك ١٣ : ١١ و ١٦ و ٧٦ و ٧٩)

٢) راجع Perse, *Satires* I, 41 و Horace, *Epist. ad Pisones*, 32

٣) راجع الشاعر فرجيل Eneid. VII, 13 والتاريخ الطبيعي لبلينيوس ك ١٣ ف ١ وتآليف لايَرْد Niniveh and Babylon, 367

ابنهِ فاراد ان يشيّد للرب هيكلاً يُعــدّ من عجائب المعمور فضّل الارز على سواه لتتميم هذا المشروع الخطير

وكذلك صفّحوا داخل الهيكل الثاني في اورشليم بخشب الارز (١ وهكذا ايضاً جعلوا سقف الهيكل الذي جدده هيرودس (٢

امّا الابنية الاولى المسيحية التي شيدتها الملكة هيلانة مثل قبة القبر المقدس وسقف كنيسة بيت لحم فقد اتخذوا لها ايضاً خشب الارز الى ان جددها الصليبيون . هذا فضلاً عن انهم كانوا يستعملون خشب الارز فينحتونها كما قال تماثيل واصناماً اشعيا (٤٠ : ١٤) وقد قال مثلهُ ايضاً كل من پوساناياس و پلينيوس (٣

ثم ان خشب الارز كان معتبراً ومستعملاً في خارج سورية وفلسطين لان سنحاريب ملك اشور يفتخر بانهُ صعد جبال لبنان وقطع منهـا شجر الارز (٤ وفي الكتابات المسمارّية ايضاً يفتخر ملوك بابل واشور بمثل هذه المأثرة لانهم كانوا في الغالب يتقاضون جزيةً من خشب الارز . وكثيراً ما يردُ في النصّ الاشوري ذكر الارز موصوفاً بطيب العرف ومقولاً عنهُ ان ملوك نينوى وبابل كانوا يتخذونهُ جسوراً او روافد في هياكلهم وقصورهم (٥ وكانوا يكثرون جداً من استعمال الارز حتى ان النبي اشعيا (١٤ : ٨) في معرض كلامـهِ على سقوط بابل يصوّر الارز فرحاً محبوراً بخرابها . وكذلك كانت قصور ملوك فارس في عاصمتهم من خشب الارز (٦

وقد عرف المصريون الارز وخواصهُ العجيبة وكان الفينيقيون ينقلونهُ الى سواحلهم بحرًا (٧ فاتّخذه الفراعنة لابنيتهم الفخيمة كالقصور الملكيّة والهياكل الدينيّة وقد اقتدى بمثلهم الملوك السلوقيون في سورية وقد اصطنعوا منـهُ ايضاً اثاث بيوتهم لعدم فساده . وذاك مـا حدا الى ان يحثوا من نشارتهِ على موتاهم في تحنيطهم ويطلوا

١) عزرا (٣ : ٧)

٢) يوسيفوس في حرب اليهودية (٥ : ٥ و ٢)

٣) التاريخ الطبيعي (١٣ : ١١)

٤) ملوك رابع (١٩ : ٢٣) واشعيا (٣٨ : ٢١)

٥) Schrader مجموع كتابات اشورية وبابلية (ك ١ ص ٦٨ و ١٠٨ و ١٤٠) الخ

٦) راجع المؤرخ اللاتيني كورتيوس روفوس (٥ , ٢٢)

٧) راجع تاريخ الصناعة في القدم لپيرو (Perrot) الجزء الاول (ص ٥٦٧)

براتينجهِ خارج التوابيت كما يشاهَد ذلك في مدافن المصريين

*

فيؤخذ من كل ما سبق ان تجارة الارز اللبناني كانت متسعة النطاق . على اننا لم نذكر الّا قسماً صغيراً من الابنية التي كانت تجهَّز بهذا الخشب . فانّ الادوات الحربيَّة والمجانيق كانت في الغالب تُصطنع من الارز . ولا شكّ ان السدّ الذي اقامهُ الاسكندر بين الشاطئ والجزيرة المبنيَّة عليها مدينة صور دخل فيهِ شيءٌ كثير من خشب الارز

وقد روى المؤرخ ديودورس (ك ١٩ ف ٥٨) ان انطيغون الملك حاول حصار المدينة المذكورة في سنة ٣١٥ ق م . فاراد ان يجهِّز لهُ اسطولاً قويّاً فأتى بثمانية آلاف عامل عهد اليهم ان يقطعوا من ارز لبنان ما كان كافياً لتجهيز ٥٠٠ سفينة حربيَّة . فنُقل الخشب المقطوع على ظهر الف دابَّة الى مصانع صيداء وجبيل وطرابلس حيث أُنجز العمل . قال الراوي : « وكان الخشب المذكور من الارز المرتفع القوام الباهر العظمة » فترى من هذا المثل الوحيد كم عاثت الحروب بارز لبنان . ولكن كم عبث بهِ من الحطَّابين غير الثمانية آلاف الذين ذكرناهم . ولو اردنا لأوردنا امثلةً عديدة تؤيد قولنا . ويؤخذ من رواية ديودورس ان كل قمم لبنان كانت تزدهي باشجار الارز من الشمال الى الجنوب يستدلّ على ذلك من ذكر المدن الساحليَّة التي نقل اليها الارز لعمارة اسطول انطيغون . واذا استغرب القارئ وجود الارز جنوبيّ لبنان فليذكر خبر حيرام ملك صور المشار اليهِ سابقاً

ومما يؤسف لهُ ان الحكومة المحليَّة لم تسنّ السنن لقطع هذه الغابات بنظام . وعلى رأينا ان الرومان اول من فكَّر في هذا الامر الخطير كما يظهر ذلك من كتابات لأدريان الامبراطور اوردناها مراراً مفادها ان الحكومة لا تسمح بقطع اربعة اصناف من الاشجار [١] من جملتها الارز . ومع ما دهم الارز من العيث والفساد نرى المؤرخين الرومانيين يذكرون غاباتهِ الكثيفة من جملتهم تاقيتس المؤرخ (ك ٥ ف ٦) . وروى اوسابيوس القيصري (ك ١٠) انّ سقوف البيع كانت تتخذ عادةً من خشب

١) قد وردت هذه الكتابة في المشرق (١ : ٧٣٩) على خلاف هذه الرواية . والصواب ما ندونه هنا

الارز في القرن الرابع

على ان السنّن الرومانية لم تحفظ للبنان فخر غاباتهِ الّا زمناً قليلاً فانَّ پروكوب المؤرخ (١ يخبر عن يوستنيان الملك انهُ بحث البحث الطويل قبل ان يجد الارز الضروري لتشييد كنيسة مريم الملكيَّة في اورشليم . وبعد التنقيب والتفتيش عثر البنّاؤون على ما كانوا يطلبون اي سواري باسقة الطول كافية لعوارض سقف البيعة

واذا تتبَّعنا تاريخ الارز من ذاك الحين وجدنا يد التلف تسطو على غاباته حتى لم تكد تترك منها غير اثر بعد عين . فقد ذكر تاوفان المؤرخ في تاريخ سنة ٦١٤٠ للعالم ان معاوية اول خلفاء بني امية ابتنى ١٧٠٠ سفينة شراعية واتُّخذ موادّها من جبل لبنان . ولم تمضِ سنوات قليلة بعد ذلك حتى جهز ايضاً اسطولاً ثانياً اكثر عدداً واشد هولاً من الاول وقد حذا حذوه غير واحد من الخلفاء في مسألة الانشاءات البحرية وكانوا يجعلون اخصّ دور الصناعة وهي التي تسمَّى اليوم بمحلّات الورشات او الترسانات في مدينة طرابلس نظراً لقربها من غابات الارز . ومما عاون ايضاً على تلف الارز وكان من حملة اسباب قطعه صناعة استخراج الحديد ومعالجته التي كانت اثناء القرون المتوسطة شائعة في كثير من نواحي لبنان كما يؤخذ من تاريخ ابن بطوطة والادريسي والقلقشندي . ثم ان الجهات التي أُقيمت فيها مسابك الحديد وكانت في مبادئ القرن التاسع عشر زاهيةً بالغابات والاحراج الملتفَّة أَصبحت ولا نرى فيها اليوم نبتةً خضراء . فبهذه الطريقة والحالة هذه نستطيع ان نعلّل سرعة فناء الغابات في جبل لبنان

اما الان فلم يزل شجر الارز موجوداً في اربعة اماكن من لبنان لانك تجد منهُ اولاً في شمالي لبنان بين قريتي الحدث ونيحا غابة يبلغ طولها نحواً من ساعة ونصف . نعم ان اكثر اشجارها فتيَّة وليس في كل اماكن الغاب ملتفة ولكن اذا اتخذ ما يلزم من الاحتياطات لصيانتها لا تلبث ان تصير بتمادي الايام حرجاً من الطف الاحراج وآنقها

وثانياً في اعالي قرية سير ببلاد الضنيَّة في اعالي وادي النجاص فهناك كثير من

---

١) راجع كتابهُ .De Ædif., Justiniani (ك ٥ ف ٦)

شجر الارز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن مساواة البحر . وتجد الارز ايضاً بين سير ونبع السكّر ثم في الغابة الواقعة خلف وادي جهنّم (١ والقوم في تلك الناحية يسمّونهُ تنوب (٢

ثالثاً في لبنان لفيف ثالث من شجر الارز لا يعرفهُ الّا القليلون نابت في الجبال المشرفة على قرية الباروك وعلى مسافة ساعة ونصف من الجنوب الشرقي وهو هناك بهيئة غابة غبياء تمتدّ على مسافة ساعةٍ طولًا غير ان شجر الارز في المحل المذكور يوجد ألفافًا ينفصل بعضها عن بعض في الغالب بمسافات خالية او مشغولة باشجار أخرى من جملتها السنديان وهو من نوع السنديان الذي ينبت في شمالي اوربة واهل البلاد يسمّونهُ اللكّ ويسمون الارز الأبهُل . وارز الباروك بوجه الاجمال فتيّ ولكن قد تُصادف فيهِ بعض اشجار عتيقة غير انها اقلّ سموقاً وارتفاعاً من الارز الموجود بناحية بشراي لان ثقل الثلوج في مثل هذه النواحي العالية كثيرًا ما يكسر قمم الشجر كما ان شدّة الريح تحنيها حتى تجعلها منبسطة كالمظلّة على هوى الريح . فضلًا عن ان الجذوع تتفرّع عادةً الى فروع قصير عظيمة وكبيرة . امّا متى كانت الشجر مجتمعةً لفًّا واحدًا فترى جذوعها سامقةً مستطيلة وخاليةً من الفروع غير انها تكون اقل ثخانة نظرًا لشدّة قربها بعضها من بعض . على ان ارز الباروك بما فيهِ من الشجر الكبير والصغير والفتيّ النابت على اصول القديم يمثل للعين غابةً حقيقية اكثر من ارز بشرّاي

ولكن حياة هذه الغابة الجميلة نراها لسوء الحظ مهدّدةً كل ساعة بالفناء والدمار لانها لما كانت ملكًا لقرية الباروك كانت بلديتها تأذن بالقطع منها لقاء بعض دريهمات تنتفع بها فمن ثمَّ نستلفت الى هذا الامر انظار الحكومة اللبنانية

اما اشهر لفيف من شجر الارز فغابة بالقرب من قصبة بشرّاي وموقعها على علوّ ١٩٢٥ مترًا فوق مساواة البحر في سفح الجبل المعروف بظهر القضيب . والتربة النابت فيها الشجر المذكور كلسيَّة ولكن الورق الذي يتساقط منهُ ادى شيئًا فشيئًا الى

١) وقد ذكر ارز الضنية الرحالة سيتزن (١ ص ١٧٩)

٢) راجع المجلّة الفلسطينية الانكليزية سنة ١٨٩٣ (ص ٢٣٠)

تكوين قشرة من التراب الاسود . وفي قلب هذه الغابة كنيسة صغيرة للموارنة يقيمون فيها الاحتفالات كل سنة يوم عيد التجلي

واعظم شجر الارز نابت في جوار الكنيسة المذكورة ومنهُ ارزة يبلغ محيط جذعها اربعة عشر مترًا و٥٦ سنتيمترًا ثم ارزة أُخرى تقاربها في هذه الضخامة . والارزتان المذكورتان هما اقدم شجر الغاب وقدَّر بعضهم ان عمرها لا يقلّ عن ثلاثة آلاف سنة (١ . قال بذلك الجيولوجي الشهير الدكتور فراس الذي بنى حسابه على العقد المختلفة الموجودة في الشجرتين

واكبر ارتفاع تبلغهُ هذه الشجر لا يتجاوز ٢٥ مترًا وفي جملتها شجرات يتراوح ارتفاعها بين اربعة عشر واثنين وعشرين مترًا والباقي يقلّ ارتفاعهُ عن اربعة عشر مترًا

واما جملة شجر الغابة فهو نحو ٣٩٧ شجرة يدخل فيها الشجر الصغير الذي لا يتجاوز ارتفاعهُ سبعة امتار وهو مما وقّف الشجر الكبير في سبيل نموه مانعًا عنهُ الهواء اللازم لذلك . وفي الغابة ايضاً شجرات اشتدّ قربها الى بعضها كثيرًا حتى تلازَّت جذوعها واصبحت كأنها جذع واحد

ومن يقابل بين اخبار السيَّاح والجوَّالة الذين زاروا هذه الغابة يَرَ ان ارز بشراي قد زاد عددًا في ايامنا . لان الارز المذكور كان في القرنين السادس عشر والسابع عشر قد تناقص بل اوشك ان يتلف لولا عناية بطاركة الموارنة الذين تهدَّدوا بالحرم كل من مدّ اليهِ يدًا عادية

واول من تكلّم عنهُ هو بيلون (٢ الافرنسي وعدَّ منهُ ثمانية وعشرين ارزة قديمة . ثم السائح الالماني فوريرفون هايمندروف (٣ سنة ١٥٦٦ وعدَّ منهُ خمساً وعشرين ارزةً . ثم العشَّاب راولف (٤ الذي زاره سنة ١٥٧٥ ولم يعدَّ منهُ غير اربع وعشرين

---

١) راجع المجلة الفلسطينية الالمانية (ZDPV) مجلد ١٠ ص ٩١ وكتاب ايبرس وغوته (مجلد ٢ ص ١٤) المعنون Palestina im Wort und Bild

٢) Belon

٣) Fürer von Haimendorf

٤) Rauwolf

ارزة · ومن بعد هذا التاريخ كثر الذين اخبروا عن الارز من جملتهم الاب ايرونيموس دنديني اليسوعي قاصد الكرسي الرسولي الى الموارنة فانهُ زارهُ سنة ١٥٩٩ وعدَّ منهُ ثلاثًا وعشرين ارزة · ومنهم دارفيو (١ الذي زارهُ ١٦٦٠ ومنهم روجه وغيرهُ ولم يجدوا اذ ذاك غير اثنتين وعشرين شجرة · ومن بعد هؤلاء زارهُ المؤرخ دي لاروك سنة ١٦٨٩ فوجد فيهِ عشرين شجرة والانكليزي موندريل سنة ١٦٩٦ ثم بوكوك وعدَّ الاول ستَّ عشرة والثاني خمس عشرة فقط · غير ان الشجرات الفتية قويت لحسن البخت في اثناء هذه المدَّة على ان تنمو تدريجًا وتعوّض عن الارزات القديمة

وفي تضاعيف القرن الثامن عشر تجدَّدت الغابة شيئًا بعد شيء وترتقي اعمار الشجرات الفتيَّة الى هذا التاريخ ومن ينظر الى ما فيها من العقد يُقدّر ان اعمارها لا تزيد على قرنين

وفي ٢١ تموز سنة ١٨٠٥ جعل سيتزن عددها ثلاثمائة ارزة بنوع التقدير اذ يظهر انهُ لم يعدَّها واحدةً فواحدةً · وفي سنة ١٨١٠ احصاها بورخارد ثلاثمائة ارزة صغيرة وخمسين متوسطة وخمس وعشرين ضخمة وجملة ذلك ٣٧٥ ارزةً · وقد ذكر هذا العدد نفسهُ تقريبًا الجيولوجي فراس الذي زار الغابة سنة ١٨٧٤ ممَّا يدلّ على ان عدد الارزات قد بقي في زماننا على حالهِ

ومع كل ذلك لا يمتنع تكثيرها وفرارًا من تكرار ما سبق لنا ايرادهُ في هذا الشأن نحيل القارئ على المشرق (١ : ٧٢٧ و ٣ : ٩٧٦) حيث أفضنا الكلام في الارز وأقمنا المقابلة بين لبنان وجبال الألب

وقد مرَّ القول انَّ الارز يوجد ألفافًا متفرّقة ما بين كبيرة وصغيرة في اماكن مختلفة من جبل لبنان · وهذا يثبت انهُ يقوى على النجاح والنموّ فيهِ · بقي ان نقول ان الارز يوجد ايضًا في تعنايل التابعة البقاع وذلك في ارض الاباء اليسوعيين الذين امتحنوا زراعتهُ عندهم فافلحوا · اما في خارج لبنان فيوجد الارز بكثرة في جبال قرمانية وجبال جزائر الغرب وكل هذا من شأنهِ ان ينشط مساعي الذين

---

١) D'Arvieux

يهتمّون بحفظ الاشجار الجميلة التي كانت زينة وحلية لهامة لبنان منذ الدهر القديم (١

٢٨ الكورة

الكورة من اخصب انحاء لبنان تجمع بين ارفاق السهل والجبل · ولا مراء انّ الناس سكنوها منذ القرون الغابرة · ولو بنينا الحكم على ما يوجد من التشابه بين اسم قريتها « اميون » وعلَم آخر « امّيا » ورد ذكرهُ في مكاتبات تلّ العمارنة (المشرق ٣ : ٧٨٩) لصحّ القول انها اقدم مقاطعة في داخل لبنان احتلّها السكّان · وفي الكورة آثار ترتقي الى عهد اليونان والرومان كما سترى

٢٩ دار بعشتار — بزيزا — ناوس

اذا ما قطعتَ نهر الجوز الفاصل بين مقاطعتي الكورة والبترون لقيتَ بادئاً دار بعشتار · وهي قرية فيها شيء من بقايا القرون الوسطى منها كنيسة ذات حنيَّة محكمة العمل تكتنفها اخربة قديمة من العهد نفسه · غير ان اسم دار بعشتار جدير بالاعتبار · وهو مركَّب من لفظتي بيت وعشتار · وعشتار هذه هي إلهة الفينيقيين الشهيرة · فيستدلُّ بذلك على انّ هذه القرية كانت سابقًا هيكلًا لعشتروت يعبدها فيهِ اهل لبنان

واذا يممتَ الشمال الشرقي بلغتَ بعد قليل قرية بزيزا ولعلّ اسمها منحوت من بيت عزيز · فالباء اختصار لفظة « بيت » شائعة كبحديدات وبحمدون وبزمّار · اما عزيز فاحد الالهة الساميين مرّ ذكره في المشرق (٤ : ٧٢٩) · وفي بزيزا هذه هيكل صغير قديم العهد حسن البناء لم يضعضعهُ حدثان الدهر · ولما تنصَّر الاهلون جعلوا الهيكل كنيسةً وأضافوا اليها حنايا آثارُها باديةٌ حتى اليوم · وهم يدعونها كنيسة العواميد او سيدة العواميد لما يزين واجهتها من الاعمدة · وليس هناك كتابةٌ تفيدنا عن امر هذا البناء القديم وغايتهِ

---

١) اما طريقة تكثيرها فراجع في شأنها ZDPV, X. 93

وقس على ذلك قرية ناوس التي موقعها شمالي شرقي بزيزا على مسافة اربعة كيلومترات منها · وهي فوق ربوة قريبة من عين عقريم الحالية · وما ناوس الّا تعريب اللفظة اليونانية ναός يراد بها الهيكل · واذا استثنيت بعلبك وآثارها الجبّاريّة لا تجد في كل لبنان ما يضاهي بقايا ناوس واطلالها اتساعًا وعظمةً · اما نقوشها فهي ايضًا دون نقوش بعلبك دقّةً واحكامًا وفيها مسحةٌ من الصناعة السوريّة · وهي من عهد الرومان كابنية بعلبكّ

وفي ناوس اخربة هيكلين كبيرين يلاصق احدهما الآخر يحدق بهما سوران رحبان وفي وسط كل منهما معبد قليل الاتساع تزينهُ اعمدة مُصمتة تراها على صورة هيكل حصن سليمان في جبل النصيريّة (١ واركان الابواب التي يُدخَل منها الى حرم الهيكل من الحجارة الضخمة وهي منقورة على شكل درج · وآثار هذا الدرج باقية حتى يومنا · ولا ريب انهُ كان في الزمن القديم لهذين الهيكلين منظر يأخذ بالابصار · وكان الناظر يكشف من هذه الاكمة المرتفعة نحو ٦٠٠ متر فوق سطح البحر على كل الساحل من البترون الى ما وراء طرابلس · وهو يرى سهول الكورة ومزارعها الجميلة ممتدةً امامهُ

واذا لحظتُ النقوش التي على الهيكل الشرقي وجدتها خشنةً غليظة · وليس هناك من الحجارة الضخمة سوى مساند الابواب والصفائح المثلّثة الزوايا التي تعلوها · اما بقية الحجارة فهي متوسطة الكبر كحجارة افقا وقلعة فقرا · وفوق باب المدخل صورة كرةٍ مجنّحة تزينهُ وقد ألف الفينيقيون مثل ذلك في هياكلهم (راجع وصفنا لقرية ادّه في الصفحة ٦٨)

اما الهيكل الآخر الذي موقعهُ جنوبيّ غربي الهيكل السابق ففيهِ بقايا حسنة من نقوش ابوابهِ · وقد وجدنا بين ردم الهيكل تمثالًا نصفيًا يمثّل البعل وعلى رأسهِ شعاع الّا انّ نقشهُ خشيب ونظنُّ انهُ سقط من الكوّة التي تعلو مدخل المعبد · ولهذا الهيكل سورٌ حجارتهُ جبّاريّة تشبه حجارة دير القلعة يبلغ طول بعضها ستة امتار

---

١) راجع مقالتنا الافرنسية المعنونة « في بلاد النصيرية » (Au Pays de Nosairis)

ونضرب صفحاً عن المدافن الجميلة والمقاطع المتسعة والنواويس المنقوشة التي تُرى حول قرية ناوس لئلا نعود الى ذكر آثار وصفناها مراراً . على ان هذه المدافن والمقاطع تدلُّ دليلاً بيّناً على ان تلك الانحاء كانت في الاجيال الخالية عامرةً حافلة بالسكان وان لم يُفدنا التاريخ من امرها شيئاً . وكذلك لم يكتشف احد حتى الآن بين هذه الاخربة كتابةً تفيدنا علماً عن اخبار السلَف

٣٠ اميون

قد سبق لنا القول عن اميون وقِدمها . اما الآثار الباقية فيها فقليلة لا يُعبأ بها . من ذلك صخر منحوت نُقرت فيه كوًى او مشاكٍ . ومنها كهفٌ يُرى اليوم تحت السراية الجديدة كان في ما سلف من الزمان مدفناً ثمَّ جُعل معبداً لذكر القديسة مارينا . وبقرب الكهف اخربة كنيسة عتيقة بقي منها حنيَّتها وكان معبد القديسة مارينا تابعاً للكنيسة معدوداً كاحد مصلّياتها

وقد تكرَّر ذكر اميون في تاريخ الموارنة القديم . وكانت اذ ذاك مركزاً مهماً للملكيين كما هي اليوم . وممن ذكروا اميون الشريفُ الادريسيّ في كتابه نزهة المشتاق امَّا الصليبيون فلم نجد اسمها في تآليفهم وهم يصفون مع ذلك غيرها من قرى الكورة (ويدعونها La Core) ومن املاكهم في هذه المقاطعة كفرقاهل (Caphrahael) وبتوراتيش (Boutourafig) وبطرومين (Bertrandimir) وبديبهون (Bethamum) وغير ذلك من الاسماء التي شوَّهها الفرنج باللفظ ويسهل اصلاحها

٣١ المُسَيْلحة

للبترون الى طرابلس طريقان الواحدة على ساحل البحر والاخرى جبليَّة فمن سار في طريق الجبل مجارياً لوادي نهر الجوز (وهي اليوم طريق العربات) وصل بعد مدَّة قليلة الى حصن يُدعى المُسيلحة وهو حرزٌ منيع موقعهُ فوق صخرة منتصبة على الوادي عمودياً . والوادي في هذا المكان ضيق حَرِج المنعطَف

اما تاريخ هذا البناء واخبارهُ فمجهولةٌ لم يرشدنا اليها احد من الكتبة . ولعلَّ

القدماء في الاجيال المنصرمة كانوا شيّدوا هذه القلعة فجعلوها كمرقب لحركات العدو في مضيق لم يكن لهم ندحةٌ من الاجتياز في وسطهِ ذهابًا الى طرابلس وايابًا منها الى البترون . وما لا شبهة فيهِ انّ ابنية المسيلحة الحالية لا تتجاوز القرون المتوسطة ولا يبعد انّ الصليبيين رمّموها بعد خرابها ان لم يسبقوا الى بنائها . وقد بحثنا في اوصاف البلدان لقدماء العرب وفي آثار الصليبيين فلم نجد لاسمها ذكرًا

وفي كتاب رحلة المسفار دي لا روك (١ الافرنسي (De la Roque) انّ الامير فخر الدين هو الذي بنى المسيلحة . وعلى ظنّنا انها اقدم منهُ عهدًا وانّما نُسبت اليهِ كما نُسبت غابة بيروت مع كونها قبلهُ بزمن مديد (راجع مقالتنا في المشرق عن اصل هذه الغابة ١ : ٩٣٩)

واذا خرجنا من المسيلحة وابتعدنا عن الطريق المؤدية الى طرابلس فملنا الى الشمال لقينـا شِعبًا يُفضي بن توقّاهُ الى سطح جبل فسيح يُعدّ كقسم من مديريّة القويطع وينتهي في شمالهِ الغربي برأس الشقعة (٢ بهِ دُعي الجبل جبل رأس الشقعة

٣٢ جبل رأس الشقعة

هذا الجبل قائم بنفسهِ منقطع عن بقية لبنان يستلفت اليهِ النظر من بعيد بهيئتهِ الغريبة ووعورة مرتقاهُ . وفي سطح الجبل عدّة قرى عامرة حتى يومنا هذا اكبرهـا حامات . وكان لهذه القرية كنيسة قديمة لعلّها كانت مزدانة بكتابات (٣ . غير انّ هذه الآثار درست لمّا بُنيت الكنيسة الجديدة

وهذا الجبل حافل بالاديرة كدير سيّدة النوريّة ودير مـار الياس ودير حنوش وغير ذلك من المرابط التي شُيّد اكثرها فوق ابنية قديمة وهذا ما يحدو بارباب العاديات

---

١) راجع كتاب رحلتهِ (ص ٢٠٧)

٢) هذا الاسم اصحّ من « راس الشكة » الذي استعملناه سابقًا في مقالتنا عن الزلازل في سورية (المشرق ١ : ٣٠٥)

٣) راجع بعثة فينيقية لرينان (ص ١٤٥) . ونحن ننتهز هـذه الفرصة لنكرّر عبارات الشكر لاهل حامات الذين تحفّوا بنا بعد ان تهنا في مشارف ذلك الجبل المقفرة ليس بعيدًا من حنّوش وبتنا عامّة ليلنا مهادُنا الارض وظلّنا السماء

الى ان يقدموا الى زيارة هذا الجبل الصَّرْد. ولو زارهُ الجيولوجيون والجغرافيون لوجدوا فيهِ ما يُجديهم علماً

فلنباشرنَّ بوصف القسم الشمالي من هذا الجبل اعني رأس الشقعة فنقول: انَّ هذا الرأس ينتصب كصخرة صمّاء ويدخل في غمر البحر مشرفاً على كل البلاد المجاورة وعلوُّهُ يبلغ ٣٠٠ متر. واذا نظر اليهِ المسافر القادم من جهة طرابلس رأى شكلهُ اشبه بدارعة هائلة قائمة فوق ثبج البحر لا تبدي حراكاً في رأسها مهمازٌ مرعب لمناواة عدوّها. وفي جوانب هذا الرأس اخاديد تشهد بما دهمهُ من الزلازل في كرور الاجيال فتضعضعت اركانهُ وتقطّعت اوصالهُ. نخصّ منها بالذكر الزلزلة التي حدثت في عهد يستنيان الملك ومرّ لنا وصفها في المشرق (١ : ٥٠٣). وهــذا الزلزال غيّر هيئة رأس الشقعة بل ألحق اهوالهُ بالجبل المجاور لهذا الرأس فشوّه صورتهُ

وكان القدماء (١ يطلقون على هذا الرأس اسماً غريباً في معناهُ فيدعونهُ وجه الله (Θεουπρόσωπον). امَّا النصارى اليونان فابدلوا اسمهُ باسم وجه الحجر (Λιθοπρό-σωπον) وهو اسم قرية مجاورة لهُ موقعها فوق سطح الجبل جنوباً. وممّا يفيدنا التاريخ ان الإلهة تانيث معبودة الفينيقيين كانت تدعى باسم « وجه بعل » أفلا يسوغ لنا ان نستنتج من هذه الدلائل ومن المقابلة بين هذه الاسماء ان الفينيقيين كانوا اختصّوا هذا الجبل بعبادتهم لا سيما ان صورتهُ الغريبة تستلفت الانظار. وهذا الظن يتأيد بمثل جبال اخرى في ساحل بحر الشام كان القدماء يعظّمونها تعظيمهم للآلهة كجبل الكرمل والجبل الاقرع شمالي اللاذقية وغيرهما. وكان جبل لبنان نفسهُ مكرَّماً كالهٍ يعبدونهُ ويدعونهُ بعل لبنان. امَّا تسمية الكتبة الفرنج لهذا الجبل برأس مادون (Cap Madonne) فليس هو كما زعم رينان اثرًا لعبادة الإلهــة تانيث بل « مادون » تعريب كلمة « السيدة » فقيل لهُ رأس السيدة اشارة الى سيدة النوريّة التي بُني هناك ديرٌ باسمها. وقد ذكر الجغرافي اسطرابون انَّ في زمانهِ كانت قلعةٌ مشيدة في اعلى رأس « وجه الله » وان في هذا الجبل ليس بعيدًا من البترون اغوارًا وكهوفًا يأوي اليها اللصوص وقطّاع الطريق كانوا يعيثون في البلاد حتى اجتثّ پومپيوس دابرهم واستاصل شأفتهم. ولعلَّ

١) راجع الجغرافيين كاسطرابون (ك ١٦ ف ٢) وبوليبيوس وغيرهما

هذه المغاور هي الاغوار التى تُرى في يومنا مـــا وراء قرية « قبّة » قريباً من قرية وجه الحجر وهي واسعة تُشرف على البحر (١

واذا سرتَ من البترون على ساحـــل البحر قاصداً حنّوش تمرّ بازاء مزرعة تدعى سَلعاتا عندها نبعٌ جارٍ. وهذه المزرعة لم اتـفقّد آثارها في رحلتي. واني اتأسف اليوم على فوات الفرصة لانهُ يُحتمل ان سلعاتا هى في مكان بلدة قديمة دعاها القدماء Σάλτων او Γονασίτιοι Σάλτων وقالوا عنها انها كانت كرسيًّا اسقفياً وجعلوها مع جيغرتا وأنفة (٢ ولكن لا بد من تحقيق الامر والاستطلاع على آثار المكان. وعلى كل حال لا يخـــلو وجود نبع في هذا الساحل الرملي القفر من الدلالة على مقام قديم

ووراء سلعاتا هذه جون صغير يفضي اليهِ مسيل ماء ناشف يدعى وادي غميق. والطريق التى تمرّ حول هذا الجون منقورة في الصخر كالطريق الرومانية التي تُرى عند نهر الكلب. وعلى جانب هذه الطريق صخرة قد كُتب على وجهها أفقيًّا باليونانية ما تعريبهُ: « هنا ينتهي مُلك ديوسترات. وقد اتفقنا على ذلك ». وهذه الكتابة ضخمة الاحرف طولها ٣٠ سنتيمترًا وهي كما ترى نصبٌ جُعل للدلالة على حدود الاملاك ومثلها كثير في منعطف لبنان الشرقي بين بحيرة اليمونة وبعلبك

وبازاء هذه الكتابة على الصخر العمودي الذي بجوارها رسم تربيع بعروتين على هذه الصورة وليس ضمن التربيع شيءٌ ولعله كان فيها سابقاً كتابة طمسها الدهر لكني لم اجد فيها اثرًا للحروف كالسيّاح الذين سبقوني الى هذا المكان

وهذه الكتابات مع نقر الصخور تدلّ على انّ القدماء مرّوا في تلك الانحاء. ولا ريب ان الطريق كانت تجتاز في هذا المكان ولعلها هي الطريق الرومانية التى كانت تتبع ساحل بحر الشام تنعطف بانعطافاتهِ مارّةً حول رأس الشقعة. والمرجّح ان الجيوش الرومانية كانت تسير في هذه الطريق الساحلية لان الطريق الجبلية الحاليـــة كثيرة

---

١) راجع الرحّالة ستزن (Seetzen I ,231)

٢) راجع ريلند (Relandi Palæstina, p. 216) والمجلّة الفلسطينية الالمانية (ZDPV XXII , 143) بيد اننا لا نبتّ حكماً في ما قدّمنا

الوعورة صعبة المرتقى وليس فيها شيءٌ من الآثار الدالّة على اعمال الاقدمين . ولم يكن قبل طريق العربات الحديثة طريق غيرها تصل بين طرابلس واواسط لبنان . امّا الطريق القديمة على وادي غميق وحنوش وراس الشقعة فلم تعد مسلوكة . والارجح ان الزازلة التي جرت في عهد يوستنيان دمّرت هذه السبيل واخربتها

٣٣ حنوش

اذا عبرت من ثمَّ وادي غميق بلغت بعد زمن قليل حنوش . وحنوش هــذه هي اليوم عبارة عن دير صغير للرهبــان الموارنة البلديين يحدق بهِ بضعة بيوت لسكنى الشركاء . ولكنها سابقًا كانت قرية ذات شأن (١ كما يؤخذ من الآثار العديدة التي تراها مبثوثة في السهل المجاور لها بينها معاصر وحجارة رحيّ ورؤوس اعمدة . وهناك رسم كنيسة قديمة من الطرز البوزنطي تُعرف اليوم بكنيسة القديس يوحنا طولها ٢٣ مترًا و ٥٠ سنتيمترًا في عرض ١٥ مترًا . والرجح انها كانت مثلَّثة الاسواق وحواليها قطع اعمدة من الرخام مع صلبان منقوشة وبقايا كتابات يونانية ذهب اكثرها فضاعت معانيها بيد ان هذه البقايا تشير الى خطر ذاك المقام الدينيّ وعظم قدرهِ . وكذلك ترى من جهة الشرق مدافن نُقرت في الصخور قد اتلفتها الايام

واغرب ما يوجد في حنوش من الآثار جرن متقن العمل قطرهُ متر و ٤١ س وعمقهُ ١,١٥ يبلغ وزنهُ ٢٣٠٠ كيلوغرام يستدير بهِ نقشٌ نأتٍ ذو كتابة يونانية مطموسة يُستدلّ من الفاظها الباقية ان فلانًا ابن فلان اصطنع هذا الجرن من مالهِ الخاصّ هبةً للمشتري (τῷ Διΐ) وكلا العلَمين الواردين في هذه الكتابة ساميّ الصورة والاصل يُدعى احدهما انيلوس (Ἄννηλος) وهو اسم ارامي بحت والاخر ناراس (Ναρᾶς) يشبه الاسماء اليونانيــة المنقولة عن العربية مما ورد في كتابات حوران . وفي تعريف اصول هذه الاعلام فائدة كبرى للوقوف على سكّان هذه الامكنة وغيرها ايضًا فانها تدلّ على انّ الاهلين كانوا آراميين جنسًا وان كانت اللغة اليونانية اضحت لغتهم الرسمية

---

١) وقد وصفها حديثًا سيادة المطران بطرس شبلي في المجلة الكتابية (R. Biblique, 1901 583) وانتقد على ما كتبه رينان بهذا الصدد

فان الاعلام اصدق اثر ينبيء باصل القوم وذكر اجدادهم . وامثال ذلك عديدة فقبائل الفرنك مثلًا بعد استيلائها على بلاد غاليّة ابدلت لهجتها الجرمانية باللغة اللاتينية . لكن كثيرًا من اعلامها بقيت على مسحتها الاصلية فكفاك بها دليلًا على تشعُّب الفرنك من العنصر الجرماني

وقد وجد البعض آخرًا في جوار حنوش نقودًا كثيرة من الذهب عليها كلها صورة يوستينوس الملك . وفي هذا ايضاً دليل على ان هذا المكان في سالف الدهر كان احفل بالسكان منهُ في ايامنا . ولكن ماذا يا ترى كان اسم المحلّ سابقًا ؟ نجيب ان في تعريف اسمهِ القديم لَبحثًا مفيدًا لجغرافية لبنان اعني تطبيق هذا المقام مع بلدة قديمة تدعى جيغرتا

٣٤ جيغرتا

اذا اعملنا النظر في تاريخ القدماء وجدنا في اسطرابون (ك ١٦ ف ٢) ما لم يفِ بالغرض المقصود فان غاية ما يعلمنا بهِ هذا الكتاب ان جيغرتا حصنٌ حريز يحتلّهُ الايتوريّون موقعه عند البحر قريبًا من البترون ورأس الشقعة (θεουπρόσωπον) . على ان في هذا الوصف بعض الابهام اذ لم يفدنا عن جهة موقع جيغرتا أتكون شمالي البترون ام جنوبيّها . وهذا الالتباس يُزيلهُ المؤرخ بلينيوس (ك ٥ ف ١٨) ومن قولهِ يتضح انَّ جيغرتا شمالي البترون وجنوبيّ ترياريس (وهي انفة كما سترى) . وكذلك قد ورد اسم جيغرتا في قائمة قديمة للمدن الاسقفية التي موقعها على الساحل الفينيقي في اثر البترون وتدعى هناك قرية (Κώμη) (١ وهذا مما يبين ان جيغرتا كانت خاملة الذكر على أيَّام ملوك القسطنطينية . ولا يبعد انها اخذت في الانحطاط منذ زمن يستنيان الملك بسبب الزلزال الذي اخرب الطريق القديمة واضطرَّ اهل السابلة ان يمرّوا في مضيق المسيلحة . وهذا ايضاً يعلّل سكوت المؤرخين العرب عن جيغرتا

ومما يطلعنا على خطر جيغرتا في ايام دولة الرومان كتابة لاتينية اثبتها رينان في بعثة فينيقية (ص ١٤٨) يُستدلّ بها على سعة حدود تلك البُليدة . وقد وُجدت هذه

(١ راجع Relandi Palaestina, 160. ولعلَّ كنيسة مار يوحنّا في حنوش هي الكنيسة الكاتدرائية التي اتخذها اساقفة جيغرتا

الكتابة في عبرين وقيل انها نُقلت اليها من المسيلحة او من الهري فوق شكًّا وعلى كلّ حال انما ينبئ وجودها في احد هـذين المكانين بانّ جيغرتا المذكورة لم تكن بعيدة من راس الشقعة وعن شمال البترون لانّ مثل هذه الحجارة لا تُنقـل عادة الى مكان قاص.

وهذه الملاحظات اذا اعارها المنتقدون بالًا تحققوا ان جيغرتا ليست بزُغرتا كما ظنّ بعض العلماء كفورر (Fürrer) (١ وهو لم يسند رايهُ الى برهـان آخر غير التشابه اللفظي بين الاسمين مع ان موقع زغرتا لا يوافق وصف الاقدمين لجيغرتا لبعد زغرتا عن البحر في شمالي انفة ووقوعها في وسط سهول خصبة لا تصلح للتحصين بخلاف ما جاء عن حصن جيغرتا المشرف على البحر. وعلاوةً عن ذلك لم نسمع ان احدًا وجد في زغرتا شيئًا من العاديّات. على انـا لا ننكر كون زغرتا من القرى القديمة التي استلفتت انظار الامم الغابرة بحسن موقعها في بطائح مخصبة واودية غنّاء يسقيها ماء نهر غير لكننا لا نرى فيها مناعة القـلاع وليست هي جديرة بان يتحصن بها لصوص الايتوريين وقطّاع الطريق كما جاء في وصف جيغرتا

وكذلك لا يصحّ تطبيق جيغرتا مع غرزوز لبعـد غرزوز جنوبًا عن البترون. ولا مع شكّا لوقوعها في السهل او في منعطف آكام قليلة الارتفاع. ولا مع الهري لخلوها من الآثار القديمة وان كان وصف الاقدمين يوافقها بعض الموافقة من حيث الموقع الّا انه لا يجوز ان ينسب الى قريةٍ اصلٌ قديم قبل ان يكتشف فيها شيءٌ ينبئ بقدمها

امّا حنوش فتصدق فيها كل الاوصاف التي وردت عن جيغرتا من حيث قدمهـا وكثرة آثارها واتصال السكة القديمة المنقورة في الصخر عند وادي غميق بمقامها فضلًا عن موقعها في لحف راس الشقعة قرب البحر بين انفـة والبترون. وترى من خلفها صخورًا عالية مقطوعة قطعًا عموديًا تصلح قممُها لتكون معقلًا لقوم من الصعاليك وعشًّا لاهل الغي والفتن يعششون بها دون ان يهابوا مباغتة العدوّ. وقد شهدنا بالعيان وعورة هذا المكان وصعوبة مسلكه اذ ادركنا الليل ونحن فوق هذه الصخور المرتفعة تحدق بنا من كل جهة المهاوي والوهاد العميقة فآثرنا ان نقضي ليلنا في العَراء من ان نلقي

---

١) راجع المجلة الفلسطينية الالمانيَّة (ZDPV, VIII, 19)

بانفسنا في المخاطر بمواصلة السير بين تلك المجاهل . هـذا ونظن ان اهل الفساد من الجيغرتيين بعد الفتح الروماني واستتباب السلام نزلوا من مآويهم الحصينة فسكنوا في السهل الممتدّ بين البحر والصخور حيث توجد الاخربة القديمة

امّـا اسم جيغرتا (باليونانية Γήγαρτα و Γίγαρτα و Γίγαρτος فلفظة سامي الاصل يوافق العبرانية גגרות والسريانية ܓܓܪܬܐ ومعنى كلاهما الضيق وشِعب الجبل وهو ينطبق على موقع المكان ولغة ساكنيه القديمة اي الارامية وهي لغة الايتوريين الاصلية . وهذا المعنى على راينا انسب للمقام من اشتقاق الاسم من اليونانية γίγαρτον وهو ثفَل العنب (راجع بعثة فينيقية ص ١٥٠)

٣٥ انفة

انفة مـا وراء راس الشقعة في اخر السهل الذي بُنيت فيهِ شكًّا وهي مركز لدرس العاديّات . والقرية الحاليَّة موقعها بقرب راس مستطيل دقيق يشبه البرزخ . وقد خُدَّ هذا الراس في عرضه بشبه خندقين نُقرا في الصخر نقرًا عجيبًا متسعاً يبلغ سطح البحر . ومن اعتبر هذين الخندقين اخذه الاندهاش من شدَّة عزيمة الاقدمين في مباشرة مثل هذه الاعمال الجبّاريّة كيف نحتوا الصخور الصمّاء كانَّ صلابتها تلين بين ايديهم او كانت لديهم ادوات قاطعة غير ادواتنا الشائعة اليوم . وبين هذين الخندقين والقرية ترى اعمالًا اخرى غريبة في شكلها على جانبَي الراس المومأ اليهِ وكلها منقورة في الصخر

ويلحق بهذين الاخدودين بقايا ابنية ضخمة متصلة بهما ذات حجارة كبيرة مستندة الى الصخر . وهي آثار جدران تشبه جوانب قلعة جبيل شبهاً عظيماً في نتوّ حجارتها والتحام هذه الحجارة بعضها ببعض بحيث لا يشكُّ الناظر انَّ ثمَّت كان حصن منيع ويؤيد ذلك التقليد اهل انفة الذين يدعون هذا المكان بالقلعة

وبين الخندقين المذكورين والقرية ترى في الصخور من الآثار المنحوتـة المحكمة العمل ما يندر مثلهُ في لبنان والحمّامات والمدافن والاحواض وكلها اطناف وافاريز جميلة حسنة النحت . وهناك ايضاً رحيٌّ ومعاصر عديدة مبثوثة في الحضيض . وللصخر طبقاتٌ منظَّمة يُنزل منها الى البحر بمعابر على جوانبها شبه الدرابزين . وفي مداخلهـا ثقوب لمزالج الابواب ورزّاتها . وفي جانبَي الحائط أغوار عديدة منحوتة في الصخر عمودياً

ومنها ما هو متقن الهندام يصلح المسكنى. وكذلك المدافن فانّ لها مسحةً من القدم وهيئتها غريبة

امّا بُناة القلعة فنرجّح انهم الصليبيون لما بين اثارها واثار جبيل من الشبه. وقد اثبتنا سابقاً ان قلعة جبيل من ابنية الفرنج (راجع الصفحة ٦١). وفي تاريخ بروكرد ما يشير الى هذه القلعة فانهُ وصف للفرنج في انفة « قلعةً كان معظم جوانبها داخلاً في البحر ولها اثنا عشر برجاً وهي شديدة الحرازة »

لكنّ الخندقين الفاصلين الراس عن الساحل على رأينا ليسا من اعمال الفرنج فانهما اقدم عهداً يرتقيان الى عهد الرومان ان لم نقل الفينيقيين. والفينيقيون كما لا يخفى كانوا اتخذوا في ساحل بحر الشام كل الرؤوس البارزة ليجعلوها محاصن يرقبون منها البحار ويدافعون بها عن سفنهم الراسية بقربها كما جرى لهم في عكا وصيداء وبيروت وجبيل فلا نظنّ انهم استثنوا من هذا الحكم راس انفة فتكون هذه المتاريس والخنادق ممّا حصّنوا بهِ قلعتهم وقد رغّبهم في حفر هذه الاخاديد انهم اتخذوا منها موادّ بنائهم فكانت بمثابة مقالع لحجارة القلعة

ونرى كذلك ان بقية الآثار الموجودة في انفة ممّا نُقر في الصخر اقدم عهداً من الصليبيين

وكان اسم أنفة قديماً ترياريس (Τριήρης) ذكرها المؤرخون سكيلكس وبوليبيوس واسطرابون وغيرهم من كتبة عهد الدولتين اليونانية والرومانية وقد ورد اسمها في لائحة الاسقفيّات القديمة. امّا اسمها ترياريس فقيل انهُ مشتق من اليونانية ومعناهُ « المثلثة الزوايا » لشكل راسها الشبيه بالمثلث المستطيل (١. وكذلك معنى انفة بالعربية يراد بها الراس. والشريف الادريسي يدعوها « انف الحجر » ولعلهُ التبس عليه

١) هكذا زعم البعض لكننا لم نجد في قولهم حجة قاطعة. وعلى كل حال اننا نرى انّ هذه الاسماء اليونانية التي اتخذهـا اليونان ايّام دولتهم للدلالة على بعض مدن ساحل فينيقية وقرى لبنان كبطولمايس (عكا) وبيبلوس (جبيل) وثاوبروسوبون (راس الشقعة) وغير ذلك لم تثبت زمناً طويلاً وانما كانت اسماء رسمية استعملها عمّال الدولة فلما سقطت عادت الاسماء السامية الشائعة على لسان الشعب الذي لم تؤثر فيه لغة الدولة واصطلاحاتها الرسمية. وهذه الملاحظة العمومية تصدق في ترياريس التي أُهمل اسمها اليوناني وعاد اليها اسم انفة الساميّ

اسمها واسم قرية وجه الحجر في راس الشقعة

وليس من غرضنا ان نلخّص في هـذه المقالة تاريخ انفة في القرون المتوسطة وما قال عنها كتبة الفرنج وجغرافيو العرب لكننا نكتفي باثبات ما جاء عنها في معجم البلدان قال ياقوت (١ : ٣٩٠) : « انفة بُليدة على ساحل بحر الشام شرقي جبل صهيون بينهما ثمانية فراسخ » وفي قوله غلط ظاهر يريد غربي جبل صهيون او بالحري جنوبيّ غربي صهيون . وقد جاء في مراصد الاطلاع بدلًا من « شرقي جبل صهيون » شرقي جبيل وهو اصحّ . وقد افادنا شمس الدين الدمشقي في كتاب عجائب البرّ والبحر (ص ٢٠٧ و٢٠٨ مع الحاشيتين a b) انّ « للنصارى في انفة كنيسة عظيمة البناء وبها بيت يزعمون انهُ اول بيت وُضع باسم مريم في الشام وانّ البيت الثاني المشيد بعده لذكرها كان في انطرطوس » . وهذه افادة جليلة لتاريخ النصرانية في سورية . وكانت انفة على عهد الصليبيين من الاملاك اللاحقة بكنتيّة طرابلس وكان الفرنج افسدوا اسمها باللفظ فدعوها نفين (Nephin) . امّا قلعتها فقد امر السلطان قلاوون بهدمها

٣٦ قلمون

اذا سرت من انفة متوجهاً الى طرابلس بلغ بك المسير الى قرية بهجة المنظر تدعى قلمون موقعها في وسط حديقة كثيرة الزرع غزيرة المياه . واسم قلمون يُطلق في الشام على عدة امكنة منها جبل قلمون المشرف على دمشق ومنها قرية قلمون (Calamon) بجوار الكرمل وحيفا (١ وجبل قلمون في شبه جزيرة سينا . وقد ذكر الادريسي قلعة تدعى قلمون بين صيدا ونهر الدامور

وقلمون هذه قد دعاها القدماء قلّموس (Calamos) وممّن ذكرها المؤرخان بوليبيوس وپلينيوس وغيرهما وربما جعلوا اسمها مع اسم جارتها ترياريس وان لم يكن لها من الشأن ما كان لانفة . وكانت قلمون في القرون الوسطى قلعة ورد ذكرها في الادريسي وفي رحلة والكاتب الفارسي نصري خسرو الخ

---

١) راجع كتاب فلسطين لريلند (Relandi Palaestina, 230,678) وكذلك راجع اسطرابون (Strabon, notes 916)

وفي قلمون وضواحيها عدّة اثار قديمة كمقالع ومعاصر ورحي وبقايا اعمدة وغير ذلك ممّا يدل على قدمها . بيد اننا لم نجد في هذه الآثار ما يجدينا علماً عن احوالها ومن ثمّ لا نرى داعياً لاطالة الكلام فيها

٣٧ دير البلمند

في الجبل المشرف على البحر بين انفة وقلمون على يمين السائر الى طرابلس ديرٌ شهير لا يمكن ضرب الصفح عنهُ نريد بهِ دير البلمند للروم الارثدكس حيث كان يدرس المترشحون للكهنوت من البطريركيــة الانطاكية . قال المنار (في عدده الصادر في ٢٩ كـ١ سنة ١٩٠١) : « البلمند من اعظم اديرة الشرق فخراً واضخمها بناء واظرفها موقعاً وابعدها شهرة وزمن بنائه مجهول وقد نابه ما ناب اكثر الاديرة الارثدكسية في سوريا وفلسطين في غزوة الصليبيين »

قد صدق كاتب هــذه الاسطر بقوله انه يجهل زمن بناء دير البلمند لكنهُ ساء ظنّاً بترقيتهِ هذا البناء الى زمن سبق عهد الصليبيين وبنسبته اليهم ما هم براء منه وكان الاولى ان يشكرهم على تشييد هذا الدير اذ لولاهم لما رأى عالَم الوجود . ومصداقاً لقولنا نورد هنا مختصر تاريخ دير البلمند ليقف عليه كتبة الروم

كان انشاء دير البلمند في ٣٠ ايار من سنة ١١٥٧ . وقد تولى بناءه رهبان القديس برنردس المعروفون بالسِسْترسيين (١ وجعلوه تحت حماية البتول الطاهرة سيدة بَلْمُنْت (Abbatia Belimontis) . وبلمنت لفظة لاتينية منحوتة من كلمتين معناهما الجبل الجميل . وربما ورد اسمه في كتبة الصليبيين على صورة الفرنسوية القديمة «Beauleu» وهي بمعنى « Beaulieu » اي المقام الجميل وهو اسم يطابق المسمى ولذلك قد اتخذه اهل طرابلس الى يومنا كمصيف يقضون فيه فصل القيظ . ثم افسد القوم بلمنت فجعلوها « بلمند » . ومما يدل على اصل اشتقاقها انها وردت في كتاب مختصر تاريخ

---

١) لنا على ذلك شواهد عديدة منها مناشير للاحبار الرومانيين ذكرها رورِيخت (Roehricht dans ZDPV, X, 35) . امّا ما كتبه الاديب جرجي افندي يني في تاريخ سوريّا (ص ٤٩١) عن مائدة هيكل كنيسة البلمند ان عهدها يرتقي الى سنة ١١١٣ م فلم نتحققهُ بنفسنا وكنّا وددنا لو اثبت جنابهُ هذه الكتابة بنصّها . ولعل هذه المائدة نُقلت الى البلمند من مكان قريب

لبنان (من مخطوطات كليتنا) على صورة بلموند . وعليه فلا صحّة لما قاله البعض (١ ان بلمند مشتقة من اسم البرنس بويمند صاحب طرابلس شيّدها على زعمهم كمنتزه لهُ في سنة ١٢٨٧ . ثمّ ان تاريخ بويمند السابع (١٢٧٤ — ١٢٨٧) لا ينطبق على هذه الرواية لان بويمند قضى السنين الاخيرة من حياتهِ في عاصمته لم يمكنهُ الخروج منها وكان السلطان قلاوون يضايقه فيها الى ان توفي في ١٩ تشرين الاول سنة ١٢٨٧ فما كان له اذ ذاك ندحة في تشييد القصور والمتنزهات . هذا فضلًا عن انهُ لدينا نصوص ورد فيها اسم بلمند قبل هذا التاريخ كما سيأتي



مسكوكات بويمند السابع صاحب طرابلس

وبراءات الاحبار الرومانيين في دير البلمند كثيرة (٢ نخصّ منها بالذكر براءة غريغوريوس التاسع سنة ١٢٣٨ واينوكنت الرابع سنة ١٢٥٠ واوربانوس الرابع سنة ١٢٦٢ . ويظهر من هـذه المناشير ان دير البلمند كان اكبر اديرة الفرنج في كُثلية طرابلس . ولمّا خرج الصليبيون من الشام صار هذا الدير الى يد اليعاقبة وكان عددهم كبيرًا في طرابلس لهم فيها اسقف يرعاهم

وفي تواريخ الفرنج اسماء بعض رؤساء هذا الدير ورهبانه . فمنهم الرئيس بطرس الالماني (Pierre l'Aleman) ورفيقه « سمعان الطرابلسي » . وممّن ترأس على دير البلمند احد اساقفة بيروت اللاتينيين لعلّه استقلّ من كرسيه فاعتزل في هذا الدير وصار رئيساً عليه . وهذا ممّا يُطلعنا على عظم شأن المكان

ولا نعلم من امر الدير شيئاً بعد تملّك اليعاقبة عليهِ . وانما روى مكاتب المنار انهُ بعد الصليبيين « تشتّت شمل رهبانهِ . . وخرب » وبقي خرابًا الى سنة ١٦٠٣ وفيها

١) راجع الدويهي في تاريخ سنة ١٢٨٧ وبعثة فينيقية لرينان (ص ١٢٨)

٢) راجع مجلّة الجمعية الفلسطينية (ZDPV, X, 35)

جدّهُ السيد يواكيم ابن الخوري جرجس مطران طرابلس . وللبلمند بعد هذا العهد اخبار طويلة لا حاجة الى استقصائها

واليوم لم يبقَ من هذا الدير العظيم سوى آثار لا تُذكر واذا اعتبرت ابنيتهُ الحديثة لا ترى شيئاً من تلك المباني الفخيمة التي كانت تزين هذا المحلّ وتنطق بفضل بُناتهِ الذين عارضوا الرومان والفينيقيين بآثرهم حتى ان كثيرًا مما كان ينسبهُ العلماء سابقًا لتلك الامم ثبت اليوم انهُ من عمل الصليبيين

وقد بقي في البلمند من ابنيتهِ القديمة قسمٌ من طبقتهِ السفلى منها ردهة جميلة مقبّبة حسنة الاثاث طولها اربعون مترًا وهي اليوم مطمورة في الارض لارتفاع الحضيض بما هبط فوقه من ردم الدير القديم . اما الغاية من ابتناء هذه الحجرة فليست بظاهرة . وفي بقية انحاء الدير الحالي قناطر ونقوش من طرز القرون المتوسطة وهذه الآثار مع قلّتها تنبئ باصل الدير فتبين جليًّا ان الصليبيين هم الذين شيدوه ويتأيد بذلك ما نقلناه في صدده من شواهد التاريخ مع بيان اشتقاق اسمه الاعجمي من اللاتينية فناهيك بهذه الادلّة عن تعريف اصل هذا الدير واصحابهِ الاوّلين

وفي الختام يسرُّنا ان نبدي لجناب الفاضل غطاس افندي قندلفت مدير المدرسة عند مرورنا عواطف الشكر لما اظهره من الانس لما استقبلنا في هذا الدير . وقد اطلعنا على خزانة كتبه التي تحتوي اليوم على مطبوعات حديثة العهد وبعض المخطوطات التي ليس تحتها كبير امر قد جمعها حضرة المدير ونظمها لئلا تأخذها يد الضياع . وكانت هذه المكتبة قديمًا حافلة بالمخطوطات ولا نشك انّ في عدادها كانت تآليف عديدة سريانية كما ترى في غيره من اديرة الروم كمكتبة دير جبل سينا ودير مار سابا حيث وجد زوّار الفرنج مصنفات سريانية قديمة غالية الثمن . وكذلك كانَ دير صيدنايا غنيًّا بذخائر الآداب السريانية قبل ان يحرقها وكلاؤهُ كما ذكر ذلك الشاب الاديب حبيب افندي زيّات في خبر رحلتهِ الى هذا الدير (راجع المشرق ٢ : ٥٨٦) . الّا ان اليونان الذين تملكوا زمنًا طويلًا دير البلمند اتلفوا ما وجدوه من هذه الكنوز النفيسة واورثوا قلوبنا الاسف على فقدها

فهرس

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار



تسريح الابصار
في ما يحتوي لبنان من الآثار

القسم الثاني

جغرافية لبنان وتعريف الامم التي سكنتهُ

١ اسم لبنان وسعة نطاقه في التاريخ

قد بلغ بنا تقصّينا لآثار لبنان الى تخومهِ الشماليَّة فرأينا ان نحطَّ برهةً عصا التسيار لنبحث في قسم ثانٍ عن بعض احوال هذا الجبل الشهير ممَّا يشمل تاريخهُ اجمالًا ويعمّ شؤونهُ من حيث تقاسيمهِ الجغرافيَّة مع تعريف الامم التي سكنتهُ في سالف الاعصار. وهو امرٌ يفيدنا لادراك ما بقي علينا من وصف آثارهِ في جهاتهِ الأُخرى

لا جرم ان القارئ اللبيب قد لحظ في خلال فصولنا السابقة انَّ اسم لبنان لم يُطلق في كل اطوار التاريخ على ثغور معروفة وربَّما اتسع او انحصر معناهُ على اختلاف الظروف ونزعات الكتَّاب. فلحسر لثام الشبهات وازالة كل المعضلات رأينا ان نبيّن حدود لبنان في الازمنة الغابرة بما امكن من التدقيق

ليس من احد يجهل اليوم موقع لبنان ونواحيهُ الاربع وكلٌّ يعرف انَّ المراد به

تلك السلسلة الجبليّة الممتدّة بين البحر المتوسّط او بحر الشام والنهرين الشهيرين النهر الكبير والليطاني

بيد ان معنى لبنان لدى القدماء لا ينطبق على مفهومنا بهِ في عهدنا · واوّل ما ينبغي استفتاؤُهُ من كتب التاريخ الاسفارُ المقدَّسة فان هذا الاسم ورد فيها على صورة لَبْنُون (לבנון) وهكذا عرفهُ ايضاً الفينيقيّون · امَّا الاشوريون فيدعونهُ لَبْنانو· ومما يستفاد من الكتاب الكريم انَّ لبنان جبل شاهق فخيم في شمالي نهر الليطاني يحدّ ارض الميعاد من تلك الجهة

وقد تكرّر ذكر لبنان في صُحُف العهد القديم وان كان هذا الجبل خارجاً عن ملك بني اسرائيل · واكثرما ورد اسمهُ في اوصاف الكتاب الشعريَّة كما اثبتنا ذلك في مقالتنا عن ارز لبنان (المشرق ٤ : ٩٣٠ — ٩٣٨) · وذكروا بين خواصهِ الثلوج الغراء التي تكلّل هامتهُ (راجع سفر ارميا ١٨ : ١٤) فبيَّنوا بهذه الاوصاف انهم ارادوا لبناننا دون سواهُ

ومَّا جاء ذكرهُ ايضًا في الكتاب الكريم وادي البقاع المخصب الذي يفصل لبنان عن جبل الشيخ وهو يدعى هناك « مدخل حماة » او « الطريق الى حماة (١ » وهو اسم يطابق المسمى لانَّ سهل البقاع اشبه بطريق لاحبة تنفذ بين جبلين عاليين · وفي هذا الاسم ما يُشعر بخطر مدينة حماة وعظم شأنها وهي اول مدينة كبرى كان بنو اسرائيل يلقونها عند خروجهم من تخومهم الشماليَّة الشرقيَّة · اما اليونان ٢) فيدعون البقاع باسم ماسياس (Massyas) او مرسياس (Marsyas) وربما دعوها ايضاً بسوريّة المجوّفة (Célésyrie) لانعطافها بين الجبلين على شبه الجوف (٣

ويؤخذ من سفر الملوك الثاني (٨ : ٨) ان لبنان كان غنيًّا بمعادن النحاس والمرجح

---

١) راجع سفر العدد ١٣ : ٢٢ و ٣٤ : ٨ ويوشع ١٣ : ٥ الخ وحزقيال ٤٧ : ٢٠ الخ وعاموس ٦ : ١٤ الخ

٢) راجع تاريخ پوليب ك ٥ ف ٤٥ , ٤٦ , ٦١ وجغرافية اسطرابون ك ١٦ ف ٢ و ١٠ الخ

٣) راجع معجم الكتاب المقدّس لڤيكورو في المادّة وجغرافية فلسطين القديمة لبول (Buhl) ص ٨٢

ان موقعها كان على العطف الشرقي من لبنان الحالي بازاء سهل البقاع

على ان اصحاب الصحُف الكريمة لا يفرقون بين لبنان الغربي والشرقيّ فاطلقوا على كليهما اسم لبنان · وهو امرٌ يسهل ادراكهُ لانَّ الجبلين متشابهان تشابهاً تامًّا يسيران على خطين متوازيين الى وجهة واحدة وطولها واحدٌ على التقريب وهما يتركبان من صخور كلسيَّة متجانسة · ولا غروَ انهما كانا في القرون الخالية جبلًا واحدًا ففصل بينهما طارئٌ جيولوجي غيَّر هيئتهما فانخسفت بينهما الارض وليس وادي البقاع الَّا نتيجة هذه القارعة · ومن ثمَّ لا حرج على كتَبة الاسفار المقدَّسة اذا اعتبروا هذين الجبلين كطود واحد وان كانوا لم يدقّقوا في تعريفهما كما يفعل اليوم الجغرافيون · وليس الامر كذلك في تعريف اسطرابون لوقعهما فانهُ قد وهم وهماً جسيماً في بيان وجهتهما كما سترى

واوَّل من احكم الفصل بين الجبلين السابق ذكرهما كتبةُ اليونان فانهم قد افرزوا بينهما وخصُّوا احدها باسم لبنان ودعوا الآخر انتيليبانوس (Antiliban, Ἀντιλίβανος,) ومعناه الجبل القائم بازاء لبنان وكلا الاسمين شائع حتى ايامنا بين الكتبَة · ومما يدلُّ على قِدَم اسم انتيليبانوس ان اصحاب الترجمة السبعينيَّة في القرن الثالث قبل المسيح نقلوا اسم لبنان العبراني الى اليونانيَّة باسم انتيليبانوس لمَّا رأوا انَّ مدلولهُ الجبل الشرقي لا لبنان الحالي وذلك في خمسة اماكن من الاسفار الالهية (١ · وكذلك ورد في النصّ اليوناني من سفر يهوديت (١ : ٧)

وقد تصفَّحنا تآليف يوسيفوس اليهودي فوجدناهُ متردّدًا في تعريف لبنان كانهُ لم يطَّلع على اصطلاح اليونان وهو يكتب في لغتهم فتراهُ اذا ذكر جبل حرمون والجبال المجاورة لدمشق دعاها كلها باسم لبنان

وما لا ريب فيهِ ان كتبة العهد القديم اذا ما ذكروا لبنان وارادوا بهِ الجبل الموازي لهُ انَّما مرادهم فقط القسم الجنوبي من هذا الجبل المعروف اليوم باسم جبل الشيخ وذكرهُ كثيرٌ في التوراة · وقد دوَّنَّا في بعض مقالاتنا السابقة (٢ اسماء جبل حرمون عند

١) تثنية الاشتراع ١ : ٧ و ٣ : ٢٥ و ١١ : ٢٤ يوشع ١ : ٤ و ٩ : ١

٢) راجع الجزء الاوَّل · ص ٢٤

قبائل سوريّة وفلسطين فلا حاجة الى التكرار والى بيان صحّة هذه الاسماء لئلّا نخرج عن الموضوع

امّا اتساع لبنان وحدوده فانّ الكتاب المقدّس لا يذكر غير حدّهِ الجنوبيّ اعني شمال نهر الليطاني . ومن ثمّ لا بدّ من نقل نصوص قدماء اليونان لتعريف بقيّة الحدود

*

لعلّ المؤرخ پوليب (١ اوّل من سبق فبيّن بضبط وتدقيق تخوم لبنان . وهو يفصلهُ عن الجبل الشرقي فصلًا صريحًا ويذكر بين السلسلتين سهل البقاع ويجعل في هذا السهل مخرج نهر العاصي . وممّن اجادوا في تعريف اتساع لبنان ديودور الصِقلّيّ (٢ في القرن الاول قبل الميلاد حيث قال انّ لبنان يمتدُّ من صيداء الى جبيل وطرابلس وانّ غابات الأرز تظلّل قممهُ (٣

امّا معاصرهُ اسطرابون فانّ في كلامهِ لبسًا وابهامًا وهاك تعريب ما كتب قال: « انّ سوريّة المجوّفة واقعة بين جبلين تفصلهما على التقريب مسافة واحدة في طولها. وكلاهما يبتدئ قريبًا من البحر امّا لبنان فانّ اوّلهُ عند طرابلس وجبل ثيوپروسوپون (راس الشقعة . راجع تسريح الابصار ١ . ص١٤٠) .واما جبل انتيليبانوس فبدؤهُ بقرب صيداء (كذا) وهما ينتهيان عند الجبال العربيّة التي تُشرف على اقليم دمشق» . وفي الفصل ذاتهِ قد اثبت اسطرابون ان منتهى لبنان عند رأس الشقعة وهو يروي انّ اعالي لبنان كصنّان وبوروما يأوي اليها قوم من اللصوص وقطّاع الطرق . وكذلك يزعم انّ هؤلاء الاوباش يملكون على البترون وجيغرتا ويسكنون الكهوف المشرفة على البحر وحصن الشقعة (٤

فترى ممّا تقدّم انّ اسطرابون يفرق بين لبنان والجبل الشّرقي ويجعل بينهما سهل البقاع وكذلك لم يشذّ عن الصواب اذا دلّ على حدود لبنان الشماليّة وهو يجعلها تقريبًا

---

١) في كتابهِ الخامس (ف ٤٥ , ٥٩ , ٦٩) ٢) ك ١٩ ف ٥٨

٣) راجع الجزء الاوّل ص١٣٧

٤) الجزء الاوّل ص١٤٦

عند طرابلس لانّ جبل عكّار يُعدّ ايضاً من لبنان فيتّصل بهِ ويمتـدّ بعض اميال الى النهر الكبير الذي يحجز لبنـان عن جبال النصيريّة . غير انّ اسطرابون وهم وهماً جسيماً بزعمهِ ان كلا الجبلين يبدأ بقرب البحر عند صيداء وهو خطأ لا صحّة لهُ في انتيليبانوس . وكذلك قد اخطأ بقولهِ انّ الجبلين ينتهيان عند دمشق وهذا لا يصدق عن لبنان وقد ساء ظنّـهُ في الجبلين اذ وصف سيرهما من الغرب الى الشرق اي من البحر الى داخل بلاد الشام وهما في الحقيقة يسيران من الشمال الى الجنوب فيجـاريان سِيف البَحر

امّا التفاصيل التي ذكرها اسطرابون عن لبنان ولصوصهِ فقد مرّ ذكرها في محلّها مع بيان ما صدق منها

وفي وصف بلينيوس (١ للبنان ما هو اقرب الى الحقيقة من سواهُ . وهو يجعل اوّل لبنان عند صيدا ثمّ يذكر امتدادهُ شمالاً الى مدينة سيمرّة القديمة اعني وراء مصبّ النهر الكبير بقليل حيث يبتدئ جبل برجيلوس وهو جبل النصيريّة . وناهيك بهـذه الافادة تدقيقاً وضبطاً . وكذلك لم يندّ في وصفهِ لبنان وتمييزهِ لهُ عن الجبَل الشرقي وذكر البقاع وذكر العيون التي يتكوّن منها العاصي

وممن ذكروا لبنان من قدماء النصارى اوسابيوس القيسري في كتاب الأعلام (Onomasticon) . وتبعهُ القديس هيرونيموس وكلاهما يقول انّ لبنان سلـلة الجبال الغربيّة المحاذية لبحر فينيقيـة اما السلسلة الشرقية من جهة دمشق فجبل انتيليبانوس اي الجبل الشرقيّ

فترى من ثمّ ان القدماء في حدود القرن الرابع كانوا وقفوا على حقيقة موقع لبنان وافرزوهُ عن الجبل الذي هو قائم في وجههِ وبيّنوا وجهة امتدادهما غير ان كتبـة القرون التالية عادوا فخلطوا بين الجبلين . وممّا حدا بهم الى هـذا اللبس التقاسيم السياسيّة التي ادخلها ملوك الروم في ذاك العهـد فاختلطت الاسماء وصارت الاعلام تدلّ على غير ما وُضعت لهُ سابقاً

فمن ذلك سوريّة المجوّفة التي كانت تدلّ في اول الامر على سهـل البقاع ليس

---

١) راجع تاريخهُ الطبيعيّ (ك ٥ ف ٧٨)

الّا اصبحت اقليماً واسعاً يمتدّ شمالاً الى ما وراء انطاكية بحيث اضحت هذه المدينة قصبةً لهُ . وكذلك لم يعد اسم فينيقية يُطلق على الساحل المنحصر بين لبنان والبحر بل صار يعني بلاداً متسعة تبلغ حدودها الى دمشق وحمص وتدمر

وعلى هذا المنوال تغلّب اسم لبنان الشهير على جبل النصيريّة المجاور اذ لا يفصل بينهما الّا وادي النهر الكبير. فأبطل اسم برجيلوس الذي خصَّهُ بهِ بلينيوس الكاتب واعتُبر كانهُ لاحقٌ بلبنان

ومن غريب ما جرى وقتئذٍ من التقلّبات في تقسيم الايالات ان الاقليم المعروف بفينيقية اللبنانيّة لم يضمّ في دائرتهِ لبنانَ الغربي وأُدخلت فيهِ تدمر مع بُعدها عن لبنان. وكفى بذلك دليلاً على ان اسم لبنان لم يؤخذ بمعناهُ الاصلي او انهُ كان ادلّ على جبل انتيليبانوس منهُ على لبنان لاسيا بعد ان جُعلت مدينة دمشق كعاصمة فينيقية اللبنانيّة. ولذلك نرى في اعمال القديس صوفرونيوس الدمشقي انهُ دعا وطنهُ « المتوّج بلبنان » (λιβανοστέφανος) ولعلّ هذا اللقب حمل البعض على الظن بانهُ لبنانيّ الاصل

وعُدّت حمص قبل دمشق مدّةً كقصبة ولاية فينيقية اللبنانية فصار الاهلون يدعون الجبال الواقعة بازائها وفي شماليها باسم لبنان وهكذا شمل هذا الاسم جبال النصيرية. وفي تاريخ سوزومين (ك٣ ف١٥) نرى اسم لبنان مختصًّا بالجبال المحاذية لمدينة افامية واغرب من ذلك ان تاوفانوس المؤرخ في اثناء كلامهِ عن المردة اطلق اسم لبنان على كل جبال الشام الواقعة بين مصبّ نهر العاصي وبلاد فلسطين (١ . وقد جرى بقيّة المؤرخين البوزنطيّين على هذا الاصطلاح نخصُّ منهم بالذكر المؤرخ قدرينوس

☆

ولمّا ظهرت دولة العرب حفظ ملوكهم التقاسيمَ الجغرافيّة الجارية قبل عهدهم ولذلك نرى الكتبة السريان كابن العبري (٢ وجغرافيّي العرب يتأثرون اعقاب الروم في وصفهم جبل لبنان فربما اصابوا او اخطأوا كاسلافهم . فالمقدسي مثلاً يقول في كتاب معرفة الاقاليم (ص٦٠) ان لبنان جبل ساحلي مشرف على صيداء وطرابلس . امّا ابن

١) راجع تاريخهُ في اعمال الاباء اليونان لمين (ج ١٠٨ ص ٧٢١)
٢) راجع تاريخهُ المدني بالسريانية (ص ٢٨٣)

الفقيه الهمذاني (ص ١١٢) فانهُ يزعم « انّ لبنان بدمشق وانهُ متصل ببلاد الروم » يريد قيليقية . وبوصفهِ هذا اطلق اسم لبنان على جبل الشيخ وعلى كل الجبال الواقعة شمالي سوريّة حتى اللكّام وقسم من جبل طورس وهو تعريف واسع لم يخطر على بال كتبة الروم

وقال ابن جبير في رحلتهِ (ص ٢٥٦) : « وراء المعرّة جبل لبنان وهو سامي الارتفاع ممتدّ الطول يتصل من البحر الى البحر وفي صفحتهِ حصون للملاحدة الاسماعيليّة وجبل لبنان حدٌّ بين المسلمين والافرنج لانّ وراءهُ انطاكية واللاذقيّة وسواهما من بلادهم » فترى من قولهِ هذا انهُ ادخل في لبنان بلاد الاسماعيليّة الواقعة في جبل النصيرية بين اللاذقية وحماة وهناك كانت حصونهم كمصياد والرصافة وخوابي وكهف والعُلَّيقة

ولياقوت في تعريف لبنان أقوال غريبة قال (٢ : ١١٠ و ٤ : ٣٤٧) : « لبنان جبل مطلّ على حمص يجيءُ من العرج الذين بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام . . . ويمتدّ الى ملطية وسميساط وقاليقالا الى بحر الخزر » فيجعل كل هذه الجبال جبلًا واحدًا تختلف اساميهِ باختلاف الامكنة . واختصاصهُ باسم لبنان يبتدئُ في حلب وينتهي في حماة وحمص

وقد ذكر شمس الدين الدمشقي في كتابهِ عجائب البرّ والبحر غير مرّة اسم لبنان وكلامهُ في الغالب مصيب الّا انهُ يجعل حدودهُ الشماليّة الى اللاذقية ويعتبر لبنان كقسم من سلسلة عظمى اولّها في جنوبي بلاد العرب

اما ابن بطوطة (١ : ١٨٥) فيلوح من ظاهر كلامهِ انهُ يُطلق اسم لبنان على الجبل الممتدّ بين اللاذقية وطرابلس حيث وجد النصيريّة فوصفهم . وكان النصيرية وقتئذٍ يسكنون ليس فقط الجبل المعروف باسمهم وجبل عكّار بل ايضاً البلاد المجاورة لطرابلس والبترون حتى نواحي العاقورة وكسروان وذلك الى القرن الرابع عشر للمسيح كما سنبين الامر في مقالة آتية . ولهذا السبب قد امكن ابن بطوطة ان يدعو باسم لبنان كلّ بلادهم (١

١) راجع مقالتنا عن سكنى النصيرية في لبنان في مجلة الشرق المسيحيّ

وأضبطُ العرب وصفًا للبنان الكاتب الشهير ابو الفداء صاحب حماة ولا غرو اذ كانت سكناهُ في بلاد تجاور لبنان فميَّز في تقويم البلدان (ص٦٨و٢٢٩) لبنان عن جبل دمشق وقد دعا طرف هذا الجبل الجنوبي باسم جبل الثلوج ويدعو باسم سنير طرفهُ الشمالي وهو أنتيليبانوس . وسنير احد الاسامي الواردة في التوراة يراد بهِ حرمون وأطلق حسب رأينا على كل القسم الشمالي من هذا الجبل . وذلك امرٌ يستنتج من كتبة العرب وهم شهود صدق على التقليد القديم

وقد جعل ابو الفداء لبنان بازاء جبل الثلج يمتدّ الى شرقي طرابلس فاذا تجاوزها عُرف بجبل عكار . وهو قول صواب جرى عليه ايضًا القلقشندي من بعدهِ . اما الجبل الواقع في شمال جبل عكار فان ابا الفداء يدعوهُ جبل اللكَّام (ص ٦٨) وهكذا ايضاً قد جعل الاصطخري وابن حوقل حدود لبنان الشماليَّة بالقرب من مدينة حماة

هذه بعض نصوص نقلناها عن جغرافيّي العرب تبيّن ان هؤلاء الكتبة اصابوا في كثير من اقوالهم عن لبنان وان وهموا في بعض الامور اخذوها عن كتبة الروم دون ان يتحققوها بانفسهم لاسيما في ما يختصّ بتعريف حدود لبنان الشمالية . فسبحان من تنزَّه عن كل خطاٍ وغيب

٢

ما تستفيد سوريَّة من لبنان

بعد تعريفنا لِلُبنان وتطبيق اسمه مع قوال المؤرخين لا نرى بدًّا من استلفات النظر الى فوائد هذا الجبل من حيث طورهِ الطبيعي

على انّنا قد اشرنا الى هذا الامر في مقالاتنا السابقة (راجع الجزء الاوَّل ص٥١) واثبتنا انَّ لبنان بالنسبة الى سورية كالنيـل بنسبتهِ الى مصر اذ انهُ كحوضٍ عظيم تتفجَّر منهُ المياه التي تسقي النواحي المجاورة امَّا على هيئة الامطار واماَّ بطريقة المجاري المائيَّة او بتكاثف الابخرة وسقوطها على صورة الندى . ولولا هذا الجبل لاضحت سورية اشبه ببادية جرداء او رملة صلعاء تابعة لمفاوز جزيرة العرب التي هي متَّصلة بها من جهتها الجنوبيَّة الشرقيَّة

ومما سبق لنا ايضاً في وصف لبنان انّنا قابلنا بين هذا الجبل المنيف وجبل الالپ (المشرق ١ : ٧٢١) فبيَّنا ما خصَّ بهِ الله الطود السوريَّ من المناظر الجميلة والمرافق

العديدة فترى فيه الرُّبى المكلّلة بالغابات والغياض الزاهية بضروب الاشجار والنبات والاودية العليلة النسيم ذات الظل الظليل مع جداول مترقرقة وسيول جاحفة وشلّالات مزبدة وبحيرات كالمرايا الصقيلة الى غير ذلك من المحاسن الطبيعيّة التي زيّن بها الخالق تلك المشارف الزهيّة التي اطنب الانبياء في اوصافها وعدّدوا في الاسفار الكريمة معانيها والطافها

على انّ لبنان يُورث سوريّة غير هذه المنافع ممّا يستلفت نظر ذوي العبرة. ولو تحرّينا تعدادها لكتبنا فصلًا رائقًا جديرًا بان يُنظَم في سلك فلسفة الجغرافيّة من شأنهِ ان يوسّع نطاق اهل الرويّة ويبيّن لهم عجائب الكون

وهذه الفوائد الجمّة التي تستفيدها سوريّة من لبنان على اربعة اصناف منها هدروغرافيّة وجيولوجيّة ومنها نباتيّة ومنها جويّة ومنها ما يرجع الى الامزجة والاجسام.

*

١ لا حاجة الى ان نسترسل في الكلام عمّا يجدي لبنانُ القطرَ السوريّ من المنافع الهدروغرافيّة اذ انّنا وصفنا سابقًا ما يختصّ بمجاري المياه في لبنان (راجع الجزء الاول ص ٥١) وغاية ما نقولهُ هنا اننا لم نُغالِ في وصفنا المذكور وكفانا لتأييد مقالنا ان اكبر انهار سوريّة وهو العاصي ينبجس من لبنان فيجري الى شمالي سوريّة ويخصب نواحيهُ. وذلك ما حمل القدماء على انشاء مدن عظيمة في تلك الجهات كحمص وحماة وانطاكية ولولا هذا النهر لاصبح وادي العاصي قفرًا مقفرًا لا يأوي اليهِ سوى قوم من عرب البادية. وهو بهِ جنّةٌ غنّاء يتقلّب فيها الوفُ وربوات من البشر في خصب دائم وعيش رفيه

وما قلناهُ عن وادي العاصي يصحّ ايضًا في سهل البقاع وفي ساحل البحر من طرابلس الى صور فان هذه البطائح معروفة اليوم بوفرة خيراتها وريع مآتيها ونضارة حدائقها وإنْ ذلك الّا من فضل لبنان الذي يفيض عليها مياه ينابيعهِ النميرة مع دسم تربتهِ التي تنحدر من السيول وترسب في قاع الارض فتُخصبها وتسمّنها

ونزيد على ذلك ان التربة التي جرفتها المياه من مشارف لبنان هي التي صارت اليوم بطحاء فسيحة الارجاء زاهية الزروع تمتدُّ من طرابلس الى مصبّ النهر الكبير ولولا انّ مجاري المياه تسحو هذا الطين اللزج من معاطف الجبل لكان هذا السهل

جوناً تغمرهُ مياه البحر كما ترى في جهات اخرى · لانهُ من النواميس الثابتـة تمام الموازاة والمقابلة بين السلسلة اللبنانيَّة والشواطئ البحريَّة اي انَّ لبنان كلَّما امتدَّ نحو البحر اصبح رأساً داخلاً في المياه واذا انحدر استبطنتهُ المياه فصارت في بطنهِ خليجاً · امَّا هذه نواحي طرابلس فانَّ انهار لبنان وجبـل عكَّار كابي علي والنهر البارد ونهر عكار وعلى الاخصّ النهر الكبير انحدرت اليها وملأت بالتربة التي سفتْهـا الجونَ الذي كان هناك وهو يُعرَف حتى اليوم بجون عكَّار دلالةً على اصلهِ لكنَّهُ في الوقت الحاضر خَبْت منفسح ذو نعومةٍ وخصب

*

٢ وليس لبنان اقلّ فائدة من حيث الملك النباتيّ · فان ارباب الطبيعة يقضون العجب من سورية لما فيها من اصناف النبات وضروب الاشجار · فانَّها تجمع بين نبات الاصقاع الشماليَّة ونبات الاقاليم المفرطة الحرارة في اواسط افريقية · والنباتيُّ اذا تفرَّع لبنان وجد في اعاليهِ اعشاب الصرود التي لا تُرى الَّا في شمالي اوربَّة وقمم الالب · اما حشائش البلاد الحارَّة فهي نامية في سفح لبنان عند وطإِ بحيـرة الحولة وهناك من نبات البرديّ الذي لا يُرى اليوم الَّا في اواسط افريقية عند البلاد المجاورة لينابيع النيل · والى لبنان يعود الفضل من هذا القبيل لمـا يوجد من الاختلاف بين برد رأسهِ المحلّق في العنان المعتمّ بالثلوج وحرارة حضيضهِ البارز لانوار الشمس واشعَّتها الحامية فيسوغ للنباتي في سوريَّة ان يجمع في بضع ساعات من اشكال الاعشاب ما لا يجدهُ في غيرها الَّا بعد مشقَّة النفس والعناء الطويل

وهذا التباين العظيم بين نبات بلاد مختلفة لا يروق فقط عين النـاظر اذ يرى الاشجار الجبليَّة كالسنديان والارز والاشجار الصحراويَّة كالنخل والبردي لكنهُ ايضاً يجدي الزارعَ نفعاً حيث يمكنهُ ان يستغني عن كثير من محصولات البلاد الاجنبيَّة · كيف لا وهو يجد في وطنهِ تربةً ملائمة لاصناف المزروعـات والاشجار المثمرة وضروب الاخشاب وفي كل ذلك ايرادات طيِّبة توفّر اسباب الغنى وتفتح ابواب الرزق لطالبيهِ · فياليت شعري كيف يسوغ لنا ان نتشكَّى من فقر بلادنا وقحطها وفيهـا كل ما يلزم ليغني شعوباً جمَّة · ولو شاءَ اصحاب الثروة لرأوا انَّ هذه البلاد يدرُّ منها اللبن والعسل كما في ايَّام بني اسرائيل لا ينقصها لذلك الَّا رجال جدّ وإقدامٍ ممَّن لا يستنكفون

من العمل ولا تثني عزائمهم المصاعب. فلا يمرّ على بلادنا ثلاثون سنة حتى يصير لبنان اغنى من بلاد تزوج بغاباته وغسي السهول الساحليّة اشبه ببطائح الهند وخطّ الاستواء

*

٣ وان انتقلنا الان من ذكر النبات الى وصف الهواء إذن لوجدنا انَّ حظّ اهل سوريّة لأسعد من سواهم لوقوع لبنان في وسط بلادهم . وذلك ممَّا لحظهُ الكاتب الشهير ڤولناي (Volnay) في اواخر القرن الثامن عشر قال : « ان بلاد الشام تجمع تحت سماء واحدة احوالًا جوية مختلفة وتدّخر في اقطارٍ ضيّقة الارجاء مرافق لا تُرى في غيرها من البلاد الّا متفرّقةً على مسافاتٍ قاصية . ففي غيرها من الاصقاع ترى فصول السنة تفصلها الشهور وامّا سورية فيصدق القول فيها ان فصول سنتها لا تقسم بينها الّا بضع ساعات فقط فان اثقلك توقّد الحرّ في صيداء او طرابلس أيّام القيظ فما الك الّا ان تمشي نحو ستّ ساعات فتجد في الجبال المجاورة هواء لطيفاً كهواء شهر اذار (١ »

فهذا الاختلاف في درجات حرارة الجوّ الذي تغبطنا بسببهِ البلاد المجاورة للشام كبلاد الجزيرة ومصر انّما اصابهُ القطر الشامي بواسطة لبنان ليس بامتداد عرضهِ الذي يبلغ نحو تسع درجات . ولا لاجل طولهِ البالغ ١١٠٠ كيلومتر بل لاجل ارتفاعه فوق سطح البحر . ولولا علوّ جبالهِ لما كان فرقٌ يُذكر بين شمالي سوريّة وجنوبها . فانّنا نرى ان حالة الجوّ في غزّة لا تختلف كثيرًا عن حالتهِ في الاسكندرونة وان الحرّ في دمشق كما هو في حلب . لكنّ الفرق العظيم انّما هو بين السواحل ومشارف لبنان بحيث نجد في الجرد لطف هواء الاصقاع الشماليّة

وممَّا يساعد ايضًا على تكييف الجوّ وتلطيف لهوات الحرّ هيئاتُ تركيب لبنان المختلفة واوديتهُ ووجهة تقاطيعهِ فان الارواح بهبوبها في بطون الارض وشجونها تغيّر احوال الهواء كما تؤثر في السُّحب والامطار التي تحملها الرياح . وترى بخلاف ذلك بعض مُنعطفات لبنان لحسن موقعها مصونةً من رياح الجنوب والشمال تنحدر الى البحر انحدارًا ليّنًا وهي امكنةٌ تهنأ فيها العيشة للطف نسيمها وتشبه جنوبيَّ فرنسة برطوبة هوائها

---

١) راجع رحلتهُ الى مصر وسورية (ج ١ ص ٢٨١)

ولا عجب ان اضحى لبنان بعد زمن قليل كمستشفى الاعلّاء يتقاطرون اليهِ لعلاج ادوائهم كما يهرع اليهِ المصيفون لينجوا فيه من وقدات القيظ ويستبدلوا روائح المدن المستكرهة بالريح الطيّبة . امّا الشتاء فيجد ذوو العاهات امكنةً في لحف لبنان يدفعون فيها بردهُ القارس ويقضون فصلهُ في مأمن من اذاهُ اذ يحميها لبنان من نفح الرياح وشدَّة العواصف وهي تقوم لاهل بلادنا مقام مدينتي « نيس » و « كانّ » وسواحل فرنسة الجنوبيَّة التي يزدحم فيها شتاء الاوربيُّون والاميركيُّون فرارًا من صبارَّة القرّ . فياليت شعري أليس خور جونية وما يُحدق بهِ من المزارع مقاماً شتويًّا يضاهي خور نابولي . ألا ترى كيف ان ريفهُ العجيب بارز لاشعَّة الشمس ولصفاء هواء البحر المُنعش وهو مع ذلك في حمىً من السموم والريح الشماليَّة . فلو شاء اصحاب الامر لجعلوا جونية محطًّا لذوي الامزجة النحيفة ومنزلًا للناقهين . وهذه البلدة تفضل من وجوهٍ عديدة وادي النيل وضفّتيهِ حيث المناظر قليلة والهواء يتقلّب تقلّبًا كبيرًا فيلي النهارَ المتوهّج الحرّ زمهريرُ الليل وصردُهُ . امّا في مواطئ لبنان فترى للآفاق محاسن متجدّدة من جبال شاهقة وبحار زاخرة وهواء رطبٍ قليل الاختلاف . وهي لعمري منافع كبرى لا تخفى طويلًا على ذوي الخبرة

ولعلَّ منتقدًا يعترض علينا بقولهِ انَّ منعطف لبنان الغربي كثير الرطوبة لتكاثف الابخرة المتصاعدة من البحر في جوانبهِ . والرطوبة كما هو معلوم لا توافق مزاج كثيرين من الناس الذين يؤثرون على المقامات الرطبة الهواء المنازلَ اليابسة

أجل ولكن لا يخلو لبنان من منافع المراكز اليابسة ايضاً وذلك في منعطفهِ الشرقيّ فاذا تسنَّمتَ اعالي هذا الجبل لا تلبث ان تبلغ بعد ساعاتٍ قلائل الى نواحٍ جافّة الهواء لا يشوب سماءها غيمٌ ولا يقرب منها ندى البحر لتوسّط لبنان بينها وبينهُ فانَّ لبنان يقسم بلاد الشام من حيث الهواء قسمين مختلفين احدهما ساحليّ نديّ الجوّ ليّن النسيم معتدل الهواء دون حرّ محتدم ولا برد شديد . والآخر شرقيّ برّيّ تختلف فيهِ الانواء وتتوالى الفصول المتباينة وهو يجدي بعض الامزجة قوّةً وصلابةً . وعلى كل حال مهما افتى الناس في تفضيل الهواء اليابس او الرطب فان العناية الصمدانيَّة لم تحرم لبناننا من خواصّ الهوائين فيختار كلٌّ منهم ما يشاء

*

٤ ولهذا الاختلاف في احوال الهواء نفعٌ آخر وهو تأثيرهُ في بنية الجسم

وغنيٌّ عن البيان انَّ طريقة العيش في زماننا وكثرة الالتباك بالاشغال ومداولة الامور والتهافت الى رَشْف إناء الملذَّات كلُّ ذلك ممَّا يضعف بنية الناس ويفقر الدم ويحطُّ بالنسل. وهذه المضرَّات في الاقطار الحارَّة الكثيرة الرطوبة كما ترى في مدننا الساحليَّة اوفرُ منها في سواهـا من البلاد لازدحام الناس في البيوت الضيّقة وتراكم الاقذار في الاسواق وقلّة تغيير الهواء . فاذا بقي اهل المدن على ذلك زمنًا قليلًا فسد لا محالة دمهم ونضب ماء حياتهم لولا انَّ اهل لبنان يهاجرون الى السواحل فيأتون بدمٍ جديد يسري في عروق الجمهور فينعش اجسامهم ويشدّد قواهم . وكما انَّ هؤلاء القادمين من مشارف لبنان يؤتون اهل الحضر دماً جديدًا كذلك الاهلون اذا ما قضوا شهورًا من سنتهم في فصل الصيف فوق ربى لبنان تجدَّدت عزائمهم او تقوَّت اعصابهم فيعودون الى ديارهم وثيقي الاركان مضبوري الخَلْق تتدفّق منهم مناهل الحياة

هذه بعض ملاحظات ابديناها لنفيد مواطنينا عن فوائد لبنان من حيث مقامه الطبيعيّ . فلا ريب انهُ لو فُقد لتلفت ايضاً معهُ اكثر ارفاق بلادنا وقفرت المواطن واصبحت التربة عقيمةً خاويةً لا تأتي بغلّاتها فكانت اشبه بفيافٍ جرداء لا يُرى فيها سوى بعض تلال من الرمل خلوة من النبات لا ماء يجري فيها ولا انهار ترويها يسكنها قوم من صعاليك البادية يتنقّلون فيها لطلب كلأ الربيع ثمَّ يرحلون عنها . وبوجيز القول ان بلاد الشام لولا لبنان كانت كالبوادي التي تجاورها من جزيرة العرب ونواحي تدمر واقفار ما بين النهرين في جنوبيّ حرَّان ونصيبين

٣

انهار لبنان : منافعها واسماؤها

١ منافع انهار لبنان جغرافيًّا واقتصاديًّا

ذكرنا غير مرّة غنى لبنان بينابيع المياه وما يترتَّب على ذلك من الفوائد الهدروغرافيَّة فنقول الآن انَّ من اعتبر هذا الجبل ورأى هيئتهُ وموقعهُ فهم ان قربهُ من البحر لا يسمح للانهار الجارية منهُ ان تتّسع احواضها اتساعاً كبيرًا .

والاحرى ان يقال ان اغلب انهار لبنان سيولٌ لا تتجاوز مسافة سيرها بضعة كيلومترات وهي تنحدر من مشارف الجبل وتندفع دفعةً واحدة الى البحر. وليس بين هذه الانهار نهر واحد يمكن زورقاً ان يجري فيهِ لكثرة انحراف هذه الانهار وما يتخلّلها من الصخور في مسيرها . ونحن لا نذكر في هذا الباب من انهار لبنان الّا ما ينضب ماؤهُ في فصل القيظ مباشرةً من الشمال الى الجنوب (١ . وكذلك ضربنا صفحاً عن بعض التفاصيل الجغرافيَّة التي تصلح لاحداث المدارس ليس في ذكرها كبير امرٍ

١ً النهر البارد شمالي طرابلس على مسافة بضعة كيلومترات منها . وهو الفاصل بين لبنان وجبل عكار = ٢ً نهر ابي علي وهو المعروف بنهر قاديشا (٢ = ٣ً نهر ابراهيم = ٤ً نهر الكلب = ٥ً نهر بيروت = ٦ً نهر الدامور

وليس لهذه الانهار كلها من الجدوى سوى انها تسقي بعض السهول الساحليَّة فتخصب تربتها في مجاريها المختلفة الطول . وربما كان هذا الخصب الناجم عن مياهها بليغاً . ولو اراد اهل بلادنا لانتفعوا من هذه المياه لغاية أُخرى وذلك بان يجعلوها كمحرّك لادوات كهربائيَّة يتخذونها لمعاملهم ولذلك سمّى البعض قوَّة المياه في تحريكها بالفحم الابيض يريدون انها تقوم مقام البخار ومواقد الفحم الحجريّ . ولمَّا كان مهبط هذه المياه شديداً وكميتها وافرة لا غروَ أن ينجم عنها قوَّةً تناسب احصنةً بخاريَّة عديدة كافية لتحريك ادوات ضخمة . وقد بلغنا آخرًا انَّ شركة لبنانيَّة نالت امتيازًا لتوليد الكهرباء بمياه نهر بيروت لتنير القرى الساحليَّة حقَّق الله الاماني

على اننا نرى في مجاري هذه الانهار خللًا فان مصبَّها يتَّسع اتساعاً كبيرًا وذلك لما تأتي بهِ المياه من الطين المجروف ولما يدفعهُ البحر الى الساحل من الرمل فتتكوَّم هذه الموادّ في وجه النهر بحيث لا تقوى مياههُ على خرقها فتتدفَّق جوانبهُ وتسيل المياه ذات اليمين وذات الشمال على مسافة واسعة . وربما استنقعت هذه المياه فحدث عنها حُمَّيات ملاريَّة خبيثة . وهذا الانحراف في مجاري الانهار قد لحظهُ العلماء في البحار التي يضعف فيها المد والجزر . لكنَّ هذا الخلل يسهل استدراكهُ بان يُحفر للنهر مسيل عند مصبّهِ . وكذلك تُنصَب اشجار الاوكالبتوس على ضفافهِ لتزول بها وخامة الهواء

١) ان نهر العاصي يستمدّ اكثر مياههِ من لبنان لكنَّ مسيلهُ خارج عنهُ

٢) لا نذكر نهر الجوز قرب البترون لانَّ ماءهُ ينقطع في فصل الصيف

وفي مقالاتنا السابقة بيَّنَّا ان النهرين البارد وابا علي بما سَحَواهُ من التربة من اعالي لبنان طمَّا جون عكَّار وكوَّنا سهل طرابلس المعروف بجودة مزروعاتهِ . ولعلَّ نهر بيروت اتى بما هو اغرب فعلًا منهما

فكلٌّ يعرف ان مدينة بيروت مبنيَّة على شبه جزيرة يتَّصل بها البحر شمالًا وغربًا وجنوبًا غربيًّا . وقد ارتأى بعض العلماء ان هذه الحاضرة انما كانت في سالف الزمان جزيرة تحدق بها المياه من كل جهاتها (١ فصارت مياه نهر بيروت والجداول المجاورة لهُ كوادي غدير ووادي شويفات تأتيها بالطين والتربة حتى ملأت البوغاص الذي كان في جهة بيروت الجنوبيَّة الشرقيَّة بينما كانت الرياح الغربيَّة تحمل اليها رمالها فاصبحت بيروت متَّصلة بالبرّ وجرى لها ما جرى لمدينة صور لمَّا ابتنى لها اسكندر ذو القرنين سدًّا عظيمًا وصل بينها وبين البرّ فتراكمت الرمال على هذا السدّ فصارت شبه جزيرة بعد ان كانت المياه تكتنفها من كل اطرافها . ولا عجب فان انتشار الرمل على سواحل سوريَّة امرٌ ظاهرٌ فترى الرمل يتقدَّم دون انقطاع . وممَّا شهد الثقةُ على صحَّتهِ ان معدَّل امتداد الرمل في كل سنة بين مدينتي غزَّة ويافا يبلغ مترًا على التقريب

هذا وان اهل بيروت كانوا يتَّخذون قديمًا ألواء الرمل سكنًا لهم ويزرعون فيها المزارع لان التربة التي يغطيها هذا الرمل طيّبة دسمة . والدليل على سكنى الاهلين فيها ما يجدهُ الحافرون من الخزف وقطع الزجاج القديم والمعادن والنواويس . والرملُ قد نشر عليها كأنها رداءَهُ وهو لا يزال يجري الى الامام . ومن يلحظ حركتهُ المتواصلة يتأكد بانهُ في مدَّة ربع قرن قد اخفى عن العيان املاكًا متَّسعة لبعض الوجهاء فالتهمها . ومنذ عهد قريب قد وجد البعض آثار بلدةٍ توارت تحت كثبان الرمل . وممَّا أثبتهُ الشاعر نونُّس (٢ عن الطريق التي يسير فيها السائر عند خروجهِ من بيروت ميمّمًا صيداء انَّها « رمليَّةٌ تظلّلها الاشجار ودوالي الكروم » على ان الشاعر لم يذكر التلال الرمليَّة التي تتخلَّلها في يومنا هذا فتجري في وسطها وذلك دليلٌ على انَّ الرمل لم يَسْطُ عليها بعد . ومن الثابت المقرَّر ان العوامل الطبيعيَّة لا تزال تذرّي هذه الرمال فتجرف مياه

---

١) راجع كتاب ريتر (ص ٤٣٠)

٢) راجع كتاب شعره (Dionysiaques, ch. 41, v. 40 - 45)

البحر وتنسفها الرياح حتى نكاد نرى حركتها رأي العين فما قولك بعملها على كرور الادهار لاسيّا اذا اضفتَ الى هذه العوامل ظواهر أُخر خارقة العادة كالزلازل والاهتزازات الارضيَّة التي ربَّما رفعت بحضيض الارض ومسيل الاودية . وفي سواحل فينيقية من آثار هذه الزلازل ما هو مشهور (راجع مقالتَيْنا عن الزلازل في المشرق ١ [١٨٩٨] : ٣٠٣ و ٢ [١٨٩٩] : ٩٧٠)

وممَّا يشهد على ما اصاب بيروت ونواحيها من الطوارئ الجيولوجيَّة انَّ هذه المدينة كانت في سالف الزمان مزدانةً بعدَّة جزائر لا نرى اليوم منها اثرًا . فان الشاعر اليوناني نونُّس المذكور (١ اشار اليها في جملة وصفه لبيروت فدعا هذه المدينة « الجميلة الجزائر εὔνησος » وهي لعمري شهادة حسنة اتى بها شاهدُ عينٍ سكن بيروت ردحاً من الدهر لم يفتهُ شيء من احوالها . وقد جاء في خارطة لاتينيَّة يرتقي عهدها الى القرن الثاني عشر رسم جزيرتين متوسّطتين في الكبر قريبتين من بيروت (٢ . وكذلك ورد في تواريخ الصليبيين ان الرهبان المعروفين باسم بريمنتراي (Prémontrés) كانوا يسكنون ديرًا موقعهُ في جزيرة على مقربة من بيروت (٣ . وفي هذه الشواهد ما يدلُّ على انَّ هذه الجزر غير الصخور الثلاثة او الاربعة التي نراها اليوم عند راس بيروت او عند مصبّ نهرها

ولكن متى توارت هذه الجزائر ؟ ليس لنا في ذلك نصّ صريح ومن المرجَّح انَّها انخسفت في الزلزال الذي ذكرهُ المقريزي في تاريخ المماليك (٤ في تاريخ سنة ٦٦٠ ﻫ (١٢٦١ م) حيث قال ان سبع جزائر بين عكَّة وطرابلس غاصت في لجج البحر . وقولهُ هذا يطابق الآثار التاريخيَّة التي لم تعُد تذكر فيما نعلم الجزائرَ المجاورة لبيروت بعد القرن الثالث عشر

والنهران الاخيران اللذان يجريان في جنوب لبنان هما الاوَّلي وهو نهر صيداء ثم الليطاني الذي يحدُّ لبنان في جنوبيّهِ وهو نهر صور . ولكلا النهرين علاقة مع المدينة

١) راجع الكتاب السابق ذكره (Chant 41, v. 15)
٢) راجع المجلَّة الفلسطينيَّة الالمانية (ZDPV, XVIII)
٣) راجع المجلَّة ذاتها (ج ١٠ ص ٢١٠ و ج ٢١ ص ١١٦)
٤) راجع طبعة كاترمار Quatremère : *Sultans Mamlouks, I, 1re partie*, p. 145

التي يجاورها وقد اغناها بمنافعهِ الجمّة الاقتصاديّة . ونهر الاوّلي يجري في منعطف لبنان الغربي ولا يتجاوز طولهُ ٤٥ كيلومترًا اما الليطانيّ فينفذ في وسط هذه السلسلة ويتخلّلها . ومنبعهُ في البقاع بين الجبلين الغربيّ والشرقيّ وطول مجراهُ ١٥٠ كيلومترًا . وخطرهُ عظيم من حيث الزراعة والاقتصاد لانهُ ليس فقط يفتح طريقًا في خلال الجبل كما يفعل الاوّلي ولكن ايضًا لانّ هذه الطريق توصل ساحل مدينة صور بسهول فيحاء وبطائح غنّاء كالبقاع وغوطة دمشق ووادي العاصي . ولا غروَ ان تجار صور من الفينيقيين قدّروا هذه المنافع قدرها ونهجوا هذه الطريق رغبةً في الارباح البالغة

امّا وادي الاوّلي فهو دون وادي الليطاني شأنًا وخطرًا الّا انهُ اغنى منهُ واخصب وفي مسيرهِ على ضفّتيهِ مسالك وطرق تُفضي الى البقاع والى عدّة قرى كان الاهلون يقضون فيها فصل الصيف ويتاجرون بغلّاتها كما يفعل اهل صيداء في ايّامنا في القرى الواقعة قرب الباروك وجنوبيّ جزّين

ولولا الاوّلي والليطانيّ لما وُجدت صور وصيداء فان بُناتهما اختاروا مصبّ هذين النهرين لما كانوا ينتظرونهُ منهما من العوائد التجاريّة وهو الامر الذي جعل لهاتين الحاضرتين شأنًا تجاريًّا لم تبلغهُ بيروت وجبيل لخلوّهما من نهرين يجديانهما من المنافع ما احرزتهُ صيداء وصور بنهريهما

٣

اسماء انهر لبنان قديمًا وحديثًا

قلنا انّ اوّل أنهُر لبنان شماليًّا نهر البارد . والمظنون انهُ هو النهر الذي دُعي قديمًا بروتّس (Bruttus او Brutus) وان اشتقاقهُ من اصل ساميّ

ولكنّنا نجهل الاسم الذي عُرف بهِ عند القدماء النهر الثاني اي ابو عليّ . كما اننا لم نجد في كتب العرب سبب هذه الكنية او الرجل الشهير الذي اعارهُ اسم ابي عليّ

امّا نهر ابراهيم فقد مرّ ذكرهُ في مقالة سابقة (راجع الجزء الاوّل ص ٥٨) حيث اثبتنا ما يختصّ باسمهِ القديم ادونيس (اي تموز) وباسمهِ الحديث

وكذلك لا حاجة الى تكرار ذكر نهر الكلب وتعريف اسمائهِ وقد سبق لنا في ذلك فصل مطوّل (تسريح الابصار ج ١ ص ٦)

وان تخطَّينا الى نهر بيروت وجدنا ان اسمهُ مشبوهٌ بهِ وان كان الرأي الشائع انهُ هو نهر ماغوراس الذي ذكره پلينيوس في تاريخهِ الطبيعي (ك ٥ ف ١٧) فجعلهُ في جوار بيروت . وفي قولهِ هذا نظر اشرنا اليهِ في اول مقالاتنا عن آثار لبنان (تسريح الابصار ج ١ ص ٤)

وممَّا حمل العلماء على القول بانَّ ماغوراس هذا هو نهر بيروت ان پلينيوس جعله على مقربة من بيروت وليس لهذه المدينة نهر آخر الَّا النهر المنسوب اليها فضلًا عن اننا نعرف الاسماء القديمة التي أُطلقت على الانهر الواقعة جنوبيَّ بيروت وشماليَّها ما عدا اسم نهرها

على انَّ بعض العلماء شكُّوا في ذلك وظنُّوا ان مقصود پلينيوس بنهر ماغوراس انما هو نهر الدامور لانهُ في وصفهِ لمدن الساحل مباشرةً من الجنوب الى الشمال ذكر ماغوراس قبل بيروت كأنهُ جعله جنوبي هذه المدينة وهو كما لا يخفى في شماليها . ولأن پلينيوس ضرب صفحاً عن ذكر الدامور ظنُّوا انهُ دعا هذا النهر باسم ماغوراس

هذا الرأي لا يخلو من شبه الصحَّة بيد اننا نفضِّل القول بان پلينيوس لم يُراعِ النظام الطبيعي فقدَّم ذكر النهر على ذكر المدينة بدلًا من ان يؤخرهُ . ومثل هذا التقديم والتأخير كثير في كتب القدماء . او يُقال انَّ هذا الامر جرى على يد النسَّاخ سهوًا منهم . ومن ثمَّ فانَّ الرأي الاصحّ عندنا ان ماغوراس هو نهر بيروت ليس نهر الدامور . فعسى العلماء ان يجدوا كتابةً تؤيد رأينا وتزيل كلَّ شبهة عن نصّ پلينيوس وهو الكاتب الوحيد الذي ذكر اسم ماغوراس

هذا وان نهر الدامور قد تكرَّر في كتب القدماء وهم يدعونهُ تاميراس وقد عرفهُ المؤرخ پوليبيوس باسم داموراس (Δαμούρας) والمشابهة بين الاسم القديم والحديث ظاهرة . وكذلك لا شبهة في تعريف اسم « الاوَّلي » القديم . فان الكتبة قد دعوهُ بُستْرينوس (Bostrenus)

بقي آخر انهار لبنان جنوبيًّا وهو الليطاني فانَّ في تعريف اسمهِ القديم مشكلًا عظيماً ولعلَّ القدماء لم يتعرَّضوا لذكرهِ وقد شاع اليوم عند الكتبة المحدثين ان

الليطاني هو نهر لاونتيس (Leontès) او نهر الاسد (Λέοντος πόταμος) الذي ورد اسمهُ في بعض تآليف اليونان فحُرّف بالليطاني . وكنّا نحن ايضاً جنحنا الى هذا القول (راجع الجزء الاوّل ص ٩) لما فيهِ من شبه الحقيقة . لكنّ في هذا الرأي عقبات كما سترى

فلنباشر اولًا بذكر الاشياء المقرَّرة التي لا يُختلف في صحّتها

من المعلوم ان اسم هذا النهر حاليًّا الليطاني ويُدعى عند مصبّهِ بالقاسميَّة . وعلى الاصحّ انهُ عُرف بذلك لمزار هناك يدعى النبي قاسم . وزعم البعض ان القاسميَّة مشتقَّة من القَسْم كانّ النهر قاسمٌ بين صور وصيداء او بين بلاد الشقيف وبلاد بشارة وهو رأي باطل لا سند لهُ والدليل على بطلانهِ انهُ لا يُطلق عليهِ هذا الاسم تحت قلعة الشقيف لمَّا يلتوي عن سيرهِ الجنوبي فيجري الى البحر بل عندما يتجاوز جسر القعقعيَّة. فلو كانت نسبتهُ الى قَسْم البلدين اصدق الاسم عن كل مجراهُ الجنوبي لا عن مصبّهِ فقط . ثمّ ان هذا الاسم معروف منذ بضعة اجيال ذكرهُ خليل الظاهري في كتابهِ زبدة كشف الممالك والمقريزي في تاريخ المماليك (١

امَّا اسم الليطانيّ فانهُ قد ورد في اوصاف البلدان لكتبة العرب على صورة « ليطة » فكذا دعاهُ شمس الدين الدمشقي (ص ١٠٧) وابو الفداء في حاشية على تقويم البلدان وصاحب التعريف في المصطلح الشريف (ص ١٨٢) وقبلهم الشريف الادريسي في كتاب نزهة المشتاق (٢ . ويروى ايضاً في بعض النسخ « لنطة » بدلًا من ليطة وليس لليطاني ذكر في جغرافيي العرب غير هؤلاء . ولا عجب فان العرب قلّما كتبوا في أنهر لبنان فلا تكاد تجد من اسمائها في تآليفهم سوى ثلاثة او اربعة

وان بحثنا عن الليطاني في مصنَّفات سابقة لعهد مؤلفي العرب اي قبل القرن الثاني عشر وجدنا كتبة اليونان والرومان اقل صراحةً من العرب ولعلّهم ضربوا عنهُ صفحاً . وانما نستثني منهم اسطرابون الذي اشار الى الليطاني اشارةً صريحة حيث قال: «ويجري قرب صور نهر » بيد انهُ لم يُفدنا عن اسمهِ شيئاً . وان استطعتَ بقيّة المؤلفين

(١ Quatremère : *Sultans Mamlouks*, II, 1 partie, p. 174

(٢ راجع طبعة غلدميستر ص ١٢

كسكيلاكس وبمپونيوس ميلا وپلينيوس وبطلميوس لا ترى لهم كلمةً عن هذا النهر كما انهم لا يذكرون البتَّة نهر الزهراني الذي يجري جنوبي صيداء

قلنا ان كتبَة اليونان لم يذكروا الليطاني · أجل لكنَّ بعضاً منهم ذكروا نهر لاونتوس (Λέοντος πόταμος) فلِمَ لا يكون هذا النهر هو الليطاني فيكون جرى على الاسم اليوناني بعض تحريف لمَّا نُقل الى العربيَّة · نجيب اننا لم نكن لنتردَّد في تصويب هذا القول لولا ان بطلميوس (ك ٥ ف ١٤) جعل هذا النهر بين بيروت وصيداء وهذا لا يوافق الليطاني كما لا يخفى · وكذلك نرى تشويشاً عظيماً في ما كتبهُ هؤلاء المؤلفون في « لاونتوس » التي نُسب اليها هذا النهر فهم يقولون انهُ كان في ساحل فينيقية مدينة تدعى لاونتوپوليس ومنهم من يجعلها بين بيروت وصيداء جنوبي نهر الدامور · وهو رأي اسطرابون الجغرافي · امَّا پلينيوس فيزعم ان موقع لاونتوپوليس بين بيروت ونهر الكلب · وفي جغرافيَّة سكيلاكس ان هذه المدينة جنوبي صيداء · وهذه كلها آراء متضاربة واقوال متباينة لا يستفاد منها شيء صريح في امر اسم الليطاني عند اليونان امَّا لاونتوپوليس فسيأتي ذكر موقعها قريباً

ومن غريب الامور ان الاسفار الالهيَّة لم تنوّه باسم الليطاني مع انهُ كان على الرأي الارجح احد حدود الاراضي المقدَّسة (١ · فترى ممَّا سبق ان تعريف موقع هذا النهر واسمهُ وتاريخهُ القديم لمن المعضلات التي استغلق بابها على الباحثين في مجاري المياه اللبنانية

ولكن دعنا ننظر لفكّ هذا المشكل في الكتابات التي سبقت عهد بني اسرائيل فلعلّنا اذا رقينا في سلّم الادهار وقفنا على حقيقة الامر كما ان مياه الانهار تزيد صفاء اذا قربت من مخرجها

واعلم انهُ قد ورد في الكتابات المصريَّة الهيروغليفيَّة اسم قديم يدعى « رطنو » و « رنتو » و « رتينو » موقعهُ شمالي فلسطين وحيث اليوم سهل البقاع الذي فيهِ يجري الليطاني · ثم انَّ الراء في اللغة المصريَّة من الحروف الذُّلق التي كثيرًا ما تُبدل

---

١) راجع المجلَّة الكتابيَّة سنة ١٨٩٣ (ص ٢٣)

باللام فتكوّن « رطنو » و « لطنو » عبارة عن اسم بلدٍ واحد (١ . ومن ثمَّ فليس بمستبعد أن يكون اسم الليطاني اشارة لهذا القطر ومعناهُ « النهر الجاري في بلد لطنو » فقيل اختصارًا « ليطاني » كما نقول نهر بيروت ونهر عكّار دلالةً على البلد الذي يجري فيهِ هذان النهران

وعلى رأينا ان هذا الشرح اقرب الى الحقيقة في تعريف اصل اسم الليطاني القديم امّا اسمهُ اليوناني فلا سبيل الى توفيقهِ على ما كتبهُ اليونان بخصوص نهر لاونتوس . والله اعلم

٤

سُكْنى لبنان في قديم الزمان

ان لبنان من احفل ولايات الدولة العليّة بالسكان فان معدّل أهاليهِ يبلغ ٦١ نفسًا في كل كيلومتر مربّع . وهو لعمري عددٌ بليغ لا تتجاوزهُ الّا ولاية دار السلطنة وجزيرة ساموس . فان معدّل قاطني الولاية الاولى هو ١٦٢ شخصًا في كل كيلومتر مربّع امّا ساموس فاهلها ١١٣ نفسًا في الكيلومتر . الّا انهُ لا يجوز المقابلة بينها وبين لبنان لانَّ ولاية دار السعادة تشمل الاستانة العليّة وهي كما لا يخفى من حواضر المدن واكثرها سكنًا فيزداد بعدد اهلها معدّل اهل الولاية التي هي داخلة فيها . وكذلك ساموس فانها جزيرة كثيرة الخيرات حسنة التربة ليس فيها جبال عالية فلا عجب اذا تقاطر اليها الناس ليستوطنوها . امّا لبنان فعبارة عن سلسلة جبال عالية كثيرة الصخور قليلة الخصب ومع ذلك ترى مصانعهُ وقراه متقاربة كثيرة الاهلين بحيث يصحُّ القول انهُ لا يوجد في قطر آخر جبل يربو عدد سكّانهِ على سكّان لبنان

على انَّ الامر لم يكن كذلك في سالف القرون فانَّ لبنان طالما كان قفرًا مقفرًا لا يأوي اليهِ الّا كواسر الوحوش ولبيان ذلك ها نحن نبحث في هذا الشأن لنرى كيف احتلَّ لبنانَ سكّانهُ اوّلًا قبل عهد النصرانيّة ثم ثانيًا في زمن الرومان واخيرًا منذ

---

١) راجع في مجلة اللاهوت الكاثوليكي (Zeitschrift f. kathol. Theologie, 1902, p. 402) بحثًا حسنًا في ما نحن بصدده للدكتور شندا نزيل كليّتنا سابقًا

دخول الموارنة فيهِ وهي اطوار ثلاثة توافق احوال هذا الجبل الثلاث من حيث السكن فنمت الاهلون الى ان بلغ عددهم الى ما نراه اليوم

*

اعلم انهُ ممَّا لا يختلف فيهِ اثنان ان جبل لبنان كان في الاعصار الغابرة قليل السكن ولا غروَ فانَّ وَضع هذا الجبل وهيئتهُ واحوالهُ الطبيعيَّة والجغرافيَّة ممَّا يمنع عن توارد السكَّان اليهِ . فانَّ مشارفهُ العليا صرودٌ لا يمكن سكناها لبردها ليس فقط في فصل الشتاء لكن ايضًا في بقيَّة السنة . وهي المنطقة التي تعلو ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر . فان القسم الذي يعلو هذا الخط يُعرف بالجرود لانَّ ارضهُ جرداء كثيرة الصخور لا ينبت فيها الزرع الَّا ضاوياً وبعد عناء ومشقَّة . ونزيد على ذلك ان لبنان كلَّهُ لم يقم قطّ بمعاش اهلهِ لا سيا في عهدنا مع تزاحم السكان فيهِ . وليس هذا ناجماً عن تغافل اللبنانيّين وتكاسلهم لانَّ كل الكتبة لسان واحد على همَّة قطَّان هذا الجبل وملازمتهم العمل ومواظبتهم على الفلاحة . وفي جانب آخر ليس للبنان مناجم معدنيَّة يمكنهم الارتزاق برافقها تعويضاً عمَّا ينقصهم من الغلَّات . وكذلك ترى اسباب التجارة قليلة في لبنان لا يُعبأ بها لانَّ الطرق التجارية لا تخترقهُ فتغنيه قوافل المتاجرين . بل الاحرى ان يُقال انَّ جبالهُ كسدٍّ قائم في وجه الامم الواقعة على عِطفَيهِ فترى بينهما فرقاً كبيرًا من حيث الهواء والنبات وكلاهما يختلف في وجه لبنان . واذا استقريت التاريخ وجدت سياسة شعوبهما متباينة يعيش كلُّ شعب على حدةٍ معتزلًا عن الآخر مع كونهم ينتمون كلُّهم الى عنصر واحد

وممَّا يشهد على صعوبة السكنى في لبنان انك لا تجد في خلال جبالهِ سوى مسالك حرجة وشعاب ضيقة لا تُقطع الَّا بالجهد الجهيد . امَّا السُّبُل التجاريَّة اللاحبة التي كانت القوافل تسلكها فانَّها كانت تمرّ شماليّ لبنان وجنوبيَّهُ فتعطف في وادي النهر الكبير او تجاري سيرَ نهر الليطانيّ والطريق الاولى هي التي اغنت طرابلس في الزمن القديم امَّا الثانية فكانت مجلبةً لثروة صور العظمى . وبعكس ذلك لم تُصب بيروت مقاماً كبيرًا في التجارة اذ كان يفصل بينها وبين دمشق والبلاد الداخليَّة سلسلتان من الجبال المرتفعة الى ان فُتحت طريق الشام بعد السنة ١٨٦٠ ثمَّ أنشئت

السكّة الحديدية.فانتصر الانسان بكدّ جبينهِ على ما اقامتهُ الطبيعة في وجههِ من العراقيل والعوائق

هذا واذا تصفّحنا أقدم ما سطّرهُ المؤرّخون عن لبنان وجدناهم يصفون هـذا الجبل بغاباتٍ كشيفة ثرّينهُ · ويوافق هذا الوصف ما ورد في الاسفار المقدّسة واقدم الآثار الاشوريّة · وقد دامت هذه الحالة قرونًا متواترة كما يشهـد على ذلك مؤرخو اليونان والرومان الذين اثبتنا نصوصهم مرارًا في مطاوي كلامنا عن الارز (ج١ ص١٣٤) وفي مقابلتنا بين لبنان وجبال الالب (المشرق ١[١٨٩٨] : ٧٢١)·ومن عجيب الامور انّ هؤلاء الكتبة لا يذكرون البتّة شيئًا من قرى لبنان وانّما يعدّون فقط المدن الفينيقيّة الواقعة على ساحل البحر · نعم انّ بعض المستشرقين استشفّوا من وراء اسم « امّيا » الوارد في مراسلات تلّ العمارنة (المشرق ٣ : ٧٨٩) قرية « اميون » الّا انّ الامر ليس بمقرّر فضلًا عن ان اميون واقعة في سهل منبسط طيّب التربة قليل الارتفاع وليست هي في وسط لبنان

واوّل ما ورد من اسماء الدساكر اللبنانيّة في اساطير المؤرخين انما جاء في جغرافية اسطرابون اعني قبل تاريخ الميلاد بزمن قليل بعد ان فتح پمپيوس بلاد الشام ألا وهي اسماء ثلاثة حصون او قل بالاحرى ثلاثة عشوش للصوص تدعى جيغرتا وسنّان وبرومة (المشرق ٢ : ٥٠٧) ومواقع اخرى مثلها اكثرها قريب من البحر · وممّا يستدلّ من مجرّد ذكر هذه الحصون انّ سكنى الجبل كانت محفوفةً بالاخطار لا يتوطّنهُ الّا قليل من السكّان· وسنعود الى ذكر هؤلاء اللصوص عند كلامنا عن الايطوريين وهم قومٌ من عرب حوران امتزجوا بالعنصر اللبناني

امّا الكتابات القديمة فهي عزيزة جدًّا في لبنان وكلّ ما وُجد منها لا يتجاوز قِدمهُ اوائل التاريخ المسيحيّ وقد اكتُشف معظمُها قريبًا من الساحل ليس بعيدًا من جُبيل وبيروت وهذا دليل واضح على قلّة سكّان لبنان قبل المسيح · ولنا ايضًا على قولنا برهان آخر في ما نراه من الاخربة القديمة في لبنان فانك قلّما تجد بينها من الآثار السابقة لعهد النصرانيّة وكذلك النقوش المحفورة على الصخور فهي كلها من عهد الرومان اللهمّ الّا نقوش وادي بريسا قرب الهرمل وسيأتي ذكرها

ومع كلّ هذه الشواهد انّنا نرجّح كون لبنان لم يخلُ من بعض المراكز الآهلة

كان موقعها في وسط الجبل اتّخذها الاقدمون في بعض الوديان والبطائح الحسنة التربة الكثيرة المياه السهلة الزراعة (١ . وكذلك كنت ترى في خلال الغابات منازل للحطّابين كانوا يعدّون فيها الخشب لاسيّما الارز الذي كان القدماء يقبلون عليه لتجهيز مبانيهم ومنهُ كان الفينيقيّون يعمّرون سفنهم واساطيلهم (٢ . ولعلّ بعض القرى التي تُعدّ من اقدم دساكر لبنان كاهدن وبشرّاي ابتدأت على هذه الصورة فكانت اوّل امرها كمصانع لتحطيب الارز وغيرهِ من الاشجار الجبليّة العظمى . وقد اوردنا في ما مرّ كتابات يونانيّة وُجدت في اهدن ترتقي الى التاريخ المسيحي ومنها يستدلّ على انّ تلك القرية سبقت عهد النصرانيّة . امّا بشرّاي فان اشتقاق اسمها على رأي البعض من اسم الالهة عشتار وبهِ دليل كافٍ على قدم عهدها

ومن القرى التي نرجح قدمها الهرمل الواقعة على منعطف لبنان الشرقيّ . ولا غروَ فانّ موقعها في بطحاء مخصبة غزيرة المياه ممّا يستدعي الى استعمارها وبقربها وُجدت صفيحتان فيهما كتابات اشوريّة قديمة نشير اليها قريباً

ومن الامكنة التي نزلها الناس في غابر الاعصار بعض المقامات التي اتخذها الاهلون كمناسك دينيّة منها اليمّونة وفقرا ودير القلعة ومشنقة . فان هذه المحلّات وان لم يرد ذكرها قبل ايّام الرومان فانّ اصلها فينيقيّ محضٌ لا محالة

وعلى هذه الصورة اضحى لبنان شيئاً فشيئاً معدّاً للسكن . فانّ الاهلين ضربوا اطنابهم اوّلاً قريباً من المدن الساحليّة وفوق رُبًى لا يتجاوز علوّها من ٤٠٠ متر الى الف متر حيث الهواء لطيف والرزق مضمون . ثمّ اخذ لبنان يُجرَّد من احراجهِ الكثيفة الدغلة لمتاجرة الاهلين بخشبها فصار الناس يفلحون الاراضي التي نُزعت عنها الادغال ويشيّدون المباني للسكن وكان ذوو الثروة من اهل الساحل يتوقّلون في فصل القيظ مشارف لبنان ترويحاً للنفس وطلباً للراحة بعد ما تجشّموه من الاسفار الشاقّة

*

فاخذ من ثمّ القطين يتوغّلون في لبنان فازداد عددهم ونموا خصوصاً بعد الفتح الروماني . وقد اسلفنا فوصفنا ما نجم عن دخول الرومان في سوريّة من المنافع الجمّة

١) وممّا زُرع فيها الجَفْنة فان هوشع النبيّ ذكر في كتابهِ (١٤ : ٨) خمر لبنان واطراهُ
٢) راجع ما سبق لنا في الجزء الاوّل في هذا الخصوص

(راجع الجزء الاوّل ص ٢٠) فان تملّكهم رفع بهـا الى اعلى مقامات العمران والتقدّم . فهم الذين قصّوا اجنحة الفتن ومـدّوا أروقة السلام فوق كل الاهلين على اختلاف اجناسهم . ومن اعمالهم المشكورة انهم استأصلوا شأفة اللصوص الذين كانوا تحصّنوا في لبنـان فدكّوا معاقلهم واعادوا الأمن الى السكّان (ج ١ ص١٤٦) .
فراجت اسواق التجارة واضحت المدن الساحليّة محطًّا للقوافل ومركزًا للمعاملات لاسيّما جبيل وبيروت وصور فانتشرت منها هذه الحركة الى ضواحي لبنان المجاورة لها .
وممّا زاد في خصب الجبل ما ابتناه الرومان من القنيّ لجلب مياه لبنان من عيونهـا فكان ذلك من ادعى الوسائل لنشر الحضارة وتلطيف الهواء في مـدن الساحل . ومنها ايضاً السكك الرومانيّة التي كانت تستدير سائرةً حول لبنان . واحدى هذه السكك كانت تخترق الجبل في عرضهِ سائرةً الى جنوب العـاقورة ومنها الى بعلبك (المشرق ٢ [١٨٩٩] : ٣١٤) . ولما كان لبنان لم يزل بعدُ مزداناً بغاباتهِ سعى الرومان باستثمارها ووضعوا لذلك قوانين مملوّةً حكمة اشرنا اليها سابقاً

ولا عجب اذا رأينا لبنان في ايّام الدولة الرومانيّة تغيّرت احوالهُ وترقّت شؤونهُ والى ذلك العهد تنتمي عدّة كتابات منها يُستدلُّ على وجود قرى وضياع او بالاحرى مزارع ودساكر . ومن غريب امر هذه الكتابات انّها لا تحتوي عَلَماً لمكان واقع في قلب لبنان . ومجمل ما تتضمّنهُ اعلامٌ شخصيّة فقط

وفي ذلك العهد استبدل الرومان المعابد الفينيقيّة الصغرى بهياكل فخيمة يتولّاها عدد غفير من السّدنة وارباب الدين فكان يتقاطر اليها الزوّار زرافاتٍ ومنهم من كانوا يختارون تلك الامكنة لسكناهم فأُنشئت عدّة قرًى حول هـذه المقامات الدينيّة . وكان لهذه الهيا كل ارزاقها وغاباتها المقدّسة واوقافها وكرومها . ومعلومٌ انهُ لا بُدّ من القيام بكل هذه الاملاك من عملة وفلّاحين يستثمرونها (١ . فلا غروَ ان ضيعاً كثيرة ظهرت على هذه الطريقة الى حيز الوجود نخصّ منها بالذكر قرية دير القلعة التي كان يحجّ الى هيكلها اهل بيروت ويقضي فيها مستعمرو الرومان فصل الصيف

والى هذا الزمان ننسب ما اكتُشف في امكنة عديدة من الآثار الزراعيّة وادوات

---

١) راجع قاموس العاديّات اليونانيّة والرومانيّة لساغليو (Saglio) ك ١ ص ١٥٠١

الفلاحة كالمعاصر والاجران والرحي الضخمة (المشرق ٥ [١٩٠٢] : ١٠٧) والنواويس ومدافن لا يستقصى عددها منقورة في الصخور وكان الرومان كلفين بغرس الكروم فبعثوا همّة الاهلين على فلاحتها فما عمّت صنوف الخمر اللبنانيّة ان اشتهرت في العالم الروماني فعُرفت بالخمور البيروتيّة (راجع بلينيوس ك ١٤ ع ٧ , ٩ وك ١٥ ع ١٧ , ١٨) . ومن ادلّة الزراعة انّك ترى بين اليمّونة وبعلبكّ كتابات عديدة تحدُّ الاملاك وتفرز بينها . وفي امكنة اخرى كتابات غيرها منها لاتينيّة ومنها يونانيّة يُستفاد منها تعدُّد السكّان وتوفُّر المنازل . وهذه الكتابات قد اثبتناها في مقالاتنا في مطاوي كلامنا عن كل محلّ بمفردهِ فلتُراجع . ولدينا غيرها ايضًا سنثبتها ان شاء الله عند بحثنا عن القرى الواقعة في المنعطف الشرقيّ من لبنان حيث نشأت قرى عامرة بعضها في جوار بعلبكّ وبعضها في ضواحي زحلة كفرزل ونيحا وجديتا . وممّا يجدر بنا ذكرهُ انّ كلّ هذه الكتابات والعاديّات لا تتجاوز القسم المتوسّط من لبنان اعني الى نحو ١٠٠٠ متر من سطح البحر وفي ذلك دليل على ان القسم الاعلى لم يُتّخذ بعد للسكنى وانما كانت الغابات تكلّلهُ كما في القُرون السالفة

*

وفي اثناء ذلك ظهرت النصرانيّة ففتح ظهورها بابًا جديدًا للتمدُّن والحضارة في لبنان. فانّ المستعمرات الرهبانيّة التي ذكرناها سابقًا (ج ١ . ص ١٠٩) اتّخذت لبنان منزلًا لاعمالها النسكيّة وقد اختارت لذلك اقفر ما وجدتهُ من الاودية فصار النسّاك يُجيلون فيها يد الحراثة . حتى اضحت هذه المناسك بعد قليل مراكز لضياع عديدة كما جرى في اوربّة حيث ترى مدنًا كثيرة كانت في اوّل امرها ديورة للرهبان أوى اليها القوم فصارت مع تمادي الأيّام بلادًا واسعة

ولكن لا يسعنا السكوت عن امر يذهلنا ايَّ انذهال وهو قلّة الآثار النصرانيّة في لبنان قبل القرن السابع فانك لا تكاد تجد اثرًا واحدًا منها يمكن نسبتهُ الى النصارى بلا ريب مع كثرة العاديّات الوثنيّة الموجودة في انحاء الجبل . وكذلك ترى من الكتابات اليونانيّة واللاتينيّة قسمًا صالحًا وهي كلّها لعبدة الاصنام اللهمّ الّا خمس او ستّ منها باليونانيّة . فياليت شعري ما السبب في ذلك . أليس هذا دليلًا على ما لاقتهُ النصرانيّة في سبيلها من العراقيل لمّا حاولت ان تنشر تعاليم الخلاص

بين اهل لبنان . ولنا في تعليل ذلك سبب آخر وهو ان الفوز الاخير الذي نالهُ الدين النصراني في لبنان انّما كان على يد قوم من الآراميين ليس من اليونان ولذلك لا تجد من الكتابات اليونانيّة النصرانيّة الّا النزر القليل

فان تخطّينا الآن الى ذكر تاريخ لبنان في القرن السابع وجدنا هذا الجبل قد دخل في طورٍ جديد بظهور المردة والموارنة الذين لعبوا دورًا مهمًّا في طوارئهِ المختلفة . وكان قبلهم لم يُفلَح منهُ الّا ساحلهُ ووسوطهُ بعد تجرّدها من غاباتها امّا لبنان الاعلى والجرد منهُ فانهُ لم يزل قفرًا خالياً من السكّان حتى أوى اليه الموارنة فاضحى معمورًا حافلًا بالقطين كبقيّة نواحي لبنان . وسنبيّن ان شاء الله قريباً كيف تركّبت الامّة المارونيّة الّا اننا نقدّم على هذا البحث فصلًا آخر في شعوب لبنان القديمة وسكّانهِ الاوّلين

٥ الامم البائدة في لبنان

انّ بين الامم التي سكنت في سالف الازمنة مشارف لبنان واوديتهُ شعوباً دثر رسمهم وباد اسمهم . ومنهم من خلّفوا لهم ذكرًا كبني كنعان والفينيقيين والآراميين فاحتلّوا ربوعهُ وتوالوا في سكناه فصارت سلالتهم كنواة هذه الشجرة الكثيرة الفروع والعنصر الاصلي لسكّان لبنان الحاليين . وليس في خاطرنا ان ندوّن هنـا اساطير هـذه الامم فانّ ذلك يقتضي كتاباً ضخماً يخرج بنا عمّا تحرّيناهُ من الخطّة في الكتابة وانّما نبحث فقط عن بعض هؤلاء الشعوب الذين يهمّنا ذكرهم ممّن قحموا على لبنان فاستوطنوهُ كلّهُ او قسماً منهُ ردحاً من الزمان ثم درسوا امّا بالمهاجرة الى غيرهِ من الاقطار-وامّا بفتوح الفتّاحين او باختلاط بعض بقاياهم بالعناصر الواردة الى لبنان

وهذا النظر العمومي مع قصره كافٍ ليحيط قرّاؤنا علماً باخلاط القبائل والامم الشتى التي يتركّب منها اهل لبنان وفي بحثنا هذا نتّبع آثار شعبٍ فشعبٍ على حسب توالي الازمنة وكرور الاجيال

١ الحثّيون

لم يكن ذكر الحثيين مستفيضاً بين العلماء قبل اواسط القرن الماضي . وغاية ما كنّا

نعلم من امرهم ما ورد من اخبارهم في الاسفار المقدَّسة . فانَّ ابراهيم الخليل عقد معهم عهداً ذكرهُ سفر التكوين (ف ٢٣ ع ١٠ — ٢٠ وف ٢٥ ع ١٠) . وكذلك قد اتَّخذ عيسو بن اسحاق امرأتين من بني حثّ (تك ٢:٣٦) ومن نسلهم كان اوريّا الحثّي زوج بتشابع احد قوّاد جيوش داود . هذا الى اشارات أُخرى عديدة يلمّح اليها الكتاب الكريم ويؤخذ منها ما كان عليهِ الحثيّون من عظيم الشأن وكبير الامر . على ان بعض الكتبة لم يأنفوا من انكار هذه الامور او الارتياب في صحّتها وذلك لانهم لم يجدوا في غير الاسفار المقدَّسة ما يؤيد صدقها . وكانوا يزعمون انهُ ليس بين المؤرخين كاتب واحد ذكر الحثيين

وقد شاء الله ان تشهد الاكتشافات الحديثة لصحّة ما ورد في كتبهِ المنزلة وهاك بيان الامر : كان بلغ علماء العاديّات منذ اوائل القرن التاسع عشر انَّ في مدينة حماة صفائح من الحجارة الضخمة عليها كتابات تشبه بعض الشبه الكتابات الهيروغليفيَّة المصريَّة وهي تختلف عنها . ولم يتسنَّ لاحد من الآثاريين ان يفحصها فحصاً مدقّقاً الى عام ١٨٧٢ . فلمّا تفرَّغوا لدرسها في تلك السنة اخذ الدهش منهم كل مأخذ اذ تحقّقوا انَّ الكتابات المذكورة للحثّيين وانْ هي الَّا الآثار الاولى التي تنبئ عن دولتهم العظمى التي امَّحى ذكرها (١ . فجعل العلماء ينعمون النظر في آثار تلك الامَّة ويبحثون عن دفائن أُخرى توقفهم على اسرارهم فما كذَّبوا ان اكتشفوا بعد زمن قليل عدَّة آثار ازالت كل الشبهة فوجدوا العاديّات الحثيَّة متعدّدة في حلب الشهباء وفي سهل عمق شرقي انطاكية وقريباً من الاسكندرونة وفي مرعش وجرابلس على ضفَّة الفرات وفي جهات أُخرى من بلاد الاناضول . وكانت هذه العاديّات امَّا كتابات منفردة وامَّا كتابات مع بقايا ابنية فخيمة او تماثيل او نقوش منقورة في الصخور او خواتيم وغير ذلك ممَّا أطلع اصحاب النقد على تمدُّن واسع قائم بذاتهِ . فمذ ذاك الحين دخل الحثيّون في نطاق التاريخ ولم يعد احد يشكّ في وجودهم

ثم واصل العلماء ابحاثهم فاطلقوا رائد النظر في الكتابات المصريَّة القديمة والكتابات

---

١) راجع كتاب العلّامة رَيْت W. Wright : *The Empire of the Hittites*
ثم الكتاب The City and the Land

الاشوريّة لعلّهم يجدون فيها ما يزيدهم علماً بهذا الشعب المجهول · فما كذب ظنّهم بل اطّلعوا على افادات عديدة تبيّنوا منهـا اموراً لا تحصى بخصوص الحثّيين ودولتهم · ولحضرة الاب دي كارا اليسوعي فيهم مقالات مهمّة نشرهـا تباعاً في مجلّة الآباء اليسوعيين الايطاليّة «التمدّن الكاثوليكي» احرزت لهُ ذكراً مستفيضاً بين المستشرقين · ومع كل ما كُتب عنهم في هذه السنين الاخيرة لا يزال العلماء يجهلون اشياء كثيرة من اخبارهم واسرار تاريخهم وسيبقى الامر كذلك ريثما لم يسعد الحظّ احداً من ارباب العلم على قراءة الكتابة الحثيّة التي لا تزال مجهولة · ولا نظنّ احداً يقوى على قراءتها حتى يجد كتابةً بلغتين حثيّة وغيرها تكون كمفتاح لها كما جرى لشمپوليون عند ما فكّ اسرار اللغة المصريّة بواسطة حجر رشيد (راجع المشرق ٣ [١٩٠٠] : ٨٩٢)

ولكن من كان يا ترى هؤلاء الحثّيون ما اصلهم مـا فصلهم ؟ نجيب انّ الحثيين ليسوا من اهل الشام وانّما قدموا الى سوريّة من جهات الشمال · امّا عنصرهم فالرأي الشائع حتى الآن انهم ليسوا من بني سام (١ · وممّا ثبت من امرهم انّهم كانوا تولّوا منذ القرن السادس عشر قبل المسيح البلاد الواقعة في شمالي سوريّة بين نهرَيْ عفرين والفرات · ثم تقدّموا حتى سطوا في القرن الرابع عشر على وادي نهر العاصي وسهل البقاع حتى جنوب فلسطين في جوار مدينة حبرون حيث اجتمع بهم ابراهيم الخليـل وبنوهُ من بعده

وكانت في ذلك العهد حاضرة ملكهم في سوريّة مدينة قدَس التي يظنّ العلماء انّ موقعهـا كان في المحلّ المعروف اليوم باسم تلّ نبي مَنْد عند بحيرة قطينة قريباً من حمص (٢ ولا نريد هنا ان نبسط الكلام في الحثيين وانما غايتنا ان نذكر مـا كان لهم من العلائق مع لبنان

---

١) راجع ما كتبهُ في هذا الشان العلّامة مسپرو في تاريخهِ القديم (٢ : ٣٥٢) ثم دي لنتشير (De Lantsheere) في كتابهِ عن اصل الحثّيين ولغتهم ثم جنسن في كتابهِ من الحثّيين والارمن وهو يزعم ان الحثيين قبيلة ارمنيّة

٢) راجع مقالتنـا المعنونـة Notes épigraphiques et topographiques sur l'Emésène, p. 46



صورة احد غُزاة الحثّيين (عن اثر قديم)

وان سألتَ هل احتلّ الحثّيون هـذا الجبل ؟ أجبنا انهُ ليس لدينا اثرٌ صريح ينبئ بهذا الامر ولا غروَ لانَّهُ كما قلنا سابقًا لا نعلم الّا النزر القليل من تاريخهم واتساع دولتهم . ونرّجح كونهم ضبطوا على الاقلّ جهات لبنان الشماليّة ولعمري كيف يقبل العقل انَّ امّة قويّة رجالها مغاوير حروب اتّخذت لها عاصمةً مدينة قدَس لم تمدّ ظلّ سطوتها على شمالي لبنان وليس بينهما الّا قاب قوسين اعني سهلًا ضيّقًا فقط . ولو افترضنا انَّ لبنان في زمانهم كان عبارة عن غابات كثيفـة هل اهمل الحثّيون امرهُ وفي وسعهم ان يستثمروا خشب ارزهِ الفـاخر ويستخدموه لمبـانيهم الكبرى وعمائرهم (١

١) راجع مقالتنا في ارز لبنان (ج ١ . ص١٢٤)

وعلاوةً على ما تقدَّم لا يمكنّنا ان نسلّم بان الحثيين تغاضوا عن احتلال وادي النهر الكبير الذي يفصل لبنان عن جبل النصيريّة وهم يعلمون انّ هذا الوادي طريق الامم الفاتحة. وذلك يظهر من تاريخ الفراعنة انفسهم اذ انّ رعمسيس الثاني لمّا اتى لمقاتلة الحثيين سارَ الى محاربتهم مارًّا بهذه الطريق

فلا بُدَّ اذن من القول ان الحثيين بعد ان استولوا على البقاع ملكوا ايضًا عطف لبنان الشرقي والمسالك التي تفضي الى لبنان الغربي . وممّا يؤيد هذا الرأي ان سهول البقاع المتوسطة كانت في تلك الازمنة القاصية عبارة عن مستنقعات مائيّة لا يمكن استيطانها فلزم اذًا الحثيين ان يسكنوا الجهات المرتفعة فوق تلك البطاح

على اننا نرى دلائل أخرى باقية الى عهدنا تحملنا على ترجيح هذا الامر وهي اسامي عدّة امكنة في سوريّة تُدعى « حتّا » او « كفرحاتا » فارتأى العلماء انّ هذه الاسماء اشارة الى احتلال الحثيين في بلاد الشام لانّ « حتّا » او « ختّا » هو اسم الحثيين نفسهُ. فان صدق هذا القول ولعلّ فيهِ شيئًا من الصحّة أفليس لنا ان نقول عن القرى الموجودة في لبنان باسم « حتّا » او « كفرحاتا » انّها آثار باقية من زمن الحثيين. بيد انّ هذا القول ليس بقاطع لانهُ يُمكن اشتقاق « حتّا » من لفظة سريانيّة « ܚܕܬܐ » التي معناها « الحديثة » او « الجديدة » ويؤيد ذلك انّ قرى لبنانيّة عديدة تدعى ايضًا «حدَث» و «مُحيدثة» ونعدّ « حتّا » اقرب الى السريانيّة من سواها. ولسيادة المطران بطرس شبلي كلام حسن في هذا الشان اثبتهُ في المجلّة الكتابيّة (Revue Biblique, 1901, p. 587)

ومن الاسماء اللبنانيّة الكثيرة الورود اسم « شغور » او « شاغور » كعين شاغور في حمّانا وغيرها . وكذلك « جسر الشغر » او « جسر الشغور » في ولاية حلب . وقد ثبت الآن انّ شاغور كلمة حثّية الاصل وهي فيها « ساغورة » (١

هذه آثار جمعناها هنا للاستدلال على اقدم الشعوب البائدة في لبنان وهي كما ترى خفيفة الّا انّ املنا وطيد ان الاكتشافات المستقبلة سوف تطلعنا على ما هو اقوى منها حجّةً وادلّ بيانًا والله على كل شيء عليم

١) راجع مقالة لحضرة الكاتب ا. شندا في مجلّة Mittheil. d. Vorderasiat. Gesell., 1902, p. 19

٢ اليونان

انتقض حبل الحثيين في الشام (ولبنان معها) بتغلّب الفراعنة على سورية . ثم تبعهم ملوك اشور الكلدانيّون وخلف الفرسُ الاشوريين . وكلٌّ هذه الدول بعد كسرتها تركت من آثارها شيئاً في بلادنا ولا بُدَّ ان يكون تخلّف من تلك الامم بعض بقايا امتزجت باهل فينيقية امتزاج الماء بالراح حتى لم يَعُد يمكن افراز هذه العناصر الغريبة عن الاهلين الاصليين . وكان لبنان في عهد كل هذه الدول قليل السكّان للاسباب التي ذكرناها في مقالاتنا السابقة وان كان عدد المهاجرين اليه لم يزل يزداد يوماً فيوماً بتزاحم السكّان وحراثة الآكام الواقعة عند منعطف الجبل

ولمّا كانت اواخر القرن الرابع (ق م) ظهر ذلك البطل الصنديد والملك العظيم اسكندر ذو القرنين المقدوني فكان اوّل ما تطالَّ اليهِ عنقهُ البلاد السورية وكان يملك عليها وقتئذٍ داريوس ملك الفرس فزحف اليها بجنودهِ بعد ان غلب اعداءهُ في سهول قيليقية قريباً من مدينة ايسّوس فما مرَّ عليهِ بضعة اشهر حتى فتح سواحل فينيقية وخضعت لهُ دمشق ولم يقم في وجههِ الّا صور فحاصرها مدَّة الى ان اخذها عنوةً في تمّوز من سنة ٣٣٢

وكان في اثناء محاربة الاسكندر لصور قد اغتال بعض اجلاف اللبنانيين قوماً من اصحاب الملك فقتلوهم . فسار الاسكندر بقسم من عسكرهِ الى لبنان فلم يلقَ في وجههِ عدوّاً ثم وصل الى البقاع والجبل الشرقيّ فعاد بعد عشرة ايّام غانماً ظافراً

وما لبث ذو القرنين بعد فتح صور حتى اخضع بلاد فلسطين ومصر ثمّ سار الى اقاصي المشرق ففتح ما فتح ومات بعد عشر سنوات في بابل سنة ٣٢٣ ق م

فصارت سوريّة من بعده الى احد قوّادهِ سلوقوس نيقاطور فتملّكها وألحق لبنان بها فدخل هذا الجبل تحت حكم السلوقيين الى ايّام الرومان

وهنا مبحثٌ مهمّ لم نكن لنتعرّض لهُ لولا انّ بعض المحدثين استندوا الى حجج واهية ليؤيّدوا زعمهم الباطل

ودونك القضيّة المطلوب بيانها هل يا تُرى لمّا استوى اليونان على جبل لبنان غلب العنصر اليونانيّ العنصرَ الفينيقيّ او الآراميّ بحيث يصحّ القول انّ اليونان من الامم التي استوطنت لبنان

نجيب على هذا القول بالاجمال انّنا بيّنا غير مرة انّ العنصر المتغلّب على سوريّة في عهد اليونان كان العنصر الآرامي لا اليوناني (راجع المشرق ٣ : ٢٦٨) . فان صدق ذلك عن سوريّة عموماً فهو اصدق واحقّ عن لبنان خصوصاً فلأنّ آراميّة سكّانه في ايّام الدولة اليونانيّة اوضح من النهار

وكأني بالمعترض يستوقفني هنا ليردّ على هذا القول بدليلين على زعمه مقنعين اوّلهما اسماء اعلام الامكنة وثانيهما الكتابات اليونانيّة في لبنان

نجيب على الاعتراض الاوّل انّنا اذا استثنينا بعض امكنة من سواحل فينيقية او من مستعمرات اليونان (راجع المشرق ٣ : ٢٧٠) لا نكاد نجد اسم قرية في لبنان مشتقّ من اليونانيّة بل اكثر الاسماء ان لم نقل كلّها آراميّ محض مع بعض اسماء عربيّة احدث عهداً . وترى المعابد الكبرى نفسها كدير القلعة والمشنقة التي فُقدت اسماؤها الآراميّة لا نعرف لها اسماً يونانيًّا . وما لا مراء به انّ المدن الساحليّة التي صحّف اليونان اسماءها الآراميّة عادت بعد حين الى اسمائها الاصليّة

امّا الاعتراض الثاني المستند الى الكتابات اليونانيّة التي وُجدت في لبنان فانهُ يظهر لاوّل وهلة اقوى حجّةً وادلّ بياناً ولكن اذا سبرناهُ بعيار الانتقاد وجدناهُ واهناً كالاعتراض السابق ولا يثبت البتّة زعم المحتجّ

لا ننكر وجود الكتابات اليونانيّة في لبنان وقد اسعدنا الحظّ على اكتشاف كثير منها ابرزناها الى عالم الوجود في المجلّات الاوربيّة . لكن مجرّد وجود الكتابات اليونانيّة في محلٍ ما لا يدلُّ على كون اهل هذا المكان من اليونان . نرى اليوم في لبنان عدّة كتابات تركيّة او افرنسيّة على بعض المباني المستحدثة فهل يستنتج احدٌ من هذه الخطوط انّ اهل لبنان من العنصر التركي او الفرنسي ؟ وكذلك في لبنان عاديّات وكتابات لاتينيّة كثيرة من عهد الرومان فمن يا تُرى زعم لاجل ذلك انّ اهل لبنان كانوا رومانيين . وغاية ما يُستدلُّ من الامر ان الرومان ملكوا لبنان او انّ بعض أُسرات منهم احتلّت بعض انحاء الجبل لترويح النفس كما يفعل اليوم كثير من الاوربيين. فكذلك الكتابات اليونانيّة انّما تدلُّ على انّ اللغة الرسميّة كانت في ذلك العهد لغة اليونان وانّ بعض وجهاء اللبنانيين جنحوا الى آداب اليونان ولغتهم كما يتفرنج اليوم ابناء الوطن فلا يتكلّمون بغير اللغة الفرنسويّة ولا يكتبون الّا بها

فدليل الكتابات وحده لا يجدي اذًا نفعًا لبيان عنصر امّةٍ ما اللّهمّ الّا بان يضاف الى ادلّة أُخرى تاريخيّة وضعيّة تزيل الشبهات. وقد لحظ ذلك احد علماء عصرنا وهو نُلدكه الشهير (١ قال : « انهُ لا يجوز الاستناد على مجرّد وجود كتابات في احدى اللغات او عدم وجودها للقول بان اهل ذلك البلد كانوا من ذلك العنصر او لا ». مثال ذلك مدينة بيروت التي لم يُلاقَ فيها حتى الآن كتابة فينيقيّة أفيسوغ ان نقول انّها لم تكن فينيقيّة ؟ كلّا. وكذلك لبنان ساء من زعم ان اهلهُ كانوا يونان او رومان لوجود كتابات قديمة فيهِ من عهد هاتين الدولتين

وعلاوةً على ما تقدّم انّنا نرى الكتابات اليونانيّة المكتشفة في لبنان مشحونةً بالاغلاط مشوّهة بالتصحيفات غير تامّة المعاني وكلّ ذلك دليل على انّ النُّسّاخ والحفّارين كانوا يرسمون الالفاظ رسمًا مادّيًا وهم لا يدركون معانيها (ج ١ ص ١٢٧)

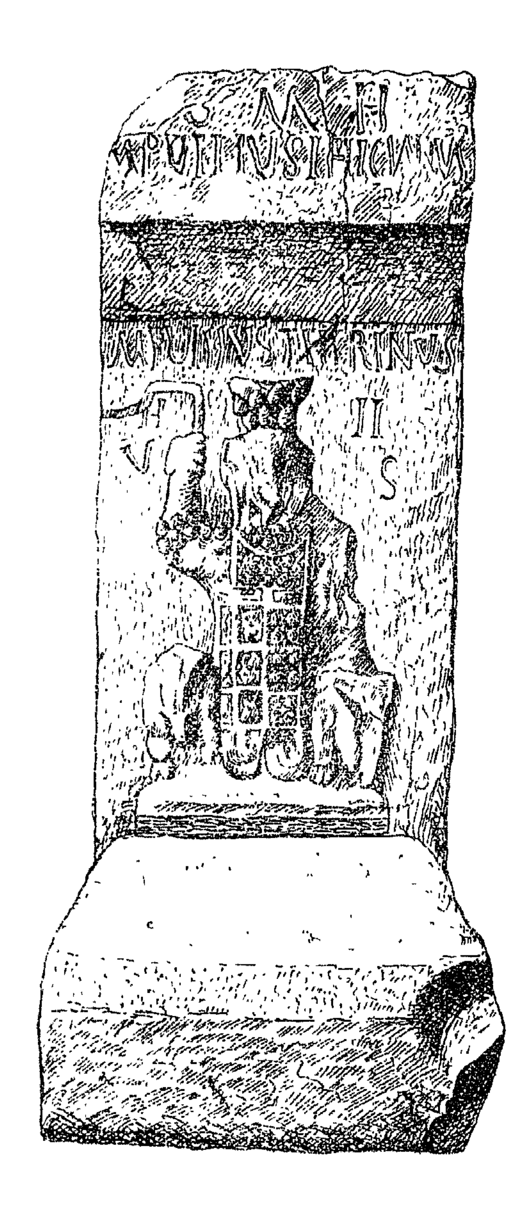
وان قال قائلٌ انّ اعلام الاشخاص المرسومة على هذه الآثار يونانيّةٌ اجبنا مع اكبر العلماء باحوال الروم وهو العلّامة الشهير مُمسِنْ (Mommsen) في تاريخهِ (٢ : « انّ اغلب هذه الاسماء ليست يونانيّة او ان كانت يونانية ترى معها الاسم الفينيقيّ او الساميّ الذي كان يُعرَف بهِ الشخص » . وفي هذا القول بيّنة واضحة على انّ اليونانيّة لم تكن سوى مسحةٍ ظاهرة وزيّ خارجيّ تزيّا بهِ اهل لبنان حبًّا بالجاه وتشبّهًا بمتأدبي ذلك العصر

ولعلّ المعترض يزيد على ما سبق اعتراضًا ثالثًا بقولهِ : « ان قيام معبودات اليونان مقام آلهة فينيقية والشام دليل على تغلّب اليونان » . اجبنا ان هذا البرهانَ والحقّ على طرفي نقيض . فانهُ لا يوجد بلدٌ حافَظَ اهلهُ على معبوداتهِ القديمة مثل لبنان والشام فانّ الدين الآراميّ والفينيقيّ صبر على كل التقلّبات السياسيّة الى ان غلبتهما النصرانيّة . وكلّ ما يمكنّنا ان نسلّم بهِ من هذا القبيل ان بعض اسماء الآلهة الفينيقية برزت على صورة يونانيّة في لفظها . وكذلك اطلق الكتبة اليونان واصحاب الامر على هذه

---

١) راجع المجلّة الاسيوية الالمانيّة ZDMG, 1885, p. 333

٢) راجع Roem. Geschichte, V, 453



تمثال المشتري (بعل) البعلبكيّ في دير القلعة

الالهة اسماء غريبة فدعوا هذا «جوبتير» وذاك «ابولون» اما الاهلون فحافظوا على اسماء آلهتهم بكل حرص حتّى انَّ المؤرخ مُمسِن السالف ذكرهُ بيَّن في تاريخهِ (ج ٣ ص ٤٥٢) ان اهل سوريَّة لم يختلطوا باليونان الَّا اختلاطاً سطحيًّا واثبت ذلك بأنّهم حافظوا على اديانهم الخصوصيَّة في حلب وافامية وحمص وتدمر. وكذا قُل عن دير القلعة حيث شاعت عبادة بعل مرقد. وهذا البعل كان مشهورًا وقد ورد اسمهُ في الكتابات اللاتينيَّة على لفظ «جوبتير» لا لكونهِ الهًا رومانيًّا بل مراعاةً للدولة واستجلابًا لخاطر اليونان والرومان واستدرارًا لعطاياهم اذ كانوا يحجّون اليهِ. ولعلَّ سدنة بعل مرقد سمّوهُ ايضًا بهذا الاسم دلالةً على امانتهم للسلطة الرومانية واعتصامهم بحبلها. ولذلك

ترى بعل بعلبك وبعل دير القلعة ملقَّبين في الكتابات بالقاب جوبتير رومية العظمى المعروف « بجوبتير كابيتولان » فيدعيان مثلهُ بالاله الصالح الاعظم Jupiter (optimus maximus) وكذلك ترى إلهةً سامية ملقَّبة باسم إلهة الرومان « جونون الملكة (١ » (Juno regina)

وقد رسمنا هنا صورة تمثال جوبتير بعلبكّ الذي اكتشفهُ حضرة الاب رنزڤال في دير القلعة لترى كم يختلف الإله الفينيقيّ عن الإله الرومانيّ في الصورة والهيئة (انظر الصورة في الصفحة السابقة)

واذا عدلت الى هيكل افقا وجدت كذلك عبادة عشتاروت الفينيقيَّة مستترة برداء الإلهة الزُّهَرة اليونانيَّة وان كانت كل واحدة مختلفةً عن الاخرى. وذلك يظهر من شعارها الذي لا يشبه في شيء شعار إلهة اليونان

وما قلناهُ عن العنصر الآرامي في لبنان يصحّ ايضاً عن لغتهم الدارجة فانَّها كانت الاراميَّة . وهو رأي المؤرخ الشهير مُمسِن اذ قال (ص ٤٥٢) : « اني اظنّ انَّ اللغة الآراميَّة كانت اللغة السائدة دون غيرها في لبنان على عهد قياصرة رومية » . وان نسب احد هذا الكاتب الى الغلوّ والمبالغة ورأى انهُ بخس حقوق اليونانيَّة في الشام تصدَّى لهُ احد ائمَّة العلماء المبرزين وهو نلدك الالمانيّ الذي ليس فقط يوافق وطنيَّهُ مُمسِن بل وجد انهُ مقصِّر في حقوق الآراميَّة وقد اتى مصداقاً لقولهِ بحجج تثبت شيوع الآرامية بحيث لا يبقى بعدها ريب (٢

ثم ولو سلَّمنا بان اللغة اليونانيَّة طمست في لبنان آثار اللغة الآراميَّة فلا ينتج من ذلك انَّ اصل اللبنانيين يونانيّ . وليست اللهجة وحدها كافية لتعريف الاصل . وانَّما ذلك دليل يُقتضى تأييدهُ بدلائل أُخرى تجلي الحقيقة وتوضحها . فانَّ التاريخ ينبئ بوجود امم عديدة تكلَّمت بلغة غير لغتها الاصليَّة . فانَّ اللاتينية مثلاً درجت بين شعوب شتَّى لم يكن بينها ادنى علاقة . وقس عليها العربيَّة وغيرها

وخلاصة القول انَّ العنصر اليونانيّ كان دائماً في لبنان عنصراً زهيداً لا يُعبأ بهِ . ونستسمح القارئ عذراً على انَّنا اطلنا القول في هذه القضيَّة التي لا يختلف فيها اثنان بين علماء العاديَّات

(١ Beitraege z. alten Gesch., II, 196 (٢ راجع ZDMG, 1885, 332-351

٣ الايطوريُّون

سبق لنا القول (ج ١ ص ١٤٤) انَّ الرومان لمَّا فتحوا الشام وجدوا لبنان في حوزة قوم من الغزاة كانوا عشَّشوا في جبالهِ الساحليَّة الممتدَّة من طرابلس الى جبيل . وهم الايطوريّون

وليس هؤلاء القوم من لبنان وانما اصلهم من اللجأ ومن جبال حوران وكانوا ذوي بأس وطمع فتحاملوا على الجبل الشرقي واتَّخذوا خيراتهِ كطعمةٍ ثمَّ تشوَّفوا الى لبنان فاستولوا عليهِ قبل زمن الدولة الرومانيَّة بقليل

والايطوريّون احدى القبائل العربيَّة او الاراميَّة (١ التي كانت مذ ذاك العهد مدَّت ظلَّ سطوتها على البلاد الواقعة في جنوبيّ دمشق وشرقيّها . وكان شيخ القبيلة اوانئذٍ يدعى بطلميوس ابن منَّايوس من اعظم اهل سوريَّة ثروةً وقدرًا . وكان يحكم على بلد الايطوريين الاصليّ (٢ ويتولَّى الجبل الشرقيّ وجهات البقاع الشماليَّة مع مدينتي بعلبكّ وكَلسيس (Chalcis) وكان لهُ عسكرٌ من الفرسان يبلغ عددهُ ٨٠٠٠ فارس

ولمَّا زحف پمپيُّوس على لبنان وجد طرابلس وما يجاورها من لبنان الشمالي (٣ في قبضة احد الايطوريين من قرابة بطلميوس بن منَّايوس يُدعى ديونيسيوس . فاضطُرَّ الرومان لتوطيد دعائم سلطانهم ان يحاربوا هؤلاء الدخلاء حربًا عوانًا كانت نتيجتها وبالًا على اهل ايطوريَّة فاسر پمپيُّوس قائدهم ديونيسيوس وأمر بقطع رأسهِ ثم توغّل في لبنان فاخرب حصون جيغرتا وسنَّان و بوروما (٤ وكان غزاة الايطوريين يقحمون من هذه المقامات المنيعة على المدن الساحليَّة فيوسعون اهلها نهبًا وقتلًا . وقد حاولنا في مقالاتنا السابقة ان نبيّن مواقع هذه الحصون فلتُراجع

١) كل الاعلام الايطوريَّة الاصل الواردة في الكتابات القديمة امَّا عربيَّة وامَّا آراميَّة . راجع مجموع الكتابات اللاتينيَّة (CIL, III, n° 4371 etc.) راجع ايضًا تفاصيل اخبار الايطوريين في معجم الكتاب المقدَّس (Vigouroux : *Dict. de la Bible*, art. *Iturée*) ٢) ايطوريَّة الاصليَّة توافق بلاد اللجأ وجيدور الحاليَّة . وقد ورد ذكر ايطوريَّة في انجيل لوقا (٣ : ١)

٣) اعني ما يشمل اليوم قائمقاميَّات الكورة والبترون وقسم من بلاد جبيل

٤) ان صحَّ قولنا عن وقوع سنَّان وبوروما في كسروان فيكون ملك الايطوريين بلغ ذه المعاملة ايضًا

وقد حارب بمبيّوس مدينة كلسيس الايطوريّة فدمّرها · وكلسيس على الرأي الراجح هي مدينة عين جرّ التي تُرى اخربتُها في سهل البقاع · امّا قول البعض أنّها هي زحلة فلا نصيب لهُ من الصحّة كما سنبيّنهُ في كلامنا عن هذه البلدة

وخلاصة القول انّ الآثار تنبئنا بامتداد سلطة الايطوريين في قسم كبير من لبنان الشماليّ · ولما انتصر الرُّومان عليهم وفتحوا معاقلهم تقلّص ظلّهم وباد ذكرهم من التاريخ ولا رَيب انّ بقاياهم امتزجت باهل لبنان

وممّا يدلّ على وجود الايطوريين في لبنان ما وجدنا في الكتابات اليونانيّة من الأعلام العربيّة لاسيّما في رأس الشقعة وانحاء جبيل

وليس الايطوريّون القبيلة العربيّة الوحيدة التي دخلت في عداد اهل لبنان · بل نجد قبائل غيرها توطّنت ذلك الجبل لاسيما التنوخيين (١ · وهذا الامر مهمّ لمعرفة عناصر اهل لبنان نكتفي اليوم بالاشارة اليهِ فقط

٤ الرومانيّون

استفدنا من الفصل السابق ان الجيوش الرومانيّة قهرت الايطوريين في لبنان وكسرت شوكتهم · ولسائلٍ ان يسألنا وهل احتلّ الرومان في لبنان فاستعمروه ؟ أليس وجود الكتابات اللاتينيّة المتعدّدة في هذا الجبل دليلًا على سكناهم فيهِ ؟ نقول انّ جوابنا عن توطُّن الرومان في لبنان كجوابنا عن اليونان وقد اثبتنا ان الكتابات اليونانيّة وحدها لا تدلُّ على انّ اليونان استخاروا لبنان لسكناهم · فهكذا قُل عن الرومان فان الكتابات اللاتينيّة تشير الى تملّكهم على الجبل وتدلُّ على انّ اللغة اللاتينيّة اضحت اللغة الرسميّة في بلاد الشام في القرن الاوّل السابق لعهد المسيح والقرنين التابعين لهُ

هذا ولا ننكر انّ بعض الرومان وخصوصًا اصحاب مستعمرتي بيروت وبعلبكّ الرومانيين كانوا يملكون في لبنان اقطاعات كثيرة من جملتها املاك الايطوريين لكنّ الرومان في الغالب لم يتولّوا بانفسهم زراعة هذه الاملاك وانّما كانوا يعهدون امرها الى

١) جاء في كتاب البلدان لليعقوبيّ انّ لبنان المجاور لصيداء كان يسكنهُ قوم من قريش ومن اهل اليمن (راجع المجلّة الالمانيّة الفلسطينية ZDPV, IV, 87)

شركاء وطنيين يقومون بشؤونها ويستثمرونها باسمهم · وان وُجد منهم احد في لبنان فالصواب ان يقال انّهم كانوا نفرًا قليلًا · ومن ثمّة لا يجوز ان ننظم الرومانيين بين الشعوب اللبنانيّة القديمة

٥ المَرَدَة

في بُهرة القرن السابع اعني سنة ٦٧٧ م يذكر مؤرخو اليونان لاوّل مرّةً قوماً يجعلون سكناهم في جبال الشام من جبل اللكّام شمالًا الى حدود فلسطين جنوبًا وهم يدعونهم مردانيّين ويعرفهم المحدثون باسم المَرَدَة · ومن غريب امر هذا الشعب انهُ لم يبدُ في بادئ ذي بدء ضعيفًا ضئيلًا بل نراه جاثمًا فوق مشارف لبنان ضابطاً مضايقهُ شاغلًا كلّ نقطهِ الحصينة على مدى طولهِ من الشمال الى الجنوب وليس من يقوم في وجههِ بل كثيرًا ما ينقضُّ من مراكزه الحريزة فيغزو المعاملات القريبة منهُ دون ان يردّ احد هجماتهِ · ولم يزل امر هؤلاء المَرَدَة في اشتداد حتى صار كلُّ الملهوفين والمطرودين من اهل الوطن واصحاب الفاقة يلتجئون اليهم ويلوذون بحمايتهم ويزيدونهم عددًا وقوّةً · ولا غروَ انهم لو ثبتوا مدّة على ذلك لأتوا بالاعمال الخطيرة لولا انّ ملوك الروم الذين كان المَرَدَة يخضعون لهم امروهم بالخروج من لبنان بعد ظهورهم فيهِ ببضع سنين فاندثر امرهم على فورٍ كما ظهروا بغتةً دون ان يبقوا في لبنان اثرًا من مرورهم (١

فمن ذا تُرى هذا الشعب ؟ كيف ظهر فجأةً دون ان يذكر احد وجودهُ في بلاد الشام ولبنان سابقًا ؟ أنّى خرج ؟ هذه اسئلة اقترحها قبلنا العلماء وحاولوا حلّ عقدتها · وممّا يدلّ على ان الامر ملتبس عويص ان العلماء ذهبوا في ذلك مذاهب شتّى ندوّنها هنا دون ان نبدي فيها رأياً تاركين لقرّائنا ان يصوّبوا الرأي الذي يرونهُ اصحّ واثبت

ولا بُدّ قبل بسط هذه الآراء المتباينة ان نروي اقوال الكتبة الاوّلين الذين ذكروا المَرَدَة مباشرةً لانّ اقوالهم من شأنها ان تعرّف هذه الطائفة وتبيّن خواصها

---

١) زعم رينان في كتاب بعثة فينيقية انّ قلعة سمَر جبيل من آثار المَرَدة في لبنان وهو قول بلا دليل عوّدنا على مثلهِ هذا الكاتب الذي يتّخذ مخيّلتهُ حجّةً لمزاعمهِ · وقد بيّنّا غير مرّة انهُ كثيرًا ما يرمي الكلام على عواهنهِ ولا يسندهُ الى الادلّة

يؤخذ من اقدم ما ورد عن المَرَدَة ان لبنان لم يكن مركزهم الاوّل. قال المؤرخ تاوفانوس عنهم (١ : « انّ المَرَدَة دخلوا لبنان » . (εἰσῆλθον εἰς τὸν Λίβανον) وفي هذا القول ما لا شبهة فيه عن مجيئهم الى لبنان من محلّ آخر. ثم اردف تاوفانوس قائلًا : « والتجأ اليهم الوطنيّون » وفي هذا دليل على انّ المردة لم يكونوا من اهـل لبنان بل غرباء عنهُ . امّا عددهم فكان وافرًا يبلغ « اثني عشر الف رجلٍ » شاك السلاح دون النساء والاطفال . وممّا يدلّ على بطشهم انهم في مـدّة اقلّ من نصف قرن ملأوا القلوب رعبًا بغزواتهم المتواصلة

والمؤرخون اذا اشاروا الى المَرَدَة دعوهم بلفظـة عسكريّة وهي τάγμα يراد بها فرقة من الجند او الطابور . واسمهم هذا دليل على انّهم لم يكونوا شعبًا كبقيّة الشعوب بل كانوا على هيئة عسكريّة ونظـام حربيّ يفلحون الارض وقت السلمْ وهم على أهبة لمباشرة الحرب في ايّة ساعةٍ كانت . ولنـا مثَل على هذا التنظيم في امّة الكرواتيين التي كانت في القرن الثامن عشر تحافظ على حدود النمسا في جنوبيها. وكان للرومان ايضاً فئات عسكرية من هـذا الصنف كانوا يقيمونها عند ثغور مملكتهم فيدعونهم لاجل ذلك بالفئات الحدوديّة (limitanei) اعني انهم يذبّون عن الحدود ويدفعون عنها الاعداء. وكان اولادهم يرثون تلك الاملاك من بعدهم ويجرون مجراهم في الدفاع عن ثغور الدولة. وكان الرومان يختارون لمثل هذا المشروع قدماء الجنـد المحنّكين في آداب الحروب ثمّ وكلوا ذلك بعدئذٍ الى بعض اهل البـلاد المجاورة لحدود المملكة (٢

وان سألت عن الدولة التي كان المَرَدَة يخدمونها اجبناك انّهم كانوا تحت حكم ملوك الروم فهم الذين تقدّموا اليهم بالمدافعة عن الثغور الشاميّة وهم الذين صرفوهم عنها وانزلوهم في نواحي آسيّة الصغرى كما سيأتي

فهـذه الافادات عن المَرَدَة لا ريب يقرّ بصحّتها كلّ المحدثين لانها وردت في

---

١) راجع تاريخهُ في مجموع الآباء اليونان المجلّد ١٠٨ (PG. T. 108, p. 722, 733, 737, والترجمة اللاتينيّة هنا لا تؤدي المعنى تمامًا فقد ترجم « aggressi sunt » اي « هجموا » بدلًا من « ingressi sunt » اي « دخلوا » ٢) راجع معجم العاديّات اليونانيّة والرومانيّة Saglio et Darenberg : *Dict. des antiquités grecques et latines*, I, 1374

تواريخ مشاهير الكَتَبة الذين عرَّفوا هؤلاء القوم ووصفوا احوالهم

ولكن هنا مسألة أُخرى لا يتَّفق فيها ارباب العلم نريد اصل المردة وجنسيَّتهم . فقد ارتأى بعض الائمَّة ومنهم العلَّامة السمعاني والحاقلاني ومرهج بن غرون والدويهي ومن تبعهم من علماء الموارنة وبعض الكَتَبة الاوربيين كبارونيوس ولوكيان وغيرهما انَّ المردة هم الموارنة . واقوى حججهم لبيان ذلك انَّ المَرَدَة كانوا قوماً من النصارى يسكنون لبنان ولا نعرف في القرن السابع شعباً يدين بالنصرانيَّة ويسكن لبنان غير الموارنة . وان اعترض معترضٌ على اصحاب هذا الرأي بقولهِ انَّ المردة كانوا فرقةً جنديَّة موفدة من ملوك القسطنطينيَّة الى بلاد الشام انكروا الامر قائلين لو كان المردة طائفةً من الجند لخرجوا من لبنان بعد انعقاد الصلح والامر ليس كذلك فانَّ المؤرخين يذكرون انَّهم داوموا غزواتهم بعد الصلح الذي عقدهُ يستنيان الثاني وانهم لم يكفُّوا عن عاداتهم حتى ابرم هذا الملك معاهدةً ثانيةً وارسل الى المردة عصبةً تصرفهم من لبنان بالوعد والوعيد الى بلاد الارمن حيث كان الملك وقتئذٍ (١ . فهذا الاحتجاج لا يخلو من القوَّة وهو يبيّن ما في هذا البحث من المعضلات

امَّا اصحاب الرأي الآخر فينكرون توحيد المَرَدَة والموارنة ويسندون رأيهم الى كون المرَدَة ليسوا وطنيين كالموارنة بل غرباء عن لبنان اتوهُ من الخارج كما سبق القول ثم استولوا عليهِ فحصَّنوهُ في وجه العدوّ مدَّةً الى ان برحوهُ بعد زمن قليل

وممَّا يدعم بهِ هؤلاء رأيهم في اختلاف المرَدَة عن الموارنة ان المرَدة كانوا خاضعين لملوك الروم . قال ابن العبريّ في تاريخهِ السريانيّ (ص ١١٥) : « ان المرَدَة جنودٌ للملك قسطنطين اللحياني ارسلهم الى الشام للمدافعة عنها » . وكل هذا لا يوافق الموارنة الذين خلعوا عنهم ربقة ملوك الروم كما يظهر من تواريخهم ومن تصرُّفهم مع ملوك بوزنطية والملكيين انصارها

ويزيد اصحاب هذا المذهب الثاني انَّ كلام تاوفانوس وقدرينوس(Cedrenus) وغيرهما ممَّا ينفي عن المرَدَة اصلهم اللبنانيّ . والمردة على قولهم كانوا قبل دخولهم في لبنان يقطنون بلاد الارمن وولايات آسيَّة الصغرى واليها رجعوا بعد غزواتهم في لبنان . وقد

١) راجع ردود المثلث الرحمات المطران يوسف الدبس على الاب الصمودي قاليه (ص ٤) ورسالته الينا في المشرق (٥ [١٩٠٢] : ٩١٤)

كتب احد علماء الفرنج اسمهُ انكتيل دوبارون (Anquetil-Duperron) مقالتين مطوَّلتين في مجلَّة الكتابات والفنون ليثبت ان المَرَدَة من الشعوب التي كانت قبل المسيح وانهم هاجروا الى بلاد عديدة في ممرّ الاجيال ومنهم مرَدة لبنان ومن ثمَّ ليسوا بالموارنة (١

وان سألت الذاهبين الى هذا القول : وما هي على رأيهم جنسيَّة المردة . اجابك بعضهم انَّهم اصلًا قبيلة ايرانيَّة دخل فيها اخلاطٌ من عناصر سوريَّة وارمنيَّة (٢

والاب مرتين في كتابهِ المخطوط « تاريخ لبنان » يقول انَّ المردة من العرب وهو يشتقّ اسمهم من « التمرُّد ». وهذا رأي ضعيف لان المردة لم يأتوا من جزيرة العرب ولا من جهة الشرق وانما دخلوا لبنان قادمين من الشمال . وهذا مما يرجّح رأي القائلين بان المردة اتوا لبنان من جهة آسية الصغرى . ثم لم يُفِدنا احد من المؤرخين عن دخول العرب الى لبنان في القرن السابع . وان قال القائل انَّ هؤلاء كانوا من نصارى غسَّان من الذين استعان بهم ملوك الروم اجبنا ان الغسَّانيين لم يخدموا اوانئذٍ ملوك القسطنطينيَّة خدمةً تُذكر بل لم يلبثوا ان انحازوا الى العرب مواطنيهم وكلُّ ذلك يخالف ما جاء عن المردة في كتب المؤرخين . وعلاوةً على ذلك انَّ الغسَّانيين كانوا من اليعاقبة وفي عهد المرَدة كان ملوك الروم يطاردون هذه الشيعة ولم يكن المردة من قبيلة عربيَّة أُخرى لانَّ العرب كانوا في ذلك العهد من ألدّ اعداء الروم فليس المردة اذن عربًا

هذا ومن المقرَّر الثابت انَّ ظهور الموارنة كأُمَّة مستقلَّة قد اتَّفق مع عهد حروب المردة في لبنان . وان لم يسلّم القرَّاء بان الموارنة هم المرَدة فانَّـهُ لا سبيل الى النكران بانهُ وجدت بين الفئتين علاقات ودّيـة . وممَّا يتَّضح ايضًا من تاريخ ذلك العصر انَّ الموارنة عند خروج المردة من لبنان لم يتبعوهم في مهاجرتهم الى آسية الصغرى بل ثبت معظمهم في جبلهم

أمَّا المردة فجعلوا بعد عودتهم سكناهم في وطنهم القديم بلاد الارمن . وترى منهم من قطن في جوار اضالية . ورحل قسم منهم الى جزيرة قبرس واحتلَّ غيرهم بلاد اليونان

---

١) راجع Anquetil - Duperron : *Mémoires sur les migrations des Mardes* Mém. Acad. Inscr., T. XLV, 87 et L. 1 *et seqq.*

٢) راجع تاريخ دولة الروم Rambaud : *L'Empire Grec au X^e Siècle*, p. 213

ومورة ونواحيها . ولم يزالوا في كلّ هذه البلاد على نظامهم العسكري وكان لهم ضبّاط يدعونهم كاتيبانو (κατεπάνω) . هذه خلاصة ما ورد في امر المردة ومن استزاد امكنهُ ان يراجع ما كتبهُ عنهم قدرينوس (ك ١ ص ٧٦٥ و ٧٧١ طبعة بون) وزوناراس في مجموع اعمال الآباء اليونانيين (ج ١٣٤ ص ١٢٩٧) وتاريخ قبرس (ج ١ . ص ١٠٦) للعلّامة ماس لاتري (Mas-Latrie) والسمعاني في المكتبة الشرقيّة ومجلّة اصداء الشرق (١٩٠١ ص ١٥٦) وساخاس (Sachas : Μεσαιωνική βιβλιοθήκη, II, 45 seqq.)

٦ الجراجمة

قد رأى القرّاء ما في مسألة المردة من المعضلات التي لم يحلّها حتى الان فطاحل العلماء (راجع الصفحة ٤١ والمشرق ٥ : ٩١٤) على انّ هذا المطلب يقودنا الى بحثٍ آخر لهُ معهُ بعض العلاقة نعني بذلك امّة الجراجمة

يفيدنا التاريخ ان في القرن التاسع قبل الميلاد كانت في شمالي غربي سورية مملكةٌ صغرى تدعى جرجومة عاصمتها مرعش . والمرجّح انّ هذه الدولة أُنشئت من بقايا دولة الحثيين البائدة (راجع ص ٢٩ من هذا الجزء) خلفتها في ولاية قسم من بلادها في زمنٍ لا يمكن تعريفهُ بالتدقيق . بيد اننا نعلم ان اهل هذه المملكة لم يكونوا من عنصر آرامي لان دولة الآراميين لم تمتدّ الى تلك الجهات على الاقل في الجيل المذكور . واسم الجراجمة واردٌ في الكتابات الاشوريّة التي تفيض في احوال هذا الشعب والتقلّبات التي طرأت عليهِ . ولا نجد بعد الآثار البابليّة ذكرًا للجراجمة الى عهد المردة في لبنان اعني القرن السابع للمسيح

قال البلاذري في كتاب فتوح البلدان (ص ١٥٩ — ١٦٣) في مطاوي كلامهِ عن فتح العرب لبلاد الشام : « انّ الجراجمة من مدينةٍ على جبل اللكّام عند معدن الزاج فيما بين بيّاس و بوقا [1] يقال لها الجرجومة » فيظهر من هذا القول انّ الجراجمة لم يلبثوا ساكنين في المكان الذي اشارت اليهِ كتابات الاشوريين قبل خمسة عشر قرنًا الّا انهم كانوا منحصرين في قسم من اللكّام (أَلَا داغ) بين مدينة بيّاس الساحليّة ونهر قراسو . وكانت مدينتهم الكبرى التي منها اتّخذوا اسمهم لا تزال تدعى جرجومة

---

[1] لم نجد في كتب البلدان لجغرافيّي العرب ما يعرّفنا بموقع بوقا الّا كونها من عمل انطاكية

ثم يذكر البلاذريّ تاريخ الجراجمة على مألوف عادته في ذكر غيرهم من الشعوب القديمة فترى في كلامه بعض الابهام لانهُ يروي في حقّهم الروايات المختلفة التي جمعها دون ان يكدّ ذهنهُ في ثبات صحّتها او التوفيق بينها . الّا انّ الذي يتروّى في كلامهِ ويقابل بين هذه الروايات الشتّى يأخذهُ الانذهال لما يجد بين اخبار الجراجمة والمَردة من التشابه . فان ما ذكرهُ المؤرخون اليونان عن قدوم المَردة من شمالي سوريّة الى جنوبها وعن احتلالهم جبل لبنان وسكونهم في جوار حمص وبعلبك ودمشق قد رواهُ البلاذري عن الجراجمة على عهد الخليفة الامويّ عبد الملك وهو على وشك السير الى بلاد العراق . ثم اردف البلاذريّ قولهُ بقولهِ : « وضوتْ اليها (اي الروم) جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد أباق من عبيد المسلمين » . وهو كلامٌ ينطبق على قول المؤرخ تاوفان في المَردة كانّ المؤرخَين اليونانيّ والعربيّ سندا قولهما الى رواية واحدة لا تكاد تختلف حتى في اللفظ

ثم ينتهي امر الجراجمة في تاريخ البلاذري كما ينتهي امر المردة في تاريخ تاوفان اعني بعقد معاهدة بين الخليفة الامويّ وملك الروم . وكان من نتيجة ابرام الصلح كما روى البَلاذريّ (ص ٢٦٠) أن « تفرّق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع اكثرهم الى مدينتهم اللكّام » وهي ايضاً رواية شبيهة برواية تاوفان عن تفرّق المردة ورجوعهم الى وطنهم . امّا مدينة جرجومة فخربت بعد ذلك بزمن قليل

ومما روى ايضاً البلاذريّ (ص ١٦١) في تاريخ سنة ٨٩ هـ (٧٠٨م) انّ « الوليد بن عبد الملك وجّه الى الجراجمة مَسلَمَة بن عبد الملك فافتتح مدينتهم على ان ينزلوا بحيث احبّوا من الشام وعلى ان لا يُكرَهوا على ترك النصرانيّة ولا يؤخذ منهم جزية . . . اما بطريقهم فنزل في جماعة معهُ انطاكيةَ ثم هرب الى بلاد الروم». وجاء في فتوح البلدان ايضاً ان الخلفاء اجروا الارزاق على هؤلاء الجراجمة واستعانوا بهم في حروبهم (١ وما ذلك الّا لانّ موقع بلادهم كان في جبال ومضايق تجري فيها صوائف العرب عند نفوذهم في بلاد الروم . وكلُّ هذه التفاصيل التي ذكرها البلاذريّ لا نكاد نجد لها اثرًا في كتبة العرب اللهمَّ الّا ياقوت في كتاب معجم البلدان في مادّة « جرجومة »

١) راجع فتوح البلدان (ص ١٦١) . ومعجم البلدان لياقوت في مادّة جرجومة

وهو ينقل هناك شيئاً ممّا اثبتهُ البلاذريّ . ويظهر من كلام ياقوت ان الجراجمة في زمانهِ كانوا امتزجوا بغيرهم من الملل وان جرجومة عاصمتهم لم تزل خراباً . وفي تاريخ حمزة الاصفهانيّ (ص ٣٩) ورد ذكر « مَن بالشام وفلسطين من الجرامقة (١ والجراجمة »

ولا بُدَّ ان يسألنا القارئ هنا عن رأينا في الجراجمة أيكونون من المَرَدة او يمتازون عنهم . (قلنا) انَّ ما يوجد من الاتفاق بين احوال المردة وامور الجراجمة من حيث موقع بلاد الفريقين وبسالتهما في الحروب وتواريخهما يحملنا على ان نطابق بينهما . ولا غروَ فانَّ اعظم المستشرقين في المانية وهو العلّامة نُلدِك (Noeldeke) يؤكد لنا ان العرب في تواريخهم يدعون المردة باسم الجراجمة وانَّ كليهما امّة واحدة (٢ ونحن ايضاً نصادق على كلام هذا الكاتب الثقة بعد التروي في ما كتب بهذا الصدد وان كنا نجد في اقوال البلاذريّ بعض الإشكال الّا انّ ذلك من الامور العرضيّة دون الاصليّة

فان صحّ هذا القول نتجت عنهُ نتائج في امر المَرَدة لم ينتبه اليها الكتبة الاقدمون منها ان هؤلاء القوم لم يكونوا من اهل لبنان الاصليين بل قدموا اليها من شماليّ سوريَّة اذ انّ الجراجمة على قول البلاذري كانوا يسكنون جبل اللكّام الذي يختلف عن لبنان . وممَّا يثبت انَّ هؤلاء الجراجمة لم يكونوا آراميين اي من اهل سوريّة الاصليين انّ البلاذري يذكر في جملة من انضوى اليهم الانباط وهو الاسم الذي يدلُّ بهِ كتبة العرب على العنصر الآرامي (٣ . وكذلك اذا فحصنا عن الامر على حسب قوانين علم الجغرافية وعلم اصول الشعوب وجدنا انّ الجراجمة ينتمون الى آسيَّة الصغرى ولذلك نراهم يرحلون بعدئذٍ الى بلاد الروم ويسكنون قيليقية لقرب موطنهم

١) الجرامقة قوم من انباط او آراميي العراق وقد ارتأى نُلدِك الالماني الشهير ان كتبة العرب لم يفرقوا بين الجراجمة والجرامقة والصواب انَّ الجرامقة غير الجراجمة . وعندنا ان فرقة من الجرامقة استوطنوا الشام كما يظهر من تاريخ حمزة (ص ٣٥ و ٣٩) وياقوت (١ : ٣٦) وكلاهما يذكر « جرامقة الشام » ولعلّ « جبلَي جرمق » في جنوبي لبنان وبلاد بشارة نُسبا اليهم

٢) راجع المجلة الاسيويّة الالمانيّة ZDMG, 1875, p. 85 . وقال نُلدك في ذيل تلك الصفحة « ان العلماء لم يثبتوا حتى الان وحدة المرَدة والموارنة »

٣) راجع المجلّة الاسيويّة الالمانية ZDMG, 1871 p. 124-125

منها . وفي فتوح البلدان للبلاذريّ انهم احتلّوا جبل الحوّار وهو من اعمال قيليقية كما نبّه اليهِ ياقوت في المادّة

ومما يستفاد ايضاً من كلام البلاذري امرٌ آخر ذو بال وهو ان قسماً من الجراجمة كانوا ضربوا اطنابهم في لبنان قال في اثناء كلامهِ عن الجراجمة (ص ١٦٢) : « خرج بجبل لبنان قومٌ شكوا عامل خراج بعلبكّ فوجّه صالح بن عليّ بن عبدالله بن العبّاس مَن قتل مقاتلتهم واقرّ من بقي منهم على دينهم وردّهم الى قراهم واجلى قوماً من اهل لبنان » . وهذا دليل واضح انّ قوماً من الجراجمة كانوا قبل هذا العهد في لبنان وليس هذا حدساً على سبيل التخمين بل امرٌ راهن يثبتهُ المؤلف نفسهُ في كلامهِ عن ميمون الرومي المعروف بالجرجمانيّ الذي كان مولى لبني امّ الحكم اخت معاوية ابن ابي سفيان قال (ص ١٦٠ و ١٦١) : « وانّما نُسب الى الجراجمة لاختلاطهِ بهم وخروجهِ بجبل لبنان معهم » . فكان اذن في لبنان قومٌ من الجراجمة وهذا ما اردنا بيانهُ

فترى من بحثنا هذا الحاضر ما يؤيد قولنا السابق في انّ المردة والموارنة ان لم يكونوا شعباً واحداً قد كانت على الاقلّ بينهم علاقات متينة . وكذا قُل عن الجراجمة ولذلك افردنا لهم فصلًا ونظمناهم في سلك الامم التي سكنت لبنـان . وسنبيّن قريباً انّ هذه الامم كلّها امتزجت بعد قليل امتزاج الماء بالراح

٧ العجم

جاء في كتاب البلدان لاحمد بن ابي يعقوب اليعقوبي (١ انّ الخليفة معاوية لمـا فتح بلاد الشام وجد مدنها الساحليّة فارغـةً من السكّان فاستقدم قوماً من العجم ليتخذوها لهم سكناً . وقد ذكر ذلك عن طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء . بل خصّص بذلك ايضاً بعلبك وعرقة في بلاد عكار . فصارت كل النواحي المحيطـة بلبنان في يد العجم بل اضحى قسمٌ من لبنان في حوزتهم وهي الايالات القريبة من المدن المذكورة كما يصرّح اليعقوبيّ بهذا الامر

فقول اليعقوبيّ السابق ذكرهُ يضطرّنا الى ان نجعل العجم بين الشعوب البائدة من لبنان التي بقيت منها فيهِ بعض بقايا امتزجت باهلهِ . وشهادة اليعقوبي المذكور لم نجـد

١) راجع الصفحة ١١٤ (ed. Juynboll)

لها ما يؤيّدها في سائر التواريخ واوصاف البلدان (١ الّا انهـا تستحقّ الاعتبار وتستوقف الانظار. كيف لا وهي لكاتب من اقدم كتبة العرب عاش في القرن الثالث للهجرة وهو من المشاهير الموثوق بكلامهم وصف في تآليفهِ احداثًا قريبة من زمانهِ

وما يحملنا على تصديق قول اليعقوبيّ انّنا نجد في لبنان قومًا من الشيعة كالمتاولة والنصيريين توطّنوا الجبل وبسطوا عليهِ سطوتهم وخلّفوا فيهِ آثارًا تنبئ بصحّة ما سطّره المؤرخ الموما اليهِ . ومن جملة هذه الآثار ما نراه في بعض اهل لبنان من هيئة الجسم وتقاطيع الوجه وسحنة البشرة التي يُعرف بها العجم

وقد وردت ايضًا في القرن العاشر شهـادة اخرى تؤكد قول اليعقوبيّ وهي في كتاب رحلة احد الاعجام الى بلاد الشام وجزيرة العرب وهو نصري خسرو الذي نشر كتابهُ العلّامة شرل شيفر الشهير. وممّا قالهُ صاحب هذا الكتاب(ص ١٠٠) انّ « اهل طرابلس كلهم من الشيعة »وكذا قال عن صور ولا نشكّ انهُ يريد ابناء هؤلاء الاعجام الذين استقدمهم معاوية لسكنى بلاد الشام

ولم يعد الكتبة بعد هذا العهد يذكرون العجم وعندنا انّ امرهم ضعف بعدئـذٍ لِما حدث في بلاد الشام من الحروب في القرن الثـاني عشر فانتُقض امرهم واختلطوا باهل لبنان . ومنهم النصيريّة والمتاولة الذين ظهروا بعدئذٍ

٦

انتشار الأمّة المارونيّة في لبنان

للأمّة المارونيّة في لبنان مقام ممتاز لتوفُّر عددها فيهِ ولما بينها وبين هذا الجبـل من العلاقات التاريخيّة المتواصلة حتى جاز لها ان تعتبر لبنان كوطنها الخاصّ. ومن ثمّ لا يسعنـا ان نصرف عنها النظر في غضون تسريح ابصارنا في آثار لبنان

وليس كلامنا في الأمّة المارونيّة تاريخيًا اذ لم نتوخَّ في مقالاتنا تاريخ الجبـل بل آثاره ُ ولا سيما ان تاريخ هذه الطائفـة قد شاع اليوم فلا حاجة الى اعادة ما يعرفهُ القرّاء (٢ وعليهِ فنقتصر في هذا الباب على ما يختصّ بنشوء الطائفة وانتشارها في لبنان

١) الّا ابن رُسته والبلاذري

٢) راجع تاريخ الطائفة المارونيّة للدويهي الذي نشرهُ الاستاذ المرحوم رشيد الشرتوني

فنعدّ بهذه الدروس الخاصّة الموادّ لتاريخ اعمّ واكمل · وفي الفصول السابقة توطئــة لهذا الباب وفيها ذكرنا الشعوب الذين حلوا قبل الموارنة سكناهم في لبنان · ومنهم من خلّف فيهِ شعباً من عنصرهِ كالمردة والجراجمة بقي منهم فئات في القسم الثاني من القرن السابع الذي نخصُّهُ الآن بالبحث

وكان الموارنة في ذلك العهد عبارة عن مجموع زُمَر آراميَّة لم يمسَّها العنصر اليوناني وتمدُّنهُ تقيم خصوصاً على مقربةٍ من أفامية في جهات دير مار مارون ومنهُ اتخذوا اسمهم · ومن ثمّ انتشروا في وادي العاصي وخصوصاً في معرَّة النعمان وفي شيزر وحماة وحمص كما يظهر من نصّ للمسعودي ورد في كتابهِ المعنوَن بالتنبيه والاشراف ألمَعْنا اليهِ غير مرَّة

واذا راجعنا اقاويل قدماء المؤرخين كابن العبريّ في تاريخهِ الكنسي السرياني (١ وابن بطريق(٢ وغيرهما وجدنا الموارنة في مقامات أخرى اقرب الى الشمال كمنبج وقنّسرين والناحية المعروفة بالعواصم · ومن المحتمل ايضاً انَّهم كانوا في انطاكية وجوارها لان انطاكية تعدّ كحاضرة هذه الناحية وفيها تدخل مدينة قورس المتكرّر ذكرها في ترجمة القديس مارون لتاودوريطس اسقف هذه المدينة (٣ · وكتبة الموارنة يوافقون على انتشار طائفتهم في تلك الانحاء وشهاداتهم في ذلك صحيحة مستندة الى نصوص وضعيَّة لا تُنكر · ونحن اوّل من يرضى بمثل هذه الشهادات المؤيّدة بالبرهان

وان سأل سائل هل يُعرف عدد هذه العشائر المارونيَّة المستعمرة في سوريَّة الشماليَّة وسورية الوسطى · اجبنا انهُ ليس في وسعنا ان نعيّن ذلك بالتدقيق لكنَّهُ يؤخذ من نبذة سريانيَّة تاريخية اوردهـا المشرق في سنتهِ الثانية (ص٢٦٧) نقلًا عن المجلّة الاسيويَّة الالمانية (ZDMG, 1875 انّ هذا اللفّ كان ذا عدد وافر اذ حضر بصفة

---

١) الجزء الاوَّل منهُ (ص ٢٧٠ – ٢٧٤)

٢) راجع تاريخــهُ في مجموع الآباء اليونان (ج ١١١ ص ١٠٧٧ و ١٠٧٨) ومنهُ في مكتبتنا الشرقية نسخة خطيَّة قديمة ويزعم ابن بطريق انهُ دخل بين الموارنة قوم من الروم لعلهُ يريد الآراميين المتجنسين بالجنسية اليونانية كما كان منهم كثير في سوريَّة · وان صحّ قولهُ كان لهُ شأن لتقرير العناصر السوريَّة وغيرها

٣) راجع كتاب البلدان لابن رسته (ص١٠٧) وفتوح البلدان للبلاذري وكتاب التنبيه للمسعودي وغيرهم من كتبة العرب · وقد تبعناهم في كتابة اسم قورس بالسين بدلًا من قورش بالشين وفقاً للفظ الآرامي

فرقة دينيّة امام الخليفة معاوية فجرى بينها وبين اليعاقبة جدال كانت فيه الدّولة على اليعاقبة . وكان اصحاب هذه البدعة جيلًا كبيرًا في ذلك العهد فلولا انّ الموارنة كانوا على نوعٍ ما يعادلونهم عددًا لما حكم لهم الخليفة على اخصامهم

وكان دخول الموارنة الى لبنان على رأينا في القسم الثاني من القرن السابع هاجروا الى الجبل من وادي العاصي . وكأني هنا بالقارئ يتعرّض لي فيقول : مالك تذكر مهاجرة الموارنة الى لبنان أليس أصحّ ان يقال انّ سكّان لبنان الاصليين هم الموارنة . فالجواب على انّ مبادئ تاريخ الموارنة الدينيّ تشير صريحًا الى كون هذه الطائفة كانت اولًا خارجاً عن لبنان . ومن المعلوم انها تنتسب الى القديس مارون وقد عاش القديس مارون في شماليّ سوريّة في البلاد الواقعة بين انطاكية وقورس ثم تراها مواصلة سيرها في وادي العاصي في زمنٍ لم نسمع لها بذكر في لبنان . ثم بعد ذلك بمدّة نجد الموارنة يتوقّلون في هذا الجبل مهاجرين اليه من الشمال ونواحي سوريّة المتوسّطة . فلا بدّ اذن من التسليم بتنقّل الامّة . وفي تاريخ تاوفانوس كما في فتوحات البلاذري اشارة الى هذه المهاجرة كما سنبيّن آنفاً

ولكن تُرى ماذا حمل الموارنة الى مبارحة وادي العاصي واستبدال مقاماتهم فيه ليسكنوا لبنان نجيب ان الرأي عندنا انهم عدلوا الى لبنان تملّصاً من اضطهادات مجاوريهم نخصّ منهم بالذكر اليعاقبة اعداءهم . وكان اليعاقبة في ذلك الوقت اصحاب بطش وسطوة لهم في افامية ونواحيها الكعب الاعلى . وكان لهم قريباً من افامية دير عظيم على اسم ماري باسّوس (١ بلغ عدد رهبانه ٦٣٠٠ . ولما كان الفريقان على طرَفَيْ نقيض قُضي على الموارنة المهاجرة

وقد بيّنّا ما كان بين الأُمّتين من العداوة . ولنا على ذلك برهان آخر اقدم عهدًا ورد في تاريخ الكنيسة لابن العبري (المجلّد الاوّل ص ٢٧٠–٢٧٤) قال ان في عهد الملك هرقل حدث بين رهبان مار مارون واليعاقبة مشاحنات (٢ . فانتزع الاوّلون من ايدي

---

١) راجع مقالة الاب شابو في مار باسوس L'abbé Chabot: *La légende de Mar Bassus et de son couvent à Apamée*, p. 55, 60, 63.

٢) انّ في هذه المناظرات بين الموارنة واليعاقبة دليلًا واضحًا على بطلان مزاعم بعض الكتبة الذين نسبوا للموارنة اضاليل يعقوب البرادعي في طبيعتي المسيح

اليعاقبة كانأسهم برضى ملوك القسطنطينيّة فحاول اليعاقبة استرجاعهـا في ايام معاوية فلم ينالوا بالمرغوب . ولا غروَ انّ اليعاقبة كانوا يترقّبون الفرصة ليزاحموا الموارنة شيئاً فشيئاً ويضطرّوهم الى ان يخرجوا من اماكنهم فطلب الموارنة لهم ملاجئ حريزة يحصلون فيها على الدعة والسكينة . ولعلّ خراب دير مار مارون حدث في ذلك العهد وكان بعض اليعاقبة سبباً لخرابه

بيد انّ هذه المهاجرة لم تكن دفعةً واحدة وانما حدثت في ازمنة متوالية فكان المهاجرون ينتقلون الى لبنان زرافاتٍ زرافاتٍ . وفي عهد المسعودي اي في القرن العاشر نجد منهم بقايا في وادي العاصي خارجاً عن لبنان . اما دخولهم في هذا الجبل فكان في وقت المَرَدَة والجراجمـة وفيهم يصح خصوصاً قول تاوفانس « ان كثيرين من اهـل البلاد احتموا في ذراهم (اي المردة) » وقول البلاذري في فتوح البلدان (١ « انّ جماعة كثيرة من الجراجمـة والانباط والعبيد الأبّاق ضوَوْا الى الروم » اراد بذلك الموارنة فدعاهم باسم الانباط دلالةً على اصلهم الآراميّ

وكان دخول الموارنـة الى لبنان من الشمال اعني انهم تبطّنوا وادي الأُرنُط فاجتازوا افامية وحمـاة وحمص الى ان قرّ قرارهم في الجبل . فسكنوا اوّلًا جهاته الشماليّة ثم تقدّموا الى اواسطهِ ثم بلغوا جنوبَهُ . هذا ما يمكن استخلاصهُ من النصوص التاريخيّة التي ورد فيها ذكر انتشار الموارنة في لبنان

وقد بيّنّا في مقالتنا عن سكنى لبنان في قديم الزمان (راجع الصفحة ٢٣) ان مشارف الجبل والجهات المعروفـة بالجرد بقيت الى القرن السابع قليلة السكّان كثيرة الغابات . امّا « الوسوط » فكانت مأهولة وان كان اهلها اقلّ عدداً من الارياف والسواحل . فلا مراء انّ الموارنة سكنوا اعالي لبنان لخلوّها من السكّان . واحتلّوا اوّلًا اودية الجبّة اعني مقاطعات اهـدن وبشرّاي وحدَث ولعلّهم لقوا هناك بعض الدساكر التي كانت سبقت عهدهم على الاصحّ كقرية اهدن وقرية بشرّاي (٢ وعندنا

---

١) راجع الصفحة ٤٧ من هذا الكتاب

٢) راجع آثار لبنان ج ١ ص ١٢٧ وهناك بيّنا ما يختصّ باهدن وبشراي . امّا الحدَث فمن اقدم قرى لبنان ورد اسمها في نزهة المشتاق للادريسي وتكرّر ذكرها في اخبار اصول الطائفه المارونيّة

انَّ الموارنة نزلوا ايضاً في بعض اماكن من منحدر الجبل قريباً من البترون عند دير كفرحي القديم (١ . ولعلَّ مدينة البترون نفسها اضحت من اوَّل مساكن الموارنة كلّها او على الاقلّ بقسم منها

فيكون اذن اوَّل مركز احتلَّهُ الموارنة عند ولوجهم لبنان معاملة الجبَّة وقسم من بلاد البترون فهناك كان مهد الامَّة المارونية كما اشرنا اليهِ غير مرَّة

ومن الحوادث التاريخيَّة الاولى التي جرت بعد سكنى الموارنة في لبنان ما ذكرناه في مقالتنا عن الجراجمة وهي شكوى اهل الجبل من عامل بعلبك وكان الامام الشهير محمَّد الاوزاعي ممَّن دافعوا عنهم وانتصروا لهم . قال البلاذري في فتوح البلدان (ص ١٦٢) عن محمَّد بن سعد عن الواقديّ قال : خرج بجبل لبنان قومٌ شكوا عامل خراج بعلبك فوجَّه صالح بن عليّ بن عبدالله بن العبَّاس من قاتل مقاتلتهم واقرَّ من بقي منهم على دينهم وردَّهم الى قراهم واجلى قوماً من اهل لبنان . فحدثني القاسم بن سلّام انَّ محمَّد بن سعد حدَّثهُ ان الاوزاعيّ كتب الى صالح رسالة طويلة حُفِظ منها وقد كان من اجلاء اهل الذمَّة من جبل لبنان ممَّن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجهِ : « ممَّن قتلتَ بعضهم ورددتَ باقيهم الى قراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامَّة بذنوب خاصَّة حتى يُخرَجوا من ديارهم واموالهم . . . »

ولمَّا كثر عدد الموارنة في القرون الثامن والتاسع والعاشر اخذوا شيئاً فشيئاً في الامتداد الى الجنوب واحتلُّوا بلاد جبيل وممَّا يشهد على سكناهم في معاملتي جبيل والبترون مذ ذاك العهد عدَّة كنائس سبق لنا وصفها في مقالتنا عن كنائس لبنان القديمة (راجع الجزء ١ . ص ٧٩) وقد لقي الموارنة في تلك النواحي قوماً من اهل البلاد كانوا يسكنون السواحل والوسط . غير انَّ عددهم لم يكن متوفرًا . وكان اكثرهم نصاري يتكلَّمون باللغة الآراميَّة ويقيمون فيها طقوسهم الدينيَّة . وعندنا انَّ هؤلاء الآراميين لم يلبثوا ان يمتزجوا بعد قليل بالموارنة امتزاج الماء بالراح كما امتزج بهم ايضاً بقايا المَرَدة والجراجمة الذين تخلَّفوا في لبنان . وكانت مهاجرة سكَّان وادي الأرنط الى لبنان لا تزال متواصلةً متتابعةً لمزاحمة اليعاقبة واضطهادهم للموارنة

١) راجع الجزء الاول ١٣٤

وكان الملكيُّون مع هذا يقطنون بعض قرى لبنان في بلاد البترون وجبيل مثل كفرشليمان وحدتون (١ وبقسميا (٢ ودوما والقرى المجاورة (٣ وكفور (٤ وغرزوز وغيرها . وكان الملكيّة في لبنان يتبعون آنئذٍ في فرائضهم الدينيَّة طقس انطاكية اعني على الراجح ليتورجية القديس يعقوب التي ناقضهـا بعد ذلك البطريرك ثاودوروس بلسمون (٥ واستبدلها بليتورجيَّة القسطنطينيَّة . وفي ما خلا ذلك لم يختلف الملكيُّون عن بقيَّة الآراميين في اصلهم ولغتهم . وما لا ريب فيهِ ان الكتابات اليونانيَّة لنصارى لبنان قليلة جدًّا لا يُعرف منها الَّا كتابتان او ثلاث كتابات . امَّا الكتابات التي تُرى على بعض الصوَر في سيِّدة ثايا بكفر شليمان مخطوطةً باليونانيَّة فليست هي للوطنيين وانَّما كتبها مصوّرون بوزنطيُّون او مثَّلهـا الوطنيُّون كما وجدوها في امثلةٍ بوزنطيَّة قديمة

وبعض القرى التي كان يسكنها سابقًا الملكيُّون نراها بعد ذلك مأهولة بالموارنة إمَّا لانَّ الموارنة دخلوها فامتزج بهم الملكيُّون . وإمَّا لانَّ الملكيين هاجروها فانتقلوا الى امكنة غيرها او لاسباب نجهلها

وخلاصة الامر انَّنا اذا استثنينا اليهود نجد في تركيب الامَّة المارونيَّة ما نجدهُ في تأليفَ جميع الامم التي تتركَّب أُصولها من عناصر شتَّى . وكذلك الامَّة المارونيَّة اذا اعتبرتها في اواخر القرون المتوسّطة رأيتها تتألف من اصول مختلفة اوَّلها واعظمها شأنًا الموارنة المهاجرون الى لبنان من سوريَّة الشماليَّة وسوريَّة الوسطى ضوى اليهم قومٌ من الأُبَّاق والطرداء الذين لاذوا بحمى المردة والجراجمة الباقين في لبنـان فضلًا عما كان هناك من القطنين الاصليين . فهذه العناصر كلُّها تمازجت بعد حين وصارت امَّةً كبرى ذات لغة واحدة وهيئة واحدة وغاية واحدة لا يمكن الآن اصحاب النظر مهما دقَّقوا في البحث ان يفرزوا جنسيَّاتها الاصلية

١) راجع في الجزء ١ . ص ٨٦ و ٨٧ مقالتنا عن هذين المحلَّين

٢) تاريخ الدويهيّ (ص ٣٠٧)

٣) منها كفرحلدا وقد وجدت فيها آثار ابنية للملكيين

٤) راجع كتاب خزائن الكتب في دمشق وضواحيها للاديب حبيب افندي زيَّات (ص ١١٩ الخ) والمشرق (٥ : ١٠٤ و١٠٦)

٥) راجع المشرق (٣ : ٢٧٣)

فاذا لحظنا نموّ الأمّة المارونيَّة كما تقدَّم واعتبرنا انَّ عدد المواليد يفوق كثيرًا عندهم الوفيات لا نعود نستغرب ما ذكرهُ غليلموس الصوري في تاريخ الصليبيين حيث احصى الموارنة اربعين الفًا . وهذا الاحصاء الاجمالي ينطبق على ما رُوي في تواريخ الاعصار المتوسّطة عن الموارنة انهم منتشرون في جهات طرابلس وبلاد البترون وجبيل والجبّة الى نهر ابراهيم . وهو قول صحيح غالبًا مع بعض شذوذ كما سترى قريبًا عند ذكرنا اقوم من غير المسيحيين سكنوا في ايالات لبنان الواقعة شمالي نهر ابراهيم

ومما ورد ايضًا في التواريخ الصليبيَّة ذكر مقدّم مارونيّ يدعى سمعان تولّى عينتاب في شمالي سوريَّة [١] ولا نعلم من اي فرقة من الموارنة كان أمن الذين في لبنان او ممَّن تخلَّفوا في بلاد العواصم . امَّا كونهُ من موارنة العواصم فاقرب الى الصواب

ونجد قبل هذا العهد قومًا من الموارنة في بلاد ما بين النهرين اشتهر منهم توفيل ابن توما الماروني المنجّم الرهاوي قال ابن العبري في تاريخ الدول (ص٢١٩ و ٢٢٠): «كان رئيس منجمي المهدي ... وكان على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى ولهُ كتاب تاريخ حسن [٢] ونقل كتابي اوميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون في قديم الدهر من اليونانيَّة الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة». وكذلك نجد في عبر دجلة بين الموصل وبغداد جماعة من الموارنة ذكرها في القرن الثالث عشر الراهب ريكُلد دي مونكروا (Ricold de Montcroix) وروى ان لها مطرانًا يدبّرها [٣] . ولعلّ قيسًا الماروني المؤرخ الذي اسهب في ذكرهِ المشرق(٣ : ٢٦٥ و ٣٥٦ و ٤٥١) كان من تلك الجماعة . وعلى كلّ لا نرى احدًا من كتبة الموارنة ذكر هذا المطران في ما وراء دجلة . وكل هذا دليل على انَّ في تاريخ الأمّة المارونيَّة امورًا عديدة لم يُحسر بعد عنها اللثام . ومن المحتمل انَّ الكتبة سكتوا عن هذا المطران كما سكتوا عن غيرهِ لانَّ الاساقفة المارونيين كانوا مدَّة الاجيال السالفة

---

١) راجع تاريخ مملكة اورشليم Roehricht: *Geschichte des Koenigreichs Jerusalem* p. 220, note 6.

٢) وجدت منهُ بعض مقاطيع مختصرة في تاريخ المنبجيّ الذي نشرهُ الاب ل . شيخو (ص ٣٦٩)

٣) راجع Quatremère : *Mémoire sur les Nabatéens* ,p. 149

كنوّاب للبطرك ومعاونيهِ دون لزوم كرسي خاصّ . وانما جُعلت لهم مراكز منفردة في القرون المتأخرة فقط

وكان القرنان الثاني عشر والثالث عشر قرنَيْ نهوض وترقٍّ في لبنان . وفي ذلك العهد بُنيَت كنائس عديدة على طرزٍ خاصّ تزينها الكتابات السريانيَّة وفيها من نقوش الفسيفساء والتصاوير الملوّنة ما سبق وصفهُ (١ . وفي هذه الابنية دليل على وفرة عدد اللبنانيين وهمّتهم . لم يزل يسمو هذا العدد ويتزايد حتى هاجر قسمٌ منهم الى النواحي المجاورة من فلسطين ولاسيَّما القدس الشريف وكان لهم فيهِ عدَّة كنائس (٢ . وكذلك انتقلت منهم مستعمرات الى قبرس ثم رودوس . امَّا قبرس فقد سكنوها منذ القرن الحادي عشر ونرى لهم في هذه الجزيرة ديرًا (٣ في تاريخ سنة ١١٢٠ . وقد نموا نموًّا عظيمًا حتى انهم كانوا يسكنون منها ثلاثين ضيعةً (٤ وكان يرعاهم مطران من طائفتهم . وكان بعضهم في مدن قبرس الكبرى وخصوصاً الماغوصة (٥ وكانت في ذلك العهد واسعة التجارة . امَّا دخول الموارنة في رودس فنظنُّهُ انهُ جرى على عهد الفرسان المعروفين بالاسبيتلار (Les Hospitaliers) لما احتلُّوا تلك الجزيرة فتبعهم الموارنة . وكذلك ذهب قسم منهم في القرن السادس عشر مع فرسان رودس الى جزيرة مالطة ولحق بهم بعض من اخوانهم من موارنة قبرس في اواخر ذلك القرن . ولعلّ وجود الموارنة في مالطة ممَّا ساعد على حفظ العربيَّة ونَشْرها في تلك الجزيرة . ومن المعلوم انَّ اهل مالطة يتكلَّمون باللغة العربيَّة مشوبةً بالفاظ دخيلة من اللغات الاجنبيَّة

امَّا حلب فيظهر من نصٍّ لتوما الكفرطابي ورد في المشرق (٦ : ١١٨) ان الموارنة

١) راجع في الجزء الاول مقالاتنا عن كنائس لبنان القديمة

٢) المشرق ١ : ٩٣

٣) راجع سلسلة بطاركة الموارنة للدويهي (الطبعة الثانية ص ٣٢ الحاشية الاولى)

٤) راجع تاريخ قبرس L. Machéras: *Chronique de Chypre,* trad. f. 15, 16

٥) وجاء في رحلة يعقوب دي برن (J. von Bern) سنة ١٣٤٦ انهُ وجد الموارنة في هذه المدينة يقيمون رتبهم على طريقة الروم . ولا نفهم ما يعني بذلك أَلعلَّهُ يريد ان الموارنة كانوا يستعملون اليونانيَّة في طقوسهم وهي لغة اهل الجزيرة ؟ فهذا ممكن

كانوا فيها منذ زمن قديم لكنّ اخبارهم في الشهباء مجهولة الى القرن الخامس عشر حيث اتاهم مددٌ جديد من لبنان (راجع المشرق ٥ : ١٠٣٩ في الحاشية الثانية)

ولنعودنّ الآن الى الموارنة المستوطنين لبنان فانهم كانوا في نموّ وازدياد يمتدّون شيئاً فشيئاً في النواحي المجاورة . قال الدويهي : « وبسبب ما اشتهر بهِ لبنان اوانئذٍ من الامن والطمأنينة قصدهُ الناس من الاماكن البعيدة [١] » لسكنى النواحي التي يهجرها المهاجرون الى قبرس وجزائر البحر المتوسّط

ومع هذا النموّ لا نرى الأمّة المارونيّة تتقدّم الى الامام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . امّا لاجل مهاجرة قسم منها الى قبرس ورودس كما سبق وامّا لاجل الحروب التي انتشرت في كسروان في ذلك العهد فبقي الموارنة ما وراء نهر ابراهيم

وهنا لا بُدَّ من تكرار ما قلناهُ غير مرَّة في مقالاتنا [٢] ان كسروان ليس من المقاطعات التي اوى اليها الموارنة قبل القرن الخامس عشر . وقد اوردنا نصًّا للادريسي ذكر فيهِ وجود اليعاقبة في جونية (المشرق ١ : ١٠١٨) . وان سأل القارئ ومن كان يسكن اذن كسروان قبل هذا العهد . اجبنا انَّ معظم اهل هذه الناحية كانوا من المتاولة او من النصيريين . وكان النصيريّون قاطنين ايضاً في بعض نواحي لبنان الشماليّة كجهات البترون ونواحي المنيطرة والعاقورة [٣] ولكنّ عددهم الاوفر انّما كان في كسروان . وقد ذكر صالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت [٤] الغزوات التي باشرها نوّاب الشام في ايّام السلطانين الملك الاشرف خليل بن قلاوون والملك الناصر محمَّد بن قلاوون فحاربوا النصيريّة في جبال كسروان ولم يزالوا يناجزونهم القتال حتى اخرجوهم من كسروان وجعلوا مكانهم قوماً من التركمان على الاقلّ في بعض النواحي وبقي كثير من المتاولة معهم . هذا وان اموراً كثيرة من تاريخ كسروان لا تزال مجهولة حتى يومنا الّا اننا نعلم بلا ريبٍ انّ النصارى لم يحتلّوا هذا الجبل قبل القرن الخامس عشر

---

١) راجع تاريخ الدويهي (ص ١٤٠)

٢) راجع المشرق (١ : ٥٦)

٣) ولنا في النصيريّة مقالة افرنسية جمعنا فيها كل ما يختصّ بآثار النصيريين واحوالهم وسمناها باسم « النصيريَّة في لبنان » ونشرناها في مجلّة الشرق المسيحي سنة ١٩٠٢

٤) راجع تاريخ بيروت (ص ٤٤ — ٥١)

ولمّا كانت اوائل القرن الخامس عشر جعـل الموارنة يتجاوزون نهر ابراهيم ويصعدون الى كسروان . وكان انتشارهم فيهِ سريعاً حتى صارت هـذه المقاطعة في القرن السابع عشر كلّها لهم . وامتدَّ من ثمَّ الموارنة الى مقاطعتي المـتن والشوف . لكنَّنا نقف عند هذا الحدّ لئلّا ندخل في اخبار قريبة من عهدنا وليست غايتنا كما قلنا ان نسطّر تاريخ لبنان بل ان نبيّن بوجه الاجمال كيف انتشرت الامّة المارونيَّة . امّا تفاصيل اخبارها فليست الان من شأننا وقد مرَّ منهـا كثير في ابحاثنا السابقة وسنورد ان شاء الله غيرها في ما بعد

بحث جغرافي

في سيرة القديس مارون الناسك

إكمالًا لبحثنا عن منشإ الطائفة المارونيَّة وتكوّنها نضيف الى ما سبق من الكلام بعض افادات تتعلّق بحياة القديس مارون الذي خلّف اسمهُ للطائفة الموما اليها . غير أننا لا نتجاوز الحيز الجغرافي الذي رسمناهُ فنتكلّم من ثمَّ على حياتـهِ لا من الوجه التاريخي بل من الوجه الجغرافي لاسيَّما وان هذا الوجه قد كثر تغاضي الباحثين عنهُ حتى الآن فبقيت فيهِ مشاكل كثيرة لا بُدَّ من تفكيك معضلاتها

*

ليس في ايدينا شيء يروي اخبار القديس مـارون غير مصدر واحد اصلي اي الترجمة التي تركها تاودوريطوس اسقف قورس(١ وهي تركة جليلة القدر يكفي انتسابها الى هذا المؤرخ الجليل للحكم على مكانتها من الاهميَّة ولولا ايجازها المفرط لما وجدنا فيها مساغاً للانتقاد ونأخذ عليهِ انهُ اهمل الوجه الجغرافي اهمالًا تامًّا حتى اننا لا نجد في ترجمة القديس مارون سوى اسم واحد من اسماء الامكنة وسبب ذلك هو انهُ دوّن ما

١) راجع تأليفهُ المعنون « تاريخ الرهبان » في مجموع الاباء اليونان مج ٨٢ واليهِ نشير في هذه المقالة

دونَ لحمل معاصريهِ على سلوك طريق الفضيلة بايراد سير الزهَّاد والقديسين فلم يخطر لهُ في بال ان يشفي رغائبهم في امور كان يفترض انَّها معروفة عند جميعهم

وبناء عليهِ نأسف كل الاسف على عدم التفاتهِ الى هذا الشأن الذي لو اراد الكتابة فيهِ لكان وفاهُ حقَّهُ من البيان بغاية الضبط والدقَّة . وهَب انهُ لم تكن لهُ معرفة شخصيَّة بالقديس مارون فقد كانت لهُ صداقة بليغة مع القديس يعقوب (١ اشهر تلاميذه الذي اطلعهُ على كل ما يتعلَّق بمن يصفهُ هذا المؤرخ اليوناني تارةً بمارون الكبير وتارةً بمارون « الالهي » (٢ . وكأنَّ تاودوريطس خشي في كلامهِ على الابطال المسيحيين الكثيري العدد من تكرار اخبار الخوارق والمعجزات فبالغ في اختصار سيرة القديس مارون بنوع انَّ من يطالعها تتبادر الى ذهنهِ في الحال مسائل كثيرة لا يجد لها حلًّا وهي : أين ولد القديس مارون وأين عاش واين دُفن واين هو الدير الذي تسمَّى باسمهِ . فاتماماً لهذه النواقص عزمنا على ان نسرد في الصفحات التابعة كل ما تيسَّر لنا جمعهُ من المعلومات المؤدية على قدر المكنة الى العلم الكافي باحوال الناحية التي تعطَّرت بأريج هذا الناسك العجيب ولهذا نضرب صفحاً عن الاطناب في حياتهِ متوسعين بوصف البلاد التي صرف فيها ايَّامه لان ذلك اعون على فهم ترجمتهِ

١

في القسم الشمالي الشرقيّ من سوريَّة كانت تمتدّ في ذلك الزمان القديم مقاطعة كوماجينة وهي ناحية متَّسعة الاطراف يحدُّها من الشمال جبل طوروس ومن الشرق نهر الفرات ومن الغرب قيليقية . واما من الجنوب فيصعب تحديدها ويجوز لنا رسمها بخطّ غير منتسق يذهب من الفرات الى ما تحت هيرابوليس (منبج) حتى يتصل بجبل امانوس (الما داغ) مارًّا تحت مدينة حلب وشماليّ بحيرة العمق بالقرب من انطاكية

هذا هو اعظم اتساع ادركتهُ كوماجينة عندما كانت تشتمل ايضاً على المقاطعة « القورسيَّة » (٣ التي دُعيت بهذا الاسم نسبةً الى مدينة قورس حاضرتها وكان موقع

١) راجع في تاريخ الرهبان تراجم تلامذة القديس مارون

٢) Θεσπέσιος

٣) وفقًا لبعض قدماء المؤرخين

هذه القاطعة الثانية في جنوبي الاولى وسنذكر بُعَيد هذا مقدار امتدادها (١ لان الكلام عليها لا يخلو من فائدة كبرى للاطلاع على اخبار القديس مارون

وحتى يكون للقارئ تصوُّر صائب بهذه القاطعة نكتفي الآن من القول ان كوماجينة تنطبق في الحاضر على قسم من ولايتَي معمورة العزيز وحلب غير ان الجزء الاكبر من كوماجينة هذه كان في ضمن ولاية حلب اعني انهُ كان يشمل بالتقريب كلّ متصرفيّة مرعش ويدخل فيهِ من متصرفيّة حلب المركزيّة اقضية عينتاب وكلّس والباب وحارم وجبل سمعان ومنبج . امّا من متصرّفية اورفة فما كان يحتوي غير قضائين غربي الفرات اي جزءًا من قضاَئي بيرجيك وروم قلعة

وكان الذين استوطنوا هذه القاطعة من بادئ الامر قبائل الحثيين ومنها امتدُّوا بعد ذلك الى بقية سوريّة . يدلّ على ذلك ما عثر عليهِ الباحثون من الآثار التي ابقاها للاجيال الغابرة هذا الشعب الذي لم يُعرف من اخبارهِ حتى الآن شي كثير (٢ . على ان القبائل المذكورة ما لبثت ان اختلطت بالآراميين الذين اسّسوا هناك كثيرًا من الممالك أخصّها بيت عدين وارباد وكانت قاعدة هذه المملكة الثانية مشيَّدة في موقع تلّ أرفاد شماليّ حلب

وكانت كوماجينة في عهد دولة السلوقيين من جملة مقاطعات المُلك الذي اسسوهُ غير انها ما لبثت ان استعادت استقلالها وارجعت ولايتها الى ملوك من اهلها . وبعد وفاة انطيوخوس الثالث في السنة السابعة عشرة للمسيح صارت الى الرومانيين فادخلوها في جملة مستعمراتهم وانّما ذلك لم يدُم الّا سنوات قليلة لانها في السنة الثامنة والثلاثين رُدَّت الى ابن الملك انطيوخوس السابق ذكرهُ وبعد مرور اربع وثلاثين سنة اي في السنة الثانية والسبعين ضُمَّت بوجه نهائي الى المستعمرات الرومانيَّة وكانت سميساط حاضرةً لها (راجع ماركارت في نظام المملكة الرومانيَّة . مج ٢ من الترجمة الافرنسيَّة ص ٣٤١ و ٣٤٢)

امّا سكّان القاطعة المذكورة فكانوا آراميين أصلًا ولغةً . نعم ان الآداب اليونانية

١) راجع استرابون (ك ١٦ ف ٢) وپلينيوس (ك ٥) الخ
٢) راجع الصفحة ٣٩

كانت قد دخلت البلاد بدخول السلوقيين واصابت نجاحاً جديداً في ايّام الرومانيين غير ان هذا النجاح كما نبّه على ذلك العلّامة نُلدك لم يتّصل الى درجة امتدّت معها اللغة اليونانيّة او الآداب اليونانية امتداداً عظيماً بل كانت غاية ما نالوا منهُ ان صنائع الغرب وطريقة المعاش فيهِ قد فازت بشيء من التقدّم وان بعض عناصر الحضارة الغربيّة قد تسرّبت الى افكار القوم المتمدّنين ولغتهم · قال نُلدك : « امّا القول بان اللغة السريانيّة قد زالت من المراكز المتهذّبة فهو من قبيل المبالغة والغلوّ لانّ الآراميّة كانت لغة قديمة استعملها اهل التمدن في التخاطب والكتابة بينما كان القوم في رومية وارباضها لا يعرفون في ذاك الوقت حروف الهجاء · وفي ايّام ملوك الفرس الذين كان اشهرهم قورش الملك اتُّخذت الآرامية لغة رسميّة في مصر وفي آسية الصغرى ايضاً اي في خارج موطنها الاصلي · وفي ايّام الامبراطرة الاوّلين الرومانيين نجد الآرامية ايضاً كلغة رسميّة لا في تدمر وحدها بل ايضاً في المملكة النبطيّة حتى بلاد العربيّة في الجهة التي تُعرَف اليوم اي في ناحية غريبة عن منشإِ اللغة المذكورة على انّ ذلك لم يكن نتيجةً لتغلّبها السالف بدليل ان آثار تدمر والنبط تنطق بان هذه اللغة اصابت نموّاً وانتشاراً فيما بعد ايّام ملوك الفرس وعلى ذلك فقد كانت اللغة الحيّة في سوريّة وبها كان القوم يتخاطبون ويتكاتبون

« نعم انّ اليونانيّة كانت من زمان قد حلّت محلّها في الاصطلاح الرسمي لكن القوم في ما خلا ذلك لم يكونوا يكتبون ولا يتكلّمون الّا بالآراميّة ولا يصحّ في كل حال تعليق اهميّة كبيرة على ما كان يعملهُ بعض اهل المدن من تكليف معلمي المدارس بكتابة بعض تواريخ يونانيّة على مدافن امواتهم مع انهم يكادون لا يفقهون منها كلمة واغلب هذه التواريخ مشوّهة بالاغلاط فوق ما يمكننا وصفهُ (١ » انتهى كلام نلدك

فيُستدلّ ممّا مرّ بيانهُ ان مقاطعة كوماجينة كانت كبقيّة سوريّة آراميّة محضة كما سبق لنا اثبات ذلك في غير هذا الموضع · امّا مستخدمو الحكومة وقليلون غيرهم من افراد السكّان فكانوا يفهمون اليونانيّة ويتكلّمون بها لا اكثر

وفي اثناء القرن الثالث والقرن الرابع تقسّمت سوريّة تقسيماً اداريّاً جديداً

---

١) راجع المجلّة الاسيويّة الالمانيّة (ZDMG) سنة ١٨٨٥ ص ٣٣٣

وسنذكر تفصيل هذا الامر واخباره في خلال مقالتنا هذه. امّا كوماجينة فتسمّت على إثر التقسيم المذكور بسوريّة الفراتية نسبةً الى الفرات وجُعلت هيرابوليس (منبج) قاعدةً لها وجرى كذلك بعض التعديل في حدها الجنوبي فتمدّد الى الجنوب ولاسيا في النواحي القريبة من الفرات غير انهُ سُلخت عنها ناحية حلب وأُلحقت بسوريّة الاولى

وكانت في جنوبي كوماجينة ناحية تُدعى « القورسيّة » ولا بدَّ لنا من توفية الكلام حقَّهُ على هذه الناحية نظرًا لما يترتّب على تعريفها من الفائدة في المسألة التي نحن بصددها

وكان لهذه التسمية كما لغيرها من التسميات الجغرافيّة امتداد يعظم ويقلّ بحسب الازمنة ففي ايّام استرابون كانت تُطلق على ارض واسعة تذهب من جبل امانوس الى الفرات وتشمل خلا ناحية قورس ناحيتي حلب ومنبج. غير انّها بعد ذلك كايّام القديس يوحنّا فم الذهب والقديس مارون مثلًا انحصرت بناحية مدينة قورس فعن هذه الناحية الاخيرة نتكلّم الآن ولزيد التوضيح ندعوها « القورسيّة الصغرى » وسنبحث عن وصفها في كتب توادوريطوس الشهير الذي تولّى اسقفيّتها مدّةً طويلةً من السنين

كانت مسافة القورسية الصغرى اربعين ميلًا في عرض مثلها وكانت فيها جبال معتدلة الارتفاع بين سبعمائة وثمانمائة متر معظمها كاسٍ بالغابات . ومع انها ليست بذات ثروة وغنى كان فيها نحو ثمانمائة محلّ بين دساكر وقرى كبيرة كما يتبيّن ذلك من رسالة لتوادوريطوس كتبها الى القديس لاون الكبير فيها يخبر البابا المشار اليهِ انهُ يعتني بثمانمائة كنيسة (١ . ولم تكن فيها سوى مدينة واحدة اعنيْ بها قورس التي باسمها تسمّت الناحية كلها. وسنذكر كيف كانت المدينة في ايّام القديس مارون غير انّنا قبل ذلك يجب ان نعيّن موقعها وموقع الناحية التي كانت قاعدة لها ومركزًا مدنيًّا ودينيًّا

على مسافة ستين كيلومترًا شماليّ حلب تجد مدينة كلّس التي هي قصبة قضاء يسمّى باسمها واذا توغّلتَ في الجبال على مسافة خمسة عشر كيلومترًا نحو الشمال الغربي تدلّك الخارطة على شبه وادٍ ففي هذا الوادي كانت مدينة قورس التي كان توادوريطوس اسقفًا لها وحتى اليوم ما زالت خرائبها ناطقة بكبرها واتساعها واهل البلاد يسمونها

١) راجع الرسالة ١١٢ وفيها يعترف توادوريطوس باولية الحبر الروماني . راجع ايضًا الرسالة ٤٢

« قورس » او « كورس » وليس بين ايدينا لسوء الحظّ وصف مدقّق لهذه الخرائب والبلاد المجاورة لها لاننا لم نزرها كما ان السيّاح القليلين الذين زاروها لم يتركوا لنا شيئاً من نتيجة ابحاثهم عنها . وآخر من زارها من السيّاح هو المسيو برتلمي ترجمان قنصلية فرنسة في حلب وذلك في شهر ايلول سنة ١٨٩٤ غير اننا لم نرَ من تقريره سوى خلاصة يسيرة ظهرت في نشرة مجمع الكتابات لسنة ١٨٩٥ (١ تتضمّن ثلاثة رسوم شمسيّة تمثّل « اخربة قورس العظيمة » ووُجد ايضاً بين اوراق المستشرق الشهير غيلدمَيستر مقالة عن قورس لم تُنشر بالطبع (ZDPV, XIV, 82) وكل هذه الناحية التي يهمّ البحث عنها كثيراً توضيحاً لمنشإ الطائفة المارونيّة وتاريخ النصرانيّة في سوريّة تستحقّ ان يقصدها الباحثون وينقّبوا في آثارها بالتفصيل والتدقيق . غير اننا استدراكاً لتقصيرهم بذلنا الجهد حتى نجمع من الكتب كل ما له بالقورسيّة علاقة قريبة او بعيدة وسنجعل جلّ اعتمادنا في هذه المسألة على مصنّفات توادوريطوس ونتخذه إماماً لنا في بحثنا هذا

٢

اذا تابعنا فورير (٢ وجب القول بان قورس من اقدم المدن السوريّة وانها سبقت دمشق لانّ هذه على موجب قوله قد أسستها احدى المستعمرات التي اتت من قورس . غير انّ تعليل فورير منقوض لان آية النبي عاموس (٩ : ٧) التي يعتمد عليها لا تصحّ له الّا اذا ثبت انها تشير الى مدينة سوريّة لا الى ناحية من اسية الصغرى مع ان هذا الراي الثاني اقرب واوفر احتمالاً (٣

وزعم آخرون انها تأسست اكراماً واجلالاً لقورس العظيم ملك الفرس ولعلّ هذا الزعم ناجم عن كتابة بعض المؤرخين البيزنطيين الذين كانوا يكتبون Κῦρος بدلاً من Κυῤῥος . وكان موقع المدينة في ناحية قليلة التضاريس وكان فيها على عهد الرومانيين طريقان رومانيان تتّجه أحداهما الى الرها والأُخرى الى حماة (٤ ويظهر من التاريخ انها

(١ راجع Comptes-rendus de l'Acad. des Inscriptions, 1895, p. 469

(٢ Furrer, ZDPV VIII, p. 39

(٣ راجع قاموس الاداب الكتابية لفيكورو في مادة Cyrène

(٤ كتاب المسالك لانطونين (Itinerarium Antonini (ed. Parthey, 84, 86, 87

كانت اذ ذاك مهمة لأنها احالت اسمها الى ناحية كبيرة مثل « القورسيَّة » التي كانت تشتمل كما سبق القول على نحو النصف من مقاطعة كوماجينة غير ان اتساعها تبدَّل اخيرًا بالضيق كما تقدَّمت ايضًا ملاحظة ذلك

ويحتمل ان تكون قورس قد ابتدأت في هذه الفترة تنحطّ قليلًا عن مقام مجدها غير انَّها كانت في ايَّام توادوريطوس والقديس مارون موقعاً حصيناً يحمي قلاع ناحية الفرات (١ واستمرَّت كذلك حتى الفتح العربي فأُلحقت فيهِ بناحية العواصم (٢ وفي ايَّام عبد الملك ضُربت فيهِ سكَّة (٣ ممَّا يثبت انها كانت اذ ذاك صاحبة شأن ومقام وقد استرجعها نور الدين من الصليبيَّة ومن بعدهِ لم نعثر لها على ذكر ونظن انهُ ما طال الامر حتى أُهملت وهُجرت غير انَّنا لا نجسر على متابعة من قال بان نور الدين المذكور هو الذي اخربها . وهذا كل ما نعلمهُ من تاريخ قورس المدني

وفي ايَّام توادوريطوس التي نهتمّ لها بنوع خاصّ لانها كانت بالوقت نفسه ايام القديس مارون تظهر قورس كمدينة صغيرة لان المؤرخ المذكور يسميها « πολίχνη »(٤ غير انهُ يجب الحذر من اتخاذ هذه التسمية على حرفيتها فكما ان اهالي لندن وباريس الذين يضارعون او بالحري يتجاوزون شعب مملكة او اكثر قد ينزِّلون سائر المدن منزلة اماكن حقيرة لا اهمية لها هكذا يمكن ان يكون قد خطر مثل هذا الخاطر للمؤرخ توادوريطوس الذي ائتلف رؤية محاسن انطاكية وطنهِ وجزيل اتساعها . ومعلوم انها كانت اذ ذاك ثالثة حواضرِ العالم المتمدّن او على الكثير رابعتها . وبناء عليهِ سترى بعد هذا انهُ لم ينل عزاء تامًّا بسبب اضطراره الى فراق انطاكية والاقامة في حاضرة اقليميَّة كمدينة قورس التي يشهد باهمّيتها الحقيقيَّة ان الحكومة شيَّدت فيها ثكنةً للعساكر ما بين طريقين عظيمين رومانيين

والظاهر انها لم تحوِ غير قليل من الآثار التي وفَّرها التمدُّن اليونانيُّ الروماني في المدن السوريَّة كالاقنية والمناهل والاروقة المغطَّاة المستندة الى اعمدة ممَّا كان يُبنى في

١) راجع C. R. Acad. Inscript., 1902, p. 513

٢) راجع فتح البلدان للبلاذري ص ١٣١ و ١٤٩ وقدامة ص ١٥٣ (طبعة دي غوري) امَّا العواصم فمرَّ ذكرها في المشرق (٦ : ١٣١) ٣) المجلَّة الاسيويَّة الالمانيَّة ,ZMDG 1889, p. 684 ٤) راجع مجموع آباء اليونان لمين (ج ٨٣ ص١٣٣١)

الشوارع المهمّة ليقي المارّة في ايام الصيف من حرّ الشمس وفي ايّام الشتاء من الامطار (١ وكل ما احتوته من هذا القبيل قد تمّ بمساعي وعناية اسقفها العظيم الذي لا نبالغ اذا سمّيناه مؤسسها الثاني

قال تواودوريطوس المذكور: « انني شيدتُ في قورس من اوقاف الكنائس اروقةً عموميّة وبنيت جسرين عظيمين واعتنيت بالحمّامات العموميّة ثم انني اتخذت قناة واجريتُ فيها مياه النهر القريب وهكذا متّعتُ المدينة بالمياه الغزيرة التي كانت محرومةً منها قبلًا (٢ » وكانت قورس خاليةً من طبيب فسعى تواودوريطوس كل السعي في حمل احد الاطباء على الاقامة بمدينتهِ الاسقفيّة (٣ ولهُ غير ذلك ايضاً من الاعمال الدالّة على اهتمامهِ العظيم بالحاجات الزمنيّة لابناء رعيتهِ

وانَّنا لنأسف عن عدم تمكننا في هذا البحث الجغرافي خاصةً من الاطناب في مآثر هذا الرجل العظيم الذي يُعدّ من مشاهير عصره ونوابغ دهرهِ فقد كان متّسع المدارك رفيع الفهم محتقرًا حطام الدنيا وكان مع ميلهِ الى الفاخر والمعالي يقدم على العظائم ويبذل كل مقتناه في سبيل الفقراء والآثار النافعة للجمهور. وكان من الذكاء على جانب عظيم يرتاح الى الاطلاع على كل شيء والوقوف على كنههِ وحقيقته . ومن الخطابة في اعلى مقاماتها لا يفوقهُ فيها احد غير فم الذهب . ومن المنصب الاسقفي في اسمى مراتب الهمّة والغيرة والتقى بحيث يصح ان يُجعل إمامًا وقدوة لكل الاساقفة في كل عصر (٤ ولهذا كان احقّ مؤرخ بتدوين سير الابطال المسيحيين كالقديس مارون الذي لولا آثار قلمهِ لجهلنا ترجمتهُ

ان ما نعلمهُ من الجغرافية الطبيعيّة لقضاء كلّس يشرح ويتمّم وصف القورسيّة

---

١) كانت كل المدن السوريّة المهمّة مشتملة على مثل هذه الاروقة كما يتبيَّن ذلك من مشاهدة تدمر وجرش (عجلون) . ومن بقايا الاروقة المذكورة العمد الكثيرة المتراكمة حتى اليوم في ميناء جبيل وشوارعها ٢) تاريخ الرهبان (فصل ٢١ والرسالة ٨١)

٣) يتكلم تواودوريطوس في الرسالتين ١١٤ و ١١٥ من كاهن اسمهُ بطرس عانى التطبيب زمانًا طويلًا في قورس. واكتشفوا ايضاً في ديامس روميـة حجر ضريح لكاهن من المتعاطين صناعة الطبّ . غير انّ القوانين التي ترتّبت بعد ذلك حظرت الطب على رجال الاكليروس

٤) ان سيرة تواودوريطوس هي من السير البالغة حدّ الكمال تستحقّ ان يطالعها كل من اختارهم المولى لحمل عبء الأسقفيّة الثقيل

مثلما يُفهم من الافادات المنشورة في كتابات توادوريطوس فان البلاد كلها مشغولة بجبل الاكراد وهو عبارة عن أسناد اي جبال صغيرة منفصلة عن سلسلة امانوس الكبيرة ولم تزل هذه الجبال حتى ايامنا كثيرة الآجام والغابات (١ بحيث تدهش جميع السيّاح الذين اعتادوا النظر الى تعرّي بقيّة سوريّة من الاشجار . غير انهم اذا بحثوا عن القرى الثمانمائة التي كانت في القرن الخامس لا يقفون لها على اثر

وقد علمتَ ان توادوريطوس يتكلم على نهر جرَّهُ الى المدينة وعن جسرين كبيرين شيَّدهما هناك . وفي الحقيقة انهُ تمرّ في جوار قورس عدّة انهار منها نهر عفرين اخصّ السواعد الشمالية لنهر العاصي . وبالقرب من قورس يلتقي بالنهر المذكور نهران صغيران احدهما صابون سو والثاني جاموس ديرسي ولعلّ مياه نهر صابون القريب من اخربة قورس هي التي جرَّها توادوريطوس الى كرسي اسقفيّته

ومع قرب الانهر المذكورة كانت بقيّة الناحية القورسيَّة كثيرًا ما تصاب بالجفاف وقد ذكر توادوريطوس خبر جفافٍ اصابها في رسالةٍ وجهها الى اريوبنداس يسألهُ فيها ترك الديون التي لهُ على المزارعين باراضيهِ الواسعة في القورسيَّة (الرسالة ١٣) ويذكر ايضاً خبر جفاف آخر في ترجمة بوليخرونيوس (٢

هذا ما استطعنا جمعهُ من المعلومات عن مدينة قورس وجيرتها غير اننا لم نقف على معلومات تُذكر عن سائر اماكن القورسيَّة لان توادوريطوس لا يشير في ما خلّفهُ من الكتابات الّا الى قليل منها مثل اسيكا ونيتيس وتيليا وثرغالا وراما وسيتّا ونيارا ونيموزا (٣ ولم يلحق بهذه الاماكن شيئًا من الاوصاف ما خلا نيارا فانهُ وصفها بانها مدينة . وقد رأيت انّ لاكثر الاماكن السابق ذكرها اسماء آرامية وهو امر طبيعي في ناحية آرامية خالصة كما مرَّ لنا اثبات ذلك في الكلام على كوماجينة إجمالًا وكما سنثبتهُ بعد هذا في الكلام على القورسيَّة خصوصاً

---

١) مما يجب التنبيه اليهِ هو انهُ يوجد بين اشجار هذه الغابات اشجار مثمرة تنبت من تلقاء نفسها . وهكذا كانت الحال في ايّام توادوريطوس لانهُ يخبر عن القديس يعقوب الناسك الشهير انهُ كان يقتات من ثمار اشجار الغاب (مج ٨٢ ص ١١٠٩)

٢) راجع مجموع الآباء لمين اليونان (ج ٨٢ ص ١٣٦١)

٣) في المجلّد نفسهِ ص ١٢٢٩ و ١٣٣٣ و ١٣٥٣ و ١٣٥٤ و ١٣٥٧ و ١٣٥٩ و ١٣٦٠ و ١٣٦٤

ولم يكن سكّان القورسيّة من ذوي الغنى والثروة بدليل انّ اسقفهم كان يضطرّ الى اسعافهم والقيام بالاشغال العموميّة لديهم · وكان في بعض المرّات يرفع العرائض من اجلهم الى الامبراطورة بوخرية القديسة وغيرها من كبراء المنصبين (١ وهي تدلّ من جهة على شهامة قلبه وحنانه ومن جهة ثانية على شقاء الاهالي الذين بهظتهم الضرائب وثقلت عليهم جدًّا حتى ان الكثيرين منهم لعجزهم عن القيام باعبائها كانوا يؤثرون التسوُّل وهجر الاوطان (الرسالة ٤٢)

وانْ قيل ما اللغة التي كان القوم يتكلّمون بها في القورسيّة اجاب الذين يتسرّعون في الاحكام قبل الوقوف على كنه المسائل انها ينبغي ان تكون اليونانيّة لان توادوريطوس اسقف البلاد كتب بها · غير انّ هذا التعليل لا يرضينا ولا يصلح حجّة لاقناعنا لانّ لدينا من الادلّة الواضحة ما يؤيد العكس (٢

رأينا في مقالة سابقة (المشرق ٤ : ١٠٨٦) ان توادوريطوس مع ان لغتهُ الاصليّة هي اليونانيّة (٣ كان عارفًا ايضًا بالسريانيّة · غير ان المقام لم يسمح اذ ذاك بالافاضة في الكلام على هذه المسألة المهمّة ولولا ذلك لأتينا بشهادة المؤرخ اليوناني ملالا(٢ : ١١٠) طبعة اكسفورد) وهو يثبت ان العامّة في انطاكية كانوا يتكلّمون الآراميّة وامّا الباقون فاذا كانوا لا يتكلّمون بها فكانوا على الاقل يفهمونها · ويثبت الاستاذ العالم كوغنير (Kugener) اثباتًا صريحًا (في الشرق المسيحي ١٩٠٢ ص ٢٠٢) ان السريانيّة كانت اللغة الشائعة في انطاكية وضواحيها

وهنا نستأذن في ان نضمّ الادلّة التابعة الى البراهين التي سبق ايرادها : ان ابوي توادوريطوس كانت لهما علائق مكينة مع الناسك القديس مقدونيوس وقد اخبر توادوريطوس بالتفصيل كيف ان تجرُّده لخدمة الله كان نتيجة تحريضات الناسك

---

١) راجع رسائلهُ ٤٣ – ٤٥ ٢) اذا كان برهاننا صحيحًا اثبت خروج الذين يعلّلون التعليل الآتي من قواعد الاستدلال العقلي وهو قولهم : « ان جملة اساقفة في سورية كتبوا باليونانيّة فاذًا سوريّة كلها كانت تتكلّم اليونانيّة » وسنثبت في ما يلي من كلامنا عن القورسيّة ان نتيجتهم هي اوسع من المقدّمات . وقد سبق لنا تبيان ذلك في كلامنا على ناحية انطاكية (المشرق ٤ : ١٠٨٣) التي يحاول البعض ان يصوّروها لنا مثل بلاد يونانية . وفي املنا اننا نستطيع اثبات الامر نفسهُ عن سائر نواحي سورية متى تيسّرت الفرصة

٣) كما قد صرح بذلك راجع مجموع مين (في المجلد ٨٣ ص ٨٤٣.)

المذكور فقال ان مقدونيوس كان يتردّد على منزلهم في انطاكية فلمّا ترعرع توادوريطوس اخذ الناسك يرغبهُ ترغيباً شديدًا في خدمة الله (١ والحال ان مقدونيوس لم يكن يعرف غير السريانيَّة (٢ واذ قد ثبت ذلك وكان التسليم صعباً بان مخاطبات هذا الرجل القديس كانت تجري بواسطة ترجمان فيترجَّح عندنا انهُ لم يكن توادوريطوس وحدهُ يفهم السريانيَّة بل ان ابويهِ ايضاً كانا يفهمانها وكانت هذه العيلة كما هو معروف من العيال الوجيهة في انطاكية

ولنا في الحادث الآتي بيانهُ دليل اقوى واصرح فقد اخبر توادوريطوس في تاريخ الرهبان (٣ ان الشيطان ظهر لهُ ذات ليلة في قورس وهو اسقفها فهدَّدهُ تهديدًا مخيفاً مرعباً وكان يخاطبهُ باللغة السريانيَّة وكان احد رفقائهِ راقدًا معهُ في غرفتهِ فسمع ايضاً الكلام عينهُ وسمعهُ كذلك الحشم الذين في المنزل. فمن هذا الحادث الذي اقتصرنا على ذكر خلاصته يسوغ لنا ان نستنتج النتيجة الآتية :

ان ظهور الشيطان الذي اخبر عنهُ توادوريطوس لا يخلو من ان يكون اما حلماً مجرَّدًا او رؤيا حقيقيَّة. على ان الظروف التي قارنت الحادث تُرجّح انهُ كان من قبيل الثاني ومع ذلك لا نجد بأساً اذا عددناهُ من قبيل الافتراض الاوَّل بل انهُ ربَّما جاء من هذه الحيثيَّة أوفق وأفيد لما نحن بصددهِ وعليهِ اذا قلنا انهُ كان حلماً مجرَّدًا فبما ان النائم لا يحلم اصلاً بلغة لا يعرفها او بلسان لا يتكلّم بهِ الّا نادرًا ينتج عن ذلك ضرورةً ان توادوريطوس كان يتكلّم عادةً السريانيَّة او بالاقلّ انهُ كان يفهمها بسهولة. واذا قلنا ايضاً انهُ كان رؤيا حقيقيَّة يصعب ان نبيّن كيف ان جميع سكان الدار الاسقفيَّة فهموا مثل توادوريطوس تهديدات الشيطان لو لم تكن اللغة السريانية مألوفة عندهم

ويقول توادوريطوس ايضاً (في المجلد ٨٣ ص ٣١٣) انهُ وجد كتباً كثيرة سريانيَّة من تأليف برديصان والراجح انهُ لقيها ضمن ابرشيتهِ حيث كانت اقامتهُ او في انطاكية التي كان يتردَّد اليها حيناً بعد آخر كما سترى في اثناء مقالتنا هذه . ولا نجد

١) تاريخ الرهبان (مين ٨٢ ص ١٣١٤ و ١٣١٥)

٢) راجع المشرق (٤: ١٠٨٣) امَّا الناحية الواقعة بين انطاكية وحلب فراجع بشأنها الاباء اليونان المجلد ٨٢ والصفحة ١١٦١ حيث ورد ذكر السريانية كافة البلاد

٣) راجع مجموع الاباء لمين (مج ٨٢ : ١٣٤٣ و ١٣٤٤)

ادنى صعوبة للتسليم بالفرض الثاني لانهُ يدلُّ على انتشار الكتب السريانيّة في مدينة قد طالما صوّروها لنا يونانيّة محضة

وكان تاودوريطوس يرغب في زيادة النسّاك الكثيرين بابرشيّتهِ ويلتذّ بمحادثتهم طويلاً وسنرى بعد هذا انهُ لم يكن احد من هؤلاء النسّاك يعرف اليونانية . وبما انهُ لا يأتي في كل ما خلّفهُ من الكتابات بذكر ترجمان وجب التسليم بان محادثتهُ التي كانت تطول في بعض الاحيان ايّاماً (١ قد كانت تجري بالسريانية وانهُ كان يعرف هذه اللغة حقّ المعرفة ويتكلّم فيها بسهولة

وممّا يجب التسليم بهِ وينتج ضرورةً عما قدّمناهُ هو ان الاسقف المذكور ما كان وحدهُ يفهم السريانية بل ان جميع عشرائهِ من سكان الدار الاسقفيّة كانوا يفهمونها ايضاً ولا يبعد انهم كانوا يتكلّمون بها . واذا صدق هذا الامر على الدار الاسقفية فماذا ينبغي القول عن سائر المدينة التي كان الاسقف كما سبق القول اعظم شخصٍ معتبر فيها ؟

ليس الجواب على هذا السؤال بصعب لانّ كاتب ترجمة تاودوريطوس يصرّح دون مواربةٍ « بان الجميع تقريباً في قورس وفي القورسيّة كانوا يتكلمون باللغة السريانية وان عدد اليونان لم يكن فيها شيئاً مذكوراً (٢ » ويؤخذ من كلامهِ انّ ذلك كان أخصّ الاسباب التي حملت تاودوريطوس على القبول رغماً عن ارادتهِ باسقفيّة هذه المدينة لانهُ لمـّا كان عالماً بارعاً وخطيباً مفلقاً يُضاهي فم الذهب بل يكاد يفوقهُ ايضاً في مسائل تفسير الكتاب المقدّس رضي ولكن مع كرهٍ ومشقّة نفس بان يدفن كل ما رُزق من مواهب العقل في مدينة صغيرة قد لا تأتي فيها هذه المواهب بفائدة لعدم وجود جمهور من السامعين يقدر على مجاراتهِ في السبيل الذي يرومهُ . غير انهُ ما لبث ان ذلّل هذه العواطف البشريّة وانقطع بكلّيتهِ الى الاهتمام بمنفعة وخير القطيع الذي فُوّض الى تدبيرهِ

وللقارئ ان يعترض بخطب تاودوريطوس ويقول انها كُتبت كلّها باليونانية فنحن نتلقّى الاعتراض بالقبول غير واجدين شيئاً من الصعوبة في ردّهِ وسبب ذلك ان غالب

١) راجع في تاريخ الرهبان ترجمة مار يعقوب الناسك (ف٢)

٢) الاباء اليونان لمين (مج ٨٤ ص ١٤٣ , ١٤٤)

الخطب التي لتوادوريطوس ألقاها في خارج قورس لانهُ كان من محبّي الحركة والتنقُّل وكثيرًا ما كان يزايل ابرشيَّته بدليل انهُ لمَّا ثارت الخصومات بسبب بدعة نسطور وكان اسقف قورس صديقاً للمبتدع من صباه صدرت لهُ الاوامر من قبل الامبراطور ان لا يبارح مركزهُ فشقَّ عليهِ هذا المنع كثيرًا كما يتبيَّن ذلك من رسائلهِ ولكن ما لبث المنع ان ارتفع بعد مدَّة وجيزة فعاد الاسقف المذكور الى اسفارهِ

وكان توادوريطوس يتردَّد خاصَّةً على اثنتين من المدن اعني بهما انطاكية وبيريه (حلب) وكانت الاولى على مسيرة يومين من مركزهِ والثانية اقرب من هذه المسافة (١

اما انطاكية فكانت وطنهُ ولهذا كان يكثر التردّد اليها حتى اضطرَّ الى الاعتذار لرؤسائهِ عن طول اقامتهِ بها (٢ . واشهر خطبه وافصحها كما هو معلوم عشر خطب موضوعها العناية الالهيَّة وقد شهد في رسالتهِ الى البابا انهُ ألقاها كلها في مدينة انطاكية ثم انهُ في رسالتهِ الخامسة والسبعين يذكر خمسة اسباب حملتهُ على اعزاز اهالي حلب وآخر هذه الاسباب هو انهم «كانوا يسمعون خطبهُ بلذةٍ ومسرَّة ولهذا كان يبذل جهدهُ في أن يلقي عليهم احسن وافضل ما عنده من هذا الصنف» . ولنا ان نقول بعبارة أُخرى انهُ كان يحب الكرازة في انطاكية وحلب ليقينهِ بان السامعين في هاتين المدينتين يفهمون خطبهُ اليونانية ويقدّرون فصاحتها بخلاف الحال في قورس

على انهُ لا يصحّ الاستنتاج من هذا ان حلب كانت بلدة يونانيَّة فقد ذكر نلدك (٣ ان الاحوال فيها من الوجه التاريخي كانت شبيهة باحوال الرُّها ومن المعلوم ان الرُّها كانت في ذاك العهد آراميَّة بحتةً بل مركز الآداب الآراميَّة ولهذا يجب القول ان حلب ايضاً كانت اراميَّة بسكَّانها ولغتها ولكنها لمَّا كانت مدينة كبيرة تجاريَّة لم يكن ليصعب فيها وجود جمهور من السامعين يجيدون فهم اليونانيَّة . فان السوريين في كل زمان كانوا يتعلمون كثيرًا من الالسنة والامثلة على العارفين بينهم بلغات عديدة لم تفت

١) اخبر توادوريطوس انهُ كان يسافر مساء النهار من حلب فيصل الى قورس في صباح اليوم التالي

٢) اعمال الاباء اليونان (مج ٨٣ ص ١١٣٥ و ١١٤٦)

٣) راجع المجلة الاسيوية الالمانيَّة (ZDMG) سنة ١٨٨٥ ص ٣٣٤

قطّ من يلتمسها . وكما اننا اليوم نجد في المدن السوريَّة عددًا غفيرًا ممَّن يفهمون الخطب باللغات الاجنبيَّة هكذا كان الامر في ايام توادوريطوس . ومثلما لا نستطيع ان نستنتج في الوقت الحاضر ان اللغات الاجنبية متغلّبة على اللسان الوطني هكذا القول ايضاً عن خطب اسقف قورس

فاذا كان الذين يفهمون اليونانيَّة في قورس قوماً قليلين فما ظنُّك بسائر الناحية ؟ وقد اخبر توادوريطوس ان سكّان المقاطعة الفراتية التي كانت القورسيَّة تابعةً لها كانوا يتكلمون السريانية (١

هذا فضلًا عن ان هيرابوليس (منبج) مركز رئيس الاساقفة الذي كان يخضع لهُ اسقف قورس كانت ايضاً مركزًا مهمًّا سريانيًّا . وبعد قليل لوفاة توادوريطوس تولى الكرسي المذكور فيلكسينوس احد مشاهير الكتبة عند السريان . وفي جرمانيقية التي تسمى اليوم مرعش كان القوم ينصبُّون ايضاً على آداب اللغة السريانية

ولقد سبق لنا ايضاح ما كان من هذا القبيل في مدينتي انطاكية وحلب (٢ وعلى ذلك لم يبقَ من داعٍ للتسليم بان ابرشية قورس وحدها التي كانت في شمالي سوريَّة محفوفةً من كل انحائها بالبلدان الآرامية قد خرجت عن هذه الدائرة . والحقّ يقال ان هذه الناحية كلها لم تكن لها غير لغة واحدة اي الآرامية التي كان المتأدبون يضيفون اليها معرفة اللغة اليونانية . قال المستشرق ساخو : « من اعظم مَرافق النصرانية ان الوعّاظ كانوا يستطيعون ان يكرزوا بلغة واحدة اي الارامية من حدّ انطاكية حتى بابل »

واذا حصرنا الكلام في المتوحّدين الذين كانوا يسكنون صحاري القورسية نرى الادلّة متظاهرة على انهم كانوا باسرهم تقريباً آراميين يتسمّون باسماء سريانية مثل مايسيماس واشبسيماس ومارون وسلامانس وماريس وزابيناس وباراداتوس وتاليلايوس

---

١) تاريخ الرهبان (٨٠ ص ٣٢٧ راجع ايضاً المجلَّد ٨٢ ص ١١٦٣ و ١١٦٤) وفيهِ يخبر كيف ان رهبان دير على الفرات كانوا يرتلون المزامير بالسريانية التي هي لغتهم الاصلية كما ذكر ذلك بالنص الصريح

٢) راجع كذلك المشرق (٤ : ١٠٨٣)

ومارانا (١ وقد قال توادوريطوس عن الاوَّل اي مايسيماس قولًا صريحًا « انهُ كان سريانيًا بلغتهِ (٢ » امَّا الراهب القديس ابراهيم الذي ترقَّى بعد ذلك الى اسقفية حرَّان في بلاد ما بين النهرين فذكر توادوريطوس في معرض اخباره عن زيارة الامبراطور لهُ مع كل حاشيتهِ ان الموما اليهِ لم يكن يفهم كلمة واحدة يونانية (٣ . وروى في موضع آخر عند كلامهِ على الناسك تاليلايوس انهُ لمَّا زارهُ تعجب كثيرًا « اذ سمعهُ يحاورهُ باليونانية » (٤ لان الناسك المذكور كان على حسب رواية اسقف قورس فيليقيّ الجنس وكل ذلك يدلّ على ان معرفة اليونانية لم تكن شائعة بين السوريين الوطنيين

وان قيل ما هي الليتورجية التي كان اكليروس قورس يجري عليها قلنا ان الجواب على هذه المسألة امر صعب بالنظر لعدم وجود معلومات صريحة بشأنها . ولكن بما اننا قد اثبتنا ان الارامية كانت لغة الناحية ساغ ان نستنتج ان الليتورجية كانت تجري بهذه اللغة ذاتها ولعلها لم تكن تجري بغيرها الّا في كنيسة قورس الكاتدرائية . وفي ترجمة الناسك ابراهيم الذي سبقت الاشارة اليهِ دليل ظاهر على ما نقول فقد كان على ما روى توادوريطوس من ابناء القورسية حيث صرف زمانًا طويلًا في الحياة النسكية وفي الختام شخص الى لبنان وهدى فيهِ كثيرين من الوثنيين وعلَّمهم العبادة الالهية الحقيقية . ولا ريب انهُ كان يخاطبهم بالسريانية لانهُ لم يكن يعرف سواها ويُقيم لهم الليتورجية كما قد شاهدها مستعملةً في القورسية وطنه (مج ٨٢ ص ١٢٢٥) قال ساخو : « ان الاراميين نشروا النصرانية في الشرق » وعلى ذلك فان الكنائس التي أسَّسوها قد علَّموها بالضرورة ليتورجية آرامية . وكانت السريانية كما هو معلوم اوَّل لغة ليتورجية مستعملة (٥ وفي ما اوردناه بهذا الشأن كفاية للقارئ حتى يتيسَّر لهُ

١) راجع تاريخ الرهبان
٢) راجع مين (مج ٨٢ ص ١٣١٦)
٣) تاريخ الرهبان ص ١٢٢٨
٤) هذا ممَّا يوجب الافتراض ان الاسقف خاطبهُ اولًا باليونانية
٥) راجع في معجم اللاهوت الكاثوليكي (١ : ١٤٠٣) مقالةً للاب ڤاليه الصعودي الذي نسب اليهِ بعضهم رأيًا مخالفًا لما نحن فيهِ

الحكم فبقي علينا ان نبحث عن احوال النصرانية في القورسية وهكذا نتمّم كلامنا عن جغرافية هذه الناحية

٣

ان القورسية كانت كلها بالتقريب مسيحية في ايام توادوريطوس كما يُفهَم ذلك من عدد الثمانمائة كنيسة التي يقول الاسقف المذكور انهُ كان مكلّفاً بتدبيرها . ويظهر انهُ كان قد اتخـذ بعض اعوان لهُ من الخوارنة الاسقفيين لادارة الكنائس الكبرى في ابرشيتهِ وفي رسالتهِ ١١٣ يسمي اثنين من هؤلاء الخوارنة . وبناء عليهِ يجوز ان نحسب القورسيّة كلهـا مسيحية في زمانهِ اذ لم يكن فيها من الوثنيين الّا افراد قلائل (١

وكان في القورسيّة جماعة من الهراطقـة وعلى الخصوص من المرقيونيين . قال توادوريطوس : « ان ثماني قرى افسدتها هرطقة المرقيونيين مع الاماكن المجاورة لها ارجعتُها الى الطريق القويم (٢ . وكانت هناك ايضاً قرية اخرى عامرة بالتابعين لمذهب الاونوميين وقرية غيرها اريوسية فتوفقتُ لانارة الجميع بالنور الالهي وهكذا بنعمة الله لم اترك في ابرشيتي اثرًا للهرطقة ولم يكن ذلك ليستطـاع دون اقتحام اخطار وإراقة دم لأنني كثيرًا مـا تعرّضت لرجم الهراطقة » . ويشهد في موضع آخر (٣ انهُ عمّد عشرة آلاف من الهراطقة المرقيونيين وإثر هذا الانتصار الاخير على الجحيم ظهر لهُ الشيطان كما سبق الخبر محاولًا توقيفهُ عن قتال الغواية والضلال

امّا دخول النصرانيّة الى القورسيّة فلا نعلمهُ بالتحقيق ولكننا نظن انهُ كان في الصدر الاول بالنظر الى قرب هذه الناحية من انطاكية احد مهود الدين المسيحي وقد حضر اساقفتها مجمع نيقية . وامّا خلفاء توادوريطوس فـلا نعلم منهم غير اسماء ثلاثة فقط (٤ ولا ريب ان كرسي قورس فقدَ اهميتهُ من بعد انتشار بدعتي نسطور ويعقوب البرادعي . ومع ذلك فقد وجدنا في جريدةٍ لاسقفيات بطريركية انطاكية ترتقي

١) راجع رسالتَيهِ ٦٧ و ٦٨
٢) الرسالة ٨١
٣) تاريخ الرهبان ١٢٤٣ الخ والرسالة ١٤٥ و ١١٣)
٤) لوكيان : الشرق المسيحي (٢ : ٩٣٠ الخ)

على ما نظنهُ الى القرن الثامن ان قورس كانت معدودةً في ذلك العهد من جملة الكراسي المطروبوليطية لكن لم يكن لها اسقفيات تتبعها (راجع اخبار بطاركة انطاكية والقدس في الاسفار الاورشليمية ص ٣٣٧)

ونعلم ان جسدي الشهيدين المعظمين قزما وداميانوس قد دُفنا في قورس ولذلك قد تُسمَّى هذه المدينة في بعض الاحيان اكراماً لهما بمدينة القديسين . واخبر توادوريطوس نفسهُ كيف انهُ في ذات يوم نجي من الحريق الكنيسة المشيَّدة على ذكر هذين الشهيدين (١ القديسين . وفي موضع آخر يذكر ايضاً في جملة كنائس مدينته الاسقفية كنيسة على اسم الشهيد ديونيسيوس (٢ ويخبر كذلك عن دير قائم بجذاء احدى كنائس قورس (٣ وفي رسالتيهِ ٦٦ و ٦٧ يتكلَّم على هيكل شيَّدهُ هو وكرَّسهُ للرسل القديسين (٤ . وكان في قورس ايضاً مصلًّى على اسم الناسك القديس مرقيانوس ومن العجيب انهُ تشيَّد في حياة الناسك المذكور (٥

فكل هذه الآثار الدينيَّة تجيز لنا الحكم بان الديانة كانت في القورسية زاهرةً زاهيةً بأيَّام راعيها الاثيل واسقفها الغيور

ولنا ايضاً دليل آخر على ازدهار الديانة نأخذهُ من وفرة عدد المناسك في الناحية المذكورة التي كانت احسن البلاد ملاءمةً لحياة الزهد والعبادة لانها كثيرة الجبال بعيدة عن المراكز الكبرى والطرق التجاريَّة وافية بحاجات قوم يكتفون بالقليل حتى كان يصحُّ ان تُدعى فردوس المتوحدين ونعيمهم وهذا هو السبب الذي من اجله انتشرت فيها كثيراً هذه الهيئة الاخيرة من حياة النسك . وفي تاريخ الرهبان لتوادوريطوس الذي خصَّص منهُ النصف بتراجم عظماء الرهبان في القورسية قلَّما يأتي بذكر الاديار (٦

١) مجموع الاباء (مج ٨٤ : ص ٧٨٦ و ٧٨٧)

٢) تاريخ الرهبان الفصل ١١

٣) وكانت الكنيسة على اسم الرسل الاطهار . تاريخ الرهبان ١٣٢٩

٤) راجع كذلك المجلَّد ٨٢ ص ١٢٥٠

٥) راجع المجلَّد عينهُ ص ١١٤٧ و ١١٤٨

٦) في الرسالة ١١٧ يتكلم عن أليبوس ويقول عنهُ انهُ « إكسَرخوس الرهبان عندنا » وهي عبارة تدلُّ على وجود دير في قورس او في الابرشية التابعة لها . ويذكر ايضاً ادياراً أخرى في المجلد ٨٢ والصفحة ١٢٢٥ و ١٢٦٠ غير ان الاديار كانت هناك قليلة جدًّا

بل يذكر المتوحدين الذين كان يحتشد حولهم بعض التلاميذ فيقتفون آثارهم وينهجون نهجهم غير انهم كانوا يعيشون هم ايضاً متوحدين دون ان يجتمعوا ضمن حظيرة دير

وكان توادوريطوس يحبّ ويكرّم هؤلاء الرهبان القديسين الذين كانوا يعطّرون ابرشيَّتهُ بعرف فضائلهم ولهذا كان يكثر من زيارتهم ومحادثتهم وكل ما كتبهُ عنهم في تاريخ الرهبان قد رآهُ فيهم او سمعهُ منهم . على انَّ الرهبان المذكورين قابلوهُ بمثل عواطفه واثبتوا لهُ ذلك لمَّا أُبعد عن ابرشيَّتهِ فانهُ لم يجد اذ ذاك اصدقاء اشدَّ اخلاصاً من هؤلاء القوم الذين كانوا كما قال عنهم « يحتقرون هذه الحياة الزائلة متوقّعين الحياة الابديَّة (١ »

وقد سبق لنا تسمية بعض ابطال هذه العيشة النسكيَّة فبقي علينا ان نذكر اخصّ واحد بينهم اعني بهِ القديس مارون وكل ما تقدَّم من الكلام جعلناهُ كتوطئة تمهّد لنا السبيل لتعيين وطن هذا القديس العظيم والمكان الذي صرف فيهِ حياتهُ فاذا لم نتوصَّل دائماً الى نتائج نهائية واذا اكتفينا اكثر الاحيان بالظنّ والتقدير فالذنب كلُّ الذنب على فقد المعلومات المؤكدة في هذا الشان . غير ان ما سنبسطهُ مّما يستحق الانتباه واملُنا ان يكون محرّضاً لأُولي البحث على الجدّ والتنقيب لعلّهم يتوفقون الى ما لم نتوفق اليهِ . وفي كل حال ليس من غايتنا ان نازم القارئ باتباع آرائنا ولكنَّنا نتوخّى من كل ذي ادب ان ينظر فيها منتقدًا حتى تنجلي المشاكل وتتبدَّد الغياهب . ومّما يسرّنا جدًّا هو ان نداءنا للطوائف المسيحية الشرقيَّة حتى تبذل الجدّ اللازم في الابحاث التاريخية (٢ قد لاقى قوماً يسمعون فهبّ بعض الادباء واخذوا ينقّبون في تواريخ طوائفهم ونشروا منها اشياء حرّية بالاعتبار واملنا ان يزدادوا حميَّة في هذا الشان لما يُرجى عن عملهم من المنفعة . وفي هذا المقام لا نرى بدًّا من الثناء على بعض أُدباء الطوائف الشرقية لما اتحفوا بهِ الدروس التاريخية من التآليف النافعة كما نمدح ايضاً سائر الذين نشروا في مجلّة المشرق ابحاثاً مهمة في شؤون طوائفهم وآدابها الطقسيَّة وآثارها القديمة

١) الرسالة ١٣٥

٢) راجع في مجلة المشرق (١ : ٢٦١) مقالتنا المعنونة : « هيَّا الى درس تاريخنا »

٤

اين وُلد القديس مارون ؟ هذه مسألة كان في وسع تواودوريطوس كاتب ترجمة هذا القديس ان يجاوب عليها جواباً شافياً غير انهُ لسوء الحظ لم يذكر عنها شيئاً في الكلام الوجيز الذي تركهُ ولهذا وجب علينا ان نسعى بالافصاح عمّا سكت عنهُ . على اننا لسنا باوّل من سعى وراء هذا الامر فان حضرة الخوري ميخائيل غبريل يقول في كتابهِ تاريخ الكنيسة المارونية (ص٨٤) ما نصّهُ : « ان القديس مارون ولد . . . في بلدة تدعى مارونيا البعيدة نحو ثلاثين ميلاً عن انطاكية في جوار مدينة قورش »

ورد ذكر « مارونية » في ترجمة الراهب مَلخُس التي كتبها القديس ايرونيموس فقال عنها انها بلدة صغيرة (haud grandis viculus) على مسافة ثلاثين ميلاً شرقيّ انطاكية (١ كانت ملكاً لصديقهِ ايڤاغريوس الكاهن الذي ارتقى بعد ذلك الى اسقفية انطاكية . وكان القديس ايرونيموس ايّام اقامتهِ في انطاكية يتردّد الى القرية المذكورة مع صديقهِ ايڤاغريوس الموما اليهِ . وهذا برهان آخر على انها كانت قريبة من انطاكية لكن لا يسوغ ان نزيد عليهِ انّها كانت في جوار مدينة قورس اذ كان بينها وبين هذه المدينة الاخيرة مسيرة يومين على الاقلّ

فالى ايّ شيء اذًا يستند قول من يقولون ان القديس مارون وُلد في قرية مارونية ؟ لا علم لنا بذلك لان تواودوريطوس الذي هو المستند الوحيد لكل ما كتبهُ الكاتبون عن القديس مارون لا يذكر شيئاً عن مكان مولدهِ وكل المؤرخين الذين جاؤوا بعد اسقف قورس نقلوا عنهُ واذ كانوا قد اضافوا بعض زيادات الى كلامهِ فليس لهذه الزيادات عند اهل التحقيق الّا قيمة كاتبها . نعم انّهم قصدوا قصدًا حسناً فرغبوا في ان يوضحوا ما سكت عنهُ تواودوريطوس غير انهُ لا غنى للمؤرخ المدقّق في امور كثيرة عن الاقرار بالجهل والقصور . وزيادةً على ذلك ان التقليدات التي يتناقلها الموارنة ساكتة ايضاً عن مكان ولادة ابيهم القديس مارون ولو كان شيء من ذلك لما تأخر

---

١) وذكر الجغرافيّ بطلميوس ايضاً مكاناً آخر في سوريّة يدعى « مارونية » لكن يصعب القول انّهُ عنى مارونية التي نحن بصددها ونرجح انهُ يريد بها مركزًا في اقليم قنسرين كما ذهب اليهِ هرتمن ZDPV, XXIII, 145 راجع كذلك Ritter, XVII, 1569

البطريرك اسطفان الدويهي عن ايراده . وعليهِ فاننا نعجب كيف يمكن في هذه المسألة بَسْط الكلام اكثر من توادوريطوس والدويهي

ثم اردف صاحب تاريخ الكنيسة الانطاكية (ص ٨٤) قولهُ عن ولادة القديس مارون في مارونية بقولهِ « انهُ درس العلوم في احدى مدارس انطاكية » . وهو ايضاً امرٌ لم يُفِدنا عنهُ توادوريطوس وهذا قد اسندهُ الكاتب الحديث الى المودَّة التي زعم انَّها نشأت بين القديس يوحنا فم الذهب والقديس مارون الناسك (١ منذ كانا يدرسان معاً في انطاكية . على انَّنا نقرّ بسذاجة اننا لا نفهم قوَّة هذه الحجّة لا بل نظنّ انَّ القديس مارون كبقيَّة نُسَّاك زمانهِ في القورسية (٢ كان من اصل آرامي ويجهل اللغة اليونانية ومن ثم انهُ لم يدرس في مدارس انطاكية . وخلاصة القول انَّ الاحرى بنا ان نقرّ بجهلنا المكان المعيَّن الذي وُلد فيهِ القديس مارون

وان طلب منّا القارئ رأينا في ذلك رجَّحنا كونهُ لم يولد في جوار انطاكية . وعلى كل حال لا نرى صواباً في ما اثبتهُ حضرة الخوري غبريل (ص ٨٧) حيث قال : « انَّ البرّية التي انحاز اليها القديس مارون قيل انها مجاورة لتلك التي رسمها القديس ايرونيوس عندما اعتزل اليها ... وذكرها في جملة كتاباتهِ » . لانَّ البرّية التي اعتزل اليها القديس ايرونيموس معروفة محدَّدة الارجاء وهي ناحية متَّسعة الفناء موقعها جنوبي شرقي حلب كانت تدعى كلسيديَّة (Chalcidène) باسم عاصمتها كلسيس التي تُعرف اليوم باسم قنسرين وهي عبارة عن قَفْر قَفِر احرقتهُ الشمس يجاور برّية الشام لا يسكنهُ الَّا بعض عرب البادية (٣ . ومن راجع وصف هذا المكان للقديس ايرونيموس لا يراه موافقاً لما قالهُ توادوريطوس عن البلاد التي عاش فيها القديس مارون وهي القورسيَّة كما سبق . فالرأي عندنا ان مولد رجل الله كان في الناحية التي فيها قضى اكبر قسم من حياتهِ كما سيأتي نقلاً عن توادوريطوس . ولو كان مولد القديس مارون في انطاكية او جوارها لكان اختار لزهده احدى البراريّ

---

١) استناداً الى الرسالة ٣٦ من رسائل القديس يوحنا فم الذهب

٢) وسيأتي بيان ذلك قريباً

٣) وكانت لغة هذه الناحية السريانية . وكان القديس ايرونيموس يفهمها (راجع مجلة الشرق المسيحيّ المطبوعة في رومية « Oriens christianus » لسنة ١٩٠٢ ص ٢٠٣)

العديدة الواقعة على مقربة من هــذه الحاضرة والمقدَّسة بعيشة كثيرين من مشاهير العبَّاد وذلك ما يتَّضح من التواريخ البيعيَّة المكتوبة في ذلك العصر (١ كفانا شاهدًا على قولنــا مثال القديس يوحنــا فم الذهب الذي وُلد في انطاكية ثم انقطع الى النسك في دير قريب من موطنهِ . وكذلك نظنّ انَّ القديس مارون الذي عاش ومات في القورسيَّة وُلد ايضاً فيها مــا لم يأتنا احد ببرهان جليّ على خلاف هذا الرأي

امَّا ان القديس مارون صرف حياتهُ في القورسية وقضى فيها نحبهُ فالامر واضحٌ وضوحاً تامًّا بما ورد في تاريخ الرهبان لتوادوريطوس . فان هذا الكاتب العظيم بعد ذكرهِ من اشتهر من النسَّاك في انطاكية وجوارها يعلن جهارًا انهُ يباشر بتراجم المتنسكين في القورسية (٢ ثم يذكر اعمال ميسياس واشبسياس ويتخلَّص الى ذكر القديس مارون فبيَّن بذلك انَّ هذا العابد الشهير كان في الناحية ذاتهــا . وقد زادنا ايضاحاً في اثناء كلامهِ عن القديس : « انهُ هو غارس الحديقة (يريد حديقة العيشة الرهبانيَّة) التي تزهو الآن في القورسيَّة (٣ »

هذا ولا نجهل بان توادوريطوس قال في ترجمة ابراهيم الناسك التي ألحقها بترجمــة القديس مارون « انــهُ هو ايضاً كان ثمرةً نمت في بلاد قورس » ثم اردف قولهُ بهذه الفقرة قائلًا : « وبها كان مولدهُ » . فلماذا يا ترى ضرب الصفح عن التصريح بوطن القديس مارون ? فهل كان ذلك سهوًا منهُ او جهــلًا ? فهذه معضلات امكن توادوريطوس ان يحلَّها فلم يفعل . ولكنهُ اكتفى بقولهِ عن ابراهيم « انهُ هو ايضاً كان ثمرة نضجت في القورسيَّة » ليشير الى انَّ اصل القديس مارون الذي سبق ذكرهُ كان كذلك من القورسية فليحكم القرَّاء

هلمَّ بنا الان ننظر في ايّ مكان من القورسية تألَّقَ قديسنا الجليل . نجيب على ذلك انَّ غاية ما اعلمنا بهِ توادوريطوس في هذا الصدد انهُ « تسلَّق الى قمَّة جبل كان اقام فيهِ سابقاً عبدةُ الاوثان هيكلًا للابالسة » (٤ . والظاهر انَّ هذا الجبل كان على

١) راجع كتاب توادوريطوس في تاريخ الرهبان
٢) راجع التاريخ ذاتهُ في مجموع مين (ص ١٣١٦)
٣) راجع الصفحة ١٣٢٣ منهُ
٤) فيهِ (الصفحة ١٣٣٤)

بعض المسافة من قورس كما يلوح من ترجمة القديس يعقوب تلميذ القديس مارون حيث قال عنهُ توادوريطوس « انهُ بعد ما سكن مدَّةً مع معلّمهِ جاء فسكن على جبل يقرب من قورس ثلاثين غلوةً » اعني على مسافة ساعة ونصف من هذه المدينة (١ . ولكن في اي جهة كان موقع جبل القديس مارون أفي شمال قورس او جنوبها او جهة أخرى والرأي عندنا انهُ سكن احد الجبال الواقعة على طريق حلب اعني جنوبي شرقيّ قورس . ليكون مقام القديس اقرب الى افامية في اقليم سوريّة الثانية حيث شُيّد بعد ذلك الدير الذي عُرف باسم دير القديس مارون كما ستري في فصلنا الخامس آنفًا

الّا انَّ تعريف الجبل بعينهِ الذي اوى اليهِ القديس مارون ليس يمكن ما لم يبحث عن ذلك اهل البحث في نواحي قورس . وممَّا يساعد على ذلك فحص اخربة الهياكل الواقعة على قمم تلك الجبال والمقابلة بينها وبين ما يرويهِ اهل تلك النواحي بالتقليد مع البحث الجغرافيّ عن مواقع تلك الاصقاع . فلا غروَ انَّ من يتتبع هذه الخطَّة يلقَ ما لم يكن في حسبانهِ من آثار الامكنة الداثرة في سوريّة . وما ادراك انهُ لا يجد كتابة قديمة تميط السرَّ عن عدَّة امور غامضة (٢

ولم يُدفَن القديس مارون في محبسهِ فان سكَّان القرى المجاورة تنازعوا ذخائرهُ المقدَّسة حتى فاز بها اهل بلدة قريبة فنقلوها الى وطنهم واقاموا للناسك القديس هيكلًا جعلوها فيهِ . ويؤخذ من بعض نصوص توادوريطس انَّ الهيكل المذكور كان على مسافة من قورس . قال هذا الكاتب الشهير : « ومع اننا بعيدون عن القديس فانَّ بركتهُ تشملنا وذكرهُ يقوم لدينا مقام ذخائرهِ » . فعنى بهذا بُعد مدينتهِ قورس عن ذلك المقام، على انَّ المكان لم يكن خارجًا عن دائرة ابرشيتهِ قورس لانَّ مدفنهُ كان قريبًا من محبستهِ وقد بيَّنَّا في ما سبق انَّ القديس عاش في القورسيَّة . ومن ثمَّ صحَّ عندنا ان قبر القديس وهيكلهُ الاوَّلين انما كانا في شمالي سوريَّة جنوبي قورس في نحو نصف المسافة بينها وبين حلب

١) فيهِ (الصفحة ١٣٢٦)

٢) كالكتابة المكتوبة بلغتين يونانية فآرامية التي وجدناها في كراد الداسنيَّة شمالي غربي حمص على ناووس قديس يُدعى توما لم يمكنَّا حتى الان بيان احوالهِ (راجع المجلَّة البلجيكية موزيه (Musée belge, 1901) . وقد نشر حضرة الاب س. رنزفال النصّ الارامي في مجلّة الشرق المسيحي (ROC, 1902)

٥

هيَّا بنا الان نبحث عن امر آخر لا تفوت فائدتهُ كلَّ بصير اعني مقـام دير القديس مارون الشهير . قد تكرَّر ذكر هذا الدير في اخبار سوريَّة واشتهر رهبانهُ بما ابدوا من البسالة في الدفاع عن الايمان . ولكن تُرى اين كان موقع الدير المذكور هل أُقيم بجوار هيكل القديس « مارون العظيم » (كذا دعاهُ توادوريطوس في تاريخ الرهبان ص ١٢٥٤) قريباً من ذخائرهِ المباركة كما تُرجح ذلك التقاليد الشائعة او كان بالاحرى موقعهُ في غير مكان من سوريَّة

مهما كان من صحَّـة احد الرأيين نرى الاجدر بنا ان نتصفَّح الآثار القديمـة ونستضيء بنبراسها لتعريف موقع هذا المكان الذي في ظلِهِ نشأت الطائفة المارونية . ولا شكَّ انَّ نصوص القدماء تساعدنا على ازالة الشبهات التي تكاثفت بهذا الخصوص . وقد عددنا ما كتبهُ المحدثون بهذا الصدد فوجدنا آراءهم متباينة متناقضة فمنهم من يجعل دير القديس عند انطاكية (١ ومنهم من يرجّح كونهُ في ضواحي حمص (٢ وبين البلدين كما لا يخفى مسافة ثمانية أيام بنيّف . وربَّمـا رأيتَ الكاتب الواحد مضطرباً متحيرًا يجعل الدير تارةً في محل وتارة في موقع آخر حتى انّنا عددنا لبعض كتبة زماننا خمسة آراء في هذا الشأن

وعندنا انَّ درس الجغرافيَّة المدقّق يُفضي بصاحبهِ الى الراي الصحيح ويُرشدهُ الى الطريق المثلى . ولا بُدَّ لنا لبيان هـذا الامر من تعريف الاقسام السياسية التي كانت عليها سوريَّة الشمالية وسوريَّة الوسطى في عهد القديس مارون اعني في القرنين الخامس والسادس فاذا وقفنا عليها تبيَّنا على التقريب الايالة التي فيها كان موقع هذا الدير المشهور . ثم نضيف الى هذه الاعلامات العموميَّة بعض نصوص جغرافية تزيد بحثنا ايضاحاً

كان الرومان على عهد توادوريطوس يدعون باسم سوريَّة الرومانية كل البلاد المتَّسعة الارجاء الواقعة في وسط التخوم الطبيعية التي يحدق بها البحر المتوسّط وجبل طورس

---

١) راجع الدويهي (ص ٣٩ و ٦١)

٢) اعني في وسط الطريق بين افامية وحمص (راجع اصداء الشرق السنة الرابعة ص ٩٦)

وبادية الشام وبرية طور سينا . وكانوا يقسمونها الى اربعة اقسام كبرى او اعمال اعني سورية وفينيقية واقليم العرب وفلسطين . ومن هذه الاعمال لا يهمّنا هنا سوى سورية وفينيقية فنقصر كلامنا عليهما

وكان عمل سوريّة يُقسَم الى ثلاثة اقسام او ولايات يسمّونها سوريّة الاولى او سوريّة المجوّفة ثم سوريّة الثانية او سورية الطيّبة ثم سورية الثالثة المدعوّة ايضاً سوريّة الفراتيّة

وكانت قاعدة سورية الاولى المعروفة بالمجوّفة انطاكية العظمى وهي تمتدّ من جبل امانوس (اللكّام) شمالاً الى مدينتَي اللاذقيّة وجَبَلة جنوباً ويحدُّها شرقاً سوريّة الفراتيّة . فكانت سورية هذه تشمل القسم الغربيّ من ولاية حلب الحالية ومتصرفيّة اللاذقيّة من ولاية بيروت

وكانت سوريّة الثالثة اي الفراتيّة تضمّ كلّ البلاد المعروفة سابقاً باسم كوماجينة (راجع خريطة سوريّة) وقد مرّ وضعها فلا حاجة الى اعادة الكلام فيها . وكانت حاضرة سورية المذكورة مدينة منبج (Hierapolis)

امّا سورية الثانية (١ المدعوّة بالطيّبة (Syria Salutaris) فكانت حاضرتها افامية (قلعة المضيق) وكان يدخل في حيزها ايبفانيا او حماة . وكانت حدود هذه الولاية الجنوبية تنحدر الى جوار حمص فيلحق بها اراثوسة ومريين ورفانية التي موقعها على مسافة ثماني ساعات الى عشر شماليّ غربي حمص . وعليهِ فتكون هذه الولاية مطابقة لقسم من ولاية حلب في جنوبها الشرقي ولقائمقامية حماة المركزيّة في ولاية دمشق . وكلامنا في هذه المقالة خصوصاً عن هذه سورية الثانية فلا بُدّ للقارئ ان يودعها ذاكرتهُ ليتبعنا في بحثنا

وكان عمل فينيقية وهو القسم الثاني من سورية الرومانيّة ينقسم الى فينيقية لبنان وفينيقية الساحليّة

---

١) وعليهِ فلا نرى وجه التدقيق في تحديد بعض المحدثين لسوريّة الثانية حيث قال : « سمّاها الاقدمون سوريّة الثانية لتتميّز عن سوريّة الاولى التي تعمّ جميع ما هو من عريش مصر الى نهر دجلة »

ففينيقة لبنان التي مدار كلامنا عنها هنا كانت حاضرتهـا حمص على الاقلّ مباشرةً لانّ قسماً من سيطرتها بعد ذلك صار الى دمشق . وكفانا هنا علماً ان فينيقية لبنان كانت جنوبي سورية الثانية الطيّبة

فلنعودنّ الآن الى دير القديس مارون لتعريف موقعهِ . وممّا اتّفق عليهِ في هذا الباب لفيف الكتبة ان هذا الدير كان على ضفّة نهر العاصي . وكذلك لا خلاف بانّ موقعهُ كان في سورية الثانية . وهذا امرٌ يلوح كالشمس في رائعة النهار لمن طالع العريضة التي وجّهها رهبان هذا الدير الى البابا القديس هرمزداس مع سائر الكتابات الرسميَّة التي ورد فيها ذكرهُ فانها كلّها بلا استثناء تجعل دير القديس مارون في سورية الثانية

فان صحّ ذلك بطل زعم الذين بحثوا عن دير القديس مارون خارجاً عن هـذه الولاية . ومن ثمّ فلا صحّة لقول من ذهب الى انّ هذا الدير كان بجوار انطاكية (١ او قريباً من حمص لانهُ لو كان في ضواحي انطاكيـة لكان من سورية الاولى اي المجوّفة ولو جاور حمص لعُدَّ من فينيقية لبنان

ولكن بقي ان نعيّن مكان هذا الدير ضمن تخوم سورية الثانية في جوار نهر العاصي . ولبيان الامر نرى هنا ايضاً اصلاح بعض الاغلاط الجغرافيّة التي شوّشت هذه المسألة وجعلتها مرتبكةً مغلقة

فالغلط الاوّل هو غلط الذين قرّبوا موقع افاميـة من حمص فجعلوا المدينتين مجاورتـين وهو غلط عظيم ورد في تاريخ سرياني لدير مار باسوس نذكرهُ لنفنّدهُ فقال صاحبهُ : « ودير الشهيد مار باسوس في بلاد افامية على مقربةٍ (كذا) من مدينة حمص الكبرى » . وقد شطّ كاتب هذه الاسطر وسبب شطوطهِ انهُ وضع تاريخهُ في زمنٍ كانت حمص بلغت فيهِ مقاماً سامياً فبهرهُ نور شهرتها . ومن ثم فانّنا نعذر الذين استندوا الى هذا القول ليجعلوا موقع دير القديس مـارون في جوار حمص بدلًا من

١) راجع تاريخ الكنيسة الانطاكيّة (ص ١٠٩) وتاريخ الطائفـة المارونيّة للدويهي (ص ٣٩) وقد روى هذا العلّامة (ص ٦٥) نصّاً قديماً في سَروم ورد فيهِ ما نصّهُ : « قرية سروم في جبل السويديّة على مسافة متساوية بين انطاكيـة ودير القديس مارون » . قلنا ان كان المراد بالسويديّة القرية الحاليّة المعروفة بهذا الاسم اقتضى القول بان دير القديس مارون كان موقعهُ بين انطاكية والبحر . وهو زعم مردود

افاميـة لاسيَّما انَّ افامية كانت آنئذٍ خربت بعد ان احرقها كسرى الثاني فزادت حمص بخرابها عظيماً

وممَّا يشهد لنا ايضاً على ارتقاء حمص ونفوذها في تلك الاعصار ان العرب بعد فتح الشام لمَّا قسموا سورية الى اعمال متعدّدة دعوها اجنادًا جعلوا حمص جنـدًا وادخلوا تحت حكمها مدينتي حمـاة وافامية . وهذا دليل واضح على عظم شأن حمص عند دخول العرب بلاد الشام اذ انها كانت من اكبر مدن سوريّة في وسطهـا الشرقيّ . فلا عجب اذن ان كان البعض اتّخذوا حمص كقياس لتعريف المسافات كما انهم حسبوا افامية وحماة قريبتين منها لوقوعهما تحت حكمها

والغلط الثاني في هذا الباب انَّ قوماً خلطوا بين افامية وحماة وجعلوهما مدينـة واحدة وذلك لبعض التشابه بين اسم افامية وابيفانية (اسم حماة اليوناني) . وهو زعمٌ باطل غوي بهِ كتبة عديدون الى غاية القرن الثامن عشر منهم الكاتب دي لاروك في رحلتهِ الى سوريَّة (de la Roque : *Voyage en Syrie*. I, 239) ولوكيان في الشرق المسيحيّ وغيرهما كثيرون بعدهما فسرى منهم الوهم الى بعض المحدثين من الكتبة الشرقيين

والصواب في ذلك انَّ افامية هي كما قلنا سابقاً قلعة المضيق شمالي شرقيّ حماة . وقد اماط القناع عن هذه الحقيقة للمرّة الاولى العلَّامة بورخردت (Burckhardt) فتبعهُ العلماء المحقّقون في قولهِ بعد ذلك بنحو ربع القرن . وعليهِ فلا تثريب على بعض كتبة الشرق العلماء ان ضلُّوا في ذلك سواء السبيل

ولعلَّ سبباً آخر دفع هؤلاء الكتبة الى ان يجعلوا دير القديس مارون في ضواحي حمص وهو موقع مغارة الراهب . فانَّ هذه المغارة او بالحري هذه سلسلة المغاور التي وصفناها في الجزء السابق (ص١١٠ وفي المشرق ٤ : ٢٦٤) موقعها جنوبي حمص عند راس العاصي . ولما كان بعض العامّة يعرفونها باسم دير القديس مارون ظنَّ قومٌ انَّ المراد بهذا المكان ذلك الدير الاوَّل الذي بُني على اسمهِ قريباً من افامية

فكل هذه المزاعم اوهام لا يجوز القول بها . ومن ثم لا نرى ما كتبـهُ البعض في هذا الصدد مضبوطاً حيث جعلوا دير القديس مارون « على تخوم حمص » او « في بلاد

حمص وحماة » او « بين حمص وحماة » (١ او « في حمص » كما ورد في تاريخ ابي الفداء (٢ وقد تبعهُ الاب ميشال جوليان اليسوعي (٣ او في وسط الطريق بين افامية وحمص على رأي الاب ڤاليه الصعودي (٤

والقول الفصل عندنا في ذلك ان موقع دير القديس مارون فُوَيق هذه الامكنة شمالًا ما وراء حماة · وممَّن كادوا يصيبون الهدف في ذلك العلّامة المسعودي من كتبة القرن العاشر للميلاد فانَّهُ عيَّن موقعهُ بقولهِ في كتاب التنبيه (ص ١٢٣) : ان هذا الدير كان « شرقي شيزر · · بقرب نهر الأُرُنط نهر حمص وحماة » · وشيزر هذه تُعرَف في عهدنا باسم شَيْجَر وهي في نصف الطريق بين حماة وافامية اي قلعة المضيق · وقد افادنا الكاتب عينهُ ان الموارنة كانوا كثيرين في معاملات شيزر ومعرَّة النعمان وافامية يسكنون في وسط تلك البلدان · وعندنا ان سبب نموّ الموارنة ووفرتهم في تلك الجهات انما كان قُربهم من هذا الدير العظيم فتألَّبوا حولهُ ومنهُ قدموا وانتشروا في جهات البترون وجبيل كما بيَّنَّا ذلك في مقالة سابقة

واصدق ما ورد في ذلك انَّما جاء في الآثار المارونيَّة التي نشرها الخوري نو (Nau) الافرنسي (Opuscules Maronites, II, 22) وقد ذُكر هناك ان دير القديس مارون كان « قريباً من افامية في وادي العاصي » · وقد آثرنا قولهُ على سواهُ لانَّ كاتب هذا الاثر اقدم من سواهُ عهدًا سبق غيرهُ الى ذكرهِ (٥ وقد عرَّف موقعهُ بدقَّة وضبط · فمن هذا النصّ مع ما يستفاد من مراجعة اقوال المؤرخين يتَّضح لنا ليس فقط ان دير القديس مارون كان في سوريَّة الثانية بل انهُ ايضاً كان في نحو مركز هذه الولاية

وممَّا يؤيد رأينا ما ورد في تاريخ رهبان القديس مارون المستشهدين · قال كاتب اخبارهم ان هؤلاء الرهبان بعدد ٣٥٠ خرجوا سنة ٥١٧ يريدون دير القديس سمعان

١) راجع تاريخ الكنيسة الانطاكيَّة (ص ١٠٩ و ١٧٥ و ٢٥٧ و ٢٦٩)

٢) راجع تاريخ ابي الفداء (Hist. anteisl., ed. Fleischer., p. 112)

٣) في رحلتهِ الى سوريَّة وسينا (١٧٨)

٤) راجع اصداء الشرق (الجزء ٤ ص ٩٠)

٥) لا نجهل ان عريضة رهبان القديس مارون الى البابا هرمزداس اقدم من كاتب هذه الآثار المارونيَّة الَّا انَّ تلك العريضة لا تفيدنا عن موقع الدير سوى كونهُ في سوريَّة الثانية

العمودي اذ هجم عليهم المتعصبون فقتلوهم . فيؤخذ من هـذه الرواية انهُ كان بين رهبان الديرين علاقات متواصلة وانهما لم يكونا مبتعدين كثيرًا الواحد عن الآخر . على اننا نعلم ان دير القديس سمعان كان موقعهُ في جبل بركات على مسافة بعض ساعات من حلب غربيها (١ . فلا بدَّ اذن من القول ان دير القديس مارون كان ايضًا من جهة قريبة من افامية كما سبق . وان اعترض علينا احد ان المسافة بين الديرين لا تزال كبيرة اجبنا ذلك صحيح لكن الامكنة التي يختارها غيرنا لموقع هذا الدير اذا جعلناهُ في حمص او حماة تزيد هذه المسافة زيادة بالغة بحيث لا يدرك القارئ سهولة هـذه المخابرات بين الديرين لاسيما كيف امكن نحو ٤٠٠ راهب (٢ ان يخرجوا في وقت واحد فينتقلوا الى الدير الآخر . ومن ثمَّ لا بدَّ القول ان دير مار مارون كان ارقى شمالًا كما تشهد عليه الآثار التي استندنا اليها

وان كانت النتائج السابقة هي صحيحة فيبقى ان تنحصر ابحاث العلماء عن دير القديس مارون منذ الان فصاعدًا في وادي العاصي قريباً من قلعة المضيق . فينبغي على الاثريين ان يتجولوا في تلك الجهات ويفحصوا الاخربة ويجمعوا التقاليد الباقية بين اهل تلك النواحي ريثما يطّلعوا على موقع هذا الدير الجليل الذي احتلّهُ مئون من الرهبان الصالحين فقدّسوه باعمالهم وبرّ حياتهم ويشهد على ذلك المسعوديّ في كتاب التنبيه حيث قال (ص ١٩٣) : « ودير مارون بنيان عظيم حولهُ اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها رهبان وكان فيه آلات من الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم فخرب هذا الدير وما حولهُ من الصوامع بتواتر الفتن » . فلا شكَّ ان بناءً عظيماً كهذا لم يخرب دون ان يبقَ منهُ شيء من آثارهِ . وان قيل ان خرابهُ سبق القرن العاشر فيصعب وجود بقاياهُ . اجبنا انَّ هذا الدير كان موقعهُ بعيدًا عن البلاد الآهلة بالسكّان كما انَّ قلعة المضيق اصبحت منذ اجيال متعدّدة معتزلةً عن الطرق اللاحبة

---

١) وليس كما زعم حضرة الخوري فبريل « حذاء انطاكية » (ص ١٧٥) كذلك لا يمكننا ان نسلّم بما جاء في ذيل الصفحة نفسها

٢) قلنا ٤٠٠ راهب . ولعلّهم كانوا اكثر والثابت المقرّر انَّ عدد القتلى المستشهدين منهم كانوا ٣٥٠ وقد فرَّ منهم كثيرون هاربين . وسيأتي قريباً ذكر دير آخر قريب من دير مار مارون بلغ عدد رهبانهِ ستة آلاف راهب بنيّف

فلم يكثر فيها الخراب والنهب فلا ريب ان تكون ايضاً آثار هذا الدير الذي عُرف باسم دير البلّور باقية بجوارها حتى اليوم

٦

اثبتنا في ما سبق انّ القديس مارون عاش وتوفي في القورسيّة . وفيها دُفن ايضاً ليس بعيداً عن مكان وفاتهِ . وذلك واضح لمن اعتبر قول توادوريطوس . وقد أدّى بنا من جهة أخرى مجال البحث في الفصل السابق الى ان نجعل دير القديس مارون قريباً من افامية اعني على مسافة نحو مئة كيلومتر جنوبيّاً من قورس . وكأني بالقارئ يستغرب الامر ويجد في تعيين موقع هذا الدير خارجاً عن القورسيّة بعض التناقض ويشكّ في صحّة النتائج التي استنتجناها

كلّا لا تناقض في ما قلنا . وان يكن في الامر مشكل . وانما المشكل اعظم واقوى اذا ما جعلنا موقع دير القديس مارون في جهات حمص

اعلم انّهُ لا يُعرف نصٌّ واحد يذكر صريحاً انّ جسم القديس مارون دُفن في افامية . بل في قول توادوريطوس ما هو عكس ذلك . وانما يثبت التقليد انّ رأس الناسك القديس بعد خراب ديرهِ القريب من افامية نُقل الى لبنان

اما ذخائر القديس فلا نعلم أنُقلَت ايضاً بعد وفاتهِ ببضع سنوات الى جهات افامية ام لا وان كان الامر محتملاً ولعلّ الباحثين يجدون حلّاً لهذا المشكل في التفاصيل التاريخيّة النادرة التي كُتبت عن اديار افامية ونواحيها

وكانت هذه الاديار كثيرة قد ذكر منها توادوريطوس في رسالتهِ الـ ١١٩ ديرًا « موقعهُ على ثلاثة اميال من افامية » طلب ان يعتزل فيهِ وهو يسميهِ ديرَهُ كانهُ عاش فيهِ العيشة الرهبانيّة (١

ونعرف فضلًا عن هذا الدير قرب افامية ديرًا آخر شهيرًا وهو دير مار بسّوس (٢

---

١) انّ توادوريطوس كان راهبًا الى سنة كهنوتهِ فدخل في جملة اكليرس انطاكية

٢) راجع كتاب العلّامة روبنس دوڤال في الآداب السريانيّة (ص ٣٥٣) والمجلة الشرقيّة الالمانيّة (ZDMG, XXX 217)

الذي نشر عنهُ الخوري شابو كتاباً موسَّعاً (١ ومما ورد في اثنائهِ انَّ عدد رهبانهِ بلغ ٦٣٠٠ راهب (ص ٦١) . الَّا انَّ صاحب هذا الكتاب قد وهم بقولهِ انَّ هذا الدير كان في بلاد حمص او قريباً من هذه المدينة (٢ والصواب انَّ دير مار بسُّوس كان بجوار افامية . وفي ما سبق اشرنا الى هذا الغلط وسببهِ ولا نخال انَّ الكتبة خلطوا بين دير مار بسُّوس ودير مار مارون لوقوع كلا الديرين في جوار افامية . والدليل عليهِ انَّ الديرين اسماً مختلفاً فضلًا عن انَّ دير مار بسُّوس اضحى بعد قليل مركزًا للبدعة اليعقوبيَّة (٣

فوجد عدد وافر من الاديار في نواحي افامية برهان جديد على ما كان لتلك المناسك من المقام الرفيع والشهرة الذائعة ولا حَرَج بعد ذلك ان نسلّم بصحَّة ما رواهُ الرواة عن خطر دير القديس مارون وعظم شأنهِ

ومما اخبر بهِ توادوريطوس ايضاً انَّ القديس الناسك مرقيان القورسيَّ ارسل واحدًا من تلاميذهِ اسمهُ اغاپيتس فوكل اليهِ بان يعمّر اديرة عديدة بقرب افامية وبالاخص عند نقيرتا (Νικερτα) « وهي بلدة واسعة كثيرة السكَّان ابتنى فيها اغاپيتس معهدين لتعليم الحكمة السمويَّة دُعي الواحد باسمهِ . وجمع فيهما فوق المئتي راهب تجنَّدوا للفضيلة ولازموا التُّقى (٤ » . وقد ورد اسم نقيرتا هذه في كتابتين يونانيَّتين تراهما في مجموع الكتابات اليونانيَّة (٥ تحت العددين ٩٨٥٥ و٩٨٧٧ وفي جدول المخطوطات السريانيَّة المصونة في المتحف البريطاني (Wright, Cat. 756. c. 2) اسم رئيس تولّى رئاسة دير نيقرتا . امَّا نيقرتا المذكورة فليس لدينا نصٌّ صريح يفيدنا عن موقعها بالتدقيق في جوار افامية لقلَّة ما نعلم من امور تلك الناحية (٦

١) راجع J.-B. Chabot: *La légende de S^t Bassus et son couvent à Apamée,* 1893

٢) قد جاء في مجلَّة الشرق المسيحي ذكر دير ثالث في افامية (ROC. p. 1902, 611.)

٣) راجع ايضاً مقدَّمة الخوري شابو (ص ٥ و ٩)

٤) راجع تاريخ الرهبان في مجموع مين (ج ٨٢ ص ١١٣٨)

٥) CIG, 9855 et 9877

٦) طالع ما كتبهُ في هذا الصدد الاستاذ هرتمان (ZDPV, XXIII, 145)

ولعلّ سائلًا يطلب او ليس دير القديس مارون احد الاديار التي ابتناها القديس اغابيتوس في جوار افامية ؟ اجبنا انّ هذا لرأي سبقنا اليــهِ حضرة الاب جوليان اليسوعيّ في كتابهِ عن جبل سينا وسوريّة (١ » ولا نرى داعيًا لانكارهِ اذ انّ درس الامكنة ومواقعها لا يخالف هــذا المذهب ولهُ سندٌ في التاريخ لانّ وفاة القديس اغابيتوس وقعت بعد وفاة القديس مارون · على انّنــا لا نوافق حضرة الاب جوليان في زعمهِ بان « دير القديس مارون كان بين افامية وحمص على ضفّة العاصي ليس بعيدًا عن حمص في المكان المعروف اليوم بالدير الكبير (٢ »

قد مضى علينا نحو ثلاث سنوات منذ زرنا هذه القرية الواقعة على مسافة ساعة ونصف من حمص في شمالها الغربيّ على ضفّة العاصي الغربيّة ووجدنا فيها آثارًا قديمــة بيد انّ نظرها لم يُعدل بنا عن رأينا وفي حججنا السابقة ما هو كافٍ لبيانهِ · وعندنا انّ حضرة الاب جوليان خُدع بمــا كتبهُ المؤرخ الشهير صاحب حماة الملك المؤيد ابو الفداء وهو يجعل الدير في حمص نفسها · ثم غرّهُ ايضًا اسم « الدير الكبير » الّا انّ سالنامة ولاية سورية روت اسم هــذه القرية على صورة اخرى فدعتها « الدار الكبير » ولعلّ الصواب « الضهر (الظهر) الكبير » كما سمعناهُ او فهمناهُ من اهل القرية وهذا الاسم يوافق المسمّى لان القرية على ظهر ربوةٍ

وقد ذهب الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخهِ المخطوط عن لبنان الى رأيٍ آخر نستلفت اليهِ نظر القارئ · قال المؤلف المذكور الذي وقف كل حياتهِ على البحث عن لبنان وتاريخهِ : « لا يبعد ان القديس ماري (Marès) الراهب القسّ في ناحية افامية الذي وجّه اليهِ القديس يوحنا فم الذهب رسالة (٣ هو القديس مارون عينهُ (٤ لان الاسمين ماري ومارون لا يختلفان عند كتبــة اليونان في سوريّة وليس ماري سوى مارون مع اختلاف حركة الاعراب في اليونانيّة فشاع هذا الاسم في الناحية · امّا تلقيبهُ

١) P. M. Jullien s. j. : *Sinaï et Syrie*, p. 178

٢) فيهِ صفحة ١٧٨

٣) هي الرسالة ٥٧ وهي غير رسالتهِ الى مارون الكاهن

٤) هذا زعم لا يمكننا التسليم بهِ اذ انّ فم الذهب يثبت في هذه الرسالة ان ماري عاش في مقاطعة افامية خلافًا لما نعرفهُ عن القديس مارون

بالقديس فقد جرى على ذلك رهبانهُ تبجيلًا لهُ فاقتدى بهم فم الذهب

« ومثالنا في ذلك مثال ديرين آخرين في جهات افامية عُرف الواحد منهما باسم القديس سمعان والآخر باسم القديس اغاپيتوس (١ وتؤيد هذا الراي المخالف للراي العمومي رواية توادوريطوس في تاريخهِ (٢ الذي يفيدنا انّ جمهور الرهبان الذين اتوا من القورسيَّة الى بلاد افاميــة لينشئوا فيها الاديار كانوا تلامذة للقديس الناسك مارقيان ليس تلامذة القديس مارون لانّ المؤرخ المذكور افادنا انهُ لم يخرج احــد من رهبان القديس مارون من بلاد قورس (٣ . ولا يبعــد ان تلاميذ القديس مارقيــان وكان اصلهم من بلاد قورس (٤ دعوا احد الاديرة التي شيَّدوهــا في بلاد افامية باسم القديس مــارون لاكرامهِ الّا انّ كلام توادوريطوس صريح في القديس مارقيان حيث قال : « ومارقيان الالهيّ هو الذي انشأ كلّ اديرة بلاد افامية (٥ » فلا يمكن اذن ان يُنسب انشاء احد هذه الاديرة لتلامذة القديس مارون ... ومن ثمّ لا نستغرب القول بان ماري الذي اوفد اليــهِ القديس يوحنَّا فم الذهب برسالتهِ كاحد رؤساء الدير مع القديس سمعان (٦ هو منشئ الــدير وان عُرف باسمهِ اولًا دير القديس مارون . هذا ونقرّ انّ الافادات التاريخيَّة في هذا الخصوص لمخلَّة جدًّا . ومن المحتمل انهم لم يميّزوا بين القديس مارون والقديس مارقيان الذي ورد مكتوبًا في بعض النسخ ماريان (٧ »

هذا ما رواهُ الاب مرتينوس في تاريخهِ وهو زعم نوردهُ على علّاتهِ دون ان نحكم فيهِ (٨ . وما يزيدهُ بعض الرجوح شهرة القديس مارقيان فان اسم هذا القديس كان ذائعاً مستفيضاً حتى انّ معاصريهِ شيَّدوا بيعةً على اسمه قبل وفاتهِ أفيستغرب احــد

١) راجع توادوريطوس في تاريخهِ المذكور (ج ٨٢ ص ١١٢٨)
٢) في المجلَّد والصفحة عينهما
٣) راجع تاريخ الرهبان (ع ١٦ و ٢٥)
٤) او على الاقلّ كبارهم الذين شيَّدوا الاديرة
٥) تاريخ الرهبان (ع ٣)
٦) راجع رسالة القديس يوحنَّا فم الذهب الـ ٥٥
٧) راجع تاريخ الاب مرتينوس الصفحة ٢٣٢٨ و ٢٣٢٩
٨) الّا زعمهُ بان ماري ومارون اسم واحد فاننا لا نسلّم بهِ

ان يكون رهبانه حاولوا بعد مجيئهم من بلاد قورس الى انحاء افاميـة ان يخلّدوا ذكرهُ بابتناء دير على اسمهِ • وعلى كل حال لو صحّ هذا الرأي لفُضّ المشكل الذي نحن بصددهِ ويظهر لكل العيان كيف دُعي احد اديرة افامية باسم القديس مارون الذي توفّي في القورسيَّة • وما لا شبهة فيه انّ في السنين الاولى من القرن السادس كان الدير المذكور لا يُنسب الى غير القديس مارون وان افترضنا انّ رهبـان الدير حصلوا على قسم من ذخائر القديس مارون او على جسمهِ الطاهر كلّهِ فلا عجب ان يكون التعبُّد للقديس امتدّ الى كل جهات بلاد الشام

امّا ما حدث بعد ذلك لدير القديس مارون فيفيدنا بهِ ابو الفداء اذ يعلمنا في كتاب تقويم البلدان (ص ١١٤) انّ الملك مرقيان وسَّعهُ في السنة الثانية لملكهِ اعني سنة ٤٥٢ • ولمَّا تحامل اليعاقبة على ابنيتهِ فاخربوها (١ في اوائل القرن السادس اعاد بناءَهُ الملك يوسطنيان الكبير (٢ الذي ضبط زمام الملك من سنة ٥٢٧ الى ٥٦٥

وقد اخبر سعيد بن بطريق في تاريخهِ انّ هرقل الملك تفقَّد هذا الدير سنة ٦٢٨ لمَّا رحل ظافرًا الى سوريَّة فاوقف عليهِ اوقافًا عديدة (٣ • وفي عهد هذا الملك جرت بين اليعاقبة ورهبان دير مار مارون مخاصمات ذكرها ابن العبريّ في تاريخهِ الكنسي وقال ايضاً ان الموارنة اخذوا من اخصامهم عـدَّة كنائس أبي هرقل ان تُردّ الى اليعاقبة (٤ • ولم يزل هذا الدير زاهرًا في سنة ٧٤٥ كما ورد في نصّ سرياني نشرهُ الخوري نو ترجمتهُ بالفرنسيَّة (٥

والمظنون انّ خراب هذا الدير تمّ في القرن التاسع فاضطُرّ رهبانهُ ان يأتوا الى لبنان مع سكَّان الناحية المجاورة لهُ • وفي قول المسعوديّ الذي اوردناهُ سابقاً انّ دير القديس مارون كانت اغتالتهُ في عهدهِ (اعني في اواسط القرن العاشر) يد الزمان

١) وقيل انهُ خرب بزلزال

٢) راجع كتاب پركوپيوس في الابنية (ك ٤ ف ٩)

٣) راجع اعمال آباء اليونان لمـين (PG, CXI, 1089) وراجع الصفحة ٣٦ من الجزء الثاني من تاريخ ابن بطريق Eutychius, *ed. Cheikho*, II 269

٤) Chronicon Eccl. I, 270-274

٥) Bulletin de S. Louis des Maronites, Janvier, 1903, p. 346

فخرب . ثمَّ لا تعود ترى لهُ من بعد ذلك اثرًا في التاريخ حتى انَّ ياقوت الرومي لم يذكرهُ في معجم البلدان مع انهُ افاض في وصف اديرة كثيرة اشتهرت في بلاد الشام منها خربة ومنها مأهولة بالرهبان . وكذلك تصفَّحنا تآليف جغرافيي العرب المتعدّدة لعلّنا نجد شيئًا عن دير القديس مارون فذهبت مساعينا سدًى ولم نقف على ضالّتنا مع انَّ هؤلاء الكتبة كرَّروا مرارًا اسماء الاديار الشاميَّة ورووا من ابيات الشعراء ما ورد فيهِ ذكرها

وهذا لعمري من الامور الغريبة انَّ ديرًا طار اسمهُ في البلاد مدَّة القرنين السادس والسابع فاصاب من الشهرة ما اصاب في تاريخ سوريَّة الديني يصبح بعد مجدهِ نسيًا منسيًّا لاسيَّما ان دير القديس مارون لم يكن ديرًا منقطعًا لا نفوذ لهُ بل كان يدخل تحت حكمهِ اديار أُخرى تعرف لهُ حقوق السيادة كما كان شأن الاديرة في سوريَّة الشماليَّة وسوريَّة الوسطى فانَّ اديرتها الرهبانيَّة كانت ترتبط بين بعضها بروابط متينة بحيث تكون السيطرة لدير اعظم تخضع لرئاستهِ بقيَّة الاديار المجاورة لهُ (١ . وهو امرٌ يصدق في دير القديس مارون الذي امتدَّت رئاستهُ على سائر اديار سوريَّة الثانية . غير انَّهُ يعزُّ علينا ان نبيّن حدود هذه الرئاسة وسعة نطاقها . فلا نعلم أكانت هذه الرئاسة شرفيَّة محضًا او كان لرئيس الدير الكبير بعض السلطة على بقيَّة الاديرة . كما انهُ يصعب علينا ان نبيّن اصل هذه السلطة فلا ندري أكانت ناتجةً عن تفرّع دير من آخر او بارادة منشئ الاديرة او بخروج مستعمرة رهبانيَّة من الدير الاكبر فكل هذه المباحث عويصةٌ لا يُستطاع حلُّها سهلًا

وعلى كل حال انَّ تقدّم دير مار مارون ورئاستهُ على بقيَّة الاديار لمن الامور الحريَّة بالاعتبار فانَّ ذلك يبيّن لنا كيف امتدَّت سريعًا الطائفة المارونيَّة ليس فقط في بلاد افامية لكن في الايالات الخارجة عنها ايضًا . وعلى راينا انَّ كل دير من هذه الاديار المنوطة بدير القديس مارون اضحى بعد مدَّة مركزًا لفئة من المؤمنين الذين نموا عددًا بعد حين وانتسبوا الى القديس مارون . وفي مقالتنا السابقة عن انتشار الموارنة رأينا كيف خرج منهم فئات دخلوا لبنان واستعمروا الجهات الموافقة

١) راجع ما كتبهُ في ذلك العلّامة نلدك (ZDMG, 1875 p. 423, note)

لنموّهم وازديادهم

فيرى القارئ انَّ هذا البحث الجغرافيّ عن سيرة القديس مارون يرتبط بالبحث السابق اعني اصل الطائفة المارونيّة وكيفيّة انتشارها (١ وهذا ما حملنا على التدقيق في تعريف الامكنة التي نشأ فيها القديس مارون كيف لا وهو ابو طائفة تُعَدّ من اعظم الامم اللبنانيّة عطّرها هذا الرجل العظيم بعيشتهِ وموتهِ

*

وفي الختام احببنا ان نلخّص للقرّاء ما اتّسعنا في بيانه في هذه المقالة لتبقى خلاصتها في ذاكرتهم :

١ً لا مراء انَّ القديس مارون عاش ومات في القورسيَّة

٢ً انَّ الرأي الاصوب في مولدهِ انهُ وُلد ايضاً في القورسيَّة وليس في جوار انطاكية

٣ً دُفن القديس مارون في حدود القورسيَّة الجنوبيَّة

٤ً كان موقع دير القديس مارون مَهد الطائفة المارونيَّة بين نهر العاصي وافامية . وهذا ممَّا لا ريب فيهِ

٥ً امَّا كيف دُعي هذا الدير باسم القديس مارون وكيف نُقلت اليهِ ذخائرهُ فامران لا يمكن القطع بهما فنتمنَّى ان يحكم غيرنا فيهما حكماً فصلاً فيصرّح الحق عن محضهِ

---

١) راجع الصفحة ٤٩

٧

في لغات لبنان القديمة

قد استدلّ القارئ من الابحاث السابقة (١ ان لبنان مع ما طرأ عليهِ من تقلّبات الاحوال وتعاقُب الامم في سكناه لم يزل مقاماً لشعب اصليّ كان سامياً يغلب عليهِ العنصر الكنعانيّ والآرامي . ولنا في درس اللغات المستعملة في لبنان ما يؤيد هذه النتيجة فانّ التاريخ والبحث اللغويّ يثبتان صريحاً انّ اللغة الشائعة في لبنان كانت ابداً لهجةً ساميّة

ولنا في اكتشاف مراسلات تلّ العمارنة التي وصفناها سابقاً (٢ ما يرقّي حجّتنا من هذا القبيل الى القرن الخامس عشر قبل المسيح . فانّ في هذه المكاتبات عدّة تقارير ارسلها ولاة صيداء وجبيل وبيروت الذين كان لبنان تحت حكمهم الى فراعنة مصر وكلّها باللغة البابليّة التي كان ينطق بها هؤلاء الامراء وعمّالهم اجمعون . وهو لعمري امرٌ ذو بال يؤخذ منهُ انّ اللغة الاشوريّة كانت شائعة بين اهل لبنان ان لم تكن لغتهم الوحيدة . فيسوغ اذن القول بانّ اوّل لغةٍ شهد التاريخ على وجودها في لبنان انّما كانت لغةً ساميّة اعني البابليّة . وقد حاول المقتطف (١٩٠٣ ص١٧٥) في وصفهِ لكتاب تاريخ بيروت ان ينكر ذلك حيث قال : « انّ استعمال اللغة الاشوريّة في المكاتبات السياسيّة والتجارية لا يكفي دليلاً . . . على انّ اللسان الاشوريّ كان شائعاً في ظهراني الامّة الفينيقيّة » الّا انّ في قولهِ لشططاً ولو تحقّق نفوذ الامّة البابليّة في بلاد الشام منذ ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح لما جحد ذلك (٣ والآثار المنبئة على مكان البابليين وكلمتهم الراجحة في هذه البلاد لعديدة حتى انّ كثيرين

---

١) راجع الفصل المعنون « الامم البائدة في لبنان » وفصل « انتشار الامّة المارونيّة » الخ

٢) راجع مقالتنا « احوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح » (في الجزء الاوّل ص ٧١)

٣) راجع المقالات الحسنة التي كتبها في هذا الصدد حضرة الاب دي لاتر اليسوعيّ (P. Delattre : *Le pays de Chanaan, province de l'ancien empire égyptien*)

من العلماء المبرّزين كفنكلر (١ وغيره يزعمون انَّ ملوك بابل استولوا على الشام في ذلك العهد العهيد وانَّ القبائل البابليَّة التي كانت على ضفَّة نهري الفرات ودجلة امتدَّت وانتشرت الى سواحل البحر المتوسط · وهو رأي راجح كان يجيز لنا بان ننظم البابليّين بين امم لبنان البائدة لولا رغبتنا في اقتصار الابحاث · وما لا يُنكَر من آثار المعاملات بين بابل ولبنان الموادُّ البنائيَّة التي وجدت في اخربة بابل مما نُقل من لبنان كالارز والرخام الابيض والحجارة · أفيُستغرَب بعد ذلك كون اللغة البابليَّة انتشرت في ضواحي لبنان

والظاهر ان سيطرة اللغة البابليَّة في الشام امتدَّت الى نحو القرن الرابع عشر قبل المسيح ومن تبصَّر في مكاتبات تلّ العمارنة وجد فيها الفاظًا وتعابير من اللغة الكنعانيَّة وهذا ناتج عن استيطان قبائل الفينيقيين والكنعانيين قبل ذاك العهد سواحل الشام ولم يلبث الاراميُّون أن يتعقَّبوا آثارهم ويجتمعوا بهم (٢

واعلم ان اللغة الكنعانيَّة (التي تشمل العبرانيَّة والفينيقيَّة) واللغة الآراميَّة متجاورتان حتى تغلَّبت الآراميَّة وصار لها السَّبق فكادت تكون هي اللغة الوحيدة بعد جلاء بابل · على ان بعض معاملات لبنان لاسيَّما ما كان منها مجاورًا للمراكز الفينيقيَّة الكبرى ثبتت مدَّة بعد ذلك على استعمال اللغة الفينيقيَّة

فمن ثم لا نشطُّ اذا قلنا انَّ اللغة الآرامية ملكت دون منازع في لبنان مدَّة نيّف والف سنة · قال المؤرخ ممسن الشهير في تاريخ الشام على عهد الفتح الرومانيّ « انَّ لبنان بحصر الكلام لم يغيّر قطّ عنصرهُ (٣ » اعني انهُ بقي آراميًّا جنسًا ولغةً الى نحو القرن الرابع عشر من تاريخ الميلاد

ولما صار الامر الى الفرس بعد البابليين بقيت السيطرة للُّغة الآراميَّة وكان ملوكها يتَّخذون هذه اللغة كاللغة الرسميَّة ليس فقط في بلادهم لكن ايضًا في

١) راجع كتابهُ الاخير H. Winckler: *Keilinschriften und das alte Testament*, 1903

٢) راجع كتاب فنكلر Winckler : *Die Voelker Vorderasiens*

٣) راجع تاريخه (Roem. Gesch., V, *418*)

الاقطار الخاضعة لهم كمصر وآسية الصغرى . والاكتشافات الأثريّة في مصر تؤيد ذلك فانّ العلماء وجدوا عدّة كتابات اصدرها ولاة الفرس باللغة الآراميّة. وكذا فعل من بعدهم ملوك بني ساسان فانّ رسائلهم كانت مكتوبة باللغة السريانيّة (١

*

امّا السلوقيّون فانّ نفوذهم في لبنان كان ضعيفاً لاسيّما من حيث اللغة فان اللبنانيين داوموا على استعمال اللغة الآراميّة ممزوجةً باللهجة الفينيقيّة . ومن عجيب الامور انّ انتشار لغة الآراميين بلغ على عهد السلوقيين مبلغاً عظيماً فاضحت اللغة السائدة في كل آسيّة الساميّة اعني في سوريّة وما بين النهرين وبلاد الكلدان والعراق وجزيرة العرب (٢ الّا انّ اللغة الرسميّة بين عمّال الدولة ولغة العلماء كانت اليونانيّة في كثير من تلك البلاد دون ان تشيع في عامّتها (٣

ثم تولّى الايطوريّون على لبنان (٤ فلم يغيّروا شيئاً من لغته وكان الايطوريّون عرباً واصلهم من حوران من الجهات المجاورة لجبل حرمون . ومع كون المؤرخين لم يصرّحوا بأيّة لغةٍ تكلّمت قبائلهم لا نشكّ في انّ العربيّة او الآراميّة كانت لغتهم الخاصّة كما يُستدلّ على ذلك من اسمائهم وهي عربيّة اوآرامية

وان سلّمنا انهم تكلّموا بالعربيّة لا نرى بُدًّا من القول بأنّهم اتّخذوا الآراميّة كلغة معاملاتهم وذلك لانّ الطرق التجارية بسبب الحروب التي وقعت بين الملوك السلوقيين وملوك مصر اللاغيّين كانت تحوّلت الى جهات جزيرة العرب بعد مرورها سابقاً في سوريّة الشماليّة وسوريّة الوسطى فصار العرب وسطاً لهذه التجارة الواسعة . ولمّا لم يكن للعرب وقتئذٍ كتابة خاصّة اضطرّهم الامر ان يتّخذوا اللغة والكتابة الآراميّة الشائعة في حدود بلادهم بين مجاوريهم الآراميين

امّا النّبط وهم من اقارب الايطوريين وجيرتهم فانّ لغتهم النبطيّة لم تكن سوى

١) راجع مقالة كاترمار عن النبط Quatremère: *Mém. sur les Nabatéens*, 137.

٢) راجع المجلة الاسيويّة الالمانيّة ZDMG, 1885 p. 333.

٣) راجع مقالة الدكتور شندا عن الآراميين Sanda : *Die Aramaeer*, 4, 23 etc.

٤) راجع الصفحة ٣٩

لهجة آراميَّة . وامتدَّت اللغة الآراميَّة في شمالي جزيرة العرب الى حدود الحجاز وذلك في القرون الاولى من تاريخ الميلاد الى القرن السابع منهُ . والادلَّة على ذلك كثيرة فان الكتابات التي وُجدت في كل تلك الانحاء انَّما هي بالآراميَّة ليست بالعربيَّة (١

وما قلناهُ عن الشام وجزيرة العرب يصحُّ ايضاً عن شبه جزيرة طورسينا وفيها كتابات آراميَّة لا تُحصى ابقاها لنا عرب تلك الجهات

فمن ثم نصادق تماماً على قول العلّامة نلدك وقولهُ حجَّة في زماننا عند العلماء : « قد تناوبت في لبنان هذه اللغات الثلاث اعني الكنعانيَّة ثم الآراميَّة ثم العربيَّة ». وكان يمكن هذا المستشرق الشهير ان يقدّم على هذه اللغات اللغة البابليَّة الَّا انَّهُ لمَّا كتب هذه العبارة لم تُكتشَف بعدُ مراسلات تلّ العمارنة . امَّا اللغة الفينيقيَّة فانَّ الآراميَّة محت آثارها في لبنان كما في سورّية كلها في قرون النصرانيَّة الاولى (٢

امَّا اللغات الاخرى غير الساميَّة فانها لم تَفُز قط بالسيطرة في لبنان . واذا خصصنا بالنظر اللغة اليونانيَّة وجدنا انَّ اللبنانيين لم يتكلَّموا بها مطلقاً . وقد بيَّنَّا في ما سبق ما معنى الكتابات اليونانيَّة التي وجدت في لبنان (راجع الصفحة ٣٥) واثبتنا ان وجودها ليس بدليل على شيوع هذه اللغة بين العامَّة كما انَّ وجود الكتابات اللاتينيَّة المتعدّدة فيه لا يدلُّ على انَّ اهل لبنان تكلّموا بهذه اللغة . وعندنا انَّ هذه الكتابات لم يفهمها غير العمَّال الذين آمروا بصنعها . ولا نستثني من هذا الحكم الصنَّاع الذين حفروها فانهم كانوا ينقلونها نقلًا ويصوّرونها دون ان يقفوا على فحواها

*

وقد زادت اللغة الآراميَّة شأناً بدخول الموارنة في لبنان فاضحت في أظهرهم اللغة الوحيدة مدَّة اجيال متوالية . وتشهد على ذلك اعلام قرى لبنان التي هي في الغالب

١) راجع مقالة كاتر مار في النبط (١٢٣ و ١٢٤) وقال المسعوديّ في كتاب التنبيه (ص ٧٩) : «وكانت بلاد العرب اليوم وبرّها ومدرها اليمن وتهامة والحجاز واليمامة والعروض والبحرين والشحر وحضرموت وعمان وبرّها الذي يلي العراق وبرّها الذي يلي الشام . وهذه الجزيرة كلّها . . . لسانها واحد سريانيّ ». راجع ايضاً مقالات نلدك ZDMG, 1871, 122 ومقالات ڤنكلر (H. Winckler: *Mitteil. vorderas. Gesel*, 1901; 130) وكراسة فيليب برجه (L'Arabie avant Mahomet, p. 9)

٢) راجع Ad, Harnack: *Mission u. Ausbreit d. Christentums*, p. 430

مشتقّة من اصل سرياني كما بيّنّا ذلك سابقاً وسيأتي بيانهُ بنوع اجلى

ولمّا ظهر المسلمون واستولوا على سواحل الشام اخذت العربيّة تنتشر شيئاً فشيئاً في جهات لبنان . وساعد على انتشارها ايضاً دخول الايطوريين كما سبق (الصفحة ٣٩) ثم دخول المتاولة والنصيريين من بعدهم (١ الّا انّ اللغة الآراميّة دافعت عن حقوقها مدافعةً جيّدة ويُتَّخذ من كلام يعقوب دي ڤيتري من كتبة الحروب الصليبيّة انّ العربيّة امتدّت في الجبل ايّ امتداد (٢ ومع ذلك ان ابا الفرج ابن العبري (٣ كان يعتبر في القرن الثالث عشر السريانيّة كلغة اهل لبنان الّا انّ لغة العرب لم تزل في نموّ وانتشار حتى غلبت السريانيّة شقيقتها في القرن الخامس عشر لكنّ هذه لم تتوارَ بالتمام الّا تدريجاً وكان اهل بعض القرى الداخليّة كبشرّاي وحصرون وجيرتها يتكلّمون بها حتى في القرن السابع عشر (٤

وبقي من آثار السريانيّة بعد خمولها انّ كثيرين اتّخذوها لكتابة المؤلّفات العربيّة كما يظهر من كثرة الكتب المخطوطة بالكرشوني . هذا فضلاً عن عدّة الفاظ وتعابير سريانيّة باقية في لهجة اللبنانيين (٥ تنبئ بما كان من السيطرة للغة الآراميين في لبنان بل قُل في اكثر انحاء المعمور القديم . كيف لا ومن اقدم لهجاتها اللغة الاشوريّة التي وُجد من آثارها كتابات راقية الى ٤٠٠٠ سنة قبل المسيح في اكثر اقطار آسية الغربيّة واضحت السريانيّة مدّة اعصار عديدة حتى بعد القرون المتوسّطة لغة علماء الشرق كما كانت اللاتينيّة لغة علماء الغرب وكان المسلمون ايضاً يدرسونها لكثرة فوائدها (٦ . وقد كتب بها الارمن مدّةً قبل انتشار الارمنيّة وحروفها . وقد بلغ امتداد هذه اللغة الى اقاصي الشرق في الصين شمالاً وفي الاقطار الهنديّة جنوباً كما انها بلغت جنادل النيل . فلا نظنّ انّ لغةً اخرى حتى ولا اليونانيّة جارت السريانيّة في اتساعها اللهمّ الّا الانكليزية في عهدنا

١) راجع مقالتنا الافرنسيّة عن النصيريّة في لبنان (مجلّة الشرق المسيحي ROC, 1902,
٢) تاريخ القدس ف ٧٧ .
٣) راجع تاريخ مختصر الدول (ص ١٨)
٤) راجع مقالتنا « فرا غريفون » في السنة الاولى من المشرق (ص ٥٧)
٥) راجع مقالة الاب پاريزو في المجلّة الاسيويّة الباريسيّة (١٨٩٨ ص ٢٨٦)
٦) فيها (ص ٢٤١)

فترى شطوط القائلين بانّ اللغة الآراميَّة كانت لغةً خاملة بربريّة · وقد فنّد المشرق زعم الذين نسبوا الى اوريجانس مثل هذا القول. والارجح ان اوريجانس نفسهُ كان يعرف هذه اللغة ويقتبس من انوارها · وكذلك اولئك الرجال العظام الذين شرّفوا الشرق بعلومهم كاوسابيوس القيصري وتوادوريطوس ويوحنا الدمشقي وابي قرّة· وغيرهم وفي ما سبق كفاية لتعريف شرف السريانيّة واتساع نطاقها في العالم

٧
رسم خرائط لبنان

لا يجهل احد فائدة الخرائط في الدروس الجغرافيَّة · فلولاها لضرب المدرسُ الريح وكتب على صفحات الماء · فيكون مثلُهُ مثل استاذ الطبيعيّات لا يُثبت تعليمهُ بالعمليّات او مثل مدرّس الرياضيّات لا يقيّد علمهُ بالتمرينات الحسابيّة

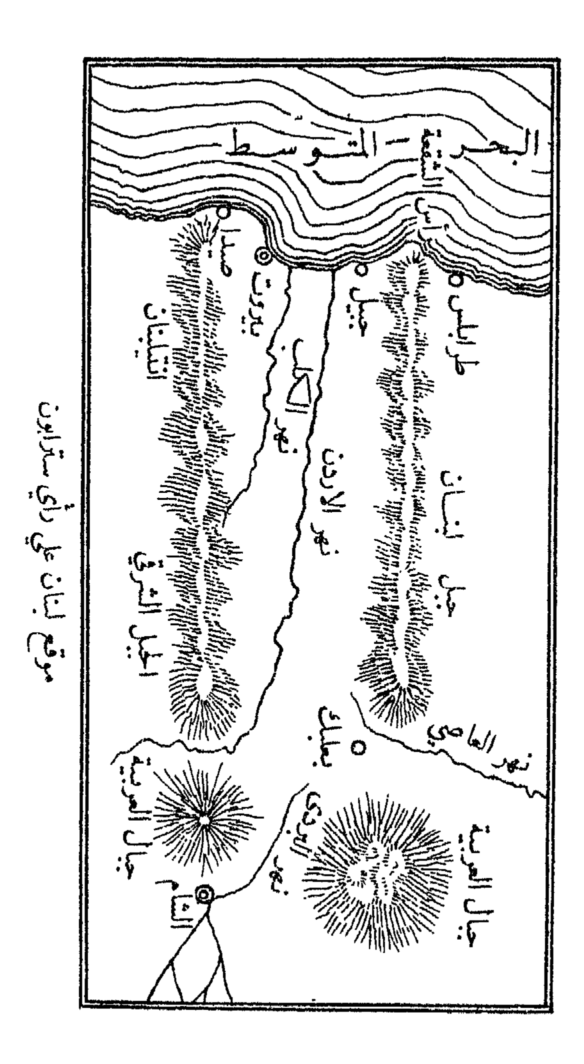
ولكن اين هذه الخرائط ؟ فانّ لبنان الذي عليهِ مدار دروسنا محصور الحدود وليس لهُ خرائط خاصّة بهِ الّا النزر القليل · امّا خرائط سوريّة العامّة فان مقياسها قصير حرجٌ فلا تجد فيها للبنان مكاناً يُذكر مع انك لو اردت درس هذا الجبل لا ندحة لك من خرائط كبرى ذات مقياس واسع ومثل هذه الخرائط عزيزة الوجود

*

اوّل من وصف لبنان سترابون الجغرافيّ العظيم الّا انهُ اخطأ في هذا الوصف وبخطائهِ كان سبباً لاوهام الذين اتوا بعدهُ · وقد اثبتنا عند ذكرنا لبنان ووجهة امتدادهِ وحدودهُ في كرور الاجيال (راجع ص ٦) ما ارتاءهُ هذا الكاتب الشهير في حقّ لبنان اذ بدل وجهتهُ فظنّ انّ هذا الجبل والجبل الشرقي يمتدّان من الغرب الى الشرق بدلًا من الجنوب الى الشمال . اعني انهُ كان يجعل احد طرفي هذين الجبلين عند بحر الشام والطرف الآخر عند دمشق كما ترى في الرسم الذي نثبتهُ في الصفحة التالية

فلعمري انّ مثل هذا الوهم كان من شأنهِ ان يشوّه صورة لبنان كما تُشوّهُ صورة الانسان لو جُعلت قدماهُ في رأسهِ ورأسهُ في قدميهِ . ومع سوء هذا التصور للبنان نال رأي سترابون الحظوة لدى كثيرين ولم يقدر بلينيوس الطبيعيّ وغيره ممّن اصابوا المرمى في تعريف موقع لبنان ان يبطلوا هذا المزعم

ثم جاء العرب ووصف كتبتُهم البلدان وفي جملتها لبنان ولا تراهم يجورون عن طريق الصواب في رسم وجهته الّا انّهم لم يحسنوا بيان حدوده فرُبَّما ادخلوا في لبنان جبالًا ليست منهُ . ثم انَّ تآليفهم بقيت مجهولةً في اوربَّة الى القرن الثامن عشر فكان مصطنعو الخرائط يستندون الى اقوال سترابون فيرسمون لبنان كما تخيَّلهُ هذا الجغرافيّ. منهم العلَّامة بوشارت في كتابهِ « الجغرافية المقدَّسة » وسلَّاريوس صاحب « العالم القديم» وكلاهما من مشاهير الكتَّاب ازهرا في القرن السابع عشر



موقع لبنان على رأي سترابون

صورة لبنان على زعم سترابون

ومن اوّل الذين عاكسوا هذا الوهم الهولندي ادريان ريلَنْد (Reland) في كتابهِ عن فلسطين (١ . وكان اوّل امرهِ يذهب في ذلك مذهب اسلافهِ الّا انهُ لحسن حظهِ وقف على رحلةٍ كتبها الانكليزي هنري مَوْندرل (Maundrell) كان وصف فيها

(١ عنوانهُ Palæstina ex monumentis veteribus illustrata

سفرًا باشرهُ في اواخر القرن السابع عشر من حلب الى اورشليم واكثر فيه من التفاصيل الجغرافيَّة . فنبَّه هذا التأليف افكار ريلند واستفاد من خريطةٍ كان رسمها موندرل المذكور ولم ينشرها بعد

فكانت هذه اوَّل خريطة للبنان وهي بالنسبة الى معارفنا اليوم مخلَّة من وجوهٍ عديدة كانها عمل تلميذٍ لا يُحسن الرسم فلا تكاد تجد فيها سوى بعض اسماء الامكنة الواقعة على ساحل البحر دون مراعاة للمسافات التي بين الانهار ومواقع المحلَّات . امَّا جهات لبنان الداخليَّة فهي خاوية ليس فيها اسم بلد اللهمَّ الَّا بحيرة اليمُّونة . ومع هذا ترى صاحبها قد اصاب في رسم وجهة لبنان والجبل الشرقيّ وجعل الجبلين موازيين مع الاشارة الى سهل البقاع المنبسط بينهما . وتلك نتائج حسنة بالنسبة الى ذلك الزمان لاسيَّما انَّ ريلند كان مهَّد بهذا العمل الطريق لمن يأتي بعدهُ وازال العقبات التي كانت تحول دون الترقي الجغرافي في درس لبنان

هكذا نشأت اوَّل خريطة لجبلنا فكانت مع نقصها اساساً بنى عليهِ كتبة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فحسَّنوها وكمَّلوها . وقد اشتهر بينهم الجغرافيّ الجرماني كرل ريتر (Ritter) الذي افرد لوصف لبنان قسماً كبيرًا من المجلَّد السابع عشر من تأليفهِ المعنون « الجغرافية المقابلة » وهو اوسع وصفٍ يُعرَف لهذا الجبل لم يفقد شيئًا من محاسنهِ وفوائدهِ بعد نصف قرنٍ من عهد ظهوره

الَّا انَّ الخرائط اللبنانيَّة في هذه المدَّة لم تَخطُ كهذه الخطوات في سبيل التقدّم بل بقيت على خللها . وانما كان اصحاب خرائط سوريَّة يخصّون لبنان بمكان صغير فيثبتون خريطة ريلند السابق وصفها مع شيء من التحسين في الدلالة على مصبّ الانهار ونتوءات الارض وقياس المسافات وكذلك ترى زيادةً في اسماء القرى وذكرًا لاقيسة علوّ الآكام والقمم وقد امتازت بين هذه الخرائط خريطة فلسطين الراسم الالماني الشهير هنري كيپرت (H. Kiepert) التي نُشرت في سنة ١٨٥٦ ادرج فيها صورة جبل لبنان ولكنَّ هذه الخريطة كانت على مقياس $\frac{١}{٦٠٠,٠٠٠}$ فلم يمكن صاحبها لضيق المكان ان يتَّسع في ذكر هذا الجبل واعمالهِ . ثم اعاد كيپرت رسم خرائط سوريَّة غير مرَّةٍ دون ان ينال لبنان حظًّا اوفى من المرَّة الاولى

وبعد سنتين لظهور خريطة كيپرت ابرز سنة ١٨٥٨ الضابط الهولندي ڤان دي ڤلد

(Van de Velde) خريطة حسنة للاراضي المقدّسة جعل حدودها الشماليّة لبنان الى النهر الكبير · وكان مقياس هذه الخارطة $\frac{١}{٣١٥,٠٠٠}$ اعني انّها كانت نحو ضعف خارطة كيبرت فنال لبنان حظّهُ منها وهي تستحقّ ذكرًا خصوصيًّا ليس فقط لِسَعَتِها لكن ايضاً لسَيْر صاحبها على طريقة علميَّة · فان راسمي الخرائط السابقة كانوا بنوا رسومهم على اقوال اهل الرحل والمسافرين الذين دوّنوا ملاحظاتهم بدون آلات رصديّة او بلا تدقيق كافٍ في الرسوم او الحسابات التريغنومتريّة · فاراد ڤان دي ڤلد ان يسدّ هذا الخلل فطاف جهات فلسطين لهذه الغاية امّا لبنان فانهُ لم يُجرِ فيـهِ غير رصود قليلة بنفسهِ لكنَّهُ وجد في بعض زملائهِ ما اغنـاهُ نوعاً عن ذلك فانّ الاميركيّ روبنصن وقنصل بروسية في دمشق العلّامة وِتشتَين كانا باشرا بعض هـذه الرصود · وكذلك كان ضبّاط البحارة الانكليزيَّة قاسوا سواحل لبنان والجهات المجاورة لها · فانتفع ڤان دي ڤلد من هذه المساعي العلميَّة الجليلة ورسم خارطتهُ وفقاً لها فجاء عملهُ محكماً وافياً يُعَدّ بروزهُ كنقطةٍ مهمّة في تاريخ خرائط لبنان (١ · ثم زار ڤان دي ڤلد ثانيةً جبل لبنان وطبع خريطتهُ بعد مدَّة فزاد في تحسينها وتلافى شوائبها

هذا ومع فوائد الخرائط المذكورة لم يتفرّغ الى ذلك العهد احد من العلماء لرسم خارطة خاصَّة بلبنان دون سواه حتى نهض لهذا العمل الجليل قومٌ من ضبّاط البعثـة الفرنسويَّة الى سوريّة فرسموا بعد الرصود واقيسة مواقع الامكنة خارطـةً للبنان تُعرَف باسمهم مقياسها $\frac{١}{٢٠٠,٠٠٠}$ طولها ٨٩ سنتيمترًا في عرض ٦٧ اودعوها من اعلام الامكنة ما لم يسبقهم اليهِ غيرهم وهي تحتوي ليس فقط اسماء مماملات لبنـان بل تمتدّ ايضاً الى الجبل الشرقي والبقاع وبلاد بشارة

ومن محسّنات هذه الخارطة انّ اصحابها كرّروا اقيسة الارتفاعات التي قام بها سابقاً القنصل برتون الانكليزي مع غيرهِ من العلماء الاميركان والانكليز والالمان وكمّلوها · واصلحوا ايضاً اغلاطاً اخرى عديدة كما انهم اتقنوا تصوير لبنان في سلسلتهِ الكبرى وفي الفروع المتشعّبة منهُ مع حُسن رسم انجادهِ ومشارفـهِ ومنعطفاتهِ ووجهة أوديتهِ وكل حزونهِ وبطونهِ فضلاً عن طرقهِ وعقباتهِ · وكانت هذه الفوائد مدوّنةً في الخارطة

١) راجع المجلَّة الاسيويَّة الالمانيَّة (ZDMG, XIII, 726)

على احسن هيئة واجود نظر

ولمّا ظهرت هذه الخارطة الفرنسويّة في غضون سنة ١٨٦٢ استحسنها ڤان دي ڤلد لكنّهُ ودّ لو ألحقها اصحابها بشرحٍ يرشد القرّاء الى بيان طرائقهــا والادوات المستعملة لرسمها ومركز اقيسة مثلّثاتها الى غير ذلك من الفوائد اللازمة لضبط الرسوم وتحقيق صحّتها • وقد انتقد غيرهُ على هذه الخارطة فاخذوا عليها بعض المآخذ منها انّ اقيسة السواحل لا توافق الخرائط البحريّة التي كان الانكليز يقومون برسمها آنئــذٍ تحت نظارة الكومندان منسل • فمن اين يأتُرى هــذا الاختلاف وايّ الفريقين هو المحقّ او المحقوق ? فانّ الرسّام ريشرد كيپرت بن هنري كيپرت الشهــير اعلن انّ اقيسة الضباط الانكليز لا تخلو من الخلل (١ وكذلك نرى كتبة الانكليز قد اثنوا اطيب الثناء على الخارطة الفرنسويّة للبنان (٢ التي يرجّح كون اصحابها استفادوا من اعمال الضابط الفرنسويّ ديمولين (Desmolins) في اقيسته الساحليّة • وزد على ذلك انّ العلّامة النمسويّ دينر (Diener) من علماء الجيولوجيّة قد استصوب عمــل الخارطة نفسها

وممّن لم يستحسنها السيّدة ايزابل برتون امرأة السائح الانكليزي الشهير (٣ بيد انّ رأيها ضعيف في رسوم الخرائط ولعلّها ارادت بهذا الانتقاد ان تبيّن فضل خارطة زوجها التي ليست بشيء • على رأي كيپرت • وكذلك الدكتور پوست من اساتذة الكليّة الاميركيّة في بيروت فانهُ «وجد الخارطة الفرنسويّة قليلة الضبط في تعيين مواقع الامكنة كثيرة الاغلاط في تدوين الاعلام العربيّة (٤ » ونحن وان كنّا نسلّم بما فرط في خارطة الضباط الفرنسويين من الاوهام في تعريف بعض مواقع الامكنة نرى انّ اغلاط الانكليز والاميركيين في الاعلام العربيّة اكثر وافظع كما اشار الى ذلك العلماء الالمان كالعلّامة سوسين (٥ فيصحّ فيهم المثل « أيّها الطبيب اشفِ نفسك »

١) راجع مــلاحظاته في ملحق رحلة البــارون فون اوپنهيم الى خليج العجم ج ٢ ص ٣٩٦ و ٤٠٥

٢) راجع المجلّة PEF, 1865, 75

٣) راجع الكتاب Unexplored Syria 1, 95

٤) راجع PEF 1892, 219

٥) راجع المجلّة الفلسطينية الالمانية ZDPV, III, 179, IV, 242, V, 243, XIII, 45

والرأي الارجح عندنا في خارطة لبنان التي رسمها الضباط الفرنسويّون ما قاله فيها ريشرد كيپرت ابن المومأ اليهِ « ان خارطة لبنان حسنة الرسم يروق العين النظر فيها ولكن الواصفين قد بالغوا في وصفها (١ » . فكأنهُ اراد بذلك انَّ هذه الخارطة مع ما فيها من المحاسن ليست تامَّة كاملة . وهو حكم صائب الَّا انَّها لمَّا كانت الخارطة الوحيدة للبنان انَّما المرجع اليها في تقويم هذا الجبل . وعندنا انَّ اصحاب هذه الخارطة لم يطوفوا كل ناحية عكَّار . امَّا جبل اكروم فقد تحقَّقنا في رحلتنا اليهِ سنة ١٨٩٩ انَّ الضبَّاط الفرنسويين لم يدخلوهُ مطلقاً (٢ . على انَّ هذه الملاحظات عرضيَّة لا تمسّ جوهر العمل الذي ادَّى للعلم ولا يزال خدماً مشكورة . ولا بُدَّ من الرجوع اليها والاستناد الى معلوماتها الفريدة في بابها حتى يقوم قوم من اهل الضلاعة والخبرة فيتداركوا الخلل

ولهذه الخريطة رسم مصغَّر الحقهُ المسيو رينان بكتابهِ « بعثة فينيقية » مقياسهُ $\frac{١}{٥٠٠,٠٠٠}$ اصطنعهُ اصحاب الخارطة السابقة انفسهم الَّا انَّ الاعلام فيها قليلة لانَّ المقصود منها انما كان فقط الدلالة على العاديَّات في لبنان

هذا وقد ورد آنفاً ذكر خارطة الانكليزي مَنسل البحريَّة . وهي مفيدة لتعريف اقيسة عدَّة مواقع كما انها تصلح لبيان علوّ مشارف لبنان الداخليَّة . وعلى رأي ريشرد كيپرت لا يُركن الى تعريفات هذه الخارطة الَّا في الخطّ الساحليّ . امَّا جهات لبنان الداخليَّة وتحديد مواقع القرى واسمائها ووصف الانهار والطرق ومنعطفات الجبل فانَّ مَنسِل تصرَّف فيها على حسب تخيّلاتهِ (٣ . وقد اثنى الجغرافيّ دينر (٤ على ضبط اقيسة الانكليز في تعريف اعالي لبنان بينما ترى غيرهُ كريشرد كيپرت وبلنكنهورن قد انتقدوا عليها في صحَّة ضبطها

*

١) راجع رحلة اوپنهيم السابق ذكرها

٢) راجع مقالتنا Notes topographiques sur l'Emésène

٣) راجع رحلة البارون اوبنهيم السابق ذكرها ج ٢ ص ٣٩٦ و ٤٠٥

٤) راجع كتابهُ Libanon Grundlinien einer phys. Goegr. von Mittel-Syrien, 9

وفي سنة ١٨٨٤ نشر الدكتور لورته متقدّم المكتب الطبي في ليون كتاباً اسمهُ «سوريّة كما هي اليوم» اتقن طبعهُ وزيّنهُ بالتصاوير البديعة وهو يحتوي على فوائد جمّة في شأن الجغرافيّة وخصوصاً تاريخ بلادنا الطبيعي وقد اضاف اليهِ خريطة فلسطين ولبنان مقياسها ١/١,٠٠٠,٠٠٠ استند فيها (على ما جاء في صدر الخارطة) الى اصدق الموارد واحدثها عهدًا دون ان يُطلعنا على طريقتهِ في اصطناعها غير انَّ الذي يتصفَّحها لا يجد فيها شيئًا جديدًا والاحرى ان يقال انها دون خارطة البعثة الفرنسويّة

فمن ذلك انَّ نتوءات الجبل ليست بواضحة فضلًا عن كونها غير صحيحة. ثم ان في اسماء الامكنة اغلاطاً عديدة . مثال ذلك انهُ يدعو بحيرة زينيَّة « لجميّة » وكذا دعاهُ مرارًا في الكتاب . امَّا اقيسة العلو فلا توافق في الغالب اقيسة غيرهِ من الكتبة ممَّن يُوثق بهم . والظاهر من كلام المؤلف انهُ دوّن هذه الاقيسة نقلًا عن بعض الادوات الصغرى غير المضبوطة . وخلاصة القول يلوح من درس هذه الخارطة انَّ صاحبها لم يزد شيئاً على معلوماتنا السابقة وانَّما نقل ما اتى بهِ الكتبة المتقدّمون دون تروٍّ كافٍ وبلا اجهاد ذهنٍ . وهذه الخارطة مع قلَّة ضبطها متقنة الطبع تُفيد الذين لا يطلبون الدقَّة في التفاصيل ويكتفون بنظر عامّ وهي بالخصوص تساعد على مطالعة كتابهِ

وهذا الانتقاد والتنقير احقّ بخارطة الاميركان المطبوعة بالعربيَّة على الحجر سنة ١٨٨٩ . فانَّها ليست فقط كثيرة الخلل لكنَّها ايضاً مبهمة لا تقرّ لنضارتها العين ولا يأنس بفوائدها العقل . والدليل على قلَّة ضبطها انَّ اصحابها لم يذكروا لها مقياساً وانَّما يقيسون المسافات على مشية الخيل وهي لعمري دلالةٌ تناسب مجاهل افريقية وما شاكلها من الاقطار امَّا بلاد متمدّنة كسوريّة فلا ترضى بها

ومن معايب هذه الخارطة انَّ نتوءات الجبل وسلسلتهُ الوسطى مدلول عليها ببعض الخطوط المخرشبة العمل امَّا تفرُّعاتهُ وانجادهُ ومعاطفهُ واوديتهُ فكل ذلك مُهمل لا ذكر لهُ . وقد أُشير فقط الى مجاري الانهار ببعض الاشارة . وعندنا انَّ هذه الخارطة لا تصلح للمدارس ولعلَّها تؤدّي بالاحداث الى الوهم والغلط . وزد على ذلك انَّ اسماء امكنة عديدة في هذه الخارطة لم تُذكر لضيق المحلّ . امَّا صورة الاسماء فهي مضبوطة في الغالب لجبل لبنان لكنَّها مخلَّة لبقيَّة انحاء الشام كما لحظ الامر العلَّامة المستشرق

ڤان برکم في المجلّة الاسيويّة (JA, 1895 [1], 490) وانّما السبب في هذا النقص ان اصحاب هذه الخارطة لم يرسموها رسمًا مستقلًّا بل اتّبعوا فيها الخرائط الانكليزية التي تكثر فيها مثل هذه الاغلاط ومن اوهامهم انهم جعلوا مديريّة هرمل ملاصقة لبنان مع انّ موقعها في ولاية سورية وان كانت تخصُّ متصرفيّة الجبل . وكلُّ هذه الشوائب تنزع عن الخارطة الاميركيّة صفتها العلميّة ولذلك لا ترى احدًا من المستشرقين يرجع اليها في اوصافهِ . وحكمنا هذا مختصّ في قسمها اللبنانيّ اما رسم بقيّة انحاء الشام فقد تعدّدت فيهِ الاغلاط وتوفّرت اسباب الزلّات وتشوّهت الاعلام لكنّنا نجتزئ بالاشارة لئلّا نخرج عن دائرة موضوعنا

ولا ندحة لنا من ذكر خارطة الدكتور النمسويّ دينر التي تُرى في آخر كتابهِ عن لبنان المطبوع سنة ١٨٨٦ . والغاية من كليهما جيولوجيّة لبنان اي تعريف طبقات ارضهِ ويدخلهُ ايضاً فوائد عديدة جغرافية كوصف ارتفاع الجبال ووجهتها وانعطاف وديانها واقيسة معاليها . الّا انّ الاستاذ ريشرد كيپرت مرتاب في صحّة هذه الاقيسة الاخيرة لعدم وقوفهِ على اسلوب دينر في تدوينها . وكذلك تراهُ يذكر بالتحفُّظ اقيسة الارتفاع التي اجراها احد معلّمي كلّية بيروت الاميركيّة المعلّم روبرت وِست ونشرها في مجلّة فلسطين الانكليزيّة (PEF) سنة ١٨٩١ (ص١٤٧) و١٨٩٢ (ص٢١٩) و١٨٩٦ (ص ١٦٥) . ولا غروَ فان هذه الاقيسة لا تراعي درجات الحرارة وذلك امر واجب لضبط قياسات البارومتر. ثم انهُ اهمل في تدوين هذه الاقيسة رسم خارطة لبنان فيبقى القارئ متضعضعاً لا يميّز النقط المقيسة من سواها . امّا قياسات الدكتور بُست الاميركي فيرتأي ريشرد كيپرت (ص٤٠٧) انّها ليست ذات شأن . ومجمل القول انّ العلماء حتى اليوم لم يضبطوا ضبطاً تامًّا اقيسة مشارف لبنان فلا نزال على شكّ من صحّتها

هذا ولا يجهل احد من السيّاح دليل فلسطين وسوريّة المنسوب الى بيديكر وهو كتاب كثير الفوائد وضعهُ عالمان المانيّان شهيران سوتسين وبِنسِنغِر واصحابهُ بخريطة للبنان مقياسها $\frac{1}{\text{٢٠٠،٠٠٠}}$ وهي قسمان يحتوي احدهما شمالي لبنان والآخر جنوبيّهُ الّا انّها شمالًا لا تتجاوز خطّ طرابلس فلا تتضمّن جبل عكّار . وهذه الخريطة قد قام بعملها رجلٌ واسع الخبرة في فنّ رسم الخرائط ألا وهو هنري كيپرت . ومع شهرة هذا العمل وكثرة محاسنهِ لا يسعنا السكوت عن بعض نقائصهِ منها انّ اعلام القرى اقلّ

عدداً من الخريطة الفرنسويّة · ولعلّهُ اقتصر صاحبهُ على هذه الاسماء رغبةً في توفير المكان ثم انّ الغاية من رسم هذه الخارطـــة ليست التعليم المدرسيّ فاكتفى الراسم بذكر الاعلام التي فيها ما تهمّ المسافرين معرفتهُ · امّا ضبط الاسماء فيحتاج ايضاً الى اصلاح لئلا تزلّ بهِ قدم المطالعين لاسيَّما ان دليل بيديكر قد اتبع في نقل الاعلام العربيّة طريقة الحروف المفردة المنقطة الشائعة عند كبار العلماء الاجانب · ولو قصد بيديكر لأمكنهُ سدّ هذا الخلل · ولعلّهُ فعل في طبعتهِ الاخيرة التي لم نطلع عليها · لكنّ الطبعة الرابعة التي في يدنا تاريخها سنة ١٨٩٧ وهي غير مصلحـــة ومع هذه النقائص نرى خريطة بيديكر حسنةً يُستفاد من مراجعتها وان لم تُغنِ عن الخريطة الفرنسويّة

وفي الدليل عينهِ خريطة اخرى مقياسهـــا كخريطة البعثة الفرنسويّة $\frac{١}{٢٠٠,٠٠٠}$ تتضمّن جهات بيروت على مسافة ٢٩ كيلومترًا طولًا في ١٩ ك عرضاً فيها كل مـــا يُرغب اليهِ من وصف الامكنة · وهي في هذا القسم أغنى من خريطـــة الضبّاط الفرنسويين

امّا احسن ما وُضع من الخرائط للبنان فهي خريطة حديثة رسمهـــا ريشرد كيبرت الذي تكرّر الثناء على براعتهِ في هذا الفنّ وألحقها بكتاب في جزئين ألّفـــهُ البارون فون اوبنهيم عنوانهُ : Vom Mittelmeer zum persischen Golf. *Berlin*, 1900 · فالخريطة تاريخها ١٨٩٣ غير انّها لم تتمّ الّا بعد تلك السنة والدليل على قولنا انها تتضمّن عدّة فوائد من تاريخ سنة ١٨٩٨ · وهذه الخريطة مقياسهـــا $\frac{١}{٨٥٠,٠٠٠}$ وحدودها شمالًا مرعش الى خطّ الناصرة فبُصرى ومن ثم لا ترى فيها لبنان الّا مصغّرًا · وهي مع ذلك غاية الاتقان ومثال يُقتدى بهِ من حيث رسم الجبـــل وتعريف عطفاتهِ واوديتهِ ومجاري انهارهِ وحسن ضبط اعلامهِ · وخلاصة القول لا نجد في هذه الخارطة غير محاسن اللهمّ الّا اقيسة قِمم لبنان فانّنا في ريب من صحّتهـــا لاختلافها عن الاقيسة المعهودة · مثال ذلك جبل صنّين فانّ العلماء يحسبون علوّهُ عادةً ٢٦٠٨ م وقياسهُ في هذه الخريطة ٢٧٥٠ مترًا وكذلك اجمع العلماء سابقاً انّ اعلى قمم لبنان تتراوح بين ٣٠٦٠ مترًا الى ٣١٠٠ م والعلّامة كيبرت في خريطتهِ يزعم انّ المشارف التي تطلّ على وادي الارز يبلغ بعضها ٣٢١٥ مترًا وغيرهـــا

٣٣٦٠ م · ولم نعهد احدًا من العلماء ذهب الى ذلك الَّا بُرْتون الذي لا يوثق بكلامهِ من هذا القبيل

على انَّ العلَّامة كيپرت يفيدنا في ملحقهِ انَّهُ اخذ هذه الاعداد عن خريطة مخطوطة للخواجا عبدالله طعمه · وعندنا انَّ العلماء لا يكتفون بهذا السند الوحيد

وفي الختام ان طلب احد رأينا في الخرائط اللبنانيَّة اشرنا اليهِ ان يقتني خريطة البعثة الفرنسويَّة سنة ١٨٦٠ مع خريطة ريشرد كيپرت وبهما غنى عن غيرهما الى ان يرسم لنا احد العلماء قريباً ان شاء الله خارطة جديدة تستوفي كل الشروط المرغوبة مستندًا الى الاعمال السابقة مع اصلاح شوائبها

٩

لبنان: بحث في انجادهِ واغوارهِ

قد اظهرت ابحاثنا السابقة غير مرَّةٍ خطر لبنان وعظم شأنهِ في سوريَة · فان كان قول الكتاب الكريم عن بلاد الشام « بانهـا تدرّ لبناً وعسلًا » لا يزال صحيحاً في عهدنا كما صحَّ سالفاً فليس ذلك الَّا من فضل الانهر التي تتولَّد في بطون لبنان ومن تأثير الجبال الشاهقة المكلَّلة بالثلوج الغرَّاء في الهواء واحوال الجوّ · وعليهِ فانهُ من الواجب اللازب ان نبيّن خواص لبنان في وضعهِ وهيئتـهِ وبطونهِ وحزونهِ فنشرّحهُ تشريحاً لنقف على دفائنهِ وخفاياه · وذلك اقوى عامل لبيـان مجاري مياههِ وتفرّع الانهار على جوانبهِ كما سيأتي بُعَيد هذا

*

قال اليزاي روكلو (E. Reclus : *Asie Antérieure*) في وصفهِ للبنان: « اذا ما ألقيتَ ببصرك من البحر الى سلسلة لبنان المستطيلة رأيت من هـذا الجبل نظرًا مهيباً فيلوح لك ازرق او ورديًا في الصيف ومشتملًا في الشتاء والربيع بجلباب ثلجهِ الفضيّ · واذا تصاعدتِ الابخرة في الجوّ البست قمةُ النازحة ثوباً شفَّافاً هوائياً غاية في اللطف · وتراهُ مع عذوبة منظرهِ لا يخلو من سطوة الصلابة والشَّمم فترى ذاك الجبَّار يتمطَّى بضلوعهِ الشديدة وينطح برأسهِ الشامخ لا يقوم في وجههِ قائم · على انَّ النظر الى محاسن هذا الجبل عن كثبٍ هي دون جمالهِ عن بعد · فترى ظهره على طول ١٥٠

كيلومترًا (والاصحّ ١٨٠ كيلومترًا) اقهب اجرد لا تكسوهُ الخضرة تجد ودیانهُ متشابهة ومشارفهُ كأنها قُدّت على قالبٍ واحد »

هذا هو الوصف الذي خصَّهُ ذاك الجغرافي الشهير بلبنان . وان دقّقنا من بعده في تعريف هذا الجبل قلنا : ان لبنان اشبه بجدار عظيم من الصخور وِجهتُهُ من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقيّ . ومن الجهة الشرقيّة تراه ينقطع بغتةً امَّا من جهة الغرب فهو يتفرَّع فروعاً متعدّدة على هيئات شتّى من آكام وبطون وسهول ورُبى متسلسلة يدخل بعضها في بعض. واذا استثنيت هذه التفرّعات الثانويّة والتجعّدات غير المنتسقة تحقّقتَ ان سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظاميّة وجانب كبير من البساطة . ولذلك قلّما ترى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تقرُّ لها العين في سواهُ من الجبال وانما البصر يقع على حاجز كبير في حدود الافق يتواصل على خطّ مستقيم لا تكاد قمةُ العليا تمتاز عن بقيّة اقسامهِ

ومن درس جغرافيّة سوريّة ورأى نتوّاتها وأفرد لبنان ببحثهِ لا يرى فيهِ تلك الأطواد العجيبة التي تقوم في السهول المنبسطة او في وسط الأنجاد المرتفعة فتخلب النظر بمشارفها وقرونها السامية كجبل ڤنتو (Ventoux) في فرنسة وجبل اتنا في ايطالية وبركان تناريف في جزائر كناري وجبل الاقرع في جهات انطاكية او الاولمپ في بروسّة فان مثل هذه الجبال تأخذ بمجامع القلب لتحليقها رؤوسها في الجوّ . امَّا لبنان فلا اثر فيهِ لمثل هذه القرون الباسقة التي تنصب ضلوعها المهشّمة بالاودية فوق فقراتها الاصليّة . وكذلك ليس في لبنان مثال لتلك القنن المروّسة المدعوّة في بعض البلاد الجبليّة كبلاد الالپ والپيرنياي بالمسلّات والإبَر والاسنان كما انهُ خالٍ من القمم المخروطة الشكل او ذات المقاطيع المخروطيّة . ومجمل القول انّ ظهر لبنان ينبسط انبساطاً متساوياً على خطّ سويّ يبلغ معدّل علوّه ٢١٢٠ مترًا تركب فوقهُ اهاضيب وروابٍ محدَّبة تختلط في هيئتها مع السلسلة الوسطى الاصليّة

الّا انّ للبنان خواصّ اخرى تجعلهُ من الجبال الممتازة ببهائها فمن ذلك تقاطيعهُ التي ترى في المنعطف الموازي للساحل . فهناك عددٌ وافر من الاودية والمهاوي والشعاب والألهاب الصعبة المرتقى والوهاد التي تفصل الجبل الى نشوز مختلفة كأنّها القلاع الحريزة . وذلك ما سهّل لاهل لبنان ان يعيشوا في جبلهم في الامن والراحة .

وكذلك تعدّدت فيهِ الامم المختلفة التي التجأت اليهِ وتوطّنتهُ فاختلطت الانساب وتوفّرت المشاكل في تعريف اصولها الشتى

١ اودية لبنان

وان انتقلنا الآن الى وصف اودية لبنان التي تنوط بها المجاري المائية وجدنا ان وضع هذه المنهبطات والبطون هو على خطّ عمودي بالنسبة الى ظهر الجبل بالعرض منهُ . ولمّا كان الجبل موازياً للبحر مجارياً لساحلهِ تحدّرت منهُ السيول الى هذه الاودية فانصبّت في بحر الشام على اقرب طريق . والمياه قد فتحت لها مسيلًا على خطّ مستقيم بعد نفوذها في اعطاف الجبل وخرقها لفروعهِ الثانويّة . ولو اردنا ذكر الاودية التي هي في لبنان على شكل خطّ عمودي معترض لتعدّدت الاسماء . فمن ذلك اكثر مجاري السيول كنهر بيروت ونهر الكلب ونهر ابراهيم وامثالها . واكثر وجود هذه الاودية المعترضة في شماليّ لبنان اي في مشارفهِ العليا حيث تبلغ معظم قوّتها

الّا انّ ظهر الجبل عند بلوغهِ شمالًا رأس الشقعة يميل ميلًا ظاهرًا الى الشرق وتتّسع فروعهُ الغربيّة وتخفّ منحدراتهُ فترى الاودية اللاحقة بهِ تميل معهُ فتتّجهُ الى الشمال الغربيّ وهي لا تزال مع ذلك تابعة للخطوط العموديّة الّا انّ زواياها بالنسبة الى الساحل اقلّ انفراجاً فتجري الى البحر من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربيّ . واذا بلغتَ منتهى لبنان في الشمال الغربي رأيت ضلوع الجبل تتّسع فيها الوديان على شكل المروحة نصابها ظهر لبنان المركزي

وفي لبنان ما خلا هذا الاودية العموميّة او المعترضة اودية اخرى توازي طول الجبل وتجري معهُ على خط مستقيم مثال ذلك شماليّ لبنان في جبل عكّار نهر خالد وما ينصبُّ فيهِ من الجداول والسيول . ومثل هذه الاودية الموازية للجبل كثيرٌ في لبنان الجنوبي على جهة طريق الشام الجنوبية فترى مسايل المياه تجاري في سيرها ظهر الجبل في اعاليهِ حتى اذا بلغتَ اسافلهُ عطفت بغتةً واعوجّت على شكل الزاوية المنفرجة . وان اعتبرتَ اغلب الانهار الواقعة في تلك الجهات كالليطاني والزهراني والاوّلي والدامور وجدتها على هذا المثال فانّها تجري اوّلًا من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ثم تتغيّر على فور وجهتها وتنفذ في مضايق تسيل منها الى البحر على خطّ عموديّ معترض

وليس بين هذه الانهار مـا يقطع ظهر لبنان الّا الليطاني وحده فانّ رأسهُ على منعطف لبنان الشرقيّ وهو يصبّ في البحر منحدرًا الى منعطفـهِ الغربي وذلك من عجائب الامور اذا اعتبرت عمق وادي هذا النهر وقابلت بينهُ وبين ضخم الجبل الذي تخترقهُ مياههُ . ولعلّ ما ارتآهُ في هذا الامر العلّامة ت. فيشر لا يخـلو من الصواب وهو قولهُ بان الليطاني كان قديمًا في اسفـل مجراه نهرًا متسرّبًا الى باطن الجبل فلم تزل مياههُ تعمل في الصخور التي تخفيهِ عن النظر الى ان اخترقها وعليه فيكون الجسر الطبيعي الذي يُرى حتى الآن في يحمور اثرًا لحالة النهر السابقة وبقيـة من القناطر الصخريّة الطبيعيّة التي جرى تحتها النهر مدّة احقاب عديدة

وممَّا يجدر بنا قولهُ انّ الاودية اللبنانيّة وتقعيرها الجسيم انما هو من فعل العوامل الطبيعيّة التي انجزتها . ألا وهي الثلوج والجليد والامطـار والمياه الجارية وكلُّها قد تسلّطت على صخور الجبل فنقرتها وحفرتها على شكل الوديان . وذلك امرٌ يسهل الوقوف عليهِ في الامكنة التي ينهبط المسيل بين جدران الجبـل المركّبة من طبقات صخور نظاميّة فهذه الطبقات ترى على الجهتين مناسبةً لبعضها . وقلّما ترى في لبنان واديًا الّا وتنظر آثار المياه على جانبيهِ فتتحقّق علوّ مجراها سابقًا ثم هبوطها على مدى الاعصار

وهذا عمل المياه وجرفها للصخور يبدو للعيان في اخوار هلاليّة تختلف سعةً وعمقًا حُفرت في اواسط الجبل وتتكوّن من مجموع شعابهِ ومن انخسافاتهِ وتهوّراتـهِ . واجمل ما يُرى من هذه البطائح بطيحتـان الواحدة في لحف صنين والاخرى تحت المنيطرة . وعند افقا ابطح آخر قليل الاتساع لكنَّهُ غاية في الحسن لما يُحدق بهِ من المناظر البهيّة الآخذة بمجامع الابصار

وهي المياه ايضًا حفرت الألهاب اعني الصدوع التي تقوم في الجبل تجاه الناظر اليها كالحائط لا يُرتقى . فانّ السيول بقوّتها قد تخلّلت الصخور ولم تزل تناصبها الحرب حتى غلبت صلابتها ودخلت في قلبها . فمن ذلك وادي نهر ابراهيم في مسيلهِ الاعلى نازلًا عن قرطبة ومضيق نهر الكلب وما يفضي اليهِ من الاودية كنهر صليب . كذلك نهر باروك الاعلى مع ملحقاتهِ ونهر الاوّلي بقرب جزّين . واعظم هذه الالهاب نهر قاديشا فانّ عمقهُ لا يقل عن ٥٠٠ متر فيمثّل نوعًا مضايق بلاد كولورادو في اميركة فترى فيهِ المياه تهبط من اطرافهِ الى اعماقهِ مزبدةً فتسيل متلوّيةً في تلك القناة الطبيعيّة التي

خرقتها رغماً عن صخورها الصمّاء . وهو لعمري منظر مهيب يزيد روعاً اذا قوبل بما يحفّ به على جانبي الوادي من الاشجار المتّسقة على شكل الدرج ومن الصخور المختلفة الالوان

وللبنان شعابٌ تصل بين منعطفيه منها المناقب يتوقّلها المسافر فيجتاز وسط الجبلين او الربونين متّبعاً لمنعرجات الوادي ومنها الثنايا والعقبات تسير بين الجبلين المنتصبين على متون مرتفعة . مثال ذلك العقبة التي بين العاقورة وأفقا التي تُدعى ثنيَّة المنيطرة وتُعدّ من اقدم مسالك لبنان ومنافذه بيد انّ مثل هذه الثنايا قليلة في لبنان لاستواء خطّ قسمه الاوسط في الارتفاع . فانّ السائر لا يتبطّن الغور بل كثيراً ما يجري على جانب الوادي او على ظهر الجبل . وفي بعض المجازات كمجاز الباروك وصنّين وجبل الارز الذي يبلغ علوّهُ ٢٦٠٠ متر ليس فرقٌ يُذكر بين الجبل وطريق السابلة

٢ منطقة الثلوج المخلّدة في لبنان

ان اسم لبنان يُشعر ببياض قممه فانهُ مشتقّ من اصل ساميّ « لبن » ومعناهُ الجبل الابيض ليس كما زعم البعض لاجل صخوره الكلسيَّة التي يتركَّب منها بل لما يتوّج رأسهُ من الثلوج الغرّاء . فانّ هذا المنظر في بلاد تتّقد فيها وغرات القيظ كان من شأنه ان يؤثر في مخيّلة الامم البائدة

ومع هذا ليس في لبنان رأس يبلغ منطقة الثلوج المخلّدة . وكذلك المثالج الجليديّة المتجمّدة فلا اثر لها اليوم . وغاية ما يلقاهُ المسافر في اعالي جبل الارز مُدَى احواض في أمن من الشمس تتراكم فيها كميَّات وافرة من الثلج تبقى فيها حتى في معظم حرارة الصيف . وهذه المستودعات لا تُرى في قمّة جبل المكمل الذي يبلغ ٣٠٠٠ متر لكن في منعطفاته المعتزلة عن اشعّة الشمس . وكذلك في صنّين وفي جبل المنيطرة بعض احواض مستديرة لا تعمل فيها الشمس لا لارتفاع الجبل لكن لكثافة الثلوج المتراكمة . وعلى رأي علماء الطبقات الارضية لا ينقص لبنان الّا مئة متر ليبلغ علوّ الجبال الخالدة الثلوج التي لا يذوب ثلجها صيفاً مع شتاء لارتفاعها وقلّة حرارتها

ومن تفرَّع الجبل من الجنوب الى الشمال وجد الجبل يتزايد علوًّا وكذلك يتسع عرضاً . ولو تأمّل الناظر من علوّ الجوّ عرض لبنان بين صيداء ومشغرة لوجدهُ لا يزيد عن ٢٩ كيلومترًا وهو يبلغ بين بيروت وقبّ الياس ٣١ ك ومعظم اتساعه بين طرابلس وهرمل ٤٦ ك . فيكون لبنان على شكل مربَّع منفرج عن زاويتيه العليوَين

٣ وصف قُمَم لبنان

ليس بوسعنا ان نصف كل قمم لبنان المختلفة وتفرّعاتهِ المتعدّدة وانما نذكر منها اخصَّها ليكون القرّاء على بصيرة من امرها

يبتدئ لبنان جنوباً عند الوادي العميق الذي فيهِ يسيل الليطاني وعليهِ تشرف قلعة الشقيف في علوّ ٦٧٠ متر من سطح البحر. ثم لا يزال في تصاعد حتى يبلغ ١٠٣٠ مترًا عند جبل جرمق ثم يتَّصل بجبل ريحان الذي به دُعيت احدى مديريّات لبنان. واعلى قممهِ هناك ١٦٤٣ مترًا . ثم يزيد علوًّا عند قرنين محدَّبين يدعيان توأمات نيحا (١٨٥٠ مترًا) يراهما البحّارة عن بعد وكانوا الى القرن الثامن عشر يستدلّوا بهما على موقع صيداء (١

ثم يرتصُّ الجبل وينضمّ الى بعضهِ متواصلًا فيسير قطبهُ المركزيّ على خطّ متساوٍ كأنَّهُ جدار اجرد لا نبت عليـهِ فذاك جبل باروك وفي آخره وهدة ظهر البيدر (١٥٤٢ م) تقطع لبنان الى نصفين وهي نقطةٌ مهمّة للمواصلات بين انحـاء الشام وفيها تمرّ طريق دمشق والسكّة الحديديّة التي جعلت لبيروت مقاماً راجحاً في سوريّة

على انهُ اذا كان هـذا المضيق يقسم لبنان الى قسمين متساويين على التقريب فانّ بين القسمين اختلافاً كبيرًا في الهيئة فان القسم الشمالي يأخذ في الانبساط وتتسع انجادهُ حتى تبلغ عدَّة اميال . منها نَجِد جبل الكنيسة (٢٠٣٢ م) ونَجِد صنّين (٢٦٠٨ م) الذي على شكل مثلَّث عظيم فيهِ الشرفات والاغوار والاودية يلوح لمن يرقبهُ من سهل البقاع كانهُ بحر عجّاج . امّا من جهة بيروت فينتصب هذا الجبل مع قرنيهِ الشاهقين فيخلب الابصار بمحاسنهِ ووفرة مناظرهِ

وصنّين في علوّهِ ثالث جبال لبنان بعد جبـل المنيطرة وجبال الارز . ويبعد عن هذه الاخيرة ٢٠ كيلومترًا بينهما جبل المنيطرة الممتاز بشعبتهِ المستطيلة (٢٩١١ م) وفي منتهاها مجاز ظهر القضيب يمرُّ بهِ السَّفر من وادي قاديشا الى بعلبك

ثم تبتدئ اعلى قمم لبنان ومجموع جبال الارز الذي يلوح للناظر من طرابلس او من البقاع كأنّهُ سورٌ منيع قائم كالعمود . وهو في الحقيقة نجد واسع مساحتهُ ١٠٠ كيلومتر مربّع وفيهِ سلسلتان متوازيتان مختلفتان وجهتهما من الشمال الشرقي الى الجنوب

(١ راجع Mémoires du Chevalier d'Arvieux, II, 467

الغربي طولها نحو ١٥ كيلومترًا فيها شعوف ورؤوس متعددة لم يُضبط حتى اليوم قياس علوّها كرأس ظهر القضيب وجبل المكمل والقرنة السوداء وتيارون فترى الجغرافيين يحددون هذه الشرفات حدساً فلا يتفقون بالقياسات كما ذكرنا سابقاً في بحثنا عن خوائط لبنان (راجع الصفحة ١٠٦) . وبيّنّا هناك سبب هذا الاختلاف

كان القائد مَنسل والضبّاط الانكليز اقتاسوا علوّ هذه المشارف بطريقة الرسوم المثلّثة . وتبعهم الضبّاط الفرنسويّون سنة ١٨٦٠ في خارطة البعثة الفرنسويّة دون ان يفيدونا عن طريقة اقيستهم . ثم اورد الجغرافي ر. كيپرت في خارطتهِ قياسات مخالفة للاقيسة الشائعة قبلهُ اخذها عن خارطة الخواجا ع. طعمه وافادنا عن سبب استناده اليهِ في رحلة البارون فون اوپنهيم (٢ : ٤٠٦ و٤٠٧) قال : « انهُ فضّل هذه الاقيسة لانَّ صاحبها نالها بواسطة ميزان البارومتر الزئبقي وهي توافق اضبط الأقيسة دون ان نتحقّق ما بينهما من العلاقة » . وهو قول بين المدح والانتقاد يجعلنا في ريب عن صحّة هذه الاقيسة واستدلالها . والحق يقال انّ في خارطة المسيو كيپرت اوضاعاً غريبة كجعلهِ مثلًا حمّانا فوق عين صوفر . وعليه فانّنا نفضّل مقاييس المهندسين الانكليز والفرنسويين اذ كانوا مجهّزين بالادوات المضبوطة لاتخاذ هذه الاقيسة وهم يُجيدون استعمالها

فدونك بعض امثلة لهذه القياسات لتعرف ما بين الجغرافيين من التباين : ١ً توأمات نيحا . الحساب الشائع انّ علوّها ١٨٥٠ مترًا امّا دينر فانّهُ يحسب علوّها ١٧٨٠ م = ٢ً المضيق بين جبل الكنيسة وصنّين . تتراوح الاقيسة بين ١٧٥٧ م وهو عندنا الاصحّ و ١٥٠٠ م = ٣ً صنّين يجعل برتون علوّهُ ٢٧١٢ م وكيپرت ٢٧٥٠ م . والباقون ٢٦٠٨ م وهو الارجح = ٤ً جبل الارز اعلى شرفاتهِ القرنة السوداء ٣٣٦٠ م (عن ر. كيپرت) ثم تيارون ٣٢١٥ (عنهُ) وهي اقيسة بالغة لم تجدها في غير خارطة كيپرت . وقد سبق ذكر سندهِ في روايتهِ امّا اصحاب الخرائط الاخرى فانّهم جعلوا ٣٠٦٦ مترًا القياس أعلى مشارف الارز وهي ايضاً ارفع قمم لبنان . الّا انّ برتون قد زاد شيئاً على قياس اسلافهِ وهو مع ذلك لم يبلغ قياس كيپرت وليس لدينا داعٍ يحملنا على نبذ قياسات الأوّلين

وبعد هذه الملاحظة في اقيسة مشارف لبنان فلنواصلنَّ وصف الجبل . فانَّ جبل الارز شمالًا يهبط نحو ٨٠٠ م فتتّصل بهِ سلسلة جبل عكّار (٢١٣٩ م) وطولها ٤٠ كيلومترًا تنتهي شِعَبها الاخيرة عند وادي النهر الكبير الذي يحدّ لبنان في شمالهِ كما

يحدّهُ الليطاني في شرقهِ وجنوبهِ والعاصي في شمالهِ الغربي والبحر في غربيّهِ

ولوادي النهر الكبير شأن خطير في التاريخ والاقتصاد . فانّ الطبيعة نفسها قد اختطّت هذه الطريق فانّها الوحيدة من الاسكندرونة الى حيفا حيث يمكن قطع الجبل بسهولة . لانّ النهر وبقيّة العوامل الطبيعيّة قد بسطت في هذا المكان وادياً متّسعاً قليل الانحناء لا يتجاوز اعلاهُ ٥١٠ امتار . وفي طرفيهِ سهلان احدهما شرقي وهو وادي العاصي ينفذ من شمال سوريّة الى دمشق او سهل البقاع والآخر غربي ينفذ الى البحر . ولذلك قد اسرعت الامم فابتنت المدن العامرة على طرفي هذه الطريق الطبيعيّة فشيّدت شرقاً حمص او مدينة قدَس القديمة التي خلّفتها لاذقيّة لبنان . ومن جهة البحر بُنيَت سِيمِرَّة التي تعدّد ذكرها في مراسلات تلّ العمارنة ثم عَرْقة وارواد في الجزيرة المعروفة باسمها واخيرًا طرابلس . وقد نالت كل هذه المدن من الحضارة سهماً فائزًا لانّ طريق التجارة كانت تمرُّ بها منذ العصور الخالية . وان كانت طرابلس لم تزل حتى يومنا هذا مدينةً معتبرة وتزيد كل يوم ترقّياً فانّ الفضل في ذلك لموقعها في طرف هذه الطريق التجاريّة واذا ما اوصلتها يوماً السكّة الحديديّة بداخل البلاد وهو امرٌ قريب المنال كما رأيت اضحت مُجاريةً لبيروت تبارنها في تجارتها ونفوذها

*

هذا وممّا يستحقّ اعتبارًا في درس هيئة لبنان واحوالهِ الجغرافيّة صخورهُ التي يتركّب منها . فانّ هذه الصخور كما سبق القول اغلبها من المركبات الكلسيّة . والمعلوم انّ الحجارة الكلسيّة كثيرة التفتّت تعمل فيها العوامل الجوّية فتحلّلها ولذلك تراها منخورة متقطّعة ذات تخاريب وثقوب عديدة كأنّها الغربال . وبعض هذه الصخور متراكمة بعضها فوق البعض فيها الشقوق والتخاريم والشرفات يظنّها الناظر من بعيد انّها بقايا ابنية قديمة . واذا رقيتَ اعالي لبنان من علو ١٠٠٠ متر الى ١٥٠٠ م وجدت من هذه الصخور الغريبة ذات التخاريم والشرفات ما يزيدك اندهالًا خصوصاً قرب افقا وريفون وعجلتون ومزرعة كفرذبيان وتنّورين . وهي قليلة تحت علو ١٠٠٠م واذا فرعتَ الجبل فوق علو ٢٠٠٠ متر لا تجد منها شيئاً لانّ البرد الذي لا يزال في اكثر السنة قياسهُ تحت الصفر لا يحلل الصخر بل ينفذ في قلبها ويشقّها شقّاً فترى قِطَعها تعمُّ كل قمم الجبل حتى انها في بعض الامكنة تتراكم كأنّ السائر في وسطها يجري في مقطع

من الحجارة

وكذلك للصاعقة في هذه القُنن فعلٌ انوارد الانواء في اعالي الجبل . والصاعقة فضلًا عن ضرباتها وسحقها للصخور تحرّك الريح والهواء بتموّجاتها فتدوي لها الاودية وتتأثر منها جوف الجبال فتنخسف او تتساقط . واذا اضفت الى عمل الصواعق فعل الزلازل وفعل المياه في سيلانها فهمتَ كيف يندكُّ الجبل اندكاكاً ويتقوّض فتنحدر جنادلهُ الى الاعماق جارفةً في مسيرها التربة والنبات

فكل هذه العوامل للخراب تقرّب الى الفهم رأيَ العلّامة دينر في تركيب لبنان (١ حيث يقول انّ علو لبنان كان في الاعصار السالفة السابقة لعهد التاريخ اعلى منهُ اليوم بنحو ٣٠٠ متر فلم تزل دواعي الدمار تسحوهُ وتجرف تربتهُ الى السهول حتى صار على ما هو اليوم . وهذا امر محتمل فافترض انّ في كلّ جيل تجرف عوامل الطبيعة خمسة امتار من رأس الجبال فلا يلبث ان يصحّ حساب دينر . وان كان هذا القول صواباً ادركنا صحّة قول الأقدمين بان جبلنا كان سابقاً متوّجاً بثلوج مخلّدة فدُعي لهذا السبب بلبنان اي الجبل الابيض

ومن مفاعيل هذه الجروف المائيّة المغاورُ والكهوف التي يمتاز بها لبنان . فانّ الطبقات الكلسيّة الافقيّة الشكل او المنحرفة انحرافاً خفيفاً كثيرة في الجبل يعترض بينها شقوق او اقسام مختلفة التركيب والصلابة بينها قطع سريعة التفتّت وشيكة الانحلال . فاذا جاءت العوامل الخارجيّة جرفت الاقسام الضعيفة الباطنيّة وتركت الطبقة الكلسيّة العُليا فاضحت الصخور على شبه السَّقف . وهكذا كانت قديماً تلك المآوي الاوّليّة التي كان يسكن تحت ظلّها السكّان الاقدمون . وبعض هذه المغاور قد احتفرتها عوامل الجوّ والمياه معاً اذ تسرّبت الى باطن الصخور فأتكلَتْ قسماً منها وتركت وسطها خلوّا على صور اغوار واسعة وكان للبعض منها مداخل طبيعيّة ضيقة فنبعت المياه من داخلها فوسّعتها وجعلت لها دهاليز . كما ترى مغارة انطلياس العليا المعروفة بمغارة البلّاني وكمغارتي نهر الكلب اللّتين نضبت اليوم مياههما ولا يزال حتى الآن يظهر فيهما اثر الماء

وكثرة هذه المغاور القديمة مكّن قبائل عديدة من سكنى لبنان في الاعصار الخالية

١) راجع كتابهُ Libanon, p. 384-385

كما اثبت ذلك الاب زُموفن في المشرق (١ : ٩٧ و ٣٥٣) . ومن هذه الكهوف الطبيعيَّة ما اصلحهُ الناس وزادوا في توسيعهِ امَّا ليتخذوهُ مدافن لموتاهم وامَّا ليأووا اليهِ مع قطعانهم او ليسكنوهُ زهدًا كما ترى في مغاور الفرزل وعدلون وهرمل (راجع ج ١ ص١٠٩) . وربَّما اضافوا اليهِ البنايات العظيمة فصارت هذه المغاور كقسم من اديار الرهبان كما ترى في قزحيَّا وقنُّوبين . ومنها ما زيد في تحصينهِ فاضحى كالقلاع المنيعة مثل قلعة نيحا الشهيرة في تاريخ القرون المتوسّطة باسم شقيف تيرون . وهي عبارة عن صخر قائم عموديًّا على علوّ ٣٠٠ متر . وفي وسطهِ كانت عدَّة كهوف وسَّعها البنَّاؤون فسكنها الجند ولا يبلغ الصاعد هذه المغاورَ الَّا بمرقى صعب الارتقاء . وفي هذه القلعة تحصَّن الامير فخر الدين المعنيّ في القرن السابع عشر كما ورد في تاريخ لبنان . وقد وجدنا في هذا المكان كتابة على اسم الملك الظاهر بيبرس بعد ان انتزعهُ من ايدي الفرنج

وكذلك تُنسب الى جرف المياه الجسور الطبيعيَّة التي في لبنان . فانَّ للمياه المتجمعة سورةً تمكّنها من كل الحواجز التي تلقاها في سبيلها ما لم تجد طريقًا اخرى لتحيد عنها . فتراها تصدم الصخور وتنخرها في اقسامها الاقلّ صلابةً فتفتح لها مجرى يتَّسع يومًا بعد يوم حتى تجري في مسيلٍ واسع وتبقى الصخور الصلبة فوقها على شبهِ جسر طبيعيّ . وطبقات هذه الجسور التحتانيَّة كثيرًا ما تسقط لضعف دعائمها التي تجرفها المياه ولتسلُّط العوامل الجوّيَّة عليها . وهكذا ذهب الزمان بقسم من تلك المعابر الطبيعيَّة التي كانت تجمع بين معاطف اودية لبنان وتجري فيها السيول الجارفة . وانَّما بقي منها بعضها الآخر

فمن هذه الجسور معبر طبيعي ليس بمعتبر عند العاقورة وهو عبارة عن صخور ثقبتها سيول المياه على شبه القبَّة . واعظم منهُ شأنًا الجسر القريب من نبع اللبن المعروف بجسر الحجر تراه فوق الميل كالقوس العظيمة وهو يحلّق على علوّ ٦٠ مترًا وطولهُ ٣٠م في عرض خمسة امتار . ومن نظر اليهِ عدَّهُ طرفةً من طُرَف الدهر قد شادتهُ الطبيعة وجعلتهُ كآية من آياتها التي تسبي القلب بعظمها وحسن صنعها . وفيهِ من التناسب والاحكام ما حمل بعض الكتبة على ان يزعموا بان ايدي البشر ساعدت على تركيبهِ . وهو قول بعيد

ثم يوجد جسر طبيعي ثالث على منعطف لبنان الشرقيّ يمتدُّ فوق وادي الليطاني الزهي وموقعهُ على بعد نصف الساعة غرباً من قرية يحمور في وسط الطريق بين جزين وحصبيًا . وهو حتى اليوم معبر للسابلة بين القريتين . يدعونهُ جسر القوّة . ونهر الليطاني يسيل تحتهُ على عمق نحو ١٠٠ قدم وطولهُ ٢٢ قدماً ومعظم عرضه ٦٨ قدماً ثم يضيق الى تسعة اقدام . وتعلو هذا الجسرَ طبقةٌ من التربة تنبت فيها الاعشاب والدّغل

ولنختم هذا الباب بذكر النقطة التي عندها تنتهي المساكن . وهو خطّ يصعب تحديدهُ لقلّة الاقيسة القانونيّة الدالّة على علوّ الضياع والقرى . ثم انَّ هذا الخطّ يختلف مع اختلاف احوال الجوّ فانَّ لبعض الامكنة موقعاً حسنًا يصونها من هبوب الرياح فيمكنها ان تشاد في معالي الجبل ولولا حُسن موقعها لما امكن الاهلين سكناها . وفي اوربّة قائمة السكّان الذين يبيتون في القرى فوق ١٢٠٠ متر لا تتجاوز ٣٠,٠٠٠ نسمة . امّا لبنان فان القرى التي فوق هذا العلوّ متعدّدة كبسكنتا مثلًا (علوّها ١٤٣٠ متر) وعين صوفر (١٣٠٠ م) والعاقورة (١٤٠٠ م) . واقل منها الضياع التي فوق ١٥٠٠ م وهي عيناتا (نحو ١٧٥٠ م) واليمّونة (نحو ١٥٤٠ م) وعزرته قرية صغيرة شمالي غربي زحلة (١٥٤٠ م) (١ . وفي الجبّة قرى عديدة علوّها قريب من ١٥٠٠ م كاهدن وبشرّاي والحدث . امّا فوق علوّ ١٨٠٠ متر فلا تجد الّا اكواخاً ومآوي للرعاة وربّما اختلف الكتبة في تعيين العلوّ لاختلاف مواقع اقيستهم في القرية نفسها . ومن المعلوم انَّ بعض القرى تشغل في الجبل نحو ١٠٠ م بين اسفل دورها واعلاها

امّا النقطة التي ينبت فيها النبات فهي كما لا يخفى اعلى من نقطة المساكن البشريّة فانَّ بعض مزارع لبنان موقعها على علوّ ١٨٠٠ م بل ٢٠٠٠ الّا انَّ هذه المزدرعات الاخيرة لا تكون الّا في الاودية والاغوار التي هي بمعزل عن الرياح . وترى في هذا الارتفاع شجر البلوط العادي الكبير الاثمار وشجر البطم البرّي والشوح والخوخ البرّي . ولبعض شجر العرعر ضِخَم عظيم وطول باسق . واشهر اشجار لبنان الارز الذي موقعهُ على علو ١٩٢٥ م

---

١) يزعم لورته في كتابهِ سورية الحالية (ص٦٣٤) انَّ علوّ عيناتا ١٨٠٠ م وعلو اليمّونة ١٦٥٠ م لكنَّ هذه اقوال تخمينيّة لا يُستند اليها . ويجعل كيپرت علوّ عيناتا ١٦٨٠ م واليمّونة ١٤٤٠ م وهذا دون القياسات المقبولة . (راجع مقالة للاستاذ الاميركي وست (PEF, l. c., West

١٠

مياه لبنان ورسم مجاريها

ليس هذه المرّة الاولى نبحث عن مجاري المياه في لبنان . فانّنا في كلامنا عن عين افقا (راجع ج ١ ص ٥٠) ألمعنا الى هذا الامر . لكنّ خطر الموضوع يحدو بنا الى ان نخصّص لهُ فصلًا اوسع مهّد اليهِ العقول رَسْمُنا لأَنجاد لبنان واغوارهِ . وليس بحثنا الحاضر جغرافيًّا محضاً بل عمليًّا ايضاً واقتصاديًّا . فان المياه في البلاد الحارَّة من اعظم عوامل الاقتصاد كما سترى . ودرسُنا هذا لِمَّا يساعد على بيان النظام العجيب الذي وضعهُ تعالى في الطبيعة لموازنة قواها . ولولا ذلك لظنّ الناس انّ هذه الجبال الشاهقة رُبَّما كانت كحاجز يعوق المواصلات بين الاهلين او اعتبروا هذه مجاري المياه التي تندفع احيانًا كسيول جارفة طامية حدودًا لنشاطهم ودمارًا لاعمالهم . ولو تروَّوا لأَدركوا ان الجبال والمياه معاً أحرى بان تُنظم بين العوامل المساعدة للمرء اللهمّ اذا عرف ان يستخدمها لصوالحهِ

وبحثُنا هذا يتناول ثلاثة فصول : اولًا رسم عيون لبنان ثم رسم انهارهِ واخيرًا رسم المياه والشواطئ البحريّة

١ رسم عيون لبنان

نقسم هذا الفصل ايضاً الى ثلاثة ابواب فنبيّن كيف تكوَّنت هذه العيون في لبنان ثم نعدّد صنوفها المختلفة ونختم بذكر الجداول السارية في اسراب الجبل

١

كيف تكوَّنت عيون لبنان

تصدر عيون لبنان من مياه السماء التي تجود بها الطبيعة على بلادنا فتغمرها بها امَّا بهبوط الامطار الغزيرة وامَّا بخزائن الثلوج المكتنزة في اعالي الجبل كما سبق . والارض ترتوي من هذه المياه الغائرة في كبدها فتتشرَّبها لقابليّة ترشّحها ولولا ذلك لانحدرت هذه المياه زاخرةً كالسيول الجاحفة في ابَّان العواصف والامطار الفائضة ودفعت في مسيرها التربة بل سحفت الحصى واقتلعت الحجارة فقلبت البلاد ظهرًا لبطن حتى انَّها

في بعض الاحيان تغيّر بزمن قليل صورة الامكنة ووَضعها الجيولوجيّ . وليس كذلك والحمدُ لله عمل المياه الداخلة الى قلب الارض فانّها اذا نفذت في باطن التربة صفت وتخلَّصت من كل الاجسام الغريبة التي اجتذبتها ثم تروق بالتدريج وتأخذ من الطبقات التي تجتازها حوارتها وتحلِّل ما تجد فيها من الاملاح القابلة التحليل ولا تزال تتحدَّر وتنضب الى ان تبلغ طبقات الارض التي لا تخرقها المياه فتسيح فوقها حتى اذا وجدت لها منفذاً تبجَّست منهُ عيوناً

ونفوذ الامطار في بطن الارض يجري على طرائق شتَّى على اختلاف طبيعة التربة فاذا كانت الارض نباتيَّة لا يبلغ الماء اعماقها لاسيَّما اذا سحَّ المطر ونزل شآبيب وكان وجهُ الارض مع ذلك مائلاً بحيث يسهل السيلان . ومن عادة التربة الزراعيَّة المتركبة من بقايا النبات والحيوان ان تمتصَّ كميَّة عظيمة من المياه لتغذي بها النبات . فترى من ثم عظم شأن التربة الزراعيَّة في الفلاحة . وممَّا تغور فيهِ المياه بسهولةٍ الطبقات الرمليَّة المختلطة بالحصى . وليس الحوَّارى والصلصال كذلك فان الماء لا يخرقها للزوجتها وانضمام اقسامها فيجتمع فوقها امَّا في الاسراب او في المستنقعات على وجه الارض ويُلحق بالنبات ضرراً لتراكمهِ في بعض الامكنة ونقصانهِ في أُخرى

امَّا النبات فقد دلَّ المسيو اليزاي روكلو على عماهِ بالنسبة الى الندوَّة . فانهُ بعد اخذهِ نصيبهُ من الماء المنحدر من الغمام يساعد على نفوذ ما فضل عنهُ الى اعماق الارض. فاوراق الاشجار مثلاً تخفّف وطأة سقوطهِ بان تصبَّهُ نقطةً نقطةً على الارض فتبتلّ بهِ وتتشرَّبهُ شيئاً فشيئاً بينما ينحدر قسمٌ آخر من ماء المطر على ساق الشجرة وجذورها فيدخل توًّا في اعماق الارض . وقد لحظ الطبيعيُّون انَّ الخَلَى واصناف النبات التي تنمو فوق الجبال اذا سقطت عليها الامطار او الثلوج رَويتْ ندوَّةً وانتفخت كالاسفنج فخزنت في مطاوي تجعُّداتها ماءً كثيراً تنال منهُ التربة حظَّها بعد نضوب طراوتها . وفي بعض جبال اسكوسية وارلندة عدد لا يحصى من هذه النباتات يبلغ الماء المخزون في خلال اوراقها واغصانها آلاف الوف من طنَّات الماء (١ . ومن هنا تعلم سوء عقبى رِعْية المعز في الجبال فانها آفة للنبات وهي ليس فقط تجرّدها من خضرتها التي تزينها ولكن تحرمها من الندى والرطوبة التي تحتاج اليها بلادنا الحارَّة

١) راجع كتاب الارض لروكلو Reclus : *La Terre*, I, 300

هذا والصخور عينها تمتصُّ كالتربة العادية كميَّات من الماء تختلف على اختلاف شقوقها وتباعد دقائقها. لا يخرج عن هذا الحكم الَّا حجر الصوَّان المانع وليس منهُ شيء في ابنان . وجبلنا على عكس ذلك يتركَّب اجمالًا من حجارة كلسيَّة كثيرة النخور والثقوب تنفذ فيها الامطار كما في غربال . وتحت هذه الصخور عادةً طبقات من الصلصال لا ينفذ فيها الماء سهلًا فاذا اجاز اليها الماء نضَّ قليلًا ونشأ منهُ جداول تجري على حسب ميل طبقات الصلصال واختلاف هيئتها بعمل المياه الى ان تجد منفذًا تسيل منهُ الى الخارج . والمياه التي تنحدر هكذا فوق الصخور الكلسيَّة ومنها الى الاراضي الصلصاليَّة هي اوفر بالاجمال من سواها لطول مسيرها في باطن الارض الذي ربَّما بلغ مئات من الاميال فتَرِدُها على مدى سيرها المياه المتحلّبة اليها . ومثال هذه الينابيع عين انطلياس وعين نهر الكلب في جعيتا فان اكثر مياه مديريَّة القاطع تجري من الاولى كما انَّ معظم مياه كسروان الاسفل تجري من الثانية . ومن هذا الوجه يصحّ قول الجيولوجيّين عن وفرة هاتين العينين وعن يبوسة المعاملات الواقعة تحتهما

٢

اختلاف عيون لبنان

يختلف موقع هذه العيون حسب اختلاف الصخور التي تهبط عليها مياه الامطار. فترى بعضها بعيدة جدًّا من مهبط الغيوث والبعض الآخر ينبع تُحَيت الامكنة التي نزلت فيها هذه المياه. ففي لبنان عيون لا تبعد سوى بضعة امتار من قمَّة الجبل او نجودهِ . وهي نزرة المياه لقلَّة المساحة التي تجمع ماءها وقصر مسيلها في بطن الارض

اما العيون الغزيرة المياه فانَّها تنبجس خصوصاً في الاودية عند حفف الجبال او في وسط الاباطح الواقعة تحت سلسلة جبليَّة فمثال الاولى عيون العاصي الفائضة في سفح جبل هرمل وعيون نهر بيروت ونهر انطلياس ونهر الكلب السائلة في حفف لبنان اما مثال الثانية التي تتفجَّر في وسط السلسلة الجبليَّة عند وطإِ المشارف الثانويَّة فالانهارُ الجارية في اوسط لبنان كنهر قديشا تحت جبل الارز ونهر ابراهيم تحت جبل منيطرة

ونهر دامور تحت عين زحلتا وكنهري الاوّلي والزهرانيّ فانّ كل هذه العيون تتبجّس في سفوح الجبال اللاحقة بالسلسلة الاصليَّة التي يرتوي سطحُها الكلسي من مياه الثلوج والامطار الشتويّة فتضحي كخزّان لا تَنفَد منهُ المياه التي تسيل الى ان تبلغ طبقةً من الصخر الرمليّ الصلب يُدعى بُرْقةً (grès) لا يمكنها اجتيازها فتفتح لها سبيلًا وتسيح على ظهر الارض (١ . ومن اعتبر مساحة الجبل الذي يخزن في صخورهِ وارضهِ القاحلة كلّ هذه الكمية من الندوّة وهو اشبه بصفاة واسعة الجوانب بعيدة الغور لا يكاد يتعجَّب من وفرة المياه التي تجري بالعيون اللبنانيَّة

فترى من هذا الوصف صدق ما كرَّرناهُ غير مرَّة وهو انّ لبنان كحوض يكتنز في احشائهِ تلك الانهار الكبيرة وخصوصاً العاصي التي تحيي مياههُ بلاد سوريّة وتغنيها عما تجديها من المرافق المتنوّعة . ومع صحَّة هذا القول تجد انحاء عديدة من لبنان في حاجة ماسَّة الى المياه كجهات البترون والشوف مثلًا . وخصوصاً بعض العاملات السُّفلى التي تفتقر الى الماء لا يشرب اهلها الَّا من الآبار . والعيون في بعض هذه الايالات لا تتجاوز عدد الاصابع كما في جهات البترون والغرب التي لم تحظَ بنصيب صالح منها

وان سأل القارئ وما سبب هذا الاختلاف اجبناهُ انهُ ناشئ عن تركيب لبنان الاصليّ فانّ بين نواحي تنّورين وحصرون وبشرَّاي واهدن المتركبة من الصخور الكلسيَّة وبين بقيَّة القائمقاميَّة المتركّبة من الصخور عينها قطعةً مستطيلة من البُرْقة ذات الصخور الرمليَّة الصلبة التي لا ينفذ فيها الماء فاذا بلغت المجاري فوجدت امامها هذا الحاجز اندحرت الى الجهات التي تعلوها فتنفجر فيها او نفذت في باطن الارض فتجري في اسرابها وتنصبُّ في البحر كما سيأتي . وما نقولهُ عن هذه الجهات قد تحقَّق بالبحث الجيولوجي وتراهُ مثبتاً بالمقابلة في نواحي الشوف حيث تجد ايضاً تحت قشرة الارض العليا طبقةً من الصلصال والحوَّارى لا تخرقها المياه (٢ . وهي حالة يصعب اصلاحها ومن ثمَّ فعلى اهل تلك النواحي ان لا يصدّقوا بسهولة اقوال بعض القناقن او بالاحرى المشعوذين الذين يدَّعون بمعرفة المياه التي تحت الارض

١) راجع كتاب العلّامة دينر (Diener, p. 129) وخارطتهُ الجيولوجية للبنان

٢) راجع الخارطة الجيولوجيَّة التي رسمها الاب زُموفن اليسوعي في كتابهِ المعنون « صفة لبنان الجيولوية » (Esquisse géologique du Liban)

واعلم انَّ ما يمكن قولهُ اجمالًا انَّ كميَّة المياه الجارية من العيون تختلف على اختلاف غزارة الامطار . بل ترى بعضها لا يظهر الَّا في فصول السنين الكثيرة الامطار

امَّا العيون الثابت جريها فان كميَّة مائها ليس بثابت . وكلٌّ يعلم انَّ لبعض هذه العيون منافذ ثانويَّة (estavelles) متعدّدة هي فوق المنبع الاصليّ بل تبعد عنهُ احياناً مسافة تُذكر وتنفتح عند تواتر الامطار واذا صار الصيف بقي المنبع الاصليّ وحدهُ فتكون هذه المنافذ كمصارع تخفّف سورة المياه على العين الاصليَّة كما ترى ذلك شتاء في وادي نهر انطلياس بين العين الحالية ومغارة البلاني

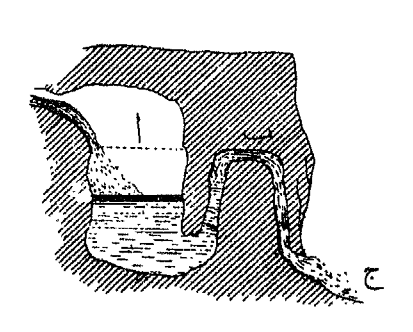
وما نقولهُ عن هذه المنافذ يمكن قولهُ عن بعض المغاور التي كانت المياه تجري فيها سابقاً كمغارة انطلياس مثلًا المعروفة بالبلّاني التي موقعها نحو عشر دقائق فوق المنبع الكبير فانَّ هذه المغارة راقية الى الطور السابق للتاريخ وآثار المياه فيها ظاهرة على حضيضها وجدرانها وربما يُرى في وسطها من الحصى المصقولة باحتكاك المياه . والمرجَّح ان قسماً من الصخور في باطن المغارة انخسفت فسدَّت مؤخر الفوهة القديمة التي كانت تسيل منها المياه . وذلك في اعصار قديمة جدًّا لانَّ هذه المغارة صارت بعدئذٍ مأوًى لاهل لبنان الاوَّلين كما اثبت ذلك حضرة الاب زُموفن في المشرق (١ : ٩٧) . وكذلك مغارتا نهر الكلب العُليَوَين . ولعلَّ اجمل هذه الاغوار المائيَّة مغارة نهر بيروت وهي على مسافة ساعة من منبع النهر الحالي . وعلو موقعها يصدُّ عن التوقُّل اليها ولكن ترى عند مدخلها آثار المياه القديمة . والتقليد الشائع عند اهل تلك الجهات انَّ هذه قناة او سرب يتَّصل بدير القلعة وهو زعمٌ مردود . وكذلك اخيرًا مغارة افقا العليا فانها منفذ ثانويّ تسيل منهُ المياه في وقت الفصول الكثيرة الامطار

هذا وانهُ ليصعب احياناً بيان العلاقة الموجودة بين العين الاصليَّة والمنافذ الثانويّة التي تجري على مسافات تختلف عن بعضها بعدًا . كما انهُ لا يسهل ادراك سرّ اتّصال عينين احداهما متواصلة الماء والاخرى متقطّعتهُ

وقد ظهر في ما سبق انَّ كميَّة الماء التي تجري مع عيون لبنان لعظيمة جدًّا وقد قاس منها الجيولوجي فراس (Fraas) ما يبلغ في الثانية اربعين قدماً مكعباً . فعين

جزين التي يتجاوزها غيرها في غزارتها تصبُّ في الثانية ٣٩٠ ليترًا . ومن الامور المقرَّرة انَّ بعض ينابيع لبنان كانت سابقاً اغزر منها اليوم . فالتاريخ يخبر عن عين العرعر قرب بعبدات انها في عهد الرومان كانت تفي بحاجات مباني دير القلعة وهيكله ولذلك قد ابتنوا لها قناةً ترى آثارها الى زماننا مع انها في الوقت الحاضر نزرة المياه لا تحتاج الى قناة . امَّا في القرون الوسطى فلم تزل كثيرة المياه حتى ان الدويهيّ يدعوها نهرًا في تاريخ الطائفة المارونيَّة (ص ٩٨) . وزعم صالح بن يحيى في تاريخ بيروت (ص ١٢) أنَّها كانت تجري الى بيروت في قناةٍ . وهو امر لا يمكن اثباتهُ لكنهُ يبيّن غزارة هذه العين التي لا تكاد اليوم تحصى في عداد الينابيع اللبنانيَّة

وان سألتَ الآن عن درجة حرارة العيون في لبنان اجبناك انَّ العلماء لم يبحثوا في ذلك الَّا قليلًا . وما يقال اجمالًا انَّ حرارة المياه الجارية فوق علو الف متر هي دون حرارة الهواء المحدق بها (١ . والمياه على قدر طول مجراها تزيد درجة حرارتها الاصليَّة عند انبجاسها لأنَّها في مسيرها في الاسراب الباطنة الدافئة تأخذ من حرارتها . ولذلك ترى بعض العيون الغزيرة كنبع انطلياس ونبع نهر بيروت قليلة البرودة . فهذه الينابيع وان كانت تتركَّب من تحلُّب ثلوج لبنان تنقص برودتها لطول جريها في بطن الارض تحت سلسلة الجبل الى ان تنفذ الى الهواء فوق سطح البحر بقليل فتنصبُّ فيه . وهذا معدَّل درجات الحرارة لبعض عيون لبنان بالنسبة الى المقياس المئويّ: نبع جزّين ١٣° . وكذلك نهر الكلب ١٣° . نبع الباروك ١٠° . نبع افقا ٨° . نبع اللبن ٤,٥° . نبع العسل ٤°



وفي لبنان عيون كثيرة دَوْرِيَّة كما مرَّ في وصفنا لافقا وبحيرة اليمُّونة (راجع ج ١ ص ٤٦ و٤٩) . ومثلها نبع عرمتا في جبل الريحان ينقطع مرارًا في السنة لاسيَّما في الربيع فترى مياههُ تزيد وتنقص كل نصف الساعة وربَّما انقطع تماماً ثم عاد الى جريهِ وسبب انقطاع

١) راجع كتاب رفيق المسافر Kaltbrunner: *Manuel du voyageur*, p. 388

المياه على هذه الصورة: انّ المياه بعد نضوبها واجتيازها في طبقات الجبل تبلغ الى حوض داخليّ ينفذ الى الخارج بمجرى على شكل المصّ (انظر الصورة ص ١٢٣) فاذا توفّرت امتلأ الحوض حتى يساوي سطحُ مائهِ الخطّ (ا) ثم يزيد ارتفاعهُ في المجرى المعقّف على حسب قاعدة مساواة المائعات في الاوعية المتصلة الى ان يبلغ اعلى نقطة من المصّ في (ب) فتجري الى (ج) وهو النبع وتسيل حتى تنقص المياه فيهبط سطحها الى فم المصّ الداخلي وينقطع الماء بغتةً ويدوم انقطاعهُ طول المدّة اللازمة لارتفاع سطح الماء في الحوض الى (ا) فتعود الى الجري وهلمّ جرًّا

ومن الينابيع ما يفور عند تفجُّرهِ كالنوفرة فيبلغ علوًّا مختلفًا في الهواء ونظن انّ لبنان لا يخلو من مثل هذه العيون وان لم يحضرنا الآن مثلٌ على ذلك . وفي نبع انطلياس تخرج المياه مزبدةً بينها شبه فوّارات تعلو نحو قدم فوق جملة المياه . وهذا يُرى ايضًا في عيون نهر العاصي في لحف جبل هرمل

امّا العيون الحارّة والمعدنيّة فانّ العلماء حتى اليوم لم يفردوا للبنان بحثًا فيها . وجملة ما يُقال انّ تركيبهُ الجيولوجيّ يدلُّ على انّها قليلة اللهمّ الّا بعض العيون الداخل فيها كميّات مختلفة من الحديد يمكن تمييزها بتلاوين مجاريها لان المياه الحديديّة تُسوّد مسيلها عند سيلانها بدقائق الحديد الداخل في تركيبها . امّا الينابيع الكلسيّة فكثيرة يرسب كلسها حولها او في مسيلها فيتحجّر ولا يزال يزيد حجماً حتى انهُ في بعض الامكنة يسدُّ المجرى تماماً

وهو السبب عينهُ الذي كوّن في بعض الكهوف والمغاور تلك الرسوبات الحجريّة التي تُرى على شبه العمد . فانّ المياه بتحلّبها من سقف المغارة تترك بعض دقائقها الكلسيّة في الصخر فاذا توالت هذه القطرات زمناً مديدًا زاد التحجّر على شبه اساطين (stalactites) ثم انّ قطرات المياه بسقوطها على الحضيض تترك قسماً آخر من كلسها الباقي فيتحجّر الكلس ويرتفع على شبه الشموع (stalagmites) وربّما بلغ الاسطوان المتحدّر من علُ الشموعَ المرتفعة من اسفل فصار كلاهما كعمَد متواصلة (١ . وفي مغارة نهر الكلب من هذه التحجرات كثير تُرى في الغور الذي يدخلهُ عادةً الزوّار

١) راجع الجغرافي روكلو Elisée Reclus : *Les Continents*, p. 341

الّا انّها ابهى واجمل في قلب الجبل . وقد اخبر المهندسون الانكليز الذين نفذوا الى باطن مغارة جعيتا في ايلول من سنة ١٨٧٣ ثم سنة ١٨٩٦ انّهم عبروا مجازًا حرجاً طولهُ عشرون متراً قُضي عليهم لضيق الممرّ ان ينبطحوا على بطونهم ثم اجتازوا في احواضٍ ومجارٍ متوالية حتى بلغوا شبه غرفةٍ واسعة وجدوا سقفها مزيّناً بهذه الاساطين المتحجّرة البديعة المنظر امّا الحضيض فكان مرصّعاً باشكال العمد الغريبة الصورة

٣

مجاري المياه في الاسراب

تتمّةً لكلامنا السابق في عيون لبنان نذكر هنا شيئاً عن جداول المياه في اسراب لبنان لِما بين البحثين من العلاقة اذ انّ العيون لا تنبجس عادةً الّا بعد قطعها مسافةً في بطن الارض

سبق لنا القول عن وفرة مياه عيون لبنان . فانّ بعضها اذا برزت من مكانها جرت كانهار قادرة على حمل القوارب . ويكون تفجرها غالباً في امكنة قاحلة واودية كثيرة الصخور لا ترى حولها سوى الجنادل العالية والحجارة الصلدة فيؤثّر منظر مياهها الرائقة كالزلال في قلب الناظر اذا قابل بين صفائها ووحشة المكان فتراها تنفجر عيونًا كانها اسير حُلّت قيودهُ فنشط بحركاته وبرز من محبسهِ الى النور مسرعاً الى الشمس ليتجلبب بضيائها . واذا سارت من منبعها اخصبت ضفّتيها واحيت ما تمسّهُ من التربة فينبت النبات وينوّر الزهر وتمتدّ الاشجار باغصانها النضرة

فهذا رأس النبع في بيروت ومياههُ الغزيرة الّا انّ هذه المياه كما لا يخفى ليست بنات هذه الصخور الجامدة فلا بدَّ اذًا من البحث عن اصلها في اغوار الجبل الباطنة حيث تنفذ المياه المتحلّبة من الاعالي فتجتاز في الطبقات الكلسيّة كما بيّنّا ثم تتجمّع في الاحواض جاريةً . ومن الانهار ما يمدّ مسيلهُ في قلب الجبال مسافاتٍ بعيدة تبلغ نيّفاً و ٢٥ كيلومترًا منها مثلًا نهر سورغ (Sorgues) في فرنسة الذي ينفذ من حوض ڤوكلوز . وهكذا ايضاً جبل لبنان فانّ مياههُ تسيل في المجاري الداخليّة قبل بروزها الى النور كما ترى في نهري افقا والكلب المتفجّرَين من كهفهما

وما قلناهُ عن طول مجرى نهر الكلب يجوز تأويلهُ ايضاً عن مغارة افقا التي منها خاصّةً يسيل نهر ابراهيم فانَّ مدخلها في لحف صخور يبلغ ارتفاعها ٦٠٠ او ٧٠٠ متر لها منظر مهيب قلّ وجود مثلهِ في العالم على قول رينان والدكتور لورته · وللمغارة شُعَب عديدة ودهاليز فرعيّة يصعب عبورها لسعة أحواضها وكثرة مياهها · ولا يبعد يكون اتّصال بين هذه المغارة وبحيرة اليمّونة وليس بمستحيل وجود سرب طبيعي كهذا طولهُ اثنا عشر كيلومترًا

ويلحق بقولنا عن المياه الجارية في بطن الجبل مظهر آخر وهو غؤور بعض المياه في لبنان دون ان يبقى لها اثر والمرجَّح ان هذه المياه تتصل بالبحر فتنفذ فيهِ جاريةً بمجارٍ باطنة ومنها ما هو على قدر انهار غزيرة · وهذا امرٌ طالما لحظهُ الجيولوجيّون في السواحل البحريّة لاسيما التي تتركّب من صخور كلسيّة

ومن تتبّع ساحلنا الفينيقيّ وجد في بعض مواقعهِ عيوناً تنبع على سواحل سطح البحر وبقرب بيروت منها عين غريبة موقعها تحت كلية الاميركان لا يكتفي البعض من ان يشربوا من مائها بل يكرّمونها ويوقدون فيها الشمع تديّناً وينسبون اليها القوّات العجيبة وهي تُدعى عين المُرَيسة · ومنها عيون أُخرى فوق الجون الصغير المعروف بالمدوَّر حيث تنبع المياه ولا تزال تحفر الركائز التي اقامها المهندسون لسند السكّة الحديديّة المتّصلة بالمرفأ

وبعض هذه العيون تُرى آثارها في وسط البحر كعين ارواد الشهيرة التي تُرى قريباً من جزيرة ارواد · واهل تلك البلدة اذا صعب عليهم الوصول الى البرّ استقوا منها لشربهم · ولا ريب ان مياهها جارية اليها من جبل النصيريّة · ولو بحثنا لوجدنا غيرها في جوارنا اكثر منها عدداً لانّ مياه لبنان اغزر من مياه جبل النصيريّة · ولدينا مثال قريب منّا عند محطّة المعاملتين تزيد العين المدعوّة نبع مار يعقوب تُرى في البحر على بعد ٢٠٠ او ٣٠٠ متر من الساحل · واذا كان البحر هادياً لاحت فائرة في وسط الغمر وتبقى مياهها مدّةً دون ان تمتزج بمياه البحر · ولو بحث المهندسون على وجهة هذه المياه لامكنهم ان يفتحوا لها منفذاً في البرّ فيُغنوا بها الساحل ويسقوا بها المزروعات حيث تقلّ المياه

انّ قولنا السابق عن عيون لبنان ليس بمستوفٍ الّا انّهُ ينبّه القرّاء ويستدعي

نظرهم الى البحث في هذا الامر الخطير فيجدون فيهِ كفهرس لمباحث عديدة جديرة بهمّتهم . وليست هذه الابحاث نظريّة فقط بل عمليّة ايضاً كما رأيت في قولنا عن الينابيع البحريّة . ولو تفرّغ اصحاب المروءة الى هذا الامر لوجدوا وسائل متعدّدة تمكّنهم من مقاومة عدوّ بلادنا العظيم اعني جدب الارض والقحولة . فانّ حياة سوريّة متوقّفة على كثرة مياهها وحُسن تقسيمها . وهذا امر غاية في الخطر لترقّي الاقطار في اسباب العمران والاقتصاد والثروة . ولو وجد الاهلون مياهاً غزيرة لزادت همّتهم ونالوا من الغلال ضعف ما يحصلون عليهِ اليوم

لكنّنا نتأسف على قلّة العلماء الذين يتفرّغون لدرس المياه اللبنانيّة . ولا ترى في اوربّة بلدًا الّا وفيهِ كثير من الجيولوجيين الذين يخصّون المياه بنظرهم . وهذا عذرنا لديهم ان وجدوا كلامنا قصيرًا في هذه المادّة . وانّما املنا ان مقالتنا تستلفت انظار بعض الخواصّ فيعيرون بالًا هذا الامر الخطير بدلًا من سعيهم وراء امور اخرى لا طائل تحتها

١١

رسم المجاري النهرية في لبنان

١

افادات عموميّة

باي اسمٍ ندعو مجاري المياه في لبنان أندعوها انهارًا او جداول او سيولًا فقط . ذلك ليس بامرٍ سهل لولا انّ العادة قد غلبت على السن القوم فيدعون بالنهر مسيل المياه عموماً فيقولون نهر بيروت بل يقولون نهر انطلياس مع انّ مجراه لا يكاد يبلغ خمسة كيلومترات وسبب ذلك انّ العرب لم يعرفوا في جزيرتهم الّا المياه الجارية في بعض فصول السنة وخصّوا اسم النهر بتلك الاودية والمياه الجارية جرياً متواصلًا بلا انقطاع سواء تبلغ البحر او تنصبّ في نهر آخر (١

فما يبقى لنا سوى ان نجاري العادة المألوفة التي لا تخلو من سند كما اشار الى ذلك

---

١) وقد افرز كتبة الصليبيين بين هذين الصنفين فان غليموس الصوري يدعو باسم « rivus » كوادي المعاملتين وسمّى الانهار كنهر الكلب « fluvius »

الزاي روكلو في كتابهِ عن الارض حيث قال (ص ٣٥١) : انَّ كميَّة المياه التي تجري في مسيل دون آخر لأمرٍ عرضي يختلف في قارة دون أخرى وفي بلد دون بلد على مقتضى خطر مجمل المجاري المائيَّة فلو اعتبرتَ مثلاً بعض انهار اوربَّة وعارضتها بانهار اميركة كالامازون وما ينصبُّ فيه من الاودية لمَا استحقَّت بان تُدعى جداول . ثم انَّ كميَّة المياه ليست بثابتة بل تختلف على مدار السنة . وبعض الانهار التي كانت في سالف الازمنة على سعة نهر المسيسبي قد صارت بعد التقلُّبات الطارئة على سيَّارتنا « انهاراً بلا ماء » لانَّ للانهار كما للانسان حياةً فتنشأ وتزخر ثم تنقص وتتلاشى . اه

ولا ريب في انَّ الانهار اللبنانيَّة كانت في سالف الاعصار وعلى الاقلّ في الاطوار السابقة للتاريخ اعظم منها اليوم واكثر ماء . وكفى دليلاً على قولنا ان ننظر احواض هذه الانهر الفسيحة وسعة مسايلها القديمة . فانها تنبئ صريحاً باقتصار مجاري مياهها . وربَّما وُجدت في اعالي الاودية مغاور يعلو بعضها البعض كانت المياه تتبجَّس منها فمن فحص هذه الاغوار وسعتها وآثارها الباقية تحقَّق انَّ كميَّة المياه كانت اوفر منها اليوم

وما يُقال عن نقصان مياه الانهار اللبنانيَّة في الزمن السابق التاريخ يُرجّح ايضاً اثباتهُ على رأينا للقرون التاريخيَّة . والشاهد على صحَّة قولنا ما تراهُ من الحواجز وسدود الانهار التي تكوَّنت عند مصابّها في العهد التاريخيّ وكذلك السهول المجاورة لهذه المصابّ فانَّها تاريخيَّة العهد . وكانت هذه الانهر قديماً بعد خروجها من الوديان التي منها نبعت تبلغ البحر توًّا . وكان لا بدَّ لها لبلوغ البحر من كميَّة عظيمة من المياه ليمكنها ان تظفر بما تلقاهُ في وجهها من العوائق كمقاومة الامواج البحريَّة ومهبّ الرياح ورُكام الرمل الذي تنقلهُ السوافي

ولدينا ادلَّة اوضح على كثرة مياه بعض المجاري المائيَّة . انَّ قناة الرومانيين عند نبع نهر بيروت تدلُّ صريحاً على انَّ اصل هذا النبع كان ثمَّة في الاعصار الاولى لتاريخنا . وكذلك قد قاس العلماء كميَّة المياه التي كانت تجري منها فقدَّروها بمتر مكعَّب في الثانية وذلك دون ان يصيب المزدرعات اذًى من قلَّة السقي . امَّا اليوم فلو استقى البيروتيون كميَّة كهذه من ذاك النبع لفقدت السهول المجاورة ريَّها وجفَّت فلا بُدَّ اذن من القول بان مياه نهر ماغوراس وهو لقب نهر بيروت قديماً كانت اغزر منها اليوم

هذا ثم انّا اوردنا سابقاً (راجع ص ٩٨) قول اسطرابون بخصوص لبنان والجبل الشرقي وبيّنّا ان هذا الجغرافي الشهير وَهَم في تعيينهِ وِجْهة هذين الجبلين اذ زعم انهما يسيران من الغرب الى الشرق بدلاً من الشمال الى الجنوب وبينهما سهول البقاع التي أوصلها بالبحر وكان يحسب ان الاردن ونهر الكلب يجريان فيها . وأدّى بهِ وهمهُ هذا الى ان ظنّ بإمكان خوض نهر الكلب والسير عليهِ بالمراكب. ولعلّهُ يوجد حجّة لندافع بها عن قول اسطرابون وهي انّ مياه نهر الكلب كانت في سالف الاعصار اوفر منها في زماننا . وهذا ممّا يلوح من الطرق التي تُرى في مضيق نهر الكلب راكبة بعضها فوق البعض واقدمها طريق المصريين والاشوريين تعلو فوق الطريق الحاليّة نحو ثلاثين متراً . ثم جاء الرومان ففتحوا طريقاً اخرى تحت الاولى ببضعة امتار كان السابلة يجرون فيها الى زمن ترشيد العربات وهي ايضاً فوق سطح البحر بنحو عشرين متراً كما ترى في صورتنا . فليت شعري كيف يقال انّ القدماء اختاروا لهم طريقاً في هذا العلوّ لينقلوا اليها عُدَدهم الحربيّة وامتعتهم بعد العناء لولا ان يقال انّ مياه النهر كانت اغزر منها اليوم . وعليهِ فان كنّا لا نوافق اسطرابون في قولهِ عن خوض نهر الكلب (١ فلا بأس من القول بانّ طبقة مياه هذا النهر كانت اعلى منها في عهدنا وكميّتها اوفر . وزد على ذلك انّ سطح البحر قد انخفض بتمادي الاجيال كما سترى

وخلاصة الكلام انّنا لا نخالف الجمهور في تسمية مجاري المياه اللبنانيّة بالانهار وان شاء القرّاء امكنّا ان نقسمها قسمين الانهار الساحليّة والانهار البرّية . فالساحليّة ما كانت اوديتهــا محصورةً قليلة الاتساع واكثر انهار لبنان من هــذا الصنف الّا النهر الليطاني والنهر الكبير فيدخلان في حيز الانهار البرّية وهما ينبعان في اواسط البلاد ما وراء سلسلة لبنان العليا . ومن عاين خارطة لبنان تحقّق لاوّل وهلة ان هذا الجبل لا يحتمل لسير مياههِ مجاري كثيرة الاتساع طويلة المسافة . ولو نظر الناظر من علُ لما قاس بين ضلع لبنان المركزيّ وساحل البحر اكثر من ثلاثين كيلومتراً وكذلك في لحف الجبل لا ترى سهولاً فسيحة رحبة الارجاء يمكن الانهار ان تنساب فيها وتأخذ مداها في التعريج والتوريب كما انّ الاودية اللبنانيّة وكلّها على خطّ متساوٍ قائمة على

١) راجع تاريخ الفينيقيين (ص ٥٠) حيث فنّد بيتشان رأي اسطرابون

قطب الجبل لا تتحمّل اتّساعاً كبيراً . وفي الواقع انّ اكثر انهار لبنان سيول لا يتجاوز طولها بعض الاميال تندفع من اعالي الجبال دفعة واحدة الى البحر . وليس بينها نهر واحد يمكن القوارب فضلًا عن المراكب الجري عليهِ . وذلك لكثرة انحدار مسيلها او لما يتوسّطها من الصخور وهذا ما منع الملّاحين ان يخوضوا نهري الكبير والليطاني وكلاهما طويل المسير كثير الالتواء كأنّ الطبيعة اعدّتهما ليوصلا بين جهات قاصية (١

*

رُبّما اعتاص على الجغرافيين في وصف مجاري مياه البلاد ان يعيّنوا لكل حوضٍ النهر الاصلي الذي فيهِ تنصبُّ بقيّة المجاري المائيّة كانهار ثانويّة . وليس في وصف انهار لبنان مشكل كهذا لِمَا عرفنا من تركيب هذا الجبل ووجهتهِ . والانهار اللبنانيّة تشبه اجهزة عصبيّة قليلة الاشتباك تجمع كما في قناة مركزيّة الرطوبة التي تأتيها بها في فصول الشتاء الجداول الصغيرة الواقعة على جانبيها . امّا النهر الكبير الذي يسيل في وادٍ متسع لا في مضيق كغيرهِ من الانهار اللبنانيّة فلهُ سواعد تنصبُّ فيهِ اكبرهـا وادي خالد يكاد يساوي النهر الكبير بكثرة مياههِ حتى يبقى الناظر في ريب ايّ منهما هو الشِعْب الاعظم وعلى كل حال لا يُنكر ان نبع وادي خالد اقصى سواعد النهر الكبير جنوباً وابعدهـا من مصبّ هذا النهر في البحر . وكذلك نهر الليطاني فلانّهُ يسيل في وادي البقاع المتّسع تجد سواعدهُ الجارية اليهِ فسيحةً لمجراهـا وهي كلُّها بالنسبة اليهِ كمجارٍ ثانويّة اذ تنضمُّ اليهِ في المسيل المركزيّ . غـير انّ بعض كتبة العرب قد جعلوا عين جار كنبع نهر الليطاني . ومـا لا يُنكَر ان مياه نهر الزاعر الذي يجري من هذه العين اوفر من مياه الليطاني التي ينصبُّ فيها . ولكن قد وهم هؤلاء الكتبة بجعلهم عين جار كاصل الليطاني لوفرة مياهها بدلًا من النبع الأقصى . فانّ الانهار لا تُحدَّد بما يأتيها من السواعد بل بينابيعها الاصليّة القاصية . ولولا ذلك لعُدَّ نهر اليرموك كاصل نهر الاردن لغزارة مياههِ وهو يصبُّ فيهِ . وهـذا مذهب لا يسلّم به احد

واذا اعتبرنا هيئة مجاري الانهار في مسيرها وجدنا ايضاً ان هذا منوط بتركيب

(١ راجع ZDPV, XXVII, 69

الجبل فانّ المياه تجري حسب وجهة الاودية وتركيب الصخور . فلمّا كانت هـذه الاودية متساوية ومركّبـة من صخور كلسيّة لا تقوى على سورة المياه سارت الانهار فيها على خط مستقيم . واذا وجدتَ النهر يعرّج في سيرهِ فذلك دليل على اختـلاف طبقات المكان الجيولوجيّة كما ترى في اكواع انهار لبنـان الجنوبيّة كالدامور والاوّلي والزهراني فانّها بعد خروجها من بين الصخور الصلبة (grès cénomanien) تبلغ الجهات المركّبة من الصخور الكلسيّة السهلة الانحلال فتعـدل عن الجنوب مائلةً الى البحر . وهذا يظهر خصوصاً في نهر الاوّلي كما سترى

وهنا لا بدّ لنا من الفـات الانظار الى النتائج الوخيمة التي ادّى اليها تجريد لبنان من غاباته بحيث صار هذا الجبل اهلًا بالبوادي القاحلة المجدبة وهو حريٌّ بان يكون في سوريّة بمنزلة جبال الالپ في سويسرة . وذلك انّ مياه الامطار والثلوج بدلًا من ان تغور في التربة وتنفذ في جذور الشجر صارت تنحدر مسرعةً الى اسافل البلادوهي تجرف في سيرهـا ما امكنها من التربة والحجارة والصخور وربّما هبطت الى الاودية قطع كبيرة من الروابي والجبال بقوّة السيول والاعصارات . ثمّ توالت على الجبل آفةٌ أخرى وهي آفة المعزى والمواشي التي تقطع النبات او تقلع جذورهُ ففقد الجبل كل تربتهِ الزراعيّة وانتصبت صخورهُ المتجرّدة وانفتحت فيهِ الوهـاد العميقة المحجرة التي صارت مجازًا لسيول جاحفة لم تُرَ سابقًا . واضحى الماء آفةً للخراب بعـد ان كان نعمةً يخصب التربة ويغذي جذور الاشجار بالأملاح النافعة التي يحلّلها . وهكذا تُعلّل تلك الاعاصير الهائلة التي تصيب في كل شتاء بعض اقسام الجبل فتفسد المزدرعات وتهدم البيوت والطواحين وتخرب في يوم ما يُحصَل عليهِ بعد سنين من التعب . وذلك لانّ اصحاب الارزاق لم يحافظوا في جهلهم على الغابات وقطعوا اشجارها الثمينة بغيةً في الربح فعاد عليهم طمعهم وبالًا

فلملافاة هذه البوائق ليس من وسيلة انجع من نصب الاشجار فانهُ قـد ثبت بالتجربة ان مياه الامطار الساقطة على الغابات لا يسيل منها الّا ستة اعشارها فينفذ في الارض ويسيل منها سيلًا منظّماً . وكذلك من الوسائط المستعملة لملافاة اضرار الاعاصير وميـاه الفيضان الاحواض والقَنَوات لسقي الاراضي وتحريك الرحي

والآلات . فيصير بين الطبيعة والاعمال البشريّة كتبادل في الخِدَم . وانّما كل ذلك يذهب سدًى بخراب الغابات والاشجار

وكذلك يجب ان ننسب لتجريد لبنان من شجرهِ اتّساعَ مسيل بعض الانهار لاسيَّما في الجهات القريبة من السهول كما ترى في نهر بيروت ونهر الجوز . فانَّ المياه عند خروجها من مضيق واديها اذا قوبلت باتّساع مسيل النهر لا تكاد تبلغ القسم العشرين منهُ فلا ترى منها الّا جدولًا صغيرًا يجري بين الصخور المحطّمة وركام الحصى والرمل . وإنْ ذلك الّا ما جرفهُ النهر من اعالي الجبل في ايّام السيول الشتويّة . ولو كان الجبل مغروساً بالغابات لَمَا سحا بهذهِ التربة ولا زحف امام هذه الصخور بل لبقي في حدودهِ

وفي الانهار صخور قليلة الارتفاع تعترض المياه فتنحدر هذه منها مزبدةً فتلك الجنادل . والظاهر انَّ هذه الصخور شلّالات قديمة عملت فيها المياه حتى انتقصت بالاحتكاك . وفي انهار لبنان منها كثير لتحدُّر الاودية وميلها . امَّا الشلّالات العالية فقايلة اشهرها شلّالة جزّين علوُّها من سبعين الى ثمانين مترًا . وتقلُّ مياهها في الصيف حتى لا يبقى نسبة بين ارتفاعها وقلّة مائها . وفي نبع اللبن شلّالة أُخرى ومن خواصّها الغريبة انَّ المياه باحتكاك سطحها الذي تهبط منهُ قد تقهقرت نوعًا الى نبعها (١ . وعلى جانبي المياه جدران خرقتهما المياه فيمكن بتقدير ارتفاعهما قياس عمل المياه وتقهقرها مدَّة كرور الاعصار . وهذا شبه ما جرى لشلّالات نياغارا الشهيرة في اميركة

٢

المصابّ والسدود النهريَّة

وانَّ الانهار كما لا يخفى بقدر اقترابها من مصبّها تنقص مياهها إمَّا بالتبخُّر وامَّا بغيضها في قلب الارض فتبلغ البحر وكميَّة مياهها عندهُ اقلّ منها في مسيرها . وهذا الغالب على انهار لبنان لاسيَّما نهر بيروت ونهر الجوز والزهراني . ومما يُنقص مياهَ نهر بيروت ما يؤخذ منها لسقي المزروعات في السهل . اما نهر الجوز فانهُ في الصيف ينقطع جريهُ الى البحر

١) راجع صورتها في كتاب ابرس وغوته (Ebers et Guthe : *Palaestina*, II, 20)

والانهار اللبنانيّة كلّها اذا صبّت في البحر لا تتّسع ضفافها عند مصبّها بحيث يتركّب منها خلجان او جُوَن بل لا ترى لها اخوارًا صغيرة مستديرة . والسبب لذلك اوّلًا قلّة مياهها ثم خصوصًا خلوّ البحر المتوسّط من المدّ والجزر . والجوَن الواسعة تتكوّن بعمل الانهار والبحار معًا وذلك في البحار المفتوحة والسواحل المتعرّضة لقوّة المدّ والانواء فهي نادرة على سواحل سوريّة لا تثور الّا عند مهبّ الريح الشماليّة . ومعروف انّ كلّ مجاري مياه لبنان تصبّ في البحر غربًا فلا تجد الامواج البحريّة قوّة كافية لتوسيع مصبها وحفر قاعها

وليس عمل امواج البحر كعمل المجاري والمدّ في توسيع مصبّ الانهار. فان هذه الامواج تأتي من غمر البحر منفرجةً وتصدم الساحل على شكل زاوية حادّة فتقتلع منهُ حطامةً ثم تنقلهُ الى مصبّ الانهار مع ما تأتي بهِ الامواج من الرمل بسيرها المتوازي للساحل . فالمجرى النهري يميل بازاء هذه القوّة العجيبة وينعطف شيئًا فشيئًا ثم يتراكم في عرض مسيلهِ حاجز من الرمل موازٍ للمجرى البحريّ . وبعد مدّة تتكوّن عند الساحل شبه جزيرة ترى في احد جوانبها الساحل البحريّ وفي الجانب الآخر ضفّة النهر يفصلان الماء المالح عن الماء الحلو على مسافة عدّة اميال وهي تارةً تمتدّ وتارةً تتشعّب على حسبَ اختلاف الارياح والمجاري ومدّ البحر

وهذا اصل الحواجز المختلفة العظم من الحصى والرمل التي تُرى عند مصبّ الانهار اللبنانيّة . والنيل عند مصبّهِ في البحر ينقل اليهِ الوف الوف من طنّات الرمل والطين فاذا صار فصل الشتاء نقلت الريح الغربيّة هذا المحمول الى السواحل فيتراكم عندها وتزيد بها فرجتها . امّا الباقي فينتقل الى جهات الشمال وتستبدل ما رسب منها في طريقها بما تقتلعهُ الامواج من السواحل ثم تثور الرياح الغربيّة التي تهبّ على سواحلنا نحو مئتي يوم في كل سنة فتنقل هذه الموادّ الى مصابّ الانهار وتدحرها فيها ولولا معاكسة قوّة النهر المنحدر من مشارف الجبل لسدّتها تامًا . على انّ هذه القوّة المعاكسة هي دون قوّة البحر الذي لا يزال يقيم سورهُ الرمليّ في وجه النهر ويقوّيهِ . وقد لحظ القدماء هذه المظاهر فحسبوها نتيجة القتال الذي انتشب بين اله النهر واله

١) راجع ديوان الشاعر نونس (Dionysiaques, l., XLI-XLIII)

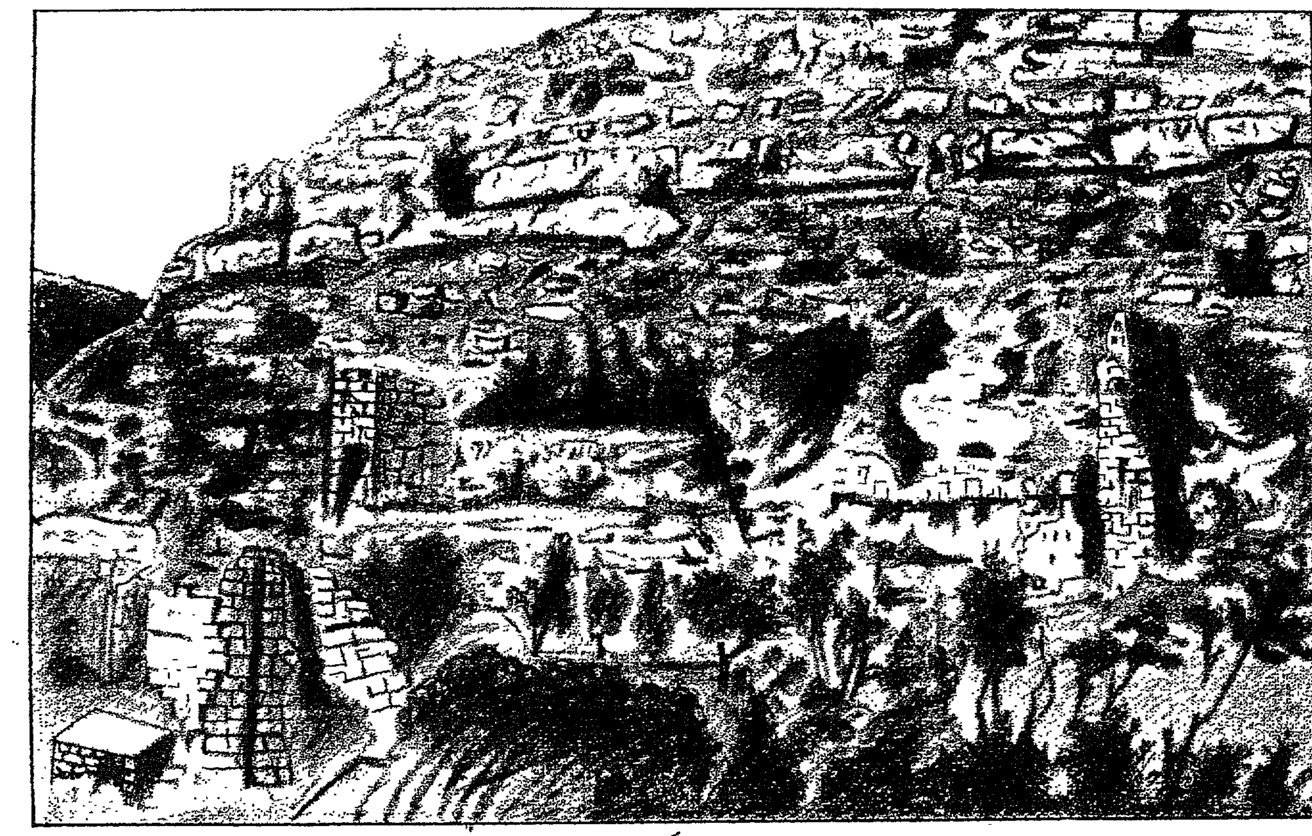
البحر المدعو بوسيدون اذ تراجما بالحجارة · ويذهبون الى ان الحصى المتكوّم عند مصبّ النهر هو كشاهد على هـذا القتال المزعوم · وكانوا يجعلون خصوصاً موقع هـذه الحرب عند مصبّ نهر الدامور حيث يُرى سدٌّ غريب الشكل من صغير الحجارة · وربّما ساعد البحرَ في عمله النهرُ نفسهُ بما يجرفهُ من الجبل من الطين وغيرهِ · نعم انّ هذه الحواجز غالباً ليّنة رخوة قليلة الثبات تغيّر هيئاتها السيول الشتويّة وتقسمها الى اقسام متعدّدة الّا انّ البحر الذي لا يزال سطحـهُ ثابت العلوّ يقوّي هذه السدود ويرصّها حتى يحصل من اجتماعها جزائر مثلّثة الزوايا كما ترى في الليطاني

واكثر ما يظهر عمل البحر على مصبّ الانهار عنـد نهر ابراهيم · فانك تجد بين ساحل البحر والجسر القديم مسافة ٥٠٠ متر وفي هذه الفسحة آكام رمليّة عليها بعض نباتات من القصب وشجيرات نحيفة ضاوية تدلّ على انَّ الفسحة تزيد متانةً وثباتاً · ومن اعتبر تركيبها وقف على عمل البحر كما انهُ يتبيّن فعل النهر في معاكسته · وعندنا انهُ لمن المرجّح كون البحر كان سابقاً يغمر الصخور التي فوقها بُني الجسر العربي القديم · وبقيّة السهل التي بين الجسر المذكور والبحر تتركّب من جرف مجـاري النهر والبحر المتعاكسة ولا ريب عندنا انّ مياه النهر كانت بعد خروجها من مضيق الوادي تنصبّ في البحر على خط مستقيم على مقتضى ميلهـا · اذ ليس ثمّة حواجز صخريّة او غير ذلك ممّا يعدل بها عن مسيرها والفسحة كلّها مركّبة من رمل وطين يسهل قطعهما · الّا انّ الرياح الغربيّة حملت هناك كميّة وافرة من الرمل أقامتها كربوة وعدلت بميـاه النهر نحو الجنوب فزاد مجرى نهر ابراهيم بتوالي الاعصار نحو الف مـتر · ولعلّهُ كان اطال مسيره جنوباً لولا ما يقوم في وجههِ من الصخور المنتصبة على البحر التي تضطرهُ ان يصبّ في الجون الذي هناك

امّا نهر الدامور فانّ جرف الرمال البحريّة والطين النهري قد تكوّم عند سدّهِ الجنوبي وارتفع هذا السدّ وتمكّن حتى مال بالنهر الى الشمال

ووجود هذه الحواجز يعمّ كل الانهار اللبنانيّة حتى انّ نهر الكلب نفسهُ لا يخلو منها رغماً عن موقعهِ بين الصخور · وهذا النهر يصبُّ توّاً في البحر عند رأس شمالي · امّا الضفّة الاخرى فلا تتّسع اكثر من مئة متر لمجرى المياه · فكان ينبغي للنهر ان يبلغ الساحل بكلّ قوّتهِ بعد خروجهِ من مسيلهِ الحرج فلا يميل يميناً او شمالاً ومع ذلك ترى





آثار القناة الرومانيّة عند نهر ابراهيم.

عند مصبّهِ سدّاً من الرمل متحدّباً من جهة البحر قائماً تحت الصخور الشماليّة متركباً من رسوب البحر وجرف النهر

٣

الانهار العاملة

انّ مـا سبق وصفهُ عن نهر ابراهيم والسهل المتكوّن عند مصبّهِ يقودنا الى الكلام عن « الانهار العاملة » كما سمّاهـا المؤرّخ هيرودوت متلطّفاً . ولا مشاحة فان للمياه الجارية عملًا متضاعفاً فانّها اذا مـا اخربت من جانب عمّرت من جانب آخر وما سحتهُ من احد الامكنة نقلتهُ الى محلّ غيرهِ حيث يرسب ويتراكم بقدر مـا حفر وجرف في مسيرهِ . وانّما جَرْف الانهار ودمارها اظهرُ للعيان واوقع في القلوب لانّ قسماً كبيراً من الموادّ الراسبة يخفى عن النظر في عمق البحار

والانهار اللبنانيّة من الانهار العاملة فانها استحقّت هذا الاسم بما واصلتهُ من العمل منذ قرون متعدّدة . كان البحر في الاجيال الغابرة يبلغ لحف الجبال فينطحها بامواجهِ المتلاطمة دون ان يتوسّط بينهما شيء من السهول بل لم يفصل بينهما حاجز من الرمل . فانْ تغيّرت هذه الحال فانما ذلك من فعل الانهار فهي هي التي اقتلعت من اعطاف الجبل ومنحدر الاودية تربتها وصخورها فدحرتها الى الخلجان والاخوار البحريّة التي كانت تُرى سابقاً عند لحف الرؤوس الجبليّة الداخلة في البحر فلم تزل تنقلها اليها حتى امتلأ قاعُها . وكانت الرياح الغربيّة تهبُّ في تلك الاثناء من جهة البحر فتهيج امواجهُ فكانت الامواج تندفع الى السواحل وهي حاملة موادّ ترابيّة وطيناً من النيل المصريّ ورملًا فتلقي احمالها في مدخل هذه الخلجان فاجتمع عمل الانهار والبحر معاً وتكوّنت بذلك بعد مئات من الاجيال تلك السدود المحدّبة والآكام القليلة الارتفاع التي قامت بعدئذٍ في وجه البحر وردّت صدماتهِ كما ترى في صورة نهر ابراهيم (انظر الصورة) الذي سبق عنهُ الكلام . ومن درس سهلهُ الذي لا يزال على مرأى منّا يتّسع يوماً بعد يوم ادرك بالنظر مـا جرى في سالف الزمان اذ كانت القوى الطبيعيّة مع العوامل الجوّية اشدّ فعلًا منها اليوم . امّا الانهار فجعلت هذه

السدود كمجنّ تعمل من ورائهِ عملًا متواصلًا ساحبةً من اعالي الجبال ما امكنها من الصخور والطين والحصى والتربة الزراعيَّة مغنيةً بها السهول · فليت شعري أَليس هذا عملًا متوازيًا يقوم مقام الخراب والعمران

فعلى هذا المنوال تكوَّنت شيئًا فشيئًا تلك المثلَّثات الساحليَّة التي تُرى عند مصبّ انهارنا والحقول الخصبة التي تمتدّ على ضفاف الانهار في جوار البحر · وهذا تاريخ السهول والحدائق التي تزين الساحل عند جونيه وصيداء والدامور · والتي في صحنها قامت قديمًا المدن الفينيقيَّة العامرة مع ما يُحدق بها من البساتين · وعلى الخصوص ساحل بيروت فانَّهُ ثمرة الانهار والسيول التي تجتاز في اوديتهِ كوادي الشويفات ووادي شحرور ونهر الموت ولاسيَّما نهر بيروت فانَّها كلّها اجتمعت فأتت بموادّها ووجدت في ضعف عملها ما يساعدها على اتمامهِ · امَّا سهل طرابلس فانهُ لسعتهِ ورحب جوانبهِ كان يقتضي عَمَلَةً انشط واقدر تواطأوا على الشغل واحسنوا العمل نخصّ بالذكر وادي بطرّان ونهر ابي علي والنهر البارد ونهر عكّار والنهر الكبير وهو اعظمها · وكذلك الصخور حيث اليوم اسكلة طرابلس المعروفة بالمينا ومـا حولها من الاراضي فإنْ هي الَّا سهل تركَّب من مجروفات نهر قاديشا وصار لاحقًا بالبرّ وانَّما كان في سالف الدهر جزيرةً منفصلة عن سلسلة الجُزُر البحريَّة التي تمتدّ اليوم مرفأ البلدة جنوبًا (١

وباجتماع هذه العوامل المائيَّة ومواصلة عملها على مدى الاجيال نشأَت هذه الواحة العجيبة المجاورة لطرابلس · ومن اعتبر تركيبها من الصلصال والموادّ الكلسيَّة المنحدرة من الجبل ودقَّق النظر في تربتها السوداء اللازجة وما تغلُّهُ تلك الانحاء من الحبوب مع مزدرعاتها الخصبة من الزيتون والنخل والتوت وقصب السكّر ادرك عظم شأن هذه المدينة وحسن موقعها الاقتصادي كما انهُ لا يتعجَّب ممَّا كتبهُ في شأنها الكتبة الفرنج في القرون المتوسّطة اذا اعتدُّوها كجنَّات عدن

(١) راجع وصف لبنان لدينر Diener : *Libanon*, p. 110 ثم مقالة الاستاذ هول Hull في المجلَّة الفلسطينيَّة الانكليزيَّة (PEF, 1885, p. 175) راجع ايضًا Ed. Hull Memoir of the physical Geology of Palestine, p. 75 وكتاب ه. بروتس H. Prutz : *Aus Phœnizien*, IX

وهي العوامل عينها التي شدّدت ساعدها واحسنت العمل في جوار بيروت · فانّ هذه المدينة كانت كطرابلس وصور وصيداء جزيرة صخريّة تعوم فوق المياه وكان البحر العجّاج يبسط ملكهُ فوق البرّ الذي ترى فيهِ اليوم غابة الصنوبر · فلمّا تحدَّرت السيول اللبنانيّة وملأَت هذا الغور بما سحتهُ من لبنان وساقت مجاري البحر قسماً من تربة مصر الى سواحلنا امتلأَ البوغاص الذي كان جنوبي غربي المدينة واتّصلت الجزيرة بالبرّ · ولنا شاهد حسيّ على فعل البحر اعني التّلعات الرمليّة التي جاءتنا من القارة الافريقيّة فنقلت على قول الشاعر لامرتين « الى لفح لبنان قطعةً من صحراء مصر »

وهذه الظواهر الطبيعيّة انّما هي نواميس مقرَّرة استلفتت اليها الانظار اربابُ وصف البلدان منذ زمن مديد· وليس ما حدث في سواحلنا الفينيقيّة سوى مثال مصغَّر لما حدث في الاصقاع المصريّة · فانّ مصر السُّفلى الى المثلَّث العظيم المعروف بالدّلتا لم يكن في عالم الوجود في غابر الايّام اذ كان بحرنا المتوسّط يمدّ مياههُ وسيطرتهُ على اسافل تلك البلاد الى سفح جبل المقطَّم حيث شيِّدت بعدئذٍ القاهرة

ولنا في تركيب شطّ العرب مثال آخر أقرب عهدًا في ازمنتنا التاريخيّة · فان العلماء بالآثار الاشوريّة يتّفقون على انّ اجتماع النهرين دجلة والفرات عند شطّ العرب انما هو حدَثٌ جرى على الأقلّ بعد الطور الاوّل من تاريخ بابل وانّ النهرين كانا يصبّان في بحر العجم كلٌّ بمفردهِ لكن مياههما لم تزل تنقل الرواسب التي تراكمت فمالت بسيرها الى أن التقيا في السير وجريا في مسيل واحد قبل ان ينصبّا في البحر(١ · وحتى اليوم اذا نظرت الى الطين المنقول بمياههما تحقّقتَ انّ ساحلهما يزداد كيلومترين اتساعاً بعد ثلاثة ارباع القرن · وقد ذكر البزاي روكلو (الارض ج ١ ص ٤٧٧) خلجاناً من الماء المالح صارت سهولاً بعد مدّة لا تتجاوز حياة الانسان وكذلك مسايل كان ينبت فيهِ الطحلب اضحت غابات فنواء

أَجل انّ سيول لبنان لا تشبه الّا عن البعد انهار افريقية وما بين النهرين لكنّ عملها ايضاً على قدر قوّتها فتؤلّف سهولاً قليلة الاتساع بالنسبة الى وادي النيل وسهول

١) وهو امر تنبّه لهُ قديمًا بلينوس الطبيعيّ (ك ٦ ف ٣١)

بلاد العراق (١ بيد انّ العوامل واحدة والعمل واحد مع اختلاف سعته وعظمه بحيث يمكننا تكرار ما سبق قوله بان لبنان افاد سوريّة كما افاد النيل ارض مصر

ولذلك ترى كتبة الاسفار المقدَّسة اذا ذكروا لبنان انطلق لسانهم على مدحه ·

قال ريتر (٢ : انّ بلاد فلسطين كلها تشخص بالنظر الى مشارف لبنان وحرمون المكلَّلة بالثلوج الغرّاء لانّ منهما تأتيها البركة والخصب واذا سمعت الفلّاح كما الراعي والقوّال كما النبيّ والمعلم كما الشاعر رأيتهم جميعاً يستميرون من هذه الجبال المباركة ابدع ما لديهم من التشابيه واجمل ما عندهم من الرموز »

*

وقبل ختامنا هذا الفصل في انهار لبنان لا بُدَّ ان نبيّن بوجيز الكلام ما لبعضها من الخواصّ بصفة حدود العاملات والايالات · فانّ منها وهو النادر ما يكون كثير المياه طويل المجرى كالنهر الكبير الذي يحدُّ فينيقية ويفصلها عن سوريّة بمعناها الحصري اعني بين سوريّة بطالسة مصر وسوريّة السلوقيين (٣ · ومثلهُ الليطاني الذي يحدُّ شمالاً بلاد فلسطين ويفصل بين نواحي صور وصيداء

ولكن أغلب الانهار اللبنانيّة التي تحدُّ العاملات انّما هي مجارٍ قليلة المياه وتجري في اودية عميقة تنتهي عند البحر بمضيق او رأس يقوم مقام القلعة · واحسن مثال على ذلك نهر الكلب فانهُ لم يكن حريًّا بان يُجعل من الحدود لقصر مجراه وقلّة عرضه الّا انّ مصبّهُ عند رأسٍ تُدافع عنهُ بسهولة شرذمةٌ من الجند فتردّ جيشاً عرمرماً جعل لهُ خطرًا عظيماً في كل الازمنة · وقد كان هذا النهر على عهد الفينيقيين حدًّا لاملاك بيروت في الشمال كما كان الدامور جنوبًا يفصلها عن املاك صيداء (٤ · واليوم

١) راجع ايضاً ما كتبهُ العلّامة كلرمون غانو عن تقدُّم نهر الاردن الى الجنوب واتساع مصبهِ في بحيرة لوط (RAO, V, 277-280

٢) Erdkunde, XV, 16

٣) اطلب بتشمان وهولشر · Pietschmann, *l. c.* 40 ; Hoelscher : *Palaestina in der persischen und hellen Zeit*, p.8

٤) وكذا كان على عهد الصليبيين يفصل الدامور ولاية بيروت عن ولاية صيداء (راجع كتاب راي في المستعمرات الفرنجيّة *Rey : Colonies franques, 509* (

ايضاً نهر الكلب من حدود لبنان يفصل قائمقامية المتن عن كسروان . وقد كان على عهد رعمسيس الثاني فاصلًا بين املاك المصريين في الشام واملاك الحثّيين . والنّصب الذي اقامهُ هذا الملك عند نهر الكلب انّما هو ذكرٌ ودليل معاً على حدود دولتهِ (١

ويوجد مجرًى آخر اصغر من الانهار السابقة مسيلًا واقلّ شأناً نريد بهِ جدول المعاملتين الذي اتّخذهُ القدماء ايضاً كاحد حدود البلاد . وفي عهد الفرنج كان الفاصل بين ايالة اورشليم وايالة طرابلس (٢ والسبب ان ضفّتهُ الشماليّة عند رأس حرج ضيّق المجاز لم يكن السير فيهِ الّا بنقر الصخور لجواز الطريق الساحليّة . وهناك اليوم برجٌ قديم دلالةً على ما كان لهُ من الاهميّة العسكريّة . وشمالي هذا الجدول تبتدئ بلاد طرابلس امّا جنوبهُ فيلحق ببيروت او بصيداء على حسب تقلّبات الدهر اذ ينتقل مركز الولاية الى بيروت او الى صيداء . ومن هذا اشتقّ اسم المعاملتين الذي هو قديم في التاريخ كما يشهد على ذلك الكتبة العرب والرحّالون (٣

ولنا هنا ملاحظة أخرى وهو انك لا ترى على ضفّة الانهار اللبنانيّة لا مدينة ولا قرية مهمّة (ZDPV, XXVII, 114) مثال ذلك حواضر فينيقية كصور وصيداء وبيروت وجبيل والبترون فكان حقيقاً بها ألّا تبعد عن هذه الانهار . ولعلّ السبب في ذلك ان في جوار هذه الانهار وعند مصبّها تكثر الامراض الوبيئة والحمّيات ويفسد الهواء . ثم انّ الفينيقيين كانوا تجارًا لا يُعنَون بالفلاحة والزراعة ومن ثم لم يختاروا لمدنهم السهول ومجاورة الانهار بل كانوا يفضّلون الرؤوس الداخلة في البحر والخلجان التي تصلح لمرافئ سفنهم حيث يسهل عليهم في حصونهم البحريّة ردّ هجمات العدوّ وركوب البحر وتأمن سفنهم من الرياح وتراكم الرمل ويسهل وسقها بالبضائع . وكلّ ذلك اوفى بالمرام عند الرؤوس الصخريّة . وما يدلّ على انهم احسنوا اختيار مواقع هذه المدن انها لا تزال في مراكزها القديمة مع ما طرأ عليها من التقلّبات العديدة وصروف الدهر . بل ترى بعضها تتقدّم كل يوم في معارج الفلاح

١) W. M. Müller, *Asien u. Europa*, 222 ; Schrader - Winckler, *Keilinschriften*, 184

٢) راجع المجلة الاسيويّة (١٩٠٣ ج ١ ص ٢٩٧)

٣) راجع اخبار الاعيان (ص ١٨)

١٢
مياه لبنان البحريَّة

كان يجمل بنا بعد ذكرنا ينابيع لبنان وانهارهِ ان نفرد بحثاً لبُحَيراته . الَّا انَّ البحيرات في لبنان غاية في الندرة . وقد سبق لنا وصف ما يُرى منها اعني بركة اليمُّونة وبركةً ثانية اصغر منها وهي بركة الزينيَّة [١] وقد اطلعنا منذ زمن قريب على بركة ثالثة قريبة من الزينيَّة لم نجد لها ذكرًا في الخرائط اللبنانيَّة تدعى رام الزينيَّة ولعلَّها فاتت الجغرافيين لقربها منها او لتشابه اسميهما

وان اردت ان تزورها فسِرْ من بركة الزينيَّة متوغلًا في الجبل نحو الجنوب فبعد ثُلثَي الساعة تبلغ الى وادٍ حرج لا منفذ لهُ الَّا من شمالهِ تحيط بهِ الجبال العالية فهناك رام الزينيَّة وهي على شكل دائرة اهليلجيَّة طولها ١٢٠٠ متر في عرض ٤٠٠ م ومياهها كدِرة متوحّلة تتكوَّن من ذوبان الثلوج المتوّجة للجبال التي تكتنفها فلا تسيل منها لعدم وجود منحدر تجري منهُ لانَّ الجهة الشماليَّة المفتوحة تعلو قليلًا عن سطح المياه فتمنعها من السيلان . امَّا قعر البحيرة فيتركَّب من حجارة كلسيَّة نخرة كطبقات لبنان العليا ولذلك لا يمسك المياه . فاذا وافى شهر تموز نضبت البحيرة ونشفت تماماً . وليس سمكٌ في هذه المياه وانما تُرى فيها الضفادع النانّة وبعض الحيَّات المائيَّة

*

وتتمَّة لدروسنا السابقة في مياه لبنان بقي علينا ان نبحث في مياههِ البحريَّة التي تمتدُّ الى حقف هذا الجبل ونقسم كلامنا الى بابين مدار الاوَّل على المياه الساحليَّة وما يغلب عليها من الظواهر الطبيعيَّة امَّا الثاني فنخصُّهُ بالساحل عينهِ وهيئاتهِ

اعلم انَّ للبحار في كرَتنا الارضيَّة شأناً عظيماً لا يكاد يفي بهِ الوصف وان

---

١) راجع الجزء الاوَّل ص ٤٦

قصرنا النظر على مياه البحر وحدها وجدنا ما لها من الدَّور المهمّ في حياة سيّارتنا فانَّ الاوقيانوس كحوضها العظيم وينبوعها الاوَّل تتصاعد منهُ الابخرة فترطّب البرور وتسقّيها بمياه تنعشها وتحييها وتجعل سكناها محتملًا بل لذيذًا ناعمًا

كذلك سبق لنا وصف العوامل الجوَّية من انواء ورياح وامطار التي تصدم اطوادنا وقمم جبالنا فتحتكُّ بها وتقطع صخورها وتجرف تربتها الى السهول والى مصبّ الانهار واعماق البحار . فكلُّ ذلك من اعمال البحر ومن نتائج تحوّلات مياههِ بالحرارة . فان السحب اذا تصاعدت من الاوقيانوس انعقدت في اعالي الجوّ وتساقطت على هيئة ثلوج تجمد فوق مشارف الجبل وفي اوديتهِ وتعمل في صخورهِ فتحلّلها ثمَّ تندفع تلك المثالج والصخور الى اسافل البلاد فتتحوَّل الى تربة زراعيَّة . ومن هذه المياه ما ينفذ في قلب الجبل فينخرهُ وتتكوَّن بذلك المغاور او تجري المياه فائرةً بعد ان اجتذبت بسيرها الموادّ المعدنيَّة التي كانت مكنونة فتنبجس عيونًا معدنيَّة ذات خواصّ عجيبة . وما قولنا الان بالانهار التي تتدفّق في كلّ انحاء العالم وتنقل في جسم الارض الخصب والثروة كانها الشرايين في جسم الانسان تحيي كلّ اعضائهِ . أليست هذه من افضال البحار الراجعة الى اصلها بعد دوران عجيب وسقي الارض العطشى

نعم انَّ ما يرى على الارض من ظواهر الحياة في المواليد النباتيَّة والحيوانيَّة بل في حياة البشر كلُّ ذلك مصدرهُ البحار وحركتها المتواصلة . وكذلك لا يشكُّ احد في ما لنتوء الجبال وارتفاعها من التأثير في احوال الجوّ الّا انَّ هذا الاختلاف الطارئ عليها بقوَّة سُنَن العناية الالهيَّة انَّما تُجريهِ بجانب عظيم حركاتُ البحر ومظاهرهُ . فان كان الشتاء على وجه الارض ألطف وحرارة الصيف اخفّ وحالات الجو من طرف الى آخر تجري بتدريج لئلّا يهلك الاحياء بتنقّلها على فور فما ذلك الّا لانَّ المياه البحرّية تخزن الحرارة فتنشرها في الشتاء كما انها تلطّف شدَّة القيظ في فصل الصيف . وكذلك في الاوقيانوس مجارٍ تنقل المياه القطبيَّة الى خطّ الاستواء ومياه خط الاستواء الى القطبين فتعتدل بذلك احوال الجوّ ولا ينتقل الهواء من حالة الى اخرى الّا تدريجًا . ومثلهُ الهواء فانهُ لولا البحار لكان ناشفًا لا يمكن استنشاقهُ وانَّما ترطّبهُ المياه البحريَّة التي تنشر رطوبتها حتى اقاصي الارض مع الرياح . فالاوقيانوس اذن يدمج الأهوية

ويجعل توازناً بين انحاء الارض المختلفة ويبعث الحياة على الارض ويحفظها بعد ان عُنيَ بتركيبها اذ يهتمّ بريّها بواسطة ابخرته وعيونهِ وانهارهِ

١

المظاهر البحريّة العموميّة

تحت هذا العنوان نجمع كلّ المظاهر التي تلوح في البحر المجاور لسواحلنا اللبنانية فندوّن ما يختصّ بهِ وان كانت هذه الملحوظات قليلة ليست ذات بال · والسبب انّ بحرنا المتوسّط احد الابحر الداخليّة المقفلة لا يتّصل بالاوقيانوس الّا ببوغاص حرج طولهُ بضعة اميال نريد بوغاص جبل طارق · ومن المعلوم انّ البحار الداخليّـــة لا تشارك الاوقيانوس الكبير باختلاف مظاهرهِ ووفرة حركاتهِ بل ترى كلّ شيء فيها على نظام واحد وسذاجة عظيمة · وكذلك ليس مجال للكلام عمّا يحدث في البحار القطبيّة من قِطَع الجليد الطافية على وجه الماء لبُعد بحرنا عن القطب كما انهُ ليس من اثر لمجاري المياه الحارّة (Gulf-stream) · امّا المدّ والجزر فلا يكاد يُشعر بها

وزد على ذلك انّ العلماء الذين درسوا خواصّ ميـــاه بحرنا المتوسّط انّما اكتفوا بجهاتهِ الغربيّة المجاورة لايطالية وفرنسة امّا الجهات الشرقيّة منهُ اي الانحاء القريبة منّا فان ابحاثهم عنها جرت بتسرُّع فهي لذلك قليلة التدقيق · وهذا هو السبب الذي يصدّنا عن تدوين النتائج المقرّرة والاعلامات الراهنة بهـــذا الخصوص · فانّ الاعداد التي وجدناها من هذا القبيل غير مضبوطة اكثرهـــا مبنيّ على التخمين وربّما كانت غير موجودة

*

اعلم انّ اوّل ما يخطر على ذهن العامّة اذا نظروا الى البحر انهُ كهاوية ليس لها قعر ولا حدّ يحصرها · ثمّ يعقب التفكُّر فيؤدّي بصاحبهِ الى أن يجعل لهذا القعر قياساً على التقريب لكنّ الاسباب المذكورة آنفاً تحول دون هذا التحقيق ولاسيّما في جهات البحر الذي تهمّنا معرفتهُ المجاور لسواحلنا · وانما يجوز القول بالاجمال انّ اقصى اعماق هذا البحر المتوسّط او بالحري هذه البحيرة الداخليّة ليست هي الانحاء القريبة منّا · والذين سبروا الغور في النواحي المصريّة وجدوا فيهِ أعماقاً تنيف عن الفي ميتر

والاقيسة النادرة التي اجراهـا العلماء في سواحل بلاد الشام بعيدة عن مثل هـذا القعر العميق

ثم انّ الاعماق القاصية تكون عادةً عنـد النقط البحريّة المجاورة للصخور العموديّة التي تغمس توًّا في البحر لاسيّما عند الرؤوس الساحليّـة والمشارف الصخريّة التي تطلّ على ثبج المياه فانّ الرياح الزعازع والانواء تثير الامواج وتعمل بـلا انقطاع في اركان الصخور واصولها . امَّا اذا كانت السواحل تتركّب من الرمـال فترى قعر البحر لا يتحدَّر الَّا تدريجًا حتى انّ عمق المياه لا يزيد عن عشرين او خمسة وعشرين مترًا على مسافة تختلف بين كيلومترين الى ثلاثة كيلومترات . وليس السبب خلوّ هذه الامـاكن من الرياح والانواء التي تحفر اعماقها . انما يمتلئ الحفر بما تأتيه المجـاري والرياح من الرمـل امّا من السواحل عند مهبّ الريح وامّا بجروف الانهـار من اعالي الجبل

والذين فحصوا عن اعماق الخَوْر المنسوب للخضر بقرب بيروت وجدوا انّ معدَّل قعر البحر في الكيلومتر الاوَّل بين ثمانية ابواع الى عشرين باعًا انكليزيًّا (١ . والباع الانكليزي متر و٨٢ سنتيمترًا اعني من ١٦ مترًا الى ٣٦ م . امَّا غور جونية فأعمق فانّ قاع البحر على مسافة خمسمائة متر من الساحل يبلغ عشرة ابواع اي نحو ١٨ مترًا كما ورد في خارطة الكومندان الانكليزي مَونسل التي سبق تعريفها في مقالتنا عن خرائط لبنان وبازاء هذا الخليج عينهِ على مسافة نحو ثلاث ساعات من الشاطئ قد وُجد أقصى غور سُبر بالمقيـاس في الساحل الفينيقيّ وهو يبلغ ١٠٨٤ مترًا . واذا تقرّبت من الساحل بازاء برج محاش جنوبيّ جبيـل كانت نتيجة السبر ٤٣٠ باعًا انكليزيًّا . وكذلك الجهة التي هي بازاء مصبّ نهر الكلب فانها بعيدة القعر . ونذكر انَّنا قبل بضع سنوات اذ كنَّا نتجوَّل على الطرّاد الافرنسي شَتزي لم يمكنهُ ان يرسو هناك لقصر سلاسلهِ التي لم تبلغ القعر . وفي الواقع ترى الخرائط البحريّة تجعل عمق هذا المكان ٢٧٠ باعًا انكليزيًّا . وبخلاف ذلك مينا طرابلس وخورها المتَّسع فانّ عمقها قليل يتراوح بين ستّة وثمانية ابواع مـا لم تَسِرْ الى بُعد كيلومترين او ثلاثة

١) راجع خارطة لبنان البحريّة والارقام فيها بالابواع الانكليزية وهي تدلّ على اعماق البحر

كيلومترات من الساحل وهذا ما يضطرّ السُّفن البخاريّة بان تبعد عن الشاطئ واذا ما اراد اهل الامر ان يحتفروا مرسًى لهذه المدينة فلا بدّ لهذا المشروع من نفقات طائلة لقلّة هذا العمق كما سبق

امّا مدخل مينا بيروت فقاعُ مياههِ ١٥ مترًا . وهذا العمق لا يُرى وراء السدّ الكبير الّا على نحو مئة مترٍ منهُ وان سرتَ شمالًا الى مسافة كيلومتر وجدت غرر البحر بالغًا ٢٩٠ باعًا بينما العمق في جون الخضر على الخطّ نفسهِ وعلى مثل بعدهِ من الساحل لا يزيد على ٢٥ باعًا الى ٣٣ . وفي ذلك تأييد لقولنا عن الاعماق المختلفة التي تُرى عند الصخور الساحليّة وعند السواحل الرمليّة

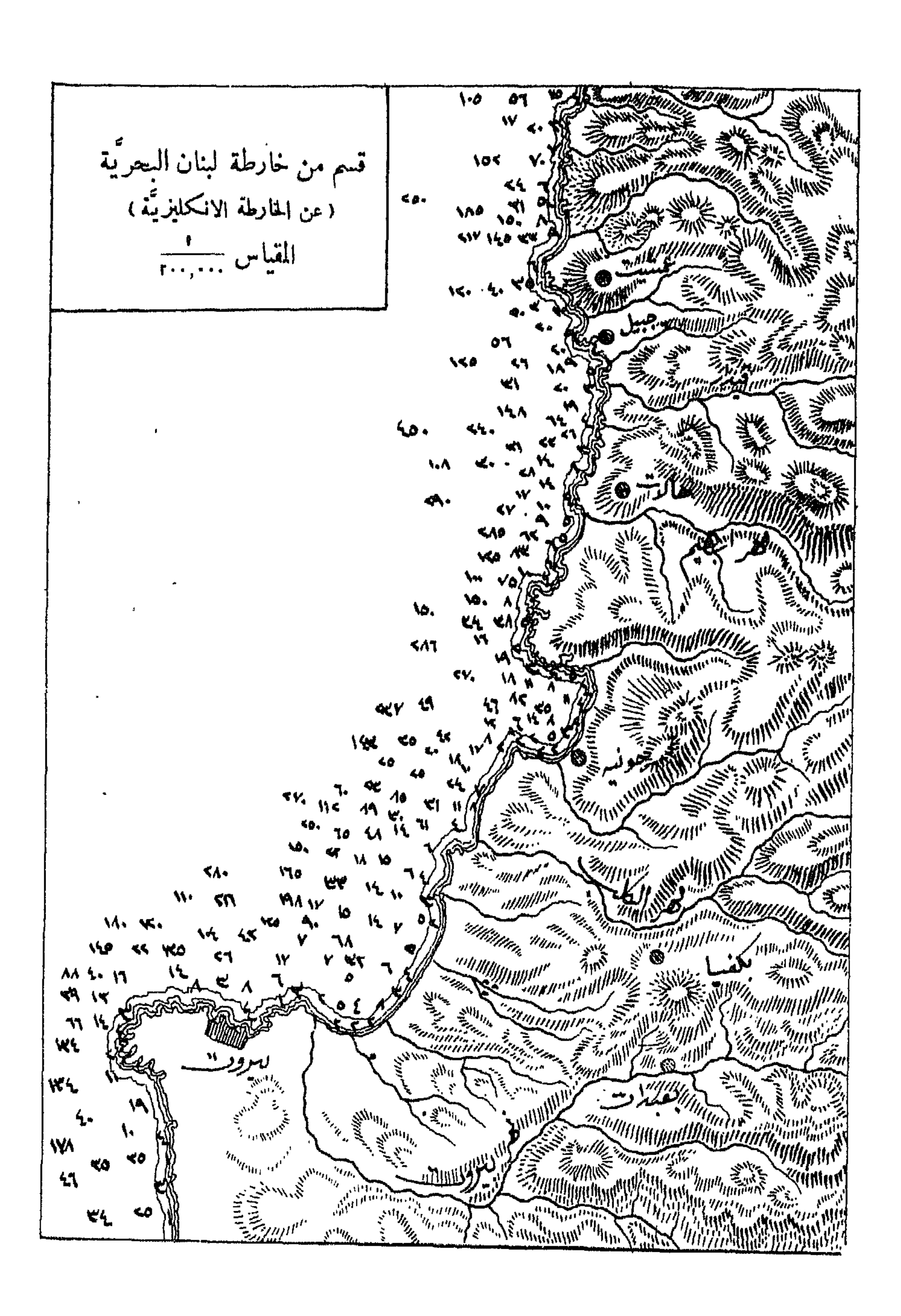
*

واعلم ان تبخُّر المياه في كلّ البحر المتوسّط سريع جدًّا . وهو على سواحل فرنسة وساحل جنوة لا يقلّ عن سنتيمتر كل يوم في فصل الصيف ومجمل ما يتبخّر منهُ في اشهر الصيف الثلاثة ٦٠ سنتيمترًا . امّا سواحل الشام فلا مراء بانّ تبخُّر مياهها اعظم لارتفاع ميزان حرارتها . وقسم من هذا الماء الذي يفقدهُ بحرنا يُعاد اليهِ بالامطار النادرة التي يُجاد بها وبالانهار التي تجري اليهِ وهي بالنسبة الى ما يخسرهُ ثلث كميّتهِ . ولولا اتصال بحرنا ببوغاص جبل طارق ومنهُ بالاوقيانوس لقلّت مياههُ الحلوة وزادت ملوحتهُ واضحى كبحر لوط في طعمهِ الّا انّ الاوقيانوس يمدُّهُ بمياههِ وهي اقلّ منهُ ملحًا ويعوّض لهُ خسائرهُ فيتوازن البحران

واعلم انّ مياه الاوقيانوس تأتي بحرنا بمجرًى عظيم يمتدّ على وجه البحر المتوسّط الى مسافات بعيدة. وكذلك يحدث على طول السواحل مجارٍ اخرى منها المجرى الذي ينقل الى سوريّة رمل مصر وطين نيلها (١) . وحتّى الآن لم يُحسن العلماء معرفة خواصّ هذا المجرى ووِجهتهُ وقوّتهُ كما انّهم يجهلون امورًا كثيرة منوطة بالمجاري البحريّة وعلاقات الاوقيانوس ببحرنا المتوسّط . وممّا افادنا بعضهم بخصوص المجرى الموازي لساحلنا انّ قوّتهُ تبلغ في كل ٢٤ ساعة عشرين كيلومترًا سيرهُ من الجنوب الى الشمال . وهي افادة نرويها

---

١) راجع دينر (Libanon, 87, 99)


قسم من خارطة لبنان البحريّة
(عن الخارطة الانكليزيّة)
المقياس ١/٢٠٠,٠٠٠
جبيل
بكفيا
بيروت



على علّاتها اذ لم يمكنّا تصحيحها . والمجاري البحريّة في البحر المتوسّط من الظواهر التي ليست ذات شأن عظيم كما هو الواقع في البحار الواسعة وذلك لخلوّه من المدّ والجزر ومن الانهار الزاخرة والأخوار العميقة المتّصلة بالبواغيص الضيّقة (١

ومن يفحص مياه بحرنا لم يجد فقط ثقلها النوعي اعظم من المياه العذبة بل تحقّق ايضاً انّ ثقلها وهو (١,٠٢٩) فوق ثقل الاوقيانوس (١,٠٢٨) بلمتر. والظاهر انّ سبب ذلك حرارة الشمس التي تمتصّ من مياه بحرنا اكثر ممّا تأتي به الانهار. فما بقي من الماء يزيد ثقلًا لوفرة املاحهِ التي لا تتبخّر . والامر في جهاتنا السوريّة اوضح لانّ انهارنا لا تُغني البحر بموادّها لندرة مياهها . وعليهِ فانّنا نظنّ انّ ملوحة بحر الشام تتجاوز ٣٨ ملّمترًا وهو معدّل بقيّة البحر المتوسّط . وتعليلهُ قلّة المياه النهريّة العذبة كما سبق ثمّ ابتعاد جهاتنا عن بوغاص جبل طارق حيث يأتي من الاوقيانوس مجرًى من المياه اقلّ ملوحةً . ولعلّ قوّة هذا المجرى لا يظهر اثرها في جهاتنا السوريّة . ولنا على ذلك بعض التعويض بالكمّيّات الوافرة من الماء العذب التي يصبّها النيل في بحرنا فتأتينا بمجرًى ساحليّ مع ما يأتي من الرمل

قلنا انّ المدّ والجزر قليلان لا يكاد يحسّ بهما الناظر . وسعتهما في سواحل الشام تختلف بين ثمانية وعشرة سنتيمترات . وخفّة المدّ والجزر نتيجة اشرنا اليها في مقالتنا عن مجاري الانهار في لبنان وهي انسداد هذه الانهار بما يتراكم في مصبها من الرمال فيضطرّ الاهلون بان ينقلوا مراسي مدنهم الى مسافة ابعد على الساحل كما ترى في مرسيلية بالنسبة الى نهر الرون وفي الاسكندريّة بالنسبة الى النيل . وهذا ممّا حدا بالفينيقيين ان يبنوا مدنهم على مسافة من الانهار

*

قد قيل انّ الحياة تظهر خصوصاً بالحركة . وليس في الطبيعة كائنٌ احيا من البحر . وحياتهُ هذه تلوح بعملٍ غير منقطع لاسيّما بتأثيرهِ في البرور التي لا يزال يغيّر هيئاتها وذلك على نظر منّا . ويذكر القارئ ما قلناهُ سابقاً عن اعمال الانهار التي نسبنا

١) راجع ما كتبهُ في المجاري الساحليّة كلتبرونر (Kaltbrunner : *Manuel du Voyageur*, 438 - 439)

لها خراباً وعمراناً وهذا يصحّ ايضاً في البحار . ثمّ تشهد بعض النصوص التاريخيَّة التي ألمعنا اليها على وجود جُزُر صغيرة بازاء بيروت او على مقربة منها . والدليل على ذلك ما ورد في القرن الخامس للمسيح في قصائد الشاعر نونّس المعروفة بالديونيزياك (Dionysiaques) فانَّهُ وصف بيروت وصفاً يدلُّ على نظر العيان وينعتها بالمدينة الجميلة الجزائر (Εὔνησος) . وكذلك جاء في تواريخ الفرنج انَّ ديرًا أُقيم في احدى جزائر بيروت (ZDPV, X, 310) فوجود بناء كهذا لا يكون الَّا اذا اتَّسعت الجزيرة بعض الاتساع . ثمَّ انَّ خرائط مرسومة في ذلك العهد تشهد ايضاً على وجود جزائر مجاورة لبيروت (ZDPV, XXI, 116) . فكلُّ هذه الادلَّة تبيّن صحَّة الامر بلا محال . فتُرى كيف توارت هذه الجزائر ؟ أبانخسافٍ في الارض او زلزلة ؟ هذا ليس بمحال . ولعلَّها خربت فيما خرب في الزلازل الذي ذكرهُ المقريزي في تاريخ المماليك (Ed. Quatremère, I, 1^re^ partie, 145) حيث قال « انَّ سبع جزائر من بلاد الفرنج في الساحل خُسفت وتوارت في غمر البحار » . وقد بقي من هذه الجزائر صخور تعلو سطح البحر اعظمها شأناً جزائر الحمام في رأس بيروت وآثار المياه فيها ظاهرة وهناك معبر خرقتهُ الامواج في وسط صخورها وهي لا تزال تعمل فيهِ ريثما يتمّ بها عمل المياه فتتوارى بقايا هذه الجزيرة في قاع البحر

وما يقال في تدمير المياه أظهر للعيان في الرؤوس الصخريَّة فانَّ اسافلها عرضةٌ للمجاري المائيَّة التي لا تزال تنخرها . وانما عمل البحر فيها يختلف في السرعة على حسب وجهة الامواج وتركيب الصخور وصلابتها . وبذلك يُعلَّل نتوّ الصخور الساحليَّة وهيئتها المتقوّسة كما ترى في رأس بيروت . وكذلك الاغوار والكهوف والحنايا المستديرة التي تُحكم صنعها مياهُ البحر فيُقضى بحسنها العجب

٢

أكثبة الرمل

وممَّا ينوط بدرس المياه الساحليَّة في لبنان أكثبة الرمل التي تتراكم على الشواطئ بفعل البحر . وتُرى هذه الكثبان على سيف بحرنا المتوسّط وهي قليلة الارتفاع لضيق دائرتهِ وقلَّة ما يجري فيهِ من المدّ والجزر فلا تستطيع الرمال ان تجد مداها

من الحركة والانتشار . امّا تكوّنها فيحدث عادةً في الشواطئ الرمليّة القليلة الانحناء فتنسف الرياح دقائقها وتنقلها من مكان الى آخر حتى اذا وجدت في طريقها حاجزًا من صخر او نبات تجمّعت حولهُ ولا تزال تنمو شيئًا فشيئًا الى ان تصير على شبه ربوةٍ . ثمّ تهبّ الرياح وتلعب السوافي في اعالي هذا الكثيب التي لا تمسّها امواج البحر فتذري رمالها اليابسة وتنقلها الى ما وراء هذا التلّ فيتكوّن منها تلّ آخر وهلمّ جرًّا . امّا الامواج فتناطح سفح الكثيب الاوّل وتنقل اليهِ رمالًا جديدة تعلو وتتكوّم فتعمل الرياح فيها كما فعلت سابقًا . وهكذا لا تزال هذه الهضاب الرمليّة في حركة دائمة تتقدّم الى الامام دون انقطاع . ويكون امتدادها بأن تجري الى حيث تجد نتوءًا من الارض او عائدًا فتتجمّع حولهُ رُبًى جديدة مستندة الى اعطاف الاكثبة السابقة . وهي لا تلبث بعد حين ان تولّد آكامًا اخرى فتنتصب على شبه سلسلة من التلال المتحرّكة يفصل بينها ألهاب واودية ضيّقة مستطيلة (١

على انّ الآكام الرمليّة التي تُرى في سواحل بحرنا المُقفَل الخالي من الجَزْر والمد ليست كأكثبة البحار الواسعة . كما انهُ لا اثر لهذه التلال في السواحل الوطيئة المتركبة من المواد الصلصاليّة او الصلبة التي لا تحرّكها الرياح والامواج بسهولة كفعلها بالرمل وانّما تتكوّن فيها سدود من الحصى التي تقلّبها الامواج على بعضها الى ان تُصقَل بالاحتكاك وربّما تكوّمت اكوامًا دون التلال الرمليّة علوًّا واتساعًا

وان سرحنا البصر في سواحل بلادنا وجدنا مصداقًا على قولنا اذ لا يوجد من هذه النشوز الرمليّة الّا في بعض نقطٍ معلومة تمرح فيها الامواج والرياح معاً كمثل اشباه جزائر صور وبيروت وطرابلس . وكثبان الرمل لا تتكوّن في كل هذه الجهات من جهة الشمال بل من الغرب حيث الشواطئ السفلى الرمليّة فتنسفها الرياح الغربيّة المتواصلة فتتراكم بفعلها . وهذا ممّا يلوح خصوصاً في نواحي بيروت فترى ثمّت توارُد الرمل الذي يزحف بخيلهِ ورجلهِ ويغطي سهولًا مخصبة تغوص في وسطها بيوت واشجار لم ينظر الناظر غير اعاليها . وكذلك طرق العجلات فان الرمال تعلوها بحيث لا تعود تصلح للسير

---

١) راجع ما كتبهُ روكلو في كيفيّة تكوّن هذه الاكثبة في كتابهِ « الارض » (ج ٢ ص ٣٤٦)

على انّ لهذا الداء دواء اذ يمكن ان يُجعل حدٌّ لعمل الرمال بالزراعة ونصب الاشجار التي وحدها تقوم بازاء هذا العدوّ الزاحف فتقوى على ذرّاته ودقائقه . ومن العجيب العُجاب انّ في هذه الرمال مع يبوستها قوّةً مخصبة ومائيَّـةً كافية لغذاء بعض النباتات التي لا تؤذيها الرياح البحريّة المشبعة ملحاً بل تمتدُّ جذورها الى اعماق بالغة لتمتصّ الرطوبة التي تحتاج اليها لحياتها . فمن ذلك بعض النباتات الزاحفـة الطويلة الاغصان على شبه الحبال كاللولب فتراها تمتدُّ على وجه الارض كشبكة تزينها بزهورها واوراقها . ومن النباتات الرملية اشجار الميموزا والصُّبَّير وبعض الشجيرات المشوكة وكلُّها يردُّ غارات الرمل ويمنعهُ عن ان يتعدّى طورَهُ

لكنّ هذه الوسائط ربّما قصرت عن ادراك الغاية او بطلت منافعها كما يجري لكثير من النبات الغضّ الذي يأكلهُ الماعز. فلا بُدَّ من اتخاذ احتياطات اعظم بنصب اشجار تقوى على السوافي وتسدُّ الطريق في وجه الرمـال . وهذا ما قامت به الدولة الفرنسويّة في احدى مقاطعاتها التي كثرت فيها الرمال وهي مقاطعة غسكونية المجاورة للاوقيانوس فانّ الرياح مع الامواج البحريّة كانت تسفي عليها كميَّة من الرمال كادت تسجّيها كالكفن بعد ان غمرت قسماً من قراها . فارادت الحكومة تلافي هذا الامر فباشرت بنصب غابات الشجر منذ نصف قرن وهي لا تزال جارية في العمل وحتى تنجزهُ عمّا قليل فصارت كثبان الرمل في بلاد غسكونية موردًا للثروة بعد ان كانت آفة متلفةً . فان غابات تلك المعاملة الواقعة جنوبي غربي فرنسة تُعتبَر اليوم كغنًى لها لِمـا يُستثمَر منها من الخشب وما يُستخلص من الموائع الراتينجيَّـة وهي تساوي في السنة مئات الوف من الفرنكات . امّا الغابات نفسها فيثمّنها العارفون بخمسة وعشرين الى ثلاثين مليوناً . ومن الفوائد التي احرزتها تلك الجهـات بفضل الغابات اعشابٌ وافرة ينبتها الرمل الرطب وهي تصلح للمواشي . وكذلك قد تلاشت المستنقعات التي كانت في تلك الانحاء لانّ جذور الشجر امتصَّتهـا شيئاً فشيئاً الى ان يبست وصار الهواء بفنائها نقيًّا طيّباً واضحت الغابات على هذا النمط زينةً وشفاء معاً

وهنا فليسمح لنا ارباب الامر ان نستلفت انظارهم الى رمال بيروت التي يمكنها ان تُخصب مدينتنا وتزينها اذا ما اعملوا فيها ايدي الزراعة . واوّل ما ينبغي فعلهُ ان لا يُرخَّص للبدوان وللرعيان ان يرعوا فيها مواشيهم . فانّ رمال بيروت في الربيع تأتي

بشيء من الكلإ وبعض الانبتة التي يمكنها ان تنمو وتزكو لولا يتجوَّل فيها هؤلاء الرعاة بقطعانهم فيحوّلونها الى رمال جرداء تتلاعب بها الرياح وتنشرها على الانحاء المدينة في بعض فصول السنة بدلًا من ان تكون بقعةً خضراء غضراء تروق العين بنضارتها وتخصبها بثروتها

وانفع من ذلك ان تُغرس انصاب الصنوبر فانَّ هذا الشجر كما حقَّقتهُ الاختبارات المتوالية شرقًا وغربًا انجعُ دواء لهذا الداء واقوى عامل على ردّ غارات الرمال . ومن ثمَّ لا يؤَّاخذنَّ الانسان غير نفسه ان تغاضى في استعمال هذه الواسطة القريبة المنال التي من شأنها ان تُصلح تهامُلَهُ وهو السبب الاوحد في ما يجري من الخلَل في توازن قوى الطبيعة المتَّسقة وفقًا لنظام العناية الصمدانيَّة

ويؤَيد قولنا ما كتبهُ في هذا الصدد كلُّ الذين بحثوا عن تكوُّن الأكثبة الرمليَّة فانَّهم يتَّفقون في القول بان هذه التلال حديثة النشأة وانَّ في مكانها كانت سابقًا تمتدُّ الاحراج والغابات فلمَّا قُطعت اشجارها استولت عليها الرمال . وهذا قول عمومي يصحُّ في السواحل الاوربيَّة كما في شواطئ بحرنا . ومن تصفَّح التواريخ اليونانيَّة او اللاتينيَّة لا يجد ذكرًا لهذه الروابي الرمليَّة الى عهد القرون الوسطى بل تراهم على عكس ذلك يشيرون الى الغابات القائمة مكانها او في عمارتها

انَّ في نصف الطريق الجارية بين صيداء وبيروت في المحلّ المعروف بنبي يونس بنايةً قديمة تراكمت عليها الرمال فلم يُرَ منها الَّا قبَّتها البيضاء . وهي بناية اسلاميَّة بلا شكّ تدلُّ هيئتها على اصلها وزمنها . فتكون الرمال تواردت عليها حتَّى كادت تغمرها بظرف بضع مئات من السنين . وكذلك اذا سرتَ شمالًا الى نهر الغدير على مسافة نصف ساعة جنوبيّ خلدة بلغت موضعًا يُدعى القصر كان بقربهِ محلّة تغطّيها الرمال في عهدنا . والمرجَّح انَّ ذلك حدث بعد الاسلام فيكون عمل الرمل فيها حديثًا . وفي نُقط اخرى من الساحل عند رمال بيروت آثار تدلّ على عمران سابق وحداثة عهد الرمال

وقد زعم بعض الكتبة ان اصل بيروت من غابة صنوبرها وان معنى اسمها الصنوبر . وهو قول ضعيف والرأي الأسدّ انَّ اشتقاق اسمها من البئر ومعناها مدينة الآبار . لكنَّ في هذا الزعم نفسهِ دليلًا على قدم غابات صنوبر بيروت وقد افردنا لذلك مقالة مستقلَّة (راجع المشرق ١ [١٨٩٨]: ٩٣٩—٩٤١) حيث اوردنا عدَّة شواهد على قولنا

فلتُراجَع فانهـا تثبت انّ قسماً من شبه جزيرة بيروت كان مزداناً بغابة من الصنوبر وبقيت هذه الحال الى القرن الثالث عشر كما يشهد على ذلك الشريف الادريسيّ اذ قال ان « غابة صنوبر بيروت اثنا عشر ميلًا في التكسير تتصـل الى تحت لبنان » وهذه المسافة الواسعة لا تدع مكاناً للرمال كما تُرى اليوم ما لم يُقَل انّ هذه الغابة كانت تشغل السهول التي فيها اليوم مزارع الزيتون وهي المعروفة بصحراء الشويفات . وهو قول بعيد لانّ هذه المزارع كما يظهر قديمة ايضاً ورد ذكرها فيما لدينـا من سجلّات وتواريخ القرون المتوسّطة . ويكفي لردّ هذا المزعم ان القناة الرومانية المعروفة اليوم بقناطر زبيدة لم تُتَّخذ غالباً الّا لسقي هذه المزارع الواقعة في ارباض البلدة . وبقيت غابة بيروت زاهرةً غبياء بعد الادريسيّ فان صاحب تاريخ بيروت (ص ٥٢) ليس فقط يذكر مـا كانت عليهِ سهول بيروت من الخصب والرَّيع بل يروي انّ اصحاب الامر ابتنوا من صنوبر المدينة عمارةً لمحاربة اسطول صاحب قبرس وقد وصفها بما حرفهُ : « قيل انهُ لم يُعهَد قطّ عمارة مثلها عظماً وسرعةً وكثرة صنَّاع وقوَّة عزم » . ومع هذا الوصف البالغ للعمارة لم تنفد الغابة لانّ المسافرين الذين زاروا بلاد الشام في القرنين الخامس عشر والسادس عشر يذكرونها بيد انهم لم يجدوها في اتساعهـا السابق . وعندنا انّ الرمال اخذت مـنذ ذلك الحين اعني بعد تجهيز عمارة بيروت في اواخر القرن الرابع عشر ان تتعدّى طورها . لانّ مـا قُطع من الصنوبر لم يُعوَّض عنهُ بغرس اشجار غيرها وربَّما قطعوا منها غيرها بعـد ذلك كما فعل محمَّد الجزَّار (١) . ومن ثمّ لم تجد الرمالُ ما يتعرّض لها في سيرها فتراكمت الى ان وصلت الى حدّهـا المعروف في زماننا وهو امرٌ يؤسَف لهُ ونتمنَّى ان اصحاب المروَّة يتلافون الامر وقد بيّنَّا لهم ما وراء هـذا الاصلاح من الفوائد والارباح الطائلة مع ما ينجم منهُ من الزينة للبلد والتنظيف للهواء

٣

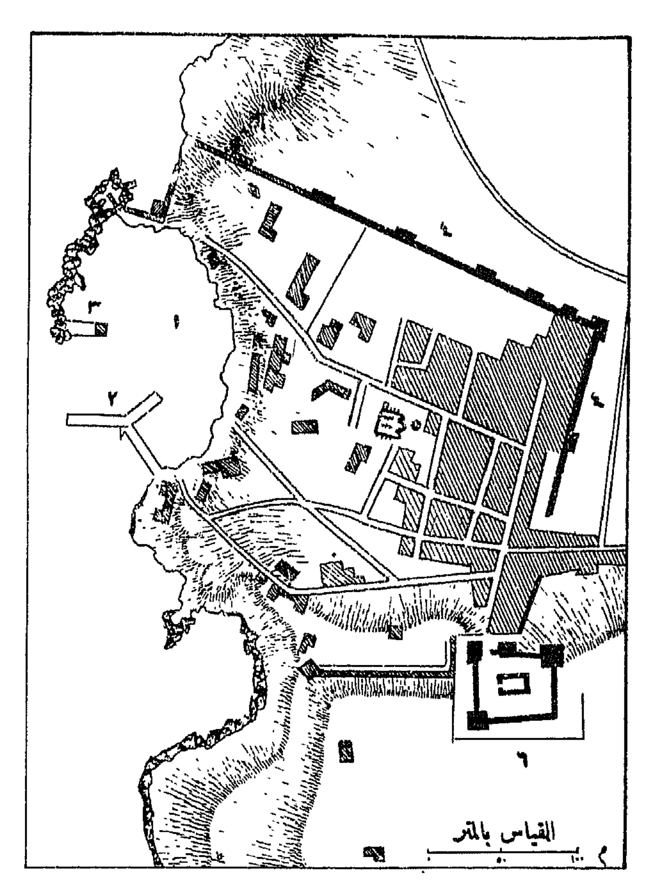
ارتفاع الساحل البحري

انَّ ساحل فينيقية منذ ابتداء طور العالم الرابع لم يزل يرتفع شيئاً فشيئاً الى الازمنة

(١) راجع ريتر (Ritter, XVII, 431)

المعروفة بالتاريخيّة . وهذه نتيجة ابحاث جيولوجيّة مقرّرة اثبتها حضرة الاب زُموفن في كتابهِ رسم لبنان الجيولوجي [١] نلخّص هنا ادلّتهُ مع اضافة معلوماتنا الشخصيّة

قد اتسعنا في مقالتنا عن مجاري لبنان النهريّة في وصف السدود التي تُرى في مصبّ كلّ انهار لبنان واثبتنا اصلها بفعل مياه البحر والانهار معاً . وهنا لا نرى بدّاً



رسم جبيل نقلًا عن المسيو راي

١ المرفأ ٢ بناية المرسى ٣ بقايا برج ٤ سور البلد ٥ كنيسة مار يوحنّا ٦ القلعة

من زيادة عامل ثالث لظهور هذه الحواجز ألا وهو اندحار المياه البحريّة عند ارتفاع

١) راجع Zumoffen : *Esquisse géologique du Liban*, 52-57

الساحل الذي بتوالي الاعصار نتأ تدريجاً وتصاعد . ومن الشواهد على ذلك انك ترى على طول الساحل سلسلة من الصخور تطفو الآن فوق المياه البحريّة طفوًّا يختلف تحديد ارتفاعهِ وهذه الصخور في اعلاها مسطَّحة دلالةً على فعل الامواج فيها اذ كانت غائصةً في المياه . وفي امكنة اخرى ترى كميَّات من الحصى المصقول باحتكاك المياه على بُعد من الامواج او على نشوزٍ لا تبلغها حتى في الانواء الشديدة . فوقعها دليل على ارتفاع السواحل مع ما يصحبهُ من تقهقر المياه

وزد على هذه البيِّنات العموميَّة دلائل اخرى تُستفاد من فحص بعض السواحل اللبنانيَّة . فمن ذلك انَّ الصخور التي بُنيت عليها صيداء في سالف الاعصار قد ارتفعت كما يلوح ذلك من قلَّة المياه في مرسى تلك المدينة . وكذلك امام المدينة عينها جزائر وصخور يُرى مثلها امام صور وطرابلس وكلُّها حديثة العهد متركّبة من الرمل المتلاصق المتصلّب والمعجون بالاصداف البحريّة وهي كانت سابقاً في قعر المياه فلمّا تحدَّرت المياه ظهرت هذه الصخور متصاعدةً فوق سطح البحر

ولنا شاهد آخر على قولنا في المراسي الفينيقيَّة فانَّ ما يُرى فيها اليوم من الصخور ثمَّ من تراكم الرمال انَّما سببهُ الاول ارتفاع الساحل . وان اعترض احد علينا بقولهِ ان السفن الفينيقيَّة القديمة لم تكن لتحتاج الى غور عميق من المياه اذ يفيدنا التاريخ بانها كانت اشبه بقوارب كبيرة مسطَّحة كذهبيَّات مصر التي يمكنها ان تصعد النيل الى حدود الاقصر . اجبنا بأن الامر معلوم ولكن هيهات ان تصدق اليوم اوصاف المؤرخين للمواسي الفينيقيَّة القديمة وهم يبالغون في ذكر رحبها وأمنها للسفن امَّا اليوم فلا تكاد هذه المراسي تشمل اكثر من احدى سفننا التجاريَّة كما انها لا تقي المراكب من الرياح وانواء البحر . وانما تلتجئ اليها فقط بعض السفن الشراعيَّة الخفيفة . فلولا ارتفاع الساحل لمَا أمكن تعليل هذا الامر وان قيل انَّ هذه المراسي مُلئت بالصخور والاطلال على عهد الامير فخر الدين المعني . قلنا ان هذا الواقع قد تناقلهُ قومٌ من الكتبة المحدثين ولم يسندوهُ الى مؤرخ ثقة . فلو صحَّ لَما سكت عنهُ كَتبة زمانهِ او احد القناصل والتجَّار الاجانب الذين كانوا يتاجرون في بلادنا على عهدهِ . والارجح عندنا ما قلنا وهو سبب طبيعي ثبت اليوم بالبحث الصحيح ومن ثمَّ لا نرى سنداً لما ترويهِ العامَّة عن فخر الدين انهُ غمر مرسى صيداء بالاطلال والصخور

هـذا وقد اشرنا غير مرّة الى قول الجيولوجيين بان بيروت كانت في الاعصار الغابرة جزيرةً تحيط بها المياه بحيث كانت هذه المياه توصل خليج الخضر بوادي شحرور . امّا اليوم فبين هذين الطرفين سهول مخصبة ليس لوجودها تعليل آخر الّا ارتفاع تلك الامكنة . وكذلك قد وُجدت في امكنة شتّى صُبَرٌ من الحصى البحري المصقول والصدف منها على طريق الشام عند المطعم المعروف بلوكندة المطران ومثلها على منعطف الاشرفيّة عند مار ديمتري وهذه الامكنة تتراوح بين عشرة امتار الى ٤٠ مترًا فوق سطح البحر فلا شكّ ان وجود هذه الآثار البحرية دليل على انّ المياه كانت تغمر تلك المحلّات ثم تحدّرت بارتفاع تلك المواقع

وممّا سبق لنا قولهُ في مقالتنا عن مجاري لبنان النهريّة ان سطح المياه عند مصبّ نهر الكلب كان سابقاً اعلى منهُ اليوم وأيّدنا رأينا بآثار السكك المصريّة والاشوريّة والرومانيّة وكلّها تُرى في نقط تعلو الطريق الحاليّة . ولا نظنّ انّ الامم القديمة فتحت هذه الطرق في تلك المشارف الصعبة لولا انها كانت مضطرّةً الى ذلك بما وجدتهُ من العوائق الطبيعيّة في سيرها ولاسيّما ارتفاع المياه البحريّة والنهريّة معاً . وهكذا يجوز شرح نصّ اسطرابون حيث قال ان نهر الكلب يمكن خوضهُ بالسُّفن وقد مرّ . وزد على ذلك انّ في الطريق الرومانيّة التي هنالك بقايا اصداف بحرية وحصى مدلوكة ملتحمة ببعضها . وهو دليل على بلوغ البحر الى تلك النشوز في الازمنة السابقة التاريخ . وعليه فتتّفق الادلّة على الطّورين معاً . امّا كون الطريقة المصريّة فوق الطريق الرومانيّة والطريق الرومانيّة اعلى من الحاليّة ففي ذلك دليل ظاهر على ان تحدُّر المياه وارتفاع الساحل كان تدريجيًّا بكرور الدهور

وكذلك ترى بين نهر ابراهيم وجبيل وبين جبيل والبترون جُثًى من الاصداف البحريّة على علوّ عشرة امتار من سطح البحر حاليًّا . وذلك ممّا يُثبت ايضًا قولنا عن ارتفاع الساحل

ثم انّنا في مطاوي كلامنا عن أنفة (راجع الجزء الاول ص ١٤٦) ذكرنا لها خندقين عظيمين نُقِرا في رأسها الذي بقربهِ موقع البلدة . واليوم اذا اعتبرت قعر هذين الخندقين اللذين يفصلان رأس انفة عن البرّ وجدتهُ يابساً لا تّصل اليهِ البحر . وعندنا انّ الامر كان على خلاف ذلك في عهد الفينيقيين وهم الذين قاموا بهـذا العمل

العظيم ونحتوا الخندقين ليملأهما ماء البحر ويردّوا بهما غارات العدوّ من الجهة الشرقيّة عن المدينة التي كانت حصناً حصيناً فان يبوستها اليوم تدلّ على انّ الساحل ارتفع فلم تعد المياه البحريّة تتصل بهذين الخندقين

وكلّ هذه الادلّة والآثار التي ذكرناها قد جمعناها من امكنة شتّى على الساحل الفينيقيّ مباشرةً من مصبّ نهر القاسميّة الى نهر ابي علي . وهي تبرهن على انّ الساحل الفينيقيّ ليس فقط في الازمنة السابقة للتاريخ لكن بعدها ايضاً لم يزل على تصاعد متوالٍ والبحر على تقهقر وتحدُّر . وفي كل ذلك تتحقّق السُّنّة التي وضعها الخالق عزّ وجلّ فانّ البحر لمّا كان يطغي ويبغي فيدمّر بمياههِ الساحل صار لذلك فعل انعكاس من جهة الساحل بأن ارتفع واعتلى فظهرت الحكمة الصمدانيّة التي جعلت للطبيعة سنّةَ توازُن القوى لا تتعدّاها . وفي درس الجغرافية ما يكشف لنا القناع عن هذه الحقائق والسُّنن التي فيها نظام الخليقة كلها

١٣
السواحل اللبنانيّة

ألمعنا في خلال درسنا لرسم الجبال اللبنانيّة الى السواحل الفينيقيّة فقلنا انّ من خواصّها وحدةَ سياقِها وجريها على خطّ موازٍ لجبل لبنان اللهمّ الّا رؤوس قليلة كرأس بيروت ورأس الشقعة التي تشذّ نوعاً عن هذه الخطّة العموميّة . وهذا فصلٌ نفردهُ لدرس تلك السواحل مباشرةً بالشمال

*

فان اطلقنا رائد الطرف الى هــذا القسم الشمالي وهو الواقع بين مصبّ النهر الكبير ورأس الشقعة وجدناهُ بالمقابلة انّهُ يخالف بقيّة الساحل في خطّهِ المتساوي . وما ذلك الّا لسبب اختلافٍ يطرأ على وجهة الجبل كما سبقت اليهِ الاشارة في بحثنا عن رسم لبنان فترى الساحل يستدير على صورة هلال من حدّ مصبّ النهر الكبير الى الصخور المتواصلة التي تطفو فوق سطح البحر عند ميناء طرابلس وهو الجون المعروف بجون عكّار . ولا غروَ انّ هذا الجون كان اضحى خليجاً كبيراً بعيد الغور بين جبل

النصيريّة ولبنان لولا انّ مياه النهر الكبير مع نهر عكار والنهر البارد حالت دون ذلك بما جرفتهُ من التربة التي ملأَت تلك البطحاء. فلمّا لم تجد هذه العوامل القويّة كفوءا يتصدّى لها كبعض المجاري البحريّة او مدّ البحر وجَزْرِهِ فعلت فعلها وكوّمت جُروفها في تلك الوهاد التي كانت جديرة بان تكون خليجاً ذات شأن اثير وفوائد اقتصاديّة جمّة . اذ انّ البحر كان يستطيع ان يمتدّ الى داخل سوريّة ويصير لها بمثابة قناة بحريّة او كخليج قورنتس يُقرّب البلاد الداخليّة لاسيَّا وادي العاصي المخصب الى المعاملات التجاريّة . وما أدرانا انّ هذا الخليج لو وُجد لم يؤثّر في تجارة بلاد آسيّة الغربيّة (١ فيحوّل الى طرابلس كل الحركة التجاريّة وينزع عن صيداء وصور سيطرتهما البحريّة

وجنوبيّ هذا الجون بين ميناء طرابلس وسفح الجبل سهولٌ خصبة تكوّنت بما جرفهُ اليها من التربة نهر قاديشا على طول ممرّ الاجيال جارياً بذلك مجرى الانهار الثلاثة السابق ذكرها . وبفعلهِ اتصلت بالبرّ الصخور التي بُنيت فوقها ميناء طرابلس وتحوّلت البقعة الى شبه جزيرة على شكل مربّع غير متساوي الزوايا . والرمال قد سطت على الجانب الغربيّ من هذا المربّع كفعلها في غربيّ بيروت والسبب واحد غير انّ رمال بيروت اوسع منها مجالاً واوفر كميّةً

وان سرتَ جنوبي هذه شبه الجزيرة رأيتَ الساحل يقترب من الجبل مستديرًا على شكل جون آخر يحدّهُ جنوباً رأس الناطور. والدائرة الساحليّة كلّها جبال متواصلة لا يفصلها عن البحر سوى قطعة ضيّقة من الرمال التي قذفتها الامواج . ثم يأتي ما وراء رأس الناطور خور صغير يليهِ رأس أنفة وهو دون رأس الناطور كبرًا لكنّهُ اغرب منهُ صورةً . وهو عبارة عن قطعة ارض مستطيلة طولها ٤٠٠ متر في عرض عشرة امتار فقط يفصلها عن البرّ خندق نقرهُ في الصخر الاصمّ على ما يظهر قدماء الفينيقيّين . وذلك انّ الفينيقيين كما لا يخفى كانوا من ارباب البحر فوجدوا في هذا الرأس ما يرغبون فيهِ لنقابتهم البحريّة اعني مرفأين تلتجئ اليهما جنوباً وشمالاً سفنهم فتأمن من الانواء مع قربهما من الجون الشمالي ومن الخليج الجنوبي الذي بدوّهُ عند رأس أنفة منتهياً الى رأس الشقعة

١) راجع كتاب دينر (Diener) ص ٨٨

وفي وسط هذا الخليج الجنوبي المستدير على شكل نصف دائرة غير منتظمة سهول تكوّنت من جرف الانهار لا يقلّ عرضها عن كيلومترين الّا انّ المياه المنحدرة من الاودية المجاورة قد استنقعت في قسم منها لما تجدهُ في مصبّها من الرمال المتراكمة الحاجزة بينها وبين البحر . وانّما ترقي الفلاحة في تلك الانحاء قد زاحم منذ امد قريب تلك المستنقعات فحصرها ولعلّهُ يبيدها ويلاشيها لانّ الزراعة تجد في تلك التربة المتركّبة من المواد الصلصاليّة والكلسيّة ما يصلح لنموّها ووفرة مآتيها . وعلى ظنّنا انّ ناحية شكّا سوف تُضحي من اخصب جهات لبنان وقد فُتحت لها حديثاً طريق مسلوكة تصلها بناحية البترون والقائمقاميّات الجنوبيّة ريثما تبلغها السكك الحديديّة

ويحدُّ هذا السهل في جنوبهِ ذاك الرأس المستطيل المرتفع على شبه جدار هائل نريد رأس الشقعة الذي يشرف على البحر بعلوّ ٢٠٠ متر ونيّف . ومن نظر الى هذا الجبل الشاهق من جهتهِ الشماليّة اخذهُ الاندهال من غرابة صورتهِ فيحسبهُ كدارعة عظيمة راسية في المرفإ مجهّزة في مقدّمها بجها ضخم كأنها على وشك الخروج لتمخر عباب البحر . وعند جنوبي غربي هذه الدارعة الغريبة من جهة نهر الجوز سهل حنّوش يفصلها عن البحر بمسافة لا يتجاوز عرضها نصف كيلومتر وتربة هذا السهل جيدة لولا انّ قلّة الماء لا تسمح بتوفير مزروعاتها كسهل شكّا . امّا من جهة الجنوب فانّ رأس الشقعة يشرف على وادي نهر الجوز ولا يفصلهُ عن هضاب لبنان الشرقيّة الّا اخاديد عميقة حُددت في تربة متركّبة من الحوّارى و قِطَع الصوّان شأن الجبال التي تتوسّط بين ناحية الكورة والبحر . وبين تلك الاخاديد مسلك يُعدّ من اصعب مسالك لبنان واشدّها خطرًا لانهُ كثير التراب تغوص الرجل في ارضهِ الوعثة صيفاً وتزلج في طينهِ اللزج شتاء

فترى ممّا تقدّم انّ رأس الشقعة كمكعّب مرتفع معتزل من كل جهاتهِ قريب من الشكل المربّع المستطيل طولهُ مسير ساعة وعرضهُ نصف ساعة ومعدّل علوّهِ ٢٥٠ مترًا تُرى في قمّتهِ قرية حامات البالغة ٣٠٠ م . ومساحتهُ في اعلاه مستوية ذات آكام قليلة الارتفاع وهو ينحني انحناء خفيفًا من الشرق الى الغرب مع بعض الاودية غير العميقة من تلك الجهة يُعرف اكبرها بوادي العرب . ومياه الشتاء تجري في فصل الامطار منحدرةً من تلك الاودية الى البحر . وليس ثمّة ينابيع ماء والتربة قليلة

الخصب كثيرة الحجارة اللَّهمَّ الَّا بعض البطائح قريباً من دير النوريَّة حيث الثرى قد خصب بما تساقط فيهِ من اوراق الشجر وبقايا النبات

وليس رأس الشقعة متفردًا بما خُصَّ بهِ من الهيئة الغريبة فقط بل بهِ تنوط مسألة أخرى تاريخيَّة يقتضي حلُّ مشكلها نريد تعيين الطريق الرومانيَّة التي كانت تمرُّ هناك وتتَّصل بطرابلس. وهي طريق لاشكَّ في وجودها وقد وجدنا منها آثارًا باقيـة فوق حنُّوش على رأس الشقعة. فتُرى من اي جهة كانت هذه الطريق تنحدر الى سهل شكًّا ؟ وممَّا لا يُنكر ان منعطف هذا الرأس من جهتيهِ الشماليَّة والجنوبيَّة لا يحتمل طرقاً مسلوكة لوعورتهما. امَّا عقبة المُسَيلحة فانها كما سبق غير مطروقة شتاء وصعبة المسلك في بقيَّة فصول السنة. فهل يا تُرى قد درست آثار الطريق القديمـة بطوارئ الحدثان لاسيما بفعل الزلزلة التي حدثت على عهد يوستنيانوس فذلك. رأي نرتئيهِ ولا نعلم ما فيهِ من الصحَّة. وانَّما عرضناهُ لنظر العلماء دون بتّ الحكم فيهِ

امَّا اسم رأس الشقعة عند الاقدمين فهو كما ألمعنا اليه سابقاً « ثيوپروسوپون » ومعناهُ باليونانيَّة وجه الله. ودُعي ايضاً « ليثوپروسوپون » اي « وجه الحجر » وفي هذين الاسمين على المرجَّح اشارة الى اسم الاله الفينيقيّ القديم. وفي جنوبيهِ الغربيّ قرية صغيرة تُدعى حتى الان وجه الحجر وناهيك بهِ اشارة الى اسمهـا السابق. والحجارة كما لا يُخفى كانت من معبودات الاقدمين. ولنا في صُور مثال على ذلك لانَّ معنى الصور الصخرة كما هو معلوم وصور ايضاً من آلهـة السوريين (١ وما هو اصرح من ذلك انَّ عرب الجاهليَّة كانوا يعبدون الهاً باسم الحجر. فيكون مدلول ثيوپروسوپون وليثوپروسوپون ووجه الحجر اعني الاله الحجري. وقد كنَّا في ما مرَّ ارتأينا انَّ هذا الرأس هو ما دعاهُ الاشوريّون « بعل الرأس » امَّا ڤنكار فقـد زعم انَّ بعل الرأس هو مضيق نهر الكلب ولا نعلم على ايّ سند يؤيد زعمهُ. وابعد من ذلك زعم حضرة الاب لاگرنج في كتابهِ عن الديانات الساميَّـة انَّ بعل الرأس هو رأس الدامور. والوطنيُّون يدعونهُ رأس الشقعة وكان تجَّارة الفرنج يعرفونهُ باسم « رأس وجه » فصحَّفوه ودعوه كاپوج (Capouge) وكاپوني (Capponie) وكاپ پُنج

١) راجع كتاب ڤنكلر في الكتابات الاشوريَّة ص ٣٥٨ و ٤٧٧

(Cap ponge) وكاپ روج (Cap rouge) كما اشرنا الى ذلك سابقاً . وزعم رينان انهُ دُعي باسم كاب مادون (Cap-Madonne) . فيكون في هذا الاسم اشارة الى دير سيّدة النوريّة . وكان الملّاحون يهابون هذا الجبل يتخوّفون الرياح التي تهبُّ في جوارهِ ولذلك ترى في دير النوريّة نذورًا للملّاحين نذروا بها عند الانواء وقاموا بوفائها . وقد اختبرنا نحن ايضاً غير مرّة في اسفارنا قوّة الرياح في هذه الجهات بحيث كانت مراكبنا البخاريّة نفسها تشعر بفعلها فاذا ما اقتربت منها تحركت بحركة غير مألوفة

*

ووجهة الساحل من مصبّ نهر الجوز وناحية البترون تعود الى خطّ الجنوب الغربي تابعةً في سيرها وجهة قطب الجبل الاصليّ بكلّ دقّة كما يتحصّل من مجرَّد النظر الى خارطة جبل لبنان . امّا تركيب الساحل فيتراوح بين الصخور والقِطَع الرمليّة المختلفة السعة

واذا جاوز الساحل مدينة جبيل استدار على صورة خليج واسع قريب القعر مركزهُ عند نهر ابراهيم ونهاية استدارتهِ عند رأس المعاملتين(١ وهذه استدارة الساحل توازي استدارة قطب الجبل الاصلي وتقعيره عند جبل المنيطرة وذلك بمقتضى قاعدة راهنة اثبتناها سابقاً في رسم جبل لبنان . وكذلك خور جونية فانّ استدارتهُ توازي ما حصل لقطب الجبل من الانزواء بين المنيطرة وصنين شرقاً . وصنّين يبرز هناك على صورة مثلّث لهُ على الساحل زاويتان وهما رأس صربا ورأس نهر الكلب . وهو يؤثر في وجهة الساحل الذي يعدل عن الجنوب مائلًا الى الجنوب الغربيّ

ورأس نهر الكلب احرى بهِ ان يُعدّ كدعامة للبنان وهو يحدّد النهر جنوباً ويدخل في البحر . وان اعتبرتهُ في جهتهِ الغربيّة من جهة البحر وفي جهتهِ الشماليّة من صوب النهر وجدتهُ منتصباً كجدار قُطع عموديًّا والامواج تلاطم اسفلهُ . وصخوره تلامس البحر وهي كثيرة النخاريب متقطعة منخورة مقعرة وذلك بلا شكّ من عمل

١) وهناك ما دعاه الشريف الادريسي بطفة السلام والصواب مطفة سلّان

البحر فيها في الازمنة الغابرة اذ كانت مياه البحر المتوسط تغمرها لعلوّ سطحهِ فوقها. ولمّا هبطت المياه وصارت الصخور بارزةً عملت فيها العوامل الجوّية مواصلةً لعمل المياه. ثمّ كان لا بدّ من نحت هذه الصخور لتسير فيها طرق الساحل فنُقرت طرق متعدّدة. منها طريق العجلات التي تجري قريباً من البحر وهي تدور حول رأس النهر وفويقها السكّة اللبنانيّة الحديديّة تجري على خطٍ موازٍ لطريق العجلات. واذا رقيتَ الى نحو ٣٠ متراً فوق سطح البحر وجدت الطريق الرومانيّة منقورةً في الصخر على عهد مرقس اوريليوس تشهد عليها كتابة جميلة تُرى حتّى يومنا عند الجسر الحديث

وهذه الطريق يوصل اليها بدرج منحوت في الصخر وهي تستدير مع عطفات الجبل. وفي ذروة هذه الصخور اقدمُ الطرقات الساحليَّة وهي التي سلكها الاشوريّون والمصريُّون بجنودهم تدلُّ عليها أنصاب عديدة فيها كتابات مسماريّة وهيروغليفيّة. وقد مرّ ذكرها

ثمّ تجد في لبنان وادياً متّسعاً بين جبلي صنّين والكنيسة يوازيهِ خليج مار جرجس او خور الخضر. وبُعَيد هذا الوادي حدبةٌ مستديرة شرقاً يجاريها اكبر الرؤوس الفينيقيّة وارحبها اعني رأس بيروت. وقياس جهة هذا الرأس الشماليّة مباشرةً بالصخور القائم فوقها المسلخ الى الربوة التي تعلوها المنارة لا يقلّ عن ستة كيلومترات وثلثا هذه المسافة تشغلها البنايات البيروتيّة. فيكون مقام هذا الرأس ممّا يجدي خصوصاً بيروتنا حسناً ويجعل وضعها من ابدع مواقع المدن الساحليّة. وطبقات هذا الرأس السفلى تتركّب من صنف من الطباشير كثير التفتُّت يجمع اقسامها ملاطٌ من الظرّان. وامواج البحر قد نفذت الى هذه الصخور وانتكلت اوساطها وتركت سقوفها بلا دعائم تسندها. ولذلك رُبّما تداعت هذه الصخور وهبطت وانخسفت بفعل تلك العوامل انخسافاً لا يكاد يصدّق بهِ من لم يعاينهُ. وممّا يشهد على ذلك صخور ترى في وسط البحر وليست هي الّا بقايا جزائر فصلتها هذه العوامل الشديدة عن الساحل. ولنا شاهد حسيّ على قولنا في جزيرة الحمام جنوبي رأس بيروت. وهناك ايضاً كهفان شهيران تكوّنا على هذا النمط عينهِ. ولا شكَّ انَّ سقفها يسقط عمّا قليل كما جرى للكهوف المجاورة التي تُرى اليوم على شكل نصف دوائر او على صورة جسور طبيعيَّة الى غير ذلك من الهيئات الغريبة التي سبق لنا الكلام فيها

وفي جنوبيّ غربيّ هذا الرأس تمتدّ رمال بيروت التي يبلغ معظم طولها سبعة كيلومترات في عرض كيلومتر ونصف · وقد بيّنّا في ما مرّ تركيبها واصلها البحري وهي ترحف على بيروت من الجهة التي تنتهي عندها الصخور ولعلّها تغمر بغاراتها حدائق المدينة لولا انّ غابة الصنوبر تردّ قسماً منها

وجنوبي شبه جزيرة بيروت يعود الخطّ الساحلي الى استقامته المملّة لا يخالفها سوى بعض ركام الصخور تنتصب من مسافة الى اخرى اخصّها رأس الدامور عند نهر الدامور ثم رأس جدرة في وسط الطريق بين نهري الدامور والاوّلي ثم رأس الرميلة بقربة من الاوّلي ولهذه الرؤوس الثلاثة ثلاثة جُزُر تجاورها وفي اثرها اخيرًا رأس صرفند بين صيداء والليطاني على نحو نصف الطريق بينهما وبعد هذا الرأس لا يخالف الساحلُ الخطّ المستوي الى نهر القاسميّة

*

قد لحظ قرّاؤنا في ما سبق لنا من وصف الساحل الفينيقيّ انّنا لم نأتِ بذكر الجُزُر وعدمُ وجودها ممّا يزيد في وحدة اتّساق هذا الساحل · على انهُ في مرفأ طرابلس من جهتها الجنوبيّة الغربيّة عدّة جُزُر تدعى اكبرها النخلة وهي تبلغ نحو مئتي متر بنيّف وقد فكّرت الحكومة السنيّة غير مرّة بنقل الحجر الصحي والبضائع الموبوءة اليها

ومع قلّة الجزائر في سواحلنا قد توفّرت الصخور البحريّة وهي كانت سابقاً متّصلة بالساحل لاسيّما بالرؤوس البحريّة · وكثير منها لا تطفو فوق المياه وفي مصادمتها خطر متواصل للسفن التي تلامس نواحينا وخصوصاً اذا جرت قريباً من الرؤوس المذكورة

وممّا سبق يلوح جهارًا بانّ السواحل الفينيقيّة لم تعدّها الطبيعة لمتاجرة البلاد ولسكنى قوم من البحّارين اذ لا تكاد تجد عندها مرفأً صالحًا كما انهُ ليس فيها نهر داخليّ يمكن خوضهُ · هذا فضلًا الى استقامة خطّها الساحلي الذي تكثر فيه الرؤوس والصخور دون خلجان او اخوار تأوي اليها المراكب ودون جزيرة تستلفت اليها انظار البحرين

ومع كل ذلك ترى التاريخ يشهد لعظم تجارة الفينيقيين واتساع نفوذهم ووفرة مقايضاتهم · أفليست مناقضة بين هذين الامرين ? لا لعمري لانّ لفينيقية موقعًا خُصّت

بهِ دون غيرها وذلك لتوسّطها بين جهات الممالك الشاهانيّة ووقوعها في طرف آسيّة غرباً فتجمع بين الشرق والغرب . وان قيل انّ جبل لبنان حاجز شاهق يحول دونها اجبنا انّ لهذا الجبل في شماليّه وادياً عميقاً وهو وادي النهر الكبير يمكن القوافل ان تسير في بطائحهِ فلم يَسُدّ الفينيقيون عن طرقهِ مع ما طُبعوا عليهِ من التفنن في ترويج الصنائع التجارية . فان اهل فينيقية ادركوا ما خصّ الله بهِ من حسن الموقع مواطنهم فكدُّوا وجدّوا لتحسين شؤونها والتعويض عمّا ينقصها . ولذلك جروا في مسالكها الطبيعيّة وفتحوا لها مرافئ صناعيّة كافية لسفن تلك الاعصار وهي زوارق مسطحة قليلة العمق كان يكفيها ما لا يكفي في زماننا للسفن المتوسطة الكبر

ومن فحص المدن الفينيقيّة وتبحّر في وضعها السابق استدلّ على انّ اصحابها كانوا من مهَرة البحّارين كما نعرف قوّة اجنحة الطائر بعلوّ طيرانهِ وسرعة جريهِ . ومما لا ريب فيه انّ البحر كان موطن الفينيقيّ وكان لا يرى في البرّ الّا مقاماً موقّتاً يبني فيه كالطائر عشّهُ لتأوي اليهِ حيناً فراخهُ ثمّ يعود ذلك البحّار فيخوض مجاري البحر بارتياح كما تجد السمكة راحتها في غمر المياه

وهذا ما حمل الفينيقيين على ان يستخيروا لسكناهم الالسنة والرؤوس الداخلة في البحر وان قلّ ماؤها الشروب او بعدت عن مصبّ الانهار اللهمّ الّا بعض مستعمراتهم كبيروت التي توفّرت المياه في آبارها فاشتُقّت منها اسمها . واستوطنوا بعض جُزُر كصور وصيداء اللتين كانتا سابقاً في جزيرتين . امّا الغالب على المدن الفينيقيّة فبناؤها على الرؤوس البحريّة وذلك لسببين يهمان البحّارة عادةً الاوّل انّ السفن تكون وراء هذه الرؤوس في مأمن من تراكم الرمال الذي يحصل قريباً من مصبّ الانهار والثاني انّ المياه تكون ثمّة ابعد غوراً من امكنة سواها . والدليل على حسن اختيارهم لهذه المواقع انّ مقام المدن الساحلية لم يتغيّر منذ نحو اربعة آلاف سنة ولم تنشئ الشعوب التي خلفت الفينيقيين مدناً غير ما سبقهم اليها الفينيقيّون وان كان بعض المدن القديمة قد انحطّ شأنها انحطاطاً كبيراً

*

هذا وقد بقي علينا البحث عن امر آخر لهُ علاقة مع وصفنا السابق لسواحل

لبنان . نزيد الكلام عن المرافئ التي تفتح للمدن الساحليـة مسالك تجاريّة مع باطن البلاد وتقرّب الوسائل لمواصلة الاطراف القاصية والجمع بين الاهلين

وان اعتبرنا اوّل مدينة من فينيقية الشماليّة اعني طرابلس الشام وجدناها خاليةً من المرفإ مع انّ الطبيعة قـد خصّت طرابلس بما يجعلها من امّهات المدن . فان موقعها قريباً من وادي نهر الكبير ومركزها المتوسط بالنسبة الى جهات سوريّة لا سيا قربها من وادي العاصي واتّصالها بالبقاع وانحاء دمشق لما يمتدّ بينهما من السهول الجامعة بين اقاصيهما فان بُني لها مرفأ واتّصلت بهـا اسلاك السكك الحديديّة اضحت احدى حواضر بلاد الشام بل جاز ان تكون مرفأ لحلب وهي احرى بذلك من بيروت

والحائل الكبير دون ابتناء ذلك المرفإ في طرابلس لا تكون الامر مستحيلًا بل لما يقتضيه من النفقات الباهظة . وممّا لا ينكر ان الصخور الطافية على وجه البحر من جهة الغرب يسهل استخدامها لصيانة هذا المرفإ من الريح الغربية التي يكثر هبوبها في سواحلنا . وكذلك يمكن ان يُسند الى هذه الصخور شمالًا حاجز يقوم في وجـه الامواج الشماليّة . لولا انّ ابتناءه يقتضي مبالغ عظيمة لبُعد قعر البحر من جهة الشمال وهو يبلغ ضعف عمق بيروت اعني ثلاثين مترًا ثم انّ شاطئ البحر على طول كيلومتر بنيّف قليل الماء فيستلزم لاصطناع مرفإ اعمـالًا ترابيّة مهمّة . وقد فكّرت الحكومة السنيّة غير مرّة باصلاح مرفإ طرابلس . فمن ذلك ان صاحب الدولة فهمي حسن باشا وزير الخارجية وضع للحكومة السنيّة تقريرًا بيّن فيه ضرورة ابتناء مرفإ طرابلس وقدّر النفقات لهـذا المشروع بنحو ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنك . وعادت احدى الشركات الوطنيّة الى النظر في هذا الامر سنة ١٨٨٩ وبحثت عنهُ وعن السكة الحديدية بين طرابلس وحمص لما بين المشروعين من العلاقة اللازمة فكانت نتيجة البحث انهُ يلزم لذلك ١٤ مليونًا من الفرنكات ولعلّ ضعف هذا المبلغ لا يفي بالمرغوب

وان نظرنا الى البترون وجدنا انّ وَضعها الجغرافيّ لا يناسب فتح مرفإ فيها لوقوعها قريباً من رأس الشقعة وفي سفح مشارف لبنان الشاهقة . وزد على ذلك انّ شطّها كثير الصخور. وان صحّ قول المؤرخ مالالا ان الزلزلة التي حدثت على عهد يستنيان أجدت البترون مرفأً فذلك قول لا يمكن بيان صحّتهِ اذ لا نجـد اليوم لهُ اثرًا بل تستحيل الدلالة على مكانه

وللجبيل مرفأٌ صغير طولهُ مئتا متر في عرض مئة متر (١ وليس من حاجة الى توسيع نطاقهِ لقلّة الحركة التجاريّة فيهِ ولعدم اتصالهِ بالاراضي الداخليّة

امّا جونية فقد مرّ الكلام عنها سابقاً فلا نعود اليهِ . وكذلك نضرب الصفح عن بيروت ولها المرفأ المعروف الحديث النشأة الكافي لتجارتها الحاليّة . فلم يبقَ لنا لتمام هذا الفصل سوى البحث عن مرفإٍ لصيداء

يلوح انّ مدينة صيداء القديمة كانت جزيرةً كما كانت صور رصيفتها وكان لها مرفآن احدهما في جنوبها والآخر في شمالها . وكان الاول يُدعى بالمرفأ المصري وقد تراكمت فيهِ الرمال التي سفتْها الرياح الجنوبيّة الغربيّة من جوف النيل فانسدَّ بحيث لا يمكن استعمالهُ . امّا المرفأ الشمالي فاحسن وضعاً تصونهُ صيانة كافية الصخور التي تمتدّ حولهُ . الا انهُ صغير طولهُ ٦٠٠ متر وعرضهُ مئتان ولا تدخلهُ الّا المراكب الشراعيـة ولما عاد الى صيداء قسم من حياتها التجاريّة في القرن السادس عشر كانت السفن ترسو شماليّ هذا المرفإِ في نوع من الميناء مفتوح من الطرفين ووراء جزيرة صغيرة من الصخور التي فوقها كان بُني قصر قديم . وكانت السفن في مأمن من الريح الصرصر التي تهبُّ من الجنوب الغربي الّا انّها كانت معرَّضة للرياح الشماليّة وليست هي دونها خطراً . والرسوّ في هذا المكان صعبٌ جدًّا لانّ قعر البحر هناك صخريّ لا تنشب فيهِ المراسي فضلًا عن انّ القلوس كانت تفنى بالاحتكاك . الّا انّ هذا المرفأ كانت تحميهِ قلعةٌ مبنيّة على صخر بحريّ بازاء البلدة وهي متصلة بالبرّ بجسر متعدّد القناطر (٢ . امّا اليوم فليس هذا المرفأ بكافٍ للسفن البخاريّة لقلّة عمقهِ ولذلك ترسو بعيدًا من الشاطئ

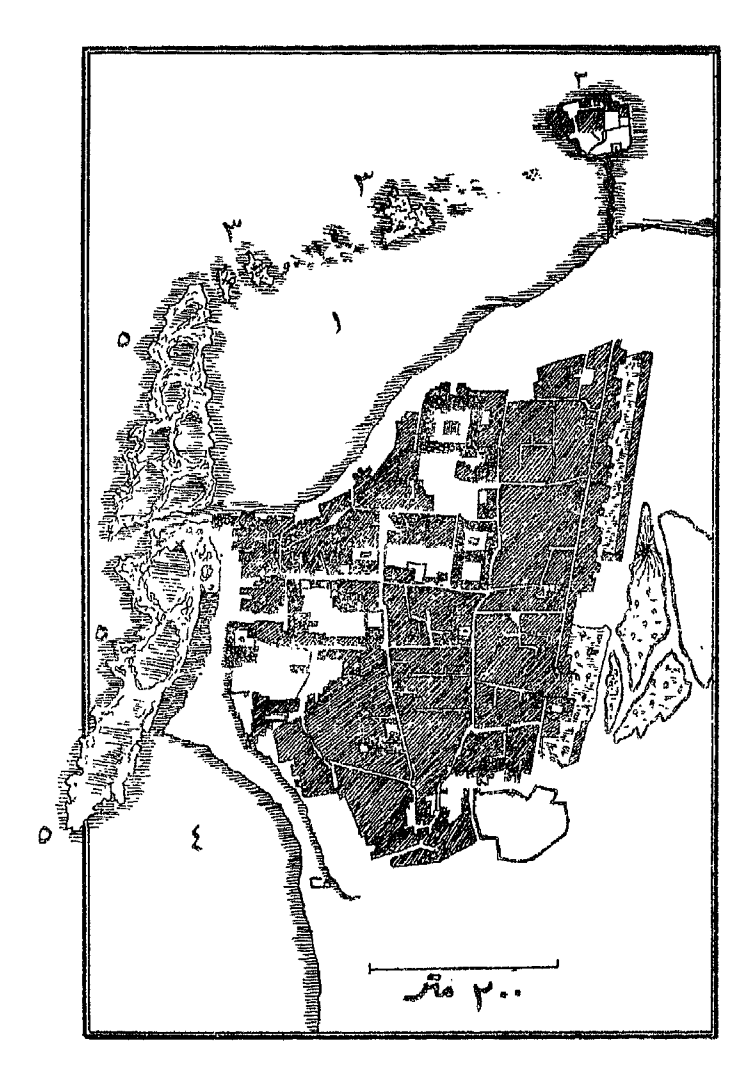
وبقي هذا المرفأ مع خللهِ الى غاية القرن الثامن عشر موردًا تتقاطر اليه السفن التجاريّة . وكانت تجارة دمشق تنصرف اليهِ . ثم بطل بفعل الزمان وعندنا ان هذا المرفأ قد سدَّتهُ العوامل الطبيعيّة . وان قيل انّ لصيداء مرفأً داخليًّا يمكن اصلاحهُ

---

١) راجع رسمهُ ص ١٥١

٢) راجع كتاب المسيو ماسون (Masson) عن التجارة الفرنسية في البلاد الشرقية ص ٢٨٣

اجبنا انَّ الامر ليس بسهل مهما قالهُ المسيو لورته في كتابهِ عن سوريَّة (ص ٩٨) . امَّا المرفأُ الشمالي السابق وصفهُ والمصون بقلعة البحر والجسر ذي القناطر فان اراد احد اصلاحهُ عجز عن ذلك ان لم يضع حجريَّة موازية للشاطئ يبلغ عرضها ٦٠٠ متر ليكون



صورة مرفإ صيداء

١ المرفأُ الشمالي ٢ قلعة البحر ٣ بقايا الرصيف القديم ٤ المرفأُ الجنوبي ٥ جزر صخريَّة

ثمّة عمق المياه ستّة امتار ثمّ يقتضي ابتناء سدّ يستند الى القلعة ومع كل ذلك يكون هذا المرفأ عرضةً للريح الشماليّة . وعليـهِ فانّنا نرى مع الانكليزي لوڤت كامرون (Lovett Cameron) ان هذا المرفأ لا يكون موافقاً للتجارة ما لم تُنفق عليـهِ النفقات الطائلة (١) . اما البلاد الداخليّة المتّصلة بصيداء فقليـلة الخصب . ولا أمل في جعل هذا المرفإ فرضة لدمشق اذ انّ بين صيداء ودمشق حواجز من الجبال كما بين دمشق وبيروت . وعندنا انّ هذه النفقات لو صُرفت على طرابلس لكان الربح اوسع والنفع اعمّ والله اعلم

١٤

لمحة اقتصاديّة

في مجاري المياه اللبنانيّة

قد ذكرنا غير مرّة في ما سبق من كتابنا انّ لمجاري المياه في لبنان عوائد جمّة ودوراً مهمّاً في اقتصاد الاهلين . الّا انّ كلامنا هذا كان منبثّاً في مطاوي ابحاثنا السابقـة ولعلّهُ لم يستلفت اليهِ انظار القرّاء فرأينا العود الى هذا الموضوع احمد لعظم شأنهِ ولذلك افردنا لهُ فصلاً مفرداً نبيّن فيهِ ما تحويهِ هذه المياه من الكنوز الدفينة التي جعلتهـا العناية الالهيّة في ايدي الوطنيين ومن ثم نبحث اوّلاً عن المبادئ العمومية التي يستند اليهـا هذا البحث ثم نتتبّع مجاري المياه فرداً فرداً لنرى مـا يستفاد من كلٍّ منها وذلك خصوصاً على ثلاثة وجوه : إمّا بالريّ لتُسقى المزدرعات التي تيبس دون الماء . وإمّا بتحريك ادوات المعـامل بدلاً من الفحم واصناف الوقود . وإمّا بنقل الماء الشّروب الى المدن الكبرى المحتاجة الى مناهل يستقي منها السكّان

(١) راجع الترجمة الفرنسية لكتابه Future route des Indes, p. 246

١
المبادئ العموميَّة

قد اتاح الله لبلاد سوريَّة قوًى طبيعيَّة عجيبة لو استفاد منها الاهلون لوجدوا فيها موارد ربحٍ لا تفنى لولا انَّ هذه القوى تذهب سدًى وتتلاشى دون فائدة بحيث يصحّ القول انهُ ليست الطبيعة تقصّر عن خدمة الانسان وانَّما الانسان هو المقصّر في استخدام قوى الطبيعة مع قرب منالها . والحقّ يقال ان مجاري المياه اللبنانيَّة كافية لان تحوّل بلادنا الى بُقع زاهية بسعي شركات زراعيَّة او تغنيها بالمعامل الصناعيَّة فيقتات من ارباحها الوفٌ من السكان الَّا انَّها تنحدر في الغالب الى البحر بلا فائدة او تستنقع في البطاح الوبئة لا يُستثنى من هذا الحكم الَّا نهر او نهران يستنزف اللبنانيون مياههما لريّ المزدرعات . اما نتيجة هذا التهامل فبئست النتيجة اذ ترى الارض في فصل الشتاء مغمورة بالمياه المفرطة المضرَّة بالزراعة وبالصحَّة العموميَّة معاً وفي الصيف تنقص المياه وتنضب الى ان تيبس البقول ويتلف اهل بعض المعاملات عطشاً مع قطعانهم

وفائدة المياه ظاهرة في الزراعة لا يجهل ضرورتها احد . بيد ان قليلين يدركون علَّة ذلك وباي طريقة تعمل المياه في النبات

ان عمل المياه في الفلاحة يكون خاصةً على وجهين مختلفين : الاوّل ببرودتهِ والثاني بتركيبهِ الكيمويّ . وذلك انَّ الماء اذا نفذ في الارض لطَّف حرارتها وابطأ نموّ النبات ولولا السقي لزكا قبل اوانهِ ويبس دون ان ينال من الغذاء ما هو ضروري لنموّهِ القانونيّ . ويصيبهُ ما يصيب الولد اذا نشأ وكبر قبل السنّ الطبيعيّ فربَّما اداهُ نموُّهُ الى ان يميتهُ . فكذلك النبات لا يأتي بثمرهِ او يكون ثمرهُ قليلًا تافهاً . وقد ادرك العامَّة هذه الحقيقة في بعض امثالهم الشائعة فقالوا عن البذور النامية بسرعة وافراط « طويل بلا غلَّة » لعلمهم بانَّ الزكاء الظاهر ليس بدليلٍ على كثرة الاثمار

امَّا كون الماء يفيد النبات بتركيبهِ الكيمويّ وجوهرهِ فذلك لانهُ يساعد النبات على تحليل المواد المغذية وتركيبهِ منها اجزاءهُ الكربونية وعلى امتصاص الاملاح المعدنية من الارض بما يجديهِ للنبات من الرطوبة . ولعلَّ فعلهُ اشدّ واقوى بما يجرفهُ في

سيره من التربة ويسحبهُ من بقايا النبات والاجرام المختلفة . وهذه المواد المجروفة تحتوي عناصر مخصبة اذا ما رسبت واختلطت بالتربة الزراعية اصلحتها وصارت لها بمنزلة السماد وربَّما بلغت كميَّة هذه التربة التي تجرفها الانهار الوف الوفٍ من الطنَّات . قال اليزاي روكلو في جغرافيتهِ (ج ٢ ص ٦٧٨) : ان نهر دورَنس احد انهار فرنسة الجنوبيَّة يجرّ في السنة نحو ١٨,٠٠٠,٠٠٠ طن من التربة المجروفة وذلك ما يساوي مكعَّباً جهاته ٢٢٠ متراً رسبت على سطحٍ متساوٍ في طبقة سمكها سنتيمتر واحد لكان متَّسع الارض التي يخصبها في السنة مئة الف هكتار » . وهذه التربة المجروفة معدَّة احسن إعداد لنموّ النبات تستخلص جذورُهُ منها كميَّةً من الازوت المغذي اكثر من كميَّة ١٠٠,٠٠٠ طن من سماد الغوانو المعروف بخصبهِ . فلا غروَ اذا كرَّرنا مع الطبيعي الشهير طوريشلّي : « انَّ الطين الذي تجرفهُ المياه اثمن من رمل الذهب » . ولعلَّ ذلك ما دعا قدماء السوريّين بان يسمُّوا « نهر الذهب » (Χρυσορρόας) بعض الانهار التي تجري في بلادهم كنهر بردَى في دمشق ونهر جَرش ما وراء الاردن والنهر الذي كان يجري بجوار مدينة لوقاس (وهي مدينة لم يُحدَّد موقعها حتى اليوم) فليت شعري من يمكنهُ ان يثمّن ما اتت بهِ كل هذه المياه من الكنوز الزراعيَّة منذ مئين من السنين . أفليست هي حقيقةً اثمن من معادن الذهب التي تفنى كنوزها بعد مدة قليلة ؟

ولنا في النيل مثال قريب عن منافع هذه الجروف التي تسحبها الانهار فانَّ هذا النهر العظيم في فصل الفيضان يدحو كل يوم ما ينيف عن الف الف كيلو من الموادّ النطرونيَّة ويصبّها في البحر وهو مع ذلك يُخصب في طريقهِ مسافاتٍ قدرها ملايين من الفدادين . ومع انَّنا لا نعلم بالضبط بطريق التحليل الكيمويّ ما تحتويهِ المياه السوريَّة من الثروة المعدنيَّة الّا انهُ لأَمر مقرَّر انَّها غنيَّة بها وكفاك دليلًا ما يُستفاد بالمقابلة . فانَّ الاختبارات الجيولوجيَّة في اوربَّة بيَّنت ان معدَّل ما يدخل من نيترات البوطاس في متر مكعَّب من مياه العيون والانهار الجارية في الجبال المركَّبة من الطباشير يبلغ ١٣ غراماً اما النسبة فتختلف بين ستة غرامات الى ستين غراماً ومعلوم انَّ عنصر الطباشير هو الغالب على جبالنا فلا بدَّ ان تكون نسبة نيترات البوطاس في مياهنا اقرب الى ستين غراماً لارتفاع درجة الحرارة عندنا فترى من ذلك ما تكسبهُ السهول المركَّبة عادةً من الصلصال اذا اختلطت فيها هذه المواد الطباشيرية لانَّ الصلصال

انّما تخصبهُ العناصر الكلسيَّة التي تحلّلها المياه · ومن ثمَّ ينبغي على الاهلين ألّا يفقدوا شيئاً من هذه الكنوز ولا يدَعوها تستنقع في البطائح او تنصبُّ في البحر دون فائدة

هذا وانّنا نعلم انَّ كل المياه لا تصلح لتدسيم التربة لانَّ ذلك منوط بتركيبها الّا انّها كلّها تلطّف الحرارة بطراوتها وتفيدها نداوةً وتزيدها خفّةً وتسهّل فلاحتها للناس وللبهائم ثم تحلّل العناصر المخصبة فتنفذها في بطن الارض وتقسّمها اقساماً متساويةً وتزيد مرافقها وغلّاتها على قدر ارتفاع درجة الحرارة حتى انَّ التربة يمكنها ان تأتي في السنة الواحدة بغلّتين متواليتين بدلًا من غلّة واحدة غير مستوفاة في الاراضي اليابسة وذلك رغماً عمّا يطرأ على الهواء من التقلّبات الجوّيّة · فهذا لعمري نفع جليل لا يوازيهِ آخر فكم رأينا من الزروع المفقودة امّا لقلّة الامطار او لتأخر وقوعها بعد ان امتصّت حرارة الصيف نداوة الثرى · وخلاصة القول ان السقي المنظَّم هو الذي يُزكي المزدرعات ويبرّد لظى القيظ بطراوة مناسبة لكلّ قطر ويُغني التربة بالسماد مجّانًا ويخالط العناصر فيخصبها بلا نفقات ويكثر غلّاتها بلا تعب ويأتي اخيرًا بالثروة والراحة (١

ولهذه الانهار في غير بلادنا نفعٌ آخر لم نحصل نحن عليهِ وهو خوض هذه الانهار وركوبها بحيث تصير كطريقة للمواصلات التجاريّة · وقد حُرمنا ذلك لاسباب منها قلّة مياه هذه الانهار او بالاحرى هذه الجداول واختلاف كميّتها في فصول السنة · اجل ان بعض هذه المجاري كالنهر الكبير والليطاني كثيرة المياه في ينابيعها ورؤوس عيونها الّا انها تجري في المضايق وبين الجنادل والصخور التي تعيق مسيرها فلا يمكن ان تحوَّل الى مجارٍ مستقيمة السير متساوية العمق مستوفية لشروط الملاحة وقد شبّهها الاقدمون بضواري السباع الشرسة الطباع من اسد وذئب (٢ لشدَّة جريها واندفاع مياهها

فبعد هذه المقدّمة هلمّ نبحث عن كل نهر بانفراده لنستدلّ بوضعهِ عن الفوائد التي يمكن نوالها من مياههِ من حيث الوجوه الثلثة التي سبق ذكرها اعني الريّ وتحريك المعامل وتزويد المدن بالمياه

---

١) راجع كتاب الاديب وديع مدوّر المنون سوريّة الزراعيّة (La Syrie agricole, P. 74, 84-85)

٢) دعا الاقدمون نهر الكلب باسم نهر الذئب (Λύκος) والليطاني نهر الاسد (Λέοντος πόταμος) راجع كلامنا السابق (ص ٢١)

٢

كيفية الانتفاع من الانهار اللبنانية

فلنباشرنّ بالانهار الجنوبية واوّلها (الليطاني) وبما انّ هذا النهر يجري بادئ بدء في السهل فلنبحثنّ عن جريهِ في البقاع وخصوصاً عن ضفّتهِ الغربيّة لانّ الضفّة الشرقيّة لاحقة بالجبل الشرقيّ ثمّ نتّبعهُ الى مصبّهِ في البحر

ليس نهر الليطاني قبل بلوغهِ المعلّقة الّا مسيلاً قليل المياه بطيءَ السير لا يفيد الزراعة افادةً تُذكر فيستنقع في السهل وانما يُضحي مجراه حثيثًا ما وراء معلّقة زحلة حيث ينصبُّ فيهِ البردوني. والبردوني نهر غزير لا تنقطع مياههُ صيفاً وشتاء تمدّه الثلوج الغرّاء المتجمّعة في قمم صنّين وهو كافٍ ليس فقط لان يحرّك الطواحين التي تُرى اليوم



منظر الليطاني قريباً من قرية برغش

في طريقهِ ولكن يمكنهُ اذا بُنيت لهُ قناة حسنة ان يزوّد بالماء الشروب كل مدينة زحلة ومعلّقتها اعني ٢٥,٠٠٠ نفس . وهو على خلاف ذلك لا يُستعمل الّا كمجرى لاوساخ المدينة فترى مياههُ الزلاليّة عند معينها تنصبُّ متعكّرة سوداء في الليطاني . فيا ليت شعري أهكذا تُفقد كنوز هذا النهر الذي لا يقلّ طول مسيره عن ٢٤ كيلومترًا ؟

واذا سرتَ ونهر الليطاني جنوباً وجدتهُ يزداد ويقوى بما يجري اليهِ على ضفّتيهِ من السواعد كشتورا ونهر عين جار ومياه قبّ الياس وعين قلعة المضيق الى غير ذلك من الجداول الصافية المتحدّرة من لبنان ومن الجبل الشرقي الغنيّة بالمواد الكلسيّة . وهذه المياه لو اتُّخذت لسقي سهل البقاع لنفعت تربتهُ الصلصاليّة واصلحتهُ لولا انّ هذا النهر يبلغ حينئذٍ في طرف السهل الجنوبيّ الغربيّ مضيقاً بعيد الغور مرتفع الضفّتين بحيث لا يمكن الاستفادة منهُ لا للزراعة ولا للصناعة . وبعد اجتيازه في هذا الغور العميق يندفع بقوّة عظيمة وهو عند مخرجهِ يُدعى بالقاسميّة ثم لا يزال جارياً حتى ينفذ في البحر . ولو سعى بعض اهل الهمّة لأمكنهم ان يستفيدوا من مجراه فيسقوا الضواحي القاحلة التي بين صور ومصبّ هذا النهر فيكسبوا الزراعة مساحةً تبلغ ستّة كيلومترات طولًا في عرض كيلومتر بنيّف ويحوّلوها الى بقعة كثيرة المرافق طيبة الاثمار كبقعة صيداء المشهورة بخصبها وهي اوسع منها خمسة او ستّة اضعاف . وما خلا السقي يجوز ايضاً استعمال هذه المياه للمعامل الصناعيّة بان تُحصر وتُجعل على شبه شلّالات متحدّرة

*

(الزهراني) هو من اطول الانهار اللبنانيـة مسيلًا ومياههُ قليلة لاسيّما في فصل الصيف . واذا بلغ الجهات السفلى ادار نحو ثلاثين طاحوناً وسقى بعض الحقول . لكنّ كثيرًا من مياههِ لا تأتي بفائدة فلو استُعملت لسقي السهل المنبسط عند مصبّهِ لأضحت حدائق صيداء ثلاثة اضعاف ما هي اليوم وزادت ارض الفلاحة نحو الف هكتار بدلًا من الارض البوار التي تُرى هنالك قاحلة يابسة لا يزكو فيها زرع اللّهمّ الّا بقعاً قليلة السعة تأتي بغلّات ضاوية

واعلم انّ مسيل الزهراني عند اقترابهِ من البحر هو دون سهل صيداء فاذا عوّل

الاهلون على استخدام مياههِ ينبغي لهم ان يبتنوا لها قناةً في علوّ الوادي فيقتسمونها على مقتضى حاجات ارباب الفلاحة · وحريٌّ بهذه المياه وان كانت اقل من مياه الاوّلي أَلّا تُترك سدًى ولا تُهمل فتتجمّع في مستنقعات وبيئة · وكان الرومان قد ادركوا نفعها فوضعوا للزهرانيّ قناةً عند عينهِ تراها منقورةً في الصخر وهي تتّصل بقناة أُخرى مبنيّة بالحجارة المملّطة تتبع الوادي وتدور حول الجبل متواصلةً بصيداء · ومن المرجّح انَّ اهل صيداء قديمًا كانوا يشربون من مياه هذا النهر فيفضلونها على مياه الاولي ولذلك لم يأنفوا من كثرة النفقات لجلبها من معينها (١

(الاولي) من الانهار التي يقدّر نفعها الاهلون · كيف لا وهو غزير المياه يستلفت اليهِ الانظار بوفرة مادّتهِ · وقد عرف الشيخ بشير جنبلاط في اوائل القرن التاسع عشر ما لهذا النهر من الجدوى فاتخذ لهُ قناةً جعلها عند نبعهِ الباروك فجلب الماء الى المختارة وقسمها من ثم بين القرى المجاورة فاحالها الى جنّات غنّاء تشبه غور دمشق الشهير بخصبها · وفي وادي بسري قناة اخرى قديمة تجمع المياه لمنفعة اهل صيداء فيستخدمونها لسقي البساتين وشرب السكّان · ثمَّ تنفذ في قناة تحت الارض وتسيل الى البلد حيث يستفيد منها الصيداويّون لخدمة نحو ٨٠ بناية عمومية من مساجد وكنائس وحمّامات وتُقسم الى ٩٢ مأسورة فتسقي كل احياء البلدة · واذا اضفتَ الى ذلك عدّة طواحين تديرها المياه عرفتَ غاية ما ينالهُ الاهلون من الاوّلي · ألّا انَّ هذه المنافع بالنسبة الى غزارة النهر قليلة اذ لا يستفيدون الّا من ثلث مياههِ فيضيع منهُ ثلثان في البحر · ولو شاءَ الصيداويّون لأَمكنهم ان يربحوا من هذا النهر فوائد جمّة بنفقات قليلة فيتّخذوا المياه المفقودة لمعامل شتى ولتوسيع نطاق بساتينهم التي هي مورد ثروتهم

(الدامور) يصحُّ فيهِ قولنا عن الاوّلي · فانَّ هذا النهر كثير المياه غير انَّ معظم مياههِ تنصبُّ في البحر بلا نفع · وان امعنت النظر في الخدم التي يؤديها وجدتها قليلة بالنسبة الى وفرة مادّته فانهُ في سيرهِ الاعلى وعلى مقربة من مصبّهِ يدير عددًا من الطواحين · امّا بين هذين الطرفين اي من جسر القاضي الى السهل فانهُ يسير في وادٍ

١) راجع مقالة لروبنصون في المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG VI, 39

عميق ضيّق لا يمكن تجهيز الطواحين عنده . وقد كان الامير بشير عمر الشهابي ابتنى قناةً من نهر الصفا احد سواعد الدامور وجرّ ماءهُ الى بيت الدين فانتفع بهِ اهلها واهل دير القمر . وهذه القناة لا تزال حتى اليوم تواصل خِدَماتها لسكّان تلك الناحية . ثم ان مياه الدامور تسقي ايضاً مزارع التوت في جهات المعلّقة وتجعل أرباضها كرياضٍ فيحاء وحدائق غنّاء يندر مثلها في بلاد الشام . على انّ كل ذلك قليل بالنسبة الى ما يُمكن تحصيلهُ من هذا النهر فاو وُسّعت قنواتهُ لاستطاع اصحاب المعامل (الكراخين) ان يولّدوا من تحدُّر ميـاههِ قوّةً كهربائيةً كافية لتدوير دواليبهم وان يسقوا السهول الرحبة التي بين المعلّقة وخَلْدة . وقد زادت اليوم منافع المياه منذ نُجزت طريق العجلات بين بيروت وصيداء فاخذ عدد السكّان ينمو وهم يحاولون الارتزاق بالزراعة الّا انّ مساعيهم سوف تخبط اذا لم تتوفّر كميّة المياه التي يحتاجون اليها

(نهر بيروت) يأتي بالمنافع المنتظرة منهُ فانهُ يحرّك الطواحين العديدة ويسقي السهل كلهُ ولذلك ترى مسيلهُ يابساً في وقت الصيف من الجسر الذي بنـاه المرحوم رستم باشا . واذا بلغ الى البحر منهُ شيء فذلك من فضلات القنيّ بعد سقي المزروعات وهذه القنوات غير محكمة تسيل منها المياه وتنبسط في سهل بيروت وانطلياس ولا تلبث ان تتحوّل الى مستنقعات تنبعث منها الجراثيم الوبيئة المسببة للحمّيات الملاريّة . ولو بُنيت هذه القنيّ بعلةٍ كافية لتحدّرت الى البحر . هذا ولا يُنكر انّ المزارع في هذه السنين الاخيرة قد اتّسعت فتحسّنت بذلك احوال الجوّ وقلّت الحمّيات نوعاً . وأملنا أنّ الزارعين يفرغون المجهود ويضاعفون العناية في اصلاح مـا بقي من الخلل لتزيد بذلك ارباحهم ويتلاشى كل خطر على الصحة العموميّة

وفي القسم الاوّل من كتابنا « تسريح الابصار » (ص ٢٨ — ٢٩) وصفنا القناة التي عُني ببنائها القدماء لسقي سهل بيروت وجلب المياه العذبة للبلدة . ومن اعتبر مشروعهم هذا اخذه العجب من حسن نظرهم واصابة رأيهم وكفـاهم فضلًا انّ مياههم كانت تجري الى بيروت بقناة مغطّاة بصفائح الحجارة فتأتيهـا صافيةً باردة يتهنأ بشربها السكان دون خطر من الجراثيم المُعدية

(نهر انطلياس) استفاد منهُ مدّةً احد افاضل الوطنيـين لانشاء معمل ورق اضطرّتهُ الظروف الى تركهِ ومياههُ تدير بعض الطواحين الآن انّ تسعة اعشارهـا لا

تجدي نفعاً فتذهب سدًى وتنصبُّ في البحر بعد قطعها مسافةً قليلة

*

(نهر الكلب) ان مياه هذا النهر تؤدي خدماً عديدة كسقي المزدرعات وتدوير الطواحين . الّا انّ فائدتها العظمى ريّ بيروت وترويد اهلها بالمياه الطيبة بفضل شركة المياه المعروفة التي ذكرناها غير مرّة في مطاوي ابحاثنا السابقة . ومياه نهر الكلب تُخزَن ليس بعيداً من منبعها فتجري في قناة مكشوفة فتتبع تعريج الوادي وتوريبهُ حتى تقرب الى نحو عشر دقائق من مصبّ النهر في البحر فتنفذ في القلّة التي يعلوهـا دير مار يوسف البرج وتجري الميـاه في سرب يؤدي بها الى الضبيَّة . وقد جعلت من مسافة اخرى كُوًى نُقرت في عطف الجبل لرحض القناة اذا دعت اليهِ الحـاجة ومن الضبيَّة ترى القناة مكشوفة حتى تبلغ اخيرًا معمل الشركة حيث ادواتها الدافعة ومصافيها قريباً من محطَّة الضبيَّة وفي المعمل رقَّاس مائي يدفع الماء في القساطل التي تجلبهُ الى بيروت . واذا قلّت المياه في فصل الصيف اتخذوا آلة بخاريَّة جهَّزوها منذ بضع سنوات لوقت الحاجة . ولهذه المياه احواض عديدة في تلّ مار متري تتجمَّع قبل ان تُقسم على احياء المدينة . وامتياز هذه الشركة كانت الدولة العليَّـة منحتهُ للمهندس الفرنسوي المسيو تڤنين الذي نال ايضاً من تعطُّفاتها امتياز ابنية المرفأ سنة ١٨٨٢ ثمَّ تشكَّلت شركة المياه كما هي اليوم سنة ١٨٧٦ وأُنجزت بعد مدَّة الاعمال التي بوشر بها قبل ذلك العهد بسنة وعُرفت مذ ذاك بشركة مياه بيروت Beyrouth Water-works Company limited ولمَّا انتهى حديثاً زمن الامتياز الممنوح لهـذه الشركة جدَّدتهُ على شروط اشترطتها عليها الحكومة السنيَّة منها ان تخفض اجورها وان تمنح مجاناً كل يوم ٢٥٠ مترًا مكعَّبًا من الماء وان تنقص قسط البلدية الى ١٥٠٠٠ فرنك واذا استهلكت ديونها مع دفع الفائدة يكون ثلث الارباح لبلديَّة بيروت

هذا وان الاطّلاع على احوال هذه الشركة لأَمرٌ صعب جدًّا فلا يمكننا ان نعلم عن مدخولاتها ومصاريفها الّا شيئاً قليلًا استفدناه من تقرير بعض الانكليز . من ذلك انّ الشركة كانت ربحت في سنة ١٨٨٤ ١٤٣٢٨٧ فرنكاً وان عدد المشتركين كان ١٥٦٣ وليس لدينا تفاصيل لما قبل هـذه السنة . ودونك جدولًا اخذناه ايضاً من مصادر انكليزيَّة يبيّن اجماليًّا حالة اعمال الشركة من السنة ١٨٩٠ الى ١٨٩٦

السنة	المدخول	المصروف	الربح الخالص	الاشتراكات	اشتراكات السقي
١٨٩٠	٣٠٢,٦٩٥ ف	٠٧٨,٦٧٤ ف	٢٢٤,٠١٧ ف	١٩٨٢	١٣٧
١٨٩١	« ٣١٢,٤١١	« ٠٨١,٧٥١	« ٢٣٠,٦٩٠	٢١٣٠	١٢٥
١٨٩٢	« ٣١٤,٨٦١	« ٠٨٧,٨٠٤	« ٢٢٧,٠٥٧	٢١٤٦	١٤٣
١٨٩٣	« ٣٢٢,١٦١	« ٠٩٦,٥٣٤	« ٢٢٥,٦٢٦	٢٣٢٣	١٤٢
١٨٩٤	« ٣٤٣,٠٦٣	« ٠٩٦,٢٩٣	« ٢٤٢,٨٦٩	٢٤٨٠	١٥٠
١٨٩٥	« ٣٥٢,٣٤٧	« ١٢١,٥٦٤	« ٢٣٠,٨٨٢	٢٨١١	١٣٧
١٨٩٦	« ٣٥٠,٢٨٠	« ١٢٠,٩٦٠	« ٢٢٩,٣٢٠	٢٨٩٦	١٥١

والشركة رأس مال قدره ١٤٤٠٠٠ ليرة انكليزيَّة ويظهر من ترقّي اعمالها وزيادة عدد مشتركيها واسراعها في تجديد الامتياز الممنوح لها ان امورها على قدم من النجاح هذا فضلًا عن ارتفاع اسعار الاقساط . على ان الشركة قد تحمَّلت نفقات في جلب المياه خصوصاً لاجرة العمَلَة التي حُسبت في اليوم كما تُحسب للعامل في لندن (٦ شلينات) واثقب السرب في تلّ دير مار يوسف البرج الذي بلغ الاربعين في المئة من مجموع النفقات . وزد على ذلك ما صرفتهُ في عدَّة دعاوي

والشركة تستطيع ان تسلّم في بيروت مترًا مكعَّباً من الماء في الثانية والاشتراكات تتزايد يوماً فيوماً الَّا انَّ كثيرًا منها لا تتجاوز ربع المتر المكعَّب فليس من ورائها ربح يُذكر . وفي بيروت الان ثلاثة احواض قريباً من تلّ مار متري اقدمها الحوض الاسفل محتواه ٢٨٠٠ متر مكعَّب وقد بُني حوض آخر قريباً منهُ مضمونهُ ٣٠٠٠ متر مكعَّب والحوض الثالث هو الاعلى مشمولهُ ٢١٠٠ متر والشركة تفكِّر في ابتناء حوض رابع فيكون للشركة عند قطع المياه ما يكفي لتموين البلد مدَّة ٤٨ ساعة . واعلم انَّ الآلة البخارية التي جُهزت في الضبيَّة وكثرت نفقاتها يبلغ معدَّل شغلها في السنة نحو ٢٠ يوماً فقط عند نقص المياه

وفي الضبيَّة ثلاثة ارباع الماء الذي يحرّك الرفَّاس تنصبّ في البحر . امَّا الماء المستعمل لريّ السهول المجاورة فربحه لا يُعبأ بهِ لانَّ الزراعة هناك ليست بخصبة وذلك انَّ الريح البحريَّة لا توافق زراعة التوت والليمون فلا يبقى الَّا قصب السكَّر والبقول . واعلم ان المياه في الضبيَّة تسقط من علوّ ١٨ مترًا فقوَّتها كافية لتحريك الآلات اللازمة لتنوير بيروت بالكهرباء

ومجمل القول انَّ مياه نهر الكلب تنفع خصوصاً اهل بيروت وهي ايضاً تُدير طواحين عديدة وتسقي بقنيّها البساتين الواقعة شمالي النهر . ومع ذلك ينصبُّ منها في البحر نحو نصفها فتذهب فائدتهُ

*

(نهر ابراهيم) هو نهر غزير المياه ومع ذلك ما كنّا نراه يفيد شيئاً الّا انّهُ يدير بعض الطواحين ويسقي بعض الحقول . ومن ثمَّ اتجهت الافكار الى عقد شركة لاستخدام هذه القوَّة الضائعة . وقصدها ان تسقي البُقع الواقعة شمالي النهر وجنوبهُ وان تجلب الماء الشروب لجبيل وعمشيت وما يليهما والمأمول انها تنجز العمل قريباً . وكان في حسبانها اتخاذ القناة القديمة التي كان الرومان يجلبون بها مياه النهر الى جُبيل . الّا انَّ هذه القناة التي تُعدّ من اعمال الهندسة الخطيرة كقناة بيروت قد استولت عليها يدُ الخراب بحيث يصعب الانتفاع منها

ويؤخذ من بحثٍ سابق للمشروع المارّ ذكرهُ انَّ مياه النهر في معظم فصل القيظ لا تقلّ عن ٢٤٠٠٠٠ متر مكعَّب في اليوم اعني مترين واربعة سنتيمترات في الثانية . ومّما تقصده الشركة فتح قناة كافية لجلب ٢١٥٠٠٠ متر مكعَّب كل يوم لتسقي بها ما بيانهُ :

	المجموع
١ً ٦٠٠ هكتار من التوت يقتضي لكل هكتار في اليوم ٤٨ متراً مكعَّباً من الماء	٠٢٨,٨٠٠
٢ً ١٥٠ هكتاراً اخرى اسقي حقول من التوت ومزدرعات يلزمها في اليوم لكل هكتار ٩٠ متراً مكعَّباً	٠١٣,٥٠٠
٣ً ١٠٠ هـ. لسقي مزروعات البقول والخضرة تحتاج في كل يوم لكل هكتار ١٣٢ متراً مكعَّباً	٠١٤,٥٢٠
٤ً ٤٠ هـ. من مزروعات قصب السكَّر ينبغي لها لكل هكتار ١٨٠ م مكعَّباً	٠٠٧,٢٠٠
٥ً تموين جبيل وعمشيت بالماء وقطعيَّات أُخر	٠٠٥,٩٨٠
٦ً استخدام كميَّة من الماء لتوليد القوَّة المحرّكة عند مصبّ النهر	١٤٥,٠٠٠
	٢١٥,٠٠٠

وصاحب البحث الذي اخذنا عنهُ هذا الحساب يرى انَّ مدخول السقي في السنة يبلغ نحو ٢٠٠,٠٠٠ فرنك . ومأمولهُ ان يكون مهبط المياه عند مصبّ النهر من علوّ ستين متراً فتنشأ قوَّة كافية لدفع ١٤٥,٠٠٠ متر مكعَّب من الماء كل يوم وهي قوَّة

توازي الف حصان بخاريّ • وزد على ذلك شلّالًا آخر غير متواصل يُستعمل في اوان السقي تكون قوّة انحداره ٢٥٠ حصانًا بخاريا • فاذا بيع محصول كل حصان بخاري متداوم بمبلغ ١٥٠ فرنكًا ومحصول الحصان البخاري غير المتواصل بثمن ٧٥ فرنكًا اناف الربح على ١٥٠,٠٠٠ ف • ومن ثمّ يزيد مدخول هذا المشروع اجماليًا على ٤٥٠,٠٠٠ ف وذلك فضلًا عن مدخول الماء المجاوب لجبيل وعمشيت وهو مبلغ زهيد لا يُعبأ به

اما نفقات هذا العمل فيثمّنها المثمّنون نحوًا من ١,٧٠٠,٠٠٠ فرنك ولعلّها تبلغ ٢,٠٠٠,٠٠٠ اذا حُسبت المصاريف الطارئة • اما النفقات السنويّة لاستثمار هذا العمل فتكون بالتقريب ٥٠,٠٠٠ ف في السنة • فلو افتُرض انّ الربح لا يتجاوز نصف المؤمل اعني ٢٠٠,٠٠٠ فقط بدلًا من ٤٥٠,٠٠٠ فيكون الربح الخالص عشرة في المئة (١

لكنّ هذا التقرير نظريّ • افتراه ينطبق مع الواقع ؟ لا نظنّ وذلك لاسباب اوّلها ما سبق الاشارة اليه انّ جلب المياه الى جبيل وعمشيت ليس من ورائه ربح يُذكر لقلّة سكّان تلك النواحي • فيبقى سقي المزروعات المصاقبة لمصبّ النهر • فانّ صاحب التقرير المذكور آنفًا يحسب نحو الف هكتار من التربة الجيدة المقصود سقيها فلعمري هذه مساحة كبيرة لا نعلم اين رآها • فاذا ابتعدت قليلًا عن ضفّتي النهر وجدت الاراضي لا تصلح للزراعة وهي محجرة متقطِّعة بالاودية وليس ثمّة بقعة منبسطة ولا سهل ذو تربة زراعيّة وانّما تُلفي فقط قطعًا منها متفرّقة قليلة السعة • فاذا أُنشئت قناة في تلك الجهات ذات الحزون والبطون بلغت النفقات مبالغ جسيمة • وعلاوة على ذلك انّ كثيرًا من ارباب الفلاحة يأبون الاشتراك ويستثقلون مصروفهُ • وعندنا انّ الاولى ان تُتّخذ القنيّ البسيطة القليلة النفقات فتُجلَب المياه الى البُقع اليابسة الواقعة جنوبيّ النهر • وقد بلغنا ان الشركة الجديدة المعقودة بهمّة حنّا افندي البويري وامين افندي عبد النور مهندس لبنان جرت على هذه الطريقة فانشأت قناةً عرضها متر واحد في عمق ٥٠ سنتيمترًا وقد نجز منها الى جهة بيروت ٨٠٠ متر

ولا ننكر انّ القوّة المحرّكة البالغة ١٢٥٠ حصانًا بخاريًا ذات بال جديرة بالاعتبار

---

١) راجع تقريرًا في استخدام نهر ابراهيم تاريخهُ ٢١ ك ١ سنة ١٨٩٢ وضعهُ المهندس كوانيه (Ed. Coignet)

الّا انّها لسوء الطالع لا تأتي بفائدة كبيرة لبعد مقامها ولو كانت هذه القوّة على جوار مدينة كبيرة مثل بيروت لأمكن استخدامها للتنوير الكهربائي. وكذلك تصلح هذه القوّة لتسيير عجلات الترامواي اللبناني بالكهرباء الّا انّ شركة الترامواي لم تفكّر في هذا الامر حتى الآن ولعلّها لن تفعل قبل سنين طويلة . وخلاصة القول يصعب الان الاستفادة من نهر ابراهيم لما يحول دون ذلك من العقبات

وقد اتّسعنا قليلًا في البحث عن نهري الكلب وابراهيم لنبيّن بمثل الاول ما فازت بهِ الهمم وبمثل الثاني ما يمكن فعلهُ قلّما يكون للانهار التي هي احسن موقعاً من نهر ابراهيم فان للمياه شروطاً جغرافيّة لا بدّ ان تستوفيها لفائدة الانتفاع بها ولذلك ترى عيوناً غزيرة في لبنان تجري دون عائدة لوقوعها في وسط الجبال وبعيداً عن المراكز الآهلة . وهذا ما علّل الاضراب عن ذكرها في هذه العجالة عن مجاري لبنان

(نهر الجوز) هذا النهر ربّما نضبت مياههُ صيفاً عند مصبّهِ . وعليهِ فلا نظنّ انهُ يمكن استعمالهُ في غير سقي البساتين وتحريك الطواحين كما يُفعل بهِ اليوم

وليس الامر كذلك في نهر قاديشا (ابو علي) فانهُ كافٍ ليس لسقي سهول طرابلس فقط بل لتشغيل عدّة معامل صناعيّة لو اراد ذلك ارباب الصناعة. ومما يسهّل هذا المشروع قرب النهر من مدينة كبيرة غنيّة بالمحاصيل الاوّليّة ولديها الوسائط الكافلة بتصرّف بضائعها ومحصولاتها

ثم يأتي بعد نهر قاديشا (نهر البارد) و (نهر عكّار) ولا يُبنى عليهما املٌ كبير وذلك لقلّة مياه الاوّل ولوقوع الثاني في مسيل عميق ضيّق. امّا النهر (الكبير) فانهُ خطير الشأن كما رأينا . فان تحقّقت امانينا وعاد لواديهِ مكانهُ من الاقتصاد ازدهرت تلك السهول المخصبة واغنى السكّان بارباحهِ الطائلة

واعلم انّ السواحل الفينيقيّة لم تكن فقط في القرون الغابرة مراكز لتجارة العالم بل ايضاً مواقع مهمّة لمرافق الزراعة واعمال الصناعة. فنال القدماء بهذه الموارد الثلثة ارباحاً طائلة. وعندنا انّ هذه الثروة لا تعود الى ايدي ابنائهم اذا حاولوا احياء الزراعة والفنون الّا بشرط استخدام القوى الطبيعيّة التي قسمها الخالق على بلادهم لاسيّما الكنوز المائيّة المخزونة في جبالهم . ويا حبّذا لو استطعنا بهذه السطور ان نستلفت الخواطر الى هذه الامور النافعة او حرّكنا الهمم لمباشرة بعض هذه الاعمال الشريفة

١٥

الاحوال الجوّيّة في لبنان

هذا بحثٌ يصعب الخوض في غماره على طريقة علميّة بالضبط والتدقيق وسببهُ انهُ ليس لدينا أرصاد تفي بالمرام · اجل اننا لعالمون بان ميازين الحرارة ومقاييس ثقل الهواء صارت شائعةً في بعض انحاء لبنان لكنَّ اصحابها يكتفون في الغالب بالنظر اليها عند الحاجة وليس من احد يفكّر في تدوين درجات الترمومتر او البارومتر واذا باشر احد في ذلك لم يُعنَ بضبط العمل او يهملهُ بعد حين بحيث تضيع الفائدة العلميَّة · وغاية ما لدينا من ذلك قوائم رصديَّة دُوّنت في بعض الاماكن وهي لا تتجاوز السنتين او الثلاث سنوات وكلها مقصورة على رصد واحد في اليوم بدلًا من ثلاثة رصود فضلًا عن انها لا تدلُّ على معظم درجات الحرارة او اقصى درجات هبوط الميزان (١ فينتج من ذلك انهُ لمستحيل تعريف معدَّل الحركات الجوّيّة وبيان درجاتها مضبوطةً

وعلاوةً على ذلك انَّ احوال الهواء في لبنان تختلف اختلافًا عظيماً لِما في تركيبهِ وموقعهِ من التباين · فانهُ من حيث العلوّ يُقسم الى ثلاثة اقسام الساحل والوسوط والجرد · فالساحل يشبه في آثارهِ الجوّيّة البلاد الحارَّة · وهواء الوسوط معتدل · امَّا الجرد فاشبه بجبال الالپ وبردهُ كبردها · ويُقسم لبنان من حيث وجهتهِ الى منعطف شرقيّ يتحدَّر الى البقاع والى منعطف غربي يوازي بحر الشام فانَّ هواء المنعطف البحريّ ثابت في الغالب معتدل نوعاً · امَّا الوجهة الشرقيَّة فعلى خلاف ذلك فانها في تقلُّبات هوائها من حرارة ورطوبة اقرب الى داخليَّة البلاد في آسية المتقدّمة ·

---

١) لو اراد احد قرَّائنا ان يسدّ هذا الخلل ويدوّن على طريقة نظاميّة رصود حركات الجوّ لخَدم العلم بذلك خدمة طيّبة . ونحن نؤكد لهُ ان « المشرق » ينشر قوائمهُ شاكرًا واكثر ما تفيد هذه الارصاد في بشرَّاي مثلًا لبلاد الجرد وفي بكفياً لمنطقة لبنان الوسطى وفي زحلة لمنعطفهِ الشرقي . ولا بدَّ هنا ان نذكر بالشكر مرصد ديرنا في البقاع المنشأ في كسارا منذ سبع سنين فننشر ملحوظاته الجوّيّة شهرًا بعد شهر بكل تدقيق في مطبعتنا . امَّا ساحل لبنان فلا تختلف درجات حرارتهِ عن بيروت حيث تُدوَّن هذه الملاحظات

فترى من ثمّ صحّة قول القائل بان المسافر الذي يرتقي في سوريّة من ساحل البحر الى غابات الارز في مشارف لبنان يلقى في يوم واحد من اختلاف حالات الجوّ ما يلقاهُ مسافر آخر يرحل من ضفّة النيل الى شواطئ البحر الشمالي المعروف بالابيض واذا استثنينا حمارّة قيظ بلاد خطّ الاستواء وصبارّة اقاصي الانحاء الشماليّة وجدنا في جهاتنا ما يتوسّط بين هذين الطرفين من المظاهر الجوّية

وعليهِ ليس بامر سهل مع هذا التفاوت البعيد ان تخصّص الوجوه التي تشمل كل جهات لبنان فحسبنا ان نثبت هنا بعض ملحوظات عموميّة موٴجلين التفاصيل الى فرصة اخرى عند ما نبحث عن احوال الجوّ في سوريّة فنضيف اليها ما يختصّ بلبنان

*

سواء تعتبر طبقات لبنان الثلاث او منعطفَيهِ الشرقيّ والغربي لا تكاد تجد لهُ في حصر المعنى الّا فصلين وهما الشتاء والصيف او قُل بالحري فصل الامطار وفصل اليبوسة · ولعلّ الراقي الى مشارف الجبل يشعر بالفصلين الاوسطين اعني الخريف والربيع شعورًا اوفر على قدر توقّلهِ في الطبقات العليا وذلك لتخلّف زمن الحرارة وتأخر نموّ الزروع · الّا ان هذه الاختلافات ليست بكافية لتمنح لبنان ذينك الفصلين المعروفين بالربيع والخريف · وعليهِ يمكننا القول اجمالًا بانّ احوال لبنان فيما يخص فصول السنة متساوية متشابهة في كل طبقاتهِ

امّا اذا صرفتَ النظر الى الامطار فتجد اختلافاً يُذكر بين اقسام الجبل من حيث طول الشتاء فانّ الوجه البحري يُجاد قبل المنعطف الشرقي الذي تتأخر فيهِ الامطار وهو في ذلك اشبه بجهات سوريّة الداخليّة فيبتدئ زمن امطاره بعد المنعطف البحري وينتهي قبلهُ · ولكن هل تكون مياه المطر اوفر في الجبل منها في السواحل ذلك امرٌ ذهب اليهِ البعض ولا يبعد قولهم من الصواب فانّ السماء ربما امطرت لبنان دون ان تخصّ الساحل بقطرة من سحبها · وقد يجري الامر على عكس ذلك الّا انهُ اندر وقوعاً · اما معدّل المطر فاننا لا نظنّ انهُ يختلف كثيرًا بين لبنان والساحل ولعلّ هذا الفرق لا يتجاوز عشرة سنتيمترات الى خمسة عشر س · وما قولنا الّا على الحدس والتخمين اذ ليست لدينا قائمة نستند اليها

ومما ثبت بالامتحان ان الامطار تتقسّم بين شهور السنة على قدر ابتعاد البلدان عن خط الاستواء فيتقارب فصلا اليبوسة والرطوبة . فانّ معدّل الامطار من ايّار الى ايلول (وهو فصل اليبوسة في سوريّة) يبلغ :

في رومية	٣٥	في المئة بالنسبة الى مجمل مطر السنة
في برلين	٥٣	« «
في بطرسبرج	٦٧	« «

وهو امر مقرّر ايضاً في نواحي الشام . ففي اسكندرونة مثلًا حيث الحرارة اشدّ من بيروت بكثير ليست الامطار نادرةً في شهري تموز وآب . وكذلك بلاد قيليقية المجاورة اسكندرونة فانّ حرارتها فوق حرارة سواحل الشام ومع ذلك تهطل في صيفها الامطار بمعدّل ستة في المئة فان قابلت ذلك بالشام وفلسطين وجدت من هذا القبيل فرقاً عظيماً اذ لا يبلغ معدّل المطر الصيفيّ عندنا الّا سُدْس المئة فقط . وكذلك قد لحظ الاهاون في شمالي غربيّ الشام من السنة ١٨٩١ الى السنة ١٩٠٠ ثلاثة اطوار فقط من اليبوسة دام كلّ منها مئة يوم . امّا لبنان فايّ طبقةٍ رقيتَ منهُ تجد انقطاع المياه في صيفهِ يدوم اربعة اشهر بل خمسة وكذا قُل عن بقيّة بلاد الشام وفلسطين

وكذلك اذا اعتبرنا جبل لبنان بين الليطاني جنوباً ونهر الكبير شمالًا وهو طول يبلغ ١٨٠ كيلومترًا نجد فرقاً بين امطار الجهة الشماليّة والجهة الجنوبيّة صيفاً . والمياه المنهملة في جبال عكّار ووادي النهر الكبير من ايّار الى ايلول تقلّ عن مطر بلاد الشقيف وعلى ضفّتي القاسميّة (١ . فيمكن اذن القول عموماً بان كميّة الامطار في المنعطف البحري على طولهِ متساوية كما ان الزمن الفاصل بين اشهر القحولة واشهر المطر لا يكاد يختلف

وليس الامر كذلك في الضباب فانّهُ في لبنان اوفر جدًّا منهُ في الساحل وهذا يصحُّ ايضًا في البرَد . امّا تعليل كثرة الضباب فمن طبيعة الجبل اذ انّ لبنان كجدار صخري عظيم يقوم كحاجز في وجه الابخرة المتصاعدة في البحر مدفوعةً الى داخل البلاد

١) راجع المجلّة الفلسطينيّة (ZDPV ج ٢٥ ص ٣٥)

بقوّة الرياح الغربيّة ٠ وعند هذا الجدار تتكاثف الغيوم التي تُرى في اعالي الجبل بين ٨٠٠ متر و ٢٠٠٠ م علوًّا ٠وفي بعض جهات لبنان يتكاثر الضباب حتى انهُ يتصاعد اليها كل يوم مدَّة ثمانية اشهر من السنة وليس سببهُ علوّها فقط بل موقعها ايضاً بالنسبة الى الجبل والى الاودية المحدقة بها فان كل ذالك لمَّا يساعد على تراكم الضباب

ولا نرى هنا داعياً للكلام عن حرارة لبنان فانهُ غنيّ عن القول بان الحرارة تختلف مع اختلاف علوّ الامكنة ثم انَّنا ذكرنا سابقاً ما يختصّ بالثلوج اللبنانيَّة (١

امَّا نقاوة الهواء وصلاحيَّتهُ للصحَّة في لبنان فذلك امر مشهور لا يحتاج الى وصفٍ فان كل هذا الجبل قد خُصّ بهواء جيّد منعش للقوى اللهمّ الَّا الامكنة الواقعة بجوار مصبّ الانهار وفيها الحمّيات٠ وكذلك لبعض القرى سمعةٌ سيئة من هذا القبيل وهو امر مستغرب لاسيَّما انّ اكثرها واقع في بلاد يابسة لا تستنقع فيها المياه ٠ فنطلب الى الاطبَّاء الذين في تلك الجهات ان يفيدونا عن سبب تفشّي الامراض في الامكنة المذكورة٠ امَّا بقيَّة لبنان فان صفاء جوّه وجودة مياههِ يقوّيان هيكل الجسم ويجعلان سكَّانهُ اشدَّاء ٠ واللبنانيُّون في الغالب متوسّطو القامة مفتولو الاعصاب محكمو البنية والفضل في ذلك لعيشتهم في الهواء الطيّب ولعدم ارتزاقهم بالصنائع المضنكة ولهذا ايضاً لا تجد بينهم الَّا امراضاً بسيطة ٠ واذا علوت المشارف ربَّما وجدت منهم من هو ناصع اللون ابيضهُ ٠ وقد مرَّ لنا كلام في ما يخصّ الشعوب اللبنانيَّة واختلافها في الصورة والهيئة الى غير ذلك ممَّا لا فائدة في تكراره

١٦

الفلاحة والاحراج اللبنانيّة

لا يستطيع اهل لبنان ان يرتزقوا بالصناعة وحدها فهذا حكمٌ راهن ابرزناه غير مرَّة في ابحاثنا السابقة والسبب ظاهر لانَّ الصناعة تحتاج الى المعادن ولا سيَّما الى مناجم الفحم وكل ذلك نزر قليلٌ في لبنان ٠ ومن ثمَّ ينبغي لاهل لبنان ان يسعوا في فلاحة الجبل وزراعتهِ وعليهما يتوقف مستقبل لبنان لتفي غلّاتهُ بمعاشهم ٠ وممَّا

---

١) راجع الصفحة ١١١

يضطرّهم الى السعي وراء ذلك وفرة السكّان ونموّهم سنة بعد سنة فانهم يجدون في ارضهم موارد رزق اوفر ممّا يظنّون . وها نحن ذا نبيّن لهم ذلك في الاسطر التالية وليست غايتنا ان نكتب كتاباً مسهباً في احوال الزراعة اللبنانيّة وانّما ندوّن فقط ما ينبئنا بهِ تاريخ الجبل فان الماضي عبرة للمستقبل . ونقسم كلامنا في هذا الباب الى قسمين نخصّ القسم الاوّل بالغابات والثاني بانواع المزدرعات التي يمكن اللبنانيين ان يستدرّوا منها ارباحاً جزيلة

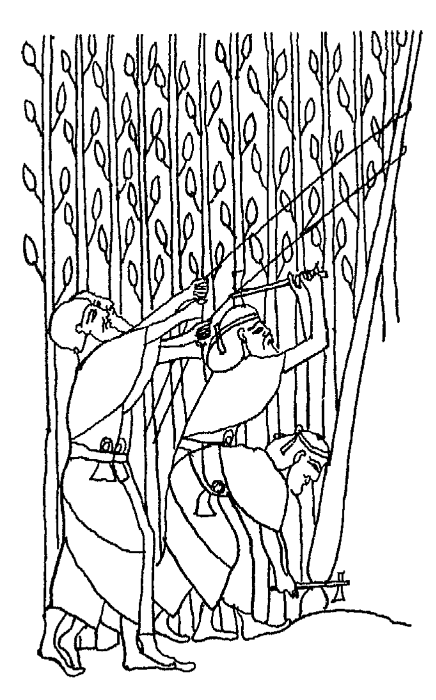
١

الغابات اللبنانية سابقًا وحاضرًا

قد اطرأ الكتبةُ لبنان وأفاضوا في مدح غاباتهِ الباسقة منذ الاجيال الغابرة العريقة في القدم . كما اثبتنا الامر في مقالتنا المعنونة جبال الالب ولبنان (المشرق ١ : ٧٢١) وشفعنا ذلك بمقالة ثانية (١عن ارز لبنان فرويتا ما كان لغاباتهِ من الشأن الخطير حتى انَّ كل الشعوب القديمة في الشرق لاسيَّما البابليين والفراعنة كانوا يجدون فيها حاجتهم من الخشب لابنيتهم الفاخرة . ومن الآثار الهيروغليفيَّة ادلّة واضحة على انَّ المصريين كانوا يعتبرون جبل لبنان كغابة مدّسعة كثيرة الاشجار متكاثفة الاغصان لا يري السائر فيها اديم السماء لظلّها الوارف(٢ وكان الغرباء لا يتجوّلون في هذه الاحراج لأنهم يتوجّسون منها خوفاً لما يُرَى فيها من ضواري الوحوش كالاسود والنمورة والدِبَبة . وكان الاهلون قليلين وهم يرتزقون بما يقطعونهُ من الاخشاب كما ترى في صورتنا المنقولة عن بعض الآثار المصريّة القديمة . امّا الاشوريون والبابليُّون فلم يشاؤوا ان تبقى هذه الكنوز في ايدي اخصامهم المصريين فلذلك ننظر اصحاب العاديّات البابليّة يفتخرون بما جلبوه من اخشاب لبنان لمبانيهم العظيمة كما انَّ نقوشهم المنقورة في الصخور تنطق

١) راجع الجزء الاوَّل (ص ١٢٩)

٢) اطلب: Chabas: *Voyage d'un Egyptien en Syrie*, p. 312 – W M. Müller: *Asien und Europa*, p. 197-198 – Joret : *Les Plantes dans l'antiquité.*



قدماء اللبنانيين يقطعون الشجر

بآثرهم في صيد كواسر لبنان . مثال ذلك صورة توفّقنا باكتشافها في جبل اكروم شمالي هرمل فوصفناها في بعض تآليفنا (١

امّا قدماء اليونان فلم يجسروا ان يتوغّلوا في هذه الغابات التي كان البابليّون والفراعنة نالوا من اطرافها فقط حتى قام الرومان تحت امرة پومپيوس فتعقّبوا فيها المتلصّصين من الايطوريين (٢ وضربوا على ايديهم ومذ ذاك العهد ساد الامن واتخذ السكّان لهم منازل ثابتة فجعلوا يقطعون تلك الاحراج لحاجتهم الى المزدرعات (٣ وصار عدد القرى ينمو شيئاً فشيئاً وغرس الاهلون الكروم واهتمّوا بزراعة الزيتون فتوفّرت وانتشرت وتخوّف اصحاب الامر من ان تتلف الغابات فوضعوا الرسوم لقطعها

١) راجع Notes épigraphiques et topographiques sur l'Emésène, p. 50

٢) راجع (ص ٤٩) والمشرق (٥ : ٨٢٥)

٣) راجع (ص ٣٥)

واستثنوا منها بعضها · غير انّ لبنان لم يُمسِ جبلًا حافلًا بالسكّان الّا عند انتشار الموارنة كما اثبتنا ذلك سابقاً (١ فكانت الغابات تنقص على قدر ما كان ينمو عدد القطين · وفي ذلك العهد احتاج الخليفة معاوية الى عمارة فجهّز سفنها من خشب لبنان في عكّا وصور وطرابلس كما ورد في فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٥٣) وفي تاريخ تاوفانوس وتاريخ البطريرك ميخائيل الكبير (ed. Chabot. II, 445) ·
وكانت هذه الاساطيل تتركّب من عدد وافر من السفن بلغ مجموع بعضها ١٧٠٠ سفينة شراعيّة · وكان اذا ذهبت الانواء بقسمٍ منها اسرع فجهّز غيرها بدلًا منها لانهُ لم يشاء ان يكون اسطولهُ اقلّ من ٥٠٠ مركب · وهو لعمري عدد بالغ يشهد بلسان حالهِ على غنى لبنان بالاحراج والغابات كما انهُ دليل واضح على ما فقده بتوالي الاعصار من هذه الكنوز الخشبيّة · ودونك اسبابًا اخرى قد سوّلت انتقاص هذه هذه الغابات ما عدا توفُّر السكّان الذي سبق ذكرهم

سيأتي الكلام في فصل آخر عن معادن لبنان في القرون الوسطى · وهناك ترى ان استخراج الحديد كان شائعاً في لبنان وكانوا يعدّنون هذا المعدن على الطريقة المنسوبة الكتيلان وهي طريقة تقتضي احراق الخشب الكثير · وكذلك استحضار الكلس فقد اتسع نطاقهُ في لبنان لكثرة حجارتهِ الكلسيّة والكلس لا يتهيّأ الّا بايقاد نار شديدة فذهب بذلك قسمٌ من غابات الجبل

ثمّ انتشرت في لبنان تربية القزّ فشغلت اشجار التوت قسماً من مكان الغابات · وزد على ذلك رعية المعزى واصطناع الفحم الخشبيّ وقلّة اكتراث الاهلين لنصب اغراس جديدة فكانت هذه الاسباب كلها داعية الى تلف الغابات فاصبح الجبل اليوم اجرد اصلع لا تقرّ لناظره عين بما كان يزينهُ سابقاً من خضرة احراجهِ وارزه الشهير الذي انشدت في محاسنهِ الاسفار الالهيّة

وان قيل انّ اهل لبنان اصابوا بدلًا من هذه الغابات مرافق اخرى استعاضوا بها اجبنا انّ هذه الخيرات التي حظي بها القوم انما كانت مقصورة على منافع وقتيّة ولو فطنوا وادركوا كنه الامور لامكنهم ان ينالوا هذه الخيور دون ان يخسروا هذه

١) اطلب الصفحة (٥٣ الخ) ثم المشرق (٦ : ١٣٠)

الخسائر الجسيمة . ومن المعلوم انَّ اعمال الخشب تترقّى يوماً بعد يوم مع ترقّي المدنيّة فتتعدّد منافعهُ لغايات لا يضبطها احصاء وكلُّها فوائد جليلة . لانَّ منهُ يتّخذ الاثاث وامتعة البيت وادواتهُ المختلفة ومنهُ يُستحضر اليوم ورق الكتابة وثمنهُ يتصاعد كل يوم . حتى ان بعض المتولّين اعمال السكك الحديديّة يرون انَّ الحديد ارخص منهُ في عوارض هذه السكك . وكذلك ترى الكهرباء بترقّيها وانتشار استعمالها تقوم اليوم مقام الفحم كما ان غاز البترول ينوب ايضاً عنهُ في اعمال صناعيّة عديدة فيُستخدَم في تحريك الالات في المعامل والمراكب والسكك الحديديّة بل في طبخ الاطعمة . وبينما ترى بقيّة الموادّ تنقص قيمتها او يتهاود سعرها تجد الخشب بخلاف ذلك يرقى سلّم الصناعات ولا يُستغنى عنهُ بحيث يمكن القول انَّ حرفة الحطّاب كحرفة الفلّاح اقدم ما عُني بهِ المرء في بداية كونهِ وستبقى الى آخر الكون . فترى من ثمَّ جهل الذين عبثوا بهذه الثروة فضحّوها مع انَّ قسماً من لبنان لا يصلح في الغالب لما سوى ذلك . وقد جرَّ خراب هذه الغابات آفات اخرى نشأت عن قطعها . فمن ذلك فَقْد قسم كبير من التربة الزراعيّة التي تجرفها كلَّ عام امطار الشتاء . ومنها نضوب عيون معينة انقطعت مياهها او قلّت . وكذلك تلفت الحواجز التي كانت كسدود في وجوه الانهار عند طغيانها واستنقعت المياه في البطائح فانبعثت منها الجراثيم الوبيئة وذلك بدلاً من الروائح العطرة التي تفوح من اشجار الارز والصنوبر والشربين . فانَّ الخالق كان اقام لبنان ليجعلهُ كبيمارستان للمرضى وكمستشفى يعالج بهِ اهل العاهات اسقامهم ويجدّدون فيهِ كما في جبال سويسرة صحّتهم بعد ان انهكتها الاتعاب او تثاقلت عليها اعباء القيظ فينعشوا قواهم بصفاء جوّه وطيب هوائهِ وشذا عطورهِ وازهارهِ . ولا غروَ انَّ الزوار كانوا يتواردون اليهِ تترى ليسرّحوا انظارهم في مشاهده الفتّانة وآثاره الفريدة المجمّلة بمناظر الطبيعة كما انَّ المرضى منهم كانوا يستطيعون ان يتعالجوا بالمعالجات الطبيعيّة التي اختبر نفعها اطبّاء زماننا كالعلاج بالهواء والاستحمام بالماء والنور والتطبُّب باللبن والعنب وترويض الجسم بالرياضات المقوّية . ففي لبنان صلاحيّة لكل هذه الاسباب الصحيّة التي لا ينالها الاوربيّون في جبال سويسرة مع كثرة ضبابها وكدورة سمائها الّا بان يتعرّضوا لامراض شتّى كوجع المفاصل والصداع . وكان امكن اهل لبنان مع هذه الخيرات العميمة ان يوسّعوا مصادر ارتزاقهم ببناء الفنادق

للغرباء وانشاء الشركات لنقل المسافرين وغير ذلك مما يجلب لسويسرة ارباحاً فاحشة . وقد فُقدت هذه الفوائد كلّها وخسر لبنان كل هذه المكاسب منذ جرّد الاهلون قممهُ عن غاباتهِ بل قل عن موارد سعادتهم

*

اعلم ان تجارة الخشب قد صارت اليوم في ايدي اهل اوربّة فيكسبون منها مبالغ طائلة . مع انّ تربة تلك البلاد لا تصلح كتربة لبنان لنموّ الشجر وذلك انّ شجرةً من الصنوبر مثلًا لا تبلغ في بلاد اسوج ونروج عشرين مترًا طولًا في دائرة متر ونصف الّا بعد ١٥٠ الى ٢٠٠ سنة امّا في جنوبي فرنسة فان نموّ هذه الاشجار اسرع من ذلك باربعة اضعاف ولا نشكّ انها في لبنان تنمو بزمن اقلّ من ذلك بستة اضعاف لحسن موقع هذا الجبل واعتدال هوائهِ . فترى من ثمّ انّ اللبنانيين او ارادوا امكنهم ان يزاحموا اهل شمالي اوربّة في هذه التجارة الرابحة بدلًا من ان يدفعوا لهم مالهم لجلب اخشابهم

وهذا وانّ تغافل السكّان والحمد لله لم يفنِ تمامًا هذه الغابات فانّ في لبنان حتى الان امكنةً تظلّلها الاحراج وتشهد على غناها القديم . وقد تكلّمنا في خلال بحثنا عن ارز لبنان في المراكز الثلاثة التي تزهو فيها غابات هذا الشجر الثمين واستلفتنا انظار اللبنانيين الى ما يتهدّد غابة الباروك من عوامل الفساد

امّا بقيّة الاشجار غير الارز فان طلبنا لها غابات كبيرة ليس غياضًا صغيرة لا نكاد نجد منها الّا في بعض الامكنة السحيقة كجبل اكروم شمالي شرقيّ لبنان وهذا الجبل من ملحقات جبل عكّار تراه موازيًا لبحيرة حمص وهو قليل السكّان وفيهِ غابة واسعة من السنديان الباسق الافنان . بيد ان اهل تلك الانحاء يصطنعون منها الفحم فلا تلبث بعد مدّة ان تتلف كما تلفت اخواتها في لبنان . ويا ليت هؤلاء الحطّابين يكتفون بقطعها فيبقى املٌ لان تعود فتنمو بعد سنين الّا انهم تخفيفًا للعمل يلقون النار في اصول اكبر اشجارها فتجفّ مائيّتها وتتلف دون ان يرجى لها اخضرار فيضحي مثل هؤلاء كمثل المرأة التي لم تقنع ببيضة من ذهب كانت تبيضها لها كل يوم دجاجتها فلمّا طمعت بما هو اوفر فقدت رزقها . وكان قدماء اللبنانيين اوفر عقلًا كما ترى في الصورة التي اثبتناها آنفًا (ص ١٨٣) فانهم كانوا ينتفعون بخشب غاباتهم دون ان يستأصلوا شأفتها

وكذلك مقاطعة الهرمل فانها كثيرة الاحراج ينمو فيها خصوصاً ناعم الشجر وذلك على مساحة نحو ٢٥٠٠٠ هكتار . ومع كثرة النبات ترى ايضاً امكنة عديدة خالية منهُ . واشجار معاملة الهرمل دون جبل أكروم في بسوقها وحسنها وهذا مما يبخس شيئاً من قدرها . والفحّامون يعيشون ايضاً في هذه الاحراج كعيث رصفائهم في احراج أكروم غير انهم لا يحرقون الشجر من اصلهِ كما يفعل اولئك

وترى في مقاطعة الضنيَّة وفي منعطف لبنان الشرقي بين الهرمل وعيناتا بعض الغابات الحسنة واشجارها في الغالب متوسّطة الكبر ليست متواصلة . ومن اشجارها الخاصّة بها الشوحُ (abies cilicia) وهو شجر جبلي نادر الوجود في الاصقاع الشامية لا يُعرف في غير جبال اسكندرونة ومديرية الضنيَّة ويستحقّ ان يُغرس في نواحي لبنان لحسنهِ فانهُ ينمو الى علو ١٥ مترًا وينبت في مشارف الجبال بين ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ متر

وفي غير هذه المحالّ لا تجد الغابات الّا في بعض الاودية المعتزلة او على جوانب بعض السيول ومنحدرات الغياض يمتاز بينها الصنوبر والسرو . اما غابات السنديان التي كانت تزيّن منعطف جبال جزّين عند تومات نيحا فانها صارت اثرًا بعد عين . وترى بدلًا منها بُقعاً سوداء تشهد على مساوئ الفحّامين . ونذكر هنا بعض الغياض لا لاتساعها بل تنشيطاً لمن غرسها واستلفاتاً لنظر الاهلين منها احراج بيت مري وعين زحلتا وبكاسين وبكفيا . فياليت اللبنانيين يأتسون بهذه الامثال فيعيدون لجبلهم زينتهُ السابقة

وممّا يجدر بنا ذكره مزارع الزيتون . وهي كثيرة في بعض الجهات حتى انّ الذي يراها يحسبها آجاماً وغابات . منها مزارع الكورة التي تمتدّ على طول خمسة كيلومترات في عرض الف متر . واوسع منها مغارس المختارة وعمّاطور الّا انّ بينها صنوفاً اخرى كالتوت والاشجار المثمرة وقد استوقفنا ابصار قرّائنا على تلك الغياض البديعة المنظر التي تجاري في خصبها غوطة دمشق واجمل مواقع سوريّة . الّا انّ السهم الافوز بين مزارع الزيتون هو للشويفات فان صحراءها تبلغ سبعة كيلومترات طولًا في عرض يختلف بين كيلومتر وثلاثة كيلومترات وهي دون اغراس المختارة طولًا لكنها مرصوصة متواصلة لا يدخل فيها صنفٌ آخر من الاشجار . ومن نظر اليها من علٍ خالها بحيرةً كبيرة من الخضرة لتلاحم اشجارها وكلها في علوّ واحد نُصب اكثرها

قبل ستين سنة . وكذلك مزارع قصبة زغرتا العامرة فانها واسعة جميلة وان تكن اصغر من المغارس السابق ذكرها وتختلط بما سوى الزيتون

ويهمّ اللبنانيين ان يوسّعوا نطاق هذه المزارع لما وراءها من الارباح التي تبلغ اربعة اضعاف ربح الغلّات . لانّ معدّل مـا يُستغلّ من زيتونة واحدة يساوي في السنة بين ١٥ الى ٢٠ فرنكاً ولو بيع الزيت في الخارج لاتى بمكاسب طيبة لحاجة كثير من البلاد الاجنبية اليـهِ فانّ فرنسة مثلًا تحتاج الى ٢٥,٠٠٠ طن من الزيت فضلًا عمّا تجده في مقاطعاتها . فيأتيها من مستعمراتها ٨٠٠٠ طن لسدّ هذا النقص فيبقى ١٧,٠٠٠ طن يمكن اللبنانيين ان يزوّدوها بهـا . وانما ذلك على شرط واحد وهو ان يتّخذ الزارعون الطرائق المستحدثة لعصر الزيتون فان الزيت الطيب المستحبّ لا يُنال الّا بالادوات الخصوصيّة التي شاعت اليوم في اوربّة (١

٢
مزروعات شتّى

نكرّر هنا ما سبق لنا قولهُ انّ الغاية من بحثنا الحاضر ليست تأليفاً في الفلاحة او في ضروب النبات التي تزين لبنان . والمواليد النباتيّة متوفّرة فيهِ لما خُصّ بهِ هذا الجبل من الدوائر المنطقيّة والطبقات المتباينة واختلاف التركيب الجيولوجي والمواقع من قمم واودية وغير ذلك (٢ . والقصد من هذه النبذة ان ندوّن بعض الملحوظات المفيدة نسندها الى تعاليم التاريخ والى نتائج علم الجغرافية

اننا لا ننكر ما اصاب لبنان من الخسائر بتجرّدهِ عن غاباتهِ القديمة الّا انهُ لا يجوز القول بان الجبل فقدَ خصبهُ وثروتهُ الارضية بدعوى ان الزراعة اليوم لا تأتي بالارباح المأمولة . والحقّ يُقال انّ بعض العيون قد نضبت وان السيول وغيرها من دواعي الخراب سحت بقسم كبير من التربة الزراعية وابرزت صخوراً جرداء لا يمكن فلاحتها .

---

١) اطلب كتاب الفاضل وديع افندي مدور في الفلاحة السوريّة (Syrie agricole, pp. 206, 212)

٢) فليراجع كتاب المسيو جوره في النباتات القديمة ولهُ فصل في نبـات بلاد الشام عموماً ونبات لبنان خصوصاً (ص ٣٢٤-٣٢٦)

لكنَّ الجبل في ما سوى هذه الامكنة لا يزال طيّب الثرى صالحاً للزراعة . ألا ترى مثلاً مـا يناله لبنان من حاصلات الكرم والتوت والتبغ الذي تعود على اهلهِ بالمكاسب الطائلة وقد كانت مدةً من مرافق الجبل الخاصّة بهِ . وان كانت هـذه موارد الثروة قد خفّت فلا تثريب على الارض اللبنانيّة وانّما تغيّرت فقط احوال سوقها التجاريّة ولعلَّ ارباب الزراعة في لبنان لم يصرفوا نظرهم الى تحسين طرق زراعتها على الاساليب المستحدثة . مثال ذلك زراعة الكرم فانَّ لبنان يوافقهـا ايَّ موافقة وترى اليوم اصحاب الشركات الاسرائيليّة والالمانيّة في جهـات فلسطين قد سبقت اللبنانيين في استثمارها

ولا غروَ فانَّ عصرنا هذا عصر التقدُّم وقد اصاب الفلاحـة من ذلك نصيب كبير فلا بدَّ اذن من استعمال الاساليب التي اختبر العلماء منافعها لئلا يذهب شغلنا سدى بزاحمة الغير . فما قولك مثلاً في جند اليابان لو نزلوا ميدان الوغى وفي ايديهم القوس والنشّاب لمحاربة الروس المتسلحين بالبنـادق وهم يطلقون عليهم المدافع . فكذلك الفلاحة فانَّ لها اليوم ادوات تسهّل طرائقها وتوفّر غلّاتها اضعافاً كثيرة ومع هذا ترى الاهلين لا يسعون في اتخاذها ويجرون على آثار اجدادهم في اساليبهم المختلّة التي شاعت بينهم قبل الفين او ثلاثة الاف سنة . مثـال ذلك عصر الزيت فانَّ اللبنانيين يستخرجونها في معاصرهم كما فعل الفينيقيون . أليس هذا شططاً وكيف يستطيع الاهلون بعد ذلك ان يلوموا الزراعة ويشكوا قلّة أرباحها

هذا ويؤخذ من دروسنا السابقة انَّ لبنان منـذ الطور التاريخيّ لم يختلف في هوائهِ اختلافاً يُذكر وان امطاره لم تكن اذ ذاك باوفر منها في عهدنا مهما زعم الزاعم ليثبت خلاف ذلك

وغاية ما يمكن التسليم بهِ انَّ الامطار مع اتساع الاحراج قديماً كانت مقسمة على كل انحاء لبنان تقسيماً نظامياً يعمّ فصول السنة فيدوم زمانها اكثر دون ان تتوفر بذلك كميّة مياهها . وهذا ايضاً ضرب من الحدس لا يمكن ان نحكم بصحتهِ قطعياً

وعليهِ يسوغ القول بان النبات اللبناني هو اليوم كما كان سابقاً الّا اجناساً قليلة . فمن ذلك البُردي (papyrus) الذي ينبت بوفرة حتى اليوم على مقربةٍ من بحيرة الحولة . وعلى رأينا انهُ كان ينبت في الاجيال الغابرة في اودية الجبل الحارّة الكثيرة

المياه وعلى ضفاف الانهار ومصابّها وذلك لمَّا كانت غابات لبنان باسقة تسرح فيها سباع الحيوان كالأُسود والفيلة وتمرح في انهارها التماسيح كما سيأتي (١

ومن النباتات المنسوبة الى لبنان شجرة اللُّبان او الكندر وهذا الرأي تراهُ مكرَّرًا في اسفار الكتبة من اهل القرون الوسطى لكنهُ بلا سند وانما هو مبنيّ على وهم لغوي فزعموا ان لبنان معناهُ اللُّبان لتوافق اسمها في اليونانيَّة (Λίβανος) كلّا لم ينبت لبنان قطّ شُجيرة اللبان التي هي من خواصّ اليمن وضواحيهِ . على ان هذا الجبل غني بغروس أُخرى واشجار نُقلت اليهِ فصائلها بعد تاريخ الميلاد على ما نظنّ . منها المشمش المعروف بالبرقوق(٢ والبرتقال وقصب السكَّر . ومما جاءنا من امركة التبغ والصبَّير . وقد دخل ايضاً لبنان نباتات حديثة العهد مختلفة الاجناس الّا انَّ كثيرًا منها بعد برهة من الدهر تضعف وتفقد خواصّها الاصليَّة لاختلاف التربة عليها او بالحري لجهل الاهلين بتربيتها . وما يصحّ قولهُ اجمالًا ان لبنان يصلح لنموّ اكثر النباتات والاشجار بحيث يُضحي كحدائق غنَّاء وبساتين فيحاء جامعة لشتات نبات المعمور . والسبب في ذلك اختلاف طبقات الجبل وتباين مواقعهِ . وهذه لعمري منحةٌ فريدة تكرَّم بها الخالق على لبنان فلو انتفع بها الاهلون لأَغنتهم عن شكواهم من عقم الجبل وضؤولة غلّاتهِ

✲

وقد ذكرنا آنفاً الصبَّير او التين الشوكيّ . وغاية ما ينتفع بهِ الناس انهم يتخذونهُ كسياج لبيوتهم او يأكلون ثمرهُ التَّفه . ولو دروا لامكنهم ان يستعملوهُ لفوائد أُخرى اعظم واجلّ . وما نقولهُ عن هذه الشجرة يصحّ في كثير غيرها . فمن ذلك انهُ يؤخذ على الفلاحة اللبنانيَّة قلّة اهتمام اصحابها بتربية المواشي

ومن المعلوم انَّ الجبال انسب الى ذلك من سواها لاسيَّما انهُ يلحق برعية المواشي اعمال اخرى يرتزقون بها كبيع اللحم واصطناع الجبن والحليب والزبدة واللبن . وما السبب في قلّة تهامل اهل لبنان اتربية المواشي الّا قلّة المراعي والاعشاب فانَّ بعض

١) راجع الكتاب السابق ذكره (ص٣٩٠)

٢) ويدلّ على ذلك اشتقاقهُ من اللاتينيَّة

الامكنة قاحلة جدا لا تجد فيها الطرش لماظاً طول السنة وفي غيرها تمحل التربة في فصل القيظ وتيبس المراعي · فلايّ سبب لا يُزرع الصبَّير الذي ينبت في اي تربة كانت وهو يثبت على اشتداد الحرّ

ولكي يمكن الانتفاع بهذا النبات لا بُدَّ من نزع شوكهِ عنهُ · والاولى ان يُغرس ضربٌ آخر منهُ لا شوك لهُ · واعلم انَّ ثمرهُ ولاسيما اوراقهُ (الواحهُ) الضخمة المكتنزة من احسن ما يُعلف بهِ الحيوان · وبعض الزارعين يرونهُ شبيهاً بالجزر بل افضل منهُ لقوت المواشي · والجزر كما لا يخفى يُتَّخذ في اوربَّة كعلوفة الانعام · والصبَّير اذا غُرس وطلع يقضَّب في سنتهِ الثالثة او في الرابعة وهو انسب · فاذا أتى على غرسهِ ستّ سنوات اتى بثمره وبقي نامياً الى السنة الاربعين فحينئذٍ تشذَّب ساقهُ فيعود وينمو جديداً · ومجموع ما يُستغل منهُ كل سنتين بين ٣٠,٠٠٠ الى ٣٥,٠٠٠ كيلوغرام من العلف في كل هكتار

وليس الرأي هنا ان تزرع الاراضي الطيّبة بالتين الشوكيّ بل الاراضي البور فقط التي لا تصلح لغير ذلك من المزدرعات وان يُغرس منهُ ثلاثة او اربعة صفوف حول البساتين والاملاك الواسعة بدلًا من اكوام الحجارة التي تقوم في وجه السابلة واذا احتاج الناس الى علف الماشية في بعض السنين التجأوا الى هذه المؤونة القريبة المنال (١

ويوجد غير ذلك من الاشجار التي تؤدي لاصحابها خدماً مشكورة منها شجرة الخرّوب الذي ينبت من نفسهِ في لبنان (٢ وكان هذا الشجر كثيراً في لبنان حتى انَّ اقليم الخرُّوب دُعي بهِ (٣ امَّا اليوم فلا يرى منهُ في لبنان الّا اشجار متفرّقة قليلة البسوق مع انهُ شجر كثير المنافع في تلك الجهات · وما يقال عن اقليم الخرُّوب يصحّ في بقيَّة اقاليم لبنان فانَّ مديريَّة البترون كما يشهد على ذلك المعمّرون من الشيوخ كانت غنيَّة بهذا الشجر قبل نصف القرن واكثرهُ اليوم قد قُطع وتلف فلم يسع الاهلين ان يستبدلوا تلك الاراضي البائرة باغراس غيرهِ · وهذا المثل يبيّن للقراء انَّ الفلاحة

١) راجع كتاب الاديب وديع مدوّر في فلاحة سوريَّة (ص ٢٦٤)

٢) كتاب جوره (ص ٢٥١)

٣) وهو اسم قديم ورد ذكره في كتاب شمس الدين الدمشقي (ص ٢٠٠) وفي تاريخ بيروت لصالح بن يحيى (ص ٨٨)

اللبنانيَّة اذا ما قصَّرت في بعض الاحيان عن الترقّي والتحسين ربَّما سهَتْ ايضاً عن امثال الاقدمين وعدلت عن آثارهم المحمودة . وكان اجدادنا يعرفون فضل الخرنوب ويقدّرونهُ قدره كما يؤخذ من هذا النصّ الذي سطَّرهُ الشريف الادريسيّ في كتابهِ عن الناعمة التي هي اليوم قرية حقيرة قال (١ :

« والناعمة مدينة حسنة وأكثر نبات ارضها الخرنوب الذي لا يُعرف في معمور الارض مثلهُ قدرًا ولا طيباً ومنها يُجهَّز بهِ الى الشام والى ديار مصر واليها يُنسب الخرنوب الشامي امَّا وان كان في الشام كثيرًا وطيباً فهو بالناعمة اكثر واطيب »

فهذا الكلام شاهد لامع على ان الخرنوب كان متوفّرًا في الاقليم الذي دُعي باسمهِ وان زراعتهُ كانت معدودة كاحد مرافق لبنان الجنوبي . فيا رعاك الله ماذا يمنع من ان يعود الاهلون الى توفير اغراسهِ لاسيَّما انهُ يأتي عفوًا في كل الامكنة القاحلة ولا يحتاج الى عناية خاصَّة كما انَّ قلَّة الامطار او كثرتها لا تؤثر فيهِ واللبنانيُّون بغرس هذا الشجر لا يعيدون فقط لجبلهم بعض نضارتهِ بل يرتزقون ايضاً بحاصيلهِ كما كان الامر في عهد الادريسي

وممَّا يزيد الخرنوب نفعاً انَّ ثمره سكَّري وقد اثبت الذين يعتنون بنظارة المواشي انَّ العلف انفع للانعام اذا دخل فيهِ السكَّر . وقد عرف قدماء العبرانيين منفعتهُ فاطعموهُ الخنازير (راجع انجيل القديس لوقا ١٥ : ١٦ وكتاب التلمود) وغيرها من الراعية . وبهِ ايضاً علف اليونان والرومان مواشيهم . واليوم يدخل فرنسة في كل سنة ١٩,٠٠٠ طن من الخرنوب لحاجتها وهذه الكميَّة تتسوَّقهُ فرنسة من بلاد شتَّى ولا تفيدها الجزائر منهُ سوى الف الى الفي طنّ . ومحمول الخرنوب يختلف على حسب عمر الشجرة وحسنها ومداراتها فيُجنى من الشجرة سنويًّا بين ٢٥٠ كيلوغراماً الى ١٠٠٠ ك من الثمر يساوي ثمنها من ١٠ فرنكات الى ٤٠ ف . وفي هذه الاعداد دليل ظاهر على فوائد غرس هذه الشجرة التي لا تطلب عناء كبيرًا . وان لم يقصد الاهلون منها الرُّبح ببيع ثمرها الَّا انهم يجدون فيها منافع غيرها كرعية المواشي . وثمرهـا كما سبق افضل عُلف الدوابّ يقوم مقام غيرهِ من النَّجوع الذي يندر في بعض المواطن . وقد لحظ الاجانب فضلهُ فصاروا

---

١) راجع وصف بلاد الشام للادريسي (ص ١٦ ed. Gildemeister)

يقبلون عليهِ اقبالًا يزيد مع الاعوام وهم يستعملونهُ في الصباغة وفي عمل السكَّر ويعلفون بهِ انعامهم . والبعض منهم يحمّصون حبوبهُ فيجعلونها بدلًا من القهوة (١ . وكذلك خشبهُ صلب مسمط يصبر على الزمان دهرًا طويلًا فيُرغب فيهِ لذلك . وغاية ما يؤخذ على الخرنوب انهُ كالزيتون لا يأتي بثمرهِ قبل سنتهِ العاشرة . لكن هذه الصعوبة ليس من شأنها ان تمنع من غرسهِ . ومن نظر الى الربح العاجل فقدَ المكساب الطائلة الآجلة (٢

ويوجد غير ذلك من النباتات التي تصلح للاراضي اليابسة نذكر منها شجر التين واللوز . ومن المعلوم ان ١٠٠ كيلو من التين اليابس ربّما بيعت بمائة فرنك اللهمَّ اذا كان التين من الجنس الحسَن وجُعل في عُلَب مكبوساً كما يصنع اهل ازمير وهو من اكبر موارد الرزق لديهم (راجع المشرق ٧ : ١٠٦٠) فلو صرفنا النظر الى اثارنا لتحسين اجناسها وتهيئتها لزادت الرغبة فيها وأجدت باعتها نفعاً عظيماً

امّا اللوز فهو من الاشجار الوطنيّة (٣ التي لا يُنكر فضلها . وزراعتها اسهل من سواها في لبنان لانَّ شجر اللوز كالزيتون واكثر منهُ ينمو في الاراضي القاحلة والتربة الكلسيّة ومعظم لبنان تركيبهُ من هذا الصنف . ثمَّ انَّ الشجر لا يقتضي عناية خصوصيّة وثمره يبلغ في الشجرة من ١٥ كيلوغراماً الى ١٠٠ ك ويُباع باسعار حسَنة فانَّ مئة كيلو منهُ يُدفع فيها من ٤٠ الى ١٢٠ فرنكًا على حسب اختلاف الاجناس فيكون معدَّل محصول الشجرة بين ستة فرنكات وستين فرنكاً . وهذا ما ساق الشركات الاسرائيليّة في سواحل يافا الى ان تُكثر من أنصاب اللوز فيقوم منهُ غابات في بعض حدائقها . ومن خواصّ ثمر اللوز انَّ تهيئتهُ لا تستدعي شغلًا لنقله وهو يبقى زمناً طويلًا

وليس الامر كذلك في زراعة اشجار غيرها التي تسارع بعض الاهلين الى غرسها كالليمون مثلًا (٤ فكلّ يعرف فضل ليمون صيداء على البرتقال اليافوي وكثرة مائيّته

١) راجع معجم التوراة للاب ڤيكورو على لفظة « خرنوب » (ج ٢ ص ٣٠٨)

٢) ومن اراد غير ذلك في هذا الصدد فعليهِ بكتاب الاديب ودبع مدوَّر (ص ٢١٣ و ٢٦٥ و ٤٢٣)

٣) طالع كتاب جورِهْ (ص ٣٩٥)

٤) راجع في المشرق (٦ : ٣٨٩) مقالة الاديب توما افندي كيَّال في برتقال صيداء

وطيب طعمهِ الَّا انَّ برتقال يافا اروج سوقاً عند الانكليز . والسبب انَّ ثمر يافا اغلظ قشرةً فيبلغ انكلاترَّة وهو على حسن حالتهِ بخلاف الليمون الصيداوي الذي يفسد في الطريق فيذهب رونقهُ . ولعلَّ لهذا الداء دواء وهو ان يخصّص الصيداويون قسماً من جنّاتهم الغنّاء الشكل اليافوي فيُصدرون هذا الصنف للبلاد الاجنبيَّة . امّا البلاد المجاورة او المتّصلة بخطوط نظاميَّة كمصر وسواحل الشام والاستانة العليَّـة وجنوبيّ روسيَّة فيزوّدونها باشكالهم الوطنيَّة الطيّبة لاسيَّما ان تربة صيداء تصلح لكل ضروب البرتقال ولأجناسهِ المختلفة . والمهمّ أن لا يجري الاهلون على مألوف عاداتهم المخلَّة لانَّ ملازمة الطريقة الواحدة تؤدي بهم الى خسائر جسيمة . ألا ترى مثلًا انَّ بعض المراكب قطعت سيرها الى صيداء وكانت قبل اربع سنوات في فصل الاثمار تمرُّ بهـا لنقل محصولاتها . فلمّا رأت كساد سوق ليمونها كفَّت عن المجيء اليها

ومن الزراعات النافعة الخطيرة الشأن شجر المشمش واشهر اصنافهِ صنفان معتبران هما المشمش الكلابي تكون نواتهُ مرَّة والمشمش اللوزي حلو النواة . وهذا الصنف هو الافخر والالذّ والفرق بينهما من حيث الثمن بعيدٌ جدًّا الَّا انَّ رغبة الفلّاحين في الصنف الاوَّل اعظم . وما هو يا ترى سبب ذلك ؟ قلّة انتشار المشمش اللوزي . ولو اراد الزرَّاع لامكنهم توفير الجنس الفاخر بعمليَّة صغيرة سهلة جدًّا

☆

ومجمل القول ان الفلاحة اللبنانيَّة لم تنهض حتى الآن من خمولها . وكثيرًا ما نحمل الشكاوى على الطبيعة او تركيب التربة او العناية الصمدانيَّة ولو كنّا من ذوي الانصاف لشكونا سهونا وغفلتنا . نعم انهُ لا يمكن استغـلال الحبوب والبزور من اراضٍ محجرة او ماحلة . ولكن ما لنا لا نوجّه همّتنا الى اصناف شتّى . ترى اكثر اهل لبنان لا يهتمّون الَّا بالتوت ويكتفون بغرسهِ فقط كانهم لا يجـدون في سواه من الاشجار ما يقوم بحاجاتهم او لا يُربحهم ارباحاً مثلهُ واوفر منهُ لاسيما ان بعضهـا لا يقتضي كالتوت فلاحة كبيرة ولا ابتناء سافات وسطوح تراب فاذا كان لدى الاهلين اصناف مختلفة زادت ايضاً مآتيهم وآمالهم . وعلى فرض انَّ صنفًا منها في بعض السنين لم يأتِ بالارباح المأمولة استعاضوا عنها بما يجدونهُ في غيرهِ . وعلى هذه الصورة يقسّم الفلّاحون شغلهم على كل فصول السنة ولا يدعون قطعةً من ارزاقهم دون فائدة

هذا وان قولنا السابق مبني كلُّهُ على العلوم التاريخيَّة والجغرافيَّة والاقتصاديَّة وذلك لا يمنع صرف النظر الى خبرة ارباب الزراعة ومراجعة الكتب الخاصَّة التي صنَّفها العلماء في هذا الشأن مكرّرين الثناء خصوصاً على التأليف الذي وضعهُ الكاتب الضليع وديع افندي مدوّر وقد استفدنا منهُ لتسطير هذا النظر في الفلاحة السوريَّة. ونتمنَّى ان يعرَّب قريباً لفوائده

١٧

ما فُقد في لبنان من قديم الحيوان

قد لحظ العلماء الباحثون عن طبائع الحيوان في الشرق انَّ البلاد السوريَّة غنيَّة باصناف الحيوان بحيث ترى في القطر السوريّ مع قلَّة اتساعهِ من سباع الحيوان والمواشي والدوابّ ما تجدهُ متفرّقاً في اقطار عديدة ومناطق مختلفة من العلوّ. وهذا لعمري من المشاهد النادرة التي لا تكاد ترى لها شبيهاً اللهمَّ الّا في المنعطف الجنوبي من جبل حملايا اعظم جبال الهند بل اعظم اطواد المعمور. وانَّما نجد تعليلاً لهذا الامر في موقع سوريَّة وتركيبها الجغرافيّ فانك اذا استثنيت غور نهر الشريعة الذي هو اسفل من سطح البحر المتوسط باربعمائة متر (وذلك امرٌ فريد ليس لمثلهِ ثانٍ في الارض) ثمَّ نظرت فقط الى هيئة لبنان تذكَّرت ما سبق لنا بيانهُ من ان هذا الجبل جامعٌ لخواصّ بلدان شتَّى متباينة كلّ تبايُن ومن ثمَّ يصلح لان يكون مأوى لمواليد الحيوان المختلفة

على انَّ غايتنا في هذه المقالة ان نقتصر على حيوان لبنان فقط وفي كثرة حيوانهِ ما يغنينا عن ذكر بقيَّة البلاد الشاميَّة. لاسيَّما اذا اعتبرنا لبنان في ايامهِ القديمة اذ كانت تزّين قمَمَهُ غاباتُهُ الكثيفة قبل ان تُقطع اشجارهُ وتُستبدل بالمزارع. فرأينا من ثمَّ ان نبسط الكلام في قديم حيوان لبنان فنستقري الاصناف الحيوانيَّة التي خلا منها الجبل مستندين في ذلك الى شواهد التاريخ الصادقة

*

الاسد ملك السباع فلهُ السبق وبهِ نفتتح كلامنا. لم ينكر احد وجودهُ في بلاد

الشام وانّما ادّعى المسيو ستاْيفر في كتابهِ المعنون «فلسطين في زمن المسيح» (ص٢٢٥) انهُ لم يبقَ لهُ من اثر في اوائل تاريخ الميلاد . وكذلك الدكتور هـ. بروتس (H. Prutz) قد زعم انَّ روايات كتبة الفرنج في القرون الوسطى عن الاسود من الاساطير التي لا يوثق بها (١ ويوافقهُ في هذا رأي الرحَّالة الشهير سيتسن (Seetzen II, 228)

فان اعتبرنا بلاد الشام اجمالاً عثرنا على نصوص تثبت وجود الاسد فيها حتى في اوائل القرن السابق (٢ بل لا يُستبعد وجوده حتى اليوم في بادية تدمر (٣

امَّا لبنان الذي يهمُّنا الآن اعتبارهُ فانَّ الشواهد على وجود الاسد فيهِ عديدة على اختلاف اطوار تاريخهِ . لا بل قد وجدت قبل طور التاريخ في آثار هياكل اسود كانت تأوي الى الكهوف (٤ . ومن شواهد الازمان التاريخيَّة ما ورد ذكرهُ في سفر نشيد الاناشيد حيث أُشير الى أسد لبنان عموماً وحرمون خصوصاً قال (٤ : ٨) : « انظري من رأس امانة من رأس سنير وحرمون من مرابض الاسود من جبال النمور » وحيثما جاء في الكتابات الهيروغليفيَّة قبل ذلك العهد ذكر « لَمْنانا » وهو جبل لبنان فانَّ كاتبها يمثِّلهُ كجبل ذي احراج متكاثفة لم تُمتهن بالقطع تتجوَّل فيها الضباع والدببة والاسود . وكان الفراعنة اذا خرجوا الى مصاد سباع البهائم والأُسد قصدوا لبنـان او لحفهُ في سهول البقاع او سهول حمص ووادي العاصي حيثما كانوا يتصيَّدون الفيَلة كما سترى

وكذلك ملوك بابل واشور فانهم بعد الفراعنة بقرون كانوا يحاولون قنص الاسود في لبنان . لنا على ذلك دليل محسوس في نَصْب اكتشفناهُ قبل بضع سنوات جنوبي غربي حمص على مسافة نحو عشر ساعات منها في سلسلة جبال متفرّعة من لبنان يفصل بينهما وادي خالد واسمُ الجبل أكروم . والنصب في وادٍ حَرج حيث يسيل جدول ماء

---

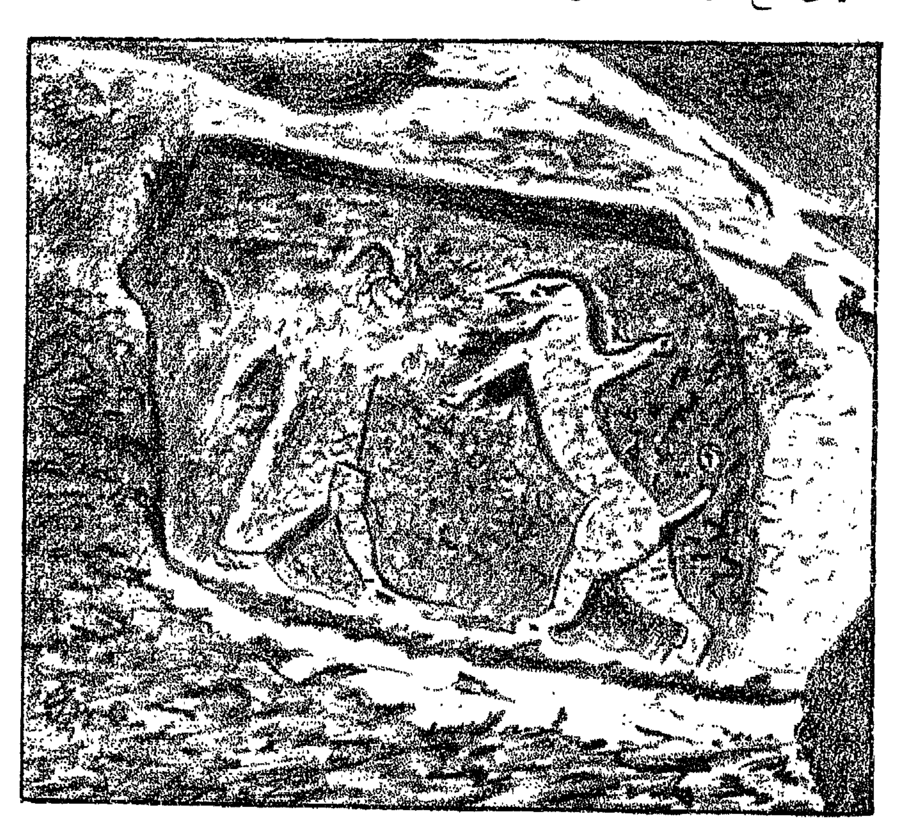
١) راجع كتابهُ Kulturgeschichte der Kreuzzüge, p. 332

٢) راجع الكتاب The City and the Land, 83 – وكذلك ورد في كتاب صبح الاعشى للقلقشندي انَّ الاسد كان موجودًا في القطر الشامي في عهد المؤلف اي في اوائل القرن الخامس عشر (راجع النسخة المخطوطة التي في خزانة كتبنا الشرقية (ص ١١٣٢)

٣) راجع مجلة العالمين Revue des 2 Mondes, 11 Juillet 1897, p. 403

٤) راجع كتاب الاب زُموفن اليسوعي (Esquisse géolog. du Liban, p. 65)

يُدعى نهر السبع شكلهُ مربَّع تقريباً يبلغ قياس كل جانب من جوانبهِ مترين ونصف ترى فيهِ صورة اسدٍ يصارعهُ رجلٌ (انظر الصورة) والمصارع منتصبٌ حافي الرجلين تراهُ يقبض بيدٍ شديدة فكَّ الاسد الواسع المفغر بينما هذا ينصب قائمتيهِ ليهجم عليهِ . وصورة الرجل مهشَّمة ولا يُرى السلاح الذي كان في يدهِ والمرجَّح انهُ كان يمسكهُ باليمنى ومع خلوّ هذا الاثر من كتابة لا شكَّ في انهُ من مآثر الاشوريين (١



صورة نصب اكروم

وقد اكتُشف ليس بعيدًا من هذا النصب اثرٌ آخر يبيّن معناهُ والواقف عليهِ

١) راجع كتابنا الذي عنوانهُ Notes épigraph. et topogr. sur l'Émésène, p. 49 etc. وللاب س. رنزفال بحث في هذا الاثر الجليل نشرهُ في المجلَّة الكتابيَّة (R. B., 1903, p. 600-604)

هو المسيو بونيون قنصل فرنسة سابقاً في حلب وجدهُ منذ نحو عشرين سنة في وادي بريسة على مسافة نحو ساعتين من الهرمل في شمالها اعني في وسط لبنان . هذا الاثر عبارة عن صفيحتين نصبهما ملك بابل نبوكدنصَّر الثاني وعليهما كتابات مسماريَّة وضمن احدى هاتين الصفيحتين صورة كصورة نصب جبل اكروم تمثّل صراع رجل واسد. وليس الرجل سوى ملك اشور بعينهِ كما يلوح من مضمون الكتابة . وذلك انَّ نبوكدنصَّر سكن برهةً من الدهر في رَبْلة وهي قريبة من الهرمل ومن جبل اكروم فلا عجب ان تكون الآثار المكتشفة في تلك الجهات ممثِّلةً لبعض وقائع الصيد التي تولَّاها الملك الاشوري على مقربة من مقام عسكرهِ . وهذا دليل باهر على وجود الاسد في لبنان في القرن السادس قبل المسيح

وان تتبَّعنا سياق الاجيال من بعد نبوكدنصَّر لا نجد شواهد واضحة على صدق مقالنا والسبب انَّ الكتبة اليونان والرومان لم يرووا عن لبنان الَّا النزر القليل فلا غروَ ان سكتوا عن مثل هذه الحقائق . ولا ينقصنا مع هذا بعض الدلائل المشيرة اليها فمن ذلك اسم «اللبوة» وهي قرية شمالي بعلبك على مسافة اربع ساعات منها واسمها القديم كما في العربيَّة ليبوا (Liboa) يشبه اسم قرية بيت لباوت (בית לבאות) في فلسطين(١ وناهيك بهذا الاسم شاهداً على وجود الاسد في تلك الجهات عند سفح لبنان . ومثل هذا اسم مدينة ليونتوپوليس (Léontopolis) اي مدينة الاسود واسم نهر الاسد (Λέοντος ποταμός) وكلاهما على سواحل لبنان وان لم يتبيَّن العلماء بضبط نقطة موقعهما . ولا بأس اذا قيل بانَّ في اسميهما دليلًا على وجود الاسد بجوارهما في لبنان

وزد على ذلك نصوصاً وردت في كتاب فتوح البلدان (ص ١٦٧) للبلاذري تنبئ بوجود الاسد قريباً من انطاكية . وكذلك جاء في كتاب الاعتبار انَّ اسامة ابن منقذ كان يصيد الاسود في نواحي شيزر . ومن غريب الشواهد ما اثبتهُ فرسان الهيكل في قانونهم انهُ لا يجوز لهم الخروج الى الصيد ما خلا الاسود . وكان لهؤلاء الرهبان كما هو معلوم مراكز عديدة في لبنان (٢

وما لا يترك شبهة في الامر خبرٌ رواهُ صالح بن يحيى في كتابهِ تاريخ بيروت عن

١) راجع معجم الكتاب المقدم في باب الاسد

٢) راجع G. Schnürrer: *Die ursprüngliche Templerregel*, p. 146, n° 46

بعض امراء الغرب في القرن الرابع عشر للميلاد في قرية عرمون الداخلة اليوم في مديريّة الغرب الاقصى من عمل الشوف. قال ما حرفهُ (ص ١١٣ من طبعتنا) :

« ومن جملة مكايدهم معهُ (١ انّ احدهم رأى اسدًا قد تطرّق الى بعض الاماكن القريبة فحضر عند زين الدين بن علي وقال لهُ انّ دبًّا يجاورُ المكان الفلاني (يريد مكان الاسد . وكان قصدهُ بالدب عن الاسد غرورًا بزين الدين وطمعًا ان يُحدث لهُ الاسد حادثًا) فتوجّه زين الدين ليلًا الى المكان الذي قيل لهُ عنهُ ولم يصحب معهُ احدًا ومعهُ قوسهُ فكمن هناك فلمّا مرَّ بهِ الاسد علم انهُ مغرور بالقول الذي قيل لهُ ورمى الاسد بسهم واحد معتمدًا على بيت القلب فمات الاسد منهُ . وعاد زين الدين الى منزلهِ وعند الصبح ارسل الى من اخبرهُ انهُ دبٌّ يقول لهُ : اذهب وائتِ بالدبّ الذي قلت عنهُ فانهُ مقتول بالمكان الذي ذكرتهُ . قال ذلك متهكّمًا »

وهذه بيّنة واضحة تدلُّ على وجود الاسود في جهات الغرب في القرن الرابع عشر وعلى الاقلّ بعض الافراد منها . وانما توارت الليوث بقطع الاحراج من الجبل وانتشار زرع التوت لصناعة الحرير

امّا الاسد السوري فكان جنسهُ قائمًا بذاتهِ وكان اصغر قامةً من اسد افريقية واضعف منهُ قوّةً وكانت لبدتهُ صهباء يخالطها شعر ارمد (٢ وهو كالنوع الفارسي (leo persicus)

*

قال حضرة الاب زُموفن (٣ : ليس لفينيقية انهار وسهول كافية لمراعي كبار الحيوان ذوي الجلد الغليظ (pachydermes) ومن ثم لا يُنتظَر وجود هياكل حيوانات خرطوميّة قديمة » . لكنّ الكاتب عينهُ قد اردف هذه الاسطر بقولهِ انهُ « وجدت في الكهوف السابقة لطور التاريخ في لبنان بقايا عديدة من هياكل الكركدّن (rhinocéros) الذي يجانس نوعًا آخر قديمًا يُدعى تيكورينوس (tichorhinus) كان يرافق جبّار الحيوانات المعروف بالمموث »

وفي مقالاتنا السابقة عن مياه لبنان (راجع ص ١٢٣ و ١٢٥ و ١٢٨) اثبتنا

---

١) يريد بني ابي الجيش المعادين لزين الدين بن علي امير الغرب

٢) طالع Nowack : *Hebraeische Archeologie*, 78 ; Dictionnaire de la Bible, *art.* Lion

٣) راجع كتابهُ Esquisse géologique, 65

بعض الدلائل التي يمكن ان يُستدلّ بها على وفرة المياه الجارية سابقاً من عيون لبنان وانهارها. وكان ينتج عن هذه المياه الجرةً تساعد على نموّ المزارع وخصب المراعي التي تحتاج اليها هذه الحيوانات لاسباب معاشها

ووجود الفيل في لبنان امرٌ ليس تحتهُ ريب تُقرّر صحّتهُ الدروسُ الشرقيّة. روى المسيو مسپرو في تاريخ الشعوب الشرقيّة القديمة (ك٢ ص ٢٦٥) انّ الفرعون تحوتمس الثالث لمّا عاد ظافرًا من ضفّة الفرات نزل في نيّ (Nîi) التي نظنّها افامية الموافقة لقلعة المضيق حيث تستنقع مياه العاصي في سهول واسعة كثيرة الادغال كثيفة الاعشاب. وكان هناك فيلة عديدة فاراد الفرعون ان يلتهي بصيدها فوكل الى جنوده بان يحدقوا بالسهل لئلّا تفلت الفيلة من الصيد فكان عدد القتلى ١٢٠ فيلًا نقل عاجهـا الى مصر (١ فكفى بهذا العدد دليلًا على وفرة ذوي الخرطوم في سوريّة

ثم انّ في الآثار الاشوريّة ما يزيد على هذا دليلًا. قيل انّ العاج كان من جملة الجزية التي ادّاها الملوك نينوى اهـلُ بيت عديني وباطناي وهو يوصف كمحصول بلديّ. امّا موقع هذين البلدين فانهُ كان في شمالي سوريّة في ما يوافق حالًا ولاية حلب. وكذلك يفتخر الملكان الاشوريّان تغلات فلاسر الاوّل واشور بانيبـال بانهما قتلا في تلك الجهات عددًا عديدًا من الفيلة واسرا منها بعضها فنقلاها الى حاضرة ملكهما وكل ذلك دليل لامع على وجود الفيلة مهملةً وحشيةً في بلاد سوريّة (٢

امـا داخل لبنان فليس لدينا شهادة جليّة على كيان الفيلة فيهِ اللهمّ الّا بعض الاسماء كسنّ الفيل لقرية بجوار بيروت وخرطوم لضيعـة في بلاد الشقيف لكنّ اشتقاق هذين الاسمين يمكن شرحهُ على غير طريقة. وعلى كل حال لمّا كان وادي «نيّ» اي افامية السابق ذكرهُ ملاصقاً للبنان يمكن القول بانّ فيلتهُ كانت تصعد الى رأس العاصي في البقاع. فانهُ لمعلوم انّ الفيل الوحشيّ يقطع المسافات البعيدة انتجاعاً المراعي. وكانت حالة بلاد البقاع في ذلك العصر كحالة بلاد افامية. وكانت السهول المتوسّطة بين لبنان والجبل الشرقي يتغلب عليها البحيرات والمستنقعات وتكثر فيهـا

١) راجع ايضاً تاريخ مسپرو في الصفحة ١٨ ومعجم الكتاب المقدّس في مادّة «فيل»

٢) راجع كتاب حضرة الاب ديلاتر اليسوعي L'Asie occidentale dans les inscriptions assyriennes, 25, 74

المروج الخصبة · ولا شكّ ان بعض هذه الحيوانات كانت تتردَّد الى جهات بحيرة حمص وعيون العاصي المنبعة قريباً من هرمل فكانت تتوغَّل في الغابات الكثيفة النامية في منعطف لبنان الشرقي لا سيَّما عندما اخذ عدد السكَّان ينمو في وادي العاصي فاضطرَّت الفيلة ان تهرب وتطلب لها مآوي هادية امينة

اما منعطف لبنان الغربي فلتوفر سكَّانهِ كانت احوالهُ قليلة المناسبة لمعاش هذه الحيوانات المحبَّة للعزلة الَّا في القرون الغابرة قبل منشأ المدن الفينيقيَّة الكبرى كطرابلس وبيروت وصيداء اذ كانت السواحل مقاماً لبعض اكواخ الصيادين· فلا بأس ان يقال انَّ الفيلة كانت تطوف وتتنزه غابات لبنان الساحليَّة قريباً من الاسود والدبَبة وانَّ بعضاً منها قدمت من وادي العاصي فتبعت وادي النهر الكبير وجاءت ترعى عند شواطئ البحر وتمرح في نهر ادونيس وفي نهر بيروت والدامور اذ كانت مياه هذه الانهار اوفر منها في عهدنا تتدفَّق في السهول القريبة من مصبّها وتخصبها بمستنقعاتها· بيد انَّ نموَّ السكَّان لم يلبث ان يلجئها الى الهرب من وجه الانسان طلباً للامكنة المقفرة في شمالي سوريَّة او بلادها المتوسّطة

ثم زادت عليها المخاطر في تلك الاقفار ايضاً كما رأيت في ذكر صيد تحوتمس الثالث ومنهُ يستنتج ان الفيلة توارت بزمن قليل وباد جنسها في بلاد الشام · واذا تصفَّحنا تاريخ ملوك اسرائيل في عهد سليمان لم نعد نجد ذكرًا للفيلة الوحشيَّة · ولعلَّها كانت تناءت الى جهات الشمال حتى بلغت وادي الفرات وسواعدهُ وهناك كان يتصيَّدها ملوك اشور اذا ارادوا صيد الفيلة كما أُولعوا بصيد اسود لبنان وفقًا للشواهد الواردة في انصاب وادي نهر السبع ووادي بريسا

ومّما وُجد ايضاً في لبنان من الوحوش المفقودة البقر الوحشي (aurochs) تصيَّدهُ الملك الاشوري تغلات فلاسر الاوَّل في القرن السابق لعهد داود (١ كما ورد في الكتابات المسماريَّة · ووجوده في لبنان مقرَّر ثابت · لانهُ لا احد ينكر وجوده في بقيَّة جهات سوريَّة وعيشتهُ بين احراج لبنان انسب لطباعهِ

انَّ وجود حيوانات كبيرة كالاسد والفيل في لبنان كان من شأنهِ ان يجعل لغاباتهِ

١) راجع Dict. de la Bible I, 1262 — Delattre, op. cit., 29

هيئة غير مألوفة ولا مأنوسة ومن ثمَّ نفهم لماذا كان يشمل الرعب عند قطعها قدماء المصريين الذين كان يسوقهم الدهر او طلب الارتزاق الى المرور بها . فكان الرجل من وادي النيل أليف الاماكن المنبسطة والمناظر المنكشفة في بلاده اذا قصد الاقطار الشامية يوصي بماله لاهليهِ لخوفهِ من السباع (١ فلم تكن سوريَّة في عينهِ سوى غابة سوداء اجتمعت بها افواجاً وزرافات اصناف الحيوان الضارية كالاسد والنمر والفيل واشباهها

*

ولم يكن مشهد الحيوان في مياه الانهر والبحيرات باضعف حركة منها في الصحراء والجبال فكان يلعب فيها فرس الماء ويعبث التمساح وقد وُصف ذلك في سفر ايوب وصفاً بديعاً فائضاً في الشعر بالغاً في التأثير فمنها بهموت ولوياثان في نصّ المؤلف الالهي (٢

وقد ارتأى قومٌ من مفسّري الكتاب المقدَّس ان واضع سفر ايوب اخذ معلوماتهِ عن مصادر مصريَّة في وصف هذه الحيوانات المشتركة العيشة بين البرّ والماء . واماَّ نحن فعندنا وجه اسهل لحلّ هذه المسألة فلم يكن من حاجة لأيُّوب ان يبتعد عن سوريَّة لوصفها اذ كانت هذه الحيوانات موجودة فيها منذ ذلك الحين البعيد العهد

واعلم انَّ وادي الاردن من غريب ما شوهد على سطح الكرة بوضعهِ الطبيعي وتركيبهِ الجغرافي بحيث يتمثَّل للعين انخفاضٌ يبلغ عمقهُ عند منتهــاه (عند بحر لوط) زهاء ٤٠٠ متر دون البحر المتوسط ففي هذا الغور الذي لا مثيل لهُ في الدنيا يسود حرٌّ شديد ابتداؤهُ في اوائل ايّار فيتراوح وقتئذٍ ميزان الحرارة في النهار بين ٤٠ و٥٠ درجة من ميزان سنتغراد وينشأُ في تربة ذلك الوادي الحــارَّة نبات اشبه بنبات خطّ الاستواء في افريقية لا يشبه نبات سوريَّة وفلسطين بشيء

فعلى شواطئ بحيرة الحولة تنمو طاقات البرديّ الخضراء حتى يومنا والبرديُّ نبات كان قديماً زينة مصر ومجدها ولا يرى منهُ الان في كل وادي النيل اللهمَّ الَّا في بلاد السودان الجنوبية . وايُّ عجبٍ اذا وجدنا بارضٍ تشبه ارض افريقية بتربتها الحارَّة

---

١) راجع Maspéro : *Histoire ancienne*, II. 17

٢) سفر ايوب (ف ٤٠ و ٤٢)

ونباتها الخاصّ ما نجدهُ من الحيوان في قارّة افريقية . وهذا ما كان بلا ريب في عهد ايوب فنتخيل عهدئذٍ بحيرة الحولة تحرّك مياهها التماسيح والافراس النهريّة وهي تمرح بين غياض البردي. فايوب حسب التقاليد قطن حوران وسكن ناحية جولان فلا غروَ اذا ما شاهد من اعالي شرفات هـذا النجد المطلّ على الحولة والاردن حيوانات البرّ والبحر العظيمة ووقف على احوالها دون ان ينحدر الى مصر . على ان فرس الماء في الوقت الحاضر قد خلت منهُ نواحي الشام ولم يزل فيها التمساح وهاك البرهان :

ذكر بطليموس وبلين واسطرابون مدينة بجانب الكرمل اسمها مدينة التمساح (Crocodilopolis) (١ وقد اتى باين (٢ فوق ذلك على ذكر نهر بهذا الاسم في تلك الحدود وهذا النهر العميق الماء الخامد الحركة يُظنُّ بهِ عموماً انـهُ نهر الزرقاء المجاور قيصارية شماليّ هذه المدينة وهناك يتكوَّن منهُ مستنقع غريب المنظر ويدعى حتى اليوم باسم يعبّر عن حقيقة حالهِ اي مستنقع التمساح وعلى حافتـهِ تنمو بكثرة غيـاض البردي وغيره من الشجيرات فاسم المدينة واسم النهر يسوّغان لنا ان نحكم بوجود تلك الزّحافات فيهما في غابر الزمن على الاقلّ فضلًا عمّا لدينا من الشهادات الجمّة قديمةً وحديثةً تبيّن نفس الشيء باستفاضةٍ لا تبقي في العقل شكًّا . . .

ففي الجيل الحادي عشر ذكر الجوّالة الفارسي نصري خسرو جنوبيَّ الكرمـل وادي التماسيح (٣ . وشهد على مثل ذلك في الجيلين الثالث عشر والرابع عشر مارين سانوتو وجاك دي ڤيتري. فالثاني يقول : التمسـاح موجود في نهر قيصاريّة وهو يفترس الانسان والحيوان وطولهُ في الغالب قدر عشرين ذراعاً (٤ ولّا نزل ريكاردوس قلب الاسد ملك انكلترة عند نهر الزرقاء افترس التمساح اثنين من جنوده (٥ . ويقول برخارد الصهيوني المنتمي الى رهبنة مار عبد الاحد والذي تجوّل في سوريّة في اواخر الجيل الثالث عشر : ان التماسيح كثيرة في بحيرة قيصاريّة وانهُ لم يفلت هو من شرّها الّا باعجوبة

١) راجع Strabon : *Geogr.* XVI

٢) Plin. : *Hist. natur.* V, XVII

٣) راجع الترجمة الفرنسية لشيفر (Schefer)

٤) راجع Gesta Dei per Francos (ص ١١٠٣)

٥) راجع Hstoire de la guerre sainte (éd. Paris) ص ٥٢٦

وقد قال قوله من بعده كثير غيره من زوّار الارض المقدّسة غير انّنا لا نورد اسماءهم لانهم رُواة يروون ما سمعوا وليسوا شهود عين يحكون ما نظروا اللهمّ الّا پوكوك الانكليزي سنة ١٧٧٣

*

هذه شواهد الماضي وامّا في الحاضر فلدينا اصرح الادلّة واصدق الشهود عن وجود التمساح في الزرقاء بل وفي غيره من مياه فلسطين

فالاحاديث المقولة والاسانيد المرويّة عن نهر الزرقاء يبلغ عددها الى ما لا يكاد ينتهي واوّلهم المرسل الاميركاني تومسون الذي كتب سنة ١٨٥٧ (١ ثمّ العلّامة پياروتي (Pierotti) مهندس ولاية القدس وقد عثر في سيره نحو منبع الزرقاء على بقايا سلخ تمساح اخصّها بقايا الرأس (٢ وفي سنة ١٨٧٧ قبض الالمانيون في حيفا بالوضع نفسهِ على انثى التمساح (٣ وقد تعدّد مثل هذه الاكتشافات في السنين الخمس والعشرين الاخيرة. وفي سنة ١٨٩٣ وجدوا فيهِ هيكل تمساح وستّ بيضات فحُشي الهيكل بالتبن وأُرسل الى القدس

وامّا البيض ففُقست واحدة منها وأُرسلت واحدة الى العلّامة صموئيل ميريل قنصل اميركة في اورشليم وبُعث بالآخر الى باريس (٤ فهذه الاكتشافات المتعدّدة تدلّ على انّ التمساح يعيش ويتناسل في بطاح نهر الزرقاء وغدرانهِ الّا انهُ ليس بكثير التناسل لانّ سطح الارض الذي تغمرهُ الاغدرة لا يبلغ عشرة هكتارات

وهذه الزحّافات موجودة في غير اماكن من فلسطين ففي السهل الكثير الرمل المدقع ذي الكثبان المتعدّدة الممتدّ بين حيفا وعكّا مصبّ نهر القطّع المعروف عند الاقدمين باسم قيسون فهذا النهر تغزر مياههُ عند آخر حدوده على مسافة ثلاثة الاف

---

١) راجع The Land and the Book (ص٤٩٧) . ثم ZDPV, XIII, 340

٢) راجع مقالة التماسيح في فلسطين للاب دي سنت انيان (de St Aignan)ص ١٠

٣) اطلب دليل بيدكر الطبعة الرابعة الالمانيّة (ص ٢٦٥) ولورتة (Syrie d'aujourd'hui ص ١٧٤)

٤) راجع المجلة الفلسطينية الانكليزيّة (P E F) سنة ١٨٩٣ (ص ١٨٣ و ٢٦٠)

متر عن البحر لانهُ لا يصادف هناك انحداراً كافياً وتنتصب في وجهِ الرمال المتكونة عند مصبّهِ فتحول الحواجز بينهُ وبين البحر فيستنقع السهل وتتسع مستنقعاته وينبت فيها النباتات وتنمو فتتشبَّك سبلهـا ففي سنة ١٨٦٩ ارتاد الجوَّالة الانكليزي ماك كريكور على زورق غدرانَ نهر المقطَّع ومجراه الاوطأ فطلع عليهِ بغتةً من الماء تمساح وكاد يقلب الزورق فاذهلهُ ما اتّفق لهُ ممَّا لم يكن في الحسبان فرفأَ بقاربهِ الى الشاطئ فابصر عليهِ آثار تماسيح متعدّدة . وقد التقى مرّة ثانية في تلك النواحي بهذا الحيوان الهائل الذي لم يعد من سبيل للارتيـاب بوجودهِ في نهر المقطَّع (١ . وحتى اليوم لم يكتشفوا على شيء منهُ في بحـيرة الحولة ولا في بحـيرة طبريَّة وفي حكمنا انهُ كان فيهما قديمًا ونرّجح وجوده في نهر الشريعة اليوم

وممَّا يحملنا على هذا الترجيح مـا جاء في رِحَل الزوَّار الاقدمين من القصص والاخبـار عن نكبات بعض السوَّاح ممَّن ذهب بهم التمساح عند استحمامهم في الاردن

وبعض حوادث اقرب عهداً تزيدنا في الامر صدقاً والى اليوم ليس من حادث او اكتشاف في الاردن كما في الزرقاء والمقطَّع ممَّا ينزّه الحقيقة عن كل ريب .وذلك متـأتٍ عن عسر سبر الاردنّ في مجراه الاسفل (٢ ولعلّ التمساح موجود في النهر الاخضر جنوبيّ قيصاريّة كما وفي غيره من مياه تلك الناحية . وفي رأي العلَّامة لورته الذي فحص تمساحاً محشوًّا (مصبَّرًا) انّ تمساح فلسطـين يختلف نوعاً عن تمساح النيل (٣ ومن المقرَّر الثابت ان تماسيح فلسطين اصغر جدًّا ولا يزيد طولهـا على متر ونصف ولا بأس منها الَّا على المواشي فتفتك بها احياناً

☆

وانَّما الصعب في هذا بيان طريق وصول هذه الزّحافات الى الاقطـار الشاميَّة . أهي اصليّة ووطنيَّة ام نُقلت من خارج . فالرأي الاوَّل قريب من الصحّة على ما نرى

١) راجع كتاب « ماك كريكور» المعنون (The Rob Roy on the Jordan, 398)

٢) راجع مقالة الاب دي سنت انيان السابق ذكرها

٣) راجع كتاب الدكتور لورته (Syrie d'aujourd'hui)

وهو رأي العلّامة لورته الذي ينكر كون اصلها من مصر . فالمواضع التي ثبت بهـا وجود هذا الحيوان في فلسطين تشبه مصر بنوع نباتها فان كانت الواردات واحوال الجوّ والهواء واحدة في القطرين فلمَ لا يتشابهان ايضاً بنوع الحيوان . فلا شيء اذن يحول دون وجود التمساح بل كلُّ شيء يدعو اليهِ . على انَّ بعض العلماء يستصوبون القول بنقل هـذا الحيوان الى فلسطين ورأيهم ان المصريين نقلوهُ اليها . ونحن نعلم ان فلسطين كانت جيلًا طويلًا في حكم الفراعنـة فلا يبعد ان يكون من اقام في هـذه البلاد من المصريين قد احبُّوا جوار هذا الحيوان الذي هو من معبوداتهم فاستصحبوهُ

وممَّا نعلمهُ ايضاً ان رعمسيس الثالث بعث بالتماسيح وافراس المـاء هديَّةً الى تغلات فلاسّر ملك اشور (١ وربما وصل التمساح الى فلسطين لحادثٍ نظير هـذا ومهما يكن من امر هـذه التأويلات والايضاحات فقد تقرَّر لدينا وجود هذه الزحَّافات في كثير من مياه فلسطين الشماليَّة وكل شيء يحملنا على التسليم بانها كانت اوفر عدداً في الازمنة العريقة في القدم وسواء كانت اصليـة ام منقولة فقد توالدت وانتشرت على وجه القطر

ولا يصعب علينا القول انهُ في عهد ما كان الفيل يجوب احراج لبنان كان التمساح يعبث في مياه الجبل ومستنقعاتهِ كالبطاني القريب من بحيرة الحولة والاردن وقد كان بلا ريب وافر العدد فيهما قديماً على عهد ايوب البار . انما نموّ العمران واتساع الزراعة وامتداد المساكن اصبحت بعد ذلك ضربة قاضية على وجودهـا في تلك النواحي النديَّة . ولم يكن للفينيقيين حاجة في عبادتهـا كالمصريين ولا بدَّ انهم بذلوا المجهود في استئصال شأفة تلك الجيرة المؤذية او في حملهـا على المهاجرة الى جهات اعرق في الجنوب حيث نجد منها بقايا في ايَّامنا

١) راجع مسبيرو : تاريخ الشرق (الطبعة المختصرة . ص٢٥١)

١٨

المعادن في لبنان

نقسم كلامنا في المعادن اللبنانيَّة الى قسمين . فاننا نبحث اولًا عن احوالها الحاضرة ثم نستقري الشواهد التاريخيَّة

١

حالة المعادن حاضرًا

كلامنا في هذا القسم عن ثلاثة امور : اصناف الوَقود ثمَّ المناجم المعدنيَّة ثمَّ الحجارة وانواعها

اولًا الوقود

١ فلنباشرنَّ بالفحم الحجريّ الذي نال في علم المعادن واعمال الصناعة مقامًا راجحًا لا يحتاج الى بيان . انَّ الذين بحثوا في بلادنا عن طبقات الارض وتركيبها مجمعون بانَّ سوريَّة خالية من الفحم الحجريّ (houille) ولا يخرج لبنان عن هذا الحكم العمومي . على انَّ في هذا الجبل طبقات من القِضَّة (grès) تتضمَّن مستودعات عديدة من الفحم الخشبي المتحجّر (lignite) غير كامل التفحّم لكنها بلغت في نموّها ما هو كافٍ لاستثمارها

وهذه الاخشاب المتحجّرة على ضربَين . فمنها ما تظهر فيهِ تقاطيع الخشب وهو الخشب الحُمَري . ومنها ما استفحم الى ان فقد تمامًا أثر النسيج النباتي . وهذا الصنف الثاني يكون فحمهُ اسود كالقير لامعًا وقريبًا من الفحم الحجري . واغلب المناجم التي تُرى فيها هذه الاخشاب المتحجرة يمتزج فيها البيريت (pyrites) الابيض (وهو مزيج الكبريت بالحديد) مع الصلصال ويصعب فصلها عنهُ وهما يجعلان هذا الوقود غير صالح لاعمال الصناعة . وزد على ذلك انَّ فحمها اذا تكشَّف للهواء لا يلبث ان يتفتَّت وتعلوهُ قشرةٌ من عنصر الشبّ . ومستودعات هذا

الخشب المتحجر في الجبل هي في الغالب قليلة الاتساع لا يتجاوز عمقها مترين . امَّا مواقعها في لبنان فدونك ما يستحقّ منها الذكر مباشرةً بنواحي الجبل الشماليَّة

شاع انَّ في قائمقاميَّة البترون قريباً من بشرّاي منجماً من المستحجرات الخشبيَّة . وليس لدينا شيء من الاعلامات المدقّقة في هذا الخصوص فنكتفي بالاشارة . امَّا جهات لبنان الجنوبيَّة فعندنا من الايضاحات ما هو اوفى بالمرام فانَّ في المقاطعة الكسروانيَّة في قرطبة وميروبا والمنيطرة مناجم متعدّدة من الحجر الخشبي كان يهتمّ باستخراجها اصحاب المعامل الحريريَّة ولعلَّهم يستثمرونها حتّى اليوم . امَّا منجم ميروبا فلولا بعدهُ عن المراكز الكبرى لصلح للحاجات البيتيَّة وناب مناب ضروب الوقود

واشهر طبقات الفحم الخشبي المتحجّر في قرنايل من مقاطعة المتن وقد صار الاعتناء باستخراجهِ من سنة ١٨٣٥ الى ١٨٣٨ لكنَّ قيمة هذا الفحم كانت ارفع من فحم انكلترَّة بعد نقلهِ الى بيروت . وكانت علَّة هذه الاسعار الفاحشة قلَّة وجود اسباب المواصلات فيُحتاج الى الدواب لنقل ما يُستخرَج من المناجم . ولولا هذه الصعوبة لاضحى هذا العمل رابحًا لانَّ اربعين معدّناً فقط كانوا يستخرجون من هذا المنجم مئة قنطار في اليوم . والفحم جيّد رغماً عن انقطاع طبقاتهِ وتجعُّداتها . وهذا المنجم قليل السعة وسمكهُ لا يتجاوز مترًا

وفي المتن الاعلى مناجم فحميَّة أُخرى متعدّدة يستفيد من بعضها ارباب المعامل الحريريَّة المجاورة . منها منجم مار يوحنَّا الَّا ان اختلاط فحمهِ بالكبريت والحديد يصدُّ عن استعمالهِ . وفي فالوغا منجم آخر يوجد فيهِ جذور شجر تحوَّلت الى هذه العناصر الغريبة فاذا انكشفت للهواء صارت فتاتاً بعد قليل . وفي بزبدين منجم ثالث ليس بذي شأن

وهذه المناجم الفحمية يصعب استثمارها لقلّة اسباب المواصلة ولبعدها عن المراكز الكبيرة فضلًا عن كونها قليلة العمق ضيّقة النطاق تكثر فيها الموادّ الغريبة التي لا يمكن إفرازها الَّا بعد النفقات البالغة . فهذه العوائق كلُّها تقوم في وجه العمل وتزيد في صعوبتهِ وتقلّل ارباحهُ المأمولة

وخلاصة القول انَّ طبقات الفحم المتحجّر السابق وصفها لا يمكن تعدينها وانَّما

يجوز استخدامها للمعامل الصناعيَّة الصغيرة والحاجات البيتيَّة بشرط ان يُختار منهـا أجودها وتُنقّى تنقية حسنة من موادّها الغريبة

*

وان اعتبرنا قائمقاميَّة جزّين وجدنا مناجمهـا الفحميَّة في حالة اصلح وان عدمت ايضاً الوسائل الجامعة بينها وبين المراكز الكبرى حيث يمكن بيعها . نعم انَّ صيداء اقرب الى جزّين من قرنايل الى بيروت ببعض كيلومترات لكنَّ صيداء مركز قليل الشأن فتكون قطعيَّتها لهذا الفحم زهيدة

وهاك ما يُعرَف من طبقات الفحم الخشبي المتحجر في قائمقاميَّة جزين :

اذا خرجت من صيداء في وجهة الجبل رأيت بازائك على حدود الافق من جهة الشرق جبلين تنتصب قمتهما على شبه المخروط مع استـدارة قليلة كان ارباب البحر لغرابة شكلهما يستدلّون بهما الى موقع صيداء قبل شيوع السفن البخارية . والقمّتان قريبتان لا يفصل بينهما الّا مهبط قليل العمق فدُعيتا لهذا السبب بتَوْمـات نيحا او بالتوأمـات . وكان الاولى بان تُدعيا بتومات جزّين لوقوع جزين عند سفحهما . فان غلب اسم نيحا فذلك على رأينا دليل على خطر قرية نيحا قديماً . ومن زار هـذه القرية تحقَّق صحَّة هذا القول لاسيَّما اذا رأى على مقربةٍ منها تلك القلعة المنقورة في الصخر الشهيرة بشقيف طيرون او بقلعة نيحا وقد سبق لنا وصفها (١

ويتشعَّب من تومات نيحا غرباً من جهة البحر شِعَبٌ تُرى فوقهـا جنوبيَّ جزّين مناجم من مستحجرات الفحم الخشبي نريد هنا وصفها . ولا يخرج من دائرة الجبل الغربيّ سوى منجم واحد يُرى على وجه الارض طولهُ ٥٠٠ متر وارتفاعه ٨٠٠ م بين قريتي مشغرة ونيحا اعني في منحدر تومات نيحا الشرقيّ

فان اعتبرنا اذن المنعطف البحري وجدنا موقع اوَّل منجم فحمي على مسافة ١٣ كيلومترًا فقط من صيداء . وفحمهُ شديد الحلكة لامع ذو قطع جامدة يُكسر كسرًا ولا يتفتَّت وهو على وجه الارض يعاينهُ الناظر في وادٍ صغير قرب المراح في علوّ يختلف بين ٧٥٠ الى ٨٠٠ م وهو يتّصل بعين التغرا فوق الوادي الى حدّ ٩٠٠ متر . وان سرت

---

١) راجع الصفحة (١١٦)

من ثمَّ الى جهة الجنوب امكنك ان تتّبع آثارهُ متواصلةً بين قريتي خرخيًّا وزحلتا على طول ١٢٠٠ متر وهناك لا يعود يُرى على وجه الارض غير انَّ الصلصال المختلط بمواد فحمية وشِسْتيَّة (schiste) يدلُّ على وجودهِ في مسافة نحو كيلومتر . وفي بعض الانحاء قد استخرج منهُ الاهاون بعض القناطير ولم يحفروا في عمقٍ يتجاوز سبعة امتار. امَّا سمك هذه المناجم فيتراوح بين ٥٠ سنتيمترًا و ١,٦٠ . وهذا ممَّا يدلُّ على قلّتها

وعلى مسافة نحو ٣٠٠ متر شمالًا من عين التغرا حجارة من الشِسْت حُمَريَّة تمتدُّ بين طبقتين من الحجارة الكلسيَّة وتحتهما طبقة من الفحم الخشبي المتحجّر . سمكها يختلف بين ٧٠ سنتيمترًا الى ثلاثة امتار ونصف وامتدادها يبلغ زهاء الف متر

وكذلك قرب الطريق المؤدية من حيطورة الى جزين طبقات أُخرى من الشِسْت الممزوج بالحُمَر يراها الرائي على طول امتدادها تقريباً ثمَّ تتوارى تحت قرية زحلتا وعمقها في بعض المواقع يبلغ من اربعة الى خمسة امتار . ومعدَّل ثخانتها اربعة امتار واستخراجها لا يستدعي شغلًا كبيرًا . وهذا المنجم لا يغطّيهِ سوى غشاء خفيف من التراب ويمكن تعدينهُ من الخارج دون فتح اسراب . وصلاحيتهُ في الغالب استخراج غاز التنوير منهُ

من المقرَّر ان اهمَّ مستودعات الفحم الخشبي المتحجّر في قائمقامية جزين واقع جنوبي غربي حيطورة على مسافة عشرين دقيقة منها وصاحب امتياز المنجم سعادة المركيز موسى دي فريبج ومسافة ارض الامتياز زهاء مائتي هكتار

فمن التفاصيل التي نوردها وابحاثنا السابقة تعرف ما يمكن استثماره من مستحجرات لبنان الخشبية . فالمنجم القريب من حيطورة لا تظهر آثارهُ على وجه الارض الَّا في بعض الانحاء ومستودع الفحم محصور فيهِ عادةً بين طبقتين من صلصالٍ صلب خشن قليل السمك ويختلف سمكهُ بين ٦٠ سنتيمترًا وثلاثة امتار فيلزم قبل تعدينه إزالة ربع التربة او ثلثها لاحتوائها على مواد غريبة غير صالحة كتقاطيع الشست الاسود الصلصالي الممزوج بالحديد والمحتوي على قليل من الفحم

وبعد هذا العمل الاستعدادي يتوصل الى الفحم الخشبي الحقيقي وهذا الفحم يختلف نوع تركيبه فهو سريع العطب في بعض الانحاء فيتفتت بسهولة وفي غيرها حالك لامع كثيف وكلا النوعين من الوقود الجيد

امَّا طبقة الناحية الغربية فانها تتخذ خواص البيريت لقربها من مستودعات هذا المعدن وفحمها مخطط بتقاطيع البيريت الذي يبلغ سمكهُ بعض مليمترات ولهذا السبب لا بد من تنقيتهِ تنقيةً حسنة واطّراح كمية وافرة منهُ مع انهُ من نوع الوقود الجيّد — فكل ما اوردناهُ يستلزم زيادة النفقة في استخراجهِ

وممَّا يلزم تلافيه في هذه الناحيــة تطاير روح الزاج المتكاثر والمسبب عن ضغط طبقات الردم المعرّضة لحرارة الشمس الَّا انهُ يمكن ملافاة الامر ذلك بتشييد الاتاتين في معامل التعدين

على انَّ مناجم حيطورة بل اكثر مستودعات الفحم الخشبي المتحجر في لبنان تتضمَّن شيئاً من العنبر المعدني الذي يتولَّد من صمغ الصنوبر والسرو واشباهها · فهذا العنبر اصفر كالشمس لامع ومكسرهُ زجاجي شفَّاف واذا تكشفت كِسَرهُ للهواء تفتَّتت

امَّا طرق استثمارهِ فالطريقة المستعملة الى اليوم في منجم حيطورة هي الحفيرة ولا بُدَّ من فتح اسراب معها فهذه الطريقة تمكّن مع بعض ضرباتٍ في اللغم من البلوغ الى عمق ٥ امتار وفي استعمالها ربح لان نفقة الاستخراج لا تتجاوز فرنكاً و ٥٠ س في الطنّ · ولولا ارتفاع اجرة النقل لكانت زيادة التعميق في الحفر تزيد في الربح

غير انَّ المنجم في الجملة يسهّل طرق الاستثمار بواسطة الاسراب او الدهاليز فالمعدن بالاجمال قليل الانحناء فتنصبُّ منهُ المياه اذ ذاك في الدهاليز وهذه تصبُّها في المسيل المجاور ولا يحتاج لتجديد الهواء وجلبهِ الى القوَّات المحرّكة وبمــا ان ليس فيهِ من الصخور الصمَّاء الصلدة فــلا حاجة الى استعمال قوَّة خارقة كالديناميت · فبعض دفعاتٍ من البارود في اللغم تكفي لرفع الطبقة الخزفية الموجود فيها الفحم المطلوب ولا يلزم لهذا الفحم الَّا استعمال الآلات المعتادة كالمحفر والمعول فلا يقتضي اذن لهذا العمل نقَّابون مخصوصون وكل هذا ممَّا يخفف النفقة في استخراجهِ

*

فبقي علينا ان نبحث عن المحصول · فبحساب بسيط يمكنَّا ان نقدّر بالتقريب مقدار المنجم جملةً اعني مقدار المحصول الصالح للوقود الممكن الانتفاع منــهُ مباشرة وهذا امرٌ ذو اهميَّة كبرى وبدونهِ لا يكون لتفاصيلنا السابقة الَّا فائدة نظريَّة · فتحت

موقع المنجم مباشرةً ببعض امتار عن سطح الارض ترى طبقة بسمك ثلاثة امتار ونحن نكتفي بتعديل مترين ونزيد على ذلك بان نطرح مترًا آخر وهذا كثير — بسبب الكثيب العقيم والفحم الممزوج بالمواد الغريبة التي تقلّل صلاحيتهُ للاستعمال

ومن بعد تنقية المستخرجات الحجرية وطرح العناصر الغريبة اذا قدَّرنا مساحة المنجم الصالح التعدين ١٠٠ متر فقط يمكن استخراج حجم من الفحم قدرهُ ١,٠٠٣,٩١٦ مترًا مكعَّب والحال قد شوهد في العمل ان المتر المكعَّب من الفحم الخشبي المتحجر وزنهُ زهاء الطن فتكون كامل الكميَّة بوزن ١,٠٠٣,٩١٦ طنًّا فلو فرضنا استخلاص ١٠,٠٠٠ طن في السنة فيدوم عمل التعدين ٨٠٠ سنة

فاذا كان الى الان لم يُبذل الجهد في استخراج منجم خطورة مع وجود الظروف الموافقة فسبب ذلك بلا شك العوائق التي اتينا على ذكرها مرارًا والتي تحول زمانًا طويلًا دون الانتفاع من كنوز لبنان المعدنيَّة التي على قلّتها لا يسوغ لنا ان نستخفَّ بها

وزد على ما ذكرنا المباراة الاجنبية التي يبقى اثرها الى اجيال عديدة فيلزم ان نضيف الى مناجم اوربة والعالم الجديد التي كانت دائمًا وتبقى زمانًا طويلًا في الاستعمال مناجم الفحم الحجري الصينيَّة التي لم تُعدَّن لحدّ الآن وهي وحدها تكفي وقودًا للعالم باسرهِ مدَّة الوف من الدهور وفي الممالك المحروسة سيَّما في برّ الاناضول (١ مناجم حسنة لا بدَّ من استثمارها مع اكتشاف غيرها من المستودعات المرجَّح وجودها (٢

فلو فرضنا انَّ الفحم اللبناني يعادل بجودتهِ الفحم الانكليزي وفحم هيرقلة العثماني فانهُ يقصر عنهما بالرواج في السوق السوري . فمناجم هيرقلة وبلاد الغال يجديها قربها من البحر فائدة كبرى فانها تُنقل توًّا من المنجم الى مراكب الشحن ولا يجهل احدٌ رخص اجرة النقل في البحر (٣ فمن هيرقلة ومن كرديف (انكلترة) الى بيروت

---

١) قد اكتشفوا في بلجكة على مناجم فحم حجري عظيمة وقد حُسب دخلها لالوف من السنين ٢) راجع كتاب (Verney et Dallmann) والمشرق ١٩٠٢ ص ٧٧٣

٣) وحقيقة ذلك تظهر بمثل نوردهُ — فطريقة ايصال الحنطة من روسية الى سويسرة على وجهين الاول على طريق مرسيليا او جنوا ومنهما بالسكة الحديدية والثاني على طريق انفرس او روتردام ومنهما بالنهر . فبالطريق البحري وهو اطول من طريق البر بثلاثة اضعاف يبلغ الاقتصاد نحو خمسين فرنكًا في كل عجلة من القطار فهاك السنَّة المتبوعة في التجارة الحاضرة : اكثر ما يمكن على طريق البحر واقلّ ما يمكن على طريق البرّ

لا تزيد نفقات النقل على نفقات الفحم المنقول اليها من داخل لبنان على متن البغال والجمال . فتأمَّل

٢ الحُمَر

يُستدلّ عند اول وهلة على ان هذا المعدن كثيرٌ في لبنان . ففي الشرق والجنوب تحيط بالجبل اراضٍ يُشاهد فيها الحُمَر بكثرة ففي بلاد بشارة يُرى الحمر في عينبل وحُريقة وفي غير مواضع من قائمقامية صور . غير ان اشهر مستودعات الحُمَر في قضاء مرجعيون واغناها منجم حاصبيًّا الذي هو من املاك الحضرة السلطانية . وكفاه وصفاً ان يُقال انهُ قد كان يُستخرج منهُ في اليوم ٨٠ صندوقاً وزن كل منها ١٠٠ كيلو

فمع ذلك ليس لبنانٍ على شيء من غنى الاقضيَّة المجاورة لهُ ولا نعرف في الجبل الّا منجماً واحدًا وهو منجم مليخ في قائمقاميَّة جزين غير انهُ قليل المـادَّة . ولذلك عدلوا عنهُ بعد ان باشروا باستثمارهِ لقلّة دخلهِ لان نفقات الاستخراج باهظة والمحصول طفيف لذلك لا سبيل للمباراة مع منجم حاصبيًّا . امَّا في قضاء البترون فآثار الحمَر دون ذلك فلا يُعتَدُّ بها ولا نتيجة لها ترغّب باستثمارها . امَّا غير ما ذكر من اصناف الوقود المعدنيَّة كالبترول فلا اثر لهُ في تربة لبنان

*

ثانياً المواد والمناجم المعدنية

ليس للبحث في هذا الموضوع مجالٌ واسع وما نوردهُ في هذا الفصل دون مــا قدّمناه في فصل الوقود

فلنباشرنّ بالحديد ولولا مخافة الالتباس لسمَّيناهُ سيِّد المعادن بدلًا من الذهب الذي خُصّ بهذه التسمية على غير حقّ . نعم ان الحـديد من حيث اللمعان الظاهر والقيـمة المجرَّدة اقلّ قدرًا من بقية المعادن كالذهب والفضة والنحــاس والزئبق وغيرها لكنهُ اكثر منها انتشارًا في الكون واعظم منها فائدةً للانسانية ولا يضاهيهِ في ذلك الّا الفحم الحجري الذي يشبههُ بسواد لونهِ وقلة نضارتهِ

ولقد يتبادر الى الذهن ان اغنى البلاد مالًا واوسعها اتجارًا واقدرها صناعةً هي

البلاد التي توفَّرت فيها معادن الذهب ومناجم الالماس والصحيح ان اغنى بلاد الله هي ما كثرت فيها معادن الحديد ومناجم الفحم الحجري فالمعادن الثمينة انما ينتفع منها بعض الخاصَّة المُنعَم بها عليهم فتفيدهم زهوًا وتزيدهم لهوًا وان توارت عن وجه المعمور فلا يلتحق بالانسان ضررٌ كبيرٌ بل يتخلَّص من اكبر مُهيّج للاهواء البشريَّة . امَّا فقد الحديد فيُحدث في الهيئة الاجتماعيَّة اضطراباً شديداً وفي اعمال الصناعة اختلالاً عظيماً ويكفي لاثبات ذلك ان الزراعة التي هي اهمّ الحرف واوجب الصناعات لا قيام لها بدونهِ

فان كان حقّ التقدُّم لمستحقيهِ بما يؤدُّون من الخدم الجليلة فليس بين المعادن من يستحق التقدُّم والسيادة نظير الحديد

ولقد اعتاد شعراء اليونان واللاتين الاقدمين ان يختصروا تاريخ العالم ويقسمونهُ الى ثلاثة اطوار ملقبين كلّ طور باسم معدن فيدعون الاوَّل والاقدم بالعصر الذهبي والثاني بالفضيّ والثالث بالحديديّ فلم يؤيد الاختبار تمام التأييد اعتقاد الشعراء ولا حقَّق التاريخ امانيِّهم لاسترسالهم الى مخيِّلتهم الساعية وراء الصور اللامعة والتشابيه الساطعة غير مبالين بتطبيقها تطبيقاً كاملًا على الحقيقة الراهنة

على اننا لو نظرنا الى استعمال الحديد المتعدّد ونموّهِ المتواصل الى حدّ انهُ كاد يقوم مقام كثير من المواد كالخشب والحجر لتجرَّأنا ان نسمّي عصرنا العصر الحديديّ ومن هذا الوجه يكون قد سبق الشعراء فعرفوا المستقبل وهم لا يدرون . لكنَّهم لم يدركوا ان الحديد يمشي مع التمدّن قدَماً على قدم ويسير كتفاً لكتف مع النجاح الذي لا يكون بسواه . وما لا يُنكر ان اكثر الاشياء استعمالاً واعظمها نجاحاً الحديد والورق فالورق وهو أرقّ الاشياء والحديد وهو اصلبها كانا العاملين العظيمين المساعدين على التقدُّم والنجاح ادبيًا وماديًا — نعني النجاح بالنسبة والتقييد لا على الاطلاق نريد النجاح الذي احتجّ عليهِ الشعراء الاقدمون كما يفعل اليوم اصحاب الفنون الجميلة وطالبو الحسن المعقول . ثمَّ ان للحديد شبهاً بالعصر العمليّ الذي نما بهِ نموَّه الغريب اي كثرة الفوائد على قلَّة المحاسن . فحيثما اعتدى الحديد على الخشب والحجر وحرمها حقَّها ما امكنهُ ان يقوم مقامها في مقامات الفنون الجميلة فهو الخادم الذي لا بدَّ منهُ وان قلَّت ظرافتهُ بازاء الجاذب الفتَّان وهو انَّما يُحَبُّ لفائدتهِ لا لملاحتهِ

على انَّ في عصرنا الحاضر لا يحلّ شيء محلّ الفائدة . فحبّ الانتفاع عمل على انتشار الحديد ونموّ الصناعة والتجارة وهذان الفرعان قد اصبحا من اعظم العوامل في انفاذ الحديد . فمن قبل مائة سنة لم تكن المراكب والآلات والسكك الحديدية ولوازم الطوبجية فان كل هذه لم يكن يُعتَدُّ بها بالنسبة الى العصر الحاضر ثمَّ اضحت آخرًا الزراعة وصناعة البناء من اعظم « أكَلة » هذا المعدن . وقصارى الكلام انهُ ايسر علينا ان نعدّد حاجاتنا الى الحديد من ان نبيّن الحدّ الذي تقف عندهُ تلك الحاجات . فهذه التفاصيل توضح لنا على الاقلّ عظم شأنهِ فترى اننا لم نُعِرْها التفاتنا عبثاً

*

امَّا معدن الحديد فهو لحسن الحظ كثيرٌ في قَضَض لبنان وأتربتهِ ويشاهد في طبقاتٍ تتركّب من حبَّات متمازّجة كبيض السمك أو كالعدس او الحمّص المتحجر . وقد يُرى احياناً مختلطاً ومحصورًا في كُتَل كلسيَّة ملبَّدة او في موادّ معدنيَّة معروفة باسم سپاث (Spath) . وهذه الموادّ غنيَّة بمعدنها غزيرة (١ لانَّ كميَّة الحديد فيها من ٥٠ الى ٦٠ بالمائة ومن هذا الوجه لا يدانيهِ الّا معدن « مقطع الحديد » في جزائر الغرب اذ تصل كميَّة الحديد فيهِ الى ٦٥ بالمائة

وهذا المعدن منتشر في اكثر انحاء لبنان وعلى سطح الجبال وفي بطن الوديان سيما في اقضية البترون وكسروان والمتن وقد استُثمرَ منذ الازمنة الغريقة في القِدم كما نثبتهُ فيما بعد وكما يلوح من عُرَم الخَبَث والفُسالة المنتثرة في كثيرٍ من انحاء الجبل . ونخصُّ بالذكر جهات عكَّار ودوما وبيت شباب والمشغرة والفرزل واودية المجاري النهرية مثل نهر الكلب ونهر ابرهيم . فمن هذه المعادن كانت تؤخذ موادّ المسابك والمعامل الحديديَّة المقامة في تلك الانحاء ولبثت هذه المعامل مستعملة الى اوائل العصر المنصرم

وممَّا يزيد اهميَّة المعادن اللبنانية فضلًا عن غزارتها وغنائها جودةُ مادَّتها فانها تعطي اجود الحديد الذي يُتَّخذ منهُ افضل الفولاذ واصلحهُ لادقّ الاعمال وارقّها كالآلات والمدافع وتصفيح المراكب وقد اشتهر حديد لبنان بلدونتهِ ومرونتهِ ولا يبعد انَّ منهُ كانت تُعمل اسلحة دمشق الطائرة الشهرة كالسيوف الشاميَّة التي طالما

١) ان معدن الحديد يُعتبر غنياً اذا كانت كميَّة الحديد فيهِ تتجاوز ٤٠ في المائة

أغرم بها العارفون واثنى عليها المولعون وقد فُقِد اليوم سرّ اصطناعها . وانّما دخل الحديد الغريب الى لبنان في الجيل الماضي كانت الافضليَّة للحديد اللبناني في عمل أنعال الدوابّ وصناعة المسامير وما شاكل ذلك

على ان معادن لبنان مع غزارة مادّتها وجودتها لا تُجدي نفعًا معتبرًا لقلّة الذرائع في استثمارها اذ ليس من وقود لتشغيل المسابك وقد مرَّ بك آنفًا ان لا وجود للفحم الحجري في لبنان غير انَّهُ يمكن الاستعاضة عنهُ بالخشب كما كانوا يصنعون قديمًا وذلك كان من اعظم البواعث على اتلاف الاحراج في لبنان وهاك بيانهُ :

فقديمًا وقبل اكتشاف الفحم الحجري كانت تُعالج معادن الحديد بالحطب في لبنان كما في اوربّة . فانهم كانوا يوقدون الحطب في المواقد المعدَّة لتذويب الحديد وصبّهِ . وبعد الحساب وجدوا انهُ يلزم مائة كيلو من الحطب للحصول على ١٧ كيلو من فحم الحطب ويجب احراق مائة كيلو من الفحم لسبك ٣٤ كيلو من الحديد وذلك كناية عن اتلاف ١٧٠٠ كيلو من الحطب لاستغلال ١٠٠ كيلو من الحديد . وكان المسبك الواحد يستغرق من الحطب ما تغلّهُ سنويًّا مساحة ٢٠٠٠ هكتار من الاحراج (١ فعلى ذلك لم تكن لتكفي اوسع الاملاك . الّا انّ حركة المعامل كانت اذ ذاك خفيفة لان الحاجة الى الحديد لم تكن شيئًا بالنسبة الى العصر الحاضر فالكور القديم كان يصبّ من ١٠٠٠ الى ١,٥٠٠ كيلو يوميًّا امّا الان فانهُ يُسبك في اليوم زهاء ١٢٥,٠٠٠ كيلو وفي بعض المعامل ثمانية او تسعة اكوار . فاذا اتّضح ذلك ظهر جليًّا الضرر الجسيم اللاحق بشجر لبنان والناجم عن مسابك الحديد القديمة وعرفتَ ان لا سبيل للانتفاع من معادن الجبل الحديديَّة على كثرتها ووفرة مادّتها

ولا سبيل ايضًا لصبّ هذه المعادن والاعتناء بها بنفقات قليلة الّا باستحضار الذرائع الموجودة في اعظم البلاد الصناعيَّة نظير انكلترة وبلجكة . اعني بوجود مناجم فحم حجري قريبًا من معادن الحديد وقد عرفت ممّا مرَّ بك أن لا وجود لهذه المناجم في لبنان ولا يَسدّ هذا الخلل استجلاب الفحم الحجري من الخارج لما يستلزم من النفقات الباهظة

(١ راجع كتاب *Vicomte G. d'Avenel : Le mécanisme de la vie moderne* t. I, p. 94

فعليه لا يستطيع لبنان مباراة البلاد الاجنبية في معادن الحديــد مع سهولة استخراجها وجودة صفتها . لذلك نرى مسبك لبنان الوحيد في بيت شباب مضطرًّا الى استعمال الحديد الاجنبي . ولا مناص من هذا الاضطرار الّا باستعمال المياه كقوَّة محركةً في معالجة المعادن ولا يمكن ذلك الّا حيث المعادن قريبة من مجاري المياه والينابيع القويَّة كما في وادي نهر الكلب وفي جوار ميروبا فهناك المعادن الجيّدة

وممَّا يزيد الاسف أنَّ لبنان لا يمكن ان يستعيض عن استثمار الحديد باستخراج غيرهِ من المعادن اذ لا وجود لها . فاننا لا نتكلّم عن الذهب والفضة اللذين ذكرهما بعض الكتبة ممَّن لا يتروّون في الامور ولا ينقبون في المباحث فقد اكَّدوا وجودهما في لبنان بجانب غيرهما من المعادن كالنحاس والتوتيا [1]

فلا حاجة لنا بنقض هذه المزاعم التي لا صحة لها ولا سند . ولقد تباهى غيرهم باكتشاف مناجم الزيبق في لبنان [2] فالزيبق معدن ثمين [3] واستثمارهُ يعود على الجبل بفائدة عُظمى الّا انَّ هنا ايضاً تغلّب الوهم على الحقيقة فبُهرت الاعين بدلائل وهميَّة كاذبة . فالزيبق المكتشف وُجد بكميَّة زهيدة في موضعين بجانب السكة الحديديَّة من بيروت الى الشام اعني في عين صوفر وعين مشرح فقد كان ذلك بلا ريب موضع المعامل القديمة ايَّام مــدّ السكة وما الزيبق المكتشف الّا كميّات وقعت من آلات المهندسين . ولقد سمعنــا باكتشاف معدن نحاس في المتن الاعلى فهذه الاكتشافات لا تستلفت الانظار لعدم كفاءة اصحابها فعلينا ان ننتظر حكم رجال الخبرة وفحص المساطر . ونحن نتمنّى ان يكون ذلك صحيحاً وليتنــا نستطيع تكذيب الدكتور لورتهْ [4] القائل ان ليس في لبنان من المعادن ما يُعوَّل عليهِ

*

ثالثًا الحجارة ولوازم البناء

ان الحجارة كثيرة في لبنان ويمكن استثمارها طويلًا ونقلها الى البلاد الاجنبيَّة

---

١) راجع كتاب فضل الله فارس ابي حلقه : جغرافية سوريا وفلسطين (ص ٢٣١)

٢) راجع الرسالة المبعوثة الى البشير (في ٢٣ ايلول سنة ١٩٠١)

٣) راجع المشرق (٤ : ٨٨٧-٨٩١)

٤) راجع كتاب – الدول الاجنبية – المقدّمة ص ١٩

ولقد تأخذ الدهشة الغريب اذ يطوف لبنان ويسرّح نظره في حجارة ابنيته فهذه الحجارة الجميلة سواء كانت منحوتة او غير منحوتة تجعل لأبسط المساكن هيئة جليلة لا يألفها السائح الّا في قصور وطنه . فباعتناء قليل يستحكم البناء ويحصل له هيئة صلابة ومكانة تزدري بكرور الاجيال . ولحسن الحظ ليست الصلابة بالظاهر فقط بل بالحقيقة ايضاً فقلّما نرى على سطح المعمور بلداً فيه مـا في لبنان من لوازم البناء بكثرتها وحسنها وصلابتها . فلا طاقة للرطوبة ولعوامل الجوّ الاخرى على إتلافها . فهذه الحجارة الكلسيّة لها تقاطيع زجاجيّة في المواضع المنحوتة حديثاً ولونها ابيض كامد وقد يتحوّل على مرور الزمان بفعل اشعّة الشمس الى شيء من الصفرة الذهبيّة

امّا في منحدرات الجبل السفلى وعلى الشواطىء البحريّة فتكثر مقالع الحجارة الرمليّة وهذا الصنف لونه اصفر وحجره جيّد صالح للبنيان وكل المحلّات العـامرة والاماكن الآهلة بالسكان من صور الى طرابلس مبنيّـة بحجره . ومن خواصه انهُ سريع التفتّت سهل النحت لدى خروجه من القلع فيتصلّب في الهواء ويصلح للملاط اكثر من الحجارة الكلسيّة الجميلة المقتلعة داخل الجبل

والحجر الرملي مثقوب غالباً بثقب طويلة اسطوانيّة ضيّقة على شكل لولب كانها صنع المخرز وربما كان ذلك من قرض الهوام الحجريّة (١ مـدّة الاطوار الاولى الجيولوجية . وقد فات هذا الشرح فهم رينان فذهب فيـه مذهباً غريباً فان اكثر مدافن جبيل محفورة في هذا الحجر ففيما كان رينان يفحصها شاهد ثقوباً اسطوانيّة في قبّة القبور القديمة فتوهّم تعليـلًا لوجودها أنّ الاقدمين كانوا يلجأون قبل حفر المدافن الى سبر الحجر لقصد امتحانه (٢

على انهُ ليس بوسعنا ان نعدّد بالتفاصيل كلّ ما في لبنان من موادّ البناء على وفرة اصنافهـا ولا يسعنا الّا ان نذكر انواع الحجارة الجميلة الممتازة بكثافتهـا وصلابتها فانها تُستعمل للاعمدة وللدرج وعتبات الابواب واسكفّاتها الى غير ذلك من الاعمال المعتبرة كرصيف المرافئ اذ ان امتداد طرق العربات في لبنـان يسهّل نقلها الى البحر . ومن اصناف الحجر الجيّد ما يستخرج من المقالع الموجودة في اسفل

١) راجع Dawson : *Egypt and Syria*, 79

٢) راجع الجزء الاول ص ٦٥ و ٦٦

قرنة شهوان وبيت مري بالقرب من دير مار روكس وفي غير مواضع

واينما سرت من الجبل ترى من الحجارة الصالحة للتبليط والتلبس وحجارة لعمل الكلس والرحى امّا البلّور فهو كثيرٌ في لبنان . وبعكس ذلك الرخام فهو نادر الوجود في الجبل وليس من الصنف الجيّد اللهمّ اذا استثنينا بلاد الجبّة فانّ فيها مقالع رخام صالحة للصقل والجلي الحسن ونذكر اننا شاهدنا امثلةً منها في بعض بيوت اهدن القديمة وكذلك في الديوان في الكرسي البطريركي الجديد . وممّا يستحقّ الذكر مقالع الرخام الموجودة في جمهور ودير القلعة فرخامها ذو عروق حمراء (١ وفي دير القلعة ايضاً حجر صلب معتبر وفي تحوم في قضاء البترون و بعض انحاء البقاع مقالع حجرها صلب لونهُ ابيض يجعلهُ الصقل لامعاً كالرخام ويؤخذ منهُ البلاط المصقول والاعمدة الصغيرة اللامعة (شمعات) . امّا الرخام الابيض الجميل من صنف رخام ايطالية والرخام السمّاقي وحجر الصوان فلا وجود لها في لبنان . وما يشاهد في المدن الفينيقيّة القديمة من اعمدة الصوّان مثل جبيل الحاوية على عدد وافر منها فانها منقولة من مصر

على أنّ حجارة لبنان لم تكن تُستعمل الى السنين الاخيرة إلّا في محلّها والمدن المجاورة نظير بيروت وقد راجت السوق فيها رواجاً عظيماً ومن بضع سنوات باشرت مصر بأخذ لوازم البناء من لبنان لندرة الحجر فيها وقلّة صلاحيّتهِ كما ان الامر جارٍ في مقالع لبنان القريبة من البحر مثل نهر الكلب والمعاملتين فانّ المراكب تستطيع ان تصل اليها وتشحنها بأقلّ نفقة أمّا المقالع البعيدة فالوسيلة لنقل صادراتها ان تكون من الصنف الاعلى كمقالع قرنة شهوان ومار روكس ودير القلعة وغيرها فانها تُطلب الى البلاد الاجنبيّة وما من مانع يحول دون اتّساع تجارتها اذ ان امتداد طرقات العربات في لبنان يسهّل كثيرًا طرائق ايصالها الى البحر . وقد أخذت شركة ترعة السويس على ما نظنّ حجارةً من لبنان لتوسيع احواض بورسعيد فكان العمل مرضياً والاقتصاد حسناً

فهذا كلّهُ يدعو الى التنشيط ويحمل على مواصلة العمل للانتفاع من حجارة

١) فمن مقلع دير القلعة اعمدة الكاتدرائيّة المارونيّة وكنيسة كليّتنا

لبنان ولا يخامرنا ريب أنَّ مقالع لبنان لم تُكتشَف جميعها سيَّما مقالع الحجر الحسنى والرخام العادي فاذا اتَّسع نطاق هذه الصنعة عادت بالفائدة على الكثيرين من الفعلة كعمَلة المقالع والنحَّاتين فتسدّ مسدّ المعادن المفقودة من لبنان

٢

معادن لبنان القديمة

لقد انجزنا الكلام عن غنى لبنان المعدني والحقُّ اولى ان يُقال ليس لبنان من هذا الوجه ذا ثروة طائلة وغنًى وافر . فلوازم البناء متوفّرة فيهِ إلَّا انها ليست من اعلى درجة في الجودة . ومعادن الحديد كثيرة الانتشار في الجبل الَّا انَّها قليلة لعدم وجود الوقود لتشغيل المسابك والمعامل . وكذلك الفحم الخشبي المتحجّر فانَّ في لبنان منهُ شيئاً . فاذا شئنا ان نعرف ما لهــذا الوقود من الشأن والاعتبار في نفس مركزهِ يكفي ان نردّد في ذهننا ان اصحاب المعامل الحريريَّة المجــاورة لمستودعاتهِ عدلت عنهُ تباعاً الى الفحم الاجنبي . فوالحالة هذه ليس لاهل لبنان ان يبنوا الآمال على استحضار المعادن ولا يُمنُّوا النفس بتحسين مستقبل البلاد بسببها

لكن هنا بحثاً آخر تُرى هل كانت هذه الحال حال لبنان القديمــة ؟ ألم يتفق للبنان مــا اتَّفقَ لاراضٍ كثيرة كانت مخصبة غنيَّة ففرغت على توالي الاجيــال واصبحت عقيمة ؟ أوَلم تنزع من اعماق لبنان كنوزهُ المعدنيَّة القديمة ؟ فلهذا السؤال محلّ ومجال لانَّ ارباب البحث والاقتصاديين منذ الان قــد وجدوا بعد الحساب ان اغنى مناجم الفحم الحجري في اوربة لا بدَّ ان تنفد يوماً ولا يمرُّ على بعضها جيــلان او ثلاثة حتى تكون قد نفدت فلِمَ لا يصحّ ذلك في لبنــان وقد ظهرت فيهِ آثار العمران وحركة الاشغال من نحو ٤٠٠٠ سنة والادلَّة على ذلك صحيحة راهنــة فهذه المدَّة الطويلة تكفي كل الكفاءة لتعليل ما حدث في حال معادنها من التغيير والانقلاب

وممَّا يزيد في ارجحيَّة هذا الرأي كون لبنان قسماً من فينيقية والحال ان بــلاد

فينيقية كانت من اقدم الازمان كنقطة للاشغال المعدنيَّة وكمحور للاعمال الصناعيَّة (١ فقد وجدوا الوفاً من آثار هذه الصناعة القديمة وضروبها المتنوّعة كآنية فضة ونحاس وقلز وحليّ من كل الاصناف واشكال الاسلحة وادوات زجاجيَّة وغيرها · فهذه التحف ملأت المتاحف التي غصّت بها وضاقت عن ان تسعها ومع ذلك لم تصرف العناية الى جمعها ووضعها في المتاحف إلّا من نحو نصف قرن وكم من تحف غيرها بادت او لم تزل مدفونةً في بطون المدن الفينيقيَّة وهي تتوقَّع يوماً من الدهر لتظهر للعيان

على انّ هذه الحال من نموّ الصنائع وانتشار الاشغال المعدنية لم تكن خاصَّةً بعهد الفينيقيّين بل بقيت بعدهم اجيالاً عديدة واستمرّت الى اواخر الاعصر المتوسطة · ولم تبطل هذه الاشغال في المدن الممتدَّة على طول الشواطئ البحريَّة من عكا الى اللاذقية فكانت العمَّال من نحو خمسة او ستة اجيال منكبَّة على العمل وكانت تصنع مصنوعات عظيمة وتُصدر صادرات وافرة · ففي اواسط الجيل الرابع للميلاد يذكر يونيور (Junior) الفيلسوف اللاتيني « مدينتي طرابلس وجبيل الصناعيَّتين ومدن صيداء وصرفند وعكا الزاهرات وخصَّ من بين هذه المدن اللاذقية وجبيل وصور وبيروت بانها ترسل انسجتها الى جميع الارض وتنشر صرفند فوق ذلك ارجوانها » (٢

ولنا في الجيل العاشر شهادة المقدسي الجغرافي العربي وبما انهُ سوريّ النشأة فتكون لشهادته قوة كبرى فانهُ يعدّد بين صادرات سوريَّة المحمولة الى الخارج عن مرافئ البحر من قيصريَّة الى السويديَّة انسجة الحرير والصابون والمرايا والزجاج والابر والسُّرُج وآنية النحاس والحُرُض او الأُشنان والحديد والكبريت والملح والرخام (٣. وفي الاعصر التابعة يصف الادريسي والدمشقي وابن بطوطة حركة الاشغال الصناعيَّة

١) راجع كتاب بيرار (Bérard: *Les Phéniciens et l'Odyssée*, I, 306-307; 367; 376; 409, 414, etc. Benzinger: *Hebraeische Archeologie*, 253)

٢) وهذا نصهُ بحرفهِ: Tripolis et Byblus, ipsæ civitates industriosæ sunt: iterum optimæ civitates Sidon, Sarepta, Ptolemaïs . . . Laodicia, Byblus, Tyrus, Beritus omni mundo linteamen emittunt, Sarepta vero purpuram præstat.

٣) راجع في تأليفهِ « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » وصف سورية (ص ١٥١ – ١٨١)

في مدن سوريّة والسيّاح الغربيّون الذين ساحوا في سوريّة في ذلك العصر يؤدون الشهادة نفسها (١

*

والحال هل يخطر على بال ان هذه الصناعة وفيها المعادن حظّ صالح تتخذ لوازمها الاولية وموادّها الضروريّة من الخارج لا غير. امّا نحن فلا نخال ذلك لان في مثل هذه الحال لا تأتي المصنوعات بارباح طائلة الى حدّ انها تُحمل الى جميع الجهات. فالاعمال المعدنيّة في فرنسة مع ما هي عليهِ من جودة الطرق وكمال الاساليب لا تستطيع مجاراة اشغال البلاد المجاورة لها وعلّة ذلك انها مضطرّة الى ان تستجلب من الخارج قسماً من معادنها. فنستنتج اذن ان الصناعة الفينيقية وهي اقدم الصنائع كانت تتخذ مواد اشغالها من محلها وجبال بلادها وبغير عبارة نقول انهُ يلزم التسليم بان مستودعات معادن لبنان كانت قديماً اوفر عدداً واغزر مادّةً واكثر نوعاً ممّا هي اليوم. وليت شعري هل يمكن اثبات هذه النتيجة بشواهد تاريخية

امّا ايضاح ذلك عن الحديد فايسر شيء عندنا بل لا حاجة الى ذلك وقد اثبتنا وجودهُ في ايامنا فلهذا لا نفيض في ايراد الشهادات بل نقتصر على بعضها. على انّ بين هذه الشهادات شهادةً هي اعظمها اهميّة واشدّها اعتباراً تدلّ على ما كان لتجارة الحديد من الشيوع والشأن في قديم الزمن. ففي الجيل السابع قبل الميلاد كانت العبارة « با ان برت » تستعمل في اللغة المصريّة للدلالة على الحديد (٢ ومعنى هذه الكلمة حرفيًّا « بضاعة بيروت » فيُستنتج اذن من استعمال هذه الكلمة ان شغل الحديد كان شائعاً في بيروت وانهُ كان بجوار هذه المدينة معادن يُستخرَج منها الحديد بكثرة وكما انهُ من لفظة « بضائع باريس» سوف يستدلّ المؤرخون في المستقبل أن بضائع الزينة والتبرّج كانت تُصنع في باريس. فهكذا قُلْ عن الكلمة المصريّة التي اوردناها فانها تشير الى أنّ وادي النيل وذلك لا اقلّ من ٨٠٠ سنة قبل المسيح

١) راجع كتاب راي (Rey: *Colonies franques*, 211) واما عن بيروت فراجع هيد (Heyd) تاريخ تجارة المشرق. الترجمة الفرنسوية ص ٤٥٦ و ٤٥٩ و ٤٣٠ و ٤٨٨ الخ

٢) راجع المجلة الاسيوية (Journal asiatique, 1904. I, 155 - 56)

ألِف الحديدَ اللبناني المحمول اليهِ من مرفأ بيروت الى حدّ انَّ اهلهُ لم يميّزوا بين اللفظين اعني « الحديد » و « صناعة بيروت » . وكمثل ذلك جرى في اللغة العربية الفصحى للهندي والمشرفي فانهما اصبحا مرادفَين للسيف وقد كانا في الاصل يدلّان على السيوف المصنوعة في الهند وفي « مشارف » البلقاء شرقي بحيرة لوط . وقد كان زمام تجارة الادوات البيتيَّة وآنية الحديد والقاز والنحاس في الجيل التاسع قبل المسيح بايدي الفينيقيين في سوق مصر عينه (١ . والمقدسي (٢ يأتي على ذكر معادن الحديد في بيروت الموجودة في عصرهِ . وبعدهُ بجيلين يقول الشريف الادريسي اثناء كلامهِ عن بيروت : « وبمقربة منها جبل فيهِ معدن حديد طيّب جيّد القطع يُستخرَج منهُ الكثير ويُحمَل الى بلاد الشام (٣ » . وقال ابن بطوطة (٤ : « ان الحديد يُحمَل من بيروت الى مصر » فهذه الشهادات معتبرة فانها تدلُّنا على نموّ صناعة الحديد في لبنان حتى اواخر الجيل الرابع عشر . وامَّا ما قدَّمنا من تفاصيل نقل الحديد وحملهِ الى الخارج فيدلّ ليس فقط على رواجهِ في سوق مصر بل يرجّح ايضاً على ان اسلحة دمشق كانت تُصنع من معادن لبنان كما اوردنا آنفاً

ولقد يُشتَفّ من وراء هذه الشهادات ما التحق باحراج لبنان من الضرر الجسيم بسبب تلك الصناعة التي نستطيع ان نتتبع حركتها مدة الفي سنة . فمواقد المسابك كانت بمثابة لجّة التهمت غابات الارز العظيمة

*

على انهُ ليس بعد الحديد معدن شاع ذكرهُ بين صادرات الصناعة الفينيقية القديمة نظير النحاس . والعجب في ذلك ان هذا المعدن لم يبقَ لهُ اليوم أقلّ اثر في لبنان كما سبق لنا ذكرهُ ففي هذا سرٌّ غامض على المؤرخين ويستلفت انظار الجيولوجيين الذين يحوّلون ابصارهم عن كل شهادة لا يجدونها مسطَّرةً في بطون الارض

فلنباشر بايراد التوراة شهادة اولًا : فانهُ مذكور في سفر الملوك الثاني (٨ : ٥—٨)

---

١) راجع كتاب موللر (W. M. Müller : *Asien und Europa*, 306)

٢) في كتابهِ السابق ذكره (ص ١٧٤)

٣) طبعة جيلدميستر

٤) I. 133,

ان داود اخذ من ملك صوبة نحاساً كثيرًا جدًا . فاين محلّ صوبة المذكورة ؟ من المرجّح انها كانت قائمة في سهل البقاع وذهب بعض علماء عصرنا على انها نفس المدينة المدعوّة « مات نحاسي » في كتابات تلّ العمارنة (١٥٠٠ قبل المسيح) ثم سماها اليونان (١ فيما بعد كلسيس . فما اغرب هذا الاتفاق فلفظة كلسيس معناها في اليوناني نحاس وفي مات نحاسي كلّ يرى كلمة نحاس . وعليهِ اذا صحّ ان صوبة وكلسيس ومات نحاسي ما هي الّا ثلثة اسماء لمسمّى واحد فيكون المقصود بها المحل المشهور بمعادنهِ القائم في جوار لبنان

غير ان الآراء متضاربة في تعيين موضع كلسيس فقال بعضهم انها معلّقة — زحلة ورجّح غيرهم ونحن من رأيهم (٢ انها عين جار في اسفل الجبل الشرقي المقابل للبنان (٣ — فعلى كل حال ليست المسافة بين الموقعين بعيدة انما على حلّ هذا المشكل الجغرافي يتوقّف تخصيص معادن النحاس القديمة بلبنان او بالجبل الشرقي الذي يقابلهُ

ثم اننا نرى الكتابات المصريّة والكتابات الاشوريّة قبل التوراة تشير الى وجود كميّات عظيمة من النحاس في لبنان او في ما يجاورهُ ومنها ٨٤,٠٠٠ كيلو من النحاس اخذها رمّانيرار الثالث ملك الاشوريين من ملك دمشق فهذه الكميّة الوافرة الموجودة في محلّ واحد تدلّ على انها من صادرات المحلّ وليست من الخارج واننا نجد فضلًا عن ذلك في كتابة تحوتمس الثالث ذكر « نحاس اسيوي أتى بهِ فرعون مصر من بلاد راتانو بعزٍ وانتصارٍ (٤ » وراتانو كما هو الشائع في كتابتها الان هي الناحية التي يسقيها الليطاني وقد سبق لنا تفصيل ذلك (٥

على انّ هذا النهر ينبغي ان يُعتبر تابعاً للبنان لانهُ يجري على شواطئهِ او يمرّ في اراضيهِ — امّا العلّامة ينسن (Jensen) فانهُ لا يقف عند هذا الحدّ بل يزعم ان

١) راجع كتاب Buhl : *Geogr. des alt. Palaestina*, p. 115

٢) راجع (الصفحة ٤٠)

٣) Pauly - Wissowa. Encyclop., III 2091

٤) راجع كتاب Müller : *Asien und Europa*. 126, 127

٥) راجع (ص ٢٢ و ٢٣)

راتانو او لاتانو من اسامي لبنان نفسهِ او لا اقلّ من ان تدلّ على ناحية الليطاني (١

وفضلًا عن ذلك فالكتابات المصريَّة تسمّي عادةً فينيقية باسم « ذاهي » وتجعل بين صادرات هذه البلاد ليس فقط الزيت والعسل والخمر ممّا لا يذهل لهُ انسان بل ايضاً النحاس والرصاص واصناف الحجارة المتنوعة الخ (٢ . وفي غير موضع تذكر آنية الحديد والنحاس كصناعة مختصة بفينيقية (٣ ومن المعلوم انها كانت تُغلاً منها اسواق اشور وبابل (٤ واسواق بلاد اليونان في اوربّة واسيّة . افلا يسوغ لنا بعد هذا كلهِ ان نستنتج وجود معادن النحاس في جبال فينيقية ؟ رويدك ايها القارئ فلا تعجلنّ باستنتاج النتائج لئلّا تبدي حكمًا عن غير تروٍّ كافٍ . ومن المحتمل ان الفينيقيين كانوا يستخرجون النحاس من املاكهم في جزيرة قبرس او من « الاسيا » (٥ الشهيرة بمعادنها النحاسية والمظنون موقعها على مصبّ نهر العاصي ولعلّ اسم النحاس العربي مأخوذ عن اللفظة الاشوريَّة « الاسيا » كما ترى . وزعم غيرهم انها قبرس استناداً على وجود معادن النحاس فيها وعلى رأيهم أنَّ منها كان يؤخذ النحاس لتشغيل معامل فينيقية . فليست المسألة اذن جليَّة كما يُظنّ . امّا نحن فنرجّح رأياً متوسطاً

فاننا نعلم مع كثيرٍ من العلماء الذين اوردنا شهاداتهم وغيرهم نظير كيبرت (٦ ويَنْسِن وغيرهما (٧ بوجود معادن نحاس في لبنان لكنها قليلة . لذلك اضطرّ الفينيقيون ان يستجلبوا من الخارج ما كان ينقصهم في لبنان . ولهذا السبب نفسه نفدت هذه المعادن وفرغت بجملتها حتى لم يبقَ لها اثر على حدّ ما نراهُ في جزيرة إلبا في البحر المتوسط فمعادنها الحديديَّة التي لا يكاد يُصدَّق غناها الغريب لا يزال

١) Zeitsch. f. Assyriologie, 1895, 345-346

٢) راجع مولّر (ص ١٨٢)

٣) مولّر (ص ٣٠٦)

٤) Zeitsch. für Assyr. 1887, p. 36, 37 ومنها هذه العبارة الواردة مرارًا في شعر هوميروس « صيدا الغنيَّة بالنحاس »

٥) وكانت تسمى ايضاً اصيا Zeitsch. f. Assyr. 1895, 262

٦) راجع تأليفهُ H. Kiepert : *Alte Geographie*, 167

٧) Zeitsch. für Assyr., 18953,63 ,365

يُستخرج حديدها منذ الفي عام (١ . امَّا النحاس الذي كان من اعظم صادرات هذه الجزيرة في اقدم الازمــان فانَّ ذكرهُ قد باد منها فيما بعد

فعليهِ إمَّا ان نعدَّ الشهادات المختلفة التي اوردناها اوهاماً مختلقة وامَّــا ان نسلّم بوجود معادن غير الحديد في لبنان ومنها النحاس فلولا هذه المعادن لما كانت وُجدت صنائع الفينيقيين المعدنيَّة ولما كانت انتشرت انتشارها الغريب

فهولاندة مع ما هي عليهِ من النشاط والاستعداد الفطري للتجارة والملاحة لا تنال الفوز بشغل المعادن نظير انكلترة وذلك لخلوّها من المعادن لان نجــاح المَّة يتوقَّف على النواميس الطبيعيَّة التي مع كل قوَّتها تعجز عن مقاومة النفوذ الخارجي. وهــذا ممَّا يزيد فضل الجغرافية التاريخيَّة فانها تُطلعنا على بعض هذه النواميس

فاذا اتقنَّا درس لبنان وطبقاتهِ الجيولوجيَّة سوف نجد بلا محالة براهين طبيعيَّــة وادلَّة ماديَّة تثبت غنى لبنان الاعظم في قديم الزمان (٢

امَّا الحجارة ولوازم البناء فاننا لا نعلم عنهــا شيئاً الَّا انَّ غوديا ملك بابل كان يستجلب لابنيتهِ من لبنــان قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة ليس فقط اخشاب الارز بل ايضاً الرخام الابيض وغيرهُ من الحجارة وما زالت ملوك اشور تحذو حذوهُ الى الجيل الثامن قبل الميلاد . على انهُ لم يُذكر شيءٌ عن صنف الحجــارة المنقولة مع الرخام ولا عن طبيعتها إلَّا ان ما يقتضيهِ نقلها الى البلاد البابليَّة من المشقَّة والنفقــة لبعد المسافة يسوغ لنا ان نستنتج انها لم تكن من الحجارة العــاديَّة بل من اصناف الرخام الجيّد وانواع الحجر الغالي الثمن . فعلى هــذا يتَّضح ان لبنان كان من هذا القبيل ايضاً اغنى ممَّا هو اليوم

لكن لا بدَّ من ابداء ملاحظة هنا كما فعلنا اثناء كلامنــا عن النحاس : ان الكتابات الاشوريَّة والبابليَّة البالغة حدَّ الايجاز والمتصلة باقدم الازمان ليست بغاية الضبط والتدقيق بنوع انهُ لا يتيسر لنا الحكم الفصل فيما اذا كان الكلام عن لبنان

(١ Elisée Reclus : *Europe Méridionale* 432 - 433

(٢ ففي سنة ١٧٣٦ يؤكد السائح كرانجه الفرنساوي وجود معادن نحاس يشوبها قليل من الفضة بين عجلتون والعاقورة . . فهذه التعليمات المبهمة تدل على ان السائح نقل ما سمعهُ ولم يفحص بنفسهِ . وإلَّا لكان حدَّد موضع هذه المعادن

الشرقي او الغربي وبعبارة اخرى عن لبنان الحقيقي او عن الجبــل الذي يقابلهُ . فبخصوص هذه المباحثة الثانويَّة فلتراجع التآليف التي اوردنا ذكرها في هذا الصدد . فيستطيع القارئ ان يتمّ الحاثة الشخصيَّة ويقابل بين التعليمات التاريخيَّة التي جمعناها عن غنى لبنان المعدني في الزمن القديم

١٩

النتائج التاريخيَّة

من درس اعلام الاماكن اللبنانيَّة

ليس بين المطَّلعين على اساليب علم التاريخ في عصرنا من يجهل فائدة البحث عن درس اسماء الامكنة فنستأذن قبل الخوض في الموضوع بتعداد منافعهِ بما امكن من الايجاز لندرك معناه الحقيقي وارتباطهُ الجوهري بتاريخ لبنان وجغرافيَّتهِ . فبوصفنـا لهذه الفوائد نستدرك ما لعلهُ يطرأُ على بال القارئ من سوء التفاهم . ليس غرضنا في هذه المقالة لغويًّا لكن تاريخيًّا محضاً وجغرافيًّا صرفًا اذ لا نقصد البحث عن اسماء المواضع اللبنانيَّة من حيث تركيبها اللغوي ومعناها الاصلي بل جلُّ مــا نتوخَّاه ان نستنتج من درس هذه الاسماء ومن سياقهــا وتقسُّمها على سطح الجبل نتائج تؤدي بنا الى معرفة ماضي لبنان

١

١ً اعلم ان درس اصل الاسماء المكانيَّة اعظم ظهير واكبر نصير للتاريخ لان اعلام المكان ترجع الى اقدم اصول اللغة اذ المتبادر الى الذهن ان الرجل اول مــا يبدأ بهِ تسمية محل اقامتهِ باسم يعرّفهُ ويميّزهُ . لذلك نرى اعلام المواضع ابقت لنا ذكر حوادث ومواقع لا نجد لهــا اثرًا في اعظم التواريخ اسهابًا واكثرهــا

تفصيلًا (١ . وقد يتفق ان اعلام المكان وحدها تذكرنا بما جرى لبعض الشعوب من الحروب وما طرأ عليها من الحوادث السياسيَّة والدينيَّة . فهكذا كل موضع دخل في تركيبهِ اسم دير وقصر وبرج ومجدل (٢ يدلُّ على انهُ كان ثمَّة دير او قلعة ولو كانت غيَّر الدهر قد درست ذلك البناء ولم تبقِ لهُ لا طللًا ولا رسماً وربَّما كنَّا لا ندري اصل الاماكن اللبنانيَّة ولا نعرف قدم عهدها فاذا ما عثرنا على اعلام فينيقيَّة او آراميَّة استطعنا ان نستدلَّ على انَّ اصل تلك المواضع يتَّصل بالعهد الذي كانت فيهِ تلك اللغة شائعة في لبنان . واذا وجدنا موضعاً مدعوًّا باسم احد الآلهة القديمة كنعانيَّة كانت او بابلية فلنا ان نستنتج انهُ سبق التاريخ المسيحي وانهُ وُجد في عهدٍ كان الاهلون يعبدون تلك الالهة . وعليهِ فدرسُ اعلام المكان يقوم مقام ما اغفلتهُ الادلَّة الكتابيَّة ويدعم التقاليد المحليَّة وبدونهِ لا نستطيع سبيلًا الى تحقُّق النصوصات المبهمة الخالية من الحجة والعارية عن البرهان فضلًا عن انهُ يجدينا علماً عن اقدم الآثار التاريخيَّة وافضل الاسانيد ويسوّغ لنا ان ننسب تلك الدلائل الى قرون سبقت اختراع الكتابة وتحديد اللغات على خطّ علمي منظَّم . فمن المعلوم ان الانسان سبق الى تطلق قبل الكتابة واوَّل ما استعمل في كلامهِ تسمية المواضع التي تكتنفهُ باسماء النابقها . وقد فُقد شيء كثير من تلك الاسماء الاوليَّة وهذا ممَّا يحثّنا على بذل الجهد وصرف العناية الى جمع ما بقي من تلك الاعلام والاستفادة منها ما امكن فسواء كانت تلك الاسماء لمسمَّيات دائرة او وضعيَّة فانها تعين على احياء الحوادث الجغرافية التي باد ذكرها

٢ً وتساعد اعلام المكان على معرفة آثار الشعوب الذين عمَّروا البلاد وخلَّفوا اسماءهم في بعض الاماكن . وممَّا بيَّنَّا في ابحاثنا المتقدّمة عن اصل الامم اللبنانية القديمة انَّ اللغة التي تسمَّت بها الامكنة هي اشدُّ دلالةً واوضح برهاناً على الاحوال السالفة من الكتابات عينها . فالكتابات باللغة اللاتينيَّة وقس عليها اليونانيَّة انما تدلُّ على انَّ تلك اللغة التي كانت هي المعوَّل عليها في الاحكام الشرعية وليست اللغة الشائعة

---

١) ان بروتز (Prutz : *Kulturgesch. der Kreuzzüge, 397*) يبدي مثل هذه الملاحظة عند الكلام على الالفاظ العربيَّة الداخلة في اللغات الاوروبيَّة اثناء القرون المتوسطة

٢) مع فروعها « مجيدل ومجدليون ومجدليا »

بين الشعب. وعلى عكس ذلك اسماء المواضع فان الشعب لا يضعها الّا في لغة يفهم معناها فينتقي في لغته اسماً يطابق المسمّى بدلالته على مميّزات ذلك المكان المأهول حديثاً. وقد يتّفق ان يخلف شعبٌ شعباً آخر فيغيّر الاسم القديم باسم احدث يدرك معناهُ. مثال ذلك جبل قريب من جزّين يسمّى « جبـل طورا » وهو مركّب من اسمين عربي فسرياني وكلاهما الجبل فمثل هذه التسمية المكرَّرة تدلّ على وجود شعبين (١

٣ً تُطلعنا اعلام المكان على نظامات الشعوب وعاداتها وعوائدها القديمة كالاسماء التي تضاف مثلًا الى سوقٍ وجسر. وذلك بعد ان تكون السنون والدهور طوت الحوادث التي دعت الى تلك التسمية مثل « سوق الغرب » في قضاء الشوف وليس الآن هناك سوق

٤ً تسوّغ لنا ان نقف على حالة الارض السالفة ونطّلع على العوارض الجغرافية من مناجم وغابات وغدران بادت حتى لم يبقَ لها اثر إلا طرأ عليها من التقلّبات الجيولوجية والاقتصاديّة والاجتماعية. ولسنا نرى حاجة الى ايراد امثلة على ذلك

٥ً وبما انَّ جميع الاعلام المكانيّة إلّا مـا قلّ كانت في الاصل اسماء جنس لا اسماء علَم فيكون درسها جزءًا مكمّلًا لمعجم اللغات القديمة ومساعداً على احيائها فمن هذا القبيل تكون اسماء المواضع احسن طريقة في دراسة اللغات وافضل وسيلة للتوصّل الى ابعد اصولها

٦ً تبيّن لنا ما كان في اقدم الازمان للاحوال الجغرافيّة والطبيعيـة من التأثر في عقول اجدادنا (٢ وتكفي وحدهـا للدلالة على اهميّة الينابيع والانهر لا سيّما في الشرق حيث الماء من الشروط التي لا بدّ منها لترقي العمران. فاوّل ما استوطن البشر بجوار الينابيع وضواحي الانهر واقدم المدن عهدًا مدينة نشأت على مجرى المياه. فما مدينتنا بيروت الّا مدينة الينابيع والآبار كما يُتّخذ من مدلول اسمها الفينيقي

٧ً تظهر لنا ما كان للجبال من التأثير في الرجال الاوّلين حتى عبدوها في الاصل

---

١) وفي صقلية جبل إتنا (Etna) يدعى احياناً « جبل جبل » (mont Gibel) بتكرار اسمين اعجمي فعربي ومعنى كليهما الجبل

٢) راجع مجلّة الشركة الالمانية في فلسطين (ZDPV, 1904, p. 95)

كآلهة على حد ما حدث في لبنان وجبل حرمون (جبـل الشيخ) ورأس الشقعة والكرمل والجبل الاقرع كما سبق لنا بيانهُ

بقي علينا ان نكرّر التنبيه بان بحثنا الحالي يكون جغرافيًا محضًا اي اننا نقتصر على ان نتخـذ من اسماء الاماكن في لبنان ادلّةً تكشف لنا عن جغرافية لبنـان التاريخيَّة في الزمن القديم . واماً ما تعلّق بالمباحث اللغويّة كالتغييرات التي توالت على اسماء الامكنة فاننا نحيل القرّاء الى الكتاب الذي ألّفهُ الدكتور كمفميير (Kampff-meyer) في هذا الموضوع وعنوانهُ « الاسماء القديمة في سوريّة وفلسطين الحاليَّة » (١ حيث يبحث عن هذه المشاكل بدقّة وحذاقة وسعة اطّلاع كما هو دأبهُ في كل تآليفهِ

*

ولكي يمكننا ان نجني من هذا البحث جميع الثمار التي نشتهيها ونحصل على جميع الفوائد التي يتضمّنها كان لا بدّ ان نحصل على لوائح كامـلة لجميع اسماء الامكنة الموجودة الان في لبنان مع الردوم وتقاسيم المقاطعات والاحراج والينابيع والاودية . وفوق ذلك كان ينبغي لنا ان نبحث في الكتابات القديمة عن الاسماء المكانية التي فُقدت وقصارى الكلام كان يلزم ان يكون لدينا فهارس تتضمَّن اسماء المواضع فقط كاللائحة التي وردت في مجلّة الحفريّات الفلسطينيَّة (P E F) (٢ لبلاد فلسطين بل مجموع شامل لاوصاف لبنان ورسومهِ على نمط المجموعات الكتابيّـة المؤلّفة لجمع الكتابات القديمة (٣ . فلا حاجة الى القول انهُ لا يوجد نظير هذه اللوائح والفهارس للبنان امّا لائحة روبنسون وعالي سميث فلا تخلو من فائدة (٤ إلّا انها غير مُحكمة الوضع فضلًا عن انها ناقصة . فالذي يسعى بعمل لائحة تفي بالمطلوب يخدم العلم خدمة جليلة ويمكنهُ ان يبني جداول على تقسيم قائمقاميات الجبل ومديريّاتهِ مُتّبعاً التعليمات التي ألمعنا اليها قبل الآن ثمَّ يجمع التقاليد والاسانيد المحليَّة التي تتعلّق باسماء الامكنة . والشرق مستعدّ

١) راجع المجلة ذاتها (ZDPV, XV et XVI)

٢) المشروع حسن الّا انهُ غير كامل ولا يمكننا ان نعتمد دائماً على روايات المؤلفين الانكليز

٣) راجع مقالة العلّامة جوليان التي عنوانها « الحاجة الى مجموع الأعلام المكانية في العالم القديم » (Beitraege z. alt. Gesch. 1902, II, p. 1)

٤) وهي منشورة في (Biblical researches in Palestine, vol. III)

لنشر هذه اللائحة مع الشكر لمن يتفضَّل عليهِ بها . وكنا نودّ لو نُشرت سالنامة لجبل لبنان تودع فيها اسماء الاعلام المكانيَّة . فيُتَّخذ لهذه الغاية كمثلٍ «دليلُ لبنان» المنشور في ادارة جريدة لبنان فانَّ فيهِ لائحة لمحلات الجبل الحاليَّة الَّا انهُ ينبغي ان يكمّل ما فيهِ من النقص مع التمييز والتفريق بين القرى والمزارع واضافة بعض دلائل

ونحن لم نقف على كتاب في هذا الموضوع جامع للفوائد نظير تاريخ بيروت الذي نشره في المشرق حضرة الاب لويس شيخو ثمَّ طبعهُ على حدة . فهذا التأليف الجليل لم يقابلهُ ادباء الجبل بالمقابلة التي هو حقيق بها لاسيَّما من يهمُّهم تاريخ لبنان وجغرافيته . فانهُ قد يسدُّ خلل اللوائح الوصفيَّة الى حدّ ما . وأخصُّ فوائد هذا الكتاب بل اهمُّ ما يتضمّنهُ من الايضاحات قائمة في وفرة اسماء لبنان الجغرافية المذكورة فيهِ كاسماء القرى والاملاك وايضاحات عن حدود المقاطعات القديمة وغير ذلك ممَّا لم يرد ذكرهُ الَّا في هذا الكتاب . فاننا لا نجد التواريخ الكبيرة تكترث كثيرًا للبنان كما اهملتهُ تآليف الجغرافيين الكبار فاذا اتوا على ذكر هذا الجبل فانهم يذكرونهُ عرَضًا دون اسهاب ولا تفصيل . ثم ان كثيرًا من المحلَّات القديمة بادت برمَّتها ولم يبقَ من آثارها الَّا اسمها الذي لم يزل منسوبًا الى حقل او خربةٍ لا شأن لها ولا اعتبار . ففي تاريخ بيروت نجد كثيرًا من هذه الاسماء المندثرة كاسم «رمطون» مثلًا . وكأنَّهُ الصكّ الاول الشاهد لوجود عدد من قرى لبنان إنْ لم يَجُز القول بانَّ فيهِ قد دوّن تاريخ ميلادها . فيجدر بنا اذ ذاك ان نثني اطيب الثناء على ناشرهِ ولا يسعنا الَّا ان نحضّ طُلَّاب العلوم التاريخيَّة والجغرافية على الامعان في مطالعتهِ ونحن نتعهّد لهم باللذة والفائدة معًا فقد جنينا منهُ فوائد شتَّى ولا نزال نواظب على مطالعتهِ استزادةً لجدواه

٢

واوَّل ما نجد في بحثنا عن اسماء المواضع في لبنان تغلُّب اللغتين السريانيَّة والعربية عليها . امَّا العربيَّة فانها تدلُّ على حداثة عهد المساكن والمنازل لانَّ هذه اللغة خلفت اللغة الآرامية من عهد قريب كما اشرنا اليهِ في بحثنا عن لغات لبنان القديمة (١

١) راجع الصفحة ٩٣

وفي اوّل وهلة تستحوذ علينا الدهشة ويشملنا العجب لقلّة ما نشاهد من الاسماء الكنعانية او الفينيقيّة البحتة مع ان اهمّ الامم التي استوطنت لبنان واقدمها كانت تنطق بهذه اللغة . وليس الكلام عن اسماء مدن الساحل نظير صيداء وبيروت وجبيل وغيرها اذ لا مشاحّة في ان اصلها بالفينيقية وتسميتها كافية لان تطلعنا على حالة الفينيقيين الاولى (١ وامّا ما كان منها في داخل لبنان فمثل مجدل وفروعها مجيدل ومجدليّا (٢ ثم البيرة (٣ وعرامون (٤ وغيرها ممّا يأتي ذكره

فهذه الاسماء لقدم عهدها عانت مشقّة عظمى في صبرها على صروف الدهر . ولو امكننا تجريدها من قشرتها الاراميّة او العربيّة التي تحجب صورتها فتجعلها مجهولة لوجدناها اوفر عددًا واقرب الى المعرفة ومثال ذلك البيرة التي مرّ ذكرها فانها تظهر لاول وهلة انها كلمة عربية لشبهها بلفظ البئر وهكذا قُل عن كثير من الاسماء التي اوّلها عين او بيت او كفر . فهذه الالفاظ لا تختلف بالعبرانيّة والاراميّة والفينيقية وقد نُقلت كما هي الى العربية (٥ . فلشدّة الشبه بين اللغات الثلاث يحصل غالبًا القلب والتبديل في صيغ الكلمات فيصعب اذ ذاك معرفة الصيغة الفينيقيّة الاصليّة كما في كفر تبنيت بجانب النبطية حيث نجد اسم تبنيت الطائر الشهرة في تاريخ فينيقية . وفي شمالي بيروت جدول ماء كان يُدعى باسم الاله «مُوت» وهو اله الجحيم بلوتون (Pluton) عند الفينيقيين . فلما أُلغيت فيما بعد الديانة الفينيقيّة وأُهملت اساطيرها وأُغفلت اسماء آلهتها أُبدل مُوت بمَوْت وأُضيف اليها اداة التعريف فقالوا « نهر المَوْت» وزاد الشعب على ذلك فاختلق حكاية حربٍ هائلة جرت فيها الدماء مدرارًا . فهذه سُنّة العوامّ في اشتقاق الكلمات فانهم يُفسدون صورها شيئًا فشيئًا ثمّ يجدون لها معنًى في لغتهم فيخدعون انفسهم ويختلقون قصصًا وحكايات لتفسير الوهم الذي توهّموهُ وسوف نورد امثلة جديدة في سياق كلامنا على هذا النحو . لكنّا نأسف على ان بعض المؤرخين

---

١) راجع تاريخ الفينيقيين (Pietschmann: *Geschichte der Phœnizier*, 129)

٢) اطلب المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG; 1875, p. 442)

٣) راجع Kampffmeyer, ZDPV, XVI, 20

٤) راجع كتاب العلّامة كارمون غانو Recueil d'Arch. Or., VI, 70

٥) راجع كتاب الآثار العبرنية للعلّامة نواك (Nowack)

ينخدعون لهذه الترّهات فيقدّمون لنا كأدلّة حقيقيّة اختلاقات الشعب الوهميّة

اما بقيّة اللغات كاليونانيّة واللاتينيّة فانها قليلة في اسماء المواضع اللبنانية فليس في هذا ما يُدهشنا بعد النتائج التي توصّلنا اليها بابحاثنا عن اشتقاق الالفاظ في لبنان ولا يصعب التسليم بهذه الملاحظات اذا سرّحنا الطرف في خريطة لبنان شمالًا ووسطاً وجنوباً في المنحنيات البحريّة والمنحدرات الجبلية فيستفزّنا الانذهال لما نرى من كثرة الاسماء السريانيّة صِرفاً مثل كفر وكفور وشير وتصغيرها العربي شُوَير بمعنى الصخر وغيرها ممّا لا يُحصى عددهُ مثل نيحا وشقيف وكفرحتّا وداريّا ورشعين وكل كلمة تأَلّفت من « راش » كنايةً عن راس ومن « طور » اي الجبل الخ . والاسماء التي تنتهي بصيغ اواخر الكلمات السريانيّة مثل آيا (ܐܝܐ) وآتا (ܐܬܐ) واون (ܘܢ) علامات الجمع والتصغير . وكفى بهذا المجموع وحدهُ شاهدًا على انَّ لبنان ارضٌ اراميّة ان لم يشهد بذلك التاريخ . فهذا الموضوع لا يكاد يُبلَغ كنهُهُ او يُسبَر غَورُهُ اذا اردنا التوغل فيهِ . فهاك بعض امثلة زيادةً على ما اوردنا فعين طورا هي ܥܝܢ ܛܘܪܐ (عين الجبل) ورشميّا ܪܝܫ ܡܝܐ (راس الماء) ودير قرقفة وهو اليوم دير للملكيين هو دير الجمجمة (ܩܪܩܦܬܐ) وبيت مري (ܒܝܬ ܡܪܝ) بيت السيّد وترعون (ܬܪܥܐ) الابواب وجزين (ܓܙ̈ܐ) الكنوز

وبين هذه الاسماء السريانيّة ما يستلفت نظرًا خاصًّا وهي الاسماء الكثيرة في لبنان المبتدئة بحرف ب (ܒ) اختصار (ܒܝܬ) بيت وهو اختصار قديم مختصّ بلغات سوريّة . وقد ورد نظير هذا الاختصار في اللغة الفينيقيّة وفي التلمود وفي اسماء قريباً من الفلسطينية المذكورة في التوراة ومنها بيشان בישן = ביתשן التي تُرى حتى اليوم قريباً من نهر الاردن جنوبي بحيرة طبريّة (١

وذكر كتبة اليونان مدينة في جزيرة العرب قريبة من البحر الاحمر باسم (Βαισαμψα) وغنيٌّ عن البيان انها بيت شمس ܒܝܬ ܫܡܫܐ ويكتبونها ايضاً (٢

(١ راجع المجلة الاسيويّة الالمانيّة (ZDMG, 1860, 651 ; 1873, 325) ثم كتاب بعثة فينيقيّة (Mission de Phénicie, 853) ومقالة الدكتور كمبفماير (G. Kampffmeyer ZDPV, XV, 87, 111) ورحلة ڤتشتين الى حوران (Wetzstein : *Reisebericht über Hauran*, 110)

(٢ راجع ZDMG, XXVII, 325

(Βαίτσαμφα) وهذا يؤيد كلامنا . اما امثال ذلك في لبنان فكثيرة نورد منها بكفيا (ܒܝܬ ܟܐܦܐ) اي البيت الصخري وهي مركّبة من ܒܝܬ و ܟܐܦܐ صخر ومثلها بكيفا في اقليم الخروب وبحمدون وبياقوت اي بيت حمدون وبيت ياقوت (١ وقس على ذلك برمّانا وبزمّار وبتاتر وغيرها مما سوف يرد ذكرهُ

وقد يسوغ لنا ان نحكم على الفور والبديهي ان بلداً نظير لبنان غزير الينابيع ومناخهُ يقتضي وجود المياه لا بدَّ من ان يكون لعنصر الماء دخلٌ في تركيب اعلامهِ . وصحّة هذا الحكم تظهر بالمشاهدة فقد استمال افكارنا اسمُ قرية ميّوميه (وليس « ميّه وميّه » كما يكتبها دليل لبنان) قريباً من صيداء في اقليم التفّاح فاعتقدنا ان الكلمة الفينيقيّة الدالّة على الماء داخلة في تركيب هذا الاسم ويقابلها في العبراني « מים » فحكمنا بقدم عهد القرية وبوجود ينبوع ماء مشهور كان سبب تسميتها بهذا الاسم . غير ان الاعلامات كانت في اول الامر سلبيّة . فلمّا جلنا متأخراً في نواحي صيدا لم نعثر على معين ماء في وسط ميوميه لكنّا شاهدنا في سفح القرية ينبوعاً من اجود ينابيع تلك الاطراف القاحلة واعذبها . ففي حين مرورنا كان جميع الاهلين في قلق واضطراب لان بعض اصحاب المطامع سعوا بحكر المياه التي يستقي منها الناس والحدائق المجاورة فعند تأمّلنا تلك المياه الحسنة الخارجة من بطن الارض ادركنا سبب تسمية ميوميه بهذا الاسم الفينيقي

ثمَّ في لفظة ميروبا الماء الغزير ورشميّا رأس الماء تظهر للعيان كلمة ܡܝܐ السريانية امّا الاسماء التي تبدأ بكلمة عين فهي اكثر من ان تُحصر (٢ وهذا دليل آخر على تأثير المياه وفضلها في تعمير المساكن والاماكن . وهنا نُبدي نفس الملاحظة التي ابديناها على الباء المختصرة من « بيت » وذلك ان عين تُختصر احياناً فتُلفظ عَنْ فعين طورا تُلفَظ « عنطورا » وعين دارا « عندارا » واليونان يسمونها عندريس (Andaris). وهذا مما يدل على أنَّ عادة ابدال عَيْن بعَنْ هي قديمة وامّا هل ان عندريس من لبنان فراجع الجزء الاول (١١٢) وكذلك قرية عنبال (٣ في ناحية الشوفين فاصلها عين بال .

---

١) نسبة الى حَمْدون وياقوت ولا يُعلمنا التاريخ عن اخبارها شيئاً

٢) اننا نُهمل ذكر الاسماء التي تبدأ بساقية وغدير

٣) يظهر ان عنبال وعينبل في بلاد بشاره من اصل واحد وفي البشير ١٢ كانون الاول

وقس عليها مواضع اخرى من سوريّة نحو عِنجار « عين جار » في البقاع وعندقت «عين دقت » في عكار وعين دُور في فلسطين وهي تُلفَظ وتُكتب اليوم «اندور»(١ . وقد تُدغم النون بالحرفُ الذي يليهِ نحو عماطور واصلها « عين ماطور »(٢

*

امّا الاسماء العربية المحضة فهي كثيرة ومعروفة ولا حاجة الى ايراد امثلة عليها ويكفينا ايراد اسم « الجُدَيـدَة » لكثرة انتشارهِ . والاسماء التي تتألّف من « راس وظهر ووادي ودير ودوير » واشباهها وكثيرًا ما يتّفق ان اللغتين تشتركان بالاسماء اللبنانيّة كما رأينا في الامثلة المتقدّمة فتختلطان وتمتزجان امتزاج الماء بالراح بحيث تشتبك الكلمة العربيّة بالسريانية او تلتصق صيغة الجمع والتصغير العربية بكلمةٍ من صيغةٍ اراميّة ويسهل تحقّق ذلك من الامثلة التي سبق لنا ايرادها . وفي بعض الاسماء كما في « انفه » يتعذّر الفصل بين اللغتين فلا نعرف أسريانية هي ام عربيّة

وقد ابقت لنا اعلام الاماكن آثارًا شتّى تدلُّ على مرور العرب والآراميين بلبنان بخلاف بقيّة الشعوب التي ورد ذكرها في الفصل الذي بحثنا فيهِ عمّن سكن لبنان من الامم القديمة فنردُّ اليهِ القرّاء ليطالعوا خاصةً المقالة التي دار الكلام فيها على الحثّيين فاننا اتينا فيها على ذكر اسمين جغرافيين يتصل عهدهما بهذا الشعب على ما نظن . امّا الفراعنة فمع طول عهد استيلائهم على فينيقية لم يهتمّوا باستعمارها ولم يُعنَوا باقامة الآثار فيها لكنهم كانوا يعهدون تدبير شؤونها الى عمّال وطنيين مكتفين بوضع مراقبين عليها (٣ . امّا جنودهم فيها فكانت قليلةً وكانوا من المتطوّعين (٤ فضلًا عن انّ قسمًا كبيرًا من لبنان لم يدخل تحت حكمهم زمنًا طويلًا . لاننا نعلم ان املاك الفراعنة في فينيقية ايام رعمسيس الثاني كانت تنتهي عند نهر الكلب

امّا الرومان فلا نستطيع ان نعزو الى لغتهم إلّا اسم غوسطا التي عُورضت

١٩٠٤ يذكر مراسل من عينبل ان الرسائل المبعوثة الى قريتهِ ترسلها ادارة البريد غالبًا الى عنبال

١) راجع Kampffmeyer, ZDPV, XVI, 55

٢) راجع تاريخ بيروت (ص ٨٨) والمجلة الفلسطينية ZDPV, XV, III

٣) راجع الجزء الاول (ص ٧١) كتابات تلّ العمارنة

٤) راجع كتاب مكس مولّر W. Max Müller, : *Die Aegyptier als Eroberer*

بأُغوسطا (Augusta) نسبةً الى اغوسطس ونحن نسلم بهذا الاشتقاق لكن باحتراز .
وبين غسطا وميروبا مزرعة صغيرة تُدعى طبرِّية فهل يا تُرى تشتقّ من اسم طيباريوس
نظير طبرِّية الجليل الشهيرة ؟ وان صحّ هذا التأويل فمن يكون طيباريوس هـذا ؟
قد زعم حضرة الخوري غبريـل صاحب تاريخ الموارنة (ص ٥٧٦) أنهُ الامبراطور
طيباريوس البيزنطي لكن هذه الشهـادة ليست بكافية اذ لم يذكر ذلك احد من
المؤرخين الاقدمين

ثمَّ اننا لا نعدُّ من اصل لاتيني اسم «اسطبل» في اقليم التفاح ولا المحلات العديدة
التي تبدأ بقصر وبرج فان هذه الاسماء وان كانت في الاصل مشتقة من اللاتينيّ الّا
انها قد دخلت في اللغة العربية من عهدٍ بعيد حتى اصبحت كأنَّها اصليَّة ومثلهـا
الكورة اسم احد الاقضية في لبنان فأصلهـا يوناني « χώρα » اي الناحية . والهري
قريباً من شكَّا فلا يبعد من انها تشتقّ من الكلمة اليونانية « ὡρεῖον » ومثلها اللاتينيَّة
horreum وكلاهما بمعنى الهري والمخزن ومن الاسماء التي يمكن نسبتها الى اللغـة
اليونانية طبرجا وجربتا (١ . امَّا طاميش فلعلَّها من ارطاميش « Ἄρτεμις » وهي إلاهة
الوثنيين كما ان جونية يُحتمَل اشتقاقها من اليوناني « γωνία » اي الزاوية . وامَّا البترون
والقلمون جنوبي طرابلس فانهما من الاسماء السامية صحَّفهما اليونان في لغتهم وجعلوهما
منها كما صيروا جبيل « بيبلوس » وكذلك دفنه في كسروان يشبه لفظها « δάφνη »
وهي شجرة الغار كما ان ناووس (قريباً من كسبا وشبطين) هي « ναός » . لكنَّ
رنان يتساهل كثيرًا فيرى الاصل اليوناني في عدَّة اعلام لبنانيَّة نظير دلبتـا وريفون
وعجلتون مع أنَّ اصلها السرياني لا شبهة فيهِ . وفي رأيهِ ان كلّ الاسماء اللبنانيـة
المنتهية في إين وأُونْ وأُوش مثل غرفين وريفون وحنوش هي يونانية الاصل (٢ فهذا
الزعم لا يستحقّ ان نعيره التفاتًا . وبالجملة ليس في لبنـان اكثر من عشرة أعلام

١) راجع الجزء الاول (ص ٣ و ٥٨ و ٦٩) ما قلناه عن انطليـاس فانَّ اشتقاقها من
اليوناني هو من الامور المشكلة . وقد ذكر الشريف الادريسي شمالي صيداء بلدة باسم قلمون
لم نعرف من امرها شيئًا ولعلها تحريف « علمان » القريبـة من نهر الاولي . وكذلك قلمون
المرسومة على الخريطة الفرنساوية شرقي البترون هي تصحيف قزنعون

٢) راجع كتابه بعثة فينيقيَّة (Mission de Phénicie 141, 246, 229 238)

مكانيّة يمكن ردُّها الى اصلٍ يوناني فهذا العدد اليسير لا يكاد يُعبأُ لهُ بالنسبة الى الاعلام اللبنانية المتعدّدة التي ثبتت سامتيُّها

اما اكثر الاسماء توغُّلًا في الابهام فهو اسم كسروان فمن المعلوم اننا نستخلص منهُ بلا عناء اسم العلم كسرى ولكن كيف نفسّرهُ ؟ ومن هو كسرى هذا ؟ وكيف وقع اسمهُ على هذه المقاطعة اللبنانيَّة ؟ يقول قائل انهُ اسم احد متقدّمي المردة وليس ذلك جوابًا شافيًا لانَّ المردة كما افاد التاريخ نزحوا عن لبنان ولم يخلفوا فيهِ سلالتهم. وكذلك لا نسلّمُ بالتقليد الذي يردُّ « قب لياس » (في البقاع) الى قبر الياس. وهو زعيم اخر من زعماء المردة في قولهم . وليس قبّ لياس في رأينا اشدّ وضوحًا او بالحري اقلّ ابهامًا من انطلياس (١ والمسيو غوبرناتيس في تأليفٍ حديثٍ له (٢ يسلم برأي من يُرجع هذه الاسماء الى المردة ويزعم بانهم اتوا الى لبنان من بلاد الفرس لكن قبل العهد الذي يذكرهُ تاوفان المؤرخ اليوناني وهم الذين دعوا كسروان باسمٍ أتوا بهِ من بلادهم . لكن التاريخ لا يذكر شيئًا من امرهم ما خلا تاوفان وهذا المؤرخ اليوناني يخالف كلَّ المخالفة رأي غوبرناتيس في عهد دخولهم لبنان . امَّا نحن فلا يسعنا الَّا ان نشاطر سيادة المطران يوسف دريان رأيهُ ويلوح لنا انَّهُ دحض بسديد براهينهِ زَعْم العالم الايطالي دحضًا مفحمًا . وعندنا ان اشتقاق اسم كسروان مشكل لم يحلَّهُ احد الى الان

امَّا اللغة الفرنجية فلم يبقَ منها في لبنان الَّا ما قلَّ وندر فكانوا يسمّون المنيطرة (Le Monestre) ويطلقون اسم (Franche-garde) على قلعة يُقال لها الان المنطرة وهي بجوار صيدا . ويدعون قلعة نيحا القريبة من جزّين (Cavea de Tiron) ويسمُّون قلعة الشقيف جنوبي النبطيَّة (Beaufort) . ولم يبقَ من هذه الاسماء الَّا الاسم الاول الذي صحَّفوه ونقلوهُ الى اللغة الفرنساويَّة وكذلك اسم دير

١) قرأنا في ذخائر لبنان لجناب ابراهيم بك الاسود : « كلمة انطلياس لا تخلو ان تكون منحوتة اما من انطون وايلياس واما من انطش ايلياس واماً من ايقونة الياس وهذا الاخير هو الارجح » (كذا)

٢) راجع Gubernatis : *Rassegna Nazionale, Mardaïti e Maroniti,* 16 Juillet, 1903

البلمند فهو منقول عن كلمة (Belmont) كما اثبتنا ذلك في موضعهِ (١

وقد رأى حضرة الاب ابراهيم حرفوش في « خربة السويس » تلميحاً الى الشعب السويسري (٢ فنحن لا نخال التسليم بهذا التفسير ممكناً لان السويسريين لم يُعرفوا في اقطارنا فضلًا عن انّ اطلاق اسم السويس على الشعب السويسري كان بعد ذلك العهد . ومن المحتمل انّ اسم « روس الفرنج » (في قضاء جزين) و « جرف الفرنج » بجوار تنورين من آثار ذلك العصر غير اننا لا نستطيع ان نبتّ بهذا المعنى حكماً جازماً

واما اسم جرمق (بناحية جبل الريحان) الذي ورد ذكرهُ اثناء كلامنا عن الجراجمة فانهُ يخلّد اسم الجرامقة وهو شعب اراميّ (٣ تذكرهُ كتبة العرب وهم لا يفرقون احياناً بين الجراجمة والجرامقة فهولاء الجراجمة ليس لهم اثر في اسماء المواضع اللبنانيّة وذلك دليلٌ على انهم اجتازوا لبنان اجتيازًا ولم ترسخ فيهِ اقدامهم

ومن الاسماء التركية اسم الزوق وهذا الاسم من الاعلام المكانيَّة الموجودة معاً في كسروان وفي عكّار (٤

امّا النتيجة التي نستمدها مما قدّمناه في هذا الفصل فهي عجز اللغات غير الساميّة وقصورها عن التأثير في تسمية الامكنة اللبنانيّة العجيبة بوحدة نوعها . وهذا مما لا نشاهدهُ الّا فيما قلّ من البلاد امّا اوربّة فانك تجد في اسماء مساكنها اشكالًا والوانًا

---

١) تسريح الابصار (١ : ١٤٩)

٢) المشرق (٥ : ٢٩٨)

٣) او فرقة من الاشوريين الاقدمين او « هم اهل الموصل في الزمان القديم » (القلقشندي ١ : ٢٢٠) راجع Chwolson : *Die Ssabier*, II. 697 وياقوت في معجم البلدان (٢ : ٦٤) يومئُ الى وادي جرمق على مقربة من صيدا وهو وادي جبل الريحان . ثمّ قابل بين نصّي ابن الفقيه الهمذاني قال الاول (ص٧٧ سطر ٢٠) : « الروم ملكانيّة يقرأون الانجيل بالجرمقانيَّة » وقال الثاني (ص ١٢٦ سطر ١٦) وشرحُ قولهِ اصعب لان الكلام فيهِ عن روم اروبَّة : « الروم كلهم ملكانيَّة يقرأون الانجيل بالجرمقانيّة » . فمن يتقدَّم الينا بشرح معنى الجرمقانيَّة يقلّدنا فضلًا وجميلًا ومن المقرَّر انهُ ليس المراد بها السريانيَّة اذ انّ الجرمقانيَّة على قول ابن الفقيه لغة روم اوروبة الطقسية

٤) Robinson : *op. cit.* 183

*

انّنــا قد بيّنّا في سياق الكلام عن دخول النصرانيّة الى لبنان قبــل الهجرة بثلثمائة سنة ما عانت من المكاره ولاقت من المصاعب حتى استتبّ لها الامر وتوطّدت دعائمها (١ ولم يتمّ انتصار النصرانيّة على الوثنيّة قبل اواخر القرن السادس واوائل السابع وذلك بفضل الشعب الماروني واسماء المساكن تؤيد هذه النتيجة التي لا سند لها الّا الادلّة التاريخيّة

انّهُ لامرٌ شائع في جميع البلاد النصرانية أن تُسمّى المساكن باسماء القديسين فشيوع هذه العادة يظهر ما لعبادة القديسين من الشأن والاعتبــار عند بني جلدتهم ويبيّن لنا اهمية الابنية الدينية التي نشأت حولها المدن الخطيرة . فمن هذه المدن سانت اتيان في فرنسة وسان لويس في الممالك المتحدة وسان باولو في البرازيل . فممّا يقضي بالعجب انّ الاسماء المكانية التي تنسب الى اسم قديس قليلة جدًّا في لبنان نعرف منها مار شينا في الزاوية ومار ماما في بلاد البترون اما في بلاد عكار فان روبنسن يذكر في لوائحهِ (٢ مار ليّا وهو اليوم خربة . وتؤيد عليهِ اسم مزرعة مار توما (٣

اما الاسماء التي تتألّف من دير ودوير فهي اكثر شيوعًا لكنّها اقلّ مما ينبغي ان تكون في بلدٍ اغلبُ سكانهِ نصارى . وعلّة ذلك على ما نظنّ انحصار الطائفة المارونية زمنًا طويلًا في شمال لبنان فانها لم تجاوز حدود نهر ابراهيم كما اثبتنا في جملة مواضع الّا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ونحن نعلم ان كثيرين يرفضون حتى الان التسليم برأينا . فما علينا الّا ان نوضح للمُناظر أنّ تسمية الاعلام الموضعية لا تقضي لهم ولا تتناول رأيهم . فقد ظهر من الابحاث التي نشرها حضرة الاب ابراهيم حرفوش في المشرق عن اديرة كسروان القديمة انها متأخرة عن الجيــل الخامس عشر . فايُّ تفسير لهذا الشذوذ غير تفسيرنا . ثم علينــا ان نعتبر أنّ الاديرة الكبيرة كانت قديمًا

---

١) تسريح الابصار (١ : ٩٧–١١٢)

٢) راجع تأليفهُ (ص١٨٣)

٣) وهذا الاسم مذكور في لائحة تفضّل علينا بها حضرة الخوري بولس طعمه وقال انّ اهلها اليوم مسلمون

نادرة في لبنان لانّ العيشة الرهبانية فيهِ كانت في بادئ امرها تقوم في الخلوة والعزلة شأن النساك والزُّهَّاد فاكثر الاديرة الكبيرة سيما جنوبي نهر ابراهيم بُنيت بعد تأسيس الرهبنة البلدية . وهذه بعض الاسماء التي تبدأُ بدَير : دير القمر ودير قُوبل ودير بابا ودير دوريت وقد ورد ذكر جميعها في تواريخ الفرنج في القرون الوسطى(١ وفي تاريخ بيروت (١٩٢—٢٨٢) . فهذه القرى سبقت عهد القرن الحادي عشر واملّها قامت على انقاض اديرة مبنية قبل الاسلام . وما يحملنا على هذا الاستدلال وجود تلك الاديرة بناحية لم يستوطنها غير الدروز قبل القرن السابع عشر . وقد يعنُّ لنا أنَّ في هذه الناحية موضع الدير الذي اقامهُ في لبنان القديس رُبولا وقد ورد ذكر هذا القديس في كلامنا عن ابتداء النصرانية في الجبل (٢ . وها نحن نورد بعض اسماء ممَّا يبدأُ بدير غير ما ذكرنا . ففي منحنى لبنان الشرقيّ دير الاحمر (شمال غربيّ بعلبك) ودير طحنيش على منحدر جبل الباروك المشرف على البقاع ودير دالوم ودير جانين في بلاد عكار (٣ ودير الزهراني في وادي النهر المذكور

ولقد تبيَّن لنا من ابحاثنا المتقدّمة عن العاديّات اللبنانية أنَّ لبنان بلد تأصلت فيهِ العبادات الوثنية ورسخت اصولها وانتشرت فيها الهياكل والابنية التي تحيي ذكر الديانات الساميَّة . فاسماء الاماكن تدعم شهادة العاديّات وتوضحها على منوالها (٤ فبفضلها نُدرك جليًّا امر تلك الانقاض الدارسة وغايتها وبفضلها نكمل نقص التأريخ ولايضاح ذلك نتَّخذ بعض امثلة ممَّا يحضر الخاطر على سبيل الاتفاق :

فان كنا نجهل انتشار عبادة الإلهة الفينيقية تانيت في لبنان فالاعلام المكانية تُطلعنا عليها فمن تلك الاعلام كفر تانيث الواردة في تاريخ بيروت (٥ وعقتنيت جنوبي

---

١) راجع المجلة الفلسطينية (ZDPV, X, 276, 277) اما تفسير اسم دير القمر في كتاب اخبار الاعيان (ص٢٩) فهو الى الغرابة اقرب منهُ الى المكانة والسداد على ما لاح لنا

٢) راجع الجزء الاول (ص١١٣-١١٤)

٣) وغيرها في تلك الناحية . راجع روبنسون (183—190)

٤) راجع ابحاث غلدتسير (Goldziher: *Mohamm*, *Studien*, II 334 336)

٥) لصالح بن يحيى (ص ٢٢٦)

شرقي صيداء (١ وعيتنيت على منحنى لبنان الشرقي على سفح تومات نيحا الى الشرق. واليست تانيت وحدها الإلهة الساميّة التي عاش ذكرها في الجبل

كُنّا الى اليوم نشتبه بوجود إلهة كان الاراميون يؤدّون لهـا اكراماً خصوصياً ويدعونها شيا. وقد استلفت اليها الانظار بمقالاتهِ حضرة الاب سبستيان رنزفال (٢ فقد اكتشف بحذقهِ المعروف اسم هذه الإلهـة في «كفرشيا» قريباً من بيروت «وبيت شاما» (على طريق زحلة الى بعلبك) «وشامات» في بلاد جبيل ونحن نضيف الى ما تقدّم اسم «بعلشميه» (في المتن الاعلى) فهذا الاسم الذي يبدأ ببعل هو عندنا من اغرب الاسماء الاوليّة والاصلية في لبنان (٣ . فكلٌّ يعلم أنَّ الآلهة كانت تُعبَد في الهياكل الساميّة ازواجاً فكل من الآلهة كان بازائهِ ما يقابلهُ ذكرًا كان او أُنثى وحتّى اليوم لم يكُن مقابل شيا الهاً معروفاً وان كان يسوغ الاستدلال على وجوده بالاستقراء. اما الان فقد اكتُشفت حديثاً كتابة يونانيّة شماليّ سوريّة فيها ذكر الاله (Σέμιος) (٤ فهـذا الاله لا نخالهُ الّا زوج شيا الذّكر لانَّ بعلشميه لا تعني الّا بعل شيما اعني مُقابلها الذّكر لانَّ لفظ البعل عند الساميّين اذا جاء منفردًا كان يدلُّ على كبير الالهة ويشير الى اله محلّي او خصوصيّ اذا أُضيفت اليهِ صفة كما نراهُ واقعاً

ثمَّ انَّ قرية درب السين (وعلى الاصحّ دربسين (٥) شرقيّ صيدا بقربة منها تذكّرنا بالهٍ آخر هو الاله سين او القمر المكرَّم خاصَّةً في بلاد بابل ومـا بين النهرين وكان لهُ في حرّان هيكل مشهور ومنها امتدَّت عبادتهُ الى سوريّة لانَّ حران كانت مبنيَّةً على طريق القوافل التي كانت تتعاطى الاتّجار في تلك الاصقاع

وفي سوريّة الشماليّة مواضع يدلّ اسمهـا على انتشار عبادة القمر. فمن ذلك كفرباسين في جبل سمعان (غربي حلب) وبجوار افامية القديمة موضع آخر يدعى بهذا الاسم. فلفظة باسين تتركّب من با وسين: والتأويل بيت سين اي مسكن او هيكل

١) راجع Guérin, *Galilée*, II, 516 وقد أُهملت هذه البلدة في الخريطة الفرنساوية للبنان وهي غير كاملة في الجنوب ٢) راجع المشرق (٧: ٢٢١ – ٢٣٥)

٣) وقد ظنّ بعضهم انهُ تصحيف «بعل شمين» اي بعل السماوات وهذه التسمية شائعـة عند بني سام راجع اخبار الاعيان (ص ٣٦)

٤) راجع Bullet. corresp. hellénique, 1902, p. 182

٥) ZDPV, VII, 115

الاله سين . وكان العرب في الجاهليَّة يعبدونهُ ايضاً (١ ولعلَّ هذه العبادة نقلتها عنهم الى لبنان قبيلة الايطوريين وهي عشيرة من عشائر العرب سكنت قديمًا في لبنان كما سبق لنا اثباتهُ

ونرى ايضاً في لفظة «كفرقاهل» شمالي الكورة اسم قاهل ومعناهُ القدير وهو من اسماء الجلالة عند العرب الاقدمين (٢

وما نبَّهنا اليهِ في بعلشميه ودربسين ينطبق ايضاً على اسم دار بعشتار. فهذه اللفظة كما سبق شرحها في غير موضع (الجزء الاول ص ١٣٧) ما هي الَّا بيت عشتار اي هيكل عشتروت . وعشتروت هذه من معبودات اللبنانيين الخاصَّة ولذلك كان اليونان ينسبونها الى لبنان فدعوها « Λιβανῖτις » (٣ فالجزء الاول من الكلمة جرى عليهِ من الإبدال ما جرى في لفظة دربسين التي كانت في الاصل داربسين فحوَّلها الشعب الى درب السين (٤ ولم ينتبه الى أنَّ الباء الابتدائية هي اختصار بيت ثم قدَّم على بعشتار لفظة دار ومدلولها البيت ولا عجب في هذا اذ انَّ في العامَّة ميلًا فطريًّا يحملهم على وضع معنًى للالفاظ القديمة التي يفوتهم ادراك سرّها . وبناء على هذا المبدأ كتب العامَّة « مجد البعنا » (٥ (ضيعة في الجرد الشمالي) وكان حقها ان تُكتب مجدل بَعْنا . وهكذا قُل عن « مجد المعوش » والصحيح «مجدل معوش» وجرى الشعب على هذه الطريقة لانهُ لم يكن يعرف ان مجدل هي لفظة كنعانية قديمة ومعناها قلعة فنقلها الى لفظ عربي متشابه

ومن المرجَّح ان اسم بزيزا المجاورة لدار بعشتار هو ادغام بيت عزيز. وعزيز هذا كان الهاً عند الساميين تتَّصل عبادتهُ بعبادة الشمس (٦ وكان لهُ مزيد الاكرام في

---

١) قابل ايضاً اسم جبل طوريتا Grimme : *Mohammed*, 29-31

٢) راجع Grimme, 39, *op. cit.*

٣) (راجع الجزء الاول ص ٤٥ وتجد هناك صورة عشتروت ص ٤٦) -Clermont Ganneau : *Rec. Archéol. Orient.*, III, 188

٤) اما رنان (Mission de Phénicie, 512) فيريد ان تحذف الباء ويكتب الاسم دير السين . غير انهُ من الضرورة ابقاء الباء كما يستدل من اسم كفرباسين الشائع في شمال سورية

٥) وهكذا كتبها صاحب دليل لبنان

٦) راجع (Revue Archéol., 1903, p. 129-130)

الرُّها وفي حمص كما يُستدلّ من الكتابات اليونانيَّة العديدة التي قرأنا فيها اسم « Ἄζιζος » (١

امَّا الاعلام المركبة التي اول جزئيها «عبد» وثانيها اسمُ الهيٍّ عادةً ولذلك لقبوا هذه الطائفة من الالفاظ بالاسماء الالهيَّة . وعندنا ان عبدِلّي (من بلاد البترون) تتضمَّن اسم الله ولعلَّهُ بصيغتهِ الملطفة إيلو في اللغة البابلية او في العبرانية بدلًا من الصيغة السريانية او العربية المشبعة والمفخمة . وممَّا يؤيد هذا التأويل هو انها لا تلفظ عبد الله بالتفخيم والاشباع بل عَبْدِلّي ܥܒܕܠܠܝ بكسر الدال الملطفة او بالاشمام

واقد اطلعتنا كتابات تلّ العمارنة على شدَّة نفوذ بلاد بابل في اقطارنا الشاميَّة . فلا عجب اذن ان وجدنا شيئًا من آثار الديانة البابلية في سوريَّة وقد شاهدنا مثالًا على ذلك في ادخال عبادة الاله سين . وقس عليهِ الاله البابلي نَبو (وفي العربي نبا) فاننا نجد اسمهُ في « قصر نَبا » شمالي زحلة على منحنى لبنان الشرقي (٢ . ولا بدع ان اوردنا كتذكار بابلي اسم «كفر نمرود» في بلاد جبيل وهي خربةٌ وقد ذكرها عدَّة من علماء الافرنج (٣ ونحن لم نشاهد هذا المحلّ كما اننا لم نشاهد « قلعة تدمر » . فلذلك نكتفي بالاشارة اليهما ولا نزيد على اسمَيْهما تأويلًا . على اننا نرى قرى كثيرة ومزارع عديدة تسمَّى باسماء الالهة القديمة فمن هذه القرى بدادون (في الغرب الشمالي) فانها تتركَّب من ب = بيت والصيغة السريانية أُون المزيدة في اواخر الاسماء . امَّا داد فإله قديم لبني سام ونجده في لفظة دده (الكورة الشماليَّة) كما نجد في عفصديق (الكورة الوسطى) اسم الاله صدق (٤ . وفي « مراح كَيْوان » في اقليم التفاح يظهر اسم زُحل احد معبودات الشعوب السامية وقد كان معروفًا عندهم باسم كَيْوان (٥ . قال ابو العلاء المعرّي :

اذا عظَّموا كَيْوانَ عظَّمتُ واحدًا   فكان لهُ كَيوانُ اوَّلَ ساجدِ

١) راجع تأليفنا في آثار حمص *Notes sur l'Emésène*, passim

٢) ومثلها « كفرنبا » في جبل سمعان غربي حلب . وجاء في « ذخائر لبنان » (ص ١٣٥) ان نبا اسم امير عربي . وهو تفسير قصصي

٣) راجع بعثة فينيقية (ص ٢٠٢)

٤) راجع Winckler, *op. cit.* 473, 483

٥) راجع Winckler, *op. cit.* 409

الّا انّ اكثر الالهة شيوعاً عند الكنعانيين والفينيقيين هو البعل فلم يكن ممكناً ان يُغفَل اسمهُ في تسمية الاماكن اللبنانيَّة ولنا دليل في اسم بعلشميه ومثلهُ شَلَبعل في بلاد الشقيف (١ . وكبعل قريباً من الغينة (كسروان) . وكفربعال في وادي فيدار . وسبعل وبسبعل (٢ شمالي قضاء البترون . وعَنبال بدلًا من عين بعل (٣ في الشوف . فهذه الاسماء لا تزال محافظة على اسم زعيم آلهة الفينيقيين

امَّا صاليا فلعلّها الكلمة الكنعانيَّة « צלם » وهذه الكلمة ليس معناها صورة وصنم فقط بل هي اسم احد الالهة الساميَّة المسمَّى صاليم (٤ فيكُون اذن معنى بصاليم (في المتن) بيت صاليم اي بيت الصنم او هيكل الاله صاليم

ومن العبادات التي شاعت كثيرًا في سورية هي عبادة الشمس والى هذه العبادة ينتسب اسم « عين الاسد والشميس » في اقليم الخروب . وما يزيد هذا الاسم اهميَّة هو تضمُّنهُ لاسم اله آخر وهو الاله الاسد الذي اظهرَتْ وجودهُ للعيان كتابةٌ اكتُشفت حديثاً في جبل سمعان (٥ يُقرأُ منها اسم الاله الاسد باليوناني(Λέων) . وفي بعلبك كان الاله جنايوس « Γενναῖος » يُعبد بصورة اسد . وتمثيل الآلهة بصورة اسد كانت عادة شائعة في سوريَّة (٦ . وقد تحدّثنا النفس بان نعزو الى تلك العبادة الاسدية (٧ اسم مدينة الاسد (Λεοντόπολις) ونهر الاسد (Λέοντος ποταμός) وكلاهما على منحدر لبنان الشرقي (٨ بين نهر الليطاني ونهر الكلب لكنَّ مركزهما لم يُعرف تاماً (٩

١) راجع V. Guérin, *Galilée*, II, 530, 541

٢) ولفظها الحالي لا يناقض رأينا في شيء فالعادة جارية في جميع البلدان على الاعلام التي لا يفهم معناها الوضعي بان يحدث تبديل في لفظها اولًا ثمّ في كتابتها

٣) راجع اخبار الاعيان (ص ٣١)

٤) راجع Winckler, 473

٥) راجع Bullet. corresp. hellénique, 1902, p. 182

٦) راجع مجموع الآباء اليونان لمين (Migne, *PP. GG.*, CIII, c. 1292)

٧) راجع مقالة الاب رونزفال بهذا الخصوص : (*Revue Archéol.* 1905, 48 - 53)

٨) وكان اللبنانيون الوثنيُّون ينذرون لآلهتهم تقدمة صور الاسد (Mission de Phénicie, 397)

٩) راجع مقالتنا عن اسماء انهر لبنان القديمة

واماً ما يتعلّق بعبادة الشمس فقابل « بيت شمس » وهو من الاعلام الكثيرة الشيوع في فلسطين (١

ومثلها العبادة للاله رمّان (٢ التي شاعت في طرَفي العالم الساميّ في بلاد اشور كما في بلاد العرب وفي جميع البلدان المتوسطة بينهما . فمن تلك العبادة دُعيت اماكن عديدة باسماء تدخل في تركيبها لفظة رمّان نحو عين الرمّانة وبرمّانا ولعلّها بيت الاله رمّان . ولمّا أُغفل على مدى الزمان اسم هذا الاله حُسبت هذه التسمية نسبةً الى شجر الرمان وليس له وجود في تلك القصبة وقد يتفق ان يكون ذلك في بعض الاماكن بشرط ان لا تكون في مواقع باردة لا يعيش فيها الرمّان . وليس لنا ان نهمل اسم «كفرعميّ » الغريب وقد يمكن ان يكون اسماً الهيًّا لان « عمّ » من صفات الالهة عند بني سام الاقدمين (٣

فهذه هي الآثار المهمّة التي ابقتها العبادات الوثنيّة في اعلام الماكن اللبنانية وهي كلّها عبادات سامية وهذا طبيعيّ في اراضٍ سكّانها ساميّون . واماً ما اختصّ بالعبادات اليونانية والرومانية فيدلّ عليها اسماء بلُوني وطاميش ولعلّهما مشتقّان من اسمي ابولُون وارطاميس او دِيانة (Diane) . لكنّ هذا الاشتقاق لا يتجاوز حدود التخمين وقد يمكنّا ان نقابل بطاميش دير ارطاميس (ܕܝܪܐ ܕܐܪܛܡܝܣ) في حوران وهو مذكور في كتابة سريانيّة من الجيل السادس (٤ . وظنّ البعض انهُ ورد لابلُون ذكرٌ آخر في لبنان وهو اسم مغارة بالقرب من صيدا يدعونها مغارة « ابلُون » وهذا الاسم مصحَّف والصواب «مغارة طبلون» وهو اسم مكانيّ نجهل اصلهُ لكنّنا لا نظنّهُ متعلّقاً بعبادة ابلُون اله الرومان . ولقد اوردنا في الجزء الاوّل (ص ١٤١) اسماً غريباً في بابهِ وهو اسم « وجه الله » الذي كانت تسمّي بهِ اليونان رأسَ الشقعة وكذلك اسم ضيعة « وجه الحجر » القائمة على ذلك الرأس فاسم وجه الحجر من آثار عبادة قديمة والمكان يُدعى باليونانيّة (Θεουπρόσωπον) او (Λιθοπρόσωπον)

---

١) راجع معاجم التوراة و Winckler, 369

٢) راجع كتاب حضرة الاب لاكرانج (Lagrange) في الديانات الساميّة (ص٩٢-٩٣)

٣) Winckler, 480

٤) ZDMG, 1875, 436

وكلاهما ترجمة الاسم العربي فقد كان بين طواغيت العرب صنم اسمهُ حجر وكان للايطوريين مركز على هذا الرأس من اهمّ مراكزهم يقال لهُ جيجارتا فلعلّهم هم الذين ادخلوا تلك العبادة الى لبنان (١

وفي بعض كتابات دير القلعة ذُكر اله يدعى (Ἀρεμθηνος) وقد استلفتت هذه الكتابة انظـار المستشرقين ايّ استلفات فتساءلوا عما عساهُ ان يكون ذلك الاله المجهول الى هذا الحين واين هيكلهُ . فاذا حذفنـا آخر الكلمة « ηνος » الدالّة في اللغة اليونانية على النسبة بقي « Ἀρεμθ » وبهذه الطريقـة نحصل على اسم المحلّ المنسوب اليهِ هذا الاله . وقد بحثنا عن حقيقة هذا العلم فعنّ على فكرنا بادئ بدء اسم رمطون التي ورد ذكرها مراراً في تاريخ بيروت (٢ لصالح بن يحيي وهي قرية من كفرمتّى بينها وبين نهر الدامور . فرمطون هي اليوم خربة ولا ريب انها كانت قديماً ذات بال وشأن كما يستدلّ من نسبة الرمطوني الذي عُرف بهِ كثيرون من امراء الغرب فهذا الاسم يشابه الاسم اليوناني ولا فرق بينهما سوى ان ال التعريف داخلة على الاسم اليوناني بخلاف العلم العربي الخالي منهُ

الّا ان في الاسماء اللبنانيّة المكانيّة اسماً آخر يوافق كلّ الموافقة لحلّ هـذا المشكل وهو اسم القرية عَرَمْتى او عرمتى في ناحية جبل الريحان (٣ وبمقربة منها مزار ابي ركاب الذي تبالغ في اكرامهِ متاولة الناحية ومـا هو الّا الاله المعبود قديماً في عرمتى والاله (Ἀρεμθηνος) المذكور في كتابة دير القلعة

فممّا مرّ بك من التفاصيل يتبيّن عظم قدر العبادات الوثنيّة في لبنان والمصاعب الكثيرة التي ناصبتها النصرانيّة حتى توصّلت الى نصر الحقّ على البـاطل وبها تدرك معنى كثرة الابنية الوثنيّة في لبنان . فدرس الاعلام المكانيّة يطلعنـا على انّ العبادات الوثنيّة كانت مع الابنية المختصّة بها اوفر عدداً في قديم الزمن وانهُ لم يبقَ من اثرها الّا اسماء بعض المواضع فاذا ما حصلنا على لوائح وصفيّـة وافية بالمطلوب امكننا ان نضيف زيادات كثيرة على ما قدّمنا

١) اطلب بعثة فينيقية لرينان (Mission, 402)

٢) راجع مثلًا الصفحات ٧٦ و ٨١ و ١٢٢ و ١٢٧ و ١٢٩ و ١٨٠ و ١٨٥

٣) ويوجد موضع آخر يدعى عَرَمْتى في جبل النصيريّة

*

واعلم انَّ فائدة درس اعلام الاماكن لا تنحصر في معرفة عبادات المشركين فقط فانَّ الجغرافية والتاريخ يجنيان منهُ اعظم جدوى . فمثال ذلك « خربة صَيدون » في قائمقامية جزين تُحيي وتحفظ ذكر صيدون وهي صيدا وتدلّ على انَّ نفوذ ام المدن الفينيقيَّة امتدَّ الى داخل الجبل

وقد نبَّه بعضهم الى أنَّ فُرَيديس وهي كلمة فارسيَّة شائعة الاستعمال في سوريَّة تدلّ عموماً على حظائر صيد قديمة لملوك الفرس (١ وهي عادةً مواضع تكثر فيها المياه ومن ثمَّ الغابات والطرائد شيئان يستلزم احدهما الآخر . وما من موضع احقّ بهذا الاسم من فريديس الباروك فهناك سهل بهيج تسقيهِ ينابيع الباروك الغزيرة يشبه في تنظيمهِ وترصيفهِ حظيرة صيد كبيرة وعلى اكنافهِ ارز الباروك (٢ هو بقيَّة من الغابات القديمة التي كانت تختلف اليها حيوانات متنوعة

وفي بطرَّان من قضاء الكورة آثار عديدة من قبور واحواض كبيرة كلها منحوتة بالصخر قد وجدنا بينها اخربة تدعى اشمونيت نرجّح كونها انقاض هيكل اشمون الاله الفينيقي (٣ الذي ينطبق على الاله اسكولاب اله الطبّ عند اليونان . وكانَّ النصارى القدماء ارادوا تقديس ذلك المكان فاقاموا هناك معبداً باسم القديسة اشموني اضحى اليوم خراباً والاهل يكرّمونهُ وقد اعتادت النساء اللواتي يشعرنَ بألم في الصدر ان يمسحنَ موضع الوجع بماء مصبوب على حجر من حجارة المعبد القديم . واشموني عند الشرقيين امُّ السبعة الفتية الشهداء المذكورين في سفر المكابيين لكنَّ الكتاب المقدَّس لا يذكر لها اسماً ولعلّ الشرقيين اشتقُّوا اسمها اشموني من العبرانية שמונה اي الثامنة لانها قُتلت بعد اولادها السبعة

*

قد ابنَّا غير مرَّة أنَّ لبنان يمتاز بنباتهِ الزاخر وغاباتهِ الملتفَّة . امَّا اليوم فمن يسرّح الطرف في ذرى هذا الجبل ويراهُ اجرد في اكثر اماكنهِ قليل الاحراج والاشجار نسب

١) راجع الجزء الاول (ص ١٣٤)

٢) اطلب المشرق (١ : ٢٧٧)

٣) راجع المجلَّة الاسيويَّة الالمانيَّة (ZDMG, 1905, 459 etc.)

الينا التحمّس والمبالغة وارتاب بصدق ما روينا من الادلّة القديمة . غير أنّ تسمية الاماكن تشهد بكثرة الاشجار والنبات في لبنان قديماً . ومن ذلك المساكن المسمّاة « غابة » او « غابات » والتي يدخل في تركيبها اسم شجرة كالاعلام الآتي ذكرها : « سنديانة وبلّوط وصفصافة وجوز وحور ودلبة ودلبتا وزَعْرور ورمّانة وخرّوب ولوز ولويزة وبُطم ومشمش وزيتون » مع اشتقاق هذه الاسماء وفروقها وتصغيرها واضافتها الخ . فاسم نهر الدامور او كما يدعوهُ اليونان تاميراس يتضمّن اسم النخل الذي يقال لهُ بالفينيقية تامير (تمر) ويدلّ على قدم هذا الشجر في لبنان (١ . وبعض هذه الاشجار كانت بالغة في الكثرة حتى تسمَّت بها المقاطعات والاقاليم على نحو : « جبل الريحان واقليم التفاح واقليم الخروب » كما بيّنّا ذلك فيما سبق من مقالاتنا عن الزراعة والاحراج في لبنان

وممّا يقضي بالعجب هو اننا لا نرى في جملة النباتات الداخلة في الاعلام اللبنانيّة اسم الارز سيّد الاشجار في لبنان . فعلّة ذلك أنّ الاهلين بادروا في اوّل امرهم الى قطع غابات الارز واستثمار اخشابهِ باثمان غالية حتى تجاوزوا في عملهم كلّ حدود التروّي والفطنة كما سبق لنا ايضاحهُ (٢ فالارباح الفاحشة هي التي عرّضت اشجار الارز الى العيث بها وخرابها حتى لم يبقَ منها الّا القليل وهذا القليل لم يسلم من تعدّي الانسان الّا بفضل القمم المنيعة التي نبت عليها مع انّ الارز يُؤثر المواضع العالية المعتدلة الهواء فلا يكاد ينبت في موضع ينقص ارتفاعهُ عن ثمانمائة او سبعمائة متر والمراكز المأهولة نجد اكثرها قائماً في الوسوط . على انّ الشرائع الرومانيّة (٣ المختصة بالاحراج كانت تلاشت او كادت حينما شرع العمران يتأصّل حقيقةً في لبنان اي في عهد وصول الموارنة اليهِ وقد كان اقتلاع الاشجار بلغ مبلغاً عظيماً حتى لم تبقَ احراج تستحقّ الاعتبار الّا في الصرود العالية . فمجرّد وجود هذه الشرائع والكتابات

---

١) راجع غراماطيق اللغة الفينيقيّة العلامة شرودر قنصل عام الدولة الالمانية سابقاً في بيروت (P. Schrœder : *Phœniz. Sprache*, 135) وكتاب جوره Ch. Joret : *Les Plantes dans l'antiquité*, 369 ; ثم (Clermont-Ganneau : *Rec. arch. orient.*, v, 328)

٢) راجع الجزء الاول (ص ١٣٩)

٣) راجع الجزء الاول (٢٢–٢٣)

العديدة المنصوصة فيها وهي تُربي على المائة لمّا يوضح لنا جليًّا الحاجة الماسّة الى تلك الوسائل لوقاية الاشجار وبما انّ هذه الكتابات ليس لها وجود الّا في لبنان فيسوغ لنا ان نستنتج أنّ غايتها انما كانت حماية ارز ذلك الجبل

ومهما كان من الامر فكثرة المواضع اللبنانيّة التي تُسمّى باسماء الاشجار او بما يُرجَع اليها من الحِرَف والمهن كمعصرة ومعاصر دليلٌ على انّ لبنان كان ارضًا سادت فيها الزراعة بخلاف سواها من الصنائع كشغل المعادن مثلًا . فالاسماء العلميَّة لها اهميَّة كبرى من هذا القبيل فانها تؤيد نتائج بحثنا السابق . فاننا لا نكاد نصادف في جميع لبنان اسماً يلمّحُ الى تلك الصنائع الّا اسم « معادن » في ناحية المنيطرة و « الفرزل » على السفح الشرقي وهي لفظة سريانيّة معناها مسبك او معمل حديد

وهذه الملاحظة نفسها تتناول الينابيع المعدنية او الحارّة فكثيرًا ما نجد في اسماء الاماكن لفظة عين . امّا اسم حمام او ما هو بمعناها فلا وجود لهُ البتة . ويؤيد ذلك علم طبقات الارض فانهُ يبيّن لنا ان الطبيعة لم تجُدْ على لبنان بوفرة المعادن كما ضنّت عليهِ بالينابيع المعدنيّة والمياه الحمّة اذ ليس فيهِ صخور بركانيّة

واما ما يدلُّ على وجود الحيوان من اسماء المواضع اللبنانيّة فليس بالواضح الصريح فلعلّ اسمَي « مدينة الاسد » و « نهر الاسد » المارّ ذكرهما يشيران عند جغرافيي اليونان الى وجود الاسد قديماً . واليوم لا نعرف من الاعلام الحاضرة المشتقّة من اسم الحيوان الّا اسم بنمرة اي بيت نمرة وكفرنيس . اما سنّ الفيل قريباً من بيروت وخرطوم في بلاد الشقيف فلا يكفيان للدلالة على ان الفيل وُجد قديماً في لبنان لو لم تكن عندنا غير ذلك من الادلّة التي اوردناها في ابحاثنا السابقة (١

٣

ولعلهُ يخطر على بال كثيرين من القرّاء اننا اسهبنا في هذا الموضوع . ويقول قائل : ما الفائدة من جميع هذه الافتراضات الوهميّة ومن هذا التشريح اللغوي وما المنفعة من هذا الدرس بالمكرسكوب والتنقيب عن البقايا المتحجرة في بطن اللغة

١) راجع مقالتنا المعنونة : « ما فُقد لبنان من قديم الحيوان »

والتاريخ التي لا سبيل الى احيائها ؟ فلقد اجبنا على هذا الاعتراض في افتتاح مقالتنا وفي سياق كلامنا ونجيب عليه الان لآخر مرّة

انّ كل من تروّى في مطالعة المقالات التي ادرجناها منذ ظهور المشرق عن احوال لبنان القديمة وتاريخهِ وجغرافيتهِ لا بُدّ لهُ من ان يكون لاحظ ما لاحظناهُ نحن انفسنا وهو اننا نعرف ماضي لبنان بئس المعرفة اذا لم نعتمد إلّا على الشهادات والادلّة الكتابيّة التي تومئ اليهِ لاسيَّما اذا كان مدار الكلام على ما تقادم عهدهُ . فبالحقيقة ان هذه الشهادات جميعها من كتابات مرسومة على الحجارة وادلّة في كتب المؤرخين والجغرافيين وآيات من مؤلّفيّ الكتب المقدسة او غيرهم من الكتبة بلغات الشرق والغرب لا تتناول الّا بعض صفحات

لكن ما قولنا عن بقايا الابنية القديمة المتفرّقة على سطح الجبل ؟ فانها عجماء بكماء لا تنطق ببنت شفة ومن النادر ان نجد بين انقاضها جزءًا من كتابة او عبارة ضائعة في كتاب تفصح عن تاريخ بنائها واسمها والغرض منها . ومن طالع الجزء الاول من « تسريح الابصار » عرف ذلك حق المعرفة

فماذا ندري وماذا نعلم عن مساكن لبنان القديمة ؟ لعمري انّ ذلك يكاد ان لا يكون شيئاً . فلو استثنينا مدن الساحل فاننا لا نجد ذكرًا لموضعٍ مأهولٍ في لبنان قبل التاريخ المسيحي . ومن بعد التاريخ المسيحي لا نصادف كتاباً يصف اماكن لبنان قبل القرنين الحادي عشر والثاني عشر . فجلّ قصدنا كان اذن ان نعوّض بعض التعويض عن سكوت التاريخ ونسدّ بملاحظاتنا المتقدّمة ذلك الخلل فاذا لم نتوفّق الى سدّهِ جميعه فلا اقلّ من ان نسدّ بعضهُ وما لا يُعلَم كلّهُ لا يُترك جلّهُ فان العلم بالبعض خير من الجهل بالكثرة

فكم من موضع في الجبل ليس لهُ ذكر في كتاب وليس فيه شيء من العاديات حتى ولا لحدٌ منقور في صخر يدلّ على مرور الانسان فيهِ . فهذا مما يحضّنا على ان نلتمس من اشتقاق اسمهِ أثرًا لماضيهِ وان نستمدّ من دراسة اصول اللغات الفوائد التي ضنّ علينا بها التاريخ والنصوص المكتوبة . فان كان العَلَم يونانيًّا او لاتينيًّا فيسوغ لنا ان نستدلّ من ذلك على ان الموضع الذي يُدعى بهذا الاسم يتّصل تاريخهُ لعهد شيوع هاتين اللغتين في سوريّة وان كان الاسم يدلّ على عبادة وثنيّة فنرجح أنهُ

منذ عهد انتشار تلك العبادات في الجبل اعني في الاربعة الاجيال الاولى للمسيح او قبل ذلك لاسيّما ان كانت تلك الاسماء ترجع الى عبادة فينيقيّة او آراميّة او اشوريّة ·
فتلك نتيجة ابحاثنا وهي على ما نظنّ من الاهميّة بمكان اذ تمهّد طريقاً لمعرفة تاريخ نشأة المساكن وهي في بيان الحقيقة بمثابة لا تقلّ كثيراً عن الادلّة الكتابيّة

اما اولئك الذين لا يعوّلون الّا على الآثار المكتوبة فيبقى عليهم ان يستنتجوا انهُ لم يكن في داخل الجبـل من مراكز مأهولة قبل التاريخ المسيحي الّا ما ندر لانّ التواريخ لا تذكر قبل الجيل العاشر الّا ثلاثة اسماء مسمّاة صريحاً باسمائها اوردها اسطرابون (١ وهي جيجارتا وبورُوما وصِنان

فلا ننكر ان العمران لم يبدأ حقيقة في لبنان قبل عهد الرومانيين غير انهُ من المعلوم ايضاً انهُ كان في لبنان اكثر من ثلاث قرى قبـل التاريخ المسيحي فمن اراد الوقوف على الحقيقة فليطالع ما كتبناه في مقالاتنا عن كيفيّة استعمار لبنان وعن سكّانهِ الاقدمين الّا اننا في عرض هذه الابحاث لم نتوصّل حينئذٍ الّا الى نتـائج بعيدة وادلّة غير وافية بالمرام · امّا الدليل الصريح على انّ لبنان لم يكن خالياً من السكّان في قديم الزمان كما يوهمهُ سكوت التاريخ والكتابات فاننـا نجدهُ خاصّةً في اعلام المواضع التي لخصناها وبيّنّا انّ بعضها فينيقيّة وبالتالي متقدّمة على التاريخ المسيحي بزمن طويل

على انّ هذه النتائج وغيرها من الدلائل التي لا حاجة الى العود اليها تحتجّ عنّا ان كان من حاجة وتعذرنا فيما اذا كنّا توقفنا طويلاً واسهبنا كثيراً في مثل هذا الموضوع الذي مع غُمّتهِ لهُ فضل الحداثة والابتكار فيما يختصّ بلبنان على الاقلّ وغاية ما نتمنّاه ان يستنهض بحثنا هذا الضعيف الهمم العالية لابحاثٍ حديثـة فنهنئ اذ ذاك نفسنا لاننا باسطارنا السابقة مهّدنا السبيل الى ذلك وفتحنـا باباً يطرقهُ بعدنا من هو اقدر منّا

---

١) كما مرّ بك في كلامنا عن الايطوريين

خاتمة الكتاب

فهنا وعند هذه الامنية نقف بعد استئذان القرّاء الافاضل الذين بكل لطف ومجاملة رافقونا في سياحاتنا الطويلة في ماضي لبنان. على اننا لا ندّعي اننا في مقالاتنا المتقدّمة وفينا بالطلوب او استنفدنا المادة واستفرغنا الموضوع فاننا نغادر لبنان ونحن نعلم ان مسائل كثيرة فاتتنا دون ان نتعرّض لها ومشاكل شتّى تركناها او لم نحلّها حلًّا مرضياً

وعسى ان يأتي بعدنا من هو اسعد منّا فيتخذها ويحكم فيها حكماً نهائيًّا او يوضحها احسن ممّا اوضحنا — ونحن نتمنّى في الختام ان ما بذلناه من الجدّ والكد يرفع طرفًا من النقاب الذي يحجب عنّا ماضي لبنان ويحثّ ذوي الفضل واهل العلم على ان يحذوا حذونا ويكملوا ما بدأنا بهِ فيُظهروا للعيان فضل هذا الجبل الشهير الذي اذاعت مديحهُ الكتب المقدّسة وهو لا يزال من ابدع محاسن واجمل مشاهد سوريّة الحالية .

فهرس

تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار

الجزء الثاني

صفحة

فهرس الاعلام والموادّ

التي وردت في جزئي كتاب تسريح الابصار على ترتيب حروف المعجم . فالحروف الرفيعة تدلُّ على صفحات الجزء الاوّل ما لم يتقدَّمها عدد ٢ الاسود الدالّ على الجزء الثاني مع ما يتبعهُ من الاعداد الرفيعة

※ ن ※

※ ه ※

※ و ※







